

بريتولد بريخت
ترجمة: شفيق معمار
رواية

البنسات الثلاثة



www.library4arab.com

روايات الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال

العدد ٢٦٧ - مارس ١٩٧١ - محرم ١٣٩١

No. 267 — March 1971

رئيس مجلس الإدارة: أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير: رجاء النضال

www.library4arab.com

بيانات ادارية

ثمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم - عن الكميات المرسله بالطائرة - في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشاً ، في الاردن والعراق ١٣٠ فلساً
قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عدداً » في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقيى ١٠٠ قرش صاغ - فى سبائتر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٤٠ شلناً والقيمة تسدد مقدماً لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحواله بريديه ٠ فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج.ع.م » - والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ عشرة « خطوط »



www.library4arab.com

روايات الهدى

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

www.library4arab.com

رواية

البشر

الزمن

www.library4arab.com

الجزء الأول

بقلم

برتولد بريخت

ترجمة

شفيق مهتار

دار الهلال

www.library4arab.com

العالم فقير

وابن آدم خبيث وشرير

فى عام ١٧٢٨ ، وانجلترا تتمطى باسترخاء تحت حكم الملكة آن ، طلع على المجتمع الانجليزى المترف شاعر فقير سليلط اللسان اسمه جون جاى (John Gay) ، بمسرحية غنائية أطلق عليها اسم « أوبرا الشحاذ » (The Beggar's Opera) فتن بها جمهور المسارح فى لندن لما وجده فيها من غمزات سياسية ، فأقبل عليها ، وصفق لها طويلا . وتدور أوبرا جاى فى العالم السفلى ، عالم الجريمة ، حول وغدين وفتاة ، أو بالأحرى ، عدد من الفتيات . فقاطع الطريق المزواج « ماكهيث » يوقع البنت « بولى » فى غرامه ، ويتزوجها سرا ، بغير علم أبيها الافاق « بيتشام » . ولما كان الرجلان من « الشخصيات المرموقة » فى العالم السفلى ، ويعرف كل منهما عن الآخر ما يكفى لشنقه عدة مرات ، فان « بيتشام » يشى بزواج ابنته الى الشرطة لينتقم منه ، لكن هذا الاخير يهرب ، ثم يقع فى أيدي مطارديه نتيجة لغدر صاحبه البغى « جينى » وزميلاتها فى البيت السيبى السمعة الذى يتردد عليه . وفى السجن يجد زوجة وفيه من حريمه تساعده على الهرب ، ليقبض عليه من جديد على يد امرأة أخرى من ذلك الحريم ، فسحاكم ، ويؤخذ لعدم ، لولا أن المسرحية تنتهى نهاية سعيدة ،

www.library4arab.com

وقد كتب جاى مسرحيته المرححة هذه كاسمه (فلو ترجمنا ذلك الاسم لأصبح « حنا المرح ») ، ليفثا فيها غيظ الطبقة المطحونة التى كان ينتمى اليها من أرسـتقراطية كانت تدير المجتمع كما تفعل العصابات فى العالم السفلى . وكتبها أيضا ليفنى ويضحك ، ويجعل أهل لندن يضحكون ويغنون معه ، فجاءت مسرحيته خفيفة الدم حقا ،

ولاذعة ، وأرست قواعد تقليد مسرحى مازال الى يومنا هذا يفتر الجماهير : تقليد المحاكاة التهكمية ، أو « النأورة » على المجتمع ومن يديرونه ، بالنكتة ، والاغنية ، والتلميح ، والموقف الهزلى ، والتعرية . ويبدو أن الغيظ الذى كان يعتمل فى نفس جون جاي لم يجد متنفسا كافيا فى أوبرا الشحاذين هذه ، لانه مالبث أن أتبعها بملحق لها أطلق عليه اسم « بولى » منعت الرقابة اللندنية عرضه بغير امهال .

وكما فتن جمهور لندن ، انسحر برتولت برخت بمسرحية جون جاي وتسلطت عليه شخصها الظريفة الافاقة التى تفتق عنها خيال الشاعر الانجليزى ، قبل قرنين ، على سبيل الزراية والتهكم على الارستقراطية الانجليزية الفاسدة فى العصر المتخم الذى عاش فيه . فأخذ برخت فكرة المسرحية (تشبيه المجتمع بغابة العائى السفلى) ، واستعار شخصها ، ليستخدمها فى تعرية المجتمع المبرحوازى الحديث الذى لم يدع - فى ظل مبدأ « البقاء للأقوى » - لغابة العالم السفلى سيئا .

www.library4arab.com

وليست هذه المرة الاولى التى يقرأ فيها برخت عملا لغيره ، فيعجبه ، ويزاه مكتوبا برؤيا جديدة تملحها اهتماماته ومواقفه فيستعيره من صاحبه ، ويعيد كتابته . فقد استعار « ادوارد الثانى » من مارلو ، وأخذ « الام » من جوركى فأعاد كتابتها كمسرحية ، كما أخذ عن سينج فى « بنادق السنيورا كارارا » . لكن تلك حكاية أخرى . المهم أن برخت - وهو صانع ماهر بحق - أحسن دائما استخدام تلك المادة المستعارة فى التعبير عن رؤيا جديدة .

وفى أوبرا الشحاذين يبدو أن تلك الرؤيا أرقته كثيرا ، لانه كتبها فى مسرحية أطلق عليها اسم « أوبرا البنسات الثلاثة » ، ثم عاد فكتبها فى رواية ، كما كتبها فى سيناريو فيلم سينمائى .

والفكرة الاساسية التى يعالجها برخت فى تنويعاته الثلاثة على لحن جون جاي يمكن أن نجعلها فى فكرة نجدها مترددة فى كثرة من أعماله : فقر العالم ، وشر البشر ، فى مجتمع يقنات فيه القوى على فقر الضعيف . وبقدر ما يستسلم الفقراء يستأسد الاقوياء ويفترسون ، ويتناحرون فيما بينهم كالغربان على الاسلاب والغنائم ، لكن - بينما يشتت الفقراء فقرهم - يجمع الاغنياء الاقوياء غناهم وتلم شملهم قوتهم ، فيجتمعون فى مأدبة واحدة ، يشربون ، ويمرحون ، ويمتلثون ، من

فقر الفقراء ، بالمال أكثر . وتهكم برخت هنا ، بكل ما فيه من مرارة ونقمة ، ليس موجها الى هذه الفئة دون الاخرى ، لانه مغتاز من الضحية أيضا ، بقدر ما هو مغتاز من جلادها ، على النحو الذي يفصح لنا عنه مشهد المحاكمة الذي يحلم به العسكري فيوكومبى الاعرج ، فى خاتمة الرواية ، قبيل بيعه وتسليمه .

عندما كتب برخت « أوبرا البنسات الثلاثة » أزعجه نجاحها . . على مسارح لندن ، ونيويورك ، وباريس . مثلما أزعجه نجاح « الام شجاعة » ، فيما بعد ، على مسارح سويسرا . وكما أعاد كتابة مشاهد بأكملها من « الام شجاعة » كتب « أوبرا البنسات الثلاثة » من جديد ، ولكن على شكل رواية ، لا مسرحية .

وربما قارب الناقد « ارنست شوماخر » الحقيقة كثيرا عندما كتب يقول عن « أوبرا البنسات الثلاثة » أنها عمل « فيه مجال كبير لسوء الفهم » ، لا يستطيع المرء أن يتبين فى أبطاله ما يجعله متيقنا من أن برخت وضعهم على المسرح كأنماط بوزجوازية تعرى وتدين أصولها الحية ، وأن برخت فى هذه الاوبرا « يلقننا بضغ حقائق مجردة ، بلسان تجريدى فصيح » ، أى ، باختصار ، أنه ليس واقعيًا ، وليس واضحا لا يحتمل التأويل .

وتلك من المشكلات التى عانى منها برخت طويلا : اتهامه حينما بالتجريدية ، وأحيانا بالشكلية ، وفى معظم الاحيان « بالاسلية » Stylyzation والغنائية .

كتب برخت الرواية (١٩٣٤) اذن ليصحح أخطاءه فى الاوبرا . لذلك نجده فى الرواية محددا وملموسا أكثر ، بعيدا عن التجريد ، وواقعيًا ، بعيدا عن الغنائية ، وأشد حرصا على البعد الايديولوجى لعمله . فالعسكري الاعرج ، الذى يلعب فى الرواية دورا بالغ الاهمية - اذ يجسد الضحايا الفقراء الذين ظلوا فى الاوبرا مختفين فى الكواليس - يسرق الاضواء من بيتشام وماكهيت ، ويجعل صراعهما خلفيته لمأساته ، بينما كان ذلك الصراع بين الوحوش الكبيرة هو الذى ملأ المشهد المسرحى كله فى « أوبرا البنسات الثلاثة » .

وفى الوقت ذاته عدل برخت عن موقفه المثير لشبهة الترفيه فى الاوبرا ، وعوضه بدور تعليمى فى الرواية . فهو - بلمسة فنية رائعة بحق - يفصح عن عقدة الذنب لدى المثقفين فى العصر عامة بحكاية مجلد دائرة المعارف البريطانية الممزق الذى وجده العسكري الاعرج فيوكومبى ملقى فى مرحاض بيت بيتشام فأخذه وأصبح أثمن شيء

في حياته . وكانما على سبيل التكفير عن ذلك الذنب ، يضع برخت معارفه - التي حرم منها فيوكومبي والملايين من أمثال فيوكومبي - في خدمة من حرموا منها ، فيكتب رواية ممتعة بحق عن دنيا المال والاعمال ، يكشف فيها بالحدث والحوار ، والمونولوج الداخلي أحيانا ، عن ميكانزمات تلك الدنيا الخفية التي يحس من لا يعرفونها ، وطأتها دون أن يخطر وجودها لهم ببال . فيكشف عن كهنوت الآلهة الكبار الذين يتصرفون في أقدار « العبيد الصغار » ، ويبيعون ويشترون لحم البشر ، وأحيانا يأكلونه ، دون أن يخلعوا قفازاتهم .



لرواية البنسات الثلاثة قيمة أخرى ، فهي - فوق كونها رواية برخت اليتيمة - نموذج حي ونادر للرواية الملحمية ، بما فيها من أساليب الابعاد التي يلجأ إليها الكاتب ، بالتدخل ، والتعليق ، والتهكم ، والتفلسف أحيانا ، لقطع السياق ، حتى يذكر القارئ باستمرار أنه يقرأ رواية من محض الخيال ، فلا تستوعبه تلك الرواية ، وتوقعه في اسار الوهم الروائي الذي يجعله يتوحد بشخصيتها ويسبغ هويته على تلك الشخص .

والواضح أن الرواية تختلف عن كل ما ألفنا قراءته من روايات . حقيقة أن فيها معمارا روائيا رائعا ، وصنعة بارعة لا تجحد واهتماما يقرب من الدقة الحسابية بالاحداث التي ينسج منها الكاتب نسيجاً محكما شديد التماسك ، الا أن برخت - عملا على تبديد الوهم الروائي - لا يكف عن اعلامنا سلفا بما سوف يحدث بعد ، متخلياً بذلك عن أهم سلاح في جعبة الروائي : مفاجأة القارئ بانكشافاته . لكن برخت لم يكتب رواية البنسات الثلاثة ليقدّم لنا رواية تقليدية متقنة الصنع ، بل كتبها - أساسا - ليصحح خطأ بدا له أنه تورط فيه عندما وقف على مشارف الترفيه والامتع فحسب في أوبرا البنسات الثلاثة ، وعندما غمض في تلك الاوبرا موقفه الفكري والأخلاقي من المشكلة الاجتماعية - التي أخذ العمل من جون جاي ليعالجها في كتابة جديدة له - ، الى الحد الذي جعل جماهير العواصم البورجوازية الكبرى تهلل للعمل بدلا من أن تكتشف حقيقتها فيه فتصدم به . وكتب الرواية أيضا ، فيما يبدو لنا ، ليجرب كيف يمكن أن تكتب الرواية الملحمية . واعتقادنا أنه - على كلا المستويين - حقق ما أراد فأعطانا عملا روائيا فريدا .

شفيق مقار

حكاية العسكري الذي لم يمت

في حرب البوير

« واخذ عطاياهم ، لانه كان محتاجا
ثم تكلم (لانه لم يكن مجردا من روح الدعابة) :
فقال لهم : فيم تفضلون على بماوى ؟
ولم تعطوننى خبزا ؟
وكيف بالله سادفع ثمن كل هذا ؟ »

(من « سقوط اللورد ايجن »
أغنية شعبية ايرلندية قديمة .)

أصيب عسكري من المشتركين في حرب البوير ، اسمه جورج
فيوكومبي ، برصاصة في ساقه ، مما أدى الى بتر النصف الاسفل من
تلك الساق في مستشفى بمدينة كيبتاون . وعندما عاد الى لندن ،
تسلم مبلغ خمسة وسبعين جنيها استرلينيا ، وقع مقابلها على ورقة
تعهد فيها بعدم مطالبة الدولة بأى شيء بعد ذلك ، ثم وظف النقود
في مشرب جعة صغير في نيوجيت بعد ان أطلعها المالك السابق على
الدفاتر (وهي كراسات صغيرة ، مبقعة بالجعة ، مكتوبة بالقلم
الرصاص) فأثبتت له أن المشرب يدر ربحا لا يستهان به ، لا يقل عن
جنيهين في الاسبوع .

غير أنه سرعان ما تبين - بعد أن انتقل للإقامة في الغرفة الخلفية
الصغيرة ، وانخرط في بيع الجعة ، أسبوعا وراء أسبوع ، بمساعدة
امرأة عجوز - أن الامر لم يكن يساوى فقد ساقه ، لان الايراد - لاالربح
- ظل دون الجنيهين بكثير ، رغم ما التزمه من أدب ولطف معشر ،
ذلك العسكري ، تجاه زبائنه . ثم اكتشف حقيقة الامر ، فتبين ان
الايراد السابق كان مرجعه تكاثر عمال البناء في ذلك الحي ودحا من
الزمن ، وترددهم على المشرب ، فلما انتهت أعمال البناء ، تناقص
الزبائن ، وحل الكساد . وقد اخذ عليه الناس ما اظهره من غفلة ،
لانه لو كان قد استخدم عقله ، فيما قالوه له ، لقطن الى ان حركة
البيع - فيما تبينه الدفاتر - كانت تنشط في أيام الاسبوع ، وتكسب
في أيام العطلات ، على العكس من مالوف الحال في مثل تلك الحانات -
وهو ما يعرفه تمام المعرفة كل صاحب حان خبير بعمله . لكن العسكري

كان له عذرم فقد طيّل - حتى شراء ذلك المشرب - زبوننا في تلك
الاماكن ، لاصحاب عمل . ولقد استطاع رغم كل شيء أن يبقى على
مشربه أمدا لم يتجاوز أربعة أشهر . ولعله كان مستطيعا أن يطيل
في أجله أكثر مما فعل لو لم يضيع معظم وقته في البحث عن المالك
السابق ليسوى حسابه معه . وهكذا فانه - في نهاية تلك الأشهر
الأربعة - وجد نفسه مفلسيا ، شريدا ، بغير مأوى .

وقد وجد المأوى في كنف امرأة كانت زوجا لعسكري آخر ما زال
يحارب ، فبات يتقرب الى أولادها بما يرويه لهم من قصص الحرب ،
بينما تنصرف هي الى العمل في دكانها الصغير . لكن المرأة مالبت
أن تلتفت خطابا من زوجها يخبرها فيه بقرب عودته الى الوطن في
أجازة ، فطلبت من صاحبها العسكري - الذي كانت قد دأبت على
النوم معه ، كما يحدث عادة في مثل هذه البيوت الصغيرة - أن يسرع
بمبارحة المنزل قبل أن يعود زوجها ، فظل في ضيافتها بضعة أيام ،
ثم ذهب الى حال سبيله . وبعد عودة الزوج زارها خلصة ، مرة أو
مرتين ، فأعطته شيئا يأكله ، لكنه لم يفز منها بغير ذلك ، بطبيعة
الحال . وقد ساءت بعد ذلك أحواله ، فتدهور من سييء الى أسوأ ،
حتى انضم في آخر أمره الى طابور المعوزين الذين يسوقهم الجوع
ليل نهار في شوارع أعظم مدينة في العالم أجمع .

ساقته قدماه ذات صباح الى حيث توقف فوق أحد الكبارى التي
تعبر نهر التيمز . لم يكن قد ذاق طعاما منذ يومين ، وكل رواد
الحانات ممن استدر عطفهم ببزته الرسمية أحسنوا اليه - لسبب
أو لآخر - بشراب ، فلم يعطوه طعاما . ولولا تلك البزة لما أعطوه
شيئا ، شرابا كان أم طعاما . وهو ماجعله يرتديها .

لكنه الآن في ثيابه العادية الأخرى التي كان يرتديها وهو صاحب
حانة . وقد لبسها الآن لانه كان ينوي أن يتسول . أن يصبح
شحاذا . وقد أخجله ذلك من نفسه كثيرا . لم يخجل لكونه قد
أصيب برصاصة في ساقه . ولم يخجل عندما نصب عليه الرجل
صاحب الحانة فباعه دكانة لانفع فيها وسرق نقوده ، لكنه خجل لان
الحاجة أرغمته على الوقوف في الشوارع ليشحذ ، ليطلب نقودا من
اناس غرباء عنه تماما لا يعرفهم . فلم يكن هناك ، في تصوره ، من
هو مدين له بشيء .

لهذا كانت الشحاذة صعبة بالنسبة اليه ، ولم يتعلمها بسهولة .
فهى حرفة من لم يتعلموا شيئا ، والمصيبة أنه اكتشف أن حرفة

من لا حرفة لهم هذه تتطلب تعليماً . اقترب من شخص وراء آخر فتحدث إليه ، طالباً نقوداً ، ولكن بغير مسكنة ، بتعبير لا ذلة فيه على وجهه ، مراعيًا ألا يقطع على الناس طريقهم ، حتى لا يحس أحد أنه يضايقه . فوق أنه اختار لشحاذته جملاً طويلة لم يكن يتمها إلا بعد أن يكون المخاطب قد مضى وخلفه وراءه يخاطب الهواء . كما أنه لم يمد يده بحركة السؤال المعهودة . وهكذا فإنه بعد أن أذل نفسه للمرة الخامسة وجد نفسه ولا أحد يعيره التفاتاً أو يدرك أنه يشحذ . لكن أحداً فطن إليه ، رغم فشله . فقد بوغت بصوت مبجوح يقول له من خلاف :

— غور من هنا يا بني آدم !

ولفرط احساسه بالذنب لم يلتفت وراءه لينظر إلى صاحب الصوت ، فانصاع وغار ، وقد طأطأ رأسه ، ولم ينظر وراءه إلا بعد أن سار قرابة المائة ياردة ، فاذا باثنين من سفلة الشحاذين في ثياب مهلهلة واقفين جنباً إلى جنب ينظران في أعقابيه ، ثم لم يكذ يستأنف سيره إلا عرج حتى سارا وراءه ، فلم يفقدتهما إلا بعد أن عبر عدة شوارع . نظر فلم يجدهما في أعقابيه .

وفي اليوم التالي ، بينما هو يتسكع على مقربة من الميناء ، يباغت أناساً متفرقين من الطبقات الدنيا ، ويشير دهشتهم بمحاولته التحدث إليهم ، فاجأته ضربة في ظهره . وفي اللحظة عينها دفع الشخص الذي هاجمه شيئاً في جيبه . وعندما استدار لم ير أحداً ، لكنه أخرج من جيبه قطعة من بطاقة زيارة مثنية ، مكرمشة ، شديدة القذارة ، وقد طبع عليها اسم إحدى الشركات وعنوانها : « ج. ج. بيتشام . ٧ شارع أولد أوك » . وقد كتب تحت ذلك ، بقلم كوبيًا ، وحروف سائحة : « ان كنت تريد عضمك لا يتكسر تعال عند هذا العنوان » وتحت هذا الكلام وضع الكاتب سطرين على سبيل التأكيد .

أشرق ذهن فيوكومبي ببطء ، فأدرك أن الهجمات التي تعرض لها مؤخراً مرتبطة بمحاولته الشحاذة . لكنه لم يحس رغبة ملحّة في زيارة شارع « أولد أوك » .

غير أن شحاذًا تقدم منه ، فوجه إليه الكلام ، في أصيل ذلك اليوم ، بينما هو يتسكع خارج إحدى الحانات . نظر إلى محدثه فعرف فيه أحد الاثنين اللذين طاردها بالأمس . كان شاباً في مقتبل العمر ، ولم يبد لصاحبنا فيوكومبي أنه شخص يخشى شره ، حتى عندما أمسك بكم سترته وجذبه جانباً فقال له :

— يا ابن الحرام ! أرني نمرتك !
فقد كان صوته ودودا لا عداء فيه .

— أي نمره ؟

لم يتوقف الشحاذ الفتى عن مشيئته الزرية ، ويده مستميتة على كم الآخر ، لكن بغير ضغينة . أوضح للعسكري ، بالبطانة التي تحدث بها طائفة الشحاذين ، ان هذه الحرفة الجديدة التي يريد ان يفتحها ليست سائبة كما يتصور ، فهي منظمة كغيرها من الحرف ، بل وربما أكثر من غيرها ، وأنه (أي العسكري) لا يجب ان يتصور نفسه في ركن همجي غير متحضر من العالم ، بل يجب ان يذكر انه في مدينة عظيمة ، هي محور العالم كله . ولذلك فانه ، لكي يزاول حرفته الجديدة ، يجب ان يحمل رقما ، تصريحاً من نوع ما ، يستطيع الحصول عليه — مقابل ثمن معلوم — من نقابة لها مقرها الرسمي في شارع أولد أوك ، وهي نقابة يجب ان ينضم اليها . انصت فيوكومبي لكل هذا دون ان يقاطع محدثه بسؤال . فلما قال الشحاذ الشاب ما عنده ، اجابه بنفس اللهجة المهذبة التي لا عداء فيها — وكانا اذ ذاك يقطعان شارعا مزدحما بالسابلة — قائلاً انه يسعده كثيراً ان يعلم ان لهم نقابة تضمهم ، كما هي الحال بالنسبة للبنائين والحلاقين ، لكنه ، فيما يخصه ، يفضل ان يظل حراً ، وأن يتصرف على هواه بغير وصاية من أحد . فقد شبع من الاوامر في حياته ، تشهد بذلك ساقه الخشبية .

فلما قال ذلك مد يده الى محدثه الذي اصغى اليه ، وعلى وجهه تعبير من يستمع الى حديث مثير للاهتمام بدرجة غير عادية من فم متحدث شديد البراعة لا يستطيع السامع ، للاسف ، ان يوافقه الرأي تماما ، وفي نهاية الامر ضحك ، وضربه على ظهره كما لو كان صديقا قديما ، ثم تركه وعبر الشارع وحده ، فوقف فيوكومبي مكانه ، وقد اثارت تلك الضحكة قلقه .

وفي خلال الايام القليلة التالية ، ازداد فشلا على فشله . بدا أنه كلما يحصل المرء على سبيل لا ينقطع من الحسنات ، يجب ان يظل جالسا في مكان بعينه (وقد اكتشف ان هناك امكنة جيدة وامكنة رديئة) ، ولم يستطع ان يكتشف كيف يدبر الآخرون أمورهم . طرد منه لفوره . لم يستطع ان يكتشف كيف يدبر الآخرون أمورهم . كانوا يبدون جميعا ، بطريقة ما ، انعس منه حالا ، ثيابهم مثلا ، كانت خرقا حقيقية يستطيع المرء ان يرى من خلالها عظامهم . (وقد

تعلم فيما بعد ان بذلة غير ممزقة لاثقوب فيها تعتبر فى بعض النواحي
أشبهه بواجهة دكان مغطاة بالورق ، لاتبدى من المعروضات شيئا .
فوق أن مرآهم عموما كان أشد مدعاة للنفور والتقرز ، فعاهاتهم ،
على الاقل ، كانت أفزع من عاهته وأقدر . والبعض منهم كان يفترش
الطوار البارد بلا أى شىء تحت عجزه حتى يتأكد المارة تماما من أنه
سيمرض وربما سيموت . ولم يكن لدى فيوكومبى أى اعتراض على
ذلك ، بل كان يسعده كثيرا أن يفترش الطوار بتلك الطريقة ، فقط
لو سمح له أحد بذلك . لكنه بدا واضحا للاسف أن ذلك الوضع
المزرى المثير للشفقة ليس نهبا متاحا لى كان . فرجال الشرطة
والشحاذون تكاتفوا ، كل بطريقته ، على حرمانه منه .

وهكذا فان كل ماعادت عليه به محاولته الفاشلة كان بردا فظيحا
أصابه فى صدره ، بحيث أصبح مضطرا الى التسكع فى الشوارع
وجسده ملتهب بالحمى وآلام حادة تمزق صدره .
ثم التقى ذات مساء بالشحاذ الشاب ، فبدأ هذا الاخير يتعقبه
لفوره . وبعد شارعين لا اكثر انضم اليه شحاذ آخر ، فانطلق
صاحبنا يجرى ، والاثنان يجران فى اعقابيه .

انفلت فدخل حارة جانبية ضيقة ليروغ فيها ، ولم يعد يسمع
وقع أقدامهما ورائه ، فداخلته طمأنينة ، وتصور أنه قد أفلت .
لكنه بوغت بهما أمامه على ناصية أحد الشوارع ، وقبل ان يتمكن
من الافلات ثانية ، أخذ كل منهما يضربه بعصاه ، بل ودفعه أحدهما
ليوقعه على الرصيف ، وأخذ يجذبه من ساقه الخشبية ، حتى
أوقعه على رأسه . لكنهما تركاه فى تلك اللحظة فجأة ، وانطلقا
هاربين . فقد ظهر شرطى من ركن الشارع .

راود فيوكومبى أمل فى أن يخف الشرطى الى نجدته . لكن شحاذا
ثالثا خرج من زقاق ضيق بين البيوت ، على طاولة صغيرة ذات
عجلات ، فأحدث هياجا فى الشارع وهو يشير للشرطى على الرجلين
أنهاريين ويحاول أن يقول له شيئا غير مفهوم . وهكذا فان فيوكومبى
عندما شده الشرطى ، الذى أثار ذلك الصخب ضيقه ، وشيعه بركلة
فى مؤخرته ، وجد نفسه مطاردا من جديد ، تحت أنظار ذلك الشرطى ،
والشحاذ الثالث ورائه ، دافعا طاولته ذات العجلات بكلتا يديه .

وعندما نظر الى مطارده الجديد وجده بغير ساقين ، فيما بدا له .
عند منحنى الشارع الاخر تعلق الشحاذ مقطوع الساقين بسروال
فيوكومبى . كانا قد دخلا أقدر منطقة فى الاحياء الفقيرة ، والازقة

قد ضاقت حتى أوشكت حيطان البيوت ان تتلامس .
من أحد تلك الازقة كان ممر ضيق يفضى الى فناء ضخيم معتم .
قال له مطارده المقعد ، أمرا ، بصوت مبحوح :
- هنا !

وعزز قوله بهجمة من طاولته على كاحل فيوكومبي الذى كان
الجوع قد جرده من كل قواه ، فدخل الفناء الضيق - الذى لم يكن
يزيد على ثلاث ياردات مربعة - راغما . وقبل أن يفيق من دهشته
أو ينظر حوله ، كان الشحاذ المقعد - وهو رجل متقدم فى السن
يميزه فك بالغ الضخامة - قد قفز من طاولته المتحركة كالفرد ،
فاذا به ، فجأة ، صاحب ساقين سليمتين ، وانقض عليه .
كان أطول من العسكرى بكثير ، وله ذراعان كذراعى الاورانج
أوتانج .

زمجر أمرا :

- هيا اخلع سترتك وأرنا فى عراق شريف لا غش فيه ان كنت
أجدر منى بالشحاذة فى منطقة طيبة مربحة كالتى كنت تتسكع فيها .
والله ان غلبتنى يكون الحق معك . فشعارى هم « وسع الطريق
للأصلح ، والى الجحيم بالمفلوب ! » وبهذه الطريقة يستفيد الجنس
البشرى كله ، لان الأصلح يصعد الى القمة وينال كل ما فى الارض من
خيرات . لكن اياك والخداع ، أو الضرب تحت الحزام ، ولا تستخدم
ركبتيك . فهذا العراك ، ان كان سيحسم الامر بيننا ، يجب أن يتم
طبقا لقواعد كوينسبرى !

كان العراك قصيرا . أخضع فيوكومبي جسديا وروحيا ، فسار
ذليلا فى أعقاب العجوز .

ولم يرد ذكر لشارع أولد أوك .

ظل العسكرى أسبوعا تحت سطوة سيده الجديد . وضعه هذا
الآخر على ناصية معينة ، بعد أن جعله يعود الى ارتداء بزته العسكرية ،
وفى المساء ، عندما يسلم ايراد اليوم ، كان العجوز يطعمه .
لكن ايراده ظل شحيحا للغاية . وقد كان يدفعه بأكمله لمخدومه
على أية حال ، فلم تتح له الفرصة ليعرف ان كانت البنسات القليلة
التي يشحذها تفى بثمان الرنجة والجن الرخيص اللذين كانت تتألف
منهما وجبته الرئيسية كل يوم . أما العجوز ، الذى بدت عاهاته
أسوأ من عاهة العسكرى بكثير - رغم أنها لم يكن لها وجود -
فكانت تجارته رائجة بحق .

وبمضى الوقت ، ايقن العسكري ان سيده لم يضعه فى ذلك المكان
الا تحقيقا لمصلحته الخاصة ، فالورد الرئيسى للربح كان متركزا
عند موقع العجوز ، حيث يتكرر المارة صباحا ومساء . وقد تبين
ان المحسنين منهم لا يحستون الا مرة واحدة ، وانهم غالبا ما يلزمون
جانبا من الطريق بعينه لا يغيرونه ، لكنهم يشدون احيانا ، فيغيرون
مسارهم . فهم لا يمكن الاطمئنان اليهم كلية . ولهذا وضعه العجوز
فى ذلك المكان حتى لا يفلت منهما احد ، فمن لم يعط العجوز ، مر
بالعسكرى . ورغم ادراكه انه بهذه الطريقة ، يقوم بدور ثانوى
للقاية ، فانه ايقن ان وضعه هذا كان خطوة الى الامام ، حتى وان
لم يكن الخطوة الصحيحة .

غير ان الامور لم تستمر على هذا الحال . لانه لم يكبد ينقضى
اسبوع حتى بدأ العجوز يعانى من اهتمام خاص بأمره وأمر مساعده ،
من جانب الجمعية السرية فى شارع اولد اوك . ففى بكور احد
الايام ، بينما يفادران مكان بياتهما فى عوامة قديمة ، هاجمها اربعة
أو خمسة من الشحاذين فحملوها حملا عبر عدة شوارع ، حتى
بلغوا دكانا صغيرا قدرا عليه لافتة مكتوب عليها « آلات » .

وراء حاجز خشبى متآكل داخل الدكان كان رجلان ، أحدهما
ضئيل ، مجفف ، له وجه كرية منفر ، واقف فى صدره وقميصه ،
بغير سترة ، وقبعة عتيقة مزينة قد انزلت على مؤخرة رأسه ،
واضعا يديه فى جيبى سرواله ، متشاغلا بالنظر من واجهة الدكان ،
يتأمل الصباح الكئيب خارجا ، دون ان يستدير أو يظهر أدنى اهتمام
بالوافدين الجدد . أما الآخر ، فكان سمينا ، ذا وجه أحمر شديد
الحمرة ، كريها هو الآخر ، واشد اثارا للنفور - ان كان ذلك ممكنا -
من صاحبه القمىء .

قال البدين احمر الوجه للعجوز ، بنبرة بدا ان المقصود منها
الزواية لا الترحاب :

- أهلا أهلا مستر سميثى . أسعدت صباحا .
ثم دلف من باب مغطى بألواح حديدية الى الغرفة الداخلية .
نظر العجوز حوله ، بارتباك واضح ، قبل ان يسير فى أعقاب
الرجال الذين أحضروهما ، وقد أصبح لون وجهه رماديا .
أما فيوكومبى ، الذى بدا ان الكل نسوه ، فقد ظل واقفا فى
الدكان . على الحيطان كانت بضع آلات موسيقية معلقة ، عتيقة
ومحطمة . بدا ان أعمال الدكان لم تكن رائجة ، فتلك البضائع القليلة

على حيطانه كانت مكسوة بطبقة سميكة من التراب .
وقد تبين فيوكومبى ، عندما تفتخت عيناه فيما بعد ، ان تلك
الانتيكات القليلة المتربة لم يكن لها دور - الا التمويه - فى نشاط
الشركة التى كان قد التحق لتوه ، دون علم منه ، بخدمتها . والواقع
ان المكان كله كان يتصف بقدر يحسد عليه أصحابه من التمويه ،
فحتى واجهة البيت الضيقة ذات النافدين كانت تعطى فكرة منقوصة
للفاية عما وراءها من أعماق داخلية شاسعة ، وحتى الحاجز الخشبى
المأكل ، بألة عد النقود العتيقة المخلخلة الموضوعه عليه ، لم يكن
يكشف شيئا .

ففى البيت ، الذى كان فى حقيقة امره ثلاثة بيوت مفتوحة على
بعضها البعض ، تضم فيما بينها فنائين ، كانت ورشة تعمل فيها
زهاء نصف دستة من الفتيات يشتغلن بالحياكة ، ومنشأة لصناعة
الأحذية تضم عددا مماثلا من الصناع المتخصصين فى حرفتهم . لكن
الأهم من ذلك كله ان المبنى كان يضم فى أحشائه الداخلية قسما
كاملا للسجلات يحتوى على مالا يقل عن ستة آلاف اسم من أسماء
من أسعدهم التحظ بشرف العمل فى خدمة الشركة .

لم تكن لدى العسكرى ، وهو واقف فى ذلك الدكان ، أدنى فكرة
عن الطريقة التى تعمل بها هذه المنشأة المشبوهة الفريدة فى نوعها .
وقد استغرقه الوقوف على ذلك أسبوعا بأكمله . لكنه - قبل ان
يأتى اليهم - كان قد بلغ مرحلة من اليأس والعوز جعلته يدرك ان
من حسن الطالع حقا ان تتاح له فرصة المجيء الى ذلك المكان
والانضمام الى مثل تلك المنظمة السرية بالغة القوة .

لم يظهر مستر سمبشى ، مخدوم فيوكومبى الاول ، ثانية ذلك
الصباح ، ولم يره فيوكومبى بعد ذلك الا مرتين أو ثلاثا على أكثر
تقدير ، من مبعده .

بعد فترة ليست قصيرة وارب الرجل السمين الباب الحديدى
واطل براسه قائلا :

- ساقه الخشبية حقيقية .

وهنا استدار الرجل القمئ الذى بدا واضحا انه - رغم ضالته -
رئيس كل أولئك الناس ، فذهب الى فيوكومبى ، وبحركة سريعة
شعر ساق سرواله ليتيقن من عاهته وساقه الخشبية ، فلما تم له
ذلك ، وضع يديه فى جيبى سرواله من جديد ، وعاد الى النافذة
فوقف اليها ينظر خارجا ، وقال بصوت خافت :

— ماذا تستطيع أن تفعل ؟
فأجابه العسكري بصوت يماثل صوته خفوتا :
— لا شيء . أشحذ فقط .

قال الرجل القمى بازدراء ، دون أن يعنى بالالتفات الى محدثه :
— ومنذا الذى لا يريد ان يشحذ ؟ رجلك مقطوعة ، هه ؟ لك
ساق خشبية . ولمجرد أن لك ساقا صناعية تريد أن تشحذ ؟ لكنك
فقدت تلك الساق فى خدمة وطنك ، هذا أسوأ . هذا يمكن أن يحدث
لاى امرىء كان (الا اذا كان يعمل فى وزارة الحرب) . وعندما يفقد
شخص ما ساقه يصبح كل اعتماده على رحمة الاخرين ؟ طبعا يصبح
كل اعتماده على رحمتهم ، أولاد الحرام ! ولكن من منهم يجب أن
يعثر نقوده على الغير ؟ الحروب — انها حالات استثنائية يا صاح .
الزلازل مثلا ، لا يكون لأحد حيلة فيها . أما فى الحرب ، فالكل يعرف
مقدار الربح الذى يعود على البعض من وطنية البعض الاخر . فى
بداية الامر يتسلقون فوق بعضهم بعضا ليتطوعوا فى سبيل التاج .
لكنهم عندما يطيح أحد بأرجلهم لا يروق لهم ذلك . وهناك شىء آخر ،
الشىء الاساسى : لماذا تكون حكاية الذهاب الى الحرب فى سبيل التاج
والوطن مربحة ، ولم تنهال آيات التكريم والمجد والخلود على أولئك
الرجال الشجعان ؟ — لمجرد أنهم يتعرضون لخطر فسدان ذراع أو
ساق ؟ وفى الحقيقة ، لو لم يكن ذلك الخطر الصغير — أو الكبير حتى
نجاريك — لما بات هناك مبرر لكل ذلك العرفان بالجميل من جانب
الامة . اسمع ، انت فى حقيقة الامر متظاهر ضد الحرب . كلا .
لا جدوى من انكار ذلك . فأنت عندما تقف فى الطرقات ، دون أن
تبذل أدنى جهد لاختفاء عاهتك ، فانك فى واقع الامر تقول لكل من
يراك ، بغير كلام ، انظر فظاعة الحرب ! انها تطيح بأرجل الناس !
يجب أن تخجل من نفسك . ان الحروب ضرورية بقدر ما هى مخيفة .
أتريدنا أن نفقد كل شىء ؟ أتريد أن ترى بريطانيا العظمى يملؤها
الاجانب ؟ أتحب أن تعيش وسط أعداء يحتلون بلادك . يارجل ،
لا ينبغي لك أبدا أن تبربح من وراء بلواك بهذه الطريقة أبدا . ليست
لديك الموهبة اللازمة لذلك ..

عندما أتم كلامه ، ذهب دون أن ينظر الى العسكري ، فدلنق من
الباب الحديدى الى الغرفة الداخلية التى بها مكتبه . لكن الرجل
السمين جاء فأخذ فيوكومبى ، بسبب ساقه ، فيما قال له ، فعبر
به فناء خلفيا الى فناء آخر ، حيث عينه مشرفا على مجموعة من الكلاب .

ونتيجة لهذا الاجراء ، اخذ العسكري يدور في ذلك الفناء كل صباح ومساء ، ليتريض ، ولكي يشرف ، في الوقت ذاته ، على كلاب العميان ، التي كانت الشركة تقطنى عددا لا يستهان به منها . ولم تكن تلك الكلاب قد اختيرت على اساس براعتها في قيادة العميان (الذين كان يوجد عدد منهم في خدمة الشركة فعلا ، لم يتجاوز خمسة) بل لاسباب اخرى تماما ، منها القدرة على اثارة الشفقة في نفوس المارة ، بأن يبدو الكلب منها زريا للغاية . وقد كانت كلها ذرية بالفعل .

ولو سئل فيوكومبي عن حقيقة حرفته ، لوجد صعوبة في الرد ، يصرف النظر عن خوفه من التورط في متاعب مع الشرطة . فلم يكن مستطيعا ان يدعو نفسه شحاذا . كان في حقيقة امره مستخدما ، في منشأة تباع اللوازم التي يحتاجها من يحترفون الشحاذة في الطرقات . لم يبذل أحد أدنى جهد لتثقيفه وتحسين مستواه بما يجعل منه شحاذا على مستوى مقبول من الكفاءة . فخبراء الشركة القوا عليه نظرة واحدة وقرروا أنه لن ينجح في تلك الحرفة أبدا . لكنه ، مع ذلك ، كان مجدود الطالع . لم تكن لديه حقا المواهب اللازمة للنجاح في الشحاذة ، لكنه كان حائزا لشيء لا يستطيع الكل ان يباهوا به : رجل خشبية حقيقية . ولقد كان ذلك المؤهل كافيا للحصول على عمل . كان يستلعي بين الحين والحين الى الدكان ليرى شرطيا من نقطة البوليس القريبة ساقه الخشبية . ولو ان الامر ، في الحقيقة ، لم يكن يستلعي ان تكون تلك الساق خشبية بحق . فلم يكن الشرطي يلقي عليها الا نظرة عابرة لا تكشف شيئا . فوق ان بولي بيتشام ، ابنة صاحب الشركة ، كانت تتواجد في الدكان ، بطريقة ما ، في معظم تلك الزيارات التفيتشية . وقد كانت الفتاة بارعة بحق في تدبير الامور مع الشرطي .

غير ان تلك الزيارات كانت نادرة . ولذا فان العسكري قضى معظم الاشهر الستة الاخيرة التي كانت قد تبقت له من حياته ، بين الكلاب . وقد انتهت حياته الهزيلة ، بعد تلك الشهور ، نهاية غير عادية ، بحبل ألتف حول عنقه ، بين تهليل وتكبير حشد عظيم من الناس .

أما السيد القميء الذي رآه فيوكومبي واقفا يتأمل العالم من واجهة الدكان يوم ان دخل ذلك البيت المثير للاهتمام لأول مرة ، فكان مستر جوناثان ارميا بيتشام .

قصة غرام بولى بيتشام وزواجها

عندما كنت مجرد فتاة بسيطة صغيرة -
لانى كنت ذات يوم بسيطة مثلكم -
قلت لنفسى : لعلى فى يوم من الايام سوف ياتينى احد
واذ ذاك سيتعين على ان اعرف مايجب ان افعله .
فان كان رجلا لديه مال
وكان شخصا لطيفا مهذبا
وكانت الياقة التى يرتديها فى عمله ياقة بيضاء ناصعة كالثلج
وكان يعرف كيف يجب ان تعامل السيدات
اذذاك سأقول له « لا »
لان المرء مع رجل كهذا يجب ان يتحدث عن الجو
ويخفى مشاعره فلا يظهر مايعتمل فى نفسه .
سيضىء القمر طول الليل ، كعهده سابقا ،
وبغير شك سيكون القارب مربوطا الى الشاطئ .
لكن الامر لن يذهب الى ابعد من ذلك .
والله البنت لاتستطيع ان تجعل نفسها رخيصة !
والله البنت يجب ان تحكم وثاق رجلها ، وتسحبه جيدا وراءها .
والا حدثت اشياء لاتخطر لاحد على بال !
آه ، والله الجواب الوحيد : « لا ! »

أول واحد جاء ، كان رجلا من « كنت »
وفيه كل صفات الرجل الذى تتمناه الفتاة
والثانى كان يملك ثلاث بواخر فى الميناء
والثالث كان مجنوننا بى .
ولما كانوا ثلاثهم مثقلين بالنقود
وكانوا ثلاثهم اولادا مهذبين
والياقات التى يرتدونها فى عملهم بيضاء ناصعة كالثلج ،
وفوق ذلك يعرفون كيف يجب ان تعامل السيدات ،
فقد كان ردى على ثلاثهم بلا .

وهكذا تحدثت عن الجو ،
ولم أدع شيئاً من مشاعري يبين .
وقد ظل القمر مضيئاً طول الليل ، كسابق عهده ،
وبلا أدنى شك كان القارب مربوطاً الى الشاطئ ،
لكن الامر لم يذهب الى أبعد من ذلك خطوة .
فوالله البنات لاتستطيع أن تجعل نفسها رخيصة .
ووالله البنات يجب أن تحكم وثاق رجالها ، فتسحبهم وراءها جيداً .
والا حدثت لها أشياء لا تخطر لأحد على بال .
آه ، كان الجواب الوحيد : « لا ! »

لكن رجلاً جاء ذات صباح ، وكانت يومها السماء زرقاء ،
فلم يتنهد أو يطلق الزفرات ،
بل علق قبعته ببساطة على المشجب في مخدعي
فتركته يفعل ، دون أن أدري لم .
ولما كان رجلاً بغير مال
ولم يكن لطيفاً أو رقيق الحاشية
وحتى ياقته التي يتأنق بها في يوم الاحد لم تكن في بياض الثلج
ولم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية معاملة السيدات
فانى لم أستطع أن أقول له لا .
اذذاك لم أتحدث عن الجو ،
وتركت العنان لمشاعري ، تبين وتفصح على هواها ،
ووالله اضاء القمر طوال الليل ، كسابق عهده ،
لكن القارب انفك رباطه ، وأبحر من الشاطئ ،
وكان من المتعين أن يكون الامر هكذا !
فوالله البنات أحياناً يجب أن تجعل نفسها رخيصة !
وأحياناً لا تستطيع أن تحكم وثاق رجلها أو تسحبه وراءها !
لكن أى شيء يمكن أن يحدث آنذاك ،
ولا يعود هناك وجود لكلمة اسمها « لا » .

(اغنية بولى بيتشام)

(١)

صديق الشحاذ

عملا على مقاومة البخل المتزايد من جانب الجنس البشرى ، افتتح مستر بيتشام دكانا يستطيع أحقر الشحاذين شأننا أن يستأجر منه أدوات ومعدات مضمونة ، يلين بفعالها أشد القلوب قسوة .
بدأ مستر بيتشام حياته العملية بائعا للآلات الموسيقية المستعملة ، ومؤجرا لها . كان زبائنه من الشحاذين والمغنين الجوالين . لكن تلك التجارة لم تكن مربحة ، فاشتغل مستر بيتشام بعمل اضافى عملا على زيادة دخله . ولما كان ذلك العمل بالابراشية (١) ، فقد أتاحت له الفرصة لدراسة أحوال الفقراء عن كثب . وكانت حكاية استخدام آلاته الموسيقية كمعاونات في عملية الشحاذة ، أول ما شحذ فكره وحفز خياله .

فالكل يعرف أن أولئك الشحاذين يستخدمون الآلات الموسيقية ليستندروا شفقة الناس ، وهى عملية ليست سهلة بالمره . لانه كلما أزداد ثراء المرء ، كلما قل استعداده للتعاطف مع من هم أفقر منه . دع عنك من لا يملكون شروى تقير ، رغم أن ذلك الشخص عينه يكون على استعداد دائما لأن يدفع ثمنا باهظا في مقعد باحدى الحفلات الموسيقية ، باعتبار أن ذلك سيتيح له الحصول على قدر لا يستهان به من الغذاء الروحى . لكن من هم أقل من ذلك المستوى ثراء وسعة عيش ، ممن لا يكون البون قد صار شاسعا بينهم وبين الفقر ، يكونون عادة على استعداد ليدل بضعة دريهمات من مالهم بغير كبير صعوبة ، فيدعون قلوبهم - التى تفلظ وتتحجر بسبب ذلك الصراع المشهور من أجل البقاء - تلين ، أحيانا ، بفعل هذه النعمة أو تلك التى يعزفها لهم شحاذ مسكين .

ومع ذلك فإن السيد جوناثان ارميا بيتشام تبين - مرة تلو مرة - أن زبائنه من الشحاذين ممن يستأجرون الآلات الموسيقية ليزاولوا

(١) (Parish) تقسيم ادارى داخلى فى كنيسة انجلترا ، لكنه من الناحية المدنية - أشبه بالجهات الحكومية المختصة عندنا بتنظيم الصدقات ، وتقديم الميونات للأسر المحتاجة ، ورعاية الفقراء

عملية تليين القلوب بها ، يتأخرون دائما في سداد اقساط الايجار . نعم
هناك بضعة أشياء يمكن ، كما قلنا ، أن تستدر شفقة الناس في هذه
الأيام ، لكن المشكلة أن تلك الأشياء لا تكاد تستخدم بضع مرات حتى
تفقد فعاليتها ، لأن الانسان لديه تلك المقدرة المخيفة على أن يجعل
نفسه بليد الحس جامد القلب متى أراد ، خاصة متى اكتشف
الكوارث التي يمكن أن تحيي به كلما استسلم لعواطفه الخيرة .
وهكذا فانه يحدث أن المرء عندما يرى رجلا بلا ذراع لأول مرة ،
تجعله الصدمة يمنع ذلك الرجل بنسين ، لكنه في المرة الثانية لا يعطيه
الا نصف بنس ، فاذا رآه للمرة الثالثة ، فانه في أغلب الظن ، يسلمه
الى البوئيس بغير تردد .

بدأ بيتشام بداية متواضعة محدودة للغاية .
ظل ، لبعض الوقت ، مكتفيا بتقديم الاستشارات لعدد محدود من
الشحاذين ذوى الأذرع الواحدة ، أو العميان ، أو الطاعنين في السن .
ثم تكفل بايجاد أماكن لهم ، في مناطق يتصدق فيها الناس . فالناس
لا يحسنون في كل وقت وأى مكان . وهكذا فان الشحاذ البارع
يستطيع بدلا من أن يضيع وقته في التسول بالموسيقى في شهر
يونيو . . . أن يزيد دخله زيادة محسوسة بالمرور في الحدائق العامة ليلا
لأزعاج العشاق ، لان الناس يكونون أكثر استعدادا للبدل في تلك
الظروف .

ورويدا رويدا تحسنت أحوال بيتشام . اكتشف الشحاذون الذين
تعاملوا معه أن إيراداتهم قد ارتفعت . وهكذا فانهم وافقوا على أن
يعطوه ، مقابل جهوده ، جزءا من النقود التي يكسبونها .
اذ ذاك تيقن بيتشام من أنه اكتشف العمل الذي يصلح له في
الحياة ، فبدأ يعمق بحوثه ويوسع مداها . وسرعان ما اكتشف ان
الهيئة الزرية التي تنم عن فاقة حقيقية وعوز لا زيف فيه تكون اقل
فعالية بكثير من البؤس المصطنع . ففي أحيان كثيرة كان أناس من
المقطوعة أذرعهم بحق يفشلون في العمل ، لانهم ليست لديهم ملكة
التأثير في نفوس الآخرين بما يعطونه من انطباع بالبؤس . لكن الموهوبين
حقا ، قد يفتقرون الى تلك العاهات الثمينة . وفي ذلك كان مجال
عظيم للمبادأة اكتشفه بيتشام .

بدأ الرجل يعد بضع أطراف صناعية مزيفة : أذرع وسيقان
تصدم الناظر بما فيها من قبح وما تنطق به من تشويه وحشى .
فلاقت تلك العاهات المصنوعة نجاحا منقطع النظير .

ولم ينقض وقت طويل الا وقد بات في مكنة الرجل أن يقيم ورشة لصناعة العاهات . ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعداه الى سيكولوجية الاستخدام الأمثل لتلك العاهات . فقد اكتشف بيتشام مثلا أن بعض أصحاب الحوانيت ، خاصة أصحاب المطاعم ومحلات التجميل ، بل والجزارين أيضا ، يكونون على استعداد دائما للتصدق بسرعة على أي شحاذ يلصق أمام محالهم مستعرضا عاهاته المقززة ، على سبيل الرشوة ، حتى ينتقل الى مكان آخر . ولم يكن ذلك الاكتشاف الا بداية متواضعة . فقد اكتشف بيتشام في أعقابها أن أصحاب تلك المحلات على استعداد لأن يدفعوا مبالغ أكبر لشحاذيه حينما يذهبون فيلصقون امام المحلات المنافسة . وهكذا وجد نشاط الشحاذة موضعه في هيكل المنافسة الذي يدور بداخله صراع طاحن من أجل البقاء .

وعندما بدأت غرفة السجلات تكبر ، بدأ بيتشام « صديق الشحاذ » كما كان يدعو نفسه ، في ادخال نظام الاحتكار ، بتخصيص مناطق معينة لشحاذين بعينهم ، مع تهيئة الحماية الكاملة لهم ، لطرده الدخلاء ، ولو بالقوة ، كما كان يحدث أحيانا . وقد كان لهذه التجربة الاخيرة فضل عظيم على منشاء بيتشام ، إذ أنه ابتداء من تطبيقها ، بدأت المنشأة ترسخ وتسير قدما على طريق النجاح .

لكن صاحبنا لم يكن ممن يرضون بقليلهم ، فلم يكتف بما حققه من انتصارات ، بل أخذ يعمل بلا هوادة ليزود رجاله بما يمكنهم من مزاوله خدمتهم بأعلى درجة من الكفاية . وهكذا افتتحت فصول - تزايد عددها باستمرار - في مقر الشركة ، الذي اتسع كثيرا ، لتعليم الشحاذين ، الذين تحولوا ، بصورة متزايدة ، الى مستخدمين فنون التظاهر بالاصابة بالشلل الرعاش ، والسير كما يسير العميان ، الى آخر تلك الأشياء . فلم يكن مستر بيتشام من المؤمنين بالجمود في دنيا الاعمال .

وهكذا فانه تم التوصل في معامله وفصوله الى تحقيق الكمال لانماط أساسية بعينها من الشقاء الانساني ، كضحايا التقدم ، وضحايا الحرب ، وضحايا الرخاء الصناعي . علمهم جميعا كيف يذبيون القلوب الجامدة، كيف يلفتون الانظار، وكيف يلصقون كالعلة حتى تزهق أرواح الناس فيحسنون اليهم .

وقد كان من الطبيعي ، بعد خمسة وعشرين عاما من النشاط الذي لا يهدأ ، أن يصبح بيتشام مالكا لثلاثة بيوت ، ومنشأة مزدهرة .

نوار الخوخ

كانت البيوت التي يدير فيها مستر جوناثان ارميا بيتشام ورشته العجيبة تضم غرفا عديدة . بين تلك الغرف ، كانت غرفة مطلية باللون الوردى ، تخص الأنسة بولى بيتشام . كانت حجرتان من الحجرات الاربع الصغيرة التي يتألف منها مسكن السيد بيتشام الخاص تطلان على الشارع ، بينما تطل الغرفتان الاخريان على الفناء . لكن هاتين الحجرتين الاخيرتين كانتا تفضيان الى شرفة خشبية ، وهكذا فان نوافذهما كان من الضروري أن تغطى بستائر من التيل لتقطع الطريق على نظرات الفضوليين ، فوق أن تلك النوافذ لم تكن تفتح الا في الليالى التي يشتد فيها الحر حتى يخفف الهواء من جو الغرفة الخانق . كانت غرفة بولى فى الطابق الثانى ، وفوقها السطح مباشرة .

وقد اشتهرت الأنسة بيتشام فى الجيرة بأكملها باسم « الخوخة » ، نظرا لجمال بشرتها الذى لا يوصف . عندما اتمت عامها الرابع عشر ، أعطيت غرفة خاصة بها ، فى الطابق الثانى . وقد قال بعض ذوى الألسنة الطويلة انها حصلت على تلك الغرفة لكيلا تظل فى صحبة أمها طيلة الوقت ، بالنظر الى أن السيدة بيتشام لم تكن تستطيع التحكم فى ضعفها ازاء المشروبات الكحولية ، وقد بدأ الجميع ، ابتداء من تلك السن أيضا ، ينادونها بلقب آنسة ، كما سمح لها بالتردد على الدكان أحيانا ، خاصة عند مجيء الشرطى ميتشجين فى احدى زياراته التفتيشية . ولعلها كانت - فى مبدأ الامر - أصغر من ذلك كله ، لكنها ، كما قلنا ، كانت فتاة باهرة الجمال .

أما الحجرات الاخرى ، حيث ورشة الحياكة ، وورشة المصنوعات الجلدية ، فنادرا ما كانت تتردد عليها ، لان السيد بيتشام لم يكن يحبذ تواجدها فى ورشه هذه . ومع ذلك كانت بولى تعلم بكل مايجرى فى تلك الحجرات . لكن شيئا من ذلك كله لم يثر اهتماما فى نفسها .

ازدهر محل الآلات ازدهارا عظيما ، حتى قال الجميع أنه لولا بوني
الحسناء لكان الشرطي ميتشجين قد اهتم اهتماما أكبر بالوقوف على
حقيقة ما يجري في ذلك الدكان ووراء جدرانها من انشطة مستر
بيتشام . فالعدد الهائل من الناس المترددين على ذلك الدكان ،
داخليين خارجين ، صباح مساء ، لم يكن يتناسب البتة وتلك الآلات
القليلة المحطمة على حيطان دكان بيتشام .

ولم يقتصر نجاح بيتشام على رواج احوال دكانه ، بل امتد ، بنفس
القدر ، الى نشاطه في الابراشية . والواقع أنها لم تظل ابراشية
واحدة ، بل أصبحت ثلاث ابراشيات أشرف الرجل على الصدقات
ومعونات الفقراء فيها . رغم أن الفقراء لم يظهروا ميلا خاصة للجوء
اليه . فقد اكتشفوا فيما يبدو ، أنهم أفقر من أن يتمكنوا من الحصول
على خدمات مستر بيتشام . فوق أن طبيعة هذا الاخير ، كرجل أعمال .
أثرت على نظرته الى الامور . فهؤلاء الفقراء ، لماذا يجيئون الى
ابراشياته ؟ ليشحدوا منها . لكن الشحاذة ليست نهبا مباحا لاي
كان ، فهي نشاط اقتصادي يندرج تحت اهتمامات مستر بيتشام
المتعلقة بأعمال منشأته الخاصة . ولذلك فانه اظهر دائما منتهى
النفور من أي تعاون مع الفقراء في عمليات شحاذة عامة كهذه لا تجرى
تحت اشرافه كصاحب منشأة متخصصة تتعامل في ذلك النشاط
عينه ، طبقا للقواعد التي يدير بها أعماله .

لم يكن من الغريب أذن أن تكلف الخوخة نفسها مشقة التلطف مع
ذلك الشرطي السمين ميتشجين . فتلك الالاعيب الابوية جميعها
كانت ، في نهاية الامر ، من أجلها وحدها . وما أكثر المرات التي
سمعت اباها يقول فيها :

— والله لولا البنت لما احتملت عيشة الكلاب هذه يوما آخر . يعلم
الله اني لم اكن أطيق ذلك من أجل سواد عينيك يا ايما . على الاقل
لكيلا تدفعين نفسك الى غياهب القبر بهذه الخمر التي تشربينها ليل
نهار .

ايما هذه كانت زوج مستر بيتشام . وكان من دأبها أن تقول
للزوجها كلما عبر عن استهجانها لرذائلها الصغيرة :

— وهل الذنب في هذا السكر ذنبي ؟ لو كنت وجدت راحة في
حياتي الزوجية كنت سأسكر ؟ ثم اني أستطيع الامتناع عن الشرب
وقتما شئت . منذ الآن . فأنا لا أدع شيئا يتسلط على !
الاولاد يسمعون أحاديث عديدة من هذا النوع ، فتحدث في نفوسهم

تأثيرا عميقا .

ولقد يظن المرء ، بسبب التسهيلات (الصغيرة كما قلنا) التي كانت الأنسة بولي بيتشام تبديها تجاه ميتشجين وآخرين ، أنها ربيت لتكون من ذلك النوع من الفتيات . لكن الأمر على العكس تماما . فهي لا تكاد تذكر مرة واحدة استحمت فيها ، داخل البرميل الخشبي الموضوع في الحمام (حيث الستائر مسدلة أبدا) دون أن يسترها قميص خفيف يخفي جسدها حتى عن عينيها . فلم يكن مستر بيتشام ميالا لان يدعها ترى جمال بشرتها .

وبنفس القدر من الحرص ، لم يخطر لمستر بيتشام ببال أن يدعها تخرج من البيت وحدها ، ولو لخمس دقائق لا أكثر . كانت تذهب الى المدرسة طبعاً ككل اولاد الناس الآخرين ، لكن سام كان يذهب دائما فيحضرها .

ولقد بلغ من حرص الرجل على طهارة ابنته أن غضب غضبة مضرية عندما ضبطها ذات يوم وقد ألصقت على حائط غرفتها صورة ممثل مشهور أخذتها من احدى الصحف ، فذهب الى مسز بيتشام محنقا وقال لها ، وكأنه يحملها وزر ذلك كله :

— ابنتك هذه ! انها شعلة من الشهوات الدنيئة . ستفسد اذا لم نَحْكُمها جيدا .

لكن فكرة مسز بيتشام عن الشهوات الدنيئة كانت مختلفة عن تصورات زوجها تمام الاختلاف ، فوق أن ذكرياتها بذلك الشأن كانت مريرة للغاية . ولذا فانها لم تلق الى برطمة زوجها بالا ، وعندما تخطت ابنتها عامها الثامن عشر ، بدأت تصحبها معها في نزهتها الاسبوعية ، بعد ظهر أيام الاحاد ، الى حانة « الاخطبوط » ، وهي حانة من « النوع المحترم » ، تباهى غيرها من الحانات بحديقة خلفية صغيرة فيها ثلاث شجرات كستناء عجفاء ، يستأجر صاحبها جوقة نحاسية تعزف فيها ، في امسيات أيام الاحاد ، فيكون هناك رقص ، من النوع المتحفظ ، بطبيعة الحال ، بينما تجلس الامهات بجوار سياج انحديقة يشتغلن التريكو .

لم يكن من المعقول أن تتردد فتاة في جمال بولي على مكان كهذا طويلا دون أن يلحظها أحد . فسرعان ما كثر خطابها . من الخطاب اثنان بدا أنهما جديران بالنظر ، أولهما يدعى مستر بيكيت . والآخر — وهو الطف معشرا — اسمه مستر سمايلز . غير أن مستر بيكيت الذي ظهر أولا فلم يثر كبير اهتمام ، ازدادت فرص نجاحه بمجرد

ظهور مستر سمايلز ، وربما بسببه .
ولذلك قصة . فمستر بيكيت رجل قصير ، ربة ، غليظ المراوح ،
له رأس يشبه رأس فجلة ، يتحفظ في لباسه ، ويحمل عصا مهولة
يلفت حجمها النظر ، لا يكاد يتركها من يده ، ولون بشرته لا ينم عن
صحة . الحقيقة أنه لم يكن هناك أى وجه للمقارنة بين مستر بيكيت
ومستر سمايلز الذى كان يصغره سنا بكثير ، ويتفجر صحة ،
ووسامة ، وشبابا ، حتى يخيل لمن يراه أنه من أولئك الشبان
المنعمين الذين يتسابقون بالقوارب على مياه نهر التيمز . لكن السيد
بيكيت رجل أعمال ، بينما الولد سمايلز مجرد كاتب عند أحد
انحامين . ولذلك اطمأنت مسز بيتشام الى بيكيت أكثر مما اطمأنت
الى منافسه قليل الوزن . فالشبان من أمثال سمايلز تعرفهم هي .
لا احساس لديهم بالمسئولية ، يعيشون ، فى معظم الامر ، ليومهم ،
بلا أدنى تفكير فى القد ، وهمم الاول والاخير الجرى وراء ملذاتهم
العابرة . لذلك لم يخطر للسيدة بيتشام ببال أن تتحدث الى سمايلز ،
فتلمح له بأنه ان كان يريد بولى يجب أن يجتهد وينشط ، ليحسن
مركزه ، ويرسخ فى مهنته ويكبر ، لانه ما الذى يعنيه ذلك كله بالنسبة
لشباب طائش مثله ؟

فى الربيع انتظمت خوخة فى دروس مسائية للتدبير المنزلى . وبينما
هى فى طريقها الى البيت ذات ليلة ، ظهر السيد سمايلز بجوارها
فجأة ، فدفعها دفعا الى مدخل أحد البيوت ، والصقها بالحائط ،
وأخذ يحدثها ، وهى حبسة بين ذراعيه ، فقد وضع ذراعا الى يمينها
وأخرى الى يسارها ، وبسط راحتيه على الحائط وراء رأسها . لكن
الفتى لم يذهب الى أبعد من ذلك ، ولم يحاول ما هو أخطر . بدا أن
كل همه ان يشمها ، فيملاً خياشيمه برائحتها الحلوة .
ولقد خدست مسز بيتشام الحيرة ، لفورها ، بعض ذلك كله ،
فعنيت من تلك اللحظة بفحص ملابس ابنتها الداخلية قبل غسلها ،
فى موعد معين من كل شهر . ثم مالت بثقلها كله فى جانب المستر
بيكيت ، مظهرة بجلاء تفضيلها له . فالسيد بيكيت تاجر أخشاب
ملىء ، ورجل ذو مبادئ لا مأخذ عليها . وهكذا فان جاذبية الشاب ،
والوسامة ، ولطف المعشر ، رجحت عليها كفة سحر لا يقاوم ، سحر
الرجل الثرى التاجر الكبير .
فوق ان الطريقة التى يضع بها يديه حول الردفين ، اثناء الرقص ،
تلمو فى الحقيقة الى الدهشة ، من تاجر أخشاب مثله . ولقد أدرك

مستر بيكيت الذي لا يفوته شيء أن مسكاته ولمساته الحميمة لم تغب
عن فطنة الام ، لكنها تعامت عنها ، فبدا له ذلك التعامى بشير خير يعد
باشياء أحسن وأجل شأنًا تأتي مستقبلا ، وأطمأن الى أن الطريق
لهذه بات مفتوحا بغير عوائق أو صعاب . لكن الرجل الحصيف لم
يذهب الى ما هو أبعد من هذه المداعبات السطحية البريئة .

غير أن الفتى سمايلز ، رغم مزايا السيد بيكيت هذه جميعها ، كان
يحوز عليه سبقا واحدا : توفر الوقت لديه . فالمستر بيكيت ، كما
هو متوقع ، كان رجلا مشغولا للغاية ، ولذا فإنه لم يكن يحتكم
فيما يحتكم فيه منافسه من وقت يكرسه للخوخة . لم يكن قادرا على
التخفف من أعباء العمل دائما ليجري وراءها .

ومع ذلك فإنه سرعان ما لاحظ أن الخوخة بدأت تميل الى اخذه
مأخذ الجد . ولحسن الحظ لم يكن الرجل عزوفا عن فكرة الزواج
كمعظم الناس . فلما السيدة بيتشام وابنتها الى رحلة على شاطئ
نهر التيمز ، في صباح يوم أحد . وقد أوشكت ترتيبات الرحلة ان
تفشل لان السيد بيتشام عاد الى بيته في الساعة الخامسة من مساء
السبت ، في حال يرثى لها من النكد ، وبصوت يثير الشفقة طلب
فنجلنا من الشاي بالبايونج يشربه قبل النوم ، ثم جعل زوجته تضع
قالبا من الطوب ، ملفوفا في قطعة قماش دافئة مندأة ، على معدته .
كان مستر بيتشام قد تورط ، في الآونة الاخيرة ، في عمليات
خارجة عن نطاق نشاطاته المألوفة ، تتعلق بمسألة فيها بواخر شحن .
ولم تكن تلك العمليات الجديدة عليه ، سائرة على ما يرام فيما يبدو ،
ولذلك أوجعته معدته . لأن أضعف ما في مستر بيتشام معدته . أقل
قلق يسبب له اضطرابات فيها . لكنه تحامل على نفسه في صباح
الأحد ، وذهب الى الكنيسة في صحبة زوجته وابنته ، رغم ضعفه
الشديد ، ثم تركهما وذهب رأسا الى اجتماع ما . وقد حالف المرأتين
التوفيق ، فقد بدأ واضحا أن الرجل كان يعاني متاعب خطيرة .
كان مستر بيكيت ، الذي جاء لاصطحاب المرأتين مرتديا بذلة
بيضاء ، قد استأجر عربة حنطور يقومون فيها برحلتهم . وقد لاقى
صعوبة حقيقية في العثور على عربة من هذا النوع ، ضيقة المقعد (١) .

(١) العربة التي استأجرها مستر بيكيت ، ليتيح له مقعدها الضيق أن
يلتصق بيولي أثناء الرحلة ، اسمها بالانجليزية هانسون « (Hansom) » وقد
ترجمناها بعربة حنطور لأنها أقرب ما هي للذاكرة لدينا - وهي عربة مفلقة بها
مكان لشخصين فقط ، يقف سائقها على منصة صغيرة وراء صندوقها ليقود
جواده .

لكن مسز بيتشام حشرت نفسها بين مستر بيكيت وبولي . وهو ما يبدو أن الرجل كان قد توقعه ، وأخذ له أهفته ، لان السلة التي انحشرت في العربة معهم ، بين ثلاثة أزواج من الأقدام ، عندما كشف غطاءها على العشب الأخضر ، طالعنهم ، بجانب البيض المسلوق ، وسندوتشات الجامبون ، والفرخة المحمرة ، بثلاث زجاجات من العجن . وهكذا نال مستر بيكيت الحضيف بغيته ، فسهل بالجلوس على المقعد الضيق ، لصق بولي الحسناء ، في رحلة العودة .

بدأت السماء تمطر مطرا خفيفا ، وسرت في الجو برودة ، لم يجد معها الحرام (١) الذي لفوا به أرجلهم لانه جعل أصلا لراكبين فقط ، فأخذت مسز بيتشام تستحث السائق على الاسراع بصوت فقد كثيرا من نعومته ، قائلة أنهم تأخروا في العودة كثيرا . فقد قاربت الساعة الثانية .

توقفت العربة امام حانة « الاخطبوط » لينزل منها مستر بيكيت . ولم يستغرق الوداع أكثر من لحظة ، كما لم يذكر أحد منهم شيئا عن أى لقاء آخر . نزل تاجر الاخشاب من العربة فوقف في نفس المكان الذى التقى فيه بالمراتين عند بداية الرحلة ، وكأنه لم يتحرك من مكانه ، او يتغير فيه شيء ، اللهم الا ما اضيف الى رأسه المربع من قطرات المطر . لكنه ، في حقيقة أمره ، كان قد مر بتحول كامل ، فلم يعد ذلك الرجل . يشهد بذلك أنه ، وهو التاجر الذى يحسب كل دقيقة بما يربحه او يخسره فيها من نقود ، ظل طيلة الاسبوع التالى يقضى كل أمسياته ، عدا مساء الخميس ، في حانة « الاخطبوط » . على أمل . بل وتردد على الحانة مرتين في احدى الامسيات . كما رآته مسز بيتشام ، اثناء النهار ، يتسكع في شارع أولد اوك ، أو يقف مستندا الى عصاه الغليظة التى كان يضعها وراء عجزه ممسكا بها بكلتا يديه . وقد راقبته مسز بيتشام من وراء الستائر جيدا . فلاحظت أنه يقضى معظم وقته محملا في اللافتة المكتوب عليها « آلات » .

كان يدرس المنزل بامعان .

لم يكن السيد بيكيت عبيطا . لاحظ اشياء كثيرة وهو واقف يرقب المنزل فيشهد عن كذب النشاط الذى لا يهدأ لتلك الورشة العجيبة . رأى رجالا أسوياء أصحاء يدخلون من الباب ، ليخرج بعد دخولهم رجال مقعدون مشوهون يتحركون على طاولات العجزة ذات العجلات

(١) الحرام ، بكسر الحاء .

وسرعان ما تبين أن الخارجين لم يكونوا أناسا غير الداخلين . وفجأة
تجلبت لذهنه الحصيف طبيعه الصناعة التي تشتغل بها ورشه مستر
بيتشام . ولتوه أدرك الرجل أن هذه الورشة منجم ذهب لا ينضب .
وفي نفس الوقت الذي تكونت فيه هذه الافكار وتشكلت في ذهن
مستر بيكيت اللماح ، كانت أفكار أخرى محددة تتكون وتشكل في
ذهن مسز بيتشام عن هذا الخاطب اللحوح وهي واقفة ترقبه من
نافذة في الطابق الاول .

بدا أنه كان يتوقع حركة ما من جانب الخوخة ، لن تقدم الفتاة
عليها . والظاهر أن ما استقر عليه رأيه من أن شيئا معينًا حدث
أثناء تلك الرحلة يجب أن تترتب عليه نتائج بعينها ، لم يستقر عليه
رأى الطرف الآخر . فالآنسة بيتشام باتت تستخدم مدخلا جانبيا
يقع في شارع آخر ، تدلف منه الى بيت أهلها ، عند عودتها من دروس
التدبير المنزلى المسائية .

وفي معظم الاحيان كانت تسارع بالانصراف من تلك الدروس لتقابل
الولد سمايلز . لسبب ما وجدت متعة في السير معه عبر الحديقة
العامة ، في عتمة المساء ، وقد اكتظت الدكك جميعا بالمحبين . وهما
يسيران معا كان الفتى يقول لها أشياء لطيفة ، ويظهر اهتماما عظيما
بمظهرها . وقد شغف بموضع معين من عنقها كان يحب أن يراه
دائما ، فاذا ما ارتدت ثوبا يخفى ذلك الموضع قال لها ان الثوب
لا يلائمها . وقال أيضا أنها ستدفعه الى الجنون .

كان يحافظ على مواعيده معها بكل دقة ، ويأتي دائما بعجلة ظاهرة .
وقد توصل ، بهذه الطريقة ، الى الايحاء بأن لديه مشاغل عديدة
وملحة ، لكنه يهملها في سبيل لقاء بولى .

في تلك الايام تفتحت الخوخة حقا للمرة الاولى . كان الوقت ربيعا .
الفت بولى أن تدخل عنابر الورشة مرتدية ثوبا أزرق فاتح اللون فيه
دوائر بيضاء وترقب عملية كي الثياب بالشحم لتبدو قدرة ، فاذا
ما اغتاطت العاملات السقيمات في تلك العنابر الخربة الرطبة المعتمة
من منظرها المترف ، وأخذن في « التنبيط » عليها بالسنة يعوزها
الاحترام ، رفعت لهن طرف ثوبها ، واستدارت ، فأرتهن عجيزة
بيضاء صغيرة .

ثم تخرج بعد ذلك لتلعب مع الكلاب في الفناء ضاحكة وتطلق عليها
أسماء مضحكة . أطلقت على كلب منها اسم سمايلز . حتى شجرة
البرقوق الزرية في الفناء اكتشفت فجأة أنها جميلة . وفي الصباح

وهي تغتسل كانت تغنى . باختصار كانت الفتاة عاشقة ، لكن ليس لأحد بعينه .

وكل مساء تستلقى على بطنها أمام نافذتها ، واضعة وجهها المستدير كالبدريين كفيها وتقرأ الروايات . فتتنهد ، وتقول لنفسها : - يا لله ! ياله من منظر فظيع هذا الذي يدور حول الفيرا ، النقية ، الجميلة ، الطاهرة ، وهي تناضل ضد أفكارها الشريرة التي تدفعها إلى ارتكاب المعاصي ! انها تحب حببها ، الرياضى ، الشجاع ، تحبه من كل قلبها الذي يحمل له أقوى المشاعر وأنبليها ، ومع ذلك فهناك شهوات تتلصص في أعماقها . شهوات حسية غارقة في الظلام ، لا تختلف في شيء عن المعاصي المفرقة في الخطيئة ! وكثيرا ما تنهد بولي الجميلة متسائلة : « ترى ما الذى سيحدث لى مع هذا الرجل الوسيم ؟ وأين سيحدث لى ؟ » ان حالى كحال الفيرا ، بل أسوأ . لأنى لست عاشقة ومع ذلك تملكنى هذه الشهوات . هل أستطيع ان ادعى ان حببى هو الذى أثارها بين جوانحى ؟ لا أستطيع ان ادعى ذلك . لا أستطيع ان أقول أنى ضحية وسامته التى افقدتنى الصواب . - لانه منذ الذى يستطيع ان ينسب الوسامة الى مستر بيكيت ؟ أو الشجاعة الى مستر سمايلز ؟ لكنى أقوم من فراشى المنجد بالرشح صباح كل يوم ، وبينما انا اغتسل تجتاحنى شهواتى - وهى شهوات شريرة - فتجعل حتى مستر بيكيت ، ومستر سمايلز ، وسيمين فى نظرى ! وكم أخشى ان طال الامر أكثر من ذلك ، ان تجرفنى شهواتى الجسدية الى الحضيض ، وهو المكان الذى قيل لى دائما أنه مآل كثير من منكودات الحظ ممن تتسلط عليهن مثل هذه الرؤى والأحلام التى تتكاثر على كلما انفردت بنفسى فى غرفتى الوردية هذه ، مهد الظهر والبراءة ، وآويت الى فراشى ، وجذبت أعظيته حتى أسفل وجهى ، واخذت احلم . وبالحا من أحلام ، لا أجرؤ حتى على ذكرها ! بضع ليال اخرى محمومة كهذه واجدنى مضطرة الى الارتواء فى احضان اول رجل اقبله ، حتى ولو كان جورج الأعرج العجوز الذى يحرس الكلاب فى الفناء . لكن مستر بيكيت ، بعد كل شيء ، لا يمكن أن يكون عريسا سيئا الى الحد الذى يوقعنى فى كل هذه الحيرة . ومع ذلك هل أجد القوة على الانتظار ؟ ما الذى أستطيع ان أفعله لكى أحافظ على مظهر الود والطهارة الذى لا شك انه يتوقعه فى زوجته المقبلة ؟ وكيف أستطيع ان أقابل نظراته بنظرة صافية بريئة تكبح جماح أية شهوات دنيئة قد أثيرها فى صدره ، وهى

شعوات ما من سبيل الى اشباعها ابدا ، ابدا ، قبل الزواج ؟
كان قرار خوخة بالزواج من تاجر الأخشاب قرارا لم يتم التوصل
اليه بعد اى قدر يعتد به من التدبر واعمال الفكر . كل ما فى الامر
أن رجاحة العقل العملية للغاية التى تتمتع بها ابنة مستر بيتشام
انتقت من بين خاطبيها العريس الارسخ قدما ، والاطول باعا ، الذى
يمكن الاعتماد عليه .

ومع ذلك ، فان المستر سمايلز تمكن ، بجاذبيته التى لا تقاوم ، من
مقابلة الأنسة بيتشام المرة تلو المرة . بل وحاول الوغد أن يقنعها
بالعيش معه فى غرفة مفروشة . لكن ذلك الاقتراح ترك فى نفس الفتاة
انطبعا بأنه كان عاجزا ، على المستوى الاقتصادى ، عن اعالة زوجة .
وفى زيارتها الثانية لمستر سمايلز فى غرفته المفروشة ، رآها مستر
بيكيت وهى تغادر المنزل معه .

وفى اليوم التالى فتحت مسز بيتشام خطابا مشرا للاهتمام من هذا
الخير يتوسل فيه الى بولى أن ترتب له لقاء معها ، ويذكرها صراحة
بواقعة معينة حدثت يوم الرحلة . كانت لهجة الخطاب كلها كريهة
ل للغاية .

دبرت مسز بيتشام أمورها بحيث يقابل مستر بيكيت ابنتها مرة
ثانية ، فى حانة « الأخطبوط » ، يوم الاحد التالى . لم تكن تعرف
الشيء الكثير عن حكاية ابنتها مع الولد سمايلز ، ولم تكن على
استعداد لأن تصدق شيئا حتى لو أخبرها احد . كان شغلها الشاغل
التفكير فى طريقة تحذر بها ابنتها بلباقة ، ودون أن تؤذى احساسها ،
من الاستسلام السريع ، لتاجر الأخشاب الذى كانت قد اختارته
لابنتها وانتهى الأمر . كانت ترقد فى الفراش ليلا ، بجوار زوجها
ضئيل الحجم ، وتنغمس باستمتاع شديد فى تصورات لا تستحى عن
أوضاع من العناق الزوجى الحميم بين ابنتها وبين بيكيت - أو
بالأخرى جيمى ، كما كانت قد الفت أن تدعو تاجر الأخشاب مؤخرًا .
لكنها عندما ذهبت الى « الأخطبوط » ، فى مساء الاحد ، فارقتها
قلتها .

تكس رواد الحانة حول المنضدة الحديدية المستديرة تحت شجرة
الكستناء ، حتى أوشكوا أن يجلسوا بعضهم فوق بعض ، إلا عندما
يكون رقص ، فتقل كثافتهم قليلا ، وتذهب بولى ومستر بيكيت للرقص
هما أيضا . لكنهما عندما يعودان يصبح الحديث أمرا صعبا ، بالنظر
الى تكس الآخرين . ومع ذلك لم يعد مستر بيكيت وسيلة يبتعد

بها مع المرأتين عن ذلك الزحام .
طلب تاجر الأخشاب لنفسه طبقا من الكبد الضانى بالزيت والحل .
وبينما هو يعد طبقه ببراعة يحسد عليها ، أدار دفة الحديث الى
ستانفورد سيلز ، السفاح ، الذى نسبت اليه الصحف مؤخرا عدة
جرائم قتل فى حى الميناء . ولما كانت السيدتان تعرفان اسم ذلك
السفاح وحكايته ، فقد أخذتا تتبادلان التكهانات معه عما يحتمل أن
يكون عليه شكل الرجل .

وهنا أخذ مستر بيكيت يتحدث حديث عليم ببواطن الامور عن
ذلك السيد الذى دوخت جرائمه البوليس ، لان البوليس لم يستطع
أن يكتشف دافعا مقبولا يدفعه الى ارتكابها . وقد بدا من حديث
مستر بيكيت أن عالم الجريمة نفسه كان يجلس مستر ستانفورد سيلز
هذا اجلا لا يقرب من الرهبة التى يحسها الناس فى مواجهة قوى ماوراء
الطبيعة . بل وقد حدث فعلا أن عددا من المجرمين الذين ظل البوليس
يطاردهم زمنا طويلا دون جدوى ، تقدموا ، من تلقاء أنفسهم ، فجأة ،
فسلموا أنفسهم ، باختيارهم ، لسكوتلاند يارد ، لمجرد أنهم أحسوا
أن « السكين » فى أعقابهم . و « السكين » ، كما هو معلوم ، كنية
مستر ستانفورد سيلز ، بين حثالة الميناء .

كانت بولى ، فيما تبين ، ملمة بأوصاف ذلك السيد سيلز الماما
كاملا ، وقد وصفته لتاجر الأخشاب وصفا دقيقا .
قالت أنه أشقر ، ممشوق القوام ، أنيق بفطرته ، حتى ليبدو ، فى
ثياب عمال الشحن ، كما لو كان سيدا من علية القوم يرتدى تلك
الثياب على سبيل التفكهة والتنكر . وقالت أيضا أنه عطوف مع
النساء .

الواقع أن بولى تحدثت فى ذلك اليوم كما لم تتحدث من قبل ،
حديثا طليا ، يبعث البهجة فى النفوس . فقد أثر مستر بيكيت فيها
تأثيرا عميقا ، وحرك مشاعرها ، فتألفت .
ظل الاثنان يرقصان ، معظم الوقت ، بنشاط فائق ، فلم يتسن
لمسر بيتشام - لفرط ضيقها - أن تتابع حديثهما كاملا . لكنها
استطاعت مع ذلك أن تكون معها بأذنها . وكم كانت دهشتها عظيمة
عندما وجدت حديث ابنتها منصبا - بعد سيلز ، السفاح - على الولد
سمائلز ، وكم هو ساحر ، ولطيف ، وجذاب . ولم يفتها أن تلحظ
كيف أن المستر بيكيت أصفى لذلك كله وهو يتصبب عرقا ، حتى
ابتلت ياقته وارتخت .

لكن بولى بدت ممسكة بزمام امره فى يدها ، وقد بدأ واضحا أن
الرجل كان قد وقع فى شباكها تماما .
فى صباح اليوم التالى كان واقفا من جديد ، فى شارع أولاد أولك ،
مامم الدكان . وفى المساء تجرا ، فسمح لنفسه بزيارة مسز بيتشام
فى عقر دارها ، مما سبب لها حرجا عظيما ، لأنها خافت من مستر
بيتشام الذى لم تكن لديه أدنى فكرة عن حكاية ابنته وخطابها ، وهى
حكاية كانت زوجته تنوى أن توفقه عليها تدريجيا ، وبمنتهى الحرص .
جلس مستر بيكيت على حافة الكنبه القטיפه الحمراء فى غرفة
الجلوس ، وأخذ يحذر مسز بيتشام من ذلك الولد سمايلز ، لأنه ليس
شابا ابن ناس ، بل هو منحرف ، والحقيقة أنه فاجر ، وابن حرام ،
ويجرب دائما وراء النساء . ثم سأل المرأة عما اذا كان سمايلز هذا
قد ضايق بولى بالخطابات او بأى شىء من هذا القبيل ، فلما أجابته
مسز بيتشام نفيا ، بدأ واضحا أنه لم يصدقها ، وهم بأن يقوم الى
المدفأة فيقلب رمادها بحثا عن رسائل غرامية تكون قد أحرقت فيها .
وتصادف أثناء خروجه أن قابل بولى على الدرج ، فصحبها الى
مدرستها المسائية . أخذت الفتاة تثرثر طيلة الطريق عن بيتها ،
وعن الاعداد الكبيرة من الناس الذين يترددون على منشأة أبيها ،
داخلين خارجين طوال النهار ، وعن الشبان الذين يعملون بقسم
الثياب ، وكيف أنهم يحبونها جميعا ، لأنها لا تتعالى عليهم أو تسىء
معاملتهم .

لكن تاجر الاخشاب، وهو يمعن النظر فى وجهها، بدأ له أن هناك
هالات زرقاء حول عينيها ، فسبب له ذلك كمدا شديدا .
وبعد ذلك أطلق العنان لخياله ، فأخذ يراها بعين الخيال ، فتاة
حسنة شهية ، فى بيت كبير كالمناهة ، فيه أبواب عديدة يلجها دائما ،
بغير انقطاع ، شبان يدخلون ويخرجون - بيت ، فى الواقع ، لا يصلح
البتة لفتاة فى مقتبل العمر . وفى مؤخرة وعيه كانت ذكرى تقضى
مضجعه ، وتهول له الامور : ذكرى واقعة معينة حدثت يوم الرحلة ،
أو ، على وجه الدقة ، أثناء العودة من تلك الرحلة . كانت تلك واقعة
لم يجد فى نفسه الجرأة على ذكرها أو التحدث بشأنها ، لا الان ،
ولا فيما بعد عندما منعه سلسلة متلاحقة ثقيلة الوطاء من نواب
الدهر من اطالة الحديث مع زوجته . لكن عدم ذكره لتلك الواقعة ،
وعدم تمكنه من مناقشتها لايعنى أنه نسيها أو استخف بشأنها . على
العكس . ظلت ثقيلة رازحة على صدره . فقد نفثت تلك الواقعة

المشثومة فى نفسه شكاً قويا فى طهارة بولى وبراءتها ، وسلطت عليه فى الوقت ذاته وسواسا مقيما جعل من تلك البراءة وشكوكه حولها شغله الشاغل .

والحقيقة انه لم يصب فى حياته بمثل ما أصيب به من عشق لبولى وأنشغال بها . ولقد كانت هناك ظروف عديدة اسهمت فى خلق ذلك الانشغال المجدود . قال السيد بيكيت لنفسه وهو يتفحص مشاعره تجاهها :

— من الخطأ الفاحش أن يسأل المرء نفسه ان كان يتزوج الفتاة التى يتزوجها من أجل مالها أم من أجل شخصها ، لانه غالباً ما يكون دافعه الى الزواج قائماً على الاثنين معا . والحقيقة ، أى شىء يمكن ان يفوق بائنة الفتاة سحراً ، نعم نعم ، بغير مالها كنت سأرغب فيها بغير شك ، ولكن ربما ليس بهذا الوله !

حقيقة الامر أن تاجر الاخشاب لم يكن غشيميا فيما يتعلق بمسائل الحب والهوى . فقد سبق له الاقتران بأكثر من زوجة — وغالباً فى وقت واحد معا — لكنه لم يكن لديه وقت للمغامرات ، لانه كان متورطاً فى أعماله مع أناس خطرين للغاية ، وكان لديه من الهموم التى تقصم الظهر ما يكفيه وأكثر . كل ما فى الامر أنه كان ، فى تلك الآونة ، فى مسيس الحاجة الى زيجة جديدة . بل ان تلك الزيجة كانت أمراً حيويًا بالنسبة له . فلم تكن أحواله التجارية رائجة فى تلك الايام ، وكانت محلاته تخسر .

وكان فى تلك الايام أيضاً يحمل فى جيب سترته الداخلى عدداً كبيراً من قصاصات الصحف تتضمن تفاصيل حديث صحفى كان أحد المخبرين قد أجراه مع مدير البوليس عن القاتل المدعو ستانفورد سيلز ، المعروف باسم « السكين » . كانت تلك القصاصات قد أرسلت الى السيد بيكيت من مجهول ، وقد سببت له ازعاجاً شديداً ، وبسببها أيضاً أطبق شفثيه ، فلم يلفظ حرفاً من كلام كثير كان على طرف لسانه .

بعد قرابة أسبوع حدثت لمستر جونانان ارميا بيتشام ارتباكات مالية خطيرة ، نتيجة للاعيب معينة قام بها شخص اسمه مستر كوكس ، فلم تكد تلك الارتباكات تحدث ، حتى اتجهت افكار مستر بيتشام ، بطريقة اوتوماتيكية ، الى ابنته الفاتنة .

(٢)

والان كلهمو ذهبوا الى الحرب معا ،
وكل واحد منهم يصرخ في طلب طلقات البنادق .
هناك بطبيعة الحال اناس كثار طيبون
سوف يوفرون لهم كل ما يحتاجونه من رصاص عن طيب خاطر .
« لن نحارب بغير ذخيرة ! » سوف يهتفون ،
وسوف يقال لهم « اتركوا ذلك الامر لنا يا ابناءنا ،
« هيا اذهبوا انتم الى الميدان وقاتلوا ،
« وسوف نصنع نحن لكم كل المدافع والذخيرة . »

ثم وقد صنعوا تلالا من ذخيرة ،
لم يجدوا حربا جيدة لها ،
هناك بطبيعة الحال اناس كثار طيبون
سوف يخلقون لهم حربا من الهواء كالحواة ،
وسوف يهتفون :
« هيا هيا انطلق الى الجبهة يا ولدى العزيز ،
« هؤلاء الاوغاد يتهددون ارض اجدادك ،
« سر هيا يا بنى سر ، من اجل أمك ومن اجل اخواتك ،
« سر في سبيل الله والوطن والملك »

(أغنية حرب)

حاجة حكومة صاحبة الجلالة

ويليم كوكس كان سمسارا . والمفروض ، طبقا لما هو مكتوب في بطاقة زيارته أن لديه مكتبا في مكان ما من حي المال والاعمال بمدينة لندن ، لكن من النادر جدا أن يتردد عليه أحد في ذلك العنوان ، وهو شخصا لا يستعمله الا فيما ندر . والحقيقة أنه لم يكن لديه سبب

معتقولا واحدا يجعله يذهب الى ذلك المكان ، لان المكتب لم يكن يحتوى الا على فتاة شاحبة لانفع قبيها ، جالسة مع آلة كتابة قديمة مهشمة الحروف ، لاتفعل شيئا ، لانه لم يكن هناك أى شيء تكتبه . كل مافى الامر أن الفتاة كانت تجلس فى انتظار البريد ، الذى كان يسلم فى ذلك العنوان حتى لا يضطر مستر كوكس الى الافصاح لاحد عن عنوان بيته . فلم يكن يستقبل أى مخلوق فى بيته ، وكل صفقاته كان يعقدها فى احد المطاعم .

كان من دأبه أن يقول :

— لست فى حاجة الى منظمة أعمل من خلالها . فانا لا أتعامل الا

فى الصفقات الكبيرة !

لم يكن يلمس أى شيء قدر . كان يرتدى قفازه أبدا . وكان يرتدى أيضا بذلة رمادية فاتحة اللون ، جاهدة ، وجوارب بنفسجية ، وربطة عنق قرمزية . ولسبب ما رسخ فى ذهنه أن الناس يعتقدون أنه ضابط فى ثياب مدنية . لذلك كان يمشى دائما مشدود القامة ، بخطوة عسكرية .

ولا يعنى عدم وجود مستخدمين لديه يكبدونه مرتبات باهظة انه كان بغير معاونين . ففى مكاتب حكومية معينة كان يجلس أناس مختلفون يعاونونه ويحققون له من الفائدة ما لم يكن ليحصل عليه من حشد كامل من الكتبة الكسالى سليطى اللسان .

كان له معاون من هذا النوع ، مثلا ، فى الاميرالية .

من ذلك المعاون استقى ذات يوم معلومة مؤداها أن حكومة صاحبة الجلالة كانت فى ميسس الحاجة . هذه الحاجة كانت الى سفن نقل الجنود ، بالنظر الى ضرورات الحرب التى دعت الى نقل حشود كبيرة من هؤلاء الجنود الى كيببتاون . وبلا أدنى تردد قرر كوكس لفورم أن يبذل كل مافى وسعه لاشباع تلك الحاجة لدى حكومة صاحبة الجلالة . ولما كانت الصفقة بحرية ، فانه ذهب الى حانة يؤمها صنف وطفىء من البحارة المحترفين ، وبدأ يستعلم بحذر عن امكانية الحصول على عدد من أقدم السفن . وسرعان ما سمع عن سفن ذلك شأنها ، تملكها شركة بروكلى وبروكلى الملاحية ، وهى مؤسسة كانت تتعامل — بين نشاطات أخرى — فى تجارة السفن جاهدة الصنع .

كان فى لندن ، فى تلك الاونة ، عدد كبير من الناس الذين لم يلتزموا تمام الالتزام بما يمليه الضمير من الاستجابة لرجاء الحكومة بلن تقديم دنيا الاعمال مؤازرتها الكاملة للدولة فى صراعها مع البوير . فبات

الموقف هكذا ، طبقا للمثل الانجليزي المشهور : كان هؤلاء السادة على استعداد لان يبيعوا المربي للحكومة ، لكنهم لم يكونوا على استعداد لمشاركة الحكومة في أكلها . غير أن مستر كوكس لم يكن من تلك الفئة الضالة . فلم تكن لديه أدنى رغبة في الاثراء على حساب الكوارث التي تحيق بوطنه . ولذا فانه انخرط في استقصاءات متعبة ، وان كانت لاضرر فيها ، حول امكانية استئجار مكاتب وآلات كاتبة . وهو مالم يكن مستر كوكس في حاجة اليه ، لان أي انسان له صديق صاحب نفوذ في الاميرالية ، مثله ، كان حريا بأن يعرض على الحكومة تلك السفن الناقلة للجنود التي سمع بها في الحانة ، بغير حاجة الى أدنى تعقيدات . فقد كانت تلك السفن تتسع لاعداد هائلة من الجنود ، فوق أن الاستفسارات اللبقة التي تمت بشأنها من شركة بروكلي وبروكلي أثبتت أنها رخيصة فعلا .

والحقيقة انه لم يرد ذكر لاي شيء ، خلال المقابلة السريعة التي تمت بين السمسار كوكس والسادة بروكلي وبروكلي بشأن السفن المعروضة للبيع ، خلا حمولة تلك السفن وثمانها . فلم يسأل السيد كوكس أي سؤال يخرج عن ذلك الموضوع المحدد ، كما لم يفه اصحاب الشركة بحرف عن حالة السفن . وبناء عليه فان اولئك السادة كانوا على استعداد لان يقسموا على ذلك ، بضمير مستريح ، في أي وقت ، أمام أية محكمة .

لم يشر أحد ، أثناء المقابلة ، الى أية رغبة من جانب مستر كوكس في شراء سفن من بروكلي وبروكلي ، رغم أن السفن التي جاء ذكرها كانت رخيصة فعلا وواسعة . كل ما هنالك أن مستر كوكس يعرف اناسا كثيرين على استعداد لدفع مبالغ لا يستهان بها مقابل الحصول على سفن شحن . فأسعار الشحن ارتفعت كثيرا بسبب الحرب ، والسفن المعروضة للبيع قليلة وباهظة الثمن . (لكن الحقيقة ، رغم ذلك كله ، أنه مامن أحد في كامل وعيه يبحث عن سفن لاتفرق بمجرد أن تبحر يمكن أن يذهب الى السادة بروكلي وبروكلي بحثا عن تلك السفن) .

ولقد كان مستر كوكس مهتما - وبصورة عاجلة - بالبحث عن سفن جيدة ، لا للحكومة ، بل لبعض الشركات الخاصة . فحاجة الحكومة الى سفن نقل الجنود كانت مسألة ثانوية للغاية بالنسبة اليه وهو لم يهتم بها أصلا الا في نطاق بعض نشاطاته الجانبية . ولذلك قضى اسبوعا آخر في البحث عن مزيد من السفن .

ولم يضع جهده هباء ، فقد اكتشف ثلاث سفن أخرى تصلح ناقلات للجنود ، جديدة عن سابقاتها ، وأكثر صلاحية من كل الوجوه . ولقد اضطر الى القيام بعدة رحلات ، واحدة منها الى ساوثمبتون ، في معرض بحثه عن تلك السفن ، فلما كمل سعيه بالنجاح ، وجد انه قد وفق الى ثلاث سفن مملوكة لاشخاص مختلفين ، لا يمكن اعتبارها رخيصة بحال ، لكنها تبدو جيدة متينة فعلا .

أخذ مستر كوكس علما بتلك السفن ، ثم عاد الى لندن . وهناك عاد الى البحث في كيفية اشباع حاجة الحكومة . لكنه - كما سنرى - لم يهمل مصالحه الخاصة وهو يفعل ذلك . ولقد انصبت مصالحه هذه على شراء عدد من سفن الشحن الجيدة ، كتلك التي شاهدها في ساوثمبتون ، بأرخص سعر ممكن .

فيما يخص عملية الحكومة ، تحدث مستر كوكس ، في لندن ، امام عدد من رجال الاعمال جمعهم معا ليتحدث اليهم في ذلك الخصوص . ولم يكن من الصعب العثور على مثل أولئك الناس . فقد كانت مدينة لندن تغلي غليانا وتجيئش بالمبادرات الفردية . فحى المال والاعمال كان قد اشتعل حماسا للوقوف بجانب الوطن في الحرب مع البوير . الحقيقة أن الحكومة كانت زبونا مثاليا لامثيل له .

ولقد علم صاحبنا مستر بيتشام بحاجة حكومة صاحبة الجلالة وهو في صحبة أربعة أو خمسة من السادة الذين كانوا لا يقلون عنه حماسا لان يهرعوا الى اجابة أى أمر يقرأونه مجرد قراءة في عيني الحكومة . وقد اجتمعوا في مطعم محترم من مطاعم الطبقة المتوسطة بحى كينسينجتون . اكتشفوا بعد أن تم التعارف بينهم أن جمعهم يضم أحد البارونات ، وسمسار مراهنات غير مشروعة على سباق الخيل ، ومدير مصنع قطن في لانكشاير ، وصاحب مطعم ، ومالك عقارات سكنية ، ومربي أغنام ، وصاحب إحدى الشركات الكبيرة التي تتعامل في الآلات الموسيقية المستعملة .

اعطوا النادل طلباتهم ، ثم استرخوا في مقاعدهم يستمعون الى كلمة السيد ويليم كوكس التي القاها بمناسبة اجتماعهم . بدأ مستر كوكس كلمته قائلا :

- ان موقف بلادنا خطير بحق . بدأت الحرب كما تعرفون حضراتكم لان المواطنين البريطانيين المسالمين تعرضوا لهجوم مفاجيء وغير مبرر ، بلا أدنى استفزاز من جانبهم ، والاسوأ من ذلك أن قوات صاحبة الجلالة التي هبت لنجدتهم على الفور هوجمت في كل مكان هجمات

غادرة والحقت بها اهانات دامية في معرض قيامها بواجبها لحماية
الممتلكات البريطانية . ولقد قرأتم جميعا بغير شك عن الهجمات
المضادة التي ظلت حكومتنا تؤجلها حتى الان بسبب سعة صدرها
انزائدة عن الحد وحبها للسلام ، وهو موقف لم يعد الان مفهوما .
فانجلترا الان ، بعد أن نشبت هذه الحرب ، تقاتل حشدا غوغائيا
ممسورا من الفلاحين المجانين دفاعا عن ممتلكاتها وراء البحار . ففي
بلدة ميفكينج حوصرت القوات البريطانية . وهي تقاتل الآن دناعا عن
يقائها ضد جيش من البوير يفوقها عددا وعدة . وكل من كان من
حضراتكم متعاملا في بورصة الاوراق المالية يدرك جيدا ما الذي يعنيه
هذا . أيها السادة ! ان الغرض من هذا الاجتماع هو تقديم العون
السريع الى بلدة ميفكينج وتحريرها ! (تصفيق) أيها السادة ! لقد
دقت الساعة التي يجب أن يتحلى فيها رجل الاعمال البريطاني برباطة
الجأش ، والشجاعة ، والمبادرة ! هل يجب أن تضيع بطولة مقاتلينا
الشبان هباء لأنكم تكشفون عن افتقاركم الى هذه الحصال من الذي
يشن الحرب ياسادة ؟ العسكري ورجل الاعمال ! كل يشنهما من
موقعه . الحكومة لاتفقه في الاعمال شيئا . الحكومة تقول : اننا في
حاجة الى ناقلات جنود . فنقول نحن على العين والراس ، هاهي
الناقلات . فنقول الحكومة : انتم تعرفون اكثر مما نعرف عن هذه
الاشياء . كم ثمن هذه الناقلات ؟ ذلك شيء بوسعنا أن نعرفه بغير
ابطاء ، فنقول للحكومة ثمنها كذا وكذا . والحكومة لاتساوم . . فهي
تعرف ان النقود ستظل في البلاد . ثم انه لا يجب أن تكون هناك
مساومة بين الاصدقاء . فسيان أن تكون النقود في جيب هذا الصديق
أو ذاك الصديق . والحكومة وممثلوها في دنيا الاعمال أصدقاء .
هناك رابطة حميمة تربطها بهم وثقة متبادلة بينها وبينهم . يقول
الواحد منهما للآخر : « اسمع ، هذا شيء لاتعرف أنت أن تفعله ،
دعني أفعله نيابة عنك . فاذا صادفني شيء لا أستطيع ان أفعله ،
سوف تفعله أنت نيابة عني . » هكذا تولد الثقة . هكذا تنشأ
المصالح المتكافئة . يقول لي وزير هذه الوزارة أو تلك ونحن ندخ
سيجارة معا : « اسمع يا بيلي يابني . ان زوجتي لم تعد تستطيع تدبير
أمورها في بيتها الكبير ذي الاثنتي عشرة غرفة . ماذا أفعل ؟ » فأقول
له : « لا تشغل نفسك بصغائر كهذه ياسيدي الوزير . يجب أن تتفرغ
تماما لعملك . » وأدبر الامر له ! ثم تقرأون حضراتكم في الصحف ان
متيادته قد ألقى هذه الخطبة أو تلك في مسألة تمس مصالح البلاد ،

وإن تلك الخطبة قد عززت موقفنا في العالم ، وفي إفريقيا أو الهند أو أي مكان آخر تحدث أشياء عظيمة تزيد من قدر بلادنا ومكانتها زيادة ضخمة . لهذا أقول له : « تشارلس ! يجب أن تتحرر من كل الهموم والمشكلات ، من أجل صالح بلادك . لا يجب أن تشغلك متاعب صغيرة أو مشكلات مالية . وأنا مجرد رجل أعمال بسيط في حالي ، لا أبحث عن مجد أو شهرة . لا أريد أن أرى اسمي في الصحف ، ولا أريد تقديرا من أحد . كل ما أبتغيه هو أن أساعدك ، بهدوء ، وبغير علم من أحد ، في الجهد الخارق الذي تبذله للقيام بعملك العظيم في سبيل رفعة الوطن . أريد أن أقوم بواجبي المقدس تجاه وطني ! » ومثلي أيها السادة آلاف من رجال الأعمال الذين يعملون في صمت ، بغير ضجيج ، كجنود مجهولين لا يدري بهم أحد ، لكنهم يعملون ، إن سمحتم لي بالقول ، باستماتة ، وبراعة منقطعة النظير ، وسعة خيلة لا تنضب . وهكذا فإن رجل الأعمال يورد السفينة ، والعسكري يبحر عليها . رجل الأعمال ماهر واسع الخيلة ، والعسكري شجاع . أيها السادة . لا تدعونا نضيع الوقت في كثرة الكلام . دعونا نؤسس شركة للنقل البحري .

لقيت كلمة مستر كوكس نجاحا فوريا . شكره صاحب المطعم باسم الآخرين وباسم الوطن لأنه أوقفهم على ما فيه أداء واجبهم . وبعد أن نوقشت بعض التفاصيل العملية ، تم تحرير عقد ابتدائي بتأسيس الشركة . حضر النادل جبرا وورقا ، وأخذ سمسار المراهنات يكتب . ثم تقرر أن تشتري بأسرع ما يمكن سفن شركة بروكلي وبروكلي الثلاث التي ذكرها مستر كوكس حتى يجري أعدادها اعدادا كاملا ، على أن يقسم ثمن الشراء ثمانية (٨) أقسام متساوية ويدفع نقدا فور اتمام الصفقة .

عندما بلغوا ذلك الحد ، خيم على المائدة صمت عميق . فقد جاء وقت تحديد الانصبة في أرباح الشركة ، خاصة أرباح كوكس الذي اتاهم بالعملية كلها . طلبوا من النادل احضار مزيد من السيجار والجمعة .

ثم أخذ مدير مصنع النسيج يتحدث بغير اكتراث ، كما لو كان يدردش ، وهو يتابع دخان الكورونا الازرق بعينه :
 - يبدو لي أن الأرباح الصافية يجب أن تقسم على ثمانية لأننا ثمانية ، اليس كذلك ؟ أما صديقنا مستر كوكس فإنه يجب أن يحصل فوق نصيبه في الأرباح - على عمولة اضافية ولنقل أنها عشرة في

المائة من الثمن الذي تدفعه الحكومة .
نظر الجميع الى كوكس ، باستثناء واحد أو اثنين ، فمال كوكس
بمقعده الى الورا وقال باسم :
— هذه نكتة ظريفة !

كانت مطالبه أضخم من ذلك بكثير ، وقد أوضحها لهم بين علامات
الدهشة من جانبهم . ثم بدأت مناقشات استمرت ساعتين ، لم
تنخفض بعدها مطالب كوكس انخفاضا يذكر . وقد أحس الجميع
أن استمرار النقاش يومين آخرين لن يجديهم شيئا ازاء صلابته .
وهكذا اتفق على أن تكون العمولة خمسة وعشرين في المائة .
عندما انتهى السادة جميعا من التوقيع على الوثيقة بزفرات حري
وحزن على الوجوه ينبىء عن أنهم كانوا يوقعون أحكاما بالموت على أعز
أحبائهم ، انفض سامرهم بسرعة ، فذهب كل الى بيته .
وقد خرج مستر بيتشام من ذلك الاجتماع بانطباع مطمئن للغاية
بالنسبة للعملية كلها ، وبالنسبة لمهارة مستر كوكس وسعة باعه في
مسألة تقسيم الارباح . فمثل هذه المساومات لم تكن لتدور بمثل
هذه الجدية لو لم تكن العملية سليمة مائة في المائة .

متاعب لا تخطر لرجل الشارع ببال

ذات صباح غائم مفلج بضباب لندن عقد اجتماع ضم خمسة من
السادة في أحد المكاتب العديدة الصغيرة العارية ذات الاثاث الاصفر
التي يزرخ بها حي المال والاعمال في تلك العاصمة العظيمة . على
الباب الزجاجي المصنفر المفضى الى ذلك المكتب ، كانت هذه الكلمات
بأحرف مذهبة : « بروكلى و بروكلى — شركة ملاحه » .
بين الخمسة المجتمعين في تلك الغرفة كان السيدان بروكلى
و بروكلى ، وهما مخلوقان باهتان لا لون لهما ، مترددان لا يستقران
على رأى ، ينافس كل منهما الآخر في خوفه المبالغ فيه من اتخاذ
اى قرار يمس مصالحهما المشتركة . لان كلا منهما كان حريصا على
مصالح الآخر حرصه على الحياة ذاتها ، وقد بدأ كل منهما مهمونا
بغير حد لاقتناعه الكامل بأنه أضعف من أن يتحمل مسئوليتهما
المشتركة .

لهذا كان كل من يعرف مجريات الامور في حي المال والاعمال يعامل

هذين الاخوين كما لو كانا بيضتين نيتتين . وقد كان مستر كوكس من خيرة العارفين بمجريات الأمور في حى المال والاعمال ، فعاملهما تلك المعاملة بينما المجتمعون ينشئون عقدا يتم بمقتضاه نقل ملكية سفن الشحن الثلاث « آنا الجميلة » ، و « الولد البحار » ، و « المتفائل » ، الى الشركة الجديدة مقابل مبلغ اجمالى قدره ثمانية آلاف ومائتان من الجنيهات الاسترلينية (٨٢٠٠) ، على أن تتم معاينة السفن يوم الخميس التالى لتحرير العقد ، وأن يتم التوقيع على العقد فور اجراء المعاينة ، بعد دفع الثمن المتفق عليه نقدا وعدا .

قال أحد السيدين بروكلى :
- يسعدنى طبعاً أن أراكم كلكم هناك وقت اجراء المعاينة ، لكنى لا اعتقد أن هناك ضرورة لذلك فى حالة هذه السفن بالذات .
وهكذا تم ترتيب كل شىء على اكمل وجه .

ولهذا فان دهشة الاخوين بروكلى وبروكلى كانت عظيمة عندما فوجئا بمستر كوكس يزورهما فى مكتبهما فى صباح اليوم التالى ، فيستحلفهما بكل عزيز أن يقسما على السرية المطلقة ، فيقسمان ، واذا به يباغتتهما بعرض آخر ، من جانبه ، ل شراء السفن ، فى حالة عدم اتمام الصفقة التى تم الاتفاق عليها بالامس . وللأخوين عذرهما طبعاً اذا زلزلتهما هذه التطورات غير المتوقعة وأصابتهما باصطخاب داخلى عظيم .

نتيجة لذلك كله اتصل أحد الاخوين بروكلى بعد ظهر الاربعاء بصاحب عقارات الاسكان ، لا ل شىء الا لانه الوحيد الذى كان يعرف عنوانه من بين الشركاء ، فاستفسر منه بنبرة أمل حقيقى عما اذا كان هناك احتمال لالغاء العقد ، وصارحه القول بأن الشركة (بروكلى وبروكلى) قد تلقت عرضاً جديداً أفضل وأنه لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه توريث أخيه فى صفقة خاسرة بالتمسك بالثمن القديم الذى سبق الاتفاق عليه .

فغير ايستمان ، صاحب العقارات ، عن شديد أسفه ، نيابة عن الشركة لعدم إمكان التحلل من العقد ، وهنا غمغم بروكلى شيئاً بصوت مقهور عن يوم الخميس الساعة السادسة مساءً قائلاً أنه سيكون اذ ذاك فى حل من استئناف المفاوضات اذا لم تجر الأمور على وجه مرضى . وقد سارع ايستمان ، فى أعقاب تلك المحادثة ، باخطار بقية الشركاء ، طالباً منهم أن يراعوا موعد يوم الخميس بكل دقة . لكن كوكس اتصل بايستمان فى صباح يوم الخميس ودعا الى تناول

فنجان من القهوة معه في أحد المطاعم . وهناك اعتذر له عن تأخير
أضطراري طفيف ، قائلا أنه لن يستطيع أن يدفع نصيبه من النقود
الا صباح يوم السبت .

ونتيجة لذلك ، عقد اجتماع أتم بالاضطراب والاثارة ، في مطعم
آخر ، في تمام الساعة الثانية ، قبيل الموعد المحدد للمعينة . وفي
ذلك الاجتماع طالب مدير مصنع النسيج ، بانفعال ، بأمر من اثنين :
اما ان يتقدم كوكس بالمبلغ المطلوب منه فورا ، واما أن يتم التوصل
الى ترتيبات اخرى . وفي الوقت ذاته عرض أن يقوم هو بالوفاء
بالتزامات كوكس ، وأن يحصل على نصيبه في الارباح .

لكن ايستمان انتقد هذه الاقتراحات ، فبنى نقده على اعتبارين :
أولا ، الانذار الموجه الى كوكس ، وقد وافق عليه تماما ، وثانيا ،
العرض الذي تقدم به مدير مصنع النسيج ، وقد رفضه تماما .
وفي الوقت ذاته أعلن أنه مستعد لان يأخذ على عاتقه الوفاء بنصيب
كوكس .

وفي أعقابه سارع شركاء عديدون من بين السبعة باعلان استعدادهم
الكامل للحلول محل كوكس . وهكذا بدأ واضحا للجميع - فيما عدا
كوكس - أن هذا الاخير يجب أن يفقد نصيبه في الشركة اذا لم يتقدم
من فوره ويسدد نصيبه من ثمن شراء السفن . وقد أبدى كوكس
شكوكه في سلامة مثل هذا الاجراء قبله ، لكنها كانت شكوكا ضعيفة .
وفي نهاية الاجتماع كانوا قد اتفقوا جميعهم على تقسيم العملية الى
سبعة أنصبة بدلا من ثمانية ، على أن يحصل كوكس على عمولته
فحسب .

وقد بدأ ان ذلك القرار الصارم وقع على كوكس وقع الصاعقة
لانه أصيب بوعكة مفاجئة ، فاستأذن وذهب الى بيته ليأوى الى
الفراش ، معلنا انه لن يستطيع أن يصحبهم أثناء قيامهم بالمعينة .
اتفق ايستمان مع مهندس بحري سابق على أن يقوم بمعينة
السفن فنيا لحسابهم بوصفه خبيرا في هذه الامور . كان ذلك المهندس
رجلا طويلا ، نحيفا ، غائر العينين والوجنتين ، اسمه بايل ، طرد
من كل وظيفة التحق بها في حياته بسبب ادمانه الخمر . وقد قابله
الشركاء قرب الميناء ، فدعوه ، بناء على نصيحة ايستمان ، الى بضع
كؤوس من الخمر حتى ينعدل مزاجه ، ويعلن أن السفن الثلاث
لا تصلح لركوب البحر لانها قد باتت هياكل نخرة ، فيزود الشركة
بميزة سبق على الاخوين بروكلى في مساوماتها معهما .
وقد تم اللقاء بهذين الاخوين في مكتبهما المخصص لاستقبال سفن

الشركة بالميناء ، ولم يكن بعيدا عن موقع السفن .
كانت السفن ثلاثة هياكل ضخمة نخرة - بالفعل - كثيبة ، يعود
تاريخها الطويل الى أيام الاميرال نلسون رحمه الله . فالعالم لن يخلو
أبدا من هواة تخزين الاشياء العتيقة كالقبعات ، وصناديق السيجار ،
وأسرة الاطفال وما الى ذلك ، اما عن هوس عاطفى بحت واما عن مجرد
غباء . وليس من شك فى أن أحداً من هذا الصنف من الناس كان
قد شغف بهذه السفن الثلاث فاحتفظ بها بدلا من أن يغرقها . ولا
عجب فى ذلك . لكن وجه العجب الحقيقى كان فى بقاء تلك التوابيت
الثلاثة النخرة طافية على الماء الأسن بالرغم من الحكمة القائلة أن كل
الاشياء الى زوال .

ولقد بدا واضحا منذ النظرة الاولى أن السفن الثلاث كانت قد
تركت فى حالها طيلة سنين عديدة ، بل طيلة أحقاب بأكملها . لكن
ما العمل وعدة آلاف من جنود الامبراطورية الابطال ينتظرون من
يحل محلهم فى بلاد الترانسفال ، ويسعدهم كثيرا أن ترسل حكومتهم
أى شىء يعبرون البحر فيه عائدين الى الوطن . وسوف يسعدهم
كثيرا بغير شك أن تسارع الشركة بإرسال هذه السفن لاحضارهم .
كانت « الولد البحار » أقرب السفن الثلاث الى الشاطئ ،
فصعدت اللجنة اليها . وقد بدت السفينة فعلا أشبه بسفينة
حقيقية . ولم يكن أى من زائريها بحارا حتى يتفاهم معها ، لكن
أى بحار ذلك الذى كان يجازف بالوقوع فى مصيدة كهذه ليدق عنقه؟
لم تكن السفينة مهجورة . فقد استعمرتها جردان هائلة الحجم
بدت أشبه بالحملان التى تمرح على سفوح الجبال فى ويلز ، ولقد
بدا واضحا أن تلك الحيوانات السمينة الضخمة رغم أعمارها الطويلة،
لم تكن قد رأت الانسان من قبل ، ولذلك فانها لم تحس بأدنى خوف
من اقتحام اللجنة لسفينتها .

كان المهندس بايل قد أعد نفسه للقيام بعدد من الحركات
الاستعراضية يكشف فيها بصراحة كلبية لا تقيم وزنا لشيء الااعيب
المختلفة التى يتوصل اصحاب السفن عديمى الضمير من خلالها الى
اخفاء حقيقة توابيتهم العائمة لتبدو للبسطاء فى صورة يخوت فاخرة .
كان قد بيت النية على أن يفاجئ الاخوين بروكلى بعبارة لاذعة
كهذه : « وما هذا أيضا يا سادة » ثم ينتزع هذا الجزء التالف أو
ذاك من جسد السفينة المتآكل . لكنه الآن وقف ذاهلا ، مخدولا ،
وقد أسقط فى يده ، يفتح فمه ليتكلم فلا يخرج منه صوت . لكن
أحداً لم يكن بحاجة الى من يقول له شيئا ، فأى طفل كان بوسعه أن

يدرك حقيقة ذلك القبر العائم من أول نظرة .
فالداء الذي كانت « الولد البحار » تعاني منه لم يكن من الممكن
القول عنه ، حتى بأكبر قدر من سلامة النية وحسن الظن ، أنه
مرض مؤقت .

لهذا لم يتحرك واحد من الرجال العشرة قيد أنملة من السلم
الحديدي الذي وقفوا عليه ، لان أحدا منهم لم يكن ليجرؤ على أن
يستند بيده الى أى جزء من أجزاء السفينة إذا حدث وتعرثر في بعض
الركام المتعفن المتناثر في كل مكان ، خشية أن تنفذ يده من خشب
السفينة .

قال ايستمان فجأة بصوت مرتفع مرح :
- أيوه ، أيوه !

فتردد صدى صوته أجوف كئيبا .

وهنا قال أحد السيدين بروكلي فجأة ، بمنتهى الهدوء :

- الواقع أن المرء لا يجب أن ينقاد وراء المظاهر الخارجية . أهم
ما في الامر هل تصلح السفينة لركوب البحر وتصمد له إذا هاج ؟
هناك أناس لديهم القدرة على أن يظلوا بمنجاة من التائر بآراء
الآخرين ، مكتسبين مناعة كاملة تقيهم من الانخداع بالوقائع الثابتة ،
مما يتيح لهم أن يعبروا عن آرائهم الخاصة بحرية وصراحة كاملة
بلا أدنى اعتبار للزمان أو المكان . أمثال هؤلاء ولدوا ليكونوا قادة .
وقد كان مستر بروكلي أحد أولئك .

عادت الشركة البحرية للنقل الى الارض الصلبة وكأنها في كابوس .
ولم تعن الشركة بالقضاء نظرة ، ولو عابرة على « أنا الجميلة » و
« المتفائل » ، التي كانت ، فيما بدأ ، أسوأ السفن الثلاث حالا .
وعندما احتل الجميع أماكنهم مرة أخرى في مكتب بروكلي
وبروكلي ، ألقى أحد الأخوين بروكلي كلمة قصيرة :

- أيها السادة ! (قال مستر بروكلي وهو ينظر من النافذة)
يبدو لي أنكم توقعتم شيئا أفضل مما شاهدتموه ، رغم أنكم على
علم بالسعر ، كما يبدو لي أنكم تحسون بشيء من خيبة الامل وعدم
الرضاء عن العملية كلها .

ألقى نظره سريعة حوله ، ولما لم يعارضه أحد استطرد قائلا :
- فان كان الامر كذلك ، أود أن أنصحكم الا تخالفوا بأى حال من
الاحوال ذلك الهاتف الداخلى الذي يهيب بكم أن تعدلوا عن هذه
الصفقة . ان كنتم في عجلة من امركم ، فستجدون أنه من الصعوبة
بمكان الحصول على سفن في هذه الأونة ، خاصة بهذا السعر .

الكنكم ، اذا كانت لديكم فسحة من الوقت للبحث والتمهل بضعة أشهر ، ستجدون بكل تأكيد شيئا أكثر ملاءمة لمطالبكم . ولحسن الحظ تستطيع شركة بروكلى وبروكلى ، بمصادفة مجدودة ، أن تبيع هذه السفن على الفور لمشتريين آخرين . فكما قلت لمستر ايستمان بالامس ، تلقت شركتنا عرضا آخر افضل من عرضكم ، ولن يؤسفنا ألبته أن نراكم تنسحبون من الصفقة . بل وقد نستطيع النظر في امر تعويض صغير ندفعه لكم . الساعة الان الخامسة والنصف ، وفي السادسة والرابع لدينا . . أنا وأخي اجتماع آخر . لهذا يحسن ، بل يجب ، أن نتوصل الى قرار سريع ، وحاسم .
وهنا قال مستر بايل بهدوء :

— السفن لا تساوي أكثر من مائتي جنيه على أقصى تقدير ، وهي بكل تأكيد ، ليست صالحة لركوب البحر .
نظر مستر بروكلى فى ساعته وقال :

— هاتم تسمعون رأى مستشاركم . ولا سبب لدينا يدعونا الى مناقضته . ولن يخطر لنا ببال أن نرغمكم على شراء سفن لا تريدونها . فلسنا فى وضع يسمح لنا بتحمل أية مسئولية بشأنها . وقد يكون من الافضل ، من وجهة نظر خيرة بمثل هذه الامور ، أن تباع كخشب كسر وحديد خردة . وفى تلك الحالة يكون مبلغ المائتي جنيه الذى ذكره مستشاركم معقولا . وهكذا فانى لو كنت مكانكم ، أيها السادة ، لما ضيعت وقتا فى أية مناقشات أخرى .
ثم غادر الغرفة مع أخيه .

فلم يكذ الاثنان يخرجان حتى غمغم ايستمان قائلا :

— هذه هى السفن الوحيدة المتوفرة حاليا . لا يجب أن ننسى ذلك . ومع ذلك فانى كنت أجد الانسحاب من الصفقة عن طيب خاطر لو لم أكن واثقا من أن ذلك العرض الاخر لم يتقدم به أحد غير صديقنا كوكس . فقد بالفنا فى الصلابة معه . وها هو الان يحاول أن يتم الصفقة بشركاء آخرين . شركاء أكثر غباء .
وهكذا انفتحت أعين كثيرين فى تلك الغرفة فجأة على أشياء كانت خافية . وبعد خمس دقائق لا أكثر كانوا واقفين كلهم ، والامهم فى أيديهم ، حول العقد .

فى طريق العودة قال ايستمان للمهندس :

— أنت مدرك طبعاً انى لا أفقه من هذه الامور كلها شيئا . ومن الصعب أن أتصور كيف يمكن أن يبحر أحد فى برميل عتيق كهذه

السفينة التي رأيناها . هذه الاخشاب النخرة ستتحلل بمجرد أن يمسه الماء . لكن هذا تفكير رجل الشارع غير المتخصص مثلي .
فهناك طبعا تلك الاساليب الحديثة الرائعة . انهم يتوصلون الان باستمرار الى خلق شيء من لا شيء . اراهن ان هذه السفن ستمخر عباب الماء كأي سفينة جديدة بمجرد أن نجرى بعض اصلاحات طفيفة بها ونكسوها جيدا بطبقة من الطلاء . أي نعم . رجل الشارع غير المتخصص مثلي ليست لديه أدنى فكرة عن العجائب التي يمكن تحقيقها هذه الايام .

ولما لم يجب المهندس بشيء ، استطرد ايستمان قائلا بعد صمت قصير ، محدثا في الواقع نفسه :

- أقطع شيء في هذه الحياة المنافسة التي تربص بالمرء في كل لحظة . لا يكاد يتباطأ أو يتمنع عن صفقة ، مهما بلغت قدارتها ، حتى تمتد ألف يد لتخطفها منه . تخطف اللقمة من فمه . فيضطر المرء أن يرضى بأي شيء حتى لا يموت جوعا . فذلك الذي ينتابه الضعف أو التخاذل لحظة يقضى عليه قضاء مبرما . وذلك الذي ينشد ما تعارف الناس على تسميته بالاحترام يجب عليه أن يوطن النفس على الخوض في الوحل الى عنقه . حقيقة ، لا يكاد المرء يفلت من الحضيض حتى تواجهه هموم لا تخطر لرجل الشارع الفقير الذي يظل في الحضيض ببال .

كله من أجل البنت

أثار تخلف مستر كوكس عن المعاينة مخاوف مستر بيتشام . لم يجد الى النوم سيلا ، وقضى ليلة ليلاء .

كان متورطا في شراء ثلاث سفن عتيقة نخرة يعادل نصيبه فيها حوالي نصف سفينة ، وقد بات مصير النقود التي غامر بها متوقفا على مستر كوكس ، فهو وحده الذي يقرر ما اذا كانت تلك النقود ستضيع على صاحبها أم ستعود اليه مضاعفة . وهكذا فان مستر بيتشام أصبح في قبضة مستر كوكس ، وهو موقف يعنى بالنسبة لبيتشام ما يعنيه الوقوع بين فكي أفعى ضخمة بالنسبة للأرنب . فالسؤال الحيوي هو : هل سيتمكن مستر كوكس من تصريف هذه السفن ؟ لماذا لم يحضر المعاينة ، أو ، على الاقل ، توقيع العقد ؟

لقد أخرجوه من الصفقة عنوة ، فلم يعد شريكا بل مجرد سمسار .
ضاق صدر مستر بيتشام فجأفاه فراشه ، وهم واقفا وذهب
يتجول في أرجاء بيته ليتأكد من أن كل الانوار كانت مطفأة . لكن قلقه
الداخلي العنيف هو الذى دفعه الى ذلك التجوال الليلي لا الحرص
على اطفاء الانوار . لم يكن ، فى تلك الآونة ، فى وضع يمكنه من احتمال
أدنى خسارة . والاسوأ من ذلك أنه كان يعانى من خوف مرضى فى
ذلك الخصوص . فخسارة اقل مبلغ من النقود كانت تفقده كل ثقة
بالنفس . فهو رجل لم يكن يثق فى أحد ، ولذا لم يكن هناك ما يجعله
يثق بنفسه .

كانت كل الانوار مطفأة ، لكن نافذة بولى المفضية الى الشرفة كانت
مفتوحة . استطاع أن يراها فى الظلمة ، راقدة على فراشها ، جذب
النافذة من الخارج فأغلقها مفضبا .

قال لنفسه وهو يعود الى فراشه :

— لم أفعل كل هذا ؟ أفعل كل هذا من أجل هذه البنت . سأضطر
الى طرد امرأتين أخريين من الورشة . سيتحلل هؤلاء الملاعين من
فرط الكسل . ليس فى طاقتى أن أبقي على كل هؤلاء الناس وأدفع
لهم أجورا . لا أحد يكف عن العمل ، أو عن التظاهر به ، سواء توافد
الشحاذون أم انقطعت أرجلهم من الدكان . ما الذى يهمهم ؟ انهم
لا يخاطرون بشيء . وبولى هى الأخرى ، تستطيع أن تقوم ببعض
العمل . ماذا تظن نفسها ؟ كوكس هذا لا يمكن الوثوق به . لم يكن
ينبغى لنا أن نستمع اليه ، على الاطلاق . انها حيلة قدرة أن يقترح
على المرء صفقة كهذه ثم يتركه غارقا فيها حتى أذنيه ويهرب . بودى
لو قطمت رقبتة . لكن ما الفائدة ؟

ثم جلس فى فراشه فجأة وهو يتصبب عرقا :

— يالى من أحمق مافون ! سينتهى أمرى بأن أصبح متسولا ! أى
شئ جعلنى أتعامل مع رجل لا أستطيع أن ألوى عنقه ؟

فى صباح اليوم التالى ذهب بيتشام الى ايستمان ثم ذهب الاثنان
معا الى مكتب كوكس فى حى المال والاعمال . راوغتهما التايست
شاحبة الوجه قليلا ، ثم قالت لهما بصفاقة أن كوكس قد غادر
المدينة . فوق أن المكتب ، الذى لم يكن بيتشام قد رآه من قبل ،
أحدث فى نفس الأخير تأثيرا سيئا للغاية . انقبض قلبه وهو يجيل
عينيه فيما حوله ، وقد أدرك أن هذا مكتب نصاب !
قضى بيتشام بقية ذلك الصباح فى عذاب مقيم .

كان قد تورط في هذه الصفقة أصلا لانه فهم أنهم سينصبون على الحكومة ، فجعله ذلك يثق في الصفقة وفي القائمين بها ثقة عمياء . فالعمليات التي من هذا النوع تكون - عادة - مأمونة . فالنصب على الآخرين هو - بعد كل شيء - الهدف المشروع لكل رجل أعمال يدرك ما هو بسبيله . اولا ان الدنيا لا أمان لها ، فهي تباغت المرء دائما بما ليس في الحسابان ، فيجد نفسه منصوبا عليه بدلا من أن ينصب هو على الآخرين . والحقيقة أن المرء يكاد ، في ساعات اليأس ، يؤمن بأنه لا حد لشورور الدنيا وأهلها . لكن بيتشام لم يكن في حاجة الى اليأس ليؤمن بذلك . فتلك كانت عقيدته الراسخة ، بل الوحيدة .

لكن ايستمان جاء بعد الظهر فأعلن أن كل شيء على ما يرام . قال أن كوكس قد عاد شريكا من جديد ، أو بالأحرى ، أكد للجميع أنه لم يكن قد انسحب من الشركة في أى وقت ، وأنه ذاهب ، في أصيل ذلك اليوم ، لمعاينة السفن مع صديقه المسئول في الاميرالية ، وعلى بقية الشركاء أن ينتظروا عودته في مطعم معين .

معاينة السفن ! مصيبة أخرى ! بدأ الرجال السبعة الذين جلسوا ينتظرون في ذلك المطعم كما لو كانوا قد حكم عليهم بالابحار على ظهر « المتفائل » !

في الخامسة والنصف دلف كوكس الى قاعة المطعم ، مرتديا ربطة عنق حمراء جديدة متوهجة الحمرة مجتهدا في أن يبدو نصابا بكل معنى الكلمة ، فلما وقف امام مائدة الشركاء ، أخرج من جيبه - بحركة مسرحية للغاية - عقدا موقعا مختوما بخاتم الاميرالية ، ومعه شيك بمبلغ ٥٠٠٠ جك (خمسة آلاف جنيه استرليني) قابل الدفع فورا لامر شركة النقل البحري ، دفعة تحت الحساب .

قال ان سعادة الوزير لم يكن لديه وقت لمعاينة السفن . ثم اضاف بشرة الواثق من نفسه غاية الثقة ، المستخف بكل تلك الشكليات : - مثل هذه الاجراءات الشكلية ليس هناك ما يدعو اليها بين الرجال الشرفاء . أوه ! كدت أنسى ! لقد أنفقت ألفي جنيه من أموالكم ، أعطيتها لمسترهيل . مساهمة منا في صندوق اغاثة الأسر المنكوبة بالمصالح الحكومية . قال أن الفا واحدة تكفى ، لكنى وجدت أن الآلة التي يحسن تزييتها تعمل بطريقة أفضل .

كان مزاجه معتدلا للغاية . فقد ذهب الى ساوثمبتون ، ثانية ، في ذلك اليوم ، وحصل على حق أسبقية شراء السفن الراسية هناك . كان كل شيء يجري على ما يرام ، في دقة الساعة . وقد عقد العزم

على تلقين السادة هؤلاء الشركاء في شركة النقل البحري درسا لا ينسى .
أسعده كثيرا أن يرى بعين الخيال تلك السفن الجيدة الراسية
في ساوثمبتون فاردة شراعها مبحرة الى عرض البحر ، تاركة الشركاء
في ورطة موحلة ، ومستتر كوكس سابحا في بحر من النقود .

لكنه لم يذكر شيئا من ذلك كله ، بطبيعة الحال ، للشركاء . ولم
يذكر لهم شيئا ، على وجه الخصوص ، عن السفن الراسية في
ساوثمبتون . ظلت السفن الثلاث المحطمة المملوكة للشركة مدار
حديثهم . قال أن الاجراءات التي اتفق عليها هي التالية : سيتم تسليم
السفن رسميا الى الحكومة بأسرع ما يمكن ، أما أعمال الترميم وما
اليها فيمكن البدء فيها بعد التسليم ، وعند اتمامها سيتم سداد
باقي الثمن المتفق عليه مع الاميرالية .

فوافقوا كلهم عن طيب خاطر . لكن الرأي استقر طبعاً على البدء
فورا باجراء تجديدات اولية للسفن الثلاث قبل التسليم الابتدائي .
فلم يكن هناك مهرب من اجراء بعض الترميمات وأعمال الطلاء وما الى
ذلك حتى تبدو تلك التوابيت العائمة شبيهة بالسفن على الاقل .
وقد قال مستر كوكس ، جادا ، في معرض الحديث عن ذلك :
— ولا يجب أن ننسى أن هذه السفن يجب أن تظل متماسكة طوال
رحلة بحرية تبلغ عدة آلاف من الاميال .

وقد وكل الاشراف على ذلك الجانب من العملية الى ايستمان .
سوف يكلفهم الامر بضع مئات من الجنيهات ، وربما بضعة آلاف ،
لكن ذلك شر لا مهرب منه . والحقيقة أنهم جميعا ، بعد ما عانوه من
قلق واضطراب وتوجس في الآونة الاخيرة ، كانوا قد قرروا عينا واطمأنوا
على أموالهم الى الحد الذي جعلهم على استعداد لفض النظر عن شيء
من الاسراف . حتى مستر بيتشام وافق على ذلك .

الى هنا كان كل شيء يسير على مايرام ، الى الحد الذي جعل بيتشام
يدهش بحق عندما جاءه الشريك مربى الاغنام ، بعد بضعة أيام ،
قائلا أنه لا يستطيع الاستمرار في الصفقة ، لانه في حاجة الى كل
أمواله الحاضرة للوفاء بالتزاماته في توريدات الجيش . وبعد مناقشات
طويلة ، وافق بيتشام على شراء نصيبه في الشركة ، بحيث أصبح
الآن يملك السبعين (٢/٧) . وقد اعتبر ذلك توفيقا مجدودا يحسد
عليه .

لكن الانباء المزعجة ما لبثت أن جاءت من الاميرالية .
وقد جاء بتلك الانباء ايستمان الذي قابل كوكس صدفة في أحد

المطاعم وتحدث معه . فالظاهر ان صعوبات معينة نشأت فجأة فيما يتعلق بالعقد المبرم مع الحكومة ، اذ أوعز بعضهم الى الوزير بأنه يحسن تشكيل لجنة فنية من المهندسين لمعاينة السفن . ورغم أن « الرجل » قاوم ذلك الاقتراح حتى الان ، إلا أنه قرر أخيراً أنه يكون من الأسلم أن يتفقد السفن بنفسه ليطمئن قلبه على الأقل وبذلك بات الامر كله متوقفاً الان على التوصل الى تأجيل تلك الزيارة حتى تكون الترميمات الأولية قد قطعت شوطاً لا بأس به .

هذه الانباء المزعجة كانت السبب في عودة بيتشام الى بيته في الليلة السابقة لرحلة زوجته وابنته - التي لم يكن يعلم عنها شيئاً - مع تاجر الاخشاب ، وقد بدت عليه علامات الانهيار ، وذهابه الى الفراش فوراً حيث أحاط نفسه بزجاجات الماء الساخن وشرب الشاي بالبابونج ثم قضى ليلة ليلاً .

وقد أعقب ذلك أسبوع محموم من المفاوضات تقطعت فيه أنفاس الشركاء . ومما زاد الامر صعوبة وتعقيداً أن مستر كوكس رفض أن يعطيهم عنواناً يجدونه فيه ، وكلما سألوه قال انه بسبيل الانتقال الى مسكن جديد .

وهكذا فان الشركاء جميعاً قضوا تلك الايام السوداء راثحين غادين بين بيوتهم وأرصفت الميناء . لكن الترميمات الأولية كانت تجرى ببطء شديد . وقد اكتشفت أشياء داخل السفينة المدعوة « بأنا الجميلة » جعلت شعر التجارين المشتغلين بترميمها يقف هولاً . وكذلك « الولد البحار » ، كانوا كلما نزلوا بداخلهما ، ارتعدت فرائصهم . أما « المتفائل » فلم تكن الاصلاحات قد بدأت فيها بعد ، لان المقاولين لم يصلوا الى قرار بشأن امكانية وضع السلالم على جوانبها دون أن يعرضوا حياة عمالهم للخطر .

وبالاضافة الى كل هذا كانت هناك شائعات وأقاويل كثيرة تتداولها الالسن في منطقة الميناء . فالنجارون كانوا يثرثرون باكتشافاتهم كلما جلسوا لتناول وجباتهم في حانات الميناء . وعندما حاول ايستمان تكتم الامر بالتلويح امامهم بأن التحدث في هذه المسائل يعتبر خيانة وطنية ضحكوا في وجهه . فأولئك الرجال جميعهم كانوا ممن نورتهم الاشتراكية ، فلم يعد من السهل الضحك على عقولهم .

غير هذه البلايا جميعها ، بات واضحاً للشركاء أن تكاليف الترميمات الأولية لن تقل بحال عن خمسة أو ستة آلاف جنيه .
خلال ذلك الأسبوع الذي لا ينسى ، قابل بيتشام مستر كوكس

عند ايستمان ، فدعاه بيتشام الى تناول العشاء فى بيته . فالامر كله بات متوقفا على كوكس ، اكثر من أى وقت مضى . وقد جاء كوكس بوجه ينطق بالثقة والطمأنينة . واثناء ذلك العشاء الذى حضره ايستمان ، التقى السمسار النصاب بالانسة بولى بيتشام لأول مرة . وقد كان الرجل زئير نساء من أسوأ الانواع طراً . ومما يفصح عن حقيقة خلقه أنه كان - فى الوقت ذاته - من أشد الناس أستهجانا لمثل ذلك الضعف تجاه النساء عند الاخرين .

كان بيتشام قد اهتم بأمر السيد كوكس فى الآونة الاخيرة اهتماما خاصا ، وكرس له جزءا لا يستهان به من جهوده ووقته . وقد سمع ، نتيجة لذلك ، أقاويل عديدة ومتباينة عن فضائح نسائية مخجلة يتورط فيها مستر كوكس بصورة تكاد تكون مستمرة ، وتكاد تكون منحصرة فى صنف واحد بعينه من أحط اصناف النسوة ، وهى فضائح بلغ من فظاعتها أنه كان يفلت فيها من لفت أنظار البوليس ، فى كل مرة ، بصعوبة ، وفى اللحظة الاخيرة لسوء الحظ وقف مستر بيتشام على ذلك كله بعد فوات الاوان ، لانه لو كان قد عرف تلك الاشياء عن مستر كوكس ، لبات ذلك سببا آخر للاحجام عن أى تعامل معه . لا لان أخلاقيات مستر بيتشام كانت عالية . بل لان رجل الاعمال الذى لاينقطع لاعماله ، ويضع كل قلبه فيها ، يعرض نفسه دائما ، ويعرض من يتعاملون معه ، لمخاطر مالية جسيمة . لكن اجترار ذلك كله بعد أن وقعت الواقعة لم يكن يجدى أحدا شيئا . وبدأ لم يعد أمام مستر بيتشام إلا أن يجارى ذلك الفاجر كوكس ويتملقه .

تألفت بولى فى ذلك العشاء ، واستعرضت مفاتها . تحدثت مع كوكس كسيدة صالونات خبيرة . بل وذهبت الى حد الجلوس الى البيانو ، بعد أن تناول السادة قهوتهم ، ففنت أغنية وطنية بصوتها الحلو المسرع قليلا . وعندما انقضى العشاء لم يبد كوكس ميلا للعودة لبيته ، فاقتنع ايستمان ، بل وبيتشام أيضا ، بمصاحبته فى جولة عريضة ليلية بين الكباريات ومواخير العاصمة . أمال قبعتة القطنية الرمادية على عينه بزاوية حادة تنبىء عن « شقاوة » شديدة . لكن خديه الرماديين كانتا ترصعهما بقعتان متقدتان تنمان عن داء دفين ينهش صدره . وقد انقاد مستر بيتشام راغما ، فى سبيل نقوده ، فسار بجانب الرجل كما لو كان ذاهبا الى جنازة . كان يفضل لو ذهبوا ثلاثتهم الى رصيف

الميناء حيث كانت وردية ليلية من العمال تشتغل بترميم سفن الشركة ، بأجور مضاعفة .
تصرف كوكس في النوادي الليلية التي دخلوها - كما توقع بيتشام تماما - تصرف فاجر عرييد ، لا تصرف رجل أعمال عاقل .
بل ودفع الحساب في كل مرة .
وفي اليوم التالي فاجأ الشركاء نبأ استلام مستر هيل ، المسئول الكبير بالاميرالية ، للسفن الثلاث ، رسمياً ، بغير معاينة . ولكن برشوة اضافية ، من شركة النقل البحري الى شخصه ، قدرها ثلاثة آلاف جنيه استرليني (٣٠٠٠ جك) بالتمام والكمال .

(٣)

كيف يحيا الانسان بأزهاق أرواح اخوته البشر .
بسحقهم ، واستعبادهم ، بالتهام كل من استطاع الى اكله سبيلا!
ففرسته الوحيدة للبقاء هي أن ينسى ،
نسيانا تاما وكاملا ، انه هو أيضا بشر ،
كلا يا سادة ! هذه الحقيقة لا نستطيع التعمي عنها :
الانسان يحيا بشيء واحد ولا شيء سواه : الاعيبه القدرة !

(نشيد من « أوبرا البنسات الثلاثة »)

دكاكين حرف « ب »

في تلك الايام كان في لندن عدد كبير من دكاكين متشابهة تباع
البضائع فيها بسعر أقل من سعرها في أى مكان آخر . وقد
عرفت تلك السلسلة من المحلات بدكاكين حرف « ب » ، والمفروض
أن ذلك الحرف الاخير يرمز الى عبارة « برخص التراب » ، ولو
أن بعض الناس ، أكثرهم من أصحاب المحلات ، قالوا ان حرف
« ب » اختصار لكلمة «بالوعة» ، كناية عن القاذورات التى تكتنف
الامر كله . لكن سواء كان الامر كذلك أو لم يكن ، فان المرء كان
يجد في تلك الدكاكين كل شيء ، من سفرة الحلاقة الى الاثاث ، وفي
معظم الامر كانت معاملات الدكاكين لا تشوبها شائبة . وقد أقبل
الفقراء على تلك المحلات اقبالا متزايدا ، لرخص أسعارها ، لكن
صفار الصناع وأصحاب الدكاكين الاخرى كانوا يتميزون غضبا
بسببها ..

كانت تلك الدكاكين مملوكة لمستر ماكهيث . وقد كانت للرجل ،
في الحقيقة ، عدة اسماء . لكنه عرف ، بوصفه مالكا لدكاكين حرف
« ب » ، باسم ماكهيث .

فى مبدأ الامر كانت هناك فروع قليلة ، فرعان أو ثلاثة فى الأحياء

المحيطة بجسر ووترلو ، ونصف دستة فى احياء اخرى شرقى المدينة . وقد راجت احوال تلك الفروع جميعا لانها كانت بالفعل رخيصة للغاية ، بحيث لا ينافسها أى دكان آخر . لكن الحصول على سلع رخيصة الى ذلك الحد لم يكن أمرا سهلا فى كل الاحوال ، ولذلك فان المستر ماكهيث وجد لزاما عليه أن يؤسس منظمة شديدة التعقيد ، تعمل فى ظل ظروف خطيرة وبالغة الصعوبة ، قبل أن يستطيع التفكير جديا فى التوسع .

والاهم من ذلك كله أن هذا النشاط المعقد برمته كان يجب أن يتم سرا ، فى خفية شديدة . فلم يكن أحد يعلم من أين يحصل ماكهيث على بضائعه ، ولا كيف يحصل عليها بتلك الاثمان البخسة .

لكنه لم يهتم لذلك التساؤل المحتمل . فلقد كان يوسعه دائما أن يشبع فضول من يمعن فى اللجاجة بشأن المصادر التى يحصل منها على بضائعه بالإشارة الى أن لندن وغيرها من الاماكن تحفل دائما بدكاكين صغيرة تفلس باستمرار ، وأن تلك الدكاكين التى تفلس تكون قد اشترت بضائع جيدة بالاسعار العادية ، لكن أصحابها يرحبون - بعد الافلاس - بتصفية تلك البضائع بأى ثمن . ثم يضيف مستر ماكهيث بعد ذلك ، هذه الحكمة التى لا يمارى فيها أحد :

- الحياة صعبة كما تعلم ، ولا يجب أن نضعف أو نتخاذل .
فقد كان الرجل من هواة الاقوال الضخمة الرنانة . غير أن المتعمق اللحوح كان حريا أن يكتشف أن مستر ماكهيث سيعجز ، فى معظم الاحيان ، عند تقديم أية ايصالات أو مستندات تثبت ملكيته المشروعة لتلك البضائع كلها التى يبيعها فى محلاته . فوق أن تلك المصادر العشوائية (كالدكاكين التى تفلس فيشتري بضائعها بأبخس الاثمان) لم تكن كافية بحال لتزويد محلاته بذلك السيل من البضائع المكسبة فيها بأثمان لا تعقل ، وهى - على أية حال - مصادر غير منتظمة ولا يمكن الارتكان اليها .

على غرار دكاكين حرف « ب » هذه . . . كانت هناك عدة دكاكين اخرى متناثرة فى احياء لندن تباع « الانتيكات » ، والتحف ، والمجوهرات ، والكتب النادرة ، بأثمان أكثر ارتفاعا من المألوف فى محلات مستر ماكهيث ، لكن تلك البضائع كانت جيدة ومنتقاة بالفعل ، وتستحق ما يدفعه المشترون فيها . ولقد قيل أن تلك الدكاكين هى الاخرى كانت مملوكة للسيد ماكهيث ، وأنه يحقق

من ورائها أرباحا كبيرة يستخدمها في تمويل دكاكين حرف « ب » .
لكن ذلك أيضا كان أمرا بعيد الاحتمال ، فوق أنه ظل هناك تساؤل
بغير جواب : كيف ومن أين يحصل ماكهيث على السلع التي يبيعها
في دكاكينه هذه ؟

وفي صيف عام - ١٩ وجد مستر ماكهيث نفسه متورطا في
مصاعب خطيرة ، مما اضطره الى التقدم لاحد البنوك ، وهو « بنك
الاثتمان الاهلي » ، طالبا مساعدته . وقد سر أصحاب الدكاكين
الآخري كثيرا لذلك ، وامتلاوا شماتة .

غير أن استعلامات البنك مالبت ان أكدت سلامة المركز المالي
لشركة ماكهيث . ولقد حذ البنك كثيرا نظام العمل اللامركزي في
الشركة ، والذي يكاد كل دكان من دكاكين الشركة أن يكون مستقلا
في ظله استقلالا كاملا عن المنشأة الام ، الى الحد الذي يصعب معه
اعتبار تلك الدكاكين مملوكة لماكهيث . ولقد أدرك هذا الآخري ،
عندما بدأ مشروعه ، أن الاستقلال اعتبار غاية في الاهمية بالنسبة
للسواد الاعظم من صغار التجار ، وأن هؤلاء الناس ينفرون نفورا شديدا
من الخضوع خضوعا كاملا لمشروع اكبر كما لو كانوا مستخدمين
فيه ويضرون على أن يظل جل اعتمادهم على قدراتهم الخاصة ،
رافضين بحزم شديد كل مساواة فارغة بينهم وبين الآخريين . فهم
على أتم استعداد لان يعملوا أكثر مما يعمل الآخرون ، لكنهم يريدون
أيضا أن يكسبوا أكثر . فوق أنهم لا يريدون أن يكون لاحد الحق
في اصدار الاوامر اليهم أو ازعاجهم بأي كلام فارغ لا وقت عندهم
للانصات اليه .

والحقيقة أن مستر ماكهيث تحدث عن ذلك الاكتشاف الهام من
جانبه لذلك النزوع نحو الاستقلال الفردي في أكثر من حديث صحفى .

ولقد أسمى ذلك النزوع بالنزوع الموروث في الطبيعة الانسانية ،
لكنه عبر عن اعتقاده - في الوقت ذاته - بأن الإنسان الحديث
بوجه خاص ، إنسان العصر التكنولوجي ، الذي الهب حماسه
انتصار البشرية الشامل ، الذي لم يسبق له مثيل ، على الطبيعة ،
هو الإنسان الذي يتضح لديه ، بأقوى صورة ، ذلك النزوع الى اثبات
تفوقه الذي لا يبارى ، أمام نفسه ، وأمام الآخريين . وقد اعتبر
مستر ماكهيث ذلك الطموح مبررا بشكل مطلق ، على المستوى
الإخلاقي ، لانه نافع لكل الناس بما يترتب عليه من منافسة قاطعة

للاستثمار (أ) . هدفه المعركة الكبرى المستمرة أبداً التي لم يكن يخوضها إلا الكبار ، أصبح الرجل الصغير راغباً في خوض غمارها . ولقد رأى مستر ماكهيث في ذلك الميل من جانب « رجل الأعمال الصغير » علامة صحية ، واعتبر أن واجب دنيا الأعمال يقضى بتشجيع ذلك الميل ، مجاراةً لظروف العصر ، وعملاً على الاستفادة منها . ولقد أعلن مستر ماكهيث في أكثر من حديث صحفي له أننا لا يجب أن نقف في وجه الطبيعة الانسانية أو نعمل ضدها ، بل نجاريها ونعمل معها ! ولقد كانت محلات حرف « ب » - فيما يتعلق بتنظيمها - تطبيقاً عملياً لذلك الاكتشاف ، فبدلاً من المستخدمين والبايعين بالأجر كانت شركة ماكهيث تعتمد في تصريف بضائعها على مجموعة كبيرة من التجار الفرديين الذين يتمتعون بالاستقلال الذاتي ، ولا يتقاضون أجوراً ، بل يحققون أرباحاً . هؤلاء التجار انتقتهم الشركة بعناية فائقة ، ثم هيأت لهم السبل لفتح دكاكينهم ، ثم زودتهم « باستوكات » من البضائع المختلفة ، ومنحتهم الائتمان الكافي . وانتظمت الأمور بينهم وبين الشركة بعد ذلك ، فاستقرت على استلام رسالة اسبوعية من البضائع المنوعة يتعين عليهم تصريفها مع مراعاة أن لهم مطلق الحرية في التصرف في تلك البضائع كيف شاءوا . فكل ما تطلبه الشركة منهم أن يسددوا ايجار الدكاكين بانتظام ، وأن يسددوا ائتمان ما يحصلون عليه من بضائع ، وهم بعد ذلك أحرار في دفاترهم . بشرط واحد فقط : أن تظل أسعار البضائع رخيصة ، في مستوى أقل من السوق كثيراً . فالعملية كلها قامت على خدمة « الرجل الصغير » ، تاجراً ومستهلكاً على السواء . وقد دبر أولئك التجار أمورهم بحيث استغنوا - في معظم الحالات عن استخدام عمال أو موظفين يكلفونهم نفقات إضافية ، فاستعانوا بعائلاتهم . كنت ترى عائلة بأكملها تعمل في الدكان من تلك الدكاكين ، صغاراً وكباراً ، وكان ذلك في الواقع نظاماً عملياً للغاية ، إذ اختفت بذلك المشاحنات المألوفة حول ساعات العمل والأجور وما إلى ذلك ، كما لم يعد هناك مجال أيضاً لما يبيده المستخدمون عادة من عدم

(أ) من الواضح أن برخت يسخر هنا من المذهب « النفعي » في الاخلاق وهو الذي انبنى عليه فكر الاقتصاد الحر « Laissez-faire » القائم على المنافسة ، والذي يعتبر المتطاحن الحر المطلق من القيود خير للجميع . من حيث أنه تجسيد - على المستوى الاجتماعي الاقتصادي - لمقولة البقاء للأصلح . وبرخت عندما يشير هنا ساخراً إلى المنافسة القاطمة للاستثمار إنما يوحى « بالمنافسة القاطمة للرقاب » « Cut-Throat Competition » !

اكتراث تجاه ايرادات مخدوميهم : فقد كان كل من يعمل فى الدكان من أفراد الاسرة صاحب عمل .

ولقد كتب مستر ماكهيث فى مقال صحفى له معلقا على ذلك :
« وبهذه الطريقة توقف تماما نمو ذلك التحلل الوبيل للحياة العائلية الذى يأسى له كل من يهتم بخير الجنس البشرى . فالعائلة بأكملها تشترك فى العمل . وبالنظر الى أن تلك الاسرة يصبح لها فى ذلك العمل هدف مشترك ومصلحة واحدة فانها تصبح - من جديد - يداواحدة وقلبا واحدا . فالفصل بين العمل والحياة الخاصة يمكن أن تكون له عواقب وخيمة للغاية ، من وجوه عديدة ، تجعل الأفراد ينسون الاسرة فى غمرة انشغالهم بعملهم ، وينسون العمل فى غمرة انشغالهم بأسرهم . والواقع أن دكاكين حرف « ب » قدوة طيبة فى ذلك المجال أيضا ، قدوة تبين مايمكن للمرء تحقيقه متى صدقت نيته فى خدمة المجتمع . »

كان من السهل على مستر ماكهيث أن يقنع البنك بأن مصاعبه لم تكن مصاعب على الاطلاق ، وأن النقود التى يحتاجها سوف توجه الى التوسع . ومع ذلك تردد البنك فى عقد القرض ، لان البنك لم يكن مطمئنا الى مستر ماكهيث ذاته .

والحقيقة أن عددا من الشائعات غير السائغة كان دائما حول الرجل فى حى المال والأعمال . وبالرغم من أن تلك الشائعات لم ترقأ أبدا الى مستوى الاتهام الصريح المباشر ، إلا أنه كان من المتعين أخذها فى الحسبان . ولم تكن الاقاييل والتخرصات منصبية بوجه خاص على وسائله فى الشراء والمصادر التى يحصل منها على بضائعه ، لكن تلك المسائل لم تكن - فى الوقت ذاته - مفقلة تماما .

قيل أنه تورط مرة أو مرتين فى فضائح معينة . لكن قيل أيضا أنه تمكن - فى كل مرة - من اثبات براءته على الفور . ولم يصل الامر فى أى مرة الى مرحلة الاجراءات القضائية . ومع ذلك فقد وجد دائما أناس عديدون ، لا هم من أصحاب الدكاكين ولا صلة لهم بأصحاب الدكاكين ، عبروا عن ايمانهم القاطع - وان لم يفعلوا ذلك علنا - بأن ماكهيث هذا لم يكن من أفاضل الناس . وقد وجد أيضا من تمنى لو استطاع أن يجر ماكهيث الى ساحات المحاكم ، مفضلا ذلك على التصالح معه ، ولكن وجد أيضا من آثر السلامة وقال : لا قبل لاحد بالمحاميين الذين يستخدمهم ماكهيث .

تلكات المفاوضات مع « بنك الائتمان الاهلى » بشكل لم يتوقعه

ماكهيث أصلا . وقد بدأ - نتيجة لذلك - يحس بالندم لاتصاله بالبنك ، لأن هذا التسوية في منحه القرض المطلوب حرى بأن يثير الاقاييل القديمة ضده ، ويشعل جذوتها من جديد . ولو أتاحت له أقل بادرة لانتهازها وانسحب لفوره ، صارفا النظر عن مسألة القرض من أساسها .

كان - لاكثر من سبب - يستخدم أكثر من محام . وقد علم من أحد أولئك المحامين أن شخصا يدعى جونتانان أرميا بيتشام (وهو من أشد عملاء « بنك الائتمان الاهلي » نفوذا) لديه ابنة غير متزوجة . وسرعان ما توصل ماكهيث الى التعرف بتلك الابنة . ولم يكد يجد ترحيبا من الام حتى كرس نفسه تماما للفوز بالفتاة ، بصرف النظر عما قد يكلفه ذلك من وقت وجهد . والسبب الوحيد في أنه قدم نفسه الى بولى وامها باسم جيمى بيكيت ، كان حذره الطبيعى لأكثر . وبعدها جعل أعمال مستر بيتشام شغله الشاغل . وسرعان ماتين له أن الرجل يدير منظمة ضخمة من الشحاذين . وقد بدت له الوسائل المتبعة بارعة بحق ، سواء في ابتكارها أو في وضعها موضع التنفيذ . كحكاية الشحاذين الذين يمثلون دور « المصور الفقير » مثلا . وقد أوضح له أحد أصدقائه ممن يعرفون بيتشام الفكرة التى قامت عليها ، فقال ان الشحاذين لا يحملون لوحاتهم معهم مرسومة جاهزة ويعرضونها فى الطرقات ليشحذوا عليها ، بل يرسمون مناظر طبيعية وصورا للمشاهدين على أرصفة الشوارع بالطباشير الملون لاسباب سيكولوجية . فهم اذا أقاموا معارضهم المتنقلة على الارصفة بلوحات مرسومة جاهزة سيوقعون الجمهور فى لبس وحيرة ، لان الجمهور لن يكون لديه اذ ذاك سبيل للتيقن من أن ذلك الشحاذ الذى يتسول هو الفنان الذى رسم اللوحات ، أما فى حالة الرسم على الرصيف بالطباشير فالامر يختلف . فوق أن تلك اللوحات الاخيرة موقوتة ، من حيث أن أقدام السابلة تمحوها ، والمطر يزيل كل اثر لها ، وهى تكاد تمطر فى لندن كل يوم ! وهكذا فان الصور يجب أن ترسم من جديد كل يوم ، وبذلك فان المحسن يجب أن يحسن الى راسمها فى اليوم ذاته . وكلها الأعيب ، على أية حال ، تنبىء عن معرفة عميقة بالطبيعة الانسانية .

فى منتصف يونيو قرر ماكهيث أن يتفاضى عن عدة شكوك جانبية متباينة ظلت تراوده ، ويسير فى الخطبة قدما ، مدركا أنه يجب أن يعالج أمر هذه الزيجة بطريقة تحوطها هالة من الاحترام الكامل ،

مما يطمئن الاسرة الى أن ابنتهم في طريقها الى حياة عائلية راسخة لا تشوبها شائبة .

فأرسل خطابا الى مسز بيتشام يستفسر منها عن الموعد الذي يمكن أن يزورها فيه ، فقد فسر اضطرابها يوم زيارته الاولى على وجهه الصحيح ، وأدرك انها لم تكن قد ذكرت لزوجها أى شىء عنه .
جاء الرد بموعد ضربته له فى حانة « الاخطبوط » ، حتى يمكنهما التحدث على راحتهما ، فيتمكنان من مناقشة الامر على مختلف وجوهه ، والوصول الى رأى حاسم فيه . وعندما قابلته أثارت أعصابه بحديثها عن فساد الشباب هذه الايام . ثم قالت وهى تمسح زبد البيرة الأبيض من شفيتها :

— لكن بعض شباب هذه الايام لا يعرفون ماذا يريدون . انهم كالاطفال . خذ ابنتى بولى مثلا . أنا أعرفها كما أعرف راحة يدي . لكنى ، مع ذلك ، لا أستطيع أن أجزم الى أى جانب يميل قلبها . ولعل كل ما فى الامر انها مازالت صغيرة . لا خبرة لها بالرجال بعد . نعم قد تعرف الفرق بين كلب ذكر وكلبة أنثى . لكنى لأظن أنها تعرف حتى ذلك معرفة دقيقة . فهى لاتعرف هذه الاشياء . ولا تفكر فيها . أنت تعرف ما أعنى . ولعلك لاتعرف انها لم تأخذ فى حياتها حماما واحدا وهى عارية . فنحن نجعلها ترتدى قميصا كلما استحمت ، حتى لا ترى جسدها . وفتاة بريئة هذا شأنها عندما ترى رجلا أمامها لا يخطر لها ببال فيم يمكن أن يستخدم ذلك الرجل . فوق أن البنات فى مثل سنها يكن روماتيكيات للقاية ! أنت لاتتصور كيف تلتهم هذه البنات الروايات التهاما . لن تصدق إذا قلت لك . وهى لاتكف طيلة الوقت عن الحديث عن ذلك الولد . مستر سمايلز فعل هذا ، مستر سمايلز قال ذلك . وهو ما يجعلنى موقنة من أنها لا تريد أحدا سواك . قلب الام يامستر بيكيت . قلب الام !

قالت ذلك وهى تحمق فى عينيه بعد أن تأكدت من أنها قد شربت كل ما فى كأسها ، ومن أن أحدا سواهما لم يكن فى الحديقة .
وعندما صارحها مستر بيكيت ، فى اللحظة الدرامية الملائمة ، أنه ليس بيكيت ، بل ماكهيث ، صاحب دكاكين حرف « ب » المشهور ، وأن نواياه تجاه ابنتها شريفة تماما ، لم يبد عليها أدنى تأثر ، أو دهشة ، كما لو كانت قررت فيما بينها وبين نفسها أنه رجل يتوقع منه المرء أى شىء ، فأجابته على مصارحته بنظرة خاوية أو شكت أن تكون مراوغة ، ثم تنهدت قائلة :

— كذا لا طيب . لكن زوجي لا يجب أن يعرف شيئا عن كل هذا .
فليديه مشروعات أخرى بالنسبة لمستقبل الفتاة . أنت تقدر ذلك
طبعاً . انه أب متفان . دائماً يقول كله من أجل البنت ، كله من أجل
البنت ، وهو يعنى مايقول حقاً . وقد صحب معه الى البيت ، يوم
أول أمس ، دون سابق انذار ، سيدا يدعى مستر كوكس . يقال
انه ثرى للغاية . أنت تعرف مستر كوكس ؟
طبعاً يعرف مستر كوكس . ومنذا الذى لا يعرفه ؟ أسـمه
كالطبل فى حى المال والاعمال .

وهو ، شخصياً ، لم يسمع شيئاً يسر عن مستر كوكس
هذا . فوق أن الرجل زئر نساء لاخلق له . كذا ؟ نعم كذا .
(فبصرف النظر عن أية اعتبارات مادية لدى ماكهيث الذى كان
رأسه محشوا فى تلك الآونة بمشكلات ومتاعب متعلقة بأعماله ، كان
مجرد سماعه لاسم كوكس فى أمر يتعلق ببولى أشبه بطعنة نفذت
الى قلبه . اكتشف أنه متميم بالفتاة بدرجة تفوق كل ما صرح به
نفسه .)

سأل الام بصوت مبحوح من فرط انفعال :

— وما الذى يمكن عمله بذلك الشأن ؟

قالت مسز بيتشام وهى تنظر اليه ساهمة :

— هذا هو ما أود أن أعرفه .

ثم انقلبت نظرتها المهمومة الى نظرة مثلوجة وهى تحدجها طولاً
وعرضاً كأنما تزنه حتى سرت قشعريرة فى جسده . قالت له :
— بنات هذه الايام لا يمكن التكهن بما قد يفعلنه . فرعوسهن
محشوة بالافكار الرومانتيكية .

لكنها ما لبثت أن وضعت يدها الصغيرة البضة على يده ونادت
على النادل ليأخذ الحساب .

وبينما هو يصحبها خارجاً عبر الممر القصير بين الموائد الحديدية
كررت قولها الاول من أن كل شيء يجب أن يتم بمنتهى الحذر ،
وبغير علم بيتشام . وفى نفس الامسية قابل الخوخة ذاتها ،
فتعطفت وسمحت له أن يوصلها .

والغريب أنها سارت من شارع أولد أوك فى اتجاه الحديقة العامة
بالرغم من أن تلك كانت من أمسيات دروس التدبير المنزلى . وأخذت
تنظر ورائها وحولها عدة مرات أثناء الطريق ، كأنها تبحث عن أحد ،
لكنها لم تحاول أن تتخلص منه ، وأخيراً جلست على دكة بين الاشجار .

بدت له رائحة الحسن في ثوبها الهفواف ، ولم يلحظ عليها أدنى اضطراب أو توتر . أخذ يملأ عينيه من جمالها . لم تكن من ذلك الصنف من الفتيات الذي يبدو كالدمى الخشبية . كانت فتاة ناضجة ، مكتملة الانوثة ، وجبة دسمة كاملة لا مجرد « تصبيرة » عابرة . لم تبت أي استعداد للخوض في حديث عن كوكس وسمايلز . قالت له :

- الامسية أجمل من أن نضيعها في مثل هذا الحديث . وقد أضحكها كثيرا أنه على علم بأمر كوكس وأن علمه بالامر أزعجه .

عندما عابدا أدراجهما لم يكن قد وقف على أي شيء منها ، لكن أشياء عديدة كانت قد حدثت . لم تصده تماما . لكنه لم يكن سعيدا لانها - عندما قارب الوصول الى لب الموضوع - صمدت له بعناد لا يحيد فلم تدع يده تصل الى غايتها . وقد أثار حنقه أيضا أنه وجدها لا تردى شيئا على الاطلاق تحت فستانها . وقد بدا ذلك أمرا مؤسفا للغاية في عيني مستر ماكهيث ، تماما كما أحزنه أنها هربت بذلك الاستخفاف من درس التدبير المنزلي الذي خرجت من بيت أهلها بحجة حضوره . فقد تبين من ذلك أن تلك المدرسة الليلية لم تكن تراقب حضور طالباتها بدقة ، وأن بولي تستطيع أن تهرب وقتما شاءت !

والحقيقة أنه عاد من ذلك اللقاء الذي لم يكن في الحسبان بذات الشعور المغيظ المحبط الذي عاد به من رحلته الأولى مع خوخة وأمها ، وهو لا يدري ان كان - بما حدث بينه وبينها في الحديقة - قد حقق تقدما أم أصيب بنكسة . وقد أمضه ذلك الشعور المزعزع . لكن هذا الذي حدث بينهما ، لا بد أنه يعنى شيئا بالنسبة اليها . فوق أنه كسب - بالحقيقة - شيئا له أهميته : لم يعد بوسعه أن يتشكك في طهارتها . فقد دافعت - رغم كل شيء - عن حصنها .

لم يكن مستر ماكهيث هو الوحيد الذي أخذ يرمق بولي بنظرات فاحصة متفكرة في تلك الليلة . فمستر بيتشام هو الآخر ، عندما رآها تدخل عائدة من درس التدبير المنزلي ، نظرها بامعان ، متفكرا .

لكنه لم يكن في حال تسمح له بالدخول في مناقشات عائلية . فأحوال شركة النقل البحري كانت قد تدهورت من سيئ الى أسوأ حتى صارت كالقطران . في اليوم السابق فقط انفجرت قنبلة فوق

رءوسهم .

القنبلة

كان بيتشام قد عاد لتوه من الغناء بعد أن عنف فيوكومبى واعطاه على رأسه . فذلك العسكري مقطوع الساق - وقد أسعده أن يكون له بيت يلمه ، ويكفيه مئونة التسول - كان قد أكب على عمله في بداية الامر باخلاص ، متبعا التعليمات التي أعطيت له ، فيما يخص تجويع الكلاب ، بكل دقة .

واطعام تلك الكلاب لم يكن أمرا هينا على الاطلاق ، فهي يجب ان تبدو لناظرها جرباء جائعه ، ولذلك فانها ، وان كانت تأكل - لئلا تموت - يجب ان تظل على حافة المجاعة بصورة مستمرة . فأى ضرير ذلك الذي يستطيع أن يشهد شحاذة مجزية ومعه كلب مكننز منتفخ الوداج من كثرة ما يأكل ؟ لن يعطى ذلك الكلب للضرير فرصة لاستدراة الشفقة كما يجب . فالجمهور ، بطبيعة الحال ، يفكر فى الامر بالفريزة . فالكلب الاعجف لا يكاد يسترعى انتباه أحد ، لكن اذا حدث وكان الكلب سمينا بعض الشيء فان صوتا داخليا قد يوسوس فى أذن المحسين بأن ذلك الشحاذ ينصب عليه وانه اذا احسن اليه فكأنه يلقى نقوده فى بالوعة . فمن الثابت فعلا أن أولئك الناس جميعا يبحثون بطريقة غير واعية عن سبب يبرر لهم الضن بنقودهم . وهكذا فان كلب الشحاذة الجيد يجب أن يكون كلبا جائعا نحिला لا يكاد يقوى على الوقوف من فرط الهزال .

وبالنظر الى ذلك كله ، كانت الكلاب توزن باستمرار ، فاذا زاد وزنها ، بات فيوكومبى محل مؤاخذة شديدة .

وقد ثارت شكوك بيتشام هذه المرة ، قبدأ تحقيقا غايته الوقوف على صحة القيود الخاصة بأوزان الكلاب التي كان فيوكومبى ملزما بكتابتها فى دفتر صغير اعطى له . ولقد راود بيتشام شك فى أن الرجل الاعرج بدأ يتعاطف مع الكلاب ، وذهب فى ذلك الى حد تزوير القيود فى دفتره لكيلا يطرد من عمله . وعندما هم بأن يضيق عليه الخناق دلف الشريك صاحب المطعم الى الدكان فسارع بيتشام الى لقائه . فاجأه الرجل بأن كوكس ظهر على سطح « أنا الجميلة » بغتة وأنه أقام الدنيا وأقعدها ، وأنه مازال هناك ، فى حالة عارمة من الغضب والهياج .

سارع الرجلان بالذهاب الى الميناء فورا . وهناك وجدا كوكس بالفعل ، بين السلالم وعمال الطلاء وبجانبه ايستمان ، مهيض الجناح

ممتقع الوجه ، محدقا فى جوانب السفينة الضخمة الداكنة بنظرة مخمورة لا تحيد ، وقد بدا واضحا أنه لم يستطع ان ينظر فى وجهى القادمين الجديدين .

أحس بيتشام بالصقيع يسرى فى اوصاله للنظرة المثلوجة التى حياه بها كوكس . قال السمسار بلهجة لاتقل برودا عن نظرتة .
- هل أحلم ، أم أن هذه السفينة هى احدى السفن الثلاث التى باعتها شركتكم الى الحكومة البريطانية ؟

بدا على بيتشام أنه قد شاخ فجأة فنيف على التسعين .
رغم أن الصدمة لم تكن غير متوقعة تماما . فلقد أحس من بداية الامر ، بطريقة ما ، ان هذه العملية كلها فيها شىء ليس على مايرام .
فوق أنه ، فيما يخص كوكس ، كان يتوقع الاسوأ باستمرار . لكنه لم يكن يتوقع شيئا مباغتيا وغادرا بهذا الشكل .

دمغ كوكس السفينة بأنها غير صالحة للاستعمال . فاحس بيتشام بأن، لا جدوى من الدخول فى نقاش على ذلك الرصيف بمسمع من انعمال ، أو القول بأن مستر كوكس لاينبغى أن يتظاهر بهذا الغضب الوطنى كله لانه هو الذى استدرج الشركة الى شراء هذه السفن . فلم يكن بيتشام فى حاجة الى الدخول فى أية مناقشات ليدرك أن كوكس سيعلم بمنتهى البساطة انه لم يكن قد رأى السفن - حتى تلك اللحظة - بنفسه، بينما كافة الشركاء قد عاينوها بأنفسهم، وبمحضر من شهود ايضا !

فى صدر بيتشام الذى ضاق بالحياة فجأة تمللت شبهة سوداء قوية حول الاتجاه الذى يسير فيه نشاط كوكس (وكان قد خمن، من مبدأ الامر ، أن كوكس يعمل مستقلا ، لحسابه الشخصى) .
ولقد أيقن الان أن كوكس لم يوجه نشاطه ضد الحكومة البريطانية ، بل وجه ذلك النشاط كله ، « كوابور زلط » ضخم ، مخيف ، لايقف فى طريقه شىء ، ضد شركة النقل البحرى ولا شىء سواها !

تلك كانت الصورة العامة التى اتضح هيكلها الخارجى لبيتشام ، وان لم تتضح بطبيعة الحال ، تفاصيلها الدقيقة بعد . فلم يكن مستر كوكس قد قرر أن الوقت حان ليضع أوراقه على المنضدة . وقفوا وقد خرسوا كلهم ، فلم ينطق أحد .

وفجأة دار مستر كوكس على عقبه ، وبنظرة ازدراء لا توصف بصيقها على الشركاء بصقاً، أولاهم ظهره ومضى ، دون أن ينبس ببنت شفة .
وقفوا يحملقون فى ظهره المتخشب ازدراء لهم ، وقد بدت بذلته من

النوراء جاهزة ورخيصة اكثر من أى وقت مضى . ولم تكن لدى بيتشام هو الآخر ، كلمات تقال . لم تكن لديه أدنى رغبة فى الدخول فى نقاش مع زملائه من الضحايا عما يحتمل أن يحدث لهم بعد ذلك . سمع ايستمان يقول ، وكأن صوته يأتى من بعيد ، انهم يجب أن يكتبوا الى مدير المصنع فورا ليحضر من لانكشاير ، والى مربى الاغنام أيضا . ها ! مربى الاغنام ! مربى الاغنام نجا بجلده . بيتشام الحمار اشترى نصيبه ! استدار بيتشام فذهب دون أن ينبس ببنت شفة . أصيب فى تلك الليلة بحمى مرتفعة وآوى الى الفراش وفوق رأسه طاقة ثلج . لكنه لم يبرح فراشه اثناء الليل . فلتظل الانوارمضاء ! منذاً الذى سيدفع فاتورة الغاز بعد اليوم !

فى صباح اليوم التالى ذهب مترنحا الى رصيف الميناء . لم يجد عمالا هناك . كانت أعمال الترميم والطلاء قد أوقفت على « أنا الجميلة » بناء على تعليمات ايستمان . وقد أوضحت تلك التعليمات حقيقة تقديره للموقف .

وعندما عاد الى البيت ظهرا ، فقبل له أن سيدين كانا يسألان عنه ، تصور أن البوليس قد جد فى أعقابه . فالشركة قد قبلت الدفعة الاولى من الحكومة ، وبذلك أصبحت جريمة النصب ، وربما الخيانة ، كاملة الأركان .

لكن الاستجواب الدقيق لاهل بيته كشف عن أن زائريه كانا ايستمان ومدير المصنع الذى جاء الى لندن على عجل . وقد شعر بيتشام بالارتياح لانهما لم يعثرا عليه .

لم تكن هناك جدوى من الذهاب الى مكتب كوكس ، فالفتاة الرخوة الشاحبة الجالسة فيه كانت تصاب بكم الاسماك كلما سئلت عن عنوان مخدمها .

لكنه عندما عاد الى بيته بعد محاولة فاشلة للعثور على ايستمان ، وجد كوكس بالبيت ، فى صحبة ابنته .

قيل له أن مستر كوكس قابل بولى صدفه فى طريق عودتها الى البيت ، فصحبها ، رغم أنه لم يلق منها تشجيعا خاصا . وعندما دخل بيتشام كان كوكس يحدث الفتاة بحماس عن صور مثيرة للاهتمام يريد أن يفرجها عليها . لكن خوخة لم تفهم قصده . لم تكن الفتاة تميل اليه .

عندما دخل بيتشام تصرف كوكس كأنما لم يقع بينهما أدنى خلاف . مد يده ، دون أن يخلع قفازه ، فشد على يد ضحيته

بحرارة ، وضربه على كتفه مظهرا عظيم وده ، ثم انصرف مسرعا .
طوال وجبة العشاء كان منتشر دائري يئز داخل جمجمة بيتشام .
فلما انتهى الطعام صرف زوجته ، وأخذ يستجوب الخوخة .
لم يستخدم الارغام ، ولم يكن بحاجة الى ذلك . فقد افضت
اليه الفتاة بكل ماتعرف . وسرعان ماتبين بيتشام أن كوكس قد
أفضى الى بولى بما أخفاه عن شركائه ، فأوقفها على عنوانه . وقد
عنى الرجل بالأى سال البنت عن السبب فى ذلك . ثم تركها فذهب
الى غرفة مكتبه الصغيرة الضيقة ، وأخذ يحرق بشرود ذهن
من النافذة . وبعد ذلك جلس الى مكتبه ، فكتب خطايا بسرعة
فائقة ، وعاد به ، مقلقا ، الى غرفة الجلوس حيث ترك ابنته . وكىم
كانت دهشة الفتاة عظيمة عندما طلب اليها أن تأخذ الخطاب ،
بنفسها ، فورا ، الى منزل المستر كوكس . كانت الساعة قد
تخطت التاسعة والنصف . لكن خوخة ارتدت قبعتها فى صمت ،
وذهبت الى بيت مستر كوكس .

وجدته بالبيت . وعندما أعلنت الخادم أن فتاة فى مقبل
العمر تقف بالباب ومعه خطاب من أبيها يتطلب ردا ، وضع كوكس
فوطه الطعام من يده محرجا ، وخرج من الغرفة بسرعة .
كان يعيش مع أخته ، وهى سيدة ضئيلة الحجم دكاتورية الطبع
لم يكن رأيها فى أخيها طيبا بالدرجة التى كان يتمناها ذلك الاخ ،
بل ولم تكن تخفى شكوكها القوية فى انحطاط خلقه .
والاخذ معذورة . فقد اضطرت باستمرار الى تحمل الكثير من
تحت رأس ذلك الاخ العرييد .

كان كوكس يتمتع بقدرات تجارية عظيمة ، فوق ان مبادئه ،
فيما يخص نظافة حياته الخاصة ، كانت المبادئ السائدة فى بيئته
الاجتماعية . فقد كان من رأيه (الذى يشأركه فيه كثيرون) أن
هناك فرقا شاسعا بين حياة الاعمال ، والحياة الخاصة . وفى دنيا
الاعمال يتعين على المرء أن يسخر كل فرصة من فرص الربح تسنح
له فى خدمة مصالحه ، بصرف النظر تماما عن الآخرين وعمما قد
يلحق بهم من جراء ذلك . تماما كما يجب على المرء الا يلقى بلقمة
من العيش أرضا لانها من نعم الله وحرام أن تلقى هكذا . أما فى
الحياة الخاصة ، فليس للمرء أدنى حق فى استغلال الآخرين . الى
هذا الحد وكانت آراؤه سليمة تماما .

لكن المصيبة أنه لم يكن يتمتع بالقوة التى تمكنه من العيش تبعا

لمبادئه . لم يكن هناك أدنى فرق مثلا بين تصوره لما يجب أن يلتزمه السيد المهذب تجاه الجنس اللطيف وبين تصورات أخته في ذلك المجال . لكن ذلك كان على المستوى النظرى فقط . فما أكثر زلاته . ومع ذلك فانه كان أول من يدين تلك الزلات المؤسفة العديدة بنفس القدر الذى تدينها به أخته ، وبنفس الالفاظ تقريبا . وكم من مرة قال أسفا « أنا لست قادرا على التحكم فى نفسى » .

والمصيبة أن ميموله ، على المستوى الاجتماعى ، كانت واطئة للغاية . فأشد النسوة انحطاطا وابتذالا كن يجتذبنه كما لا تجتذبه المرأة المحصنة المهذبة . كما أنه لم يكن مستطيعا أن يقاوم سحر الخادمت ومن على شاكلتهن .

نفس السوأة كانت ملحوظة فى ثيابه أيضا . فذوقه فى انتقاء الثياب كان فظيحا . كانت بذلاته الجاهزة بالوانها الغامقة تصيب أخته بفثيان حقيقى . لكنه لم يكن قادرا على التحكم فى نفسه فى ذلك المجال أيضا .

لم تكن أخته تدع فرصة تمر دون أن تهديه عودا من ربطات العنق ذات الذوق السليم . فكان يرتديها ، تلك الكرافات ذات الالوان الهادئة ، ارضاء لاخته ، لكنه قبل أن يخرج لا يستطيع أن يكف نفسه ، وكان شيطانا يتقمصه ، على أن يدس فى جيبه خلسة ، ربطة عنق من الصنف الذى يروق له ، فلا يكاد يخرج من الباب ويغلقه وراءه ، حتى يقف على الدرج فيخلع ربطة العنق المهذبة كما لو كانت جبل مشنقة قد التف حول عنقه ، ويتنهد بارتياح وتلك الربطة الاخرى تتدلى على صدره حمراء ، زرية ، فاقعة .

كل هذه أعراض مرضية مافى ذلك شك . وقد ارجعها هو الى الاضطرابات المعوية وشخصها بأنها نوبات من الشهوانية التى لا ضابط لها تنجم عن الامساك المزمن .

ساعدته أخته بكل قواها فى نضاله المأساوى ضد شهواته . لكنه كثيرا ما كان ينسى نفسه . فيندمج فى نوبة من نوبات الانحطاط العديدة التى ينغمس فيها ، ويضيق بمساعدتها التى يعتبرها تدخلا ثقيلًا فى أخص شئونه ، ويرفضها بمنتهى القضاظة .

ولذلك لم تستطع مس كوكس - عندما أعلنت الخادم مجيء مس بيتشام - أن تفعل شيئا أكثر من أن ترابط خارج الغرفة التى استقبل فيها أخوها زائرته . فتأخذ فى الغدو والرواح ، والحمحة والسعال بأعلى صوت مستطاع .

ولسوء الحظ كان كوكس ، فى تلك الليلة ، فى قبضة أزمة من اسوأ
أزماته الممعة فى الانحطاط . كان قد قاسى الأمرين طوال النهار من
محاولة كبح جماح نفسه . وهكذا فانه ، عندما جاءت الفتاة كأنما
بعث بها الشيطان اليه عمدا ، لم يجد مهربا من الاستسلام لما ظل
يلح عليه من سفالة طبع ، فقرر ان يفرج الخوخة - وأمره الى
الله - على مجموعة صورهِ . وكلها صور فاحشة فيها أناس عرايا ،
فى مختلف أوضاع العرى . وقد فعل ذلك بحجة أن تلك الصور
كانت قد وصلت لثورها وأنه يريد أن يشاهدها معها .

لم تكد الخوخة تنظر الى تلك الصور حتى اتقدت وجنتها خجلا .
كانت مجموعة مستر كوكس ، بالحقيقة ، قدرة للغاية .
وفى أثناء ذلك أخذ كوكس يقرأ خطاب بيتشام الذى يرجو فيه
الحصول على موعد قريب للقاء خاص مع السيد المبجل .

على منضدة الكتابة، ذات السطح الزجاجى، كان بروش ذهبى كبير
الحجم ورثه كوكس عن المرحومة أمه ، فيه كثير من الذهب ، لكن
أهميته ، بالنسبة لمن اشتراه ، كانت كامنة ، فيما يبدو ، فى ثلاثة
فصوص زرقاء كبيرة تكاد تكون عديمة القيمة . والظاهر ، بوجه عام ،
ان كوكس ورث ذوقه عن المرحومة والدته .

عندما انتهى من قراءة الخطاب ، لاحظ أن بولى كانت قد ضاقت
بصوره العارية ذرعا ، فتناول البروش ، وأراه لها ، ملوحا به أمام
عينها ، سائلا أياها ان كان يعجبها .

قالت الفتاة بصوت مختنق بعض الشيء :

- لطيف للغاية .

فقال كوكس :

- يمكنك أن تأتى يوما فتأخذه لنفسك .

ثم نظر ، بعيدا عن عينها ، الى ركن الغرفة .

لم تجب الفتاة بطبيعة الحال . جلست فى مكانها وقد استعادت
هدوءها الاول ، فابتسمت له ابتسامة مؤدبة وكأنه قال ما قاله على
سبيل المزاح . ولقد اضطر الرجل وهو يالتمها بعينيه ان يسخر كل
ارادته وكل خوفه من اخته - التى كان يعرف أنها مرابطة أمام
الباب - للتحكم فى نفسه . ثم بدأ يأمل فى أن يتمكن من اصطحاب
زائرتة فى عودتها الى بيت أهلها ، لكن اخته وقد أثار مخاوفها
الهدوء الذى ساد الغرفة فجأة ، دخلت ، وأخذت تتحدث الى بولى .
ارتبك كوكس بسبب صورهِ العارية التى كانت ملقاة على المكتب ،

لكن الخوخة قلبتها فأخفت ما بها ، بحركة طبيعية غير ملحوظة ، وهي مستمرة في حديثها مع أخته .

بدا واضحا أن الفتاة لم تكن غشيمة في التعامل مع الرجال ، وقد أحدث اكتشاف ذلك تأثيرا بالغ العمق في نفس مستر كوكس .

انصرفت الفتاة بعد ذلك مباشرة ، وعندما عادت الى البيت ، قالت لابيها أن مستر كوكس سيقابله في اليوم التالي .

لم تحس بكبير ميل الى السمسار . لكنها لم تنس الحليقة الذهبية التي راقت في عينها كثيرا . وفي الصباح أخبرت جورج ،

العسكري الأعرج ، وهي تحمل اليه كوب اللبن أنها تلقت بروشا كبيرا كهديّة من سيد متقدم في السن وأنها سوف تربيّه له قريبا .

ولم تكف عن التفكير في ذلك البروش ، خاصة في المساء ، عندما أوت الى فراشها لتنام .

جاء كوكس فعلا في صباح اليوم التالي . لكنه رفض أن يمر من الورش ليذهب الى المكتب . كان مرتديا معطفا أصفر زاهي اللون .

وقد انخرط ، فور وصوله ، في حديث جاد للغاية ، مع مستر بيتشام ، بصوت خافت كان في حد ذاته منبئا بخطورة الامر .

اعترف بأن الذعر انتابه عندما رأى حالة « أنا الجميلة » . فهذه السفن الكهنة التي اشتروها كانت تستعصى على التصديق . حقيقة

أنه ذكر لهم شركة بروكلي وبروكلي ، لكنه لم يكن يعرف شيئا عن سفن تلك الشركة . وهو لا يستطيع الآن بحال أن يعرض هذه

التوابيت العائمة على صديقه الوزير . وأسوأ ما في الامر كله - فيما بدا له - أن الدفعة الاولى كانت قد سددت الى الشركة

فعلا ، وأن الاميرالية تتوقع أن يتم تسلم تلك السفن في القريب . وهكذا فإن الشركة ، التي لم تعد له أدنى صلة بها ، حمدا لله ،

عرضت نفسها ، بصورة شبه مؤكدة ، لتهمة الخيانة ، لانه من المعروف للجميع أن الشركاء كلهم عاينوا السفن بأنفسهم ورفضوا

الآخذ بنصيحة الخبير البحري المدعو بايل . بعد ذلك قال كوكس أن المخرج الوحيد من تلك الورطة القبيحة

في رأيه هو أن تقوم الشركة فورا بشراء سفن أخرى جديدة يمكن الاعتماد عليها ، ومن السهل تغيير أسماء تلك السفن بعد شرائها ،

لتحل محل السفن الثلاث الخردة . بل ويعد هو بالتكفل بذلك . أما فيما خلا ذلك ، فإن صديقه المسئول لا يستطيع ، مهما حدث ،

أن يشتري سفنهم الحالية .

وبدا بيتشام أقل انزعاجا من يوم أمس . كان يدرك ، بطبيعة الحال أنه لا يمكن ان يكون ندا لهذا الرجل . فدائرة النشاط التي كان يعتبر فيها من العظماء ، بل وممن يثيرون الرهبة في النفوس ، كانت دائرة أخرى مختلفة تمام الاختلاف . وقد خرج الى ما وراء حدودها ببلاهة . جرفته موجة الحماس الوطني التي كانت تتدفق في طول البلاد وعرضها ، فجعلته يقدم على أشياء جديدة لا قبل له بها . وهاهو الان قد بات أعزل لا يخشى منه ، تماما كتمساح يجد نفسه في ميدان الطرف الأغر . لكن ، بالرغم من ذلك كله ، مازال هناك أمل . فمن الغريب أنه لم يكن يدرك - في لقائه الأخير مع كوكس - أن الامر كله منحصر في تعامل مألوف مع السفالة الانسانية . وعندما اكتشف تلك الحقيقة استعاد قدرا من ثقته بنفسه ، وعاوده الأمل . فهو ، على أية حال ، قد وجد نفسه بين رجال مثله من جديد . مجرد رجال ، يمكن التفاهم معهم .

ولذلك أخذ يرقب كوكس الثرثار بهدوء ، بل ببرود . ثم قال انه ، على حد علمه ، لا توجد أى سفن أخرى . لكن كوكس قال ببطء : أبدا . من قال ذلك ؟ هناك سفن أخرى . هناك واحدة ، على سبيل المثال ، في ساوثمبتون فأوما بيتشام برأسه ، ثم قال بجفاء :

- كم تريد لتدعنى أخرج من هذه المعمة ؟
تظاهر كوكس بأنه لم يفهم ، لكن بيتشام لم يكرر سؤاله . فقد أدرك الان أن كوكس كان قد وقع على صفقة مربحة للغاية .
بعد فترة قصيرة من الصمت ، قضاها كوكس متجولا في الدكان يتأمل الآلات الموسيقية المتربة ، قال لبيتشام الذي وقف يتابعه ببصره في برود ، انه من الاهمية بمكان أن تستأنف الترميمات في السفن الثلاث بنشاط مضاعف ، وأن المعاينة عند التسليم الرسمي ستكون سطحية للغاية ، لكن المظاهر يجب أن تراعى على الأقل ، فتبدو السفن ، من خارجها ، في حالة جيدة .
وبينما هو يفلق الباب وراءه التفت الى بيتشام فقال له أن لديه موعدا في ساوثمبتون ، في يوم الاربعاء القادم .

(٤)

« منذا الذى لايفضل أن يكون مهذباً
بدلاً من أن يكون فظاً وصعباً مع الآخرين ،
فقط لو كانت الأشياء عموماً
أقل فظاظاً وصعوبة مع الجميع ! »
(من النشيد الختامى لاوبرا البنسات الثلاثة)
عن : « الزمان الذى لا أمان له ! »

مناقشات خطيرة

كثيرون لا يعرفون أن الحروب مثلما تسمى بأرواح الامم ، تستتبع نشاطاً لا يستهان به فى دنيا التجارة . حقيقة أنها تجلب على الناس شروراً عديدة ، لكن رجال الاعمال عادة لا يكون لديهم أى مبرر للشكوى أو التذمر .

كان مستر بيتشام يتوقع الحصول على قدر مجز من الارباح عندما انضم الى شركة النقل البحرى . وقد كان من بين دوافعه الى ذلك أن ابنته بلغت سن الزواج وأن أى زيادة فى الدخل ، فى تلك الظروف ، تعتبر مرغوباً فيها .

لكن التطورات غير المرضية فى ذلك المجال الجديد الذى طرقه مستر بيتشام بلا سابق خبرة ، جعلته يستغرق فى عدد من المناقشات بالغة الخطورة مع مديره ، مستر بيرى .

تتابعت اجتماعاتهما فى المكتب الذى يفضى اليه الباب الحديدى فى مؤخرة الدكان ، فيجلس بيتشام ، وقبعته ، التى لا محيص عنها ، على رأسه ، الى مكتب قديم بحصيرة موضوع لصق الحائط تحت النافذة الوحيدة الصغيرة التى تضىء الغرفة ، بينما يدع بيرى الشحيم جسده يتهدل ، ثقيل ، جسيماً ، فى مقعد حديدى مخلخل . يجلس بيتشام ، بغير سترته ، مشمراً كمن قميص متسخين ، مسنداً ذراعيه الى مكتبه ، متجنباً النظر الى بيرى مواجهة ، بينما

هذا الاخير يلوك بغير انقطاع عقب سيجار لعله ، في اغلب الظن .
استخرجه من كوم قمامة في الشارع منذ عدة سنوات .
اذذاك يقول بيتشام :

- بيري . انا غير راض عنك . انك تتطرف في الشدة ومع ذلك
لا تزيد ايرادنا من هؤلاء الشحاذين بنسا واحدا . فأنا ، من جانب ،
أتلقي شكاوى عديدة من قله أدبك مع المستخدمين ، ومن جانب آخر
لا أجدهم يكسبون ما فيه الكفاية . البنات في مشغل الخياطة مثلا
يقلن انهن يضطرون الى العمل ساعات اضافية حتى يتمكن من مجابهة
الطلب على بزات الجنود العسكرية ، وهناك أربع عشرة بنتا بدلا من
تسع فقط ، وهو العدد الذي يحتاجه حجم العمل على أكثر تقدير .
وانت تعرف جيدا اني لا أسمح بحكاية الساعات الاضافية هذه هنا ،
وانى لن اقبل أيضا الاستمرار ببلاهة في دفع أجور للعمالة الزائدة .
هذه اوقات عصيبة . عصيبة للغاية ياسيد بيري . ان انجلترا تقاتل
في سبيل البقاء ، ونحن أيضا . حالة الشركة لم تعد تسمح بأى
عبث ، وأنت تدير العمل بخيبة تحسد عليها . لكنى أحب أن أجعلك
تفريق . عندما تقع الكارثة - وهى يمكن أن تقع في أى يوم - فان
كل من يأكل عيشا من هذه الشركة وبفضلها سيجد نفسه مشردا في
الطرقات ليشحد من جديد . نعم . هل عند سيادتك أية اقتراحات ؟
فيقول بيري بحرونة :

- آه ! واذا بدأت في الوفرة ستقول انى أسوء معاملة المستخدمين .
- تماما . هذا ماتفعله . ذلك الرجل الجديد مثلا ، يسمع صراخه
على بعد ثلاثة بيوت . هذه أشياء لن أسمح بها .
- طبعا . واذا كتمنا أنفاسه بوسادة يخنق ويموت ، واذذاك
تقيم الدنيا وتقعدها ! أنت تعلم جيدا اننا لن نكسب من ورائه مليما
اذا ماعاملناه كما لو كان قطعة من الزبد . ونحن لانضربه الا ليكون
عبرة للاخرين . الملعون لا يدفع بانتظام . وقد أفهمناه ذلك . قلنا
له اننا نفعل ذلك حتى لا يفسد الاخرين . وبعد أن ذهبت أنت عاملناه
برفق .

- اسمع . أنا لن أحذرك كثيرا بعد هذه المرة . لن أسمح بهذه
الاشياء . والاتاوة التى يدفعها « العساكر » تتناقص أيضا من يوم
الى يوم . اننا على وشك الافلاس يا بيري . وسوف أضطر أن أقفل
الدكان ، اذا استمرت الامور على هذه الوتيرة .
- نعم . ايرادات العساكر قليلة ، يامستر بيتشام ، هذا

صحيح . لقد استقصيت الامر بنفسى ، بمنتهى الدقة . الجمهور هو السبب . عواطفه بردت من هذه الناحية فيما يبدو . ولا حيلة لاحد فى ذلك . قلت لك من مبدأ الامر أننا يجب أن نبتعد عن كل ماله علاقة بالسياسة .

استغرق بيتشام فى التفكير . جلس محققا بنظرة ثابتة فى ركن مكتبه المترب وقد أمحى من وجهه كل تعبير . ثم قال :

– أس البلاء أنكم أناس لا أفكار لديكم . لا تستعملون عقولكم . ضع سلسلة من المقالات المكتوبة جيدا عن الحياة العسكرية وجنوب افريقيا فى « غصن الزيتون » وأذ ذاك سترى أن كان العدد الذى عندك من العساكر سيكفى لجمع صدقات الجمهور !

فى أحد اقبية المنزل كانت صحيفة اسمها « غصن الزيتون » تطبع على مطابع مستر بيتشام الخاصة ، وتظهر أسبوعيا حافلة بأخبار الاجتماعيات ، والوفاة ، والزواج ، وحفلات العماد . فمثل تلك المعلومات ذات قيمة لا تقدر بالنسبة للشحاذ الشيط الذى يمتهن الشحاذة من البيوت ، فوق أن تلك الصحيفة المهنية كانت تزود قراءها ، وكلهم من « أبناء الكار » ، فى كل عدد من اعدادها ، بذخيرة من الحكايات المبكية التى تستخدم فى تليين القلوب ، وبعض الفقرات المختارة من الكتاب المقدس ، للضرب على وتر العاطفة الدينية ، غير باب اسمه « فكرة الاسبوع » .

استطرد بيتشام قائلا :

– فوق هذا وذاك كله فاننا نرتكب أخطاء غاية فى الغباء . يجب أن نكف عن ارسال الرجال للشحاذة فى أزياء عسكرية فى الايام التى تنقطع فيها حملات الاثارة الصحفية وانباء الجبهة . هذه كلها أخطاء محزنة لا يقع فيها انسان ملم بأصول المهنة . فتلك البلدة التى اسمها ميפקينج محاصرة الان ، والحرب كها فى حالة ركود . فاذا حاصرنا الجمهور بشحاذين يقومون بدور الجنود الذين فقدوا اذرعهم أو سيقانهم قال الجمهور ، وله الحق فى ذلك : « وما جدوى أن يفقدوا اذرعهم وسيقانهم مادام ذلك لن يوصلهم الى شىء ؟ » انت تعرف الجمهور ، أو يجب أن تعرفه . لن ينفق نقوده أبدا على اعالة حفنة من الفاشلين عديمى الكفاءة . والاهم من ذلك أن أحدا لا يجب أن يذكره أحد بالحرب عندما لا تكون تلك الحرب سائرة على ما يرام . وبالإضافة الى هذا فإن الجمهور سيقول لنفسه : « هؤلاء الشحاذون الملاءين يجب أن يحمدهوا الله على أنهم بأممن هنا ، فأولئك الذين ظلوا هناك

في ميدان القتال أسوأ منهم حالا بكثير . « نعم كانت فكرة طيبة أن نلبس بعض صفار السن من رجالنا ثيابا عسكرية ، لكنه ليس من الفطنة في شيء أن نطلقهم على الجمهور بفشم ، كيفما اتفق ، وفي أي وقت ، خاصة عندما لا تكون هناك أنباء عن انتصارات حققتها جيوشنا . هيا . استدع الرجال !

خرج بيرى فأحضرهم ، أو ، بالأقل ، من كانوا موجودين منهم . توافدوا على الغرفة في ثياب عسكرية قديمة ، ممزقة ، زرية ، وقد انقلبت سحنتهم ، فلم يكونوا يكسبون في تلك الايام شيئا . أخذ بيتشام ينظر اليهم صامتا . لكن نظرتة كانت مبهمة ، لا تفصح عن شيء ، ولا تتوقف عند التفاصيل . سنوات طويلة من المران علمته تلك النظرة . ثم قال بقلظة مفاجئة وبيرى يصفي لكل كلمة من كلماته ، شبه كلب أمين يدرك أن سيده لا يخطيء أبدا :

– طبعا ، لا بد أن يحيق بنا الخراب . هذا كلام لا ينفع . ما هذا الذي أراه أمامي ؟ هؤلاء الرجال ليسوا جنودا انجليزا . انهم حفنة من المتشردين . أنت ! (مشيرا على رجل طويل نحيل شكس الوجه) أنظر الى نفسك . هذا منظر جندي انجليزي ؟ هذا منظر رجل متدمر . منظر رجل شيوعي ! مخلوق كهذا لن يموت من أجل انجلترا أبدا ! وحتى اذا مات ، رغم انه ، فانه سيموت بعد أن يكون قد ملأ الدنيا نواحا وأتينا وصدع رءوس الجميع بالمساومة في ثمن موته ! الجنود فتيان في مقتبل العمر ، يفيضون جاذبية ، ورشاقة ، وبشرا حتى في أحلك الاوقات . وهذه التشوهات المقرزة ! هل تحب أنت أن يطالعك أحد بأشياء تثير الغثيان كهذه في الطريق ؟ ذراع مكسورة مغلولة الى العنق تكفي . والبذلة العسكرية يجب أن تكون نظيفة ، حتى يقول من يراها لنفسه : « هذا الولد الشجاع . لم يعد لديه شيء الا بذلته العسكرية ، وهو مازال يحترمها ! » ذلك احساس يجتذب الناس ، يلين قلوبهم ! أنا في حاجة الى سادة مهذبين ! بضع كلمات مهذبة ، في صوت خفيض ، ولكن بغير تذلل أو مسكنة . فوق أن العسكري الذي يجرح في الحرب يكون فخورا بما أصابه ، فلا يتمسكن به . هذا انرجل فقط يمكنه أن يستمر في هذا العمل ، وعلى الباقي أن يسلموا ثيابهم .

خرج «العاكر» دون أن يظرف لاي منهم جفن ، لا الرجل الطويل المعروق ولا غيره ، فالامر كله متعلق بحسن سير العمل ، ولا مجال للعواطف فيه .

قال بيتشام بعد انصرافهم :

— أولاً يا بيري ، يجب أن يكونوا كلهم شبانا في أتم صحة ، ذوى جاذبية ، يحس من يراهم بالشفقة عليهم لما أصابتهم الحرب به .
ثانياً ، التشوهات المقرزة ممنوعة . ثالثاً ، الثياب نظيفة ومحترمة .
ورابعاً ، هؤلاء الأبطال لا يخرجون للشحاذة إلا عندما تكون الصحف قد نشرت انباء عن تقدم ما فى الحرب ، سواء كان نصراً أو هزيمة ، لا يهم أيهما ، المهم أن يكون هناك تقدم ما ! وذلك يعنى طبعاً أنك يجب أن تقرأ الصحف وتتابع الاخبار . هذا أقل ما يجب أن تفعله .
فأنا أتوقع ممن يعملون فى خدمتى أن يكونوا متيقظين لما يجرى فى العالم من حولهم ، ولملمين به . وحتى بعد ساعات العمل الرسمية ، يجب أن يستمر العمل بغير انقطاع . لقد أصبحت كسولاً يا بيري ، كثير التراخى فى عملك . وهأنا أحذرك المرة تلو المرة .

خرج بيري وقد احتقن وجهه ، فأظهر نشاطاً غير عادى طيلة الأيام القليلة التالية . وقعت أحداث كثيرة : فصل البعض من المشغل وضرب كثيرون فى المكتب . لكن مستر بيتشام كان على يقين من أن التحسينات التى يمكن ادخالها على أعماله فى تلك الناحية كانت محدودة للغاية . فوق أن الخسائر الفظيعة التى كانت تتهدد شركة النقل البحرى لم يكن من المستطاع ، مهما ضوعفت الجهود ، تعويضها من عملية الشحاذة .

وهكذا فان بيتشام انصرف الى محاولة تذكر النظرة التى رأى كوكس يحدج بها ابنته .

١٥ جك

لم تكن احوال مس بولى بيتشام على مايرام . وجدت نفسها مضطرة ، خشية انكشاف أمرها ، أن تحمل ثيابها الداخلية بنفسها الى حيث تفسل ، وقد حمدت ربها على انشغال أمها عن مراقبة تلك الثياب كسابق عهدها ، بسبب الجو المتوتر الذى اشاعه فى البيت مزاج مستر بيتشام المنحرف الذى كان يزداد سوءاً من يوم الى يوم .
ولقد ذهبت الى مستر سمايلز مرة اثر مرة فى طلب النصح ، لكنها لم تكن تجده دائماً . وعندما تمكنت من مقابلته قال لها :
— سنجد حلاً . لكننا يجب أن نكون أكثر حرصاً فى المستقبل .
مافائدة موانع الحمل اذا كان المرء لا يستخدمها ؟

ثم أخذ يتحدث عن مستر بيكيت بتلميحات بذئثة للغايه ، بينما هذه المشكلة لم يكن لمستر بيكيت أى يد فيها على الاطلاق .
لم تجد بولى بدا ، بعد ان خذها مستر سمايلز بهذه الطريقة ، من اللجوء الى خادم عجوز كانت لديهم ، فصارحتها بسرها ، وطلبت مساعدتها .

وقد بمخضت جهود العجوز عن وعاءين كبيرين من نحاس حملتهما ، سرا ، بمساعدة بولى ، الى الغرفة الصغيرة ، وملأتهما بالماء المغلى ، فأخذت بولى تسلق بالحياه فى احدهما ، وهى تشن وتتوجع ، وتأخذ من الوعاء الاخر مزيدا من الماء تسكبه على جسدها المسكين .
ولم تكتف العجوز بذلك الحمام النارى خارجا ، فأجبرتها على شرب أقداح عديدة من الشاي الساخن ، ثم وقفت على باب الغرفة ، لتطل داخلا كل بضع دقائق برأسها الذى يشبه رأس دجاجة وهى تنق سائلة بولى عما اذا كانت الوصفة قد نجحت . نكن وصفتها لم تأت بأية نتيجة . وظلت بولى كما هى ، وجنين مستر سمايلز فى أحشائها .



كان جورج الاعرج قد اطمأن الى حياته الجديدة بين الكلاب . وفى أوقات فراغه كان يلوذ بعشنة صغيرة من الصاج فى آخر الفناء اتخذها بيتا له ، ووضع فيها سريرا سفريا صغيرا وجد له مكانا بصعوبة بين عدد النجارة وركام المخلفات . وفى تلك العشة كانت ملهاته الوحيدة الرقاد على ذلك الفراش ، وقراءة دائرة المعارف البريطانية . كان قد وجد مجلدا من مجلدات الدائرة الشهيرة ملقى فى دورة المياه . ونم يكن المجلد كاملا ، فقد انتزع نصف مابه من أوراق تقريبا ، كما أنه لم يكن المجلد الاول فى المجموعة . لكن المرء كان مستطيعا ان يتعلم الكثير منه رغم ذلك ، حتى وان لم يخرج من قراءته بتعليم كامل . ولكن منذ الذى كان يتاح له ذلك فى تلك الايام ؟
وقد ضبطته الخوخة ذات يوم متلبسا بالقراءة ووعدت بالأ تشى به الى مستر بيتشام . فقد أحس جورج من تعامله مع مستر بيتشام أن ذلك السيد لم يكن يطعم رجاله ليضيعوا وقتهم فى التعليم . لكن الفتاة ، وان حافظت على وعدها فلم تش به ، تسلت الى العشة فأخذت كتابه الى غرفتها عليها تجد فيه شيئا يرشدها الى مخرج من ورطتها . لكنها لم تكن ملمة بالكلمات التى ينبغى أن تبحث تحتها عما كانت تريد الوقوف عليه . ومن المحتمل ، فوق ذلك ، أن هذا

الفرع الذي كان يعنيه من بين فروع المعرفة الانسانية ، لم يكن من بين موضوعات ذلك المجلد . المهم انها لم تجد شيئا .

ارتاع جورج عندما اكتشف ضياع كتابه . فقضى اياما ملقى على فراشه وقد انكسرت نفسه وركبته الكآبة ، بل وعيل صبره مع الكلاب فقسا عليها . وما من شك في أن الخوخة كانت مخطئة خطأ كبيرا لكونها لم تقم باعادة ذلك الكتاب الى مكانه عندما انتهت من التنقيب فيه . لكن الفتاة كانت غارقة في مشكلتها الخاصة . ومن دأب الناس عندما يتسلط عليهم هم ، مهما صغر شأنه ، أن يمسوا أقل اهتماما بمشاعر غيرهم التي لا يهتمون بها ، في الاصل ، كثيرا .

بعد بضعة أيام أخذت تتحدث الى جورج عن الكلاب . كانت تساعده في لف ضمادات مزيفة حول قدم كلب منها ، وفجأة سألته ، دون ان ترفع اليه عينها ، عما تفعله الفتيات عندما يحسن انهن لسن على مايرام . ثم قالت انها تسأله ذلك السؤال لان زميلة لها في دروس التدبير المنزلي حدثتها في ذلك الموضوع .

ظل جورج منهمكا في تضميد قدم الكلب بصمت ثم أعطاها نصيحة طيبة وان لم تكن مجدبة كثيرا في تلك الظروف . لكنه في المساء ارتدى ملابس الخروج وذهب في مهمة ما ، وفي انصباح نادى على بولي فذهبت اليه بين عشش الكلاب .

قال لها انها تستطيع ان تذهب معه بعد الظهر ، ان أحببت ، الى عيادة طبيب في كينزينجتون تتردد عليه النساء بكثرة ويقال انه بارع في مهنته .

والحقيقة انه حصل على تلك البيانات من المرأة التي كان يعيش في بيتها عندما كان زوجها في الجبهة . فقد زارها في اصيل اليوم السابق ، وحصل منها على العنوان . بل انها أعطته عنوانين ، عنوان ذلك الطبيب ، وعنوان داية . هذه الاخيرة كانت للبنات الفقيرات . وقد بدا لفيوكومبي ان الطبيب أليق ببولي لانه يعمل في ظروف اقل قذارة من الداية .

ولم تجد الخوخة في نفسها الجراة على الذهاب بمفردها ، فذهب العسكري معها .

كان الطبيب يقيم في شقة بعمارة شعبية تنز بالفقر وتفوح منها رائحته العطنة . اضطررا أن يصعدا درجا ضيقا معتما عقنا الى الطابق الثاني ، مارين في صعودهما بجحور أبوابها مفتوحة كما لو كانت تلك الابواب قد ضاقت بما وراءها من شقاء فانفجرت خارجا .

ولهذا كانت دهشتها عظيمة عندما وجدا شقة الطبيب نظيفة مريحة . بل أن غرفة الانتظار بدت لهما فاخرة . في الأركان كانت أصص ضخمة فيها زهور ، وعلى الحيطان علقت سجاجيد بدا واضحا أنها استوردت من بلدان أجنبية . ولقد بدت معاطف المرضى ومظلاتهم على المشجب الحديدى زريه قمينه بالقياس الى ذلك الترف .

في غرفة الانتظار كانت سبع او ثمان نساء ، كلهن من الطبقة المتوسطة . وعندما فتح الطبيب باب غرفة الكشف ليدخل المريضة التالية ، أوما لبولى أن تتقدم ، في غير دورها ، لان ثيابها كانت افضل من ثياب الاخريات ، فتبعته في وجل ، بينما ظل العسكري جالسا في غرفة الانتظار .

كان الطبيب من ذلك الصنف من الرجال الذى يروق للنساء لاول وهلة ، بلحيته الصغيرة المعتنى بها ، وجبينه المرتفع . ولقد بدا من الطريقة التى شبك بها يديه أمامه وهو يتكلم أنه كان فخورا غاية الفخر بجمالها . لكن وجهه كان ينم عن اوراق فى رذائل عديدة ، ونظراته لم تكن تبعث على الاطمئنان ، فوق ان صوته كان معسولا اكثر مما ينبغى .

نظرت بولى اليه بدع حقيقى لم تجرؤ على الافصاح عنه وهو يقيد اسمها وعنوانها في دفتر أمامه . اجالت البصر في الغرفة ، فرأت الحيطان مغطاة بأنواع عديدة من الاسلحة كالحراب ، والاقواس ، والسهام ، والمدى ، والخناجر ، والفدارات القديمة ايضا . وفي أحد الأركان ، فى دولاى زجاجى كانت أرفف عديدة من الادوات الجراحية التى بدت اشد خطرا من كل تلك الاسلحة . وعلى المكتب الذى جلس اليه كانت طبقة سميكة من التراب .

مال الطبيب الى الوراى فى مقعده وشبك يديه البيضاوين أمامه ، وانفتح قائلا قبل أن تلفظ بولى بكلمة خلا اسمها وعنوانها :

— أى نعم . هذا الذى تطلبينه مستحيل تماما يا آنستى العزيزة . هل فكرت لحظة فيما يعنيه طلبك هذا ؟ ان الحياة الانسانية مقدسة ، مقدسة تماما ، فوق أن ماتطلبين منى القيام به مناف للقانون . والطبيب الذى يقدم على شيء كهذا التى تطلبينه منى يحرم من مزاوله المهنة ويذهب الى السجن أيضا . ولعلك ستقولين لى — فنحن الاطباء كثيرا مانسمع هذا الراى من المرضى — ان هذه القوانين متخلفة وانها من العصور الوسطى . اه ! والله يا آنستى انا لم أضع هذه

القوانين . ولهذا فاني أنصحك أن تذهبي على الفور الى بيت أهلك فتصارحي امك بحقيقة الامر . فهي امرأة مثلك ولن تعجز عن تقدير موقفك . ولعلها ليس لديها المبلغ الكافي لاتعاب عملية كهذه . نكن لا بأس . فضميري لن يسمح لي ، حتى لو كان ذلك المبلغ معها . بالقيام بشيء كهذا . فلا يوجد طبيب يخاطر بمستقبله واسمه في سبيل عشرة أو عشرين جنيها . نحن الاطباء لسنا جامدى القلوب كما يتصور الناس . نحن نحس بمصائب اخواننا البشر . بل اننا كأطباء نقف على ما لا يقف عليه غيرنا من البلايا الاجتماعية . والحقيقة ان الامر لو كان مستطاعا من أية سبيل ، لو كان لديك اى نوع من الاعراض ، حتى اعراض السل ، لقلت لك ببساطة « من هذه العين وهذه العين . هذه مسألة سهلة للغاية . سأخلصك من هذه الورطة في خمس دقائق لا أكثر ، ولن تكون هناك بعد ذلك أية مضاعفات » لكنك لاتبدئين كما لو كنت مصابة بالسل او بأى شيء من هذا القبيل . أنت نفسك يجب أن تعترفي بذلك . والخطأ خطوك على أية حال . فانت عندما استسلمت بطيش ونزق للمذاتك كان يجب أن تفكرى فى المواقب . يجب أن يكون المرء بعيد النظر ، ولا يجب أبدا أن يستسلم لمشاعره ، مهما كانت تلك المشاعر ممتعة او واعدة بالمتعة . فأنت تذهبين بعد ذلك الى الطبيب مهرولة وتقولين له انقذنى . تجلبين على رأسك وعلى رأسه متاعب كنتما فى غنى عنها . ارحمنى يادكتور انقذنى يادكتور لاتدع حياتى تتحطم ! لكنك لاتهتمين لما يمكن أن يتعرض له ذلك الدكتور المسكين من مخاطر فظيعة قد تؤدى الى خراب بيته اذا ما استسلم لطيبة قلبه التى لن تدعه يرفض لك طلبا . يا للانانية ! لكنها ، مهما قيل فيها ، عملية منافية للقانون ، وحتى اذا كان الطبيب لا يستخدم المخدرات فيها حرصا على حياة المريضة ، فانها تتكلف ، مع ذلك ، خمسة عشر جنيها ، تدفع مقدما ، والا قلت لى فيما بعد ، بعد أن أكون قد خلصتك من ورطتك : « ماذا ! وهل أنا قلت لك أن تجرى لى عمليات يادكتور ؟ » واذذاك يخرج الدكتور المسكين ، الذى يجب عليه هو الآخر أن يكسب رزقه ، صفر اليدين من هذه المخاطرة الفظيعة بسمعته ومستقبله . وهو فى العمليات التى من هذا النوع لا يستطيع أن يمسك دفاتر أو يرسل فواتير - حرصا على سمعة المريضة بطبيعة الحال . وهو لو كان لديه عقل لنفض يديه من الامر كله . لانه يجازف بضياع مستقبله . بل هو فاعل ذلك فى نهاية الامر . حياة الجنين يا آنستى العريزة مقدسة تماما

كأى حياة أخرى . فالكنيسة لم تعلن ذلك سدى . سيكون لدى وقت لاستقبالك مرة أخرى بعد ظهر السبت . لكن فكرى فى الامر جيدا . فكرى فيما اذا كنت على استعداد لتحمل هذه المسئولية الخطيرة وأخذها على عاتقك . فان لم تقدرى ، فمن الافضل ترك الامور على ماهى عليه . واحضرى النقود معك . والا فلا حاجة بك الى المجيء اطلاقا . تفضلى من هنا يابنيتى العزيزة .

خرجت الخوجة من عيادة ذلك الطبيب كسيرة خاطر . كيف تحصل على خمسة عشر جنيها استرلينيا ؟

سارت بجوار العسكرى وقد خيمت عليهما الكآبة . ثم قال هذا الاخير بعد تردد :

— معى عنوان آخر . تحبين أن نذهب اليه ؟

فذهبا . كانت الداية العجوز امرأة شحيمة ، تتخذ من غرفة الجلوس فى بيتها غرفة استقبال وقاعة عمليات . جلست بولى متوترة على حافة كنبه من القטיפه الحمراء زاعقة اللون ، والمرأة تتفحصها بارتياب لاتحاول أن تخفيه . ثم قالت لها :

— ستكلفك العملية جنيها . لن أقوم بها بأقل من ذلك . ويجب أن احذرك من الان أن تطبقى فمك اثناء العملية . اذا أخذت فى الصراخ سأتوقف على الفور واطردك . لست على استعداد لوجع القلب فى سبيل أحد . النقود معك ؟ ستستغرق العملية نصف ساعة .

همت بولى واقفة . قالت :

— آسفة . لم احضر النقود معى . سأعود فى الغد .

وهما ينزلان الدرج قالت لفيوكومبى :

— لم يعجبني المكان . قدر للغاية .

فقال العسكرى :

— نعم . المفروض أن زبائن العجوز كلهن من الخادومات . كانت بولى مشغولة بالتفكير فى درج النقود بديكان أبيها .

لم تكن بولى لصة بالسليقة . منذ طفولتها أحست مقنا فطريا لحكاية السرقة هذه . وقد ازداد ذلك المقت قوة فى نفسها ، بنفس القدر الذى ازداد به اقبالها على السرقة . ولا يعنى هذا أنها كانت تسرق فتعاقب عقابا صارما فتكره السرقة وتعود لتسرق . فعقابها الوحيد كان تخفيض مصروفها — وبالتالي تموينها اليومى من قطع الملبس — وقدرا لا يستهان به من الوعظ والارشاد . لكن المقت كان طبيعيا . كلما وضعت اصبعها فى وعاء المربى خلسته

أحست بالذنب ، وانبها ضميرها في غير رحمة . حقيقة أن طعم
المربي - كلما اختلست لحسة - كان أحلى ، لكن الاحساس بالذنب
كان له طعم هو الآخر ، طعم شديد المرارة . فلقد قيل لها أن الله
يستطيع أن يرى كل شيء وأنه يكمن متربصا بالخطاة ليل نهار
ليضبطهم ويعاقبهم . ومن الجلي أنه كان يرى كل شيء تفعله هي .
ولو أنه بدا لها أن هناك أشياء بعينها ليس من اللياقة التجسس عليها .
فوق انها اقتنعت في نهاية الأمر أن الله عندما يأخذ في مراقبة أحد الناس
بهذه الطريقة ، فيرى ما فيه الكفاية من أفعاله الشريرة ، انما يقطع
خط الرجعة على ذلك الذي يراقبه ، لانه ، جل جلاله ، سيتحير
ضده ، ولن يسمح لاي قدر من السلوك الحميد يسلكه ذلك التمس
بعد ذلك ويتحمل فيه ما لا يطيق ، أن يؤثر في حكمه عليه أو يجعله يترفق
به . وهكذا أحست بولي ان سجل ذنوبها قد امتلأ وفاض ولم يعد فيه
مكان لذنوب جديدة ، ولذا فانها تستطيع أن ترتكب ماشاءت من
ذنوب ومعاص بنفس هادئة مطمئنة . اقتنعت بولي أنها فتاة ضائعة ،
فسمحت لنفسها بالانغماس في كل الرذائل ، غير دارية أنه الكسل
وحده الذي يدفع الكبار الى تفويض حراسة برطمانات المربي
وحاصلات النقود الى الله كما لو كان ذلك هو عمله الوحيد .

ومع هذا كله ، فستان ما بين سرقة دريهمات من حصالة وسرقة
خمسة عشر جنيها استرلينيا من درج أبيها .
ما لبثت مصاعب السرقة أن بدت لبولي محبطة للامال ، فقد هولت
الامر على نفسها ، رغم أنها ، في حقيقة الامر ، كانت قادرة ، طيلة
الوقت على سرقة المبلغ من ابيها بغير كبير مشقة . حقيقة أن درج
النقود في الدكان كان موصدا دائما باحكام ، ومن الصعب اغتصابه .
لكن مستر بيتشام كان يحمل معه دائما مبالغ كبيرة من المال ، في
جيب بنطلونه . ذلك المال كان يعتصره بغير هوادة ، بنسبنا ،
من شحاذيه ، فيحوله الى فضة ، ويحشو به جيوبه في اهمال . ولم
يكن مرجع ذلك الاهمال الى استصغار لشأن المال ، أو جهل بقيمته ،
بل الى اليأس . فقد وصل مستر بيتشام في تلك الايام الى حال
بات موقنا معها أنه لا هذا المال ، ولا أي مال آخر ، مهما عظم ، يمكن
أن ينقذه من برائن الخراب المتربص به ، ولولا بقية من احساس بما
يمليه الضمير من وجوب الانكباب على العمل ، لالقى بذلك المال في عرض
الطريق . وهو ما يبين لنا عمق الهاوية التي كان الرجل قد تردى فيها .
لم يعد يجدي شيء . ولا مليون كامل من الجنيهاات . فقد وقر في

ذهنه أنه لاماله (أوحى كل مافى العالم من مال) ، ولا فكره الناخب - أو كل ما فى العالم من فكر ناخب - يمكن أن ينقذه من الخراب العاجل الشامل . ولعل ذلك هو السبب فى أنه لم يعد يعمل بحماس كسابق عهده ، وأنه انقلب كسولا ، لا يفعل طيلة النهار شيئا الا التجول هنا وهناك فى دكانه ، وفنائه ، وورشه ، وبيته ، قبعته على رأسه ، ويده فى جيبى سرواله ، مراقبا كل صغيرة وكبيرة ، خشية أن يتراخى أحد عن أداء عمل يجب أدائه .

ولقد كانت ابنته مستطبعة أن تختلس من جيبه ، على مدى اسبوع واحد ، مبلغ الخمسة عشر جنيها استرلينيا ، بالتسلل الى غرفة نومه ليلا ، وحتى لو ضبطها لما كان الامر قد تمخض عن خطر حقيقى بالنسبة اليها . لان مستر بيتشام لو كان قد استيقظ من نومه بغتة ، فوجد ابنته منهمة فى تنظيف جيوبه ، لما طرف له جفن ، ولكان قد استغرق فى النوم من جديد . نعم كانت ابنته ستعاقب ، عقابا هينا ، لكنها لم تكن عرضه لان تسقط فى نظره . لم يكن هناك فعل ، مهما انحط ، يمكن أن يجعل أحدا يسقط فى نظر مستر بيتشام . ومما يؤسف له حقا أن الناس لا يدرون بحقيقة قدراتهم . وهكذا فان بولى تصورت أنها غير قادرة على الحصول على جنيهاتها الاسترلينية الخمسة عشر من مال أبيها .

عندما حدثت بولى العسكرية فى شأن ذلك المبلغ ، أبدى استعداده لكسر رأس السيد الذى أوقعها فى تلك الورطة . لكن بولى لم تكن ترغب فى كسر رأس أحد . كان همها منصرفا الى صناديق النقود التى يمكن كسر أقفالها واخراج النقود منها . ولسوء الحظ لم يكن مستر سمايلز صندوق نقود . وهكذا فان أفكار بولى بدأت تتجه ، بصورة متزايدة ، نحو مستر بيكيت .

لكن العسكرية لم يكن على علم بكل ذلك ، ولذا فانه ، بعد أن اطمأن على كلابه ، عاد الى عشته ، فرقد على سريره السفرى . وفى اعتقادنا أن العسكرية لو كان ممن يفكرون ، لجالت مثل هذه الافكار برأسه :

- هناك من يحتاج الى خمسة عشر جنيها من جديد ! والله لو توفر لديهن المال لما تركن أحدا يولد بالمرّة ! ومنذ الذى يلومهن ؟ أى امرأة تلك التى يطاوعها قلبها على أن تلد طفلا فى هذا العالم متى كان لديها المال لتمنع ولادته ؟ فكأن خلاص العالم فى تلك الجنيهاات القليلة ! لو توفرت فى كل مرة لما ازدحم العالم بهذا العدد البشع من المخلوقات الانسانية التى تمزق بعضها البعض اربا فى سبيل

بضعة أنفاس من الهواء ، وبضع لقيمات من طعام لا طعم له ، وسقف مثقوب فوق الرعوس لا يقى من مطر او صقيع ! ولما وجد احد يقوم بالقتل فى كل هذه الحروب . لانه فى سبيل من ستنشرب الحروب آنثذ؟ لن يكون هناك من يمكن استغلاله ، لان الام ذاتها ستكون قد نجت من الاستغلال ، وأنقذت جنينها منه ، بجنيهاتها الخمسة عشر . كل الاساتذة يقولون أنه ما من سبيل الى اعادة توزيع الثروة . فالملك لايمكن التخلص منهم . ولكن هل هناك ما يمنع من انتخلص من الذين ليسوا بملك ؟ على الاقل بمنعهم من المجيء الى الدنيا ؟ القانون يحرم الاجهاض ، بينما الفتيات المسكينات يسعدهن جدا أن يسمح لهن بذلك . ولهذا فانهن يقاومن ذلك القانون . لكن ما من سبيل الى تحقيق رغبتهن . كلا ، بطبيعة الحال ! ذلك يكون أمرا مخجلا للغاية ! ألم تعلن الكنيسة المقدسة ان الحياة مقدسة ؟ فكيف يحق لاولاء النسوة أن يرفضن انجاب الاطفال فى هذا العالم المكتظ ، النتن . الذى تمزقه صرخات الجياع ؟ عيب طبعا ، يجب عليهن أن يتماسكن وأن يتذرعن بالشجاعة والايامن ، بدلا من الاستسلام لهذه الانهزامية المنافية للايمان يجب عليهن أن يجرعن بعض الويسكى ويطبقن أسنانهن ، ويلدن ! حتى لا يقول أحد أنهن يخالفن سنة الخالق . ويرفضن انجاب مزيد من الاطفال ! لكن ما ذنبهن وكل واحدة منهن تتصور أن ابنها أئمن من أن يولد فى هذا العالم ، وأنه يجب أن يستثنى من هذا العذاب العام لانه خير من الآخرين ! والله أحسن أن الاجهاض يكلف نقودا ، والا لما كنا انتهينا . .

ذلك ، بشكل عام ، هو ما كان العسكرى حريا بأن يفكر فيه ، لو كان ممن يفكرون . لكنه لم يكن منهم ، لانه كان مدربا على الطاعة والنظام سرعان ما نهض من فراشه وصعد الى الخوخة ليقول لها شيئا . سيأخذها الى صديقته ، صاحبة الدكان . لا بد أن المرأة ستجد لها مخرجا .

عندما دخل الغرفة المطلية باللون الوردى ، رأى خوخة راقدة على ظهرها فى الفراش ، وقد تراخت ذراعاها الى جانبيها ، وعيناها تحدقان فى السقف .

كان فيوكومبى يهم بالكلام عندما وقع بصره على كتاب مهلهل ملقى على مقعد خيزران من مقاعد الغرفة . عرف الكتاب على الفور . فهو ذلك المجلد من دائرة المعارف البريطانية ، أو ما تبقى منه . وقد قضى ساعات بأكملها متكبا عليه ، حتى بات بوسعه أن يردد صفحات

بأكملها منه عن ظهر قلب . لكن ما أكثر الصفحات التي لم يقرأها
بعد .

صدم العسكري اذ وجد كتابه الذي افتقده كثيرا في غرفة بولى .
ولقد بلغ من عنف الصدمة أنه لم يحس السعادة التي كان حريا أن
يحس بها لعثوره على الكتاب . فضياع الكتاب كان قد أحزنه كثيرا ،
لأنه كان ذا قيمة كبرى في حياته . لكن اكتشاف سارق الكتاب
أحزنه أكثر . كان متعلقا بكتابه هذا . نعم كان بوسعه أن يشتري غيره
من أحد محلات البضائع القديمة ، اذ وقعت عينه عليه في نافذة ذلك
المحل . لكن من يضمن له أن يعثر على ذلك المجلد عينه ؟ تلك صدفة
لا تحدث الا مرة كل عشر سنين مثلا . ونحن نعلم أن ذلك المجلد
الممزق لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للخوخة . أما بالنسبة للعسكري ،
فلم يكن هناك شيء في العالم يمكن أن يقبله عوضا عن ذلك الكتاب ،
الا المجلد الكامل نفسه ، فيما يحتمل . ومع ذلك فما هو يراه أمامه
ولا يستطيع أن يلتقطه فيقول ببساطة : « آه ! ها هو كتابي ! ترى
كيف جاء الى هنا ؟ » فمثل ذلك السلوك كان حريا بأن ينهى الامر
كله نهاية غير مستحبة . ورغم أنه سكت ، الا أن منظر ذلك المجلد
في غرفة مس بيتشام ، غير رأى العسكري فيها تماما . وهكذا فانها
عندما سألته عما جاء به لم تسمع منه غير غمغمة مبهمه ، لعلها كانت
«جثتا طمئن عليك» ، خرج على اثرها مباشرة دون أن ينظر اليها او الى
الكتاب . وقد ضايقها كثيرا سلوكه الفريب هذا .

ولم تدر أنها فقدت بخروجه كائنا ودودا ، كائنا لا غنى عنه ولا
قرين له في هذا العالم الذي لا أصدقاء فيه ، وفقدت معينا من النصح
ورجاحة العقل كان حريا بأن يغير مجرى حياتها كله .

خلال تلك الايام عادت بولى الى التردد على مستر سمايلز من جديد .
وبالنظر الى أن صاحبة البيت كانت قد بدأت تشك في أمرهما ،
فانهما اضطرا الى الذهاب الى الحديقة العامة . وهناك أرادت بولى
أن تجلس معه على أحد مقاعد الحديقة بمراى من الناس ، لكنه أصر
على الجلوس بين الشجيرات .

وقد اعتبرت ذلك ضربا خسيسا من الابتزاز من جانبه . لكنها
أنصاعت له .

طوق مستر سمايلز ردها ثم أخذ يقول لها انه في الاونة الاخيرة
بذل جهودا مضنية للعثور على طريقة لمساعدتها .
قال وهو يلصق خده بخدها :

- لا يجب أن تتصورى أنى لا أفكر فى الامر ليل نهار . انه مزعج

للفجأة بالنسبة الى • فوق انك لم تعودى لطيفة معى منذ أن حدث ذلك • أصبحت سريعة الغضب ، ضيقة الصدر ، خذى هذه الليلة مثلا • بدلا من أن يروق لك الجلوس هنا معى • بين الشجيرات ، بعيدا عن العيون - انظرى الى القمر • انه ليس دائما بهذه الروعة يا حبيبتى • لكنك لا تنظرين اليه كما ينبغي ! - آه ، نعم كنت أقول أنك بدلا من أن تحاولى نسيان الموضوع ، وهو ما قد يكون مفيدا فى حالتك الراهنة ، لا تكفين عن العودة الى نفس الحكاية القديمة • ألم تعودى تحبيننى ؟ هل أصبحت لا تحبين أن أضع يدي هنا على صدرك ؟ أنت لا تثقين بى • ان الواجب يعلى على أن أخرجك من هذه المشكلة التى أوقعتك فيها - حتى ولو كنت أنت قد أوقعت نفسك أيضا ، وهو ما يجب أن تعترفى به يا حبيبتى • لكن اسمعى • لقد اكتشفت شيئا • وصفة ليس لدى أدنى شك فى أنها ستنجح • وأهم مافى الامر أنك تستطيعين أن تقومى بالامر بمفردك ، فوق أنه لا يكلف ، فى الواقع ، شيئا • تأخذين بصلة •• نظرت اليه دهشة ، فاستطرد بلهوجة ، وهو يرفع ذراعه من حول ردفها :

- تأخذين البصلة • بصلة عادية من ذلك النوع الذى تجدينه فى المطبخ ، و •• و •• ثم ينتهى الامر ، ببساطة • ما رأيك ؟ وصفة سهلة ، أليس كذلك ؟
 همت بولى واقفة بغضب • انهمكت فى تنظيف جونلتها من الحشائش ، ثم اخذت تعدل من وضع قبعتها ، دون أن تقول شيئا • وعندما لاحظت غيظه قالت باقتضاب :
 - لو كان ذلك يتم ببصلة ، لما دفع أحد خمسة عشر جنيها للطبيب • فوق أن هذه البصلة تكون مؤلمة للغاية •
 خرجا من الحديقة على عجل وكان كلا منهما يريد أن يفترق عن صاحبه بأسرع مايمكن • وعندما افترقا اظهر مستر سمايلز بوضوح أنه يحس بأنه قد قام بكل ما يحق لها أن تتوقعه منه وأكثر •

كانت بولى على علم بأن الاسم الاخر لبيكيت هو مستر ماكهيث ، كما كانت على علم بسلسلة محلات حرف «ب» • فقد صارحها الرجل بكل شيء • ولم تجد فى ذلك كله غرابة • فطالما كان يتعامل فى الاخشاب أيضا ، فان من حقه أن يصف نفسه بأنه تاجر أخشاب • قابلته بولى عدة مرات وأخبرته تلميحا بمقابلتها مع السمسار كوكس • لم تقل شيئا عن زيارتها لهذا الاخير فى بيته ، ولا عن

خطاب أبيها اليه ، لكنها ذكرت أنه حدثها عن عدد من الصور المثيرة للاهتمام قال انه يريد أن يفرجها عليها . وأضافت أنها ستزوره في بيته قريبا ، خاصة بعد أن سمعت أن أخته سيده لطيفة للغاية . أنصت اليها مستر بيكيت باكتئاب ، ووجهه يعطى انطبعا بأنه مطالب باتخاذ قرار هام وعاجل .

قرب المساء نزلت بولي في أعقاب أمها الى الكرار ، حيث كانوا يحتفظون بالتفاح مرصوصا على أرفف . كانت تعلم أن مسز بيتشام لا تحب أن يتبعها أحد الى ذلك المكان ، لأنها تحب أن تنفرد بنفسها فيه . لكنها كانت قد عقدت العزم على التحدث اليها في ذلك المكان دون غيره .

عندما فتحت الباب ، رأت أمها واقفة بين أرفف التفاح ، ممسكة بكأس من الويسكى في يدها ، وقد ارتسم تعبير مذعور على وجهها لهذه المباغطة . كان مما يحز في نفس مسز بيتشام أن يضطرها زوجها الى اللجوء لهذه المناورات المهينة أمام أبنيتها لمجرد أن تشرب كأسا من الويسكى بين الحين والحين . لكن تزلت الرجل كان لا يطاق . ومع ذلك فهي في السادسة والاربعين من عمرها ، ويجب أن يكون لديها قدر من الحرية الشخصية التي تمكنها من أن تفعل ما تشاء .

تحدثت اليها بولي بعذوبة ، لأنها كانت مثقلة بوزر فعلتها المخجلة ، ولولا ذلك لاغلظت لها القول كدابها . قالت لها أنها تريد الزواج من بيكيت .

فقالت مسز بيتشام كأنها تفضي بسر لا تريد الكشف عنه :

- ليس اسمه بيكيت .

لكن بولي قالت بهدوء :

- نعم . أعرف . اسمه ماكهيث - أو هو في الحقيقة . . ربما كان

اسمه ماكهيث فعلا .

فقالت مسز بيتشام وهي تضع كأسها من يدها على أقرب رف

اليها بخبطة تنبئ عن حنقها :

- وبيتشام ؟ ما الذي سيقوله بيتشام عن رجل قد يكون اسمه

كذا وقد يكون كيت ؟ هذا رجل يتزوجه أحد ؟ لست عمياء . لدى

عينان في رأسي وأستطيع أن أرى الطريقة التي يراقصك بها . حتى

هو يظن أنني لا أراه . لكنني أعرف هذه الاشياء . لا يوجد رجل

أعمال محترم يمسك فتاة في مقتبل العمر هذه المسكة التي

يطبق بها على خصرك . والادهى من ذلك ان ابن ال . . يظن أنني لا

أكون فى كامل وعيى بعد أربعة أو خمسة اكواب من تلك الجعة التى يقدمونها فى حانة « الاخطبوط » ! فيطلق لسفالتة العنان معك . لا تحاولى أن تخلعيني يا بولى يا عزيزتى ! لا يمكن أن تكون الاسباب التى تدفعك الى الحديث عن مثل هذا الرجل محترمة ! انها دوافع من نوع آخر تماما أفضل ألا أتحدث عنها . لقد أدار رأسك بلمساته الوقحة . هذا هو ما حدث لك فى حقيقة الامر .

- نعم . الحقيقة أنى منجذبة اليه .

فصاحت مسز بيتشام بانتصار :

- طبعاً . هذا هو ما قلته . لقد فقدت عقلك . أصبحت

متميمة به ، حتى لم يعد بوسعك أن تعرفى لك رأساً من قدمين . وهنا أحست بولى بالغضب ، فقالت بلهجتها المتعالية التى ألفت أن تحدث بها أمها :

- أف ! لا تصدعى رأسى بكثرة كلامك ! كل ما أريده منك هو

أن تخبرى أبى . وعليه بعد ذلك أن يتحدث الى مستر بيكيت .

ثم دارت على عقبها فعدت الى غرفتها .

أما مسز بيتشام فتنهدت وأفرغت كأسها فى جوفها ووجها مكفهر

غيظاً وكمداً . لكنها فى تلك الليلة عينها تحدثت الى بيتشام كما

أمرتها أبنيتها . فقد كانت تعرف بولى .



كان بيتشام قد شهد أصيلاً مروعا بين أنياب كوكس . فى غرفة

خلفية بمشرب تبيند طلب السمسار صراحة أن يقوم الشركاء بشراء

سفن جديدة غير السفن الخردة التى حاولوا أن ينصبوا بها على

حكومة صاحبة الجلالة . وقع ذلك الطلب على شركة النقل البحرى

وقع الصاعقة . انهار ايستمان فى مقعده كأنه أصيب بفالج . كان

قد بدأ يتفائل كثيراً فى الاسبوع الاخيرة ويتوقع أن تتم الصفقة على

خير . أما سمسار المراهنات فقفز واقفاً وأخذ يجار بأعلى عقيرته كثور

هائج ، ثم انحط جالسا ، واجهش باكياً . لم يعد هناك مخرج ،

ولم يعد يجدى شئ . وطبقاً لما قاله كوكس كانت الخطوات الاولى

قد اتخذت بالفعل لتشكيل لجنة برلمانية تحقق فى الصفقة بأكملها .

وهكذا فان الشركاء فوضوا بيتشام ، بوصفه مالكا لـ 2/7 من أسهم

الشركة ، فى مصاحبة كوكس الى ساوثمبتون فى نهاية الاسبوع ،

للتفاوض فى شراء سفن « محترمة » جديدة .

ومع ذلك ذهبوا كلهم الى رصيف الميناء ليحضروا حفل التسليم

الرسمى للسفن الثلاث الخردة الى الحكومة . فقد قال كوكس انهم يجب أن يقوموا بتسليمها فعلا حتى لا يثيروا الشبهات حولهم ، وأنهم يستطيعون بعد ذلك استبدالها بالسفن السليمة . لم تكن العمرة قد تمت بعد وما زال العمل جاريا تحت اشراف شركة النقل البحرى . وقد مثل اللجنة الحكومية القائمة بالاستلام سيدان فى ثياب لا يرتديها أحد عادة فى مثل تلك المناسبات الرسمية . وقد تمت مراسم الحفل بسرعة وعجلة ظاهرتين ، وكان كل من اشترك فيها يود أن ينجو بجلده بأسرع ما يمكن . وهكذا وقفوا جميعهم على ذلك الرصيف الذى تلفحه الريح ربع ساعة قصيرة بدت فى طول دهر بأكمله ، تحت وابل المطر ، وقد تجمدت اطرافهم . لكنه واجب الوطن .

وهو يوشك أن يغمض عينيه لينام فيضع حدا لعذاب ذلك اليوم الرهيب فاجأته مسز بيتشام باسم الرجل ماكهيث فى امر له صلة بابنته بولى . فجن جنونه . أصابته لومة حقيقية .
جار بأعلى عقيرته :

— من الذى عرفكما به ، ذلك الافاق صاحب محلات حرف «ب» ؟
ما هذا ؟ هو الذى قدم نفسه ؟ أى أماكن هذه التى تتردين عليها حيث يقدم الرجال الغرباء أنفسهم اليك والى ابنتك ؟ هذا الرجل معروف فى كل مكان بأنه محتال ونصاب ! اذن فهذه هى الطريقة التى تعنين بها بابنتك ! هأنا استعبد نفسى اناء الليل واطراف النهار فى سبيلكما ، وأنت تقدمينها لقمة سائغة الى أنجر الفجار ، الى نصاب ذى سمعة ننتة يقضى سحابة يومه متسولا فى صالات البنوك محاولا أن يحصل على قرض يمولى به دكاكينه البالوعية . ماخطبها ابنتك هذه ؟ هل جنت ؟ سأردها الى جادة الصواب لفورى مادامت قد فقدت عقلها .
تبادل النظرات مع ذلك الرجل كوكس تحت بصر ابويها ال . . . لكن خبرينى من أين جاءت بكل هذه البهيمية التى فى عروقها ؟
قالت مسز بيتشام وهى تجذب اغطية الفراش حتى عنقها :

— ليس منك بكل تأكيد !

فقال زوجها وقد ازداد هياجا فى الظلام :

— طبعا ليس منى . انا لا نفع عندى لهذه الاشياء . يجب أن احتفظ بصفاء الذهن فى كل لحظة وألا مزقتنى هذه الضباع أربا .
ثم توقف بغتة ، قائلا :

— لا أريد أن اسمع كلمة أخرى . وفى المستقبل سأقرر أنا من من الناس ينبغى أن تختلط به بولى .

كان قد حزم أمره فيما يتعلق ببولي .
فى صباح اليوم التالى تحدث اليها فى المكتب . استجوبها فى
غير رخمة عن زيارتها لمستتر كوكس فى بيته ، بل وتوصل الى أن
يستخلص منها ، بين الدموع والشهقات ، حكاية الصور البديئة التى
أراها السمسار اياها . قالت أنها رأت سيدات عاريات فى تلك
الصور فى أوضاع مخجلة .

بعد أن انتهى منها ، قال لها أنه يعتبر أن نصف ما أفضت به من
اعترافات لا يخرج عن كونه أكاذيب ، وأن مستتر كوكس رجل أعمال
محترم للغاية ، وأنها يجب أن تحمد ربها لاهتمامه بها ولكونه لم
يسمع شيئاً عن الاصناف الوضيعة من البشر التى تختلط بهم . ثم
ترك الامر معلقاً عند هذا التلميح الاخير .

وهكذا فانها عندما فابلت مستتر ماكهيث فى المرة التالية ، أخبرته
أن أبائها لن يوافق بأى حال من الاحوال على زواجها منه ، وأن مستتر
كوكس قد دعاها الى الذهاب معه فى رحلة خلوية فى نهاية الاسبوع .
ولقد صدقت فى الجزء الاول مما قالته له . أما حكاية النزهة
الخلوية فكانت كذبة صفيقة أرادت أن تسود بها عيشه .



عندما علم مستتر ماكهيث من بولي أن مستتر كوكس هو الخطيب
المفضل عند أبويها ، بدأ له وأوضحاً أنه يجب أن يفعل شيئاً بخصوص
مستتر كوكس .

ولم يطل به التفكير . سرعان ما قر قراره ، فركب احدى السيارات
العامة التى تجرها الخيول فذهب الى مكتب من تلك المكاتب الصحفية
القدرية ، المدقعة فى فقرها ، التى تتكون من حجريين يسكنهما عادة
رجال ذوو فضول ، لا يفتسلون أبداً ، ولا يحلقون ذقونهم ، لهم
أصوات تفيض لؤماً وتلميحا .

تبودلت بعض النقود ثم وضعت أمام مستتر ماكهيث بضع مجلدات
مزينة ممزقة من الصحف القديمة ، فقضى بعض الوقت فى تصفحها ،
ثم خرج من تلك الدار فركب سيارة اخرى تجرها الخيول ، حملته
الى حيث دخل بيتا عتيقا آيلا للسقوط فى ميدان لووربلاكسميث ،
فألقي بتعليمات سريعة الى رجل قدر الشياى تنطق هيئته بالشر .
ثم ذهب فركب سيارة عامة ثالثة ، عائداً الى بيته ، رغم أن الوقت
كان مبكراً .

كان يقيم فى بيت صغير فى احدى الضواحي الجنوبية يقع وراء

حديقة متناهية في الصغر ضمن صف مرصوص من بيوت متماثلة تماما لا يميزها عن بعضها شيء . لم يكن قد طال به مقام في ذلك البيت ، بل أن البناء ذاته لم يكن معداً للسكنى تماما . في إحدى الغرف العارية كانت بضع قطع قليلة من أثاث ، بينها كنبه جديدة يستخدمها فراشا ، وفي المطبخ موقد يعمل بالغاز وثلاجة بدائية . لم يكن البيت جديداً ، فقد حل فيه محل زميل من زملاء العمل كان قد أفلس .

وقف على درج البيت ، وأخرج من جيبه حلقة مفاتيح كبيرة فجرب أكثر من مفتاح قبل أن يتمكن من الدخول ، ثم أغلق الباب وراءه وسار ، وهو يصفر ، مخترقا ردهة عارية تماما لم يكن فيها حتى مشجب يعلق عليه قبعته .

وعندما بلغ غرفته في الدور الاول ، حيث كان كل شيء مرتباً بنظام دقيق ، خلع حذاءه واستلقى على الأريكة ، فظل ممدداً عليها الى أن حل الظلام .

عندما قاربت الساعة العاشرة ، سمع رنين الجرس من أسفل ، فنزل ، وفتح الباب ، فأدخل رجلاً يدنياً أخذ منه ما كان معه ثم دفعه خارجاً من جديد ، بلا كلمة واحدة . وقد بدا واضحاً أن الرجل البدين لم تعجبه هذه المعاملة ، لأنه انصرف وهو يبرطم . لكنه لم يحدث أية متاعب ، فوق أن معرفته بالجيرة جعلت من الجلي أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يتردد فيها على ذلك البيت .

فتح ماكهيث (الذي كان ، في واقع الامر ، يقيم في ذلك البيت تحت اسم مستعار وهو ميلبورن) الربطة التي أتى بها الرجل البدين ، فأخرج منها حزمة من الخطابات ، والأوراق والصور جلس يتفحصها زهاء نصف ساعة على ضوء مصباح بتروول ، ثم انصرف عنها ، وأعد فراشه ببضعة بطاطين أخرجها من دولاب في الحائط ، وسرعان ما كان يغط في النوم .

وفي صباح اليوم التالي ذهب الى قيادة الشرطة حيث قابل نائب القائد الذي كان صديقاً قديماً له . وقف الرجلان معا وقد نشرا محتويات ربطة الامس على سطح المكتب العارى وأخذاً يدرسانها معا ، خاصة كراسة مدرسية مسطرة ذات غلاف أحمر كان مستر كوكس يكتب فيها يومياته .

كانت تلك اليوميات تحوى معلومات شخصية للغاية عن حياة السمسار الخاصة . ولقد رفض نائب القائد الاطلاع على أى ورقة

من تلك الاوراق حتى اقسام له مستر ماكهيث انها لا تتضمن أية معلومات من أعمال صاحبها أو نشاطه في دنيا المال . لانه لو كان الامر كذلك لما وجد مستر براون ، نائب القائد ، في مكنته الاطلاع عليها ، بالنظر الى ما تتمتع به مثل تلك المعلومات من حصانة لاتهدر . والحقيقة أن الجانب الأكبر من محتويات الكراسة الحمراء كان من قبيل التفلسف الاخلاقي . نعم كانت اليوميات حافلة بمعلومات أكيدة عن زيارات ووقائع معينة ، لكن الطابع الاخلاقي كان غالبا عليها ، متمثلا في مواعظ موجهة للذات ، مختلطة بنقد ذاتي صريح وتوبيخ موجه الى الذات أيضا ، كدليل لا يدحض على المعركة التي لا تنقطع التي كان صاحب الكراسة يخوضها ضد شهوانية فائقة بدأ واضحا أنها آخذة بخناقها . والواقع أن الجزء الأكبر من تلك الملاحظات كان يفوق قدرات السيدين ماكهيث وبراون العقلية ، فقائهما مغزاها في معظم الامر ، وهو ما لا يلام عليه كاتبها ، لانه لم يكن قد كتبها لهما على أية حال .

كانت هناك أسماء أيضا ، ولو أنها بالشفرة ، لانه وردت مرموزا اليها بحروفها الاولى فقط . كما تضمنت اليوميات احصائيات دقيقة ومنتظمة أيضا . فكل يومين او ثلاثة أيام على الاكثر (ولم يكن صاحب اليوميات يغفل عن كتابتها يوما واحدا) كانت هناك أرقام لافتة للنظر ، مكتوبة بالحبر الاحمر وتحتها ، بعناية فائقة ، خط بنفس الحبر يعززها ، على هذا الوجه : ويوم كذا : مرتان ، أو يوم كذا أربع مرات . تكن « أربع مرات » كانت ، والحق يقال ، نادرة ، بمعنى أنها لم تتردد كثيرا ، كما أن الامر لم يتجاوز في أى يوم من الايام « خمس مرات » ، فذلك أعلى رقم تضمنته اليوميات . كما أنه كانت هناك أيام عجاف كتب فيها ، مرة واحدة ، فقط ، لكن تلك لم يكن تحتها خط ، بل كانت وسط دائرة حمراء صغيرة كالتى توضع في شهادات التلاميذ الخائبين علامة الرسوب في مادة من مواد دراستهم

غير هذه الاحصائية كان هناك أيضا رمزان مختلفان ، وقد وضع مفتاح لهما في بطن الغلاف ، وبذلك تبين أن أحد الرمزين يعنى التبرز ، والاخر يعنى تعاطى المسهلات . هذه الرموز أيضا كانت مدرجة بعناية وانتظام ، بخط أنيق . فقد كان مستر كوكس صاحب خط حسن ، منمق بعض الشيء ، حروفه كبيرة . أما بقية محتويات الربطة فمجموعة مشينة للغاية من الصور الفاضحة . والاسوأ من ذلك أن كل تلك الصور كانت لفرط اتساخها

وكثرة ثنيتها ، تنبىء عن افراط حقيقى فى استخدامها !
بعد فترة من المعاينة الصامتة لتلك المستندات ، ضغط مستر براون على زر جرس ، وحرر وريقة رسمية كتب عليها بضع كلمات ثم أعطاها لليد المختصة . وعندما عاد صاحب اليد ، ألقى بأضبورة كبيرة على المنضدة ، تحتوى على عدد من الملفات والوثائق البوليسية .
أخرج براون من الاضبورة ورقة مملوءة كتابة فأخذ يقارن بعض ما فيها من بيانات ببعض البيانات الواردة بيوميات كوكس ، واضمأ اصبعا غليظة على الموضوع الذى كان يقارنه . غير أنه ما لبث أن قال بطريقته المتثددة التى توحى بأنه يقول أشياء عميقة وحكيمة للغاية :

- كلا يا عزيزى ماك ، لا يمكننا أن نوقع بصاحبك استنادا الى مثل هذه الادلة ، نحن لا نعرف شيئا عن العمل الذى يزاوله ، وأنت خير من يعرف أننا لا نزوج بأنوفنا فى أنشطة الاعمال التى يزاولها السادة رجال الاعمال أمثالكم . لاننا ان فعلنا ، أى نفع سيعود علينا من ذلك ؟ ان الرجل يدفع ما عليه من ضرائب بانتظام - ولذا فان الامر على ما يرام فيما يخصه . ومن جانب آخر فان حياة الناس الخاصة ليست من شأننا الا اذا ارتكبوا سرقة أو أى شيء من هذا القبيل . وصاحبك هذا لم يرتكب أية سرقات . التهمة الوحيدة التى يمكن أن توجه اليه ، ان أردنا مضايقته ، هى تهمة زنا بوسعنا ان نوجهها اليه لانه ضبط ، منذ عامين تقريبا ، فى فندق مشبوه ، مع زوجة موظف كبير فى الاميرالية . لكن تهمة كهذه يحسن بك أن تضعها بين يدي الصحافة . وسأعطيك أن أحببت أسماء اشخاص يمكن الاعتماد عليهم فى ذلك الخصوص ، بوسعهم أن يستخلصوا من تلك الواقعة فضيحة لا بأس بها .

وهنا ضغط على زر الجرس ثانية ، وأحضر الرجل أضبورة أخرى مكتوب على غلافها بحروف سوداء كبيرة : الابتزاز بالتهديد .
أخذ براون يدرس محتويات أضبورته بعناية كدأبه فى كل ما يفعله ، ثم قال أخيرا :

- اذهب الى جاون . أنه واحد من أبرع المشتغلين بهذه المهنة .
أخذ ماكهيث العنوان ، فضمه الى مستنداته الاخرى ، ثم خبط على ظهر صديقه رجل البوليس تعبيرا عن الود وقال :
- عندما أتزوج فى المرة القادمة - زواجا شرعيا أعنى - سوف تأتى الى الفرحة ؟ لقد بدأ القلق يساورنى بشأن هؤلاء الناس الذين تعامل معهم فى البنك . يبدو لى أنهم ليسوا ميالين الى مساعدتى .

قال براون بغير حماس :

- سأتى طبعاً ان تمكنت . لكنك لا يجب أن تسرف في زيجاتك المتعاقبة هذه كثيراً بعد الآن .

انصرف ماكهيث وهو غارق في أفكاره . صاحبه براون لم يعد براون القديم العتيد فيما يتعلق بموقفه من أصدقائه . نعم مازال الرجل محل ثقة ويعتمد عليه ، لكن الظاهر أنه قد بات صاحب مسئوليات جديدة في الآونة الاخيرة وعلا في دنيا الشرطة قدره .

ولم يكن موقف براون وحده هو الذى يبعث على القنوط . فموقف البنك أيضاً لم يكن باعثاً على الابتهاج . بدأ أن مديرى البنك يختلفون تحفظات جديدة في كل مرة ، ويعقدون الامور أكثر فأكثر .

والاسوأ من هذا وذاك كله أن موظفيه هم أيضاً كانوا قد بدأوا يصبحون متعبين . والحقيقة انه كان يتوء بادراكه للحمل المبهظ الملقى على عاتقه والمتمثل في مسئوليته عن مائة وعشرين من هؤلاء الناس ، معظمهم ارباب عائلات ، وهى مسئولية كان يأخذها مأخذاً جدياً للغاية . فما بالك والامور تسوء ، مالياً ، من يوم الى يوم ، والبنك يقبض يده باصرار متزايد ؟

لا بد أن يحدث شيء . لم يكن هناك أدنى شك في ذلك . يجب أن يحدث شيء فتنفرج تلك الضائقة التى بدأ انها لن تنفرج . عندما يتمكن من أموال بيتشام العجوز مثلاً ، ويملاً يده منها ، سيستطيع أن يتنفس بارتياح من جديد .

ذهب الى احد محلاته ، على مقربة من جسر ووترلو . لم يكن دكاناً من دكاكين حرف «ب» ، بل محل عاديات محترم تديره امرأة اسمها فانى كرايزلر تعرف شيئاً عن الفن . كان يذهب الى ذلك المكان دائماً ، كلما كان لديه ما يشغل ذهنه ، فيجلس في غرفة المكتب ، ويقلب صفحات كتاب ليساعده ذلك على التفكير .

لسوء الحظ لم تكن فانى بالدكان ، فقد ذهبت الى احد المزادات . كان يصر دائماً على أن تكون لبعض الاشياء التى تباع فى المحل شهادات ميلاد غير مزورة ، لهذا كاثت فانى لتردد على المزادات .

وجد فى مكتبها كومة من الكتب تبين من الكلمات المكتوبة بالقلم الازرق على غطاء الصندوق انها من مكتبة اسقف كينجزهول الخاصة ، وعندما بدأ فى تقليب صفحات الكتب تبين أنها تحوى لوحات غاية فى البذاءة . ولم يكن ماك ممن يطبقون هذه الاشياء . فوق انه كان ضد حكاية الفن أصلاً بكل أشكاله بديئاً كان أو غير بديء . فألقى المجلدات

الثمينة من يده متقززا ، ثم ما لبث أن تذكر بولى ، باعتبار أن الشيء
بالشيء يذكر ..

كان يفكر فيها كثيرا في تلك الايام ، وكلما فعل انتباهه قلق
لا يوصف . لقد تيقن أخيرا من أنها شهوانية بشكل لا يعقل .
هم واقفا فخرج من مكتب فانى ، ذاهبا الى شارع أولد أوك .
دار حول البيت مرتين ، فرآته بولى ونزلت للقائه . سارت معه
فدارا عدة مرات حول المكعب السكنى الذى يقع فيه بيتها .

كانت رقيقة للغاية معه ، وقد بدا أنها متورطة في متاعب من نوع ما ،
كما أن لونها كان ممتعا أكثر من المألوف . وقد صدم ماكهيت عندما
لاحظ الظلال التى تحت عينيها . وعندما افترقا لم تنظر اليه مواجهة .
قالت أثناء الحديث عرضا انها ستقطع عن دروس التدبير المنزلى
بعض الوقت وانها ، نتيجة لذلك ، لن تستطيع أن تقابله ثانية . وفى
يوم الاحد ستم الرحلة الخلوية التى اخبرته بأمرها ، مع كوكس .
ذهب ماكهيت الى تانبريدج بمزاج منحرف للغاية .. فقد تذكر فجأة
ان اليوم يوم خميس .

كان من دأبه أن يقضى مساء كل خميس فى بيت معين بتانبريدج
يشرب فيه فنجانا من القهوة مع الفتيات ، ويتحدث قليلا مع جينى .
لكنه اليوم ، بسبب الانقباض الذى انتابه ، جعلها تقرأ طالعه ، فى
أوراق اللعب . لكنها لم تقل شيئا يثير الاهتمام . والفتيات اثرن
ضجره كالعادة . كان قد تردد على ذلك البيت طيلة خمس سنين
بأكملها ، فبدا يداخله ملل .

فى اليوم التالى زار جاون . الذى اعطاه براون ، نائب القائد ،
عنوانه . جاون هذا كان صحفيا يكتب فى عدة صحف لها سمعة غير
مستساغة . فأعطاه ماكهيت الأدلة التى كانت معه ضد ويليم كوكس .
بعد ذلك بأيام معدودة قال مستر ميلر ، أحد مديرى بنك الائتمان
الاهلى ، تلميحا ، فى حديث جرى بينه وبين ماكهيت عن مسائل تتعلق
بالاعمال ، انه قد يكون من المرغوب فيه أن يضع مستر ماكهيت كافة
الاعتبارات الاخرى جانبا ، وان ينصرف جادا ، وبأسرع ما يستطيع ،
الى تأسيس حياة عائلية محترمة ، وهو ما اتفق اتفاقا تماما مع رغبات
بولى بيتشام ..

على ضوء ذلك كله لم يعد للهجوم الذى كان يجرى الاعداد له ضد
مستر كوكس أية قيمة حقيقية ، ولذلك فان مستر ماكهيت لم يعد
يشغل نفسه بمسألة الأدلة التى تدين ذلك الرجل .

(٥)

« وهكذا وجد كل منهما الآخر ، بين السمك والخراف
وأصبح طريقيهما على الارض واحدا ،
ولم يكن لديهما فراش ، أو مائدة ، أو صحاف
ولم يكن عندهما لحم خراف أو لحم سمك
ولا حتى أسماء يطلقانها على اطفالهما العجاف
ولكن برغم كل العواصف الثلجية التي تعوى ، وبرغم الامطار
التي تفرق سهول البراري الباردة ،
بجوار زوجها الغالي ، يا ابنتي ،
ستظل حنه كاش صامدة

« رجل القانون يقول انه لص زنيم
وزوجة بائع اللبن تقول انه أعرج ووغد لثيم
لكن حنه تقول « وماذا يعنييني أنا
ان كان لصا أو لثيما . انه رجلى أنا
ومن فضلكم ، واحسانكم ، ستظل حنه معه ، رغم كل شيء
أما انه يعرج أو انه مجنون
أو انه يضربها حتى يصبح لونها أزرق أسود
فذلك أمر لا يهم حنه كاش كثيرا ، يا ابنتي ،
لأنها تعرف أنها تحبه حبا صادقا »

(أغنية حنه كاش)

مشروع صغير برأسمال مكين

كان بنك الائتمان الاهلى مشروعا صغيرا لكنه قائم على رأسمال مكين
يتركز نشاطه أساسا في العقارات وأراضي البناء ، شراء ، وبيعا .
واستغلالا . والبنك صاحبه فتاة صغيرة في السابعة من عمرها ، يديره
نيابة عنها ، رجل متقدم في السن يمثلها ، اسمه مستر ميلر يعمل ،
بدوره ، تحت اشراف محام عجوز اسمه هوثورن . هوثورن هذا كان
وصيا على الفتاة الصغيرة .

ولقد اضطر ماكهيث ، أثناء مفاوضاته التي طالت مع البنك ، أن يتعامل ، لا مع مستر ميلر فحسب ، بل ومع مستر هوثورن أيضا . ولو جمع عمر هذا على عمر ذاك لبلغ عمر السيدين العجوزين معا مائة وخمسين عاما ، مما يبين أن المرء عندما يتعامل معهما يجب عليه أن يأخذ في حسبانته أنه يتعامل مع قرن ونصف من الزمان .

ولقد كان دافع ماكهيث الأول في اللجوء إليهما ، وتحميل نفسه نتيجة لذلك بعبء لا يطاق من محنة صبر واحتمال ، انه أراد بتعامله معهما ، أن يخرس الى الأبد السنة السوء التي لم تكن تكف عن اطلاق الشائعات المسمومة حول دكاينه حرف «ب» . لانه لم يكن هناك ، في دنيا المال والاعمال بلندن ، من يستطيع أن يتصور أن مشروعاً يهتم بنك الائتمان الاهلي بأمره يمكن أن يكون قد انشئ بعد عام ١٧٨٠ ، والشركات التي بهذا القدم وبهذه الاصاله لا يوجد من يشك في أنها شركات راسخة ، ومنتينة .

لكنه بسبب تلك الظروف عينها ، لم يحرز أى تقدم .

فقد أخذ البنك يراوغه . ينتهى من مراوغه ليدخل فى غيرها . فوق أن فضول البنك كان فى الحقيقة لا يطاق . أرادوا أن يعرفوا عنه كل شئ ، من ايجار الدكاكين الى السير الشخصية الحميمة لاصحاب تلك الدكاكين . ولكن ، بالرغم من ذلك التمتع كله ، بدأ البنك راغبا فى التعامل معه ، بشكل لافت للنظر . ولم يكن ماكهيث يجهل السبب فى ذلك . فالمجال القديم لنشاط البنك . العقارات وأراضى البناء ، خاصة بالمعنى الذى يفهمه مستر ميلر ، لم يكن قد عاد مربحا كسابق عهده . فقد تضاءلت فرص الاستثمارات الجديدة ، والعقارات القديمة كانت قد تعرضت لهزات مخيفة نزلت بقيمتها الى الحضيض .

نتيجة لتلك الاحوال غير المستقرة كان مستر هوثورن ينظر الى المستقبل بتوجس شديد . وفوق كل شئ لم يكن راضيا عن مديره مستر ميلر . فرغم أنه أكبر سنا من ذلك الاخير ، اعتبره غير صالح لادارة بنك ، بالنظر الى تقدمه فى السن ! فهو ، رغم كونه قريبا لميلر فى جموده وتحجر عقله ، يعتبره مسئولا عن ضياع صفقات كثيرة مجزية ، من البنك ولطالما فكر فى أن يستبدل به شخصا آخر اصغر سنا وأكثر نشاطا . ولم يكن ميلر غافلا عن كل ذلك .

ولهذا فان الموقف العدائى الذى اتخذه الاثنان من العصر الحديث كان قد بدأ يضعف منذ فترة لا يستهان بها . بدأت الشكوك

تداخلهما في سلامة نظرتهما . لعله من غير المرغوب فيه فعلا أن يعالج المرء كل ما يعرض عليه من أمور بكل ذلك التشدد الذي يدعى العلم بكل شيء . الشركات الاخرى ليست متشددة بهذا الشكل ، فهي تعقد الصفقة وراء الصفقة ولا يقول أحد أنها شركات موشكة على الافلاس . فلعل اتجاهات العصر تتطلب قدرا من اتساع الافق، وشيئا من المرونة .

ولهذا فان السيدين هوثورن وميلر ، عندما عرض عليهم موضوع دكاكين حرف « ب » لم يظهر من النفور حياله ما كان المرء حريا بأن يتوقعه منهما . ولقد لاحظا على الفور أن كل شيء في تلك الصفقة غريب خارج عن المألوف مناف للاصول المرعية ، ولكن ليست تلك هي الحدائثة ؟ لاشك أن كل هذه السمات الغريبة علامة أكيدة على أن أعمال مستر ماكهيث عصرية للغاية . ومن الواضح طبعا أنهما ، من وجهة نظرهما ، لم يكن من السهل عليهما التمييز بين مشروع جديد ومشروع جديد آخر غيره بنفس القدر من الدقة الذي يفرقان به بين مشروع جديد وآخر قديم . ولهذا فان استعلاماتهما عن ماكهيث ونشاطه كانت في الحقيقة مجرد شكليات . لانهما كانا قد عقدا العزم على قبول العملية ، خاصة مستر هوثورن الذي اعتبر ان الامر مقطوع فيه بالقبول منذ البداية .

ولقد بدرت من مستر ميلر عدة ايماءات لا تخطئها العين مفادها أنه ، في حالة دعوة ماكهيث له ، سيكون مستعدا لقبول ضيافته - وهو ما يعنى الكثير . غير أن ماكهيث لم تكن لديه للأسف ضيافة يقدمها الى أحد . لكنه عندما وجه الدعوة رسميا ، الى مستر ميلر لحضور حفل زواجه الوشيك ، قبل ذلك الاخير الدعوة بغير ابطاء ، واعتبر مستر هوثورن مدعوا هو الآخر .

ولقد حدس ماكهيث أن تلك الدعوة قد تكون سببا في تحقيق ما كان يصبو اليه في مجال تعامله مع البنك بأفضل مما يمكن أن تحققه كل ما في الدنيا من مستندات . وكان مصيبا في حدسه .

ولهذا فانه عندما غادر البنك ، اتجه ، بقلب نزق تملؤه الغبطة ، الى حى ووترلو بريدج ، فعقد اجتماعا في المكتب الخلفى بدكان العاديات مع فاني كرايزلر ، ثم خرج معها .

ذهبا معا الى كل ما في الحى من دكاكين العاديات والتحف ، فاختارا العديد من قطع الاثاث ، بصرف النظر عن الاثمان الباهظة . لكنهما وهما يتناولان الفداء في أحد المقاهى خيم عليهما

الصمت ، لزمتم فاني ذلك الصمت برهة ثم قطعته قائلة وهي تحدث ايقاعا رتيبيا بملعقتها على طبق الفنجان .

- ولكن هذا سخف بالغ ! لاي شيء تريد هذا الاثا ؟ هل تريده لنفسك ؟ طبعا لا ! نعم قد تستطيع أن تقسر النفس على العيش مع ذلك الاثا اذا ما تأزمت الامور . لكنك لست بحاجة الى التظاهر أمامي أنا أيضا . أنا اعرفك جيدا وأعرف أنك تفضل ثلاث غرف خارجة لتوها من المصنع بأربعين جنيها على كل هذه الانتيكات التي انتقيتها لك . ذوقك هكذا ، ولا حيلة لك فيه . ولا داعي للخجل . لكن الاثا الذي تريد أن تشتريه ليس لك يا ماك . أنت تشتريه لتضحك به على السيدين ميلر وهوثورن . لكن ما الانطباع الذي تظن أنك ستحدثه في نفس هذين السيدين بأثا عتيق كهذا ؟ أنت لاتفهم الامر على وجهه الصحيح . يجب أن يكون لك بيت عصري ، ويجب أن يكون بيتا تفصح كل قطعة أثا فيه عن أنه قد تكلف الكثير . يجب أن يكون بيت رجل يتحرك مع الزمن . نعم تستطيع أن تحتفظ ببضع قطع قديمة باعتبار أنك ورثتها عن المرحومة والدتك ، مقعد فوتي ، وماكينه خياطة ، وما الى ذلك . هذه أشياء سأدبرها لك . دع الامر لي . وسوف أتكفل بكل شيء ، بحيث لا يبقى في نفس القرن ونصف قرن أدنى خوف أو قلق فيما يتعلق بالنقود التي سيعهدان بها اليك .

ضحك ماكهيث لقولها ، ثم مرا بكافة الدكاكين التي زارها منذ قليل ، فألقى ماك كل طلبياته . وبعد ذلك ذهبت فاني بمفردها فاشترت أثانا مختلفا تمام الاختلاف .

كانت بولي قد كذبت عندما تحدثت عن رحلة خلوية أدعت أن مستر كوكس دعاها اليها . فلم تكن حتى قد رأت مستر كوكس ثانية . نعم خطر لها أن تزوره بخصوص البروش ، لكنها لم تفعل رغم أنها قدرت أن ذلك البروش يمكن بيعه ، أو حتى رهنه مقابل الجنيهات الخمسة عشر التي تحتاجها .

وقد ظلت ، رغم أكاذيبها ، على علاقة طيبة للغاية بماك . فالحقيقة انه بات يجتذبها أكثر من أي وقت مضى . كما انها لاحظت انه وضع في أعقابها من يراقبها . كان هناك دائما بعض المتسكمين أمام دكان الالات . وقد فطنت الى أنهم يتبعونها كظلها حيثما ذهبت . ضايقها ذلك في مبدأ الامر ، لكن مثل هذا الاهتمام بروحاتها وغدواتها ما لبث أن دغدغ كبرياءها الاثوى . كانت ،

فيما يخص ماك ، تحس اطمئنانا كاملا . فهو ليس ولدا أرعن مثل سمايلز الذي لا احساس لديه بالمسئولية . وهكذا فان ماك عندما حدثها عن الزواج سرا لم يلق كبير معارضة . أخذت تتصور بتلذذ حقيقى كيف يكون وجه أبيها عندما يكتشف أنها تزوجت سرا . كانت موقنة من أن أكذوبة النزهة الخلوية مع كوكس التى اختلقتها عفو الخاطر هى التى عجلت باتخاذ ماك لهذا القرار . أدركت أنه تصور أن تلك النزهة - ما دامت خلوية - لا بد ستحدث فيها أمور معيبة للغاية ! ضحكك بولى كثيرا وهى تفكر فى ذلك كله . فى عصر يوم الجمعة أعدت مسز بيتشام لزوجها حقيبتة . وضعت له فيها قميصا وعددا من الياقات النظيفة . وبعد قليل أخذ مستر بيتشام حقيبتة وذهب الى المحطة . وفى أعقابها بنصف ساعة لا تزيد حزمت بولى حقيبتها ، وخرجت ، من البيت سرا هى الأخرى . كانت قد اشترت سرا طقمين من الثياب الداخلية الحريرية ، وكورسيهين لونهما موف ، من أحد دكاكين حرف «ب» ، على سبيل المفاجأة لماك . وضعت تلك الاشياء فى حقيبة قديمة ، مع قميص نوم بصدر مقفل ، كان الوحيد من قمصانها الذى بغير رتق . على ناصية الشارع كانت عربة مقفلة تنتظرها ، وبدأخلها ماكهيت ولم يكن مزاج هذا الاخير معتدلا كما يجب ، لانه قضى اليوم على قدميه من طلعة النهار ، ولم يحصل على قيلولته المألوفة .

ذهبا أولا الى مركز قيادة البوليس ، حيث أوقف ماك العربة وصعد الدرج عدوا الى مكتب صديقه براون ، الذى كان قد رقى الى رتبة كبير المفتشين . غير أن هذا الاخير استقبله بأعصاب متوترة ، وبغير حماس . كان قد زاره مرتين من قبل ليذكره بمجيئهما الوشيك لدعوته الى الفرح ، عندما يتم تحديد العنوان الذى سيقام فيه الحفل . لم يكن رجاله قد وفقوا الى العثور على بيت ملائم يقام فيه حفل الزفاف . فأعطى ماك فى الصباح عنوانا ما لبث أن عدل عنه ، بعد الظهر ، وأعطى عنوانا غيره ، مما زاد من قلق براون وتوجسه من الامر كله . والحقيقة أن كبير المفتشين أبدى فتورا لافتا للنظر ، ولم يظهر أدنى لهفة لحضور الحفل . لكنه وعد بالمجيء على أية حال . مما بعث الطمأنينة فى نفس ماك ، لان نجاح الحفل ، بل والزيجة برمتها ، كان متوقفا على ظهور كبير المفتشين فى الفرح ، لا لاحداث التأثير المطلوب فى السيدين ميلر وهوثورن فحسب ، بل كرسالة غير مكتوبة ونذير الى عدد لا يستهان به من المهنيين ممن كانوا حريين بأن يفطنوا

الى ما ينطوى عليه حضور ذلك الضابط الكبير من مغزى .
ترك ماكهيث عروسه فى مقهى بالقرب من كوفنت جاردن ، ثم
ذهب بالعربة الى بيت فى كنسينجتون كان يجرى اعداده لاقامة الحفل .
فقد وقعت أحداث مؤسفة فى ذلك البيت الآخر الذى اعطى عنوانه
صباحا ، ولم يتم العثور على ذلك البيت الجديد الا مؤخرا . ولم يكن
من المستطاع طبعا أن يقام حفل هام كهذا فى بيت ماك فى جنوب
لندن ، لانه أصغر من أن يتسع للمدعوين .

لكن ماك عندما وصل الى البيت الذى كان يعد للفرح ، وجد كل
شئ فى فوضى لا توصف . فقد وصل الاثاث المعد للدور الارضى قبل
ذلك الذى تقرر أن يوضع فى الدور الاول ، فسد الطريق على ذلك
الاثاث الاخير عندما وصل . ولم يكن رجال ماكهيث من أهل الخبرة
بشئون العزال ، فوق انهم كانوا قد قضوا الصباح والظهيرة يشربون
ابتهاجا بتلك المناسبة . وقد حاول أوهارا ، الذى كلفه ماكهيث
بالاشراف على العملية ، أن يماحك بقوله أن الرجال نشبت بينهم
مشاجرات كثيرة .

كان ذلك البيت مقرا أصغر يقيم فيه دوق ديلووتر أحيانا عندما
ينزل بالعاصمة . وللدوق بيت آخر أكبر كان من الممكن استخدامه
فى اقامة الحفل ، لان صاحبه كان مقيما ، فى تلك الاونة بالريفيرا
لكن ذلك كان حريا أن يلفت الانتظار بصورة غير مطلوبة ، فوق أن
البيت كان مفروشا ، بينما البيت الاصغر كان خلوا من الاثاث تماما ،
عدا غرفة رئيس الخدم . ورئيس الخدم نفسه كان مدينا لمستر
ماكهيث بأفضال كثيرة .

أسقط فى يد ماك عندما رأى تلك الفوضى الضاربة اطنابها ،
وأيقن أنه غير مستطيع أن يفعل حيالها شيئا ، فما كان منه الا أن
انصرف ، عائدا الى صاحبه براون ، فى ادارة البوليس . لكن هذا
الاخير كان قد اختفى من سكوتلانديارد . ولذا فانه ذهب الى ووترلو
بريدج ، فبعث بفانى الى بولى فى المقهى ، ثم اتجه الى بيت مستر
براون ، لكنه لم يجده هناك أيضا .

تعرفت فانى لفورها على الخوخة من وصف ماكهيث لها ، فذهبت
اليها بغير تردد ، وقدمت نفسها . كانت خوخة قد بدأت تحس بشئ
من القلق لان ماك تأخر كثيرا . كانت ، عندما وصلت فانى ، تشرب
فنجانها الثالث من الشاي ، ولم تكن معها نقود .
ولهذا فان مجيء فانى أعاد الطمأنينة الى نفسها ، فى أول الامر .

ثم ما لبثت أن أخذت في التساؤل ، فيما بينها وبين نفسها بطبيعة الحال ، عن نوع العلاقة التي تربط فاني بماك . فالمرأة لم تتعد الثلاثين بكثير ، وليست دميمة . وكأنما حدثت فاني الحصيصة ما كان يجول بذهن بولى . فضحكت فجأة وأخبرتها أنها تدير دكان عاديات من دكاكين ماك قرب جسر ووترلو ، وأنها تعمل زوجها مريضا وطفلين . وقد هدا ذلك القول من روح بولى ، بطريقة ملحوظة وان لم يدم أثره طويلا .

أسوأ ما فى الامر أن الوقت كان قد تأخر ، فلم يعد بوسعها أن تذهب فتشترى ثوب زفاف . ومن خشيتها أن تضطر الى قضاء الامسية كلها بثياب كل يوم بدلا من أن ترفل فى ثوب عروس ، تملك بولى احساس بأن الحفل كله سيكون ماسخا . ومحرجا أيضا . فقد أخبرها ماك أن الحفل سيضم نخبة من وجهاء الناس .

جاء ماك بعد غياب طويل ، وقد فشل فى العثور على براون ، فأخذ المرأتين فى العربة معه . ولم تسمح له بولى أن يصرف فاني كما كان يزعم . كما أن اعتذاراته المتكررة بشأن ثيابها قوبلت من جانب بولى بصمت لا يبشر بخير .

نظره ماك فى ساعته ، ثم أخذ يسب ويلعن . طبعاً أغلقت المحلات كلها الآن . وهو مقدر تماما لرغبة بولى فى ألا تبدأ حياتها الجديدة بثياب كل يوم ، حتى ولو كانت تدخل تلك الحياة من بابها الخلفى . ولذلك فانه ، بغير حاجة الى أى كلمة من جانبها ، جعل الحوذى يتوقف بعربته فى الحديقة العامة ، على بعد بضعة مئات من الياردات من البيت الذى سيتم فيه الزفاف ، وذهب بنفسه ليدبر أمر الحصول على ثياب ملائمة لها .

وقد عهد بتلك المهمة الحساسة الى رجل من رجاله كان خبيراً بالموضات ، ولديه من سلامة الذوق ما كان حريا أن يجعله مندوب مشتريات فى أكبر المحلات ، كمحل « ورت » مثلا ، فقط لو كان على أى قدر من الامانة وامتانة الخلق . ولا أدل على ذلك من أن مديرة أحد بيوت الازياء الكبرى اكتشفت فى صباح اليوم التالى اختفاء خمسة أثواب زفاف قالت للبوليس أثناء التحقيق أنها أفضل ما فى المحل من أثواب ، ونتيجة لذلك تعرض « بولى » لمضايقات عديدة طيلة الاسابيع التالية ، لانه كان من المعروف أنه لا يوجد فى عالم الجريمة من يتمتع بمثل ذلك الذوق الرفيع فى انتقاء الثياب التى يسرقها . لكن ماك تمكن - بصرف النظر عن تلك الاشياء كلها - من

ان يعود الى العربة فيقدم الى بولى ثوب زفاف من الطراز الاول .
وذلك هو ما يهم .

ارتدت فاني هي الاخرى ثوبا من الثياب الاربعة الباقية ، وبذلك
ذهبت الى الحفل هي أيضا فى ثياب عروس .

فى البيت قابلت بولى ما يقرب من خمسين شخصا بدا واضحا أنهم
من فئات اجتماعية شديدة التباين فبخلاف لورد وأحد ، يدعى
بلومزيرى ، واثنين من كبار الضباط ، واثنين من اعضاء البرلمان ،
ومحاميين ذائعى الصيت ، وأسقف واحد ، هو أسقف كنيسة سانت
مرجريت (وقد قام بمراسم عقد القران فى غرفة خلفية) تلقت تهانى
الزواج من عدد كبير من أصحاب الدكاكين المكتنزين ، وأيضا من بعض
أعوان ماك ومندوبى مشترياته ، وكان معظمهم قد جاءوا بزوجاتهم
معهم . فاختلط الحابل بالنابل حقا .

بل وقد دعى الى الحفل أيضا بعض اصحاب دكاكين حرب «ب» ،
وهم اناس تبدو عليهم التعاسة ، يرتدون ثيابا ممعنة فى التحفظ ،
وتكتسى ملامحهم وقارا شديدا ، وقفوا فى أماكن متفرقة ، متخشين
فى أماكنهم ، وكانهم معروضات رثة فى واجهة زجاجية .

لم تستطع بولى ، فى زحمة الاستقبال ، أن تتفرج على سائر غرف
البيت ، لكنها سمعت ماك يقول لفخامة اللورد أنه أستأجره ، خصيصا
لاقامة الحفل ، من صديقه دوق ديلووتر .

على يسار العروس جلس هوثورن العجوز . كان يعرف بولى منذ
طفولتها ، لانها كثيرا ما جاءت مع أبيها الى البنك وأخذت تلعب
بالشيكات ريشما ينتهى الكبار من مناقشاتهم . وعندما تساءل
هوثورن عن السبب فى عدم حضور أبويها الحفل ، قالت له بولى أنها
تشاجرت معها بالامس لانها وقفت فى صف ماك عندما رفض أن
يدعو أحدا من العاملين فى « الورشة » الى الفرح . ولقد بدت
الاكنوبة مكشوفة بعض الشيء ، لكن القرن ونصف قرن ابتلعها
بسهولة ، فيما بدا .

فى بداية الحفل ظل المقعد المحجوز الى يمين العريس خاليا .
فلم يكن براون قد وصل بعد . ولقد اضطر ماكهيث أن يخرج مرة
بعد مرة من القاعة التى أقيمت فيها المأدبة ليبعث بمن يبحث عنه .
فالعرس كله ، بل والزيجة برمتها ، لم تكن تعنى شيئا بالنسبة
اليه بغير براون . فوق أنه كان موقنا من أن وجود ضابط بوليس
عظيم كهذا فى الحفل سيكون له أثره الذى لا ينكر لمدى قرن ونصف .

لم يصل براون الا بعد أن وصل المدعوون الى اطباق الدجاج .
فوق أنه لم يحاول التظاهر بالابتهاج ، ولم يأت مرتدياً بزته الرسمية ،
فكان لذلك الاهمال الاخير من جانبه أثر بالغ السوء فى نفس ماك ،
الذى لم يغفره له أبدا .

لكن براون ، رغم جهامته ، عامل بولى بلطف زائد . فقد وقعت
الفتاة من نفسه موقعا طيبا للغاية . فتن بها وقد جلست رافعة
الرأس ، ووجنتاها تتوهجان ، وكان كل من حولها أتباع ورعايا .
لم تتناول من الطعام الا أقله ، كما يجب أن تفعل العرائس ، لانه
مما يخلف انطباعا سيئا بحق أن يرى المرء مخلوقة رقيقة فى ثوب
الزفاف تحشو فيها بالسّمك والفراخ .

بدا ترتيب الجلوس الى المائدة الرئيسية غير مقبول بالنسبة لمعظم
المدعوين الذين وجدوا أنفسهم فى أماكن دنيا . لكن أحدا منهم لم
يحمل العروس وزر ذلك . فقد تألفت بولى حتى أبهجت كل القلوب .
ولقد جاهد ماكهيث فى اخفاء ما كان يحسه من قلق تجاه ما قد يبدر
من بعض ضيوفه من تصرفات محرجة . كان أصحاب دكاكين حرف
«ب» يتناولون طعامهم فى أدب وتحفظ ، ولا يخشى منهم ، لانهم احسوا
احساس المتطفلين بين كل أولئك الناس من ميسورى الحال . لكن
أعوان ماكهيث ومندوبى مشترياته كانوا ، بطبيعة الحال ، أقل
حساسية من ذلك ، فلم يبد عليهم أى تحفظ أو حرج . . . ولقد اضطر
ماكهيث الى مجالستهم ، عند تناول الحلوى ، حتى لا يفضبهم
فأرغم بذلك على الاصغاء الى تهامس زوجاتهم المشحون بالكراهية
المتبادلة ، بل ووجد لزاما عليه أن ينتهر واحدا أو اثنين منهم لما بدر
منهما من بداءات لا مواراة فيها .

لكنه ، فيما خلا ذلك ، كان قد وفق تمام التوفيق فى اختيار من
دعاهم الى الحفل من رجاله . فلم يكن بينهم رجل واحد له ملف لدى
البوليس ، سواء فى الداخل أو فى الخارج ، اللهم الا جروتش .
وحتى هذا الاخير لم يكن بوسع سكوتلانديارد كلها أن تتعرف عليه
— بعد جراحته التجميلية الاخيرة — الا اذا أخذت بصمات أصابعه .
أما السواد الاعظم من مدعويه الاخرين فكان يتألف من عدد من أصحاب
الدكاكين الذين لا تشوب سيرتهم شائبة والذين أضفى عليهم غباؤهم
احتراما لا نظير له . النعمة النشاز الوحيدة كانت جينى . ولقد كانت
دعوة جينى — بغير علمه — قحة لا تغتفر من جانب أوهارا . لان
المومسات لا موضع لهن فى مثل هذه المناسبات العائلية الفاضلة . فوقان

وجودها كان محرجا لاحد الضابطين العظميين . غير أنه مما خفف من اثر تلك الهفوة وجود علم مثل ريد بين المدعويين ، باعتباره من أشهر شخصيات العالم السفلى ، فقد ارتفع المستوى الاجتماعى للحفلة بوجوده ارتفاعا لا ينكر .

بعد تناول القهوة انفرد ماكهيت بهوثورن وميلر فى غرفة مجاورة لمناقشة متطلبات قيام البنك بتمويل دكاكين حرف «ب» ، وسط بقايا الحفل المتناثرة على المقاعد والمناضد .

لم يدخل السيدان العجوزان فى التفاصيل ، ولم ينبس أحدهما بحرف واحد يشير الى ما قد يشتم منه أن تخلف والدى بولى عن حضور الحفل قد أثار قلقهما . لكن ماكهيت لم يكن من السذاجة بحيث يسقط ذلك الاعتبار من حسابه . فقد أدرك من مبدأ الامر أن عدم وجود بيتشام سيضايق الرجلين . لكنه كان موقنا من أن مستر بيتشام سيثوب الى رشده ان أجلا وان عاجلا . فيتصرف تصرفا واقعيا لا دخل للعواطف فيه ، وكان فى امتناع القرن ونصف قرن عن الاشارة الى غياب بيتشام بكلمة ما طمأنه الى أنهما يشاركانه ذلك الراى عينه .

عندما عادوا ثلاثتهم الى الحفل وجدوا الجميع منهيكين فى الرقص . كانت الخوخة ترقص مع أوهارا . والفرقة كلها تضج بجو مرح ، وقد زينت وفرشت بأثاث على أحدث طراز .

جلس ماك بضع دقائق وحده الى المائدة الخالية ، وقد غاص لغده السمين فى ياقته العالية المنشأة ، واحمرت صلعته بعض الشيء ، بسبب ما شربه من خمر . كان يحاول أن يفكر . وقد نجح فى أن يجمع بضع اشتات أفكار فى وقت قصير نسبيا . قال لنفسه :

- من المحزن حقا أن تكون احلى ساعات العمر مشوبة بالمنغصات التى تفسد مذاقها كما يفسد عصب صعب المضغ قطعة شواء لذيذة . فأحلى اللحظات تعكر صفوها الهموم والمتاعب . لا يكاد المرء يحس أنه ممتلئ نشوة فى داخله ويجيش صدره بأنقى المشاعر حتى تدهمه المصاعب المالية . هانذا ، حتى فى هذه اللحظة التى يندر أن وجود بها الزمان ، لا أستطيع أن اجلس فأهنا بكأس نبيذ . لانى ان فعلت سينطلق ضيوفى الاعزاء ، الخنازير ، ليلوثوا كل ما هو نظيف هنا . لهذا يجب أن أكون يقظا . كما أنى لا أستطيع أن أفك حزامى الذى يخنق وسطى ، خشية أن يسقط سروالى أمامهم . يعنى لا يكفينى . . . انى يجب أن أراقبهم ، بل يجب أن أراقب نفسى أيضا ، فأنا خنزير أنا الآخر . كم يصبح كل شىء رائعا لو احترم هؤلاء

الافظاظ مشاعر المرء في أجمل يوم من أيام حياته . أنا أشد الناس تسامحا ، وألطفهم معشرا . لكنى عندما أرى ذلك القنر كلود يتسلل الى غرفة الجلوس مع الفاجرة زوجة شارلى ، يجن جنونى . لن أسمح بهذه المساخر فى بيتى ! وهذه العاهرة جينى هى الأخرى . كان لابد أن تأتى ؟ لا مكان هنا ، وهى تعلم ذلك . لا أستطيع أن أدع زوجتى تخالط هؤلاء الناس . فهذا يكون تطرفا فى التساهل . واضح من نظرات هؤلاء الخنازير اليها أنها تروق فى عيونهم جميعا . لعلهم يريدون أن يناموا معها ! ترى كيف يكون منظرى اذا ما اضطررت الى أن أخبر واحدا منهم أن يكف يده عن زوجتى . أولاد الزنا ! لم لا يكتفون بقحابهم ؟ لا أعنى طبعا أن زوجتى قحبة . لا يجب أن أقول أشياء كهذه . لا يجب أن أذكرها وأنا أتكلم عنهم . فهى تفضلهم جميعا بل وتفضلنى أنا ، لست محترما بما فيه الكفاية الاستحقاق . لست فى الحقيقة ، رجلا كريم الخلق . لكنى سأفعل كل ما بوسعى . عندما تتم هذه العملية مع البنك سأصبح محترما بحق . من اللطيف حقا أن يكون المرء محترما ، فوق أن ذلك لا يضر به ماديا . أو لعله يضر به لكن قليلا . . أو ، على العكس ، قد يكون الطريق القويم ، فى النهاية ، أفضل . والان يجب أن أقف ثانية . نعم . ان أحلى لحظات العمر تعكر المتاعب والمسئوليات صفوها . انه أمر محزن . محزن للغاية .

هم ماكهيث واقفا ليأمر باحضار العربات . وعندما ذهب لاحضار حقيبته ، ضبط « بوللى » ، وشهرته « يعقوب أبو صباغ خطاف » ، مع زوجة روبرت « المنشاد » ، فاضطر الى أحداث ضجة قائلا انه لا يسمح بمثل هذه الامور المقززة فى بيته ، لكن ما أثار غيظه أكثر أنه رأى بولى مستمرة فى الرقص مع ذلك الثرتار أوهارا . فقاطع رقصتهما بشيء من الفظاظ . لكنه ، برغم ذلك كله ، كان لا يستطيع أن يتذمر أو يدعى أن حفله لم ينجح .

عند انصراف العروسين ، وقف المدعوون ، كما هى العادة ، على الدرج ، وأخذوا يلوحون لهما . لكن أحدا لم يلحظ أن عددا من المدعوين كانوا يعاملون فانى كعروس ثانية سوى ماكهيث الذى أخذ ينظر اليهم من النافذة الخلفية للعربة ، بوصفه من المهتمين اهتماما غير عادى بملاحظة الطبيعة البشرية .
لحقا بقطار ليفربول فى اللحظة الأخيرة .
والحقيقة أن مستر ماكهيث لم يكن ذاهبا لقضاء شهر العسل فى

أحسن ظروف ممكنة ، وبإله مستريح .
فمنذ أسبوعين سطا بعضهم على دكانين من الدكاكين التي تبيع
السلع الحديدية والفولاذية ، في الضواحي . إلى هنا والامر ليس
فيه ما يزعج أحدا . لكن الازعاج يأتي بعد ذلك . فقد نشرت مجلة
« العاكس » الاسبوعية (وقد سميت كذلك لان محرريها يشهرون
في وجوه أخوتهم من بنى البشر مرآة تعكس صورهم على صفحات
أعداد المجلة ، وتظل تعكسها حتى يدفعون) مقالا يزعم كاتبه أنه اشترى
من أحد دكاكين حرف «ب» عددا من شفرات الحلاقة تبين أنها من
متعلقات أحد الدكانين اللذين نهبا منذ أسبوعين . ونتيجة لذلك بدأ
أوهارا مفاوضات فورية مع مجلة « العاكس » . لكن ماكهيث لم يكن
من أولئك الذين يفقدون أعصابهم بسهولة . فكان من الصعوبة بمكان
أن يبتز أحد النقود منه بالأعيب كهذه . وقد بلغ به الامر أنه ألقى
في عرض الطريق بمحرر حاول أن يشهر تلك المرأة ذائعة الصيت
في وجهه . ومنذ تلك اللحظة ومجلة « العاكس » ، تطالب ، في
مقالات من نار ، بأن تقدم دكاكين حرف «ب» الفواتير الدالة على شرائها
لشفرات الحلاقة . ومن الواضح طبعاً أن مسألة الفواتير هذه من
السهل تدبيرها . لكن الامر ، مع ذلك ، لم يتوقف عند ذلك الحد .
ففي معرض الحصول على فضيات المائدة لحفل الزفاف وقع الرجال
في محذور صغير آخر . ولم يكن لهم ذنب في ذلك ، لان الامر كان
يجب أن يتم على عجل ، وبغير أعداد سابق . غير أن العملية . نجم
عنها موت شخص ما . وقد حاولت العصابة أن تخفى أمر ذلك
الحادث عن زعيمها حتى لا تعكر صفوه في تلك الظروف الحساسة ،
لكن ماكهيث ، كدأبه ، علم بالامر بطريقة ما . ولقد كان من الواضح
أن قلة التمويل كانت ، هنا أيضا ، السبب في ذلك الإداء المؤسف .
عندما علم ماك بمسألة الموت هذه ، أراد أن يؤجل شهر العسل .
لكن ذلك كان مستحيلا . ولذا فانه قرر أن يتكلم ويسافر ، على أن
يجمع بين العمل والمتعة ، فيستغل رحلته في قضاء بعض الاعمال .
ولهذا السبب اختار ليفربول .

تألفت الخوخة وبدت فتانة في ديوان القطار . فأوهارا راقص
أكثر من ممتاز . ولقد أحست العروس الصغيرة خلال المسافة القصيرة
من الدرج الذي ودعهما منه المدعوون ، وعربة القطار ، والعربة تدرج
بهما في ظل أشجار الكستناء الداكنة كثيفة الاغصان . ان ذلك اليوم ،
بغير منازع ، هو أجمل أيام حياتها على الاطلاق . فلم تكن قد وجدت

نفسها قبل اليوم محط مثل ذلك القدر من الاعجاب والتدليل من كل ذلك العدد من الناس . كانت سعيدة بحق . وقد توهجت سعادتها على وجنتيها ، حتى فاض قلبها ما كهيث ، فمد يدهم محاذرا ، حتى لا يراه أحد من المسافرين الآخرين في الديوان ، وضغط على يدها الصغيرة اللدائفة .

في ليفربول نزلاً بفندق صغير كانت به غرفة محجوزة لهما . وقبل أن يذهبا الى الفراش شربا زجاجة أخيرة من نبيذ البرجندي في قاعة الفندق . لكن تلك كانت غلطة مؤسفة . أحس مالك بالتعب يخدر جسده وهو ما زال على الدرج .

لم يجد في نفسه القوة لبدء اعجابه بشباب بولى الحريرية التي اشتريتها لتلك المناسبة . أما الكورسيه الموف فلم يكن فيه جديد . كان ماك بخير طبعاً . كل ما في الامر أنه كان متعباً بعض الشيء . سرعان ما استفرقا في النوم . لكن المنبه ، الذي عنى بضبطه قبل أن ينام ، أيقظهما في منتصف الليل ، فقضيا ساعة أخرى ممتعة لكن بولى باغتته بسيل من الاسئلة ، فاعترف ، تحت الحاحها ، ببعض غزواته الفرامية السابقة (وان لم يذكر علاقته بفانى ، كما لم يشر الى علاقته بجينى الا عرضاً ، وبطريقة منقوصة) . وعندما أخذ يستنطقها بدوره ، اعترفت له الخوخة ، بعد نضال طويل ، ان مستر سمايلز قبلها ذات مرة . قبله واحدة . وهكذا تم - بهذه الاعترافات المتبادلة التي بلغ بها ذلك اليوم المشهود ذروته - ارساء أسس حب زوجي طويل ودائم .

كانت بولى سعيدة هي الأخرى ، وقد غفرت لماك ماضيه في اللصوصية (الذي اعترف لها به وهما يشربان زجاجة البرجندي في قاعة الفندق) ، وتركها تخرج خنجره العتيد قليلاً من غمده في العصا الفليضة التي لا تفارق يده . كما غفرت له أيضاً بعض صفاته الشخصية المنفرة (كميله الى هرش صدره تحت القميص) . وعندما غفرت له كل ذلك أيقنت تماماً من أنها تحب زوجها حباً جما .



كان مستر جونتانان ارميا بيتشام قد حصل على تفويض كامل بحرية التصرف من البارون ، وسمسار المراهنات ، وصاحب العقارات السكنية ، ومدير مصنع القطن ، وصاحب المطعم ، فأخذ الحقيقية التي أعدتها له مسز بيتشام ، وذهب الى حيث قابل مستر كوكس

على رصيف محطة ووترلو .

وقد انقضت الرحلة الى ساوثمبتون دون أن يتبادل السيدان أكثر من عشر كلمات . جلس كوكس واضعا نظاره ذا المشبك على أنفه النحيل ، مستغرقا في قراءة التايمز ، بينما جلس بيتشام في الركن ، بلا حراك وقد شبك يديه أمام بطنه .
رفع السمسار عينيه مرة واحدة ليقول :
- مازالت ميפקينج صامدة للحصار ! أولاد أشداء !

فلم يقل بيتشام شيئا . لزم الصمت في ركنه وهذه الافكار تتوارد على ذهنه :

- مصيبة . انجليز يحاربون انجليزا . ليس هذا الرجل الجالس معي في الديوان فحسب ، بل وأولئك الرجال الذين في ميפקنج أيضا . كلهم ضدى . ينبغي لهم أن يستسلموا ! واذ ذاك لن تكون بأحد حاجة الى ارسال فرق جديدة تحل محلهم ، او الى سفن ، جديدة كانت او خردة ، وبذلك تنتهى هذه المصيبة التى يحتمل أن تكلفنى عنقى . ولكن هل ينوون أن يستسلموا أبدا هؤلاء الملاعين ؟ اطلاقا ! يلبدون فى تلك الجحور الرطبة الحارة وينتظرون ، يوما بعد يوم ، وصول السفن اللعينة التى سأشترىها أنا لهم بدريهماتى التى لم أحصل عليها الا بعد أن تخلعت أسناني . وكأنها مؤامرة ضدى . يلبدون فى تلك الجحور ويهبون ببعضهم بعضا : اصمدوا ! لاتخاذلوا أو تضعفوا ! اقلوا فى طعامكم . اثبتوا تحت وابل الرصاص الى أن يشتري لنا جوناثان بيتشام المأفون العجوز بأخر درهم فى جيبه السفن التى ستحمل الينا المدد والخلص . ولو سارت الامور على ما يحبون لثم شراء السفن اللعينة بسرعة ، حتى أخرب أنا بيتى سريعا وينجون هم بجلودهم سريعا . لكننى لست مأفونا بالقدر الذى يتصورونه ، ولذلك ستسير الامور على مهل ، ما استطعت أن أهديء من سيرها . وهكذا تتباين مصالحنا أنا وهم ، رغم أننا لا يعرف أحدنا الآخر .

فى الفندق بساوثمبتون افترقا بسرعة ، وكل يريد أن يتخلص من صحبة الآخر لاطول وقت مستطاع ، فلم يفكرا حتى فى تناول العشاء معا . لكن ضجة كبرى قامت فى غرفة كوكس فى منتصف الليل ، ولما كانت غرفة السمسار لصق غرفة بيتشام ، فان هذا الاخير قفز من فراشه ، وارتدى سرواله ، ودلف الى الحجرة المجاورة . وجد كوكس راقدًا فى الفراش وقد جذب الاغطية حتى عنقه ،

بينما وقفت فى وسط الغرفة فتاة فى مقتبل العمر ، عارية كما ولدتها أمها ، الا من زوج جوارب حول ساقها ، وهى تسب وتلعن كنساء سوق السمك .

كان بوسع المرء ان يتبين من سيل السباب المقذع المتدفق من فمها ان العراك بينها وبين كوكس نشب لانها رفضت ان تمتثل لرغباته الشاذة ، ولانها ليست على استعداد ، مهما حدث ، للاستجابة لمطالبه . ومما قالته أيضا أنها ليست جديدة فى هذا الكار وأنها صاحبة ثروة حقيقية من الخبرات والتجارب والالاعيب ، فوق أنها متحررة تماما من العقد وضيق الافق والتزمت ، كما يشهد بذلك مئات من عمال الموانئ والبحارة ، وكلهم سادة كثير الاسفار ذواقون لا سبيل الى ارضائهم بسهولة ، لكن هذه الاشياء التى يطلبها هذا الرجل « كوكس » لا يجرؤ على طلبها ، مقابل عشرة شلنات لا أكثر ، حتى ذلك القاضى العجوز المعروف فى المدينة بأكملها بفسقه الشديد وقلة حيائه .

كانت الفتاة متمرسة بحق ، ومستنيرة . كانت عليمه بكل أصول الفن الحيوى الذى يجب أن تجيده كل من تمتهن مهنتها المتعبة : فن تحقير الزبائن الثقلاء الذين يسرفون فى مطالبهم . ولقد فعلت ذلك بكوكس ، باتقان تحسد عليه ، فوفقت - بغير جهد - الى مقارنات ونشبيهات استخدمتها فى تحقيره ، لو اتيح لنا أن نطبعها هنا ، لفتحت الطريق أمام هذا الكتاب - بقوتها الشعرية وروعة تصوراتها - الى مرتبة تقرب كثيرا من الخلود .

لم يكده بيتشام يدخل الغرفة حتى توالت الطرقات على الباب ، فذهب وفتحته ، ووجد عننا شديدا فى التخلص من عدد من الندل وخدم الفندق كانوا فى حال من الاهتياج يصعب معها التفاهم واياهم بالتى هى أحسن ، مما اضطره الى طردهم طردا . ثم التفت بعد ذلك الى السيدة وكانت قد اتشحت - بطريقة فنية للغاية - بمفرش مائدة من القטיפه ، وبدأت ترتدى حذاءها . ولم ينقض وقت طويل قبل أن يتمكن مستر بيتشام من كبح جماح غضبها بما ايقظه فيها من أحاسيس واقعية عملية ذات صلة وثيقة بالنقود .

بعد نقاش ومساومات دست المرأة عددا من أوراق النقد فى أعلى جوربها ، وانصرفت ، ولكن ليس قبل أن تقول لبيتشام :
- تريد نصيحة منى ؟ يجب أن تحضر لصاحبك سيدتين أو ثلاثا ، وبسرعة . اذا كنت تريد أن تجعله فى حالة يتمكن معها من مبارحة

الفندق دون أن يسير على أربع وهو يعوى !
فلم تكذ تنصرف حتى اضطر الرجلان الى حزم امتعتهما لان ادارة
الفندق أعلنتهما بأنه من غير المرغوب فيه بالمرّة أن يظلا بالفندق
دقيقة أخرى . وهكذا اضطررا الى الانتقال الى فندق آخر ، في
الساعة الرابعة صباحا .

وجدا من غير المجدى أن يذهبا الى الفراش . فطلبا بعضا من الشاي
وجلسا يتحدثان .

أبدى كوكس رغبة حرى في الحديث . تكلم فأفاض . لم يخف
عن بيتشام أن هذا المشهد الذى جرى فى غرفته قد ملأه تقززا لا
يقاوم ، من نفسه ، وأخذ ينتقد نفسه صراحة ، بلا رحمة ، لأننا ذلك
الضعف المزوى الذى يدفعه الى مخالطة هذه الاصناف من حثالة الناس

قال محزوناً ، بلهجة يقين كامل :

— هؤلاء الناس يفقدون كل قدرة على التحكم فى أنفسهم بمجرد
أن يخرجهم المرء من بيئتهم المعتادة . وهم فوق كل شيء لا يفهمون
سلوك السادة المهذبين أمثالنا . لكن أحدا لا يستطيع أن يلومهم . لانهم
خلقوا هكذا ولا يعرفون كيف يسلكون سلوكا أفضل . فلا يكفون عن
استخدام اشد الفاظ السباب بذاءة . والحقيقة أن اذلال النفس المتواصل
الذى يضطرون اليه فى سبيل لقمة العيش يقضى على كل سمو فى
مشاعرهم . فوق أنهم يمقتون العمل . لا يريدون أن يعملوا أبدا .
بل ولا يريدون حتى أن يقلموا من وقتهم ما يقابل النقود التى
يكسبونها . كل ما يريدونه حياة سهلة ميسرة ولا شيء غير ذلك .
وذلك هو السبب فى أنى ضد الاشتراكية . هذه المادية الفجة شيء
لا يحتمل . فالسعادة الكبرى كما يتصورها هذا الصنف من الناس
تتمثل فى حياة من الكسل . هؤلاء المصلحون الاجتماعيون لن
يفلحوا أبدا . لانهم لا يدخلون الطبيعة الانسانية فى اعتبارهم ،
وينسون أنها ، بالفطرة ، طبيعة منحطة . ولو كان الناس حقا على
ما يشتهى المرء من سمو وجدية اذن لاستطاع المرء أن يحقق أمورا
كثيرة بهم . لكنهم ، للأسف ليسوا كذلك . وهكذا فإنه لا فائدة من
أى شيء . ولا يحصل المرء فى النهاية على شيء الا على صداع يشق
رأسه نصفين .

عندما بدأ كوكس يتكلم ، اتخذ بيتشام وقفته المعهودة أمام النافذة
ناظرا الى الميدان بأسفل ، حيث كان رجل فى عفرينة زرقاء يغسل
الارض بخراطوم كبير فى ضوء الصباح الباكر ، وعربات الخضر قد

بدأت تفرقع عجلاتها آتية من الميناء • فلما قال كوكس ما عنده ،
فاجاه بقوله :

- ينبغي لك أن تتزوج يا كوكس •
فتعلق كوكس بتلك النصيحة تعلق الغريق بقشة • قال كمن
يحمل هموم الدنيا على قلبه :
- لعلك على حق • ولعلي يجب أن أتزوج • انى فى حاجة الى امرأة
محبة تكون بجانبى • هلا اعطيتنى يد ابنتك ؟
فقال بيتشام دون أن يستدير اليه :

- نعم •
- هل تأتمنى عليها ؟ حقا ؟

- بطبيعة الحال •

تنفس كوكس بصوت مسموع • ولو استدار بيتشام ونظر اليه
لوجد انه لم يكن على ما يرام • فقد أرهقت الفضيحة اعصابه •
قال لبيتشام بلهجة لا تنبىء عن نفس هادئة مطمئنة :

- لن تجدنى زوجا سيئا لابنتك • أنا أعرف عملى جيدا • فوق
أنى رجل مبادئ • يجب أن نناقش هذا الموضوع جديا • لقد أدركت
طبعاً أن هذا العمل الذى أقوم به مجز للغاية • أنه مجز بحق •
لا تستطيع أن تتصور كم هو مجز ! وأنت نفسك متورط فيه ، حتى
هنا ! لا أظنك تدرك حقا يا بيتشام مقدار الربح الذى يعود على من
وراء هذا العمل • لكنك قد كونت فكرة طبعاً عن الطريقة التى أدير
بها الامور • وأنا الآن مستطيع - بعد أن تم هذا التفاهم بيننا - أن
أصارحك ببضعة أشياء ، خاصة وأن الامر قد قضى أو كاد • أنت
متورط حسبما أذكر فى حدود ما لا يقل عن سبعة آلاف جنيه • ألا
تصدقنى ؟ كم تظن ثمن السفن التى سوف نراها اليوم ؟ أنا ، بينى
وبينك ، أعرف ثمنها الحقيقى • انها سفن من الطراز الاول • ونحن
أو ، بالاحرى ، أنتم ، لن تحصلوا عليها بأقل من خمسة وثلاثين ألفاً
من الجنيهات • ولولا أنى كنت بعيد النظر فحصلت على حق أسبقية
التعاقد لأصبح ثمنها أكثر بكثير من هذا المبلغ • وسوف يبدو لك
لاول وهلة أنه بالرغم من ذلك كله ، سيظل هناك فائض لا يستهان
به من التسعة والأربعين ألفاً التى ستدفعها الحكومة • لكن الامر يبدو
كذلك فى الظاهر فقط • سوف تشترون السفن الجديدة وتبيعون
القديمة نعم • لكن الثمن الذى ستحصلون عليه لن يتجاوز القيمة
التي قدرها مستشاركم الهندسى • فهى لا تساوى أكثر من ذلك •

ما زلت تذكر الثمن الذى قدره لها ، وهو مائتا جنيه لا أكثر .
كان بيتشام قد استدار الى محدثه من أمد طويل ، فأصغى اليه
جيذا . والان بدأ ينتشبت بيدين راعشتين بستائر النافذة ، محدقا
فى وجه كوكس كما تحدى الفريسة مسحورة فى وجه ثعبان ضخم
موشك على أن يتلعها بعد أن يهشم أضلعها .
ضحك كوكس واستطرد قائلا :

- لن تكون تكلفة الاصلاحات ، والرشاوى ، وعمولتى ، كبيرة
طالما كانت السفن رخيصة فلم تكلفكم أكثر من أحد عشر ألفا . لكن
الامر يختلف تماما اذا كلفتم خمسة وثلاثين ألفا ، أضف اليها
الرشاوى الجديدة التى سيتعين دفعها حتى تتمكن الشركة من
استبدال السفن الخردة بالسفن الجديدة لثلا تطير الرقاب - ولن
تقل تلك الرشاوى بحال عن سبعة آلاف جنيه . ما رأيك فى كل هذا؟
بدأ رأى مستر بيتشام فى غير حاجة الى ايضاح . بدأ الرجل فى
ضوء الفجر الشاحب كما لو كان قد قام لتوه من مرض طويل
مमित . وأسوأ ما فى الامر انه كان قد حدس كل هذا من مبدا الامر!
لقد وقع فى يدى نصاب خطير ، ولم يقع بغير تحذير ، حدس ذلك
منذ البداية ، ولو كان مستر بيتشام رجلا متقفا لصاح قائلا :

- أين يكون أوديب الملك منى ؟ لقد ظل طيلة قرون بأكملها
مستأثرا وحده بلقب أتعس التاعسين فى العالم ، المثل الحى على ما
توقعه نقمة الالهة من مصائب بالبشر ، وأشقى من ولدته امرأة على
وجه البسيطة . ها ! اذا قورن بى أوديب هذا لتبين أنه انسان محدود
الحظ حقا . فقد تورط فى مسألة شائكة بغير علم منه . بل وقد
بدت له تلك المسألة ، فى مبدا الامر ، مستحبة . نعم كانت مستحبة
بالفعل . كان من الممتع حقا أن ينام مع تلك المرأة ، كما كان من المريح
أن يكف عن تشرده فى طول البلاد وعرضها ويجد له مستقرا ، فى ذلك
القصر الملكى ، فيؤسس أسرة سعيدة ، ويظل طيلة سنين بأكملها
يقوم بواجباته كملك وزوج وأب دون أن يحمل هما ، أو ينفص
صفوه منقص ، متمتعا باحترام الجميع واخلاصهم . ثم فوجىء ذات
يوم بأن رابطة ذلك الزواج لم يكن من المستطاع أن تظل قائمة ،
وانها يجب أن تنفصم ، فبات أعزب من جديد ، وحرم عليه فراش
الزوجية من الآن فصاعدا وهنا - كما هى العادة - تكاثر عليه
الحمقى والحاسدون . ولقد كان الجانب الاكبر من تلك الاحداث
مزعجا ، أو لنقل أن تلك الاحداث كلها كانت مزعجة . ومع ذلك
كانت هناك بلاد أخرى . كانت هناك دائما بلاد أخرى للمشردين

أمثاله فوق أنه لم يكن لديه ما يلوم عليه نفسه ، فلم يكن قد فعل
أى شيء كان بوسعها أن يتجنبه . أما أنا ! أنا كنت أعرف منذ البداية ،
كنت أعرف ! أنا وحدي الاحمق والمأفون ، ولذلك لا استحق أن
اعيش . من الواضح تماما الآن أن أى طفل يستطيع أن يضحك على
ذقنى ويجردنى من نقودى ، وانى انسان أبله لا ينبغي له أن يعبر
الشارع وحده خشية أن يخطيء فيعتبر مركبة الامنيبوس ورقة شجر
تطيرها الريح ! وأنا من أولئك الذين يدفعون ثمنا باهظا فى الاسلحة
التي يتم الاجهاز بها عليهم ، ويتبرعون أيضا بثمان قبورهم سلفا !
وفى أثناء ذلك كان منظر العجوز قد أثار ضجر مستر كوكس .
فقال له بهدوء :

- من هذا كله ترى أنى زوج مثالى لابنتك .
تناولا الافطار معا بوصفهما أقارب . نطق بيتشام ببضع كلمات
حذرة عن دكانة الآلات التي يديرها ، واستسلم السمسار الشهوانى
لصورة عابرة خطرت بذهنه فتمثل فيها بشرة الخوخة الفاتنة . ثم
ذهبا معا لمعاينة السفن .

وجدوا سفينتين للبيع ، فى حالة جيدة جدا ، ولكن بثمان باهظ
للغاية . قال كوكس أنه يعرف مكان سفينة ثالثة ، فى بلايموث ،
وأن السفن الثلاث ستكلف الشركة ، على وجه التحديد ، ثمانية وثلاثين
ألفا وخمسمائة جنيه ، وستبلغ عمولته من ذلك المبلغ ما لا يقل عن ثمانية
آلاف جنيه . ولما كان بيتشام قد نجا بعنقه من قطع الاغنام الذى
يساق الى الذبح ، وانضم الى الجزائر ، فانه لم يشر أية اعتراضات ،
كل ما فى الامر أنه ابدى لهفة ملحوظة للعودة الى بيته . فقد اختبأ
فى دورة المياه لحظة وأجرى بضع عمليات حسابية على قطعة ورق ،
تبين منها مقدار الخسارة الباهظة التي كان سيتحملها بغير بولى .
ثم أجرى عملية أخرى ليتبين ما كان حريا أن يتحمله من أرباح كوكس
التي سينصب على الشركاء بقيمتها ، فهالته تلك الخسارة النظرية الى
الحد الذى جعله يتوجع داخل دورة المياه بصوت مرتفع أجتذب انتباه
أحد المارة فسأله ان كان بخير .

لكن بيتشام ، بعد تلك الزوبعة النظرية التي أثارها لنفسه
بحساباته الافتراضية ، تاب الى رشده ، فكف عن التفكير فى الخراب
الذى كان معرضا له ، والخسائر الملاحقة التي أوشكت أن تجتاحه ، الى
التفكير فى الارباح الضخمة التي سيحققها من مال الشركاء باعتباره
قريبا للسمسار .

أهم شيء الآن هو تهيئة الخوخة لفكرة الزواج من كوكس ولو كانت الفتاة عندها عقل لحمدت ربها على تلك الزيجة . لانه من أين لها أن تحصل على زوج كهذا . ان الرجل عبقرى ما فى ذلك شك .



لم يضيع ما كهيث وقتا فى القيام بالعمل الذى جاء من أجله الى ليفربول . ولاول مرة صحبته بولى الى دكان من دكاكينه الشهيرة . طلع عليهما رجل ضخم الجثة نامى اللحية من غرفة داخلية مظلمة . كانت حوائط الدكان مطلية بالجير وقد رصت على الارفف بالاتضخمة من البضائع من كل صنف ولون : شباشب منزلية صفراء ، و كارتونات من أمشاط الثقاب ، وساعات جيب ، وفرش أستان ، وولاعات سجائر ، وأكوام من المصاييح ، وكزارييس ، وغلايين . . قرابة عشرين صنفا . عندما وقف الرجل على هوية زائريه ، فتح بابا واطئا فى مؤخرة الدكان ، ونادى على زوجته ، فظهرت الزوجة حاملة طفلا رضيعا بين ذراعيها ، والباب الذى دخلت منه يكشف عن غرفة بדרوم صغيرة ذات نافذة واحدة ، استطاعت بولى أن تلمح فيها كومة مختلطة من الاثاث والاطفال .

كان منظر الزوجين قميئا بحق ، يعطى انطبعا غير سار بالمره . لكنهما كانا ممثلين أملا . فالزوج واثق من أنه سينجح فى عمله ، مسرور لهذه الفرصة التى واثته ليستقل ويقف على قدميه ، وهو من أولئك الناس الذين لا يتراجعون بسهولة عن شيء بدأوا فيه . وقد عززت الزوجة ذلك بقولها

— ان زوجى من أولئك الناس الذين لا يستسلمون أبدا .
كان وجهها منبثا عن جوع مزمن ونقص دائم فى التغذية .
لكن أحوال الزوجين ، فيما تبينت بولى من حديثهما ، لم تكن على ما يرام ، رغم اصرارهما على التفاؤل ، وتظاهرها بروح معنوية عالية . نعم الايجار ليس مرتفعا ، لكن محصلى الشركة لا يسمحون بأى تأخير فى السداد . وشحنات البضائع ، التى تصل من مخازن ما كهيث الرئيسية ، لا ترد بانتظام ، كما انها تأتي دائما بكميات متفاوتة ، وباختيار عشوائى لاصناف البضائع ، ولا تسترد الكميات غير المبيعة منها فتظل متراكمة فى الدكان حتى تحوله الى دكان مخلفات قديمة . وتلك هى المشكلة الرئيسية : ورود الصنف بكمية أكبر مما يجب ، أو أقل مما يجب . فالمشترى الذى يبحث عن حذاء ضد المطر لا وقت عنده لكى يعرض عليه صاحب الدكان ساعة جيب بدلا من الحذاء الذى

يريده ، ولو انه قد يفكر فعلا فى شراء مظلة ، ان كانت لدى صاحب
الدكان مظلات . ولهذه الاسباب كلها تفوقت الدكاكين الاخرى فى
المنافسة ، رغم أسعارها المرتفعة .
قال الرجل أنه، فى الحقيقة ، يجد صعوبة فى سداد ماعليه للشركة
فى نهاية الشهر .

وهنا أوضح له ماكهيت ، بجلاء وهدوء ، أن منافسة تلك الدكاكين
الاخرى الاكبر حجما منافسة غير أخلاقية ألبتة . لان أصحابها
يستخدمون اليد العاملة الاجنبية ، ويتعاملون مع أصحاب البنوك من
اليهود ، فيتآمرون معهم على احداث ذبذبة فى الأسعار ، وارتباك
دائم فى السوق . أما المحلات الكبرى ، فقد طمأنه ماكهيت الى أنها
رغم ظاهرها الذى ينم عن ازدهار ، ينخر فيها الكساد ويتهددها
الافلاس ، خاصة تلك المحلات التى يملكها شخص يدعى «أ. هارون» ،
فهى منهارة تماما من داخلها ، رغم بريقها الخارجى المزيف . ولذلك
فان هذا هو الوقت الذى يجب أن تهب فيه دكاكين حرف «ب» بكل
قواها لتخوض النزاع الحاسم والاخير مع محلات هارون المتهاوية
وسواها وتجهز عليها جميعا بغير رحمة ، وبغير عوادة . نعم ، لا يجب
أن نظهر لهم أدنى رحمة .

أما فيما يتعلق بالايجار ، فقد وعده ماكهيت بتسهيلات معينة ،
كما وعد بأن تكون شحنات البضائع أصغر حجما ، وأكثر تنوعا .
كما وافق أيضا على انتظام مواعيد التسليم . ولم يطلب فى مقابل
ذلك كله الا مزيدا من الاعلان . فالزوجان يستطيعان أن يحررا
الاعلانات التى توزع باليد ، والاطفال يستطيعون أن يقوموا بتوزيعها
على العمال عند خروجهم من المصانع ، وسوف تزود الشركة الزوجين
بالكميات اللازمة من الورق .

كان واضحا أن هذا الدكان لا تنقصه اليد العاملة من الاطفال .
دخلت بولى الغرفة الخلفية لحظة ، على سبيل المجاملة . نعم كان
المكان نظيفا . لكن قطع الاثاث كانت رمزية للغاية ، ومحطمة . على
كنبة مخلخلة بدت موشكة على التفكك رقدت امرأة عجوز تبين أنها
أم صاحب الدكان . ظلت العجوز محمقة فى الحائط بنظرة عنيدة
لا تحيد .

أحس الاثنان بالارتياح عندما خرجا الى الهواء الطلق ثانية . وقد
لخص ماك رايه فى هذه الحكمة العملية :

- أما أن يكون المرء صاحبا لدكان حرف «ب» ، أو أبا لقطيع من الاطفال

فى زيارتهما للدكان الاخر ، (فلم يكن عدد دكاكين حرف «ب» ،
قد تجاوز اثنين فى ليفربول بعد) ، فضلت بولى الانتظار خارجا حتى
ينتهى ماك من أداء العمل الذى جاء لاجله * زفقت تنظر داخلا من
واجهة الدكان الزجاجية التى عقلت فيها عدة «بذلات» أنيقة زهيدة
الثلث بشكل يدعو الى الدهشة ، فرأت ماك آخذا فى الحديث مع
شاب فى مقتبل العمر ، بدا من نحوه وأمتقاع لونه أنه مريض
بالسل ، كان منهمكا فى قص مزيد من الحلل فوق منضدة خشبية .
لم يتوقف عن العمل عليها طيلة الحديث لحظة .

وقد علمت بولى فيما بعد أن الشركة تزود ذلك الرجل بالاقمشة :
كذا ياردة مقابل كذا بذلة يجب أن يكون سعرها زهيدا بطبيعة الحال
هذا الرجل مثلا كان من المحتمل أن تتحسن أحواله لو كان أبا لاسرة
جسيمة العدد كأسرة ذلك الرجل الآخر ، لان كل أولئك الاطفال كان
بوسعهم أن يساعده فى أعمال الحياكة ، والكى ، والتشطيب .
لكن ذلك أمر يخصه هو * فطبقا لقواعد التعامل مع شركة حرف «ب» ،
لم يكن صاحب الدكان مرغما على الخضوع لاية قيود أو لوائح ،
سوى اداء مستحقات الشركة فى مواعيدها .

وقد أخبرها ماكهيت باعجاب كيف أن الرجل ألصق على المنضدة
التى يستخدمها فى العمل شعارا من احدى الصحف يقول « لا مكسب
بغير شقاء » *

ذهبا بعد ذلك الى أحد تجار الجملة ، حيث اشترى ماكهيت رسالة
كبيرة من شفرات الحلقة وحصل من التاجر عنى فاتورة مؤرخة بتاريخ
سابق . وبذلك انتهى عملهما فى ليفربول وبات بوسعهما أن يعودا الى لندن
كانا قد اتفقا على ابقاء زواجهما سرا فى مبدأ الامر ، حتى لا يزعجا
مستر بيتشام بغير داع * ولذلك رتبت بولى أمورها بحيث تعود الى
بيت أهلها بمفردها ، حيث تعمل على اسكات أمها (وكانت تحمل لها
زجاجة من البراندى فى حقيبتها) ، ثم تكاشف أباه بالامر على مهل ،
عند عودته من ساوثمبتون *

لكنها لم تكد تخطو الى الدكان حتى وجدت مستر بيتشام فى
انتظارها ، وقد عاد ، قبل مجيئها ، من ساوثمبتون ، فأشعل حريقا
حقيقيا فى البيت بسبب غيابها طوال الليل *
انتزعت أمها الحقيبة من يدها ، فأخرجت منها زجاجة البراندى ،
وقميص نوم اشترى فى ليفربول ، وثوب زفاف *
كان لظهور تلك الاشياء البسيطة التى لا ضر فيها وقع الصاعقة

فى الدكان ، حدث زلزال حقيقى مدمر • قيلت أشياء مخيفة ، ووقعت أشياء أفظع • ولكن منذاً الذى يجب مثل تلك المشاجرات العائلية ، ومن منا لا يفضل أن يمر مر الكرام بما قاله العجوزان لابنتهما الفتية ، ثمرة أحشائهما ؟ كل ما خفى انكشف فى ذلك اليوم المشهود ، وخرج كل شىء الى ضوء النهار ، ابتداء من حانة «الخطبوط» وانتهاء بغرفة الفندق ذات الفراش المزدوج فى ليفربول • ولقد بدا واضحاً ان اقتران اسم ماكهيث باسم ابنته كان ضربة قاضية لمستري بيتشام • فعالم الجريمة السفلى على طول الجزر البريطانىة وعرضها ، وممتلكات ما وراء البحار ، كان كتاباً مفتوحاً بالنسبة اليه ، وهو الذى اسماه الجميع (باحترام بالغ) فى سوهو ، ووايتشابيل « بملك الشحاذين » • باختصار ، كان مستري بيتشام يعرف جيداً من هو ماكهيث •

لكن العار الذى لحق به نتيجة لتلك الزيجة التى ربطته بعالم الجريمة لم يكن شيئاً بجانب الخراب الذى بات موقناً منه على يدي مستري كوكس • فى لحظة واحدة ضاع شقاء العمر كله • لم يعد أى بيت من البيوت الثلاثة التى تلقى تحت سقفها ذلك النبأ الرهيب ، ملكاً له • حتى المنضدة العتيقة النخرة التى استند اليها بعد أن تلقى تلك الطعنة الغادرة (المجردة من كل رحمة) من يد القدر ، لم تعد منضدته • لقد عاين هذا الصباح سفناً فى ساوثمبتون ، من المحتوم أن يسدد ثمن واحدة منها على الأقل من حر ماله • وابنته ، أمله الوحيد والآخر ، قد ضيعت جسدها الثمين ، متفضلة به على لص منازل حقير ، فوق فراش فندق رخيص فى ليفربول •

أخذ الرجل يجأر بأعلى عقيرته :

- ستكون نهايتى فى مستشفى المجاذيب • ابنتى ستودى بى الى عبر المجانين ! أو شىء فعلته صباح اليوم عندما استيقظت فى ساوثمبتون ، بعد ليلة لم أذق فيها للنوم طعاماً ، انى ذهبت فاشتريت لها فستاناً جديداً • ها هو ملقى فى مكبى • ثمنه جنيهان ! قلت لنفسى : « سأخذ لها هدية صغيرة تفرح بها ، حتى تدرك حقيقة مقدارها عندى • غيرها من الاطفال يضطرون الى أعالة أنفسهم من سن مبكرة ، وتعوج أرجلهم من قلة اللبن • وأرواحهم يصيبها التشويه لانهم يضطرون الى رؤية الجانب البشع من الحياة قبل الاوان • أما ابنتى أنا فشربت اللبن باللتر ، دون أن تنزع قشده • ولم تعرف منذ أن وعت الحياة الا الحب والحنان والتفانى فى رعايتها

وبدلا من أن تذهب لتشخذ لقمته كغيرها ، تعلمت العزف على البيانو ! والآن ، لأول مرة فى حياتى ، أطلب منها شيئا ، أطلب منها أن تتزوج رجل أعمال محترم ، أهديها رجلا له مبادئ ، يعنى بها ويرعاها بقية حياتها . سوف تودى بى الى مستشفى المجاذيب ، لانى من أجلها غامرت بالدخول فى صفقة لا أفهم فيها شيئا . لمجرد أن أحصل لها على بائة محترمة ! ماذا تظن هذه المخلوقة المنحطة نفسها ؟ أنا ان ضببت فتاة من فتيات المشغل مع المدير أطردها على الفور . الى هذا الحد احرص على الاخلاق فى بيتى . فتذهب ابنتى وتتورط مع رجل أفاق له أكثر من زوجة ، همه الوحيد الحصول على بائها . والآن يجب أن أفكر فى الطريقة التى أدبر بها أمر طلاقها من ذلك النصاب . ولكن ما العائدة ؟ حتى اذا طلقته ستكون قد ضيعت مستقبلها ، لان كوكس لن يغفر لها فعلتها أبدا . فهو رجل صاحب مبادئ ، ولديه أفكار لا يحيد عنها فيما يخص طهارة النساء ، فوق أنه ، فى الظروف الحالية ، صاحب اليد العليا ، ولديه كل الحق فى أن يتدلل ويدقق !

انكفأت خوخة على فراشها فى غرفتها الوردية منتحبة ، لا تجرد حتى على ارسال كلمة الى ماك ، الذى كان فى تلك اللحظة جالسا فى خانة الاخطبوط (أس المصائب كلها) فى انتظار اشارة منها ليقوم بالزيارة الحاسمة لابيها . وقد أنتظر ماكهيث صابرا طوال الليل . وفى صباح اليوم التالى ذهب الى دكان الآلات .

وهناك قابله رجل ضخم الجثة ، جهم الوجه ، ذو هيئة تشير الفزع حقا ، فلم يكده ماك يفصح عن اسمه حتى أمسكه الرجل من قفاه ، فألقاه خارجا ، بغير كلام .

وبعد يومين تلقى رسالة مختصرة من الخوخة تحذره فيها من المجيء الى بيت أبيها تحت أى ظرف من الظروف . لكنها فى المساء قابلته عند ناصية الشارع ، بعينين محمرتين قرحهما البكاء ، وأخبرته أن أباهما يصر على بقائها فى البيت . وانه هددتها ، فى حالة عصيان أوامره ، بأن يحرمها من الميراث ، وبأن يطلق الشرطة فى أعقاب ماك الذى قال لها أنه يعرف عنه ما فيه الكفاية .

أصغى ماكهيث إليها بهدوء ، ولم يقترح عليها الهرب أو أية حماقات من ذلك القبيل . فقط قال لها أنه يريد لها مدة خمس دقائق لا أكثر بين شجيرات الحديقة . لكنها لم تذهب معه .
وخلال الاسبوعين التاليين لم ير أحدهما الآخر الا مرة أو مرتين .

(٦)

« قد ذبت . لا الى الأبد أحياء . كف عنى لان أيامى نفحة .
« ما هو الانسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك ؟
« وتتعهده كل صباح ، وكل لحظة تمتحنه ؟
« حتى متى لا تلتفت عنى ولا ترخينى ريشما أبلع ريقى ؟
« أخطأت . ماذا أفعل لك يارقيب الناس ؟ لماذا جعلتنى عاثورا
« لنفسك حتى أكون على نفسى حملا ؟
« ولماذا لا تغفر ذنبى ، ولا تزيل أثمى ، لانى الان اضطجع فى
« التراب ، تطلبنى صباحا فلا أكون . »

(سفر أيوب)

(٧ : ١٦ / ٢١)

حمام تركى

فى باترسى ، على ناصية شارعى فورنى ودين كانت تقوم منشأة
قديمة بها حمامات للرجال فقط ، معظم المترددين عليها من السادة
كبار السن . وهى منشأة بدائية بعض الشيء . فحماماتها براميل
خشبية ، معظم ألواحها نخرة يتسرب منها الماء ، ومناضدها التى
يتم تدليك الزبائن عليها مخلخلة ، موشكة دائما على السقوط ،
ومناشفها قديمة ، تملؤها الثقوب من كثرة الاستعمال . لكن تلك
الماخذ جميعا كانت تتضاءل أمام ميزة تتفرد بها هذه الحمامات .
فهى تقدم لزبائننا حمامات طبية معينة - بالطلب طبعا - تستخدم
فى اعدادها أعشاب خاصة لا يمكن الحصول عليها فى أى مكان آخر ؛
ولم تكن تلك الحمامات الطبية مما يوصى به الاطباء ، بل كان الزبائن
يقولون عنها الواحد للآخر ، ويوصون بها بعضهم بعضا . كانت تلك
المنشأة تدعى « حمامات أبو ريشة » . وأسعارها متهاودة للغاية .
والقائمات بالعمل فيها كلهن بنات .

كان مستر كوكس من زبائن ذلك المكان ، وقد ألف أن يتردد
عليه مرة كل أسبوع على الاقل . وقد اكتشف اصحاب شركة النقل

البحرى ذلك ، فعودوا أنفسهم على الذهاب الى تلك الحمامات كلما أرادوا الاجتماع به .

كان الاستحمام يجرى فى أماكن صغيرة مسورة بالخشب يتم فى داخلها أيضا تدليك العميل بعد خروجه من الماء . لكن حمامات البخار والارائك التى يتمدد عليها المستحمون للراحة كانت كلها فى عنبر واحد كبير . فكان بالوسع أن يجتمع عدد من الناس ليناقشوا أمرا ما دون أن يزعجهم أحد ، خاصة إذا ما احتاوا كل حمامات البخار . وقد أصبح ذلك أمرا مألوفا فى المنشأة ، فأعدت لافتة مكتوب عليها « كامل العدد » لترفع أمام الخزينة فى مثل تلك المناسبات .

كان لقاء الشركاء يتم عادة فى يوم الاثنين . فالمنشأة تغلق أبوابها فى نهاية الاسبوع ، ولذلك فإن العاملات يكن فى ذروة نشاطهن فى مطلع الاسبوع الجديد . والحقيقة أن كوكس بارع للغاية فى حساب هذه الاشياء ، واغتنامها .

فى بداية الامر اعترض معظم الشركاء على اختيار مكان كهذا لتعقد فيه اجتماعات الشركة . لكنهم - بعد أن جربوه - لم يكن من المستطاع منعهم من الاجتماع فيه ، ولو باستخدام القوة . فوق أن الجميع كانوا براعون مواعيد الاجتماعات بكل دقة ، خاصة فى الاوقات العصيبة التى يبدو فيها أن أمور شركة النقل البحرى لا تبشر بخير .

حتى فىنى العجوز المجفف لم يعد يتخلف عن الاجتماعات ، رغم مقتته لكما أشكال الترف . قال ان حمامات الاعشاب الطبية تريح معدته أكثر من أى دواء جربه حتى ذلك الوقت . كان فىنى يعتقد أنه مصاب بالسرطان ، وقد باتت لذته الوحيدة التحدث عن أعراض مرضه ، حتى أصبحت الفتاة ، عاملة الحمام رقم ٦ ، تعسرفها عن ظهر قلب .

وقد انتظم بيتشام هو الآخر فى التردد على الحمامات ، مع اجراء تعديل واحد ، هو أنه احتجز لنفسه العامل الوحيد الذكر فى المنشأة ، وهو رجل بدين ضخم الجثة ، كان الزبائن كلهم يخشون بأسه ، لحشونته البالغة فى التدليك . ولم يكن بيتشام مدفوعا فى ذلك بأية خلاعة أزعجته لدى الفتيات ، لكنهن ، عندما يقمن بعملهن كن لا يرتدين ، بطبيعة الحال ، الا أقل قدر ممكن من الثياب ، وهو مالم يطمئن اليه بيتشام ، ففضل صحبة الرجال .

لم يكذب بيتشام يعود من ساوثمبتون حتى اتصل بايستمان وأخبره بثمان السفن الجديدة ، وأفهمه في الوقت ذاته ، أن الشراء يجب أن يتم ، وبغير إبطاء . كما قال - تعزيزاً لهذا الرأي الأخير - أن كوكس ، في رأيه ، وغد ، ونصاب ، وقاطع رقاب لا يتورع عن أي شيء ، وأنه - دون أدنى شك - سيذيع أن الشركة جاهدة في النصب على الحكومة بنية التخلص من السفن العتيقة النخرة ، وأنه ، منذ بداية الأمر ، قد فعل كل ما في وسعه ، وناور ، وتآمر ، لتوريطهم جميعاً في تصرف يوقعهم تحت طائلة قانون العقوبات حتى يتمكن من ابتزاز أموالهم بالتهديد . والاسوأ من ذلك أن ربح عمليات التوريد في الحرب لا تتجاوز ٣٠٪ ، لكن الشركة ، بتأثير كوكس ومناوراتها ، وتحت توجيهه الذي لا يستطيعون اثباته ، تعمل على تحقيق ربح لا يقل عن ٤٥٠٪ ، مما سيزيد موقفهم سوءاً ، ويشير ضجة كبرى . وقد وافقه إيستمان الرأي على أنهم لن يستطيعوا تسوية حساباتهم مع السمسار إلا بعد أن يكونوا قد اشتروا السفن الجديدة . ثم قرروا أن يتركوا بقية الشركاء « على نار » ، لبضعة أيام أخرى ، والا يذكروا شيئاً عن الأسعار الجديدة الباهظة إلا في يوم الاجتماع الأسبوعي بحمامات « أبي ريشة » ، الاثنين القادم . واذ ذاك يكون لوجود كوكس بينهم تأثير طيب ، لا العكس ، لأنه سيعطيهم أملاً في رفع الثمن الذي ستشتري به الحكومة .

برغم تلك التوقعات ، لم تتم المناقشات التي دارت بين السادة الشركاء السبعة ، في الحمام التركي ، صباح يوم الاثنين التالي ، بغير توتر أو شحان .

عندما بدأ إيستمان كلمته ، التي ألقاها وهو يأخذ حمام البخار . كان مون مدير مصنع النسيج ، وفيني والبارون ، قد تمددوا على أرائكهم يستريحون ، وبيتشام مازال تحت التدليك ، بينما جلس كراول صاحب المطعم على مقعد بكامل ثيابه ، رافضاً الاستحمام . أما كوكس فكان يقوم بتمارين رياضية .

بدأ إيستمان كلمته بحث الشركاء عن أن يصفوا نظراً عن أي أمل في بيع السفن القديمة . قال نعم ، كانت خطة عظيمة ، لكن ها قد تبين أنها مستحيلة ، وقال ان الشركة تستطيع ان تتوقع من صديق كوكس الذي في الاميرالية مساندة نشطة وبناءة لقضاء الخمسة آلاف جنيه التي تم تزبيت بده بها عن طريق كوكس ، لكنها لا يمكن طبعاً ان تتوقع من ذلك المسئول اي تواطؤ في عمالية

نصيب واحتيال كهذه . ثم ان ذلك ليس كل ما فى الامر . فالخمس
الاف جنيه كانت عن العملية الاولى ، لكن تكتم الفضيحة التى يمكن
أن تثار بسبب محاولة الشركة أن تبيع أنا الجميلة ، والولد البحار ،
والمتفائل ، الى الحكومة ، والعمل على اخلال سفن جديدة محلها
مع نقل تلك الاسماء اليها تجنباً للمسائلة الجنائية وتهمة الخيانة ،
كل ذلك سيكلف الشركة سبعة الاف وخمسمائة جنيه أخرى ،
تدفع أربعة الاف منها فوراً ، وثلاثة الاف وخمسمائة عند اتمام
العملية ووفاء كل طرف من الاطراف بتعهداته كاملة . وما على
السادة الشركاء ، لئلا يصيبهم فالج ، الا أن يعتبروا تلك المبالغ
جميعها ثمناً لدرس ثمين قد تعلموه ، فلا أحد يتعلم مقابل لا شيء
فى هذه الدنيا .

رقد بيتشام على وجهه طيلة تلك الخطبة ، مستسلماً للتدليك
العنيف ، مشاهداً باهتمام بالغ مباراة صامته ومخيفة فى التصيب
عرقاً كانت ناشبة بين ايستمان البدين فى حمام بخاره ، وكراول
الجالس على مقعده الخشبى بكامل ثيابه محملاً فى وجه ايستمان
بنظرة هلع لا توصف . والواقع أنه بعد خروج مربى الاغنام من
الشركة ، وحلول بيتشام - بنصيب ثان - محله ، بات صاحب
المطعم أضعف لبنة فى بنيان شركة النقل البحرى . كان منذ
البداية يشكو مر الشكوى من تدهور أعماله وسوء حالته عموماً ،
ولا يكف عن الاشارة الى سيف ما كان يراه دائماً معلقاً فوق رقبته .
وكان ذلك - فى واقع الامر - هو دافعه الى الدخول ، بحماس زائد ،
فى مشروع شركة النقل البحرى الذى بدأ واعدأ بأرباح طيبة .
ولقد اقترض أول اسهام له فى رأسمال تلك الشركة من حميه .
والان هاهو قد دخل فى تلك المباراة الغريبة مع صاحب العقارات .
عندما بدأ ايستمان ، الذى لم يكن قد بدأ يتصيب عرقاً بعد ،
فى الحديث عن الصعوبات المحيطة بالعثور على سفن للنقل فى ذلك
الوقت ، بدأت قطرات كبيرة من العرق تتفصد من جبين كراول
وتسيل على وجهه . وعندما وصل ايستمان الى لب الموضوع
كله وبدأ بتكلم عن الأرقام (٣٨٥٠٠ جك) ، ٧٥٠٠ جك ، وما الى
ذلك ، وتفصدت من جبينه ، بدوره ، القطرات الاولى الصغيرة
من العرق ، كان صاحب المطعم قد وصل الى مرحلة بات يسبح
خلالها فى عرقه .

وهو ما جعل بيتشام يقلب فى ذهنه افكاراً كهذه :

— الى هذا الحد العظيم يفوق تأثير العوامل الروحية كل تأثير
للعمليات الجسدية البحتة . حقا ان الجسد الانساني كله في قبضة
الذهن والروح معا !

والحقيقة ان التأثير المخيف لذلك الشقاء الداخلى الطاحن لم
يقتصر على هذين السيدين وحدهما بل تخطاهما الى السادة
الآخرين أيضا ، فانعكس على مظهرهم وسلوكهم . فينى مثالا ،
الذى كان ، فى أفضل حالاته ، جيانا رعيديا ، أخذ يلطم كالنساء ،
ومون أخذ ينهنه كأمرأة عجوز . لو شهدت عاملات المغطس ذلك
المشهد المحزن ، لعجبن كثيرا لذلك الضعف من جانب أولئك الرجال
الفحول الاقوياء . لكن المرأة مهيأة ، بطبيعة الحال (على النحو الذى
ثبته البحث العلمى) لتحمل الالم أكثر من الرجل .

حتى مستر بيتشام ، رغم استمتاعه بمشاهدة وجوه شركائه فى
تلك اللحظة الحاسمة ، لم يستطع أن ينسى الكارثة المخيفة التى أصابته
بزواج ابنته على غير ما يهوى .

عندما انتهى ايستمان من كلمته ، وخرج من حمام البخار ، كان
أول المتكلمين صاحب المطعم ، فقال بصوت أجوف شبهى أنه قد
أفلس اذن وحل به الخراب الكامل الشامل ، ويجد لزاما عليه ،
لذلك ، أن يرجو السادة الشركاء الا يعتمدوا عليه بعد اليوم ، وأن
اية أسئلة أو استفسارات قد يرغب أحد فى توجيهها اليه يجب أن
توجه الى محاميه .

وأضاف أن حماه رجل مسكين طاعن فى السن ، قد بلغ السابعة
والثمانين ، وأنه اقترض النقود التى أسهم بها فى الشركة من
تأمين الشيخوخة الذى يعيش منه ذلك العجوز المسكين ، بأمل تهيئة
مستقبل أفضل ، متحرر من الحاجة ، لابنته . وأن أطفاله الصغار
(أطفال كراول) فى الثامنة والثانية عشرة من العمر . وهنا قال
ايستمان ، وهو يجفف ساقيه السمينتين ، أن الامور لم تبلغ ذلك
كله من السوء ، لكن مون عارضه محتدا ، مما ضايقه كثيرا .

اذ ذاك وجه فينى انتباههم الى مرضه الخطير (الذى يحتمل
كثيرا ان يكون مميتا) ، وأعلن عن شكه فى أن يتمكن من الحصول
على المبلغ المطلوب . فأجاب ايستمان غاضبا أنه هو أيضا يستطيع
ان يفكر فى أوجه أخرى ، أفضل بكثير ، بنفق فيها الثلاثة آلاف
جنيه المطلوبة . أما البارون فلم ينبس بكلمة . فقد أنفق أهله الكثير
على تربيته .

بينما تلك الممعة دائرة ، كان كوكس قد أنتهى من تمريناته الرياضية وبات بوسعه أن يستدير الى أغنامه فيوجه اليها طعنة الموت . كان مرتديا لباس استحمام وردى اللون ، وحذاء أسود من المطاط . قال لهم :

- سادتي ، نحن لم ننته بعد . لقد سمعتم الثمن السدى تستطيع شركتكم ان تحصل فى مقابله على سفن حقيقية تصلح لان تبيعها شركة محترمة الى حكومة صاحبة الجلالة . ولا أظنكم ستدهشون اذا علمتم أن النقود وحدها لاتستطيع أن تصلح مافسد وتخرجكم من هذه الورطة . فهذه السفن الجديدة ، مثلا ، لايمكن الحصول عليها مقابل النقود فحسب .

فى تلك اللحظة بدأ كراول يضحك بغير صوت . جلس فى مقعده الحشبي ، عائما فى غرقه ، وقد حل به الخراب الكامل ، فأخذ يهز رأسه الشحيم ويضحك بغير صوت .

تلك الضربة الثانية لم تصبه بشيء ، لان الضربة الاولى كانت قد أجهزت عليه . رمقه كوكس بارتياح ثم استطرد قائلا :

- ليس لدى شك فى أنكم ، بعد كل هذه الخيبة ، قد فقدتم كل ثقة فى أنفسكم . لكن المصيبة أن ذلك الشعور ليس مقصورا عليكم . فليستم الوحيدين الذين فقدوا كل ثقة فى شركة النقل البحرى . نحن أيضا فقدنا ثقتنا فيها . وصديقى زميل الدراسة الذى فى الاميرالية لا يقبل أن يستمر فى التعامل مع شركتكم الا اذا أدت أنا بنفسى شخصا كل أعمالها .

وهنا ازداد انهيار السادة الشركاء الذين كانوا جميعهم - باستثناء صاحب المطعم - عرايا ، وبالتالي فى تلك الحالة المحرجة التى يقال - طبقا للتعاليم الدينية - أنهم سيقفون بها ، فى خاتمة المطاف ، أمام عرش الله . دفع بيتشام مدلكه السمين جانبا ، وهم جالسا عنى منضدة التدليك المخلخلة . فذلك الذى يقوله اللعين كوكس كان جديدا عليه مثلما كان جديدا على الاخرين .

لكن كوكس لم يلتفت الى أى منهم ، فاستمر فى قوله غير عابىء ، باعتبار أن مايقوله لهم أمر مقضى به ومنته :

- وفى رأينا أنه قد يكون بالوسع تسوية هذه المسألة المؤسفة على الوجه التالى : فشركتكم قد دفعت حتى الان ٨٢٠٠ جك ، ثمنا لاشياء معينة ، لا علم لنا بها ، ونفضل ألا نتحدث عنها .

وحسبما سمعت ، يبدو انكم انفقتم مبلغ ٥٠٠٠ جك على اصلاحات معينة قصد بها تحسين تلك الاشياء التي اشترت . وفي الوقت ذاته قبضتم من الحكومة مبلغ ٥٠٠٠ جك . وطبقا للاتفاق المبرم بيننا ، تلتزمون قبلي بدفع سمسرة قيمتها ٢٥٪ من ثمن البيع ، اى قرابة ١٢٢٥٠ جك ، ولصديقى الذى دفعتم له حتى الان ٥٠٠٠ جك ، مبلغ اضافى قدره ٧٥٠٠ جك على دفعتين ، كما اوضح لكم شريككم السيد ايستمان منذ قليل . وبالإضافة الى تلك المدفوعات سيكون هناك طبعاً مبلغ ٣٨٠٠٠ جك ، لشراء السفن الجديدة . فيكون حاصل جمع ذلك كله قرابة ٧٥٠٠٠ جك ، ويصل اجمالى ماتقبضونه من الحكومة ٤٩٠٠٠ جك ، بالإضافة الى مبلغ ٢٠٠٠ جك اصرح من الان بانى على استعداد لدفعه مقابل تخليصكم من الاشياء الثلاثة التى اشترتها شركتكم ولا اود ان أحدها ، فلست معامياً . ولا تنسوا ان مستشاركم الهندسى قدر قيمتها بما لا يزيد على ٢٠٠ جك ، لكنكم انفقتم على اصلاحها حتى الان ٥٠٠٠ جك ، وأنا أحب دائماً ان اتوخى العدل فى تقديراتى . فاذا ما خصمتم هذه المقبوضات الاخيرة من اجمالى مدفوعاتكم لوجدتم ان خسارتكم فى جملتها لن تتجاوز ٢٦٠٠٠ جك . ولست بحاجة طبعاً الى ان اذكركم بأن البديل الوحيد لذلك هو السجن عشرين عاماً ، وهو مصير اعتقد انكم توافقوننى الرأى على أنه رحيم للغاية بعد ما حاولتم اتمامه من صفقات مريبة فى هذه الآونة الحرجة . أيها السادة . ان الطريق الوحيد والاخير للخلاص مازال مفتوحاً امامكم . وطريق الهلاك أيضاً . فاذا شئتم السير فى الطريق الاخير فانى على استعداد لان أعيد اليكم الشيكات التى يبلغ مجموعها ٥٠٠٠ جك والتى اعطيتموها لى لحساب صديقى الذى فى الاميرالية فهى مازالت معى .

لم يشك من باتوا يعرفون كوكس جيداً من الشركاء فى ان تلك الشيكات كانت لا تزال معه ، كما لم يشكوا لحظة فى تصويره للموقف كله . بدا الان واضحاً ان العملية كلها رتبت بدهاء شديد من جانب كوكس ، منذ اول خطوة فيها . وان كافة الاطراف متورطة فيها حتى العنق ، باستثناء كوكس وحده . فذلك المسئول الذى فى الاميرالية سيجد نفسه فى ورطة خطيرة ، حتى بعد اعادة شيكات الرشوة وبعد حلف اليمين كذباً والشهادة زوراً ، لان شيئاً لن يجدى فى تغيير الواقع المائل فى أنه اشترى للحكومة سفناً لم يرها

أو يعاينها . أما الشركة فان ورطتها أفضح ، ولن يجديها في شيء أن تطير رقبة ذلك المسئول - الذى فى الاميرالية - أو لا تطير . لأن الشركة ، يعلم من أصحابها جميعا ، وبقصد مبيت ، اشترت سفنا نخرة لا تصلح لركوب البحر ، رغم تحذيرات الخبراء ، لكى تنصب بها على حكومة صاحبة الجلالة فى زمن الحرب .

تركهم كوكس ينضجون على مهل . تم طلب أن يفوضه الشركاء السلطة كاملة ، حتى يتمكن من انتهاء العملية على أتم وجه ، خطوة بخطوة . ولكن بشرط : أن يقوم الشركاء بكل شيء حتى لحظة التسليم النهائى للسفن الجديدة الى الحكومة واذذاك فقط ، بعد أن تصبح العملية نظيفة وقانونية مائة فى المائة ، يدخل هو فى العقد مع الحكومة : أى فى اللحظة التى تكون السفن الجديدة السليمة قد باتت معدة فيها للحلول محل التوابيت العائمة القديمة .

والى أن يتم ذلك يجب أن تستمر عمليات الطلاء والترميم على السفن القديمة على قدم وساق ، خشية أن يقع تفتيش مفاجئ . وهكذا فان السيف يظل معلقا فوق عنق شركة النقل البحرى حتى اللحظة الاخيرة .

ولم تكن الشركة قد عادت بها قدرة على الاحتجاج . وهكذا فانه عندما دعاهم كوكس الى حفل غداء صغير فى مطعم مجاور ، احتفاء بتلك المناسبة ، لم يجد أحد منهم فى نفسه القدرة على الرد عليه . فقال السمسار بسرعة من لاوقت لديه أنه لا يستطيع بأى حال من الأحوال أن يمهلهم أكثر من ثمانية أسابيع لتسليم السفن الجديدة ، ثم انصرف مسرعا قبل أن يخرج أحد من الآخرين .

قرر الشركاء أن يكلوا حساب كافة النفقات الجديدة الى ايستمان وبيتشام ، وأن يجتمعوا ثانية ، بمجرد أن يكون هذان الاثنان قد اتما حساباتهما ، فى يوم الاثنين المقبل على أكثر تقدير . فقد بلغت احوال الشركة مرحلة بات من المستحسن فيها تجنب أية اجتماعات رسمية ، والتظاهر بأن اللقاء صدفة فى أحد المطاعم يكفى .

أما بيتشام فكان فى حال يرثى لها من القلق . كان يحاول الان جاهدا أن ينضم الى جانب كوكس . ولكن كيف ، وابنته ذاتها لم تعد ملك يمينه يستخدمها كيف شاء ؟ من يدرى ما الذى سيحدث له الان .

فى صباح كل يوم كان يذهب الى رصيف الميناء حيث كانت

السفن الثلاث تموج بالحركة كخلايا نحل . فى كل مكان كان رجال يعملون المناشير والمطارق ويضعون طبقة من الطلاء ، وقد وقفوا معلقين على سقالات متأرجحة ، أو فى أقفاص هشة معلقة من السلك . فيقف بيتشام ضائعا وسط ذلك النشاط وجسده كله ينتفض . كانت الشركة تقتصد الى أقصى حد فى المواد : الخشب ، والحديد ، وحتى الطلاء ، وتشترى ماتشترية منها من أرخص الاصناف . ومع ذلك فان هذه العملية المهولة كلها كانت خسارة كاملة ومالا يتبخر فى الهواء .

بعد ذلك كان بيتشام يسارع بالعودة الى ورشته . وهنا أيضا كان العمل على قدم وساق ، والشحاذون يتوافدون على المكتب ليدفعوا اتاواتهم الى بيرى الذى يحصل النود منهم وهو يقارن حصيلة كل منهم بأرقام مسجلة فى قائمة بيده ، ويستمع الى ما يقدمونه من أعذار لانخفاض ايراداتهم باذن خيرة متشككة ، ثم يفصل فى المشاجرات التى تنشعب بينهم بسبب التعدى على المناطق ، ويرتب مايتخذ من اجراءات ضد الدخلاء . وفى حجرات المشغل تتراص الفتيات ، محثيات الظهر على المناضد الطويلة . فالعمل هنا لاينتهى . طلبيات ورشة الشحاذة عندما يتم تنفيذها ، تعقبها طلبيات أخرى تورد الى دكاكين الملابس القديمة وتجار الروبايكيا . وفى غرفة أخرى يجلس صناع الآلات الموسيقية مكبين على اصلاح الآلات النفخ ، والقرب الاسكتلندية ، والآلات البيانولا ، بينما عدد من الشحاذين يستمعون الى الحان جديدة ، ويأخذون وقتا طويلا قبل أن يقر قرارهم على لحن بعينه . أما الفصول المدرسية فالتعليم فيها لاينقطع ، فى مختلف فروع المعرفة . فى أحد الاركان وقفت عجوز مفضنة تعمل فى المساء حارسة فى أحد مراحيض السيدات تعلم فتاة فى مقتبل العمر كيف تبيع الزهور .

وقف بيتشام وسط ذلك النشاط يتنهد . ما جدوى هذا كله وسمع المرء مشدود فى كل لحظة الى وقع أقدام على الدرج تأتى حاملة النبا المخوف بأن البوليس ينتظره بأسفل ؟

ابنته هى الملوثة فى كل هذا .

فنتيجة لشهوانيتها المفرطة التى لا تعرف حدودا ، والتى ورثتها بغير شك عن أمها ، وبسبب ما سهلته لها أمها أيضا من تجارب آثمة ، ذهبت البنت فسلمت جسدها الى شخص أكثر من مشئوم . ثم ان ذلك الزواج الفورى يثير ريبا شديدة، ويبدو محوطا بالغموض .

لا بد أن شيئاً مخيفاً قد وقع . لكن مبادئه فيما يخص التباعد
الواجب بين ذوى القربى كانت تمنعه من أن يخوض مع ابنته في
أحاديث حميمة مخجلة حول أخص شئونها . فوق أن الحديث عن
هذه الأشياء لا ينجم عنه إلا الضرر ، لأنها أشياء لا يجب أن تحدث ،
والكلام عنها يجعلها في حيز الممكن ، وبذلك يفقد المرء سلاحه
الرئيسي قبلها ، وهو رفضه أن يصدق أن شيئاً كهذا يمكن أن يقع .
والمهم فى ذلك كله أن بيتشام فى ميسس الحاجة الى ابنته .
وان زواجها المشئوم ذاك يجب أن يلغى . فهو لا يشك لحظة فى أن
كوكس لن يتردد فى قبول بولى زوجة له حتى بعد ما حدث لها .
فقد لاحظ لهفة السمسار العمياء فى ساوثمبتون ، وبات موقنا من
أن ذلك الفاجر عبد لشهواته الجسدية .

ومن جانب آخر فان ماكهيث يبدو متساهلاً بشكل لافت للنظر
فيما يخص بقاء زوجته بعيدة عنه تحت سقف أبويها ، ولا يحدث
أية متاعب حقيقية ، بل ويدع نفسه يلقي خارجاً فى عرض الطريق
دون أن يتخذ أى إجراء مضاد ، فوق أنه ، على حد علم بيتشام ،
لم يصرح باسم زوجته ل أحد حتى الآن . لا شك أن تهديده بحرمان
بولى من الميراث قد أحدث الأثر المطلوب . من الواضح للغاية أن
الرجل متلهف الى النقود . ولعله فى حاجة ماسة إليها . والفتاة
نفسها تبدو راضية ببقائها فى بيت أبويها ، ولا يبدو أنها تخرج للقاء
زوجها إلا فيما ندر .

ليس من شك فى أن دكاينه حرف « ب » هذه فكرة بارعة ،
وهى تستدرج الفقراء الى أنفاق مدخراتهم فيها بطريقة تنم عن
ذكاء . لكنها فى الوقت ذاته ، بدائية للغاية ، فهى فى حقيقة امرها
لا تزيد عن كونها جحوراً مظلمة ، مظلمة حيطانها بالجير ، وقد
كومت فيها ، كيفما اتفق ، أكوام من البضائع على أرفف خشبية
عارية ، وأصحابها أناس ينضحون بالفقر والقدارة ، لا يفارق
العبوس وجوههم . لكن من أين تأتى كل هذه البضائع الرخيصة ؟
مازال مصدرها سرا غامضاً .

ولقد حاول بيتشام بالفعل - عن طريق شحاذه - أن يتصل
ببعض دكاكين حرف « ب » . لكنه لم ينجح فى ذلك ، لان أصحاب
الدكاكين تشبثوا بصمت مطبق ، وأظهروا عداء شديداً تجاه
الشحاذين الذين يكرههم كل التجار عادة ، فوق أن أحدا منهم لم

يكن في حقيقة الامر ، يعرف شيئا عن مصدر تلك البضائع .

لكن بيتشام حقق نجاحا أفضل من ذلك فيما قام به من تحريات حول ماضى ماكهيث . فقد كشفت تلك التحريات عن فترة بأكملها من عمر الرجل ، طالت بضع سنين ، بدت مغلفة بذلك الغموض الذي يجعل سير الكثيرين من كبار رجال الاعمال مفتقرة عادة الى البيانات الدقيقة . « فعمالقة الصناعة والمال » يظهرون عادة ، فيما يبدو ، بطريقة مفاجئة ومباغطة للغاية ، من قلب الظلام ، بعد كذا وكذا من السنين التي يكونون قد عانوا « شظف العيش » فيها ، والتي لا تتضمن سيرهم أى بيانات عنها .

اتجه بيتشام في تحرياته الى منافسى ماكهيث . فادعى صفار المنافسين أن الرجل في شبابه غير البعيد أدين في أكثر من زبجة زائفة ، وأطلقوا على الفتيات اسم « عرائس حرف ب » ، لكنهم لم يستطيعوا أن يقدموا أية بيانات أو عناوين تؤدي الى الاتصال بهن . ولم تكن في ذلك كله جدوى . لان مثل هذه الشائعات المبهمة لا يمكن أن يفعل المرء بها شيئا . لكن شيئا واحدا بدأ مؤكدا: أن حياة الرجل يمكن تعقبها ، رجوعا وهبوطا ، بشكل أو بآخر ، الى العالم السفلى : عالم الجريمة المنظمة ، وأن أساليبه كمجرم ناجح كانت ، الى عهد قريب ، أكثر جراءة ، وقسوة ، وأشد صراحة في خروجها على القانون ، مما هي الان .

من بين المصادر التي لجأ اليها بيتشام في تحرياته ، مجلة « العاكس » ، التي ادعت في وقت ما أن تحت يدها أدلة تثبت اتهامات معينة في حق صاحب محلات حرف « ب » . لكن محررى المجلة - عندما ذهب اليهم بيتشام - كانوا يعانون من فقدان ذاكرة جزئى فيما يبدو ، لانهم قالوا أنهم لا يذكرون من تلك المسألة الا أشتاتا مبهمه ، ثم غمغموا شيئا عن عدم كفاية الادلة . وهكذا فان بيتشام اضطر أن ينصرف دون أن يكتشف شيئا . لكنه أحس أن أولئك الناس يعرفون وقائع معينة ، وأن تحت أيديهم بالاضافة الى ذلك ، أدلة مادية . لكنه ليس لديه وقت . لم يبق أمامه الا ثمانية اسابيع : فاما ابنته واما الدفع .



لم يكذب كراول ، صاحب المطعم . فقد تبين أنه لم يكن يملك عمالا يدفعه فحسب ، بل وأنه كان ينتظر أرباح شركة النقل

البحرى على أحر من الجمر . فلما ضاعت الصفقة أفلس افلاساتاما .
وبالإضافة الى ذلك ظهر البارون - وكان شابا في مقتبل العمر -
بوجه مكفهر في أحد اجتماعات الشركاء ، وأعلن أنه عاجز عن
الدفع . قال انه يملك اقطاعية مرهونة في اسكتلندا ، وأنه موشك
على أن يوضع تحت الوصاية . جرت تلك المقابلة في مكتب بيتشام ،
وحضرها ايستمان . عامل الرجلان الفتى كما لو كان حيوانا
مريضا . لكنه صارحهما بأنه مازال هناك احتمال واحد : أن
يتزوج فتاة ثرية ، وأن هناك بالفعل امرأة اميركية مطلقة ، فاحشة
الثراء ، على استعداد لشراء اسمه العريق ، وثقافته الاوربية ،
وانها منجذبة بوجه خاص الى الاثاث العتيق الذى شاهده في
بيته الريفى ، والى الكراسى فوق كل شيء .

لم يكد يتبين للرجلين من استجواب الفتى أن تلك المرأة
الاميركية ، رغم قبحها ، ابنة أحد ملوك اللحم على الشاطئ الاخر
من الاطلنطى ، حتى هدداه بالفضيحة الكبرى التى ستلوث اسم عائلته
إذا ما لحق بهم الخراب وافلست شركة النقل البحرى وألقى
بأصحابها فى السجون . فخرج الفتى مذعورا بعد أن وعدهما بأن
يحسن معاملة تلك الثرية الاميركية ، بصرف النظر عن ساقىها
اللتين تشبهان ساقى حصان . لكن البارون ظل - رغم ذلك -
من اللبئات الضعيفة فى صرح شركة النقل البحرى الذى كان موشكا
على الانهيار .

سبق اجتماع الشركاء الذى حدد لعقده يوم الاثنين ،
اجتماع جانبى بين كوكس وبيتشام . استمع كوكس بهدوء بارد
الى نيا الانهيار النهائى لكراول ، ونبا الضائقة التى يمر بها
البارون ، ولم يزد تعليقه على التباين عن قوله انه لا يملك الا أن
يتعامل مع شركة النقل البحرى ككل ، وأنه ينصح بتقليم الفروع
الفاسدة من جذع الشركة الام ، محذرا فى الوقت ذاته من أن
الشركاء المطرودين يجب أن يكون هناك ضمان كاف لصمتهم المطبق .
ثم أخذ بعد ذلك يتحدث عن بولى . اعترف لبيتشام بأنه لا
يستطيع أن يكف عن التفكير فيها . قال ان تلك التجربة المخيفة
التي مر بها فى ساوثمبتون وشهدها بيتشام قد غيرته تماما من
داخلة . بمعنى أن خصالا حميدة كانت كامنة فيه ظهرت على
السطح بفتة . وأنه بات يحس فى نفسه الان ظمأ غريبا الى الطهر
والنقاء . وان بولى الان أصبحت منه المعبود حقيقة . وانها

تترأى لعينيه كنيع ماء سلسبيل في صحراء قيظ محرقة . وأن يضع دقائق يقضيها في الحديث معها تسبغ قداسة على الاسبوع كله ، بجده ولهوه . قال ذلك كله ببساطة ، وهو ينظر الى بيتشام مواجهة ، دون أن تطرف له عين . فأصغى بيتشام بانتباه شديد والطمأنينة تشيع في نفسه مع كل كلمة . أدرك الان أن تسوية مسألة السفن بينهما لن تصطدم بأية صعوبات . وفي اقراره نفسه كان محبذا بكل قوة لتعبيرات كوكس الحذرة . أعجب بالسفسار حقيقة لبراعته في اللف والدوران .

ذهب بيتشام الى الحمام التركي بمفرده . وجد الآخرين قد سبقوه وجلسوا في انتظاره . كانوا كلهم جلوسا على مقاعد خشبية ، في كامل ثيابهم ، رغم أن جو المفطس كان حارا ورطبا بدرجة لا تطاق .

أخبرهم بيتشام أولا بتوقف كراول والبارون عن الدفع . جلس كل من هذين المحترمين في مكانه ناظرا أمامه نظرة لاتحيد ، ولو أن ابتسامة ما أرتسمت على شفתי البارون .

استطرد بيتشام قائلا أن الخسارة الاجمالية ، كما قدرها كوكس تماما ، ستكون قرابة ٢٦٠٠٠ جك . أى أن كل شريك سيتحمل بمبلغ ٣٨٠٠ جك يجب أن يؤديه الى الشركة . فمن مصلحة الجميع أن تجرى الامور بيسر وهندوء ، وبغير فضائح ، ما أمكن .

ثم عرض عليهم أن يحصل لهم على معاونة البنك الذي يتعامل معه ، وهو بنك الائتمان الاهلى ، بشرط أن يفوضوا اليه سلطة ادارة الشركة والتصرف في شئونها كاملة .

تمددوا كلهم في مقاعدهم يتصببون عرقا ويومثون برءوسهم علامة التسليم . حتى كراول والبارون هزا رأسيهما ببلاهة .

نظر بيتشام الى هذين الاخيرين بصرامة ثم أخذ يتكلم ثانية . فطالب صراحة بأن يوقع كل من كراول والبارون على سندات اذنية بحصة كل منهما في الخسائر وأن يوقعا في الوقت ذاته على اعتراف تفصيلي من جانبهما بمسئوليتهما التضامنية في كل ماحدث فيقرران انهما باعا الى الحكومة السفن الخربة القديمة ، بعد ان عايناها ، وسمعا رأى خبير بحرى في مدى صلاحيتها للبحار ، وتبيننا انها لا تصلح البتة ، وانهما رغم ذلك لم يتورعا عن قبض

مقدم ثمنها من حكومة صاحبة الجلالة فى زمن حرب وبلاء ، مؤكدا أن هذا المستند الضار للغاية لن يستخدم طبعاً ، وسوف يعاد الى موقعيه بعد أن بسددا حصتهما فى التزامات الشركة ، لأنه لا يمكن ان يستخدم استخداماً فعالاً فى حقهما دون أن يسىء الى سائر الشركاء ايضاً ، إلا أنه سيضمن للشركاء أن يقفل كل من كراول والبارون فمه جيداً فلا يأخذ فى الثرثرة واقشاء اسرار الشركة .
وقع البارون الوثيقة والسندات الاذنية باستسلام واضح ، دون أن يفهم من أمره شيئاً الا أنه بات مقضياً عليه الان ان يتزوج « العنزة العجوز » بلا أدنى تأخير أو مماطلة . أما صاحب المطعم فوقع نعم ، لكنه وقع توقيع انسان أصابته لثة .

أخذ يهذى قائلاً أنه لا يستطيع أن يلحق مثل هذا العار بزوجته وأبيها العجوز البالغ من العمر سبعة وثمانين عاماً . كيف ، كيف بالله يعترف على نفسه بأنه باع سفناً خربة نخرة غير صالحة للإبحار لحكومة بلاده فى زمن حرب وبلاء ؟ لا يمكن . حموه كان ضابطاً فى الجيش ، كان كولونياً . ثم انه لن يجرؤ ، بعد توقيع وثيقة كهذه ، على النظر فى عيون أطفاله الصافية البريئة ، لا يجب أن يكون لهؤلاء الملائكة أب مجرم . لقد قاوم الاغراء دائماً وامتنع عن الانغماس فى أى عمل غير شريف بغية الحصول على المال ، وذلك هو السبب فى أنه وصل الى تلك الحالة من الافلاس . فالشرف عنده أعلى من كل خسارة مادية . قال والدموع تسح على خديه وهو يوقع وأنفه فى الرغام :

— خربتكم بيتى أنا الآن رجل محطم .
وأجهش باكياً ، فأحدث أثراً بالغ السوء فى نفوس الآخرين ، وسب لهم غيظاً شديداً .

قال ايستمان لشريكه وهما ينصرفان :

— هذا الرجل كراول . انه ليس انجليزياً بالمرّة . فوق أنه سوقى .
أنظر الى البارون مثلاً . لقد وقع كما يجب أن يقع الرجال . وسوف يتزوج مخلوقة بشعة بحق ، دون أن يشكو أو يعول ، كرجل الحقيبة .
أن المرء قبل أن يدخل فى شركة مع أحد يجب أن يتأكد من أصل شركائه وفصلهم .

أما بيتشام فمكتبه التعاسة بعد ذلك الاجتماع . فالعقد مع الحكومة سيسلم الى كوكس بمجرد أن تكون شركة النقل البحرى

قد أوفت بتعهداتها قبل الحكومة على اكمل وجه وباعتها سفنا تستطيع حقا أن تتركب البحر ، وهو - حتى الآن - لم يتوصل الى اى اتفاق ملزم مع كوكس يضمن له نصيبا فى الارباح الهائلة التى سيحققها السمسار من هذه الصفقة اللولبية ، بل ولم يحصل منه حتى على وعد بتعويض خسائره . ولم يكن بيتشام من السذاجة بحيث يتصور أن اتفاقا كهذا يمكن أن يتم بينه وبين كوكس ، دون أن تكون بولى قد أدخلت فى الصفقة .

وقد تجنب بيتشام التفكير فيما يمكن أن يحدث اذا ما فشل فى التوصل الى اتفاق مع كوكس . فالشركة الآن أصبحت قائمة على ثلاثة فقط يمكن تحميلهم بخسارتها الفادحة هم ايستمان ، وفينى ، ومون . فاذا لم يتسن احتلاب المال اللازم لشراء السفن الجديدة من هؤلاء الثلاثة وحدهم ، سينتهى الامر بكارثة فظيعة .

فهو الآن محتاج الى كوكس أكثر من اى وقت مضى . جلس ذات مساء الى بولى فحدثها عن السمسار ، وقال لها انها يجب أن تكون لطيفة معه . ولا يجب - تحت اى ظرف من الظروف - أن تلعه يكتشف شيئا عن حكاية زواجها . ثم أوضح لها أنه متورط مع كوكس فى عملية متعلقة بتوريد عدد من السفن ، وأنه متورط فى الحقيقة حتى عنقه ، بحيث « أن البيت والورشة وكل شيء نملكه يمكن أن يباع ونجد أنفسنا مشردين فى الطريق » .

فلم تكذب بولى تسمع هذه الانباء المفزعة حتى نظرت حولها بذعر ، وكأنها تودع الغرفة الودود المألوفة ، بأرضها العارية النظيفة ، وموقدها ، وستائرهما الموسلين ، وأثاثها الموجدانو العتيق . كانت تحب البيت القديم الذى نشأت فيه حبا شديدا ، خاصة أفنيته وشرفاته الخشبية . وفى تلك الليلة ، لان حديث أبيها دار حول السفن ، حلمت أن البيت ، الذى يتألف فى الواقع من ثلاثة بيوت ، كان يفرق فى البحر ، وأن الامواج أخذت تدخل من أبوابه . فى صباح اليوم التالى كانت قد أوشكت أن تحزم أمرها على التضحية المطلوبة منها . قالت لنفسها :

- والله انا لا أريد أن يحملنى أحد بوزر ما قد يحدث لنا ، ولا أريد أن ادع احدا يقول ابنى تخاذلت عن التضحية . نعم ليس من السهل على البنت منا أن تعطى نفسها لرجل لاتحبه ، خاصة متى كان شكله مثل شكل مستر كوكس . لكن الاسرة هى الاسرة ، والانانية خصلة سيئة . لا يجب أن يفكر الناس فى أنفسهم فقط .

ظلت في فراشها ، فأخذت تفكر في البروش الذهبي الذي رآته في بيت كوكس والذي كان قد بات لا ينفصل في ذهنها عن السمسار ثقيل الظل ، عندما أرادت الحصول على ذلك البروش أرادت ذلك لتبنيه وتحصل على الخمسة عشر جنيها استرلينيا التي كانت تحتاجها آنذاك على وجه السرعة . وهي الآن ليست بحاجة إلى تلك النقود . لكنها مازالت تود أن تحصل على ذلك البروش .

بعد الغداء ذهبت إلى كوكس بخطاب من أبيها . تكلفت البرود والتباعد مع أبيها وهو يعطيها الخطاب . فقد انتهت إلى أن أباه لم يكن معرضاً للخراب كما قال ، وإن كل ما في الأمر أنه لا يطيق ماك ويريد أن يخلصها منه بأية طريقة . ولقد تكلفت نفس البرود مع كوكس ، ولم تكذ تنظر إلى البروش الذي كان لا يزال ملقى على المكتب ، حتى أدركت أنها لا تزال واقعة تحت تأثيره .

اجلسها كوكس في مقعد هزاز ، بعيداً عن المكتب ، وأعطاهها عددًا من الكتب مجلدة تجليداً أنيقاً . لكنها لم تنظر إلى تلك الكتب وهو جالس يقرأ الخطاب ، فهم واقفاً ، وخرج من الغرفة . وعندما عاد كان وجهها ملتهباً .

ولم يكن التهاب وجنتيها لما رآته في كتبه ، ولكن لأنها كانت قد عقدت العزم على الحصول على ذلك البروش . قالت لنفسها :

- والله إن كان على استعداد أن يعطيني إياه حقاً فإن الأمر لن يستغرق خمس دقائق . وربما أقل من ذلك . لأنه لا يمكن أن يعطى شيئاً مقابل لأشياء ، بمثل هذه السحنة . والبروش يساوي ٢٠ جك على الأقل ، وسيكون شكله جميلاً على ثوب مفتوح . طبعاً لن أدعه يحصل على شيء أكثر من قبلة . أو ، على الأكثر ، يضع ذراعه حول خصري . هذا ثمن غير باهظ في سبيل الحصول على حلقة كهذه .

هناك فتيات في مثل سني يضطرن إلى ما هو أسوأ ليحصلن على لقمة العيش أو أيجار المسكن . الحقيقة أن الرجال مجانين إذ يعطون بسخاء هكذا مقابل هذه الأشياء . لكنهم خلقوا هكذا !

وتنهدت ، وبطبيعة الحال اتقدت وجنتاها ، بحيث تصور السمسار عندما عاد إلى الغرفة أنها رأت ما أرادها أن تراه في تلك الكنبة المؤذية ، وأنها واقعة تحت تأثير ماراته . فعبر الغرفة بثبات ، وهو يلوح بالرد ، الذي كتبه على خطاب أبيها ، حتى يجف حبره ، وانحنى عليها . هممت الفتاة واقفة عندما رأت وجهه .

كان قد اطمأن إلى أن اخته ليست في البيت . وضع الخطاب على

المكتب ، وإستدار فجأة فعانق بولى . ولم تقاومه هذه الاخيرة
بشدة ، وان كانت قد أحست بالاسف لكونها لم تحصل على البروش
أولا وتطمئن عليه في جيبها ، لكنها استسلمت على أى حال لان الرجل
بدأ كالمجنون من فرط مابه . ومع ذلك فانها لم تستمتع بالامر
كثيرا ، لانها فى منتصف الطريق بدكرت ماك ، واحست أنه حرى بألا
يوافق على أى شىء من هذا كله .

وعندما انصرفت من بيت كوكس ، كان مداد رده قد جف . عادت
الى البيت فوضعت الخطاب على مكتب أبيها ، ثم صعدت الى غرفتها
حيث أخذت تحزم حقيبتها . وبعد نصف ساعه لا أكثر كانت قد
غادرت البيت من الباب الامامى ، فى غير خفية .

كانت قد سمعت أن ماكهيت يقضى معظم وقته مع امرأة أخرى
هى تلك المرأة فانى كرايزلر التى تدير محل العاديات قرب جسر
ووترلو .

سرعان ما اكتشف غياب بولى . فسهر الاب والام فى انتظارها الى
مابعد منتصف الليل . وقف بيتشام الى النافذة كدأبه ، فأخذ
يقول :

- إذن فقد جاء وأخذها رغم كل شىء . يظن أنه يستطيع أن يفعل
ذلك بغير عقاب . طبعاً . ان أمثاله لا يعرفون معنى القانون . كلما
أراد شيئاً مد يده فأخذه ببساطة . ومتى أحس رغبة فى قضاء
الليلة مع ابنتى جاء فأخذها من بيتى غير عابىء وذهب فقضى الليلة
معها . بشرتها اللعينة هى السبب فى كل هذا . جعلته يجن بها .
وانا الذى دفعت ثمن كل شىء . لكن ماحيلتى فى شهوانية أمها البليدة
وبلاقتها هى التى عادت عليها من قراءة الروايات ؟ هذه هى النتيجة .
ولكن ماهذا الذى أقوله ، كما لو كان الامر يتعلق بالحب حقاً ! كما
لو كان رجل مثل هذا يشتهى امرأة لشيء الا لبائنتها ! انه يريد أن
يحصل على مالى ، فيأتى ويأخذها . وأنا الذى أفنيت عمري فى
سبيلها . ما الذى يجعلنى أقضى العمر كله مع حثالة الانسانية ؟
هذا الرجل ماكهيت أشبه بحيوان القرش ! وأنا اذا تنازلت له عن
ابنتى الوحيدة التى هى عضدى فى شيخوختى وسندى الوحيد ،
سيسقط البيت كله على رأسى . والجوع يتهددنى . والحراب أيضاً .
لكن بولى لم تعد ، لا تلك الليلة ، ولا بعدها ، الى أن ألقى القبض
على زوجها .

وفى الوقت ذاته لم يكتشف مستر بيتشام أن ابنته ، بدلا من أن

تثير شهية السمسار ، كما أرادها أن تفعل ، ذهبت فأشبعتها .
طيلة الايام القليلة التي أعقبت ذهاب بولى ، أخذت مسز بيتشام
تشرب الخمر أكثر من أى وقت مضى ، ودأبت على الذهاب الى
العسكرى السابق فيوكومبى ، وهى فى تلك الحالة من السكر ،
لتحدثه عن متاعبها .

لم يكن العسكرى الاعرج قد غفر لبولى سرقة كتابه ، حتى بعد
أن استعاد الكتاب . فى بداية الامر أحجم عن استرداده ، على سبيل
الكبرياء . لكنه مالبت أن خسر معركته مع نفسه ، فاستسلم لرغبته
التي لاتقاوم فى استعادة كتابه ، وصعد الى غرفة بولى ذات يوم ،
ساعة الفداء ، فأخذه .

لكن حبل دراساته الهادئة فى دائرة المعارف مالبت أن انقطع بسبب
الاشياء التي أخذت مسز بيتشام تحدثه عنها .
عندما أخبرته الام الملتاعة بأن ابنتها التعمسة بولى قد ذهبت
فتزوجت ذلك الرجل ماكهيث ، تذكر تلك الفترة السوداء من
حياته ، عندما فقد ساقه ، وسرح ، وسرقت منه نقود التعويض .
فأوته زوجة عسكرى آخر فى بيتها . صاحبتة هذه كانت تدعى مارى
مسوير ، وتدير دكانا من دكاكين حرف « ب » . ولسوء الحظ لم
يلزم العسكرى فيوكومبى الحذر ، فأفلتت منه بمسمع من مسز
بيتشام ، بضع كلمات تشير الى هذا كله . فكان أن استدعاه مستر
بيتشام فى المساء الى المكتب ، وكلفه بمهمة يقوم بها .

ففى الميناء كانت ثلاث سفن نخرة ، وعدد من العمال يطيبون
هياكلها المتآكلة دون جدوى . تلك التوابيت الثلاثة الخربة ، قبل
أن تتحلل تماما وتفوص فى قاع البحر الى الأبد ، كان متعينا أن
تلعب دورا أخيرا رسمه لها ذهن ملتو فى رأس رجل اسمه كوكس .
ذلك الدور سيتمخض عن احتلاب مبالغ جسيمة من المال من عدد
من الجيوب ونقلها الى جيب مستر كوكس البارح . بين تلك الجيوب
المهددة بالخراب العاجل الناجز جيب يتمثل فى منشأة كبرى لبيع
الآلات الموسيقية النصف عمر فى شارع أولد أوك . ومن المتعين أنقاذ
هذه المنشأة من ذلك الخراب ، بأية طريقة ، وبأى ثمن .

قصة مقتل صاحبة الدكان

مارى سوير

فالقرش له انياب فى وجهه
تستطيع ان تراها
اما ماكهيث فلديه بدل الانياب مديّة
فى مكان لاتراه .

من شاطيء التيمز الطويل يسقط
انسان تبتلعه مياهه الخضراء فجأة
لم يقتله طاعون او يأخذه وباء ، ولكن
زاره ماكهيث فانتهدت أيامه .

سام ماير مازال مفقودا
وكم من رجل ثرى قد تم ترحيله
للعالم الآخر ، والى جيب ماكهيث انتقل ماله
ولا أحد يستطيع أن يثبت شيئا .

وعندما وجدوها ، جينى تاولر ،
والمديّة مغمدة فى صدرها ،
كان ماكى العظيم على الرصيف يتمشى ،
لا يعلم من أمرها شيئا .

واين هو الفونس جليت ، الرجل الحوذى ؟
وهل سرى ضوء النهار ثانية ؟
لعل هناك قلة من الناس تعرف ...
لكن ماكى لا يعلم من أمره شيئا .

سبعة اطفال ورجل عجوز
اجترقوا احياء في حي سوهو . . .
ووسط الحشد يقف ماكي ليتفرج
لايسأله أحد ، ولا يعلم هو من الامر شيئاً .

فالقرش تصطبغ زعانفه بلون قرمزي
عندما يسيل دم ضحيته ، ويحمر خطمه ،
لكن ماكي العظيم لا يخلع قفازه أبداً
فلا يستطيع أحد أن يرى الدم على يديه .

(جرائم ماكي السكين)

مستر ماكهيث

لو سألت أحد اللندنيين - خاصة من انطبق عليه وصف « رجل الشارع » منهم - رأيه في خطورة الدور الذي يلعبه في حياة العاصمة مشاهير الرجال من أمثال « جاك السفاح » ، أو ذلك القاتل المجهول الذي اشتهر باسم « السكين » - لبراعته في استخدام المدينة - لقال لك اللندنى أن دور هؤلاء السادة ، رغم الضيت الذائع ، ليس خطيرا ، من منهم يستطيع أن يطمع ، بمجهوداته الفردية المحدودة ، في منافسة الجنرالات الكبار الذين يديرون دفعة الحرب في الترنسفال ؟ فوق أن هؤلاء الاواخر يمثلون تهديدا أعظم لأعداد من الناس اكبر ، بما لا يمكن أن يقاس اليه جهد اشد أبطال السكاكين الفرديين نشاطا واستماتة في أداء الواجب . ومع ذلك كله ، فان شهرة السفاح ، المعروف باسم « السكين » ، أطفأت بريق كثيرين من أولئك الجنرالات الذين يخوضون بجيوشهم حرب البوير ، لدى الاهالى ، في احياء شعبية كحى لايمهاوس وحى وايتشابيل . ولا غرو ، فأولئك الناس المكديسون فى مساكن وايتشابيل الشعبية بضخامتها الحجرية التى تعطى احياء بالكهوف ، خير من يدرك الفرق بين انجازات أولئك الجنرالات المرفهين وانجازات أبطالهم المحليين . بطل مثل ماكى السكين مثلا ، كانوا يدركون بجلاء أنه ينفذ جرائمه - التى يخططها ببراعة - معرضا نفسه لمخاطر شخصية أعظم من أى خطر يمكن أن يتعرض له أى جنرال من أولئك الابطال الرسميين الذين تكرسهم الكتب والصحف والمجلات .

فلايمهاوس ووايتشابيل يتفردان بتاريخهما الخاص وبمنهجهما فى تلقينه . ذلك التلقين يبدأ منذ الطفولة المبكرة ويقوم به اناس فى مختلف الاعمار . لكن أفضل أولئك المعلمين جميعا الاطفال أنفسهم ، لانهم - بفضل الطفولة الذى لايشبع ، وقدرتها على الاستيعاب - يلمون بكل كبيرة وصغيرة عن الأسر المحلية الحاكمة ، فى مختلف مجالات الحياة ، فى أحيائهم .

بين الدروس الاولى ، المتعلقة بتكنيك البقاء ، التى يتعلمها اهل تلك الاحياء منذ الصغر ، أن السادة الحاكمين - فى أحيائهم - يعرفون

جيدا ، مثل قرنائهم من السادة الحاكمين الرسميين الذين تظهر
صورهم في الكتب المدرسية - كيف يعاقبون رعاياهم الذين يرفضون
أن يدينوا بالولاء الكافى وأن يؤدوا ما يفرض عليهم أداءه من جزية .
وهم - كغيرهم من الناس - يتبعون في ذلك كله تقنيينا غير مكتوب
يحدد ماهو صواب وماهو خطأ ، مايمكن أن يفعل وماالاسبيل الى
فعله ، لكن صفوفهم - بالضرورة - تضم عددا من الضعفاء اقل ،
لأن البوليس دائما في أعقابهم ، وهو مالا يحدث للاخرين . ومن الطبيعي
أنهم - مثل الاخرين تماما - يحاولون أن يظهرأ على غير حقيقتهم ،
فيزيفون التاريخ ويصنعون الاساطير فيلقنونها لرعاياهم .

ومن المعروف طبعا أنه في كل زمان ومكان تظهر من بين ظلمات
الكتل البشرية المغمورة شخصيات متفردة مسيطرة تندفع الى أعلى
وتحلق في السماء كالشهب . وتتفاوت تلك الشخصيات . فالعوائق
والصعوبات التى قد بذلها البعض - ممن لايقولون موهبة - فى حقب
بأكملها ، يكتسحها أولئك اكتساحا فيزيولونها من طريقهم فى أسابيع .
بضع جرائم جريئة يرتكبونها من مبدأ الامر بثبات ومهارة الصانع
الخبير المتمكن - فاذا بهم فوق القمة . لكن الرجل الذى أطلقت عليه
أحياء لندن الفقيرة اسم « السكين » لم يكن ممن يحق لهم أن يدعوا
لانفسهم مثل ذلك الصعود المبهر السريع . غير أنه حاول على اى
حال أن يدعى ذلك ، بصرف النظر عن مدى أحقيته . وقد عاونه فى
ذلك معاونوه المقربون ، أو أفراد عصابته ، فحاولوا ، ماوسعهم ،
أن يتكتموا بداياته الوضيعة ، وفترة تلمذته ، التى لاتشرف ، فى عالم
الجريمة .

ورغم أنه لم يكن من المؤكد أن الرجل الذى كون العصابة كان هو
« السكين » فعلا ، فانه أصر ، بالحاح شديد ، أمام أعوانه ، أنه
القاتل ستانفورد سيلز بلحمه وعظمه ، وكانت تلك هى الطريقة
الوحيدة التى توصل بها الى الإبقاء على تماسك عصابته . رغم أن
الرجل الذى أعدم فى سجن دارتمور ، عام ١٨٩٥ ، قيل عنه - على
لسان البوليس لا على لسانه هو - أنه ستانفورد سيلز الحقيقى .
كانت الأعمال العظيمة التى قامت عليها شهرة « السكين » سلسلة
من جرائم القتل ، تتابعت بسرعة ، واحدة وراء الأخرى ، ارتكبت
كلها فى عرض الطريق . تلك الجرائم هى التى دفع الرجل النئى
أعدم فى دارتمور حياته ثمنا لها . . لكنه من المعروف ان الناس
يرفضون أن يصدقوا موت أبطالهم الشعبيين ، تشهد بذلك فى الأزمنة

الحديثة حالات عديدة كحالة كتشنر وكروجر . وهكذا فان عددا من جرائم القتل التي ارتكبت في شتاء عام ١٨٩٥ نسبت على الفور الى البطل الشعبي الذي اشتهر باسم « السكين » ، رغم كل استحالة عملية . فلا الرجل المشنوق الراقد في جبانة سجن دارتمور ، ولا ذلك الآخر الذي اتخذ لنفسه اسم شهرته كانا بقادرين على ارتكاب تلك الجرائم .

لكن ذلك لا ينتقص من قدر الاخير ، لان القسوة ، وانعدام الرحمة ، والمكر التي استخدمها في ارغام غيره من المجرمين على التنازل له عما يستحقونه من شهرة بسبب جرائمهم ، كانت اشد فظاعة من معاملتهم لضحاياهم ، وليس هناك ما يفوقها صفاقة الا الطريقة التي يضع بها بعض اساتذة الجامعات اسماءهم على مؤلفات مساعدتهم .

من المحتمل أن تكون تلك الجرائم قد ارتكبت بدافع الجوع ، لان ذلك الشتاء كان قاسيا ، والبطالة كانت عظيمة . لكن هذا الرجل الذي اتخذ لنفسه اسم « السكين » بغية تنظيم عصابته ، كان يعاني من ضعف شائع بين أولئك الذين يتحركون في أوساط مألوفة لدينا - نحن الذين نشترى الكتب - أكثر من غيرها . فهو مثل الناجحين من رجال الصناعة والمال ، والمؤلفين ، والعلماء ، والسياسيين ، الخ ، كان مولعا بقراءة أنباء جرائمه في الصحف ، بشرط ألا يتصور أحد أنه يرتكبها بأي دافع مادي ، أو بغية الكسب ، بل كرياضة تشبع عنده شهوة خلاقة ، أو - على الأقل - يدفعه اليها حافز شيطاني لا تفسير له .

وهكذا فان المقالات في الصحف الصفراء كثرت واجمعت على تعزيز الطابع الرياضي كعنصر أساسي في جرائم « السكين » . ومن المحتمل أيضا أن هذا الشيطان ، شأنه في ذلك شأن أصحابنا المشاهير الآخرين ، كان مولعا ، فوق ولعه بمتابعة أخباره في الصحف ، بمتابعة أرقام حساباته في البنوك . وايا كانت الحال ، فإنه سرعان ما فطن الى أن الانسان عندما يستغل غيره يحصل على أعظم الربح وأسهله ، وهي حقيقة كافية بذاتها ، متى فطن اليها المرء ، لضمان مستقبل ناجح مزدهر .

في مبدأ الامر كانت العصابة صغيرة ونشاطاتها محدودة ومتواضعة . وفجأة . فقد ظلت ترتكب جرائم السرقة بالاكراه ، وجرائم السطو المسلح المتسم بالوحشية ، وان كان ذلك النوع الاخير من الجرائم أقل حدوثا - في سجل العصابة - من سابقه . لكن البراعة الحققة

ظهرت مبكرة في بعض الوسائل التي اتبعت في تصريف البضائع
المسروقة ، أو ، بالاحرى الاسلاب والغنائم . وقد ملأت أنباء احدى
تلك الوسائل صحافة العالم أجمع .

فذات يوم دخل سيدان يتصفان ببنية قوية قاعة الطعام في احد
المطاعم الانيقة بهامبستد . وقفا لحظات يجيلان البصر في الغرفة ثم
تقدما في حزم من سيد أنيق الملبس كان جالسا يأكل بمفرده ، فقال
أحدهما بصوت مرتفع سمعه كل من في المطعم :

— هاهوذا ! جالس يتفق نقودى ! اسمى كوبر واسمه هوك . هاك
يا سيدى المحضر . هذا أمر البيع وهذا هو الحجز . والحكم مشمول
بالنفاذ المعجل . هذا الخاتم الذى فى اصبعه يساوى مائتى جنيه على
الأقل ، والعربة التى تنتظره فى الخارج تساوى مبلغا لا يستهان به .
سترى عندما نبيعها فى المزاد !

وفى هذه المرحلة من الاجراءات اضطر الندل — كما هى العادة — الى
كف السيد المدين عن مهاجمة دائنيه عديمى الكياسة ، فما لبث
المدين أن هدا ، وأعلن أنه لا ينكر دينه ، لكنه معترض على الطريقة
الفضة التى يحاول بها هذان السيدان الاستيلاء على مقتنياته . وانتهى
المشهد بخروج الرجال الثلاثة مع بعض رواد المطعم ، الذين اجتذبتهم
الضجة . لمعينة العربة . تم المزاد بسرعة فى حانة مجاورة فانتقلت
ملكية العربة ، والخاتم ، الى مشتر اعتبر نفسه مجدود الحظ حقا .
وفى أعقاب المزاد اختفى المدين ، والدائن والمحضر ، معا ، حاملين
الى « السكين » غنيمتهم . وبهذه الطريقة المبتكرة التى تكررت اكثر
من مرة كان يحصل من بيع العربات والمجوهرات المسروقة على
أضعاف الثمن الذى كان حريا بأن يحصل عليه لو قام بتصريفها
بالطرق التقليدية ، عن طريق تاجر من تجار المسروقات .

تلك كانت طريقة . لكنها — بطبيعتها — لم تكن تحتل التكرار الى
ملا نهاية . لذلك كان من المتعين ابتكار غيرها ، للتخلص من تاجر
البضائع المسروقة . فذلك الصنف من التجار هو السرطان الحقيقى
لمهنة السرقة . لان عملية الحصول على البضاعة نفسها لم تكن
بالصعوبة التى تواجه تصريفها . لذلك ظلت عملية تحويل الغنيمة الى
مال سائل هى أضعف حلقة فى العملية كلها . وعلى صخرة هذه
العقبة الكئود تحطمت كل المحاولات المخصصة التى بذلت لتوسيع
نشاط العصاية .

فى اخريات عام ٩٦ اختفى « السكين » اختفاء يكاد يكون تاما عن
أنظار العالم السفلى ، وفى نفس الوقت تقريبا ظهر رجل مسالم

يدعى جيمى بيكيت افتتح دكانا فى حى سوهو لبيع البلاط ، ثم مالبت
أن الحق بدكانه شادر احشاب صغير فى قطعه أرض فضاء مجاورة .
وقد انحصر نشاط مستر بيكيت فى مبدأ الامر فى تتبع أخبار البيوت
القديمة الموشكة على أن تهدم ، ليشتري من أنقاضها البلاط
والاخشاب ، مع حرص بالغ وتدقيق فى الحصول على الفواتير .
ويبدو أن مستر بيكيت كان على حق فى حرصه ، لأن وباء حقيقيا
مالبت أن انتشر فى وايتشابيل ، انحصر فى سرقة البلاط لا من أنقاض
البيوت ، بل من شوادر التجار . أسطول صغير منظم من العربات
ظهر فجأة ، وأخذ ينقل كميات من ذلك البلاط الى جهة غير معلومة ،
بينما عمال الشوادر فى الحانات ساعة الفداء ، فى وضوح النهار .
ولم يفكر أحد بطبيعة الحال أن فى الامر سطوا ، فلم يحاول أحد أن
يعترض طريق اللصوص . وعندما اكتشفت السرقات أمكن تتبع
البضائع الى دكانة السيد بيكيت . لكن السيد بيكيت استطاع أن
يخرس البوليس بفواتير لا مطعن فيها تثبت ملكيته القانونية لكل
بلاطة وجدت عنده .

لكن الامر لم يتوقف عند ذلك الحد . فقد سرق شارع بأكمله فى
حى الميناء ، عيانا جهارا تحت أبصار المئات . كان ذلك الشارع
مرصوفا بكتل خشبية . وقرب المساء ، بينما حركة المرور على
أشدها ، ظهر عدد من عمال البلدية ومعهم عربة فاقفلوا الشارع
بالحواجز فى أوله وآخره ، وبمنتهى الهدوء انتزعوا الكتل الخشبية
فحملوها على عربتهم ، ورفعوا حواجزهم ، وذهبوا الى حال سبيلهم .
ولم ينشر أى شىء عن تلك الفضيحة فى الصحف لان المجلس
البلدى كان غارقا حتى أذنيه فى ذلك الوقت فى تحقيق طويل عريض
حول شركة من الشركات الكبيرة استطاعت - بطريقة قانونية للغاية -
أن تضع يدها على عدد من الشوارع كان قد تم رصفها بمعرفة عدد
من الشركات الصغيرة ، وأدعت أنها هى التى رصفتها ، ثم طالبت
البلدية بالسداد ، وكان للشركة ما أرادت ، رغم أنها لم تمد الى تلك
الشوارع يدا . ولذلك فان السلطات تكتمت أخبار ذلك السطو
الجرىء حتى لا يأخذ الناس كدابهم فى عقد المقارنات بين هذه الحكاية
وتلك .

ومن محاسن الصدق أن انتشر وباء من القتل فى تلك الآونة .
فنسبت تلك الجرائم جميعها الى عصابة « السكين » . مما زاد من قدر
العصابة كثيرا . ولو ان تلك الجرائم لم تكد تحظى الا بأقل اهتمام .

من الصحف ، لان ضحاياها كانوا جميعا من احط طبقات الانسانية .
فمعظم الضحايا كانوا من المجرمين الذين قتلوا في مشاجرات دموية
منظمة ومدبرة سلفا .

الحقيقة أن شكوكا لها ما يبررها ثارت حول نسبة هذه الجرائم الى
العصابة . وفي تلك الآونة ذاتها ، كفت العصابة عن سرقة البلاط
والشوارع ، ووجهت نشاطها الى السرقة على نطاق واسع من
المحلات التجارية .

كانت العصابة قد أصبحت تضم - في عام ١٨٩٧ - أكثر من مائة
وعشرين عضوا ، وقد تم تنظيمها بحرص وعناية ، بحيث لم يكن
هناك أكثر من عضوين أو ثلاثة يعرفون « الزعيم » بالنظر . وقد
ضمت المنظمة بين صفوفها تخصصات عديدة شملت عددا من
المهربين ، وتجار المسروقات ، والمحامين . والغريب أن « السكين »
(أو الرجل الذي اتخذ لنفسه ذلك الاسم) كان لصا لا يقيم له وزن
في عالم اللصوص ، وكان هو أول من يعترف بذلك . لكنه كان منظما
عظيما . والكل يعرف أن أكاليل الغار توضع كلها فوق رؤوس
المنظمين ، في هذا العصر ، إذ يبدو أنهم لا غنى لاحد عنهم .

والواقع أن عصابة السكين نجحت ، في وقت قصير لا يصدق ، في
فرض سيطرتها الكاملة على كل ماله صلة بالسطو على المحلات
التجارية ، الى حد أن بات من الخطر المتزايد أن يقحم أى لص يعمل
لحسابه الخاص نفسه على ذلك المجال من نشاطات العالم السفلى .
بل ولم تجد العصابة أى مأخذ فى إدخال البوليس شريكا معها ، علنا .
فالكل كان يعلم أن لمستر بيكيت أصدقاء أقوياء فى سكوتلانديارد .
ومن تلك المشاركة الخلاقة ، استنبطت العصابة وسيلة فعالة
لتقوية نظامها الداخلى والضرب على أيدي المنحرفين من أفرادها .
فأى عضو من أعضائها يخرج عن الحدود المرسومة له أو يفشل فى
القيام بما كلف به ، سرعان ما يجد البوليس فى أعقابه ، ثم يقدم
للمحاكمة ويحكم عليه بعد أن يقدم البوليس أدلة دامغة ضده تزود
العصابة بها أعوان بيكيت من رجال سكوتلانديارد . بل وذهب الأمر
الى أبعد من ذلك ، فلم يكدهل عام ٩٨ حتى كان كل أعضاء العصابة
من قدامى المؤسسين الذين يعرفون زعيمها معرفة وثيقة قد باتوا
كلهم - أو كادوا - وراء قضبان السجون ، محكوما عليهم ، بمدد
طويلة .

وذاذ يوم باع مستر بيكيت أعماله لشخص يدعى مستر ماكهيث

كان قد افتتح لتوه سلسلة من الدكاكين في حي المال والاعمال ، أطلق عليها اسم دكاكين حرف « ب » ، وأعلن عن رغبته في تزويدها بكميات كبيرة من البضائع رخيصة الثمن ، خدمة للجمهور . وهكذا فان جيمى بيكيت تاجر الاخشاب اختفى من انجلترا - ويقال أنه ذهب الى كندا . ولم يكدمستر بيكيت يختفى حتى ظهر مكانه في العالم السفلى شخص اسمه اوهارا ، وهو شاب ايرلندي موهوب للغاية ، أصبح الرئيس الرسمي المعترف به للمنظمة التي أنشأها بيكيت قبل اختفائه .

ويبدو أن مستر بيكيت كان قد أوصى بمستر اوهارا لدى مستر ماكهيث ، لان هذا الاخير فتح صدره تماما لاوهارا ، وبدأ يتسلم منه شحنات ضخمة من البضائع لبيعها في محلات حرف « ب » . خلاصة القول أن المنظمة توصلت - بهذه الطريقة اللولبية - الى القضاء على مشكلة تجار المسروقات . وفوق ذلك وجدت المنظمة عميلا مستديما ، وازدهرت أعمالها بدرجة مذهلة .

ويتلك الطريقة توصل مستر ماكهيث الى أن يجعل اسعار البضائع التي تبيعها دكاكينه حرف « ب » رخيصة بدرجة غير معقولة . لكنه عانى من مشكلة واحدة ، هي أنه لم يكن مستطيعا أن يتنبأ في أى وقت بنوع البضائع التي ستسلمها دكاكينه في الشحنة المقبلة . لكن ذكاء الرجل مالبث أن هداه الى أنه من الحكمة أن يتم التركيز على سلع بعينها يمكن تغيير شكلها الخارجى الى حد ما بمعرفة أصحاب دكاكين حرف « ب » قبل عرضها للبيع - منعا للحرج - وهكذا تحولت الدكاكين من مجرد مراكز للتسويق الرخيص ، الى مراكز لاعادة التصنيع والبيع .

لكن ذلك التطور استتبع مطلباً جديداً : الحصول على رأسمال للمشروع . فالتوسعات المزمعة في نشاطات العصابة في السطو على المحلات والمخازن تطلبت تمويلا لم يكن في طاقة ماكهيث القيام به . وهكذا وصل مشروعه الى المأزق الخطر الذي يخشاه كل رجل أعمال . فالتوسع ، أن بدأ بمنظمة التوريد ، سيفرق الدكاكين بطوفان من البضائع تعجز - بعددها الحالى - عن تصريفه، وان بدأ بالدكاكين، فانه سيتطلب طوفانا من البضائع تعجز منظمة التوريد - بحجمها الحالى - عن تزويد الدكاكين به . وهكذا فانه من المتحتم أن يشمل التوسع كلتا المنظمتين فى وقت معا ، فى نفس اللحظة التى يتم فيها مشروع الزيادة فى العرض والطلب .

كانت في السوق سلاسل أخرى من الدكاكين - وكلها مشروعات كبيرة ناجحة ذات اتصالات بنكية جيدة ، والمنافسة مستعرة فيما بينها . فما بالناس سلسلة حرف « ب » الهزيلة نسبيا إذ تنزل الحلبة في وجه هذه المشروعات العملاقة ؟ بدا واضحا أن مجموعة حرف « ب » في حاجة الى تمويل أضخم من أن تهيئه إمكانيات ماكهيث ، ان كان لها أن تخوض تلك المعركة بنجاح .

كان ذلك هو الموقف عندما تزوج مستر ماكهيث الفتاة بولي بيتشام .



في أصيل يوم من أيام الصيف ، ذهب مستر ماكهيث في عربة هانسوم قديمة الى إحدى ضواحي لندن الغربية ، حيث يقيم مستر ميلر ، مدير بنك الائتمان الأهلى .

كان مرتديا حلة رمادية فاتحة ، والطريق الذى تقطعه العربة حافل بالمشاهد المسلية . لكنه لم يكن سعيدا . فزيجته التى بدت واعدة بالكثير فى مبدأ الامر ، تكشفت عن خيبة أمل مرة .

نعم كانت زوجة أحلى من أى زوجة أخرى ممن سبقنها . بل وكان - بطريقته الخاصة - مغرما بها . لكنه لم يكن فتي فى العشرين تملأ الاحلام رأسه ، ولم يكن فى تكوينه أدنى شعور يمكن أن يوصف بالرومانسية . ولذا فانه وجد نفسه مضطرا - بشكل متزايد - أن يكف نفسه عن الشعور بالمرارة فى شأن بولى والاحساس بأنه قد « انضحك على ذقنه » .

استقبله مستر ميلر على درج بيته الصغير ، ووقفت وراءه زوجته ، سيدة ثرثارة لطيفة العشر ، تخطت الخمسين ، أخذت فى معاملة ماكهيث لفورها كما لو كان ابنا لها . تناولوا الشاي وأخذ ميلر يتغنى بالزمن الخالى ، ويسرد بعض أحداث من تاريخ بنك الائتمان الأهلى المجيد .

أصفى ماكهيث لثريثة مدير البنك بنصف ذهن ، وهو يرشف الشاي بصوت منفر ، وبنصف ذهنه الآخر يقلب الامور على وجوهها . أحس من حديث مضيفه أن البنك مازال قليل الثقة بأفكاره وأساليبه ، وأن حكايات ميلر كلها وذكرياته عن جهابذة أصحاب البنوك قصد منها تلقينه درسا فى كيف يكون الحدق فى دنيا المال والأعمال . وهكذا فانه اجتهد ، عندما قال ميلر كل ما عنده ، فى عرض بعض خططه ومشروعاته على وجهها الصحيح .

لكنه قبل أن يأخذ فى ذلك أخرج من جيب سترته الداخلى

قصاصتى صحف مطويتين تتضمنان مقالين كتبهما عن نظرية دكاكين حرف « ب » ، واستقلال المساهم الصغير ، وما الى ذلك من الامور ، وقد احيطت كل مقالة باطار رسمه بالقلم الاحمر ، زيادة فى التأكيد . غير انه تبين ان ميللر كان قد قراهما من قبل ولم بكل ما جاء فيهما من آراء .

بعد ذلك اخرج ماكهيث من جيب سترته الداخلى سيجارا قضم طرفه بأسنانه ثم ألقى ما قضمه باصبعين سمينتين ، خارجا على أرض المر المرصوف بالحصباء ، واشعل سيجاره بحفظة فائقة . ثم قال ان لديه بعض افكار أخرى لم تنشر فى الصحف بعد .

أوضح لمضيفه ان نشاطه الاساسى ينصب حاليا على دراسة الزبائن . قال ان الزبون يبدو لصاحب الدكان دائما فى صورة شخص مذئذب لا يستقر على رأى ، بخيل شديد التقدير ، عديم الثقة بالناس ، ومملوء شرا ونوايا خبيثة . أى ، باختصار ، يبدو عدائيا للغاية . فهو لا يرى فى البائع صديقه وناصره الذى لاهم له الا خدمته ، بل مخلوقا شريرا سيء النوايا يستमित فى غشيه وخديعته وتجريده من نقوده . ونتيجة لذلك الموقف العدائى فان البائع يتردد ، بسبب تجربته المرة ، فى أن يأمل أى أمل حقيقى فى كسب المشتري الى صفه ، واقامة اتصال شخصى معه ، وتحسينه ، أى باختصار تحويله الى مشتر جيد من الطراز الاول . ولذلك فانه يضع بضائعه باستسلام تحت أنظار الزبون ، واضعا كل أمله فى الحاجة العمياء التى ترغم المشتري ، بين الحين والحين ، على أن يشتري شيئا والسلام .

لكن المشتري فى حقيقة الامر مظلوم تماما ، وضحية سوء فهم فاحش من جانب من يرى فيه هذا الرأى . فهو فى أعماقه (1) الدفينة أفضل بكثير مما يبدو فى ظاهره . وكل ما فى الامر أن بعض الخبرات المحزنة فى محيط العمل أو الأسرة تجعله متشككا ، سيء الظن ، لا يبوح بذات نفسه الى أحد . لكنه فى دخيلة نفسه يظل يأمل أن يتعرف عليه أحد ويكتشفه على حقيقته فيدرك أنه مشتري محتمل أو طاقة شرائية كامنة تنتظر من يستشيرها . لأنه يريد أن

(1) الواقع ان برخت - فى معرض سخريته هذه بما يعرف باسم علاقات العملاء يعرض «Customer Relations» على لسان ماكهيث منهجا كاملا من مناهج تطبيق العلوم الاجتماعية فى مجال التسويق يعرف حاليا باسم أسلوب العمق «Depth approach» ويقوم على بحوث الدوافع «Jativational Research»

يشتري . وما أكثر حاجاته . فوق أنه متى أحس أنه لم يعد يحتاج الى شيء ركبته التعاسة . ولذلك فإنه في حاجة دائما الى من يقنعه بأنه في حاجة الى شيء ما ، ليكون سعيدا ! وهو فوق هذا وذاك كله لا يعرف عن حاجاته وعن نفسه الا اقل القليل .
استطرد ماكهيث قائلا وهو يحدث ايقاعا رتيبا بملقعة الشاي على سطح المنضدة :

- ولكي يكون المرء بائعا بحق ، يجب أن يكون معلما . فما البيع الا محاربة جهل الجمهور ، جهله الفاحش . ما اقل من يدركون فظاعة الحياة التي يحيونها ! انهم ينامون على أسرة غير مريحة تقصم ظهورهم وتزيق الليل طوله ، ويجلسون نهارا على مقاعد قبيحة تشوه اجسامهم ، فلا يفتنون الى ذلك الا عندما يرون سريرا أو مقعدا جديدا ، وحتى اذ ذلك يكون احساسهم مبهما . فالمرء مضطر أن يخبرهم - كالأطفال تماما - أنهم بحاجة الى هذا أو ذلك من الاشياء ، وأنهم يجب أن يشتروا ما هم في حاجة اليه ، لا ما يتصورون أنه يجب أن يكون في حوزتهم والسلام . ولكي ينجح المرء في ذلك يجب أن يكون صديقا لهم . مهما كانت الظروف يجب ان يكون ودودا معهم ، ومجاملا ، وخدوما . نعم ان ذلك الشخص انلدى يدخل ويخرج دون أن يشتري شيئا يبدو للبائع مخلوقا بغیضا جديرا بكل احتقار . يقول المرء في نفسه : « البخيل ابن ال . . ! » ويمتلئ - بغير ارادة منه - احتقارا له وتقززا منه . لكن المرء متى كان بائعا لا يجب أن يحس أو يفكر هكذا أبدا . يجب أن يظل المرء ودودا ومجاملا حتى ولو كسر الزبون قلبه .

عندما انتهى ماكهيث من خطبته القصيرة كان قد بلغ درجة من الاهتياج لم يظن اليها . فقد كانت تلك مشكلة تحز في نفسه دائما فيما يتعلق بدكاكينه . لم يكن أصحاب الدكاكين ردودين بما فيه الكفاية . ولقد اضطر فعلا أن يفرض عليهم رقابة مستمرة من جانب « مندوبي مشترياتنا » ، ووقع جزاءات على من ثبت أنهم يسيئون معاملة الزبائن منهم . لكن ذلك كله لم يجده كثيرا . لان الامر كانت له سيكولوجية معقدة . فحكاية الرقابة على البائعين هذه ومعاقتهم عندما يسيئون الى الزبائن قد تجدى في المحلات الكبيرة ، لان المستخدمين لكي يظنوا - رغم كل شيء - باسمي الوجوه ، يجب أن يحسوا بالسقوط على ظهورهم في كل لحظة . أما صاحب المحل الصغير فإنه يحمل همومه معه طوال النهار ، ولا يجد من

يسوطه طيلة الوقت ليعده عنها . فلا يكاد المشتري يطيل
فى تقليب البضائع واختيار ما يريد حتى يبدأ صاحب المحل
فى تذكر الايجار الذى لم يدفعه . أما اذا خرج المشتري دون
أن يشتري شيئاً فتلك تكون الطامة الكبرى . تنقلب سحنة صاحب
الدكان كما لو كان يوم القيامة قد أذف . ومن الطبيعى جدا
أن يرى المشتري كل ذلك ويحسه . ومن الطبيعى أيضا أن
يضيق بالأحساس الذى يشيعه ذلك فى نفسه بمسئوليته عن
شقاء صاحب الدكان وربما عن جوع عياله . وهكذا فإنه يستشيط
غضبا كلما جعله صاحب الدكان ، بسحنته المقلوبة ، يحس
بأنه قد طعنه طعنة الموت . فالمرء يجب أن يتعلم كيف يتسم حتى
والموت فى قلبه ! قال ماكهيث فى دخيلة نفسه سأعلمهم كيف
يتظاهرون بالسعادة حتى لو اضطرت الى تأديبهم بلذات العقارب .
ثم جفف العرق الذى تقصده على جبينه بمنديل كبير الحجم .

بعد ذلك أخذ يفيض فى شرح عدد من الوسائل التى يمكن باتباعها
ابقاظ شهية الجمهور الخاملة وتنميتها . فقال ان شيئاً من
الهرجلة « التى تبدو » غير مقصودة فى عرض البضائع بحيث يختلط
حابلها بنابلها يحدث المعجزات . لان تلك الهرجلة تتيح للعميل أن
يقع على اكتشافات تفجأ وتسره . يلمح فى الفوضى البارعة شيئاً
يبدو نافعا ، فتقلب نظراته الخاملة يقظة ، وينشط . وبينما هو
يبحث عن شىء يعثر على آخر . وهكذا تكتشف عينه التى كعين
الصقر قطعة صابون تحت كومة البضائع يدرك فجأة أنه فى أشد
الحاجة اليها . حقيقة أن قطعة الصابون هذه لا تكون لها أدنى صلة
بقماش المآزر الذى دخل الدكان أصلا ليبحث عنه ، ولكن هل يجعلها
ذلك أقل نفعا ؟ أبدا . ولذا فإنه يشتريها ، قطعة الصابون هذه ،
دون أن يدري متى سيحتاجها . وقد لا يجد القماش الذى جاء
من أجله . لكنه قد اشترى شيئاً ، وأصبح عميلا للمحل .

وما من شك فى أن الاسعار عامل حاسم . اذا تباينت كثيرا فيما
بينها أزعجت العميل وضايقته لانه يضطر أن يجمع ويطرح .
وهو ما يجب أن يمنع من القيام به مهما كانت الظروف . ولذلك فان
ماكهيث يريد أن يبتكر نظاما جديدا للبيع توحد فيه الاسعار قدر
الاستطاعة بحيث تنحصر فى عدد قليل من الفئات المحددة . فلا شىء
يستتير ثقة العميل بنفسه حتى يصبح مخمورا بها أكثر من المدى الواسع
لكل البضائع المنوعة التى يمكنه ان يشتريها بمبلغ معين من المال .

ماذا ؟ هذه القطعة الضخمة من اثاث الحديقة لا تكلف الا هذا المبلغ فقط ؟ وعدة الحلقة المعقدة هذه لا يزيد ثمنها على هذه الدراهم القليلة؟
جلس ميلر ينصت الى كل هذا ، محدجا ماكهيت بنظرة عجب لطيف من عينيه اللتين لاتفصحان عن شيء ، وقد انطلق هذا الاخير متحمسا يشرح له فكرة دكاينه التي تباع « برخص التراب » :
تشكيلة صغيرة من البضائع لاتتعدى فئات الاثمان التي تباع بها ثلاثا أو أربع فئات . ولا يضر أبدا أن تكون بعض السلع مما يقوم المشترون بتجميعه . فبالوسع مثلا شراء مقاعد للحديقة تتألف من كرسي بحر ، ومسند للقدمين ، ومظلة صغيرة يقوم العميل بتجميعها بعد الشراء ، وذلك حتى يكون ثمنها معا أعلى من السعر الاعلى المحدد لاية سلعة في اى دكان حرف « ب » ، ومع ذلك فان اثمانها متفرقة تندرج فعلا تحت الفئات الموحدة المعلن عنها .

وينبغى أن تستمر الدكاكين الصغيرة الملحق بها ورش وتبيع الاحذية ، أو الملابس الداخلية ، أو الطباق ، على ماهى عليه ، فلا يسمح لها الا بائتمان محدود . لكن الدكاكين الكبيرة يجب أن تمول بحيث تتمكن من تخزين كميات كبيرة من البضائع قدر الامكان .

اختتم ماكهيت شرحه الحماسى لمشروع التوسع قائلا أنه متى تم الاتفاق على قرض البنك ، سيقوم بافتتاح محلاته الكبيرة بأسبوع من الاوكازيونات تسبقه ضجة اعلامية لافتة للانظار .

هنا صرف مستر ميلر زوجته من الغرفة باشارة من رأسه . قامت المرأة فغادرت الغرفة بهدوء ، بينما جلس مستر ميلر يهز رأسه الاشيب مستغرقا فى التفكير ، ثم نظر الى زائره وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة التي يقول بها مايريد قوله .
فلما تكلم اخيرا سألته :

— ماموقف مستر بيتشام من زواجك بابنته ، هل هو موافق عليه ؟

فاجاب ماكهيت :

— ان قلته ليس من حجر !

وهنا قال مستر ميلر دهشا :

— حقا ؟

رشف ماكهيت رشفة من فنجانه بصوت مسنوع . لزم كلاهما الصمت لحظة . كان بعض الاطفال يتصايحون فى الطريق ، وصياحهم يحمل الى مسامع الرجلين سبابا يتصب على شيء ما .

استطرد ميللر قائلا :

- عال . مادام الامر كذلك سيكون كل شيء غاية في البساطة .
انت تدرك طبعا أننا نحب أن يكون حموك معنا في هذه الصفقة .
لا لشيء الا لتخرس الالسنه التي سيتساءل أصحابها دون شك عن
السبب في عدم اشتراك حميك في هذه العملية معك . ولا تنس أنه
يجب أن يكون أكثر الناس فهما وتقديرا لفكرتك هذه ، لان صلات
القربى تجمع بينكما . عندما تشرفنا بالزيارة في المرة القادمة ، دع
مستر بيتشام يأت معك ، وسوف نسوى كل شيء في خمس دقائق
لا أكثر يامستر ماكهيث .

وهنا سأله ماك بغلظة مفاجئة :

- واذا لم يكن مما يوافقنى أن اطلب من الرجل أن يسدى الى
معروفا ؟

- لاثر ياماكيث . ليس هناك أدنى سبب لذلك . يجب عليك
أن تدرك أننا مضطرون الى أن نلزم الحذر . فالبنك ليس ملكا لنا ،
بل لتلك الفتاة الصغيرة توك . وهى طفلة أخاذة حقا . حرام أن
نسىء اليها . نعم أنت تمتلك هذه الدكاكين . لكن فكرتك هى التى
تهمنا حقا . فاهمية الدكاكين ثانوية للغاية . لانها بسيطة على ما أظن .
أما النقطة الرئيسية ففكرتك الرائعة عن الاثمان الموحدة ،
والاوكازيونات ، والاستغلال المربح لاستقلال المالك الصغير .
اتصرف ياماكيث بعد ذلك على عجل .



قطع جزءا من الطريق سيرا على قدميه . كان الظلام قد حل .
أخذ يطوح عصاه الغليظة وكأنه يريد أن يهشم بها رأس أحد ، غير
قادر أن يكف نفسه عن طعن أسبجة الحضرة بها وهو يمر
بالحدائق الامامية الصغيرة فى بيوت الضاحية . كان مزاجه منحرفا
للفاية ، ويود لو فتأ غيظه فى أحد .

فى أصيل اليوم السابق كان قد قابل بولى . لكن لقاءهما لم يزد
عن نزهة بريئة فى الحديقة . وبعد ساعتين من السير الذى لا طائل
من ورائه عادت الى « البيت » ، دون أن يجرؤ على منعها .

أى شيء جعله يتزوج ؟

فى اليوم التالى كان له لقاء آخر بميللر وهوثورن ، فى البنك . لكن
شيئا فى الموقف لم يتغير . فلم يتفقوا ثلاثتهم على شيء أكثر من تحديد
موعد للقاء قادم .

بدل ما كيهت جهدا خارقا في اقناع العجوزين بمزايا افكاره ، وعملا على التأثير فيهما ، شرح لهما بحماس فائق الاثر المدمر الذي يمكن أن يكون لتلك الافكار - متى وضعت موضع التنفيذ بمساعدة أموال مصرفهما - على المشروعات الاخرى المنافسة .

وقد أصغى له الرجلان بانتباه تام ، وبدا واضحا أنهما يقدران افكاره حق قدرها . لكنهما في النهاية قالوا له آه . هذا كله جميل . غير أنه من قبيل القصور التي تبنى في الهواء . وقالوا أيضا أنه يجب أن والاسوا من ذلك أن ما كيهت لم يستطع - طيلة هذه المفاوضات المبطوطة المرهقة للاعصاب أن يتخلص من وسواس تسلط عليه بأن يستثير اهتمام حميه بالموضوع ، وأنه إذا فعل ، فإن كل شيء سيصبح على مايرام .

الامسية المشئومة التي قضاها في ضيافة ميللر واطلق خلالها العنان للسانه هي التي جلبت كل ذلك البلاء على رأسه وعرقلت مشروعاته . الا تكون افكاره أكثر تقدمية مما يستطيع هذان العجوزان المحنطان أن يسيغاه ؟ انتابه غضب عارم وهو يستعيد الترهات التي أرغمه ميللر على الاستماع اليها متصورا انه بذلك يثقفه ، ويكسبه خبرة ، ويضيء له سواء السبيل .

ولم يخطر له في غمار ذلك كله أنه ليس بمستبعد أن يكون ترددك الائتمان الاهلي ، وهو من البنوك العريقة المحترمة ، راجعا بالدرجة الاولى الى غموض ماضيه الذي لا يعدله الا غموض مصادر بضائعه . ذلك الاحتمال وجهت نظره اليه فأنى كرايزلر في مرحلة متأخرة من المشكلة .

وهكذا فانه لم يكن لديه - في مقابلته الثانية مع العجوزين - ما يضيف جديدا الى ماسبق . وكل ما عاد به من ذلك اللقاء انه تورط في اعتراف مؤداه انه لم يتوصل الى « عقد صلح » من أي نوع مع مستر بيتشام . وللغور انقلبت سحننا العجوزين وظهر عليهما الانزعاج بأجلى معانيه . نعم لم يلقيا به خارجا ، لكنهما سألاه ، بصفاقة ، وبلا موارد ، عددا من الاسئلة المحرجة التي لا ذوق فيها .

والحقيقة ان عدوانية الرجلين كانت ناجمة عما أصيبا به من نخبة أمل . فقد راقت لهما أفكار ما كيهت وتيقنا من سداد آرائه ، ومما يمكن أن تعود عليهما به التجديدات التي يريد من مصرفهما تمويلها من أرباح دسمة . واقد كانا ، في واقع الامر ،

متلهفين على القاء شباكهما فى مياه جديدة .
ولذلك فان فشل مفاوضاتهما مع ماكهيث أعقبته مفاوضات
ناجحة بينهما وبين سلسلة محلات كرستون ، سرعان ماترامت
أنبأوها الى مسامع ماك .

فكانت الضربة أكثر من مؤلمة . لان تلك المحلات بالذات كانت
النمط الذى دارت حوله احلامه الطموح : محلات ضخمة ، ذات
مبان فخمة تفعل فعلها فى النفوس ، مواقعها ممتازة ، وأقسامها
المختلفة العديدة مكتظة بتشكيلات هائلة من البضائع . ولقد قام
جانب من مشروعه على ارغام المنظمة التى تدير تلك المحلات على
أن تجثو على ركبتيهما . ولكنه بدلا من أن يحقق ذلك الحلم ،
يسمع أن محلات كرستون قد شرعت ، فوق ما حصلت عليه من
تمويل من بنك الائتمان الاهلى ، فى اجراء تجديدات مسروقة من
افكاره بحرفيتها . وهامى تعلن عن أسسبوع من الاوكازيونات
« سيجد فيه الجمهور مفاجآت سارة عديدة » . من الجلى أن
هذه عملية سطو بالغة الحسنة على افكاره . ومن الجلى أيضا
أنه كان حمارا عندما أولى العجوزين ثقته وكشف لهما كل أوراقه .
الحقيقة أنه كاد ينشق غيظا .

جلس امام فانى كرايزلر ممتقع الوجه غيظا ، وأخذ يرغى ويزبد:
- لماذا يحاول الجميع أن يسرقونى ؟ انا افعل كل ما أستطيع تكفى
اصبح محترما . اكف عن العنف بكل اشكاله . اسير على الصراط
المستقيم ، أو على مقربة منه . فأتذكر لماضى ، وارتدى باقة منشاة ،
واستأجر بيتا من خمس حجرات ، وأتزوج زيجة كان ينبغي أن
تكون مجزية . فما الذى يحدث لى فى هذا الوسط الرفيع ؟ يحدث
أنهم يسرقوننى ! هذا شيء لا يتصوره عقل ! الحقيقة اننا نحن المجرمين
البسطاء لسنا أندادا لهؤلاء الناس يافانى . انهم يفوقوننا لصوصية .
ففى خلال يومين لا أكثر يجردوننا من كل مدخراتنا التى جمعناها
بعرق جبيننا وكاننا ننحتها من الصخر ، ولا يكتفون بذلك ، بل
يجردوننا من الماوى والحذاء أيضا ، وكل شيء ، فنعود عراة حفاة
مشردين . وكل ذلك يفعلونه بضمائر مستريحة ، دون أن يخرقوا
قانونا واحدا ، بل وربما كانوا يغبطون أنفسهم الآن لكونهم قد أدوا
واجبهم !

فالحقيقة أنه جرح فى الصميم لترديه فى الشراك الفادرة التى
بثت فى طريقه ، وبدأ يشك فى قدراته ويفقد الثقة بنفسه .

ولذلك أخذ يهيم على وجهه في لندن . فركب أكثر من عربة
 أوتوبيس تجرها الجياد ، جيئة وذهابا ، وقد غرق في أفكاره
 أسوداء . ولقد أحسن بذلك صنعا . لأن ضجيج الناس وهم
 يصعدون وينزلون بعث شيئا من السكينة في شعوره المضطرب ،
 وتتابع المشاهد من جيرة فقيرة إلى جيرة غنية بعث شيئا من الطمأنينة
 في نفسه . لكن ذلك كله لم يخلصه من الكتابة الشديدة التي ترسبت
 في أعماقه بسبب افتقاره إلى التعليم إلى الحد الذي جعل في مكنة
 بنك صغير كهذا وجماعة من أصحاب المحلات يضحكون عليه
 ويسرقونه في وضح النهار . لو كان متعلما لما ضحكوا عليه . فلم
 يسترد توازنه إلا بصعوبة فائقة .
 والحقيقة أن مالك عاش في تلك الآونة أياما من أسود أيام حياته .

يد صديق في ساعة الضيق

في تلك الأيام أصبحت فاني كرايزلر سندا قويا ، وموثلا يجد
 فيه راحة لقلبه . كانت تقيم في بيت صغير بلامبث ، مؤثث بأثاث
 قديم جميل ، وفيه غرفة إضافية .
 دأب في تلك الأيام على قضاء جانب كبير من وقته في دكان
 العاديات الذي تديره ، وفي المساء ، عندما لم يكن يبدي رغبة في
 الذهاب إلى داره ، كانت تصطحبه معها إلى بيتها . كان لا يكف عن
 الشكوى من أنه لا يجد من يقدم إليه افطارا في بيته .
 وقد تمكنت فاني بلباقتها المعهودة من تجنب أية مصاعب مع
 جروتش الذي كان عشيقها الدائم . قالت له ببساطة إن عليه أن
 يتعد عنها بضعة أسابيع .
 لم تتحدث أبدا عن زواج ماكهيث ، لأنها أدركت أنه اعتبر زيجته
 صفقة غير موفقة ومخيبة للآمال .
 فوق أنه لم يعد يرى بولي الآن إلا فيما ندر . لذلك نشطت فاني في
 مساعدته على تنظيم شئون دكاكين حرف « ب » كما لم تنشط في
 أي وقت مضى . ولقد كانت الدكاكين بحاجة حقا إلى مثل ذلك
 الجهد ، إذ ساءت أحوالها كثيرا .
 فأصحاب الدكاكين باتوا لا يدفعون بانتظام ، إن دفعوا أصلا .
 ولم يكن كل الذنب في ذلك ذنبهم . لأنهم ظلوا - رغم شكواهم التي

لم تنقطع - يتسلمون شحنات ضخمة من بضائع لا تنوع فيها ، تكون في مرة كميات هائلة من الساعات ، وفي أخرى من النظارات ، وفي ثالثة من الغلايين والطباقي . ولم يكن بوسع أى منهم ، بطبيعية الحال ، تصريف كل تلك الكميات المكدسة بما يمكنه من الوفاء بالتزاماته قبل المنظمة .

ولقد كانت التجربة المزعجة التى مر بها مع امرأة جعلها من اصحاب الدكاكين بدافع الرحمة خير دليل على الحالة المؤسفة التى وصلت اليها تلك الدكاكين المنكودة . كانت المرأة صديقة قديمة تدعى ماري سوير .

وقد اكتشفت المرأة بطريقة أو بأخرى انه تزوج ، ولسبب ما بدا انها تعتبر ذلك الزواج اساءة اليها لا تفتخر ، فأحدثت ضجة كبرى ، ووجدت عددا من المشجعين اخذوا يترددون على دكاكين حـرف «ب» ويحاولون استدراج اصحابها الى الثرثرة عن شئون ماكهيث . ثم اتضح أن اولئك المشجعين كانوا يتربعون على مقاعد رئاسة التحرير فى مجلة « العاكس » . والظاهر أن اولئك السادة كانوا قد اخذوا على عاتقهم الوقوف على كل مايمكنهم الوقوف عليه من معلومات عن محلات حرف «ب» منذ أن طرد واحد منهم شر طردة عندما حاول ابتزاز بعض المال من ماك . فوق أن تلك المجلة كانت تدعى انها تتبع مبادئ الاشتراكية ، لانها لا تنشر من الفضائح الا ما يمس الاغنياء وحدهم . ولو ان السبب فى ذلك كان ببساطة ، لا اشتراكية ولا يحزنون ، بل املاق الفقراء الذى جعلهم غير صالحين كموضوع للابتزاز . وهكذا فان ماكهيث كان فى مأزق غير مستحب ، ويجب ان يأخذ حذره . فهو ، ككل ميسور الحال ، يجب ان يكون ذا سمعة ناصعة البياض لا تشوبها شائبة حتى لا يجعل لاحد منفذا اليه . ولقد كان فى ميسيس الحاجة الى ذلك حتى يتفرغ للنصب على اصحاب دكاكين حرف « ب » المساكين بغير منقصات .

جرت المفاوضات بينه وبين ماري سوير فى محل عاديات فاني كرايزلر ، وبمحضرها .

اعلنت مسز سوير ، وهى شقراء عظيمة الصدر ، مشرفة على الثلاثين ، انها لم تعد تعرف أى وجهة تتجه . فقد اخذها ماك من بيتها المألوفة وظل يسود عيشها بغيرته سنوات طويلة . ولقد اضطرت هى ، طوال تلك السنين ، ان تقوم بدور المتفرجة ، بينما هو ، على حد تعبيرها ، ينتقل من زهرة الى زهرة . وها هو الآن

يبلغ من القحة حد اخراجها واذلالها علنا بالزواج من امرأة أخرى .
وهي لم تتزوج من زوجها الحالي - الذي يحارب الان فيها وراء
البحار - الا بناء على تحريض ماك لها والحاجة المستمر عليها .
لكنها لا تكن لذلك الزوج اى ود أو محبة . هذا والدكان الذى اعطاه
لها ماك ليس دكانا تقر به عين احد . وزوجها قد رزأها بطفلين .
ولذلك فانها ان لم تستطع الحصول على بضعة جنيهات تستأجر
بها عددا من الفتيات للخياطة فى محلها ، لن يكون امامها الا ان تلقى
بنفسها فى النهر . فأعصابها قد اعلنت العصيان مؤخرا . والحقيقة
ان بعض التصريحات الغاضبة التى بدت منها لم يكن من سبيل الى
تفسيرها الا بذلك العصيان الذى اعلنته اعصابها .

حاولت فاني ، قبل كل شيء ، ان تكتشف ما اذا كان اتصال
ما قد تم بالفعل مع مجلة « العاكس » أم لا ، فسأنت ضيفتها :
- الى من افضيت بهذه التصريحات ؟ ذلك امر مهم للغاية .

لكن مسز سويز كانت ما زالت محتفظة ، فيما بدا ، بقدر من
التحكم فى اعصابها مكنها من الافلات من ذلك الشرك ، فتكلفت الابهام
والاستنكار . انم تمنح ماك خير سننى حياتها ؟ عندما بدأت معه
كانت فتاة متفتحة فى ربيع العمر ، ولم تكن قد عرفت رجلا قبله
او خبرت اى شىء عن الرجال فيما عدا هجوم بقصد الاغتصاب
تعرضت له وهى فى الثانية عشرة . والان اذا ماتخلى عنها ماك لن
تستطيع أن تجد رجلا غيره . وعملا على تأكيد ذلك اشارت لهما
الى التجاعيد التى حفرها الزمن وغدر ماك فى وجهها .
عندما قالت كل ما عندها .. بدأ ماك يتكلم .

أكد لها أنه من دعاة الحرية الكاملة للنساء . فهن متى اعطين
أنفسهن لرجل ، يجب أن يكون ذلك على مسئوليتهن الخاصة ،
فيتحملن كل ما ينجم عنه من مخاطر . فهو ضد أية قيود او وصاية
تفرض على اى امرأة . والحب ياعزيزتى ليس وثيقة تأمين ضد
الشيخوخة . الحب الذى يدوم يجب ان يكون حبا يستمتع به
المرء ، لا حبا يزاوله كواجب . وكل امرأة يجب ان تعتبر ملذاتها فى
الحب مكافأة كافية لها .

وهنا اخذت مارى تصرخ من جديد . نعم ، نعم ، نعم ؟ ما دخل
ملذاتها القديمة مع ماك فى هذا كله ؟ كان بوسعها ان تحصل على نفس
تلك اللذات عينها مع اى رجل آخر ، هه ؟ على سبيل المثال مع
رجل محترم لا يتخلى عن امرأة تضحى بكل شىء من أجله ، وتمنحه

زهرة عمرها وشبابها . ألم تكن بائعة فى احد المحلات ، وأخذها ماك من عملها واهلها لانه نظر الى اعلى عندما كلفها مدير المحل بالصعود على سلم لتحضر صندوقا من فوق احد الارفف فرأى ساقياها ؟ ولكن منذا الذى يريد ان يرى ساقياها الآن ؟ لا احد يريد ان يرى ساقياها . ذلك الشاب الوسيم الذى تحدث معها حديثا مستفيضا كله غطف ونطف وتفهم حول هذه الحكاية البشعة كلها قال لها ذلك . لم يعد بوسعها ان تعتمد على ساقياها .

أراد ماكهيث ان يرد عليها ردا عنيفا ، لكن فاني رأت أنه من الافضل أن يلزم المرء الحذر فى مثل هذه الامور . فوق انه كان من الواضح ان حالة الكساد التى انتابت الاعمال هى المسؤولة وحدها عن ذلك انسلوك العدواني من جانب هذه المرأة التى لولا ذلك الكساد لكانت قد ظلت امرأة لا ضرر منها .

سألتهما ماري مفضبة :

- كيف أستطيع أن أبيع تلك القمامة ؟ ليس كل زبائنى زبائن ساعات . لقد ظلمت أحاول أن أدخل تجارة الملابس الداخلية فى دكاني ، دون جدوى . هل اذا جاءتنى خادم تريد شراء قميص داخلى يتعين على ان أقول لها : لا توجد عندى قمصان داخلية الان ، الا تأخذين ساعة بدلا من القميص ؟ نعم ، ربما كانت سرقة الساعات أسهل - لا تقاطعانى . أنا أستطيع أن أستخدم عقلى حتى ولو لم اكن قد ذهبت الى المدرسة كزوجة ماك الجديدة .

كانت مفاوضات طويلة مرهقة . قاتلت ماري بضراوة النمرة . وعندما اقترحت فاني فى النهاية تسوية تقوم على تعهد من جانب ماك - رعم أنه لايعترف بأى التزام عليه قبلها - بتمويل عملية توسيع نشاط دكانها ليشمل بيع الملابس الداخلية ، بشرط ان تلزم هى الصمت بشأن علاقتها به ، تلقت ماري الاقتراح بجنبين مقطب ووجنتين متوهجتين غيظا وشكا .

لكنها عندما تسلمت الشيك غيبته بسرعة فى حقيبة يدها والجشع يطل من عينيها ثم أسرع بالانصراف دون أن تعنى حتى بالنظر الى ماك .



اصطحبت فاني ماكهيث معها فى تلك الليلة الى بيتها بلامبث . أعدت اشأى ، وجلست أمامه مرتدية بيجامة شفافة . لاحظ ماك سمرة بشرتها ، وتذكر بشرة بولى البيضاء كالحليب . قال فى

نفسه كم هما مختلفتان .
لكن فاني كانت امرأة قوية الشكيمة ، متفردة الرأي وقد
استقر رأيا على ما يجب أن يفعله ماك بدكاينه حرف «ب»
قالت انه بعد محاولته الفاشلة للحصول على المال اللازم لتعويم
تلك الدكاكين ، سواء بالزواج او بالاقتراض من البنك ، يجب عليه
أن يدرك أن الدكاكين قد باتت مشروعا خاسرا ، ومن رأيا أن يصرف
ماك نظرا عنها تماما ، فيتركها تفرق بأصحابها المتعيين .
قالت له وهي تميل الى الورا ، واضعة ساقا على ساق
وفنجانها في حجرها :

— لو فكرت قليلا لوجدت أن دكاني افضل الف مرة . ولو عرفت
أين تكمن مصلحتك الحقيقية لركزت على ذلك . ان جروتش بارع
جدا في هذه الاشياء . قال لي مرة انه لو استطاع فقط أن يحصل
على معدات حديثة لاستطاع أن يفعل بها كل ما يخطر للمراء على
بال . فان وجدت ان مثل هذا النوع من انشباط ابطأ من أن
يحقق لك ماتريد أمكنك أن تخطط خطة او خبطتين تجمع من
ورائهما مبلغا كبيرا من المال تشغله بعد ذلك كيفما شئت . لكنه
لن يفعل أي شيء الا اذا حصلنا له على معدات حديثة .
فقال ماك بلهجة من يتوقع سوء المصير :

— سنعود الى السطو ثانية ؟

— نعم . ولكن بمعدات حديثة !

فلم يتفقا الا وقد أوشك الصبح ان ينجلي .
قبل أن تذهب فاني الى محل العاديات ، رفعت اغطية الفراش
من الغرفة الاضافية ، وفي المساء جلس جروتش معهما وأمل شروطه .
لم يكن ما كهيث سعيدا بهذه الحكاية الجديدة كلها . فوق أنه
احس بمهانة حقيقية اذ وجد فاني تنظر اليه باعتباره رجلا فاشلا
لايستطيع حتى أن يعقد صفقة هامة مع أحد البنوك . ادرك ان
مكانته قد انحطت كثيرا ، وبشكل حاسم .

ذهب هو وجروتش ، بعد بضعة أيام ، الى ليفربول ، حيث أقام
معرض لاحدث وسائل الجريمة وطرق مكافحتها .

رأى الرجلان في ذلك المعرض عجبا . معدات لفتح الخزائن من
كل صنف ونوع ، حتى أحدثها وأشدّها منعة . بدا أن أشد أجهزة
الانذار تعقيدا وكفاءة لن تصمد أمام تلك الوسائل العلمية الحديثة ،
وأن الاقفال مهما بلغت متانتها لن تمثل عائقا الا بانسبة لاوى

المقاصد المشروعة ، أما بالنسبة للخبراء المتخصصين فهي عبث صغار .
بدأ يتشاجران في الفندق ذلك المساء ، لان جروتش صمم على
الحصول على المعدات الفرنسية بينما تمسك ماك بالنمادج
الانجليزية . قال لصاحبه :

- نحن في انجلترا يا جروتش ، ولسنا في فرنسا . من العار ان
يسرق الانجليز بعضهم بعضا بمعدات فرنسية . كيف يكون منظرنا
امام العالم متى تبين أننا نفضل منتجات الصناعة الفرنسية على
منتجات بلادنا ؟ هه ؟ قل لي فقط . سيكون منظرنا ممتعا . ان
مصيبتك الرئيسية أنك لا احساس لديك البتة بمعنى كلمة
« الوطنية » . هذه المعدات التي لا تريدها ابتكرتها عقول مواطنيك .
عقول انجليزية . وانتجتها الصناعة الانجليزية . ولذلك فانها
يجب ان تكون كافية لكل انجليزى . ولن أقبل أى شىء خلاف
ذلك . مفهوم ؟

انتظرا حتى الثانية صباحا ، ثم خرجا من الفندق خلسة ،
وذهبا الى المبنى الذى يضم معرض الجريمة الحديثة . وسرعان
ما تغلبا على مقاومة الخفير . لكن ماكهيت مالث ان سسمع وقع
اقدام فى الشارع ، فارتعدت فرائصه ، وخذلته شجاعته تماما .
وقف مرتجفا ، وقد تفصد جبينه بالعرق ، يحملق بعينين مدعورتين
غير قادر على اختيار الطفاشة المناسبة . هز جروتش رأسه أسفا
لهذا الجبن ، واخذ حلقة المفاتيح من اليد المرتعشة . بدأ واضحا
ان التاجر العظيم لم يعد أهلا لهذا النوع من العمل الذى تتطلبه
تجارته .

والحقيقة ان جروتش المسكين اضطر ان يقوم - تقريبا - بكل
شئ وحده ، وكان النجاح حليفه . فى صباح اليوم التالى وضعا
المعدات امام فاني .

كان جروتش - خلال ساعات فراغه - قد دبر أكثر من خطة
لمشروعات جديدة . وبذلك أصبح لديه عدد من المخططات يختار
منها ما يشاء .

قال متفكرا :

- كل مشروع منها يدور نهرا من المال . اليس ذلك أفضل من
الزواج ؟

لكن ماكهيت عندما ذهب انى سكوتلانديارد ليزور براون
ويسأله النصيحة فى أمر ما ، فوجيء مفاجأة غير مستحبة ، صاح

براون في وجهه مفضيا :
- اذن فهو ابن الحرام جروتش ! هذا اكثر مما يحتمل .
هل قرأت جرائد الصباح ؟
كان محقا في غضبته . فقد سلقت الصحف البوليس بالسنة
حداد ، وأحدثت ضجة كبرى حول حادث السطو على معرض
مكافحة الجريمة . ووجدت في الامر كله مادة للتفكحة والتريقة :
ها قد ضحك أحدهم على ذقن الشرطة وسرق معدات السرقة من
تحت انفها .

لذلك كانت ثورة براون عارمة . قال لماك :
- أنا لم أدع أحدا يسيء اليك ابدا ، أو يسلبك شيئا ،
وكنت اتوقع منك أن تظهر نفس القدر من الاهتمام بمستقبلي ، تماما
كما اهتم أنا بمستقبلك . نحن حتى الآن قد لعبنا لعبا نظيفا ، فلم
يحاول احدا خديعة الآخر . نعم أنا معترف عن طيب خاطر بأنني لم
أكن لأصل الى منصبى الحالى بهذه السرعة لولا الحبطات الموفقة التى
قمت بها بناء على ما تزودنى به من معلومات تتيح لى القبض على
أولئك المجرمين . لكن علاقاتنا ، التى تعود الى أيام ان كنا ، أنت وأنا ،
فى الهند معا ، تعنى بالنسبة الى شيئا أكثر من مجرد التعاون فى
مجالات العمل . وها أنت الآن تسقط من حسابك تماما أبسط
الاعتبارات التى يجب مراعاتها بين صديقين . أنت تعلم كم أحب
عملى . وتعلم انى لو لم اكن متعلقا بمهنتى لما أستمرت فيها . وتعلم
ايضا انى لست ايا كان ، وأن قدراتى كفيلة برفعى الى منصب مدير
البوليس . وليست الرتب هى التى تعينى ، حتى وان ظننت أنت
ذلك . لكنى لا اطيق أن ارى ذلك الحمار ويليم متربعا حيث لا يجب
أن يكون ، فى منصب لا يليق له البتة . سأعطيك حتى مساء اليوم .
يجب أن تكون العدد المسروقة امامى هنا قبل المساء ، والرجل الذى
سرقها ايضا .

أنصت ماكهيث لكل هذا بتعاسة . أدرك أنه قد تخطى كل الحدود
المسموح بها مع صديقه براون ، أو ، كما يقول الانجليز ، داس على
أصابع قدميه . فلم يجد مناصا من مصارحته بحقيقة الامر كله ،
وبالدوافع التى حدثت به الى الموافقة على القيام بتلك السرقة المشؤمة .
قال براون وقد بدأ يلين بعض الشيء .

- نعم ، نعم . ولكنك ، ان كنت بحاجة الى المال ، تعلم أن هناك
طرقا أخرى للحصول عليه . لماذا لا تريد اللجوء الى أحد البنوك ؟ هناك
بنوك أخرى غير بنك الائتمان الاهلى كما تعلم .

فقال مالك أن دكاكينه ، والشركة التي تمونها بالبضائع في حالة لا تشجع أي بنك على المخاطرة بتمويلها .
اذ ذاك أظهر براون طيب معدنه . عرض على صديقه ، من تلقاء نفسه ، أن يقرضه بعضا من ماله الخاص . ثم قال مخاطبا ضمير مالك :

— لماذا تضل عن الطريق القويم ؟ لماذا تمشى في سكة الهلاك ؟
هه ؟ لا يجب أن يمشى أحد في تلك الدرب أبدا . تاجر مثلك لا يجب أن يسرق . التاجر يشتري ويبيع . وهو — بهذه الطريقة التي يحبذها القانون — يصل الى نفس النتيجة . عندما انبطحنا على وجهينا في حقل الارز الموحد على مشارف بشاور ، تحت وابل مميت من الرصاص ، هل قمت واقفا فهاجمت أولئك السيخ الملاحين بغصن شجرة أو أى شيء من هذا القبيل ؟ كلا طبعاً . مثل ذلك الحمق كان يصبح شيئاً لا يليق برجل عملي يزن الامور ، فوق أنه لم يكن ليجدى أحداً شيئاً . أنت تقول أن اعمالك يجب أن تصبح في حالة تغرى البنوك بتمويلها . عظيم . اجعلها في تلك الحالة . لماذا لا تلجأ الى ؟ اذا كنت تجد غضاضة في الحصول على ما تحتاجه من المال من صديق مثلى ، ادفع لى فائدة على ما تقترضه . ادفع لى — لكى تتخلص من الاحساس بالغضاضة — فائدة اكبر مما انت حري بأن تدفع لاي شخص آخر ، عشرين ، أو حتى — ان شئت — خمسة وعشرين فى المائة . واذذاك تصبح أنت صاحب الفضل لا أنا . أنا اعلم جيداً انك رجل اعمال يركن اليه ولا اريدك أن تنحرف وتفسد كأي غر مفتون لا يعرف ما فيه صالحه ، ولا يفهم فى الاعمال شيئاً ، فينحط ويسرق . لا يجب أن تعمل مع اناس على شاكلة جروتش هذا ثانية ، أبداً . اعمل مع البنوك ، كأي رجل أعمال محترم ! فذلك شيء يختلف الاختلاف كله !

جاشت نفس مالك جيشانا عنيفا وهو يصغى لصاحبه . ود لو عانق براون . لكنهما ككل رجلين خاضا مهالك الحياة معا ، وواجهوا أعاصيرها جنباً الى جنب ، لم يكن من السهل عليهما أن يبكي كل على كتف الآخر . فنظرة حرج وتأثر فى موقف كهذا تعبر عما يجيش فى النفس بأبلغ مما يستطيعه أحر عناق .
قال مالك بصوت مختنق :

— يا سلام ! ليس هنالك صديق مثلك يا فردى . هناك دائماً من لا يظنون على غيرهم بالنصح ولا شيء غيره . أما أنت ، فتمد يد العون . فى ساعة الضيق . العون العملى . هذا هو ما جعلت الصداقة

لاجله ، وهذه هي الصداقة الحقة ، يد الصديق . .
قاطعته براون وهو يحدجه بنظرة جادة :

— هناك شيء واحد أطلبه منك لقاء ذلك كله . اطلب منك أن تتخلى
عمن هم على شاكلة جروتش وأوهارا ، بصورة نهائية وكاملة . تقطع
كل صلة لك بهم . فان لم تستطع ان تفعل ذلك على الفور — وانا
اقدر ارتباطك — فلا اقل من أن تنهى علاقاتك بهم بعد أن تكون قد
خرجت من هذه الورطة القبيحة . تلك العملية التي تفكر فيها قد
تمكنك من أن تفعل ذلك . وأنا ان كنت أساعدك اليوم ، فما ذلك
الا لانى اريد أن اراك فى صحبة غير صحبة هؤلاء مستقبلا . لكنى
لا اعنى بذلك الغد ، او حتى بعد غد . فأنا مدرك تماما أنك ما زلت
محتاجا لهذه المخلوقات لكى تنجح . لكن سيأتى وقت بغير شك
يتعين أن تضع فيه حدا نهائيا . ذلك ما أصر عليه .

أوما ماك برأسه ، فاقتدا لكل نطق ، والدموع فى عينيه .
ذهب من عند صاحبه سعيدا ، ممتلئا سعادة . فقد قررا أن يدعا
جروتش فى حاله مؤقتا ، على أن يلقي براون القبض على رجل آخر
بوصفه مرتكب السرقة . وقد قام ماك نفسه بتسليم المسروقات الى
براون بعد ظهر اليوم .

وبالمثل حافظ براون على كلمته ، ولو أنه لم يكن من السهل عليه
أن يدبر المبلغ الذى سيقرضه لماك . وجد لزاما عليه أن يأمر بمداهمة
عدد من النوادى أولا . وقد رأى ماك نتيجة جهود صاحبه عندما
زار صديقه من منزل لكسر فى تبريدج يوم الخميس التالى . اشتكت
له الفتيات من الشكوى من الاستقطاعات التى خصمتها المعلمة من
أجورهن بعد غارات البوليس على بعض البيوت الاخرى .

لكن تلك كلها تفاصيل صغيرة . المهم أن براون حافظ على وعده
بتمويل ماك ، وأن ماك وجد بين يديه ، خلال اسبوع واحد لا اكثر
ما كان يحتاجه من مال ليرفع كفاءة « مندوبى مشترياته » الى أعلى
ذروة لها .

اجتمع بأوهارا ، ووضعها معا خطة مفصلة بحملتهما المقبلة . واحسنا
الاستعداد للايام القادمة . فبالاضافة الى ما كان نديهما من مخازن
عديدة ، أستأجرا عدة شواذر ومغارات ، وعززا أسطول النقل بعدد
من اللوريات الثقيلة . وبالنسبة للعمليات المقبلة فى بعض بلدان
الأقاليم ، أودعت المبالغ اللازمة ، وأستؤجرت أماكن الإقامة .
بإختصار ، ثم ترتيب كل شيء .

والحقيقة أن الفتى أوهارا اثبت — رغم شبابه وميله للعبث — أنه

ممن يعتمد عليهم تماما عندما يجد الجد . فوق أنه كان قد اظهر دائما نفورا ملحوظا من التورط شخصيا فى أى سرقة من السرقات التى يقوم بها رجاله . وذلك - فى واقع الامر - اول اسس النجاح فى المسيرة المحفوفة بالشراك الى المستقبل العظيم الذى ينتظر الموهوبين أمثاله : أن يدع غيره يقوم بالاعمال القدره . وقد لاحظ ماكهيث تلك السمة من فوره ، وأدرك أن ذلك الفتى يشبهه فى اشياء كثيرة . حتى فى بداياتهما . فصعود أهارا سلم النجاح والشهرة بدأ هو الآخر من الصغر . عندما بلغ السادسة عشرة وضع فحولته فى خدمة عدد من سارقات المحلات التجارية والخادمت خفيفات اليد . فلا تكاد الواحدة منهن تقضى أسابيع قليلة من مدة عقوبتها فى السجن حتى تحصل على عفو ، اذ يكتشف طبيب السجن انها حامل . وقد ذاعت لاهارا شهرة مدوية بين ذلك الصنف من الفتيات آتئذ ، وأفلدن من خدماته مقابل اتعاب مجزية . لكنه - بعد أن سار قدما فى طريق النجاح - لم يكن يحب أن يذكره احد بتلك الايام او تلك المهنة .

ولم تكن فانى تميل اليه كثيرا . قالت عنه دائما أن النساء يعقولهن الصغيرة دللنه حتى أفسدنه . وكانت ، فوق ذلك ، لا تثق فيه . ثم انه كان منافس جروتشس الاول على المركز الثانى فى العصابة . وكانت حادثة ليفربول قد أسقطت جروتشس فى نظر ماكهيث كثيرا . وبدأ أهارا يسبق منافسه .

كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى بيت فانى الالمبث ، وقد درج ماك على الانصراف ، بعد الاجتماع ، فى صحبة أهارا . غير ان فانى لم تكن على كل ذلك القدر من السذاجة . أدركت ان انصرافه مع أهارا يعنى انه هو ايضا لا يثق بذلك المفتون . لقد حاول أهارا فى تلك الايام أن يصل ما كان قد انقطع بينهما ، فجاء ذات يوم حاملا عزاله ، يريد أن يقيم معها ، فاضطرت الى مصارحته برأيها فيه بكل وضوح .

لكن اكثر ما كان يثير حفيظتها على أهارا موقفه الصفيق من مسألة تقسيم الغنائم . فهو فى ذلك مصاص دماء بحسق ، لا يشبع ، ويريد كل شئ لنفسه . فوق انه - حتى وان كان ذلك لا يعود عليه بأى نفع - لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يحاول انقاص نصيبها هى بالذات .

قالت انه لا ينام فى الليل أبدا من فرط انشغاله بابتكار طرق تمكنه من اغتصاب اموال الآخرين . ولقد وبخته أكثر من مرة أمام

الجميع على تلك الخصلة التي قالت أنها ليست في صالح العمل ،
وانها - من اناحية المالية البحتة - خصلة غبية للغاية .
بعد حادثة ليفربول بوقت قصير ، قبض البوليس على « روبرت
المنشار » باعتباره مرتكب السرقة . ولم يمر الامر بسلام . فقد
كادت العصابة تعلن العصيان على زعيمها . اشيع أن روبرت المسكين
سلم الى البوليس ككبش فداء ، وبدأ البعض يتذكرون - فجأة -
حالات عديدة مماثلة وقعت على مدى السنوات الماضية .
كان أوهارا أول من حمل أنباء التمرد بين صفوف العصابة . وقد
جاء بتلك الانباء المزعجة مبتسما - برعونته الايرلندية - ابتسامة
عريضة شقت وجهه من الاذن الى الاذن . فأسكتته فاني غاضبة .
وقالت له ، وقد بدا اضطرابها واضحا ، أن الامر ليس فيه
ما يضحك ، وأن التمرد - ان كان قد وقع حقا - أمر خطير للغاية ،
ويؤسف له أسفا شديدا .

قال أوهارا ساخرا وهو يرمق ماكهيث بنظرة شيطنة :
- لكن الزعيم ذهب بنفسه الى روبرت المسكين في زنزانته
وصافحه بحرارة !

وكان ماك قد ذهب بالفعل لزيارة مستخدمه منكود الحظ في
سجنه ، بعد أن سلمه بيده الى براون ، وقال له أنه لن يتخلى عنه ،
وأنه سيقف بجانبه حتى النهاية . فهو في مثل تلك المواقف يظهر
مواهبه الحقيقية كقائد محنك .
لكن فاني اعتبرت تلك اللفتة منه مجرد لفتة كلبية لا تستحق
احتراما .

احتدم نقاش طويل بعد ذلك بين فاني وأوهارا ، جلس ماك خلاله
صامتا وبين أسنانه سيجار أسود رفيع . بدأ واضحا أنه استمتع
كثيرا بتبادل السباب بين الاثنين . كان لا يزال يحس بالغيرة من
أوهارا ، رغم أنه لم يكن يحب فاني ، لكنه سعد على أي حال لخيبة
ذلك الايرلندي المفتون معها .

قالت فاني أن القبض على روبرت المنشار كان غلطة . وأن المتاعب
لن تتوقف بعد ذلك في صفوف العصابة . وأن عددا من العمليات
قد فشلت بالفعل نتيجة لذلك التدمير . وتوصلت الى اقناع أوهارا ،
بعد نقاش طال عدة ساعات ، بالتوقف نهائيا عن تسليم افراد العصابة
الى البوليس . بل ونجحت في اقناع ماكهيث - الذي كان يعمل
دائما الى اظهار الكرم تجاه رجاله - بالتعاقد مع مكتب محام محترم

يتولى الدفاع، عن يقبض عليه من أفراد العصابة .
وقد ذهب ماك الى ابعاد من ذلك ، واعد بدفع مرتبات شهرية
ثابتة لرجاله . والحقيقة أنه وزن الامر جيدا فوجد أن تلك المرتبات
الثابتة ستكلفه أقل ، خاصة وأنه - تبعا لمشروع التوسع الجديد -
مقدم على حركة « شراء » واسعة النطاق تمكنه من تزويد دكاكينه
باستوكات من البضائع تشير اهتمام أى بنك يتفاوض معه .

لكن العصابة اعتبرت نظام المرتبات الثابتة هذا نصرا كبيرا لها ،
ولم تفتن الى ما فيه من فائدة لزعيمها . وباتت فانى - التى عرف ،
بطريقة ما ، أنها السبب فى تطبيق ذلك النظام - بطلة العصابة
المحبوبة . قيل (وقد كان لجروتش ضلع كبير فى كل ذلك) أنها
أرغمت الزعيم على تحمل كافة المخاطر بمفرده ، وأنه اضطر الى
الموافقة لأنه فى حاجة اليها ، ولا يملك أن يفضيها أو يعارض رأيها .

وهكذا فان لصوص اوهارا لم يعودوا - بعد عملية اعادة التنظيم
هذه - لصوصا يعملون بالقطعة ، بل أصبحوا مستخدمين فى شركة
كبيرة ، وهو ما أتاح لهم أن يعملوا بكفاية أعظم . لان وسائل التنظيم
الحديثة دخلت فى مجال عملهم ، واوجدت الطريقة المثلى للافادة
من تخصصاتهم ، والتنسيق بينها ، وتوجيه جهودهم بما ينفذ
سياسات العصابة ويؤدى الى تحقيق أهدافها . وقد بعثت تلك
الوسائل الحديثة احساسا بالراحة فى نفوس أولئك الرجال بما اشاعته
فى وجدان كل منهم من شعور بالمعاصرة ، فوق أنها حققت لهم
استقرارا كانوا يحلمون به دائما ، لان اعتماد كل منهم على عمل الآخر
جعل من المحتم استمرار عملهم فى خدمة العصابة ، ودفع أجورهم
بانتظام .

قالت فانى لماكهيث بعد انصراف اوهارا ذات ليلة :
- أنت بهذه الطريقة قد تمكنت من الامساك بهم جميعا فى
قبضة يدك . لم تعد بحاجة الى أن تشهر مسدسا أو سكيننا فى
وجوههم (وهو ما لاتستطيع أن تفعله على أية حال) . لان شيئاً أهم
من ذلك بات يغلبهم اليك، فأنت تحتفظ لديك بأدوات عملهم . ولم تعد
بحاجة أيضا الى تسليمهم للبوليس ، لان الخوف من الجوع سيجعلهم
يتمسكون بالبقاء فى خدمتك . كل اصحاب الاعمال المحدثين يفعلون
ذلك .

هز ماكهيث رأسه مؤمنا، وهو غارق فى أفكاره . أخذ يذرع الغرفة
جئة وذهابا ، سائرا على السجادة الصينية الزرقاء ، اثنى مقتنيات

فانى على الاطلاق ، وهو يعبت ببضع قطع من النقود المعدنية فى جيب
سرواله ، ويخرجها ، بين الحين والحين ، ليلقى بها الى أعلى ثم يلقيها .
كان قد أوشك على الافاقة من أثر الطعنة الغادرة التى تلقاها على
أيدى القرن ونصف القرن ، وبدأ عدد من الافكار العظيمة يجول فى
رأسه ، ومن الافكار تنبع خطط مهولة .

لكن تلك الخطط المهولة - على ضخامتها - لم تنبثق من أى احساس
بالثقة الزائدة بالنفس من جانبه . كانت ضخامتها راجعة الى
الضرورة وحدها . فهى ضرورية لانقاذه من الخراب الذى أوشك أن
يحيق به . ازدهر نشاط « الشراء » فى منظمته كما لم يزدهر
من قبل ، فبدأ سيل من البضائع يتدفق على الدكاكين . اكتظت
الارفف الحشبية حتى ضاقت بما تكدرس فوقها من سلع . وفتيات المشغل
فى دكان مارى سوير بدأن يسهرن الى ساعة متأخرة من الليل لينهين
ما لديهن من عمل . بالات ضخمة من الجلود المدبوغة تحولت الى
احذية . وكميات هائلة من خيوط الصوف أعملت فيها ابر تحركها
أياد دؤوب لعائلات بأكملها فتحولها الى ثياب صوفية عديدة الاشكال
والالوان . والجحور الكثيبة المعروفة باسم دكاكين حرف « ب »
امتلاً كل ثقب فيها بالادوات الكتابية ، والمصاييح ، والآلات الموسيقية ،
والسجاجيد .

لكن ماكهيث كان يدرك أن المال الذى أقرضه له براون لن يكفى
لتشغيل عصابة أوهارا لاكثر من ستة اسابيع .
فى مثل تلك المواقف لا تكون نجاه الا بوضع خطط ذات أبعاد
نابوليونية حقا .

(٨)

« يشتبك المرء أولا ، وبعد ذلك يرى »

(نابوليون)

« أوه ! انها تمطر خارجا !
« أوه ! لكن النار ممسكة بالبيت ، لا تنسوا ذلك !
« نعم ، لكنه من الافضل لنا
« بدلا من ان نحترق احياء ،
« ان نخرج فتبتل ثيابنا ! »

(أغنية الرواد الصفار)

خطط نابولونية

في احدى العمارات الكبرى في حى المال والاعمال استأجر رجل في مقتبل العمر طابقا بأكمله . وقع الفتى العقد باسم لورد بلومزبرى ، وأثث أربع أو خمس غرف لتكون مكاتب لشركته . حقيقة ان الاثاث كان معظمه رثا قديما ، لكنه أضفى على الحجرات تلك المسحة من الاحترام التى يوحى بها القدم . وقد ساعدت الفتى امرأة فى مقتبل العمر ذات بشرة تخطف العين بسمرتها الذهبية ، فقامت بكل شئ معه ، حتى اختيار الموظفين .

قالت له عندما وصل الاثاث ورأته ينظر اليه باستهجان :

— تعرف ؟ الشركات القديمة لها جاذبية خاصة لدى الناس فقدمها يوحى بأنها شركات محترمة لم تتعرض للمتاعب أو القلاقل أبدا ، وانها ستظل كذلك ، لانها ما دامت قد عاشت كل ذلك العمر الطويل دون أن ينكشف أمرها ، لا يحتمل أن يحدث لها ذلك مستقبلا .

أعدت أكبر الحجرات لتكون قاعة اجتماعات ، وعلى الباب الزجاجى الخارجى كتب بحروف ذهبية كبيرة « م . م . م » وتحتها ، بحروف أصفر كثيرا : « المجلس المركزى للمشتريات » . كان الاجتماع الاول لمديرى الشركة الجديدة قصيرا . أخذت الاصوات ، فصوت أعضاء المجلس وهم : محاميان ذائعا الصيت فى حى المال والاعمال ، وسيد يدعى مستر أوهارا ، ولورد يدعى بلومزبرى وسيدة تدعى مسز كرايزلر ، بالاجماع ، على انتخاب سيد

اسمه مستر ماكهيث ، ومهنته تاجر ، رئيسا لمجلس ادارة الشركة .
اما نائب الرئيس فكان لورد بلومزبرى . كان ماكهيث قد التقى به
فى بيت من بيوت المتعة بتنبريدج حيث ألف أن يقضى مساء الخميس
من كل اسبوع ٠٠٠ كاجراء صحى . لم يجد ماك صعوبة فى اقتناص
ذلك الغر الذى لا ضر منه ، لان الفتى كان فى حاجة مزمنة الى
النقود ، رغم لقيه الرنان ، وكان كل اعتماده فى معاشه على الفتاة
جينى مانت ، نجمة بيت مسز لكسر . والحقيقة ان ماك وجد الفتى
غيبا غباء لا يطاق ، لكنه قليل الكلام بدرجة لافتة للنظر ، يتمتع
وجهه بنعمة ابتسامة مباغته ترسم عليه لغير ما سبب على الاطلاق ،
تعبر عن خجل واحراج لا يحسهما البتة . وهكذا فانه - فى جملة -
كان صيدا ثمينا ، لانه يخلف انطباعا حسنا فى نفس من يراه . وقد
توصل الى أن يعيش حتى الان على ذلك الانطباع وحده ، ولا شىء
سواه .

انحصر اول نشاط للشركة فى تحرير عقدين ، تعهد مستر اوهارا ،
بموجب اولهما ، بتزويد شركة م . م . م . بشحنات ضخمة
من البضائع المتنوعة ، واكتسب مستر ماكهيث ، بموجب ثانيهما ،
الحق فى اسبقية الشراء على تلك البضائع جميعها لدكاينه حرف
«ب» . ولم تكد الشركة تنتهى من أبرام هذين الاتفاقين حتى تخلى
مستر ماكهيث عن مقعد الرئاسة لصديقه اللورد بلومزبرى ، راجيا
الحاضرين أن يبقوا أمر رئاسته للشركة سرا ، مؤقتا .

تفرق الجميع بعد ذلك وهم على وفاق تام ، وبدأت مكاتب الشركة
تعمل بنشاط تحت ادارة السيدة كرايزلر الحازمة . وقد تركز
نشاط تلك المكاتب فى مراسلة عدد كبير من الوكلاء فى مختلف أنحاء
الجزر البريطانية والقارة الاوربية ، كانوا ينوبون عن شركة م . م . م .
فى شراء المخزون من بضائع الشركات التى تفلس ، وتسليم تلك
المشتريات الى مخازن الشركة فى حى سوهو . وقد عنيت مسز
كرايزلر عناية فائقة بنظام الحفظ والارشيف بمكاتب الشركة .
فكانت فواتير شراء البضائع التى تتسلمها مخازن سوهو ، وايصالات
المبالغ المدفوعة للشركات المفلسة ، ثمنا لتلك البضائع ، تحفظ بعناية
فى قسمين مختلفين من أقسام الشركة . فوق ان القيود الخاصة
بكافة اللوطات المسلمة للمخازن كانت تمسك على حدة فى دفاتر
مستقلة تماما عن تلك التى تدرج فيها قيود البضائع التى تتسلمها

المخازن لمحلات حرف «ب» .

ولم يمض على افتتاح مكاتب الشركة أسبوعان الا وتقدم سيدان حسنا الملبس ، هما مستر ماكهيث ، ولورد بلومزبرى الى المختصين فى « البنك التجارى » ، طالبين مقابلة السيد رئيس مجلس الادارة . كان ذلك البنك من البيوتات المالية الحديثة نسبيًا ، ذات المعاملات الواسعة فيما وراء البحار ، ومبناه الفخم فى شارع رصل ينبىء عن ميل غير مألوف فى البنوك الى الجودة والمبالغة فى الزركرة . وقد تخصص البنك فى تمويل المنشآت التجارية بمختلف أنواعها ، ومن بينها سلسلة محلات هارون (منافس ب . كرسون الخطير) وعدد كبير من المنشآت الماثلة ، الاصغر حجما ، فى الاقاليم .

باختصار كان ذلك البنك من البنوك المحترمة ، شديدة الاحترام ، فوق خبرته الواسعة بكل ما يخص تجارة التجزئة . ولذلك استقبل ماكهيث ، عندما طرق ابوابه ، استقبالا متحفظا للغاية . وما لبث ان تبين ان البنك ملم ، الماما يشر الدهشة ، بكل ما يتعلق بمنظمته وبالمركز المالى لدكاينه حرف «ب» .

لم يتقدم ماكهيث الى البنك كرجل أعمال متمكن متعال ، بل كإنسان مسكين حل به الخراب . كان ذلك هو الخط الذى قرر ان يتبعه مع البنك الجديد . ذهب اليهم بوجه ممتنع وقطرات العرق البارد ترصع جبينه معترفا لهم بأنه إنسان محطم ، لم تعد به قوة للنزال ، فقد ذهب الى بنك الائتمان الاهلى بكل براءة ، واضعا ثقته الكاملة بمديره ، فصارحهم بخطته ومشروعاته ، فاذا بأولئك الناس يسرقون أفكاره وعصاره ذهنه ويذهبون فيعطونها الى شركة كرسون . وها هو الان ملزم بالوفاء بتعهداته لشركة م.م.م . واستئجار المخازن الهائلة ، التى تسرع فتعاقد عليها ، لثقته بأن بنك الائتمان الاهلى لا يمكن ان يتخلى عن تمويل مشروع كهذا ، ودون أن يتصور طبعًا امكان وقوع خديعة كتلك التى تعرض لها ، فوق اضطراره الى الوفاء بالايجار الباهظ والفائدة المرتفعة التى تطلبها شركة م.م.م . وهو مفتقر الى المال اللازم الذى يمكنه من توسيع أعمال دكاينه والحصول على الائتمان اللازم . أما المخازن فمن الممكن معاينتها بالاتفاق مع شركة م.م.م .

قام البنك فعلا بتلك المعاينة . فكانت لها نتائج مشجعة للغاية ، اذ اطلع مندوبو البنك على قوائم وايصالات تغطى كل المشتريات ، بعضها صادر من شركات دنمركية وفرنسية .

الحقيقة ان وجوه مديري البنك التجارى ظهر عليها الارتياح البالغ فى أعقاب ذلك الفحص .
لكن ماكهيث وبلومزبرى عندما ذهبا الى البنك فى اليوم التالى ، فوجئا بوجود سيد بدين له سحنة يهودية للغاية ، جالسا بجوار السيدين جاك وهنرى أوبر . أخذ ماكهيث قليلا بتلك المفاجأة فالسيد البدين يهودى السحنة كان اسحق هارون ، صاحب سلسلة محلات هارون ، بلحمه وشحمه . قال أصغر الاخوين أوبر بعدوبة :
- هذا طبعا مستر هارون ، ولا اظنكما تجهلان اسمه . مستر هارون مهتم كثيرا بأفكاركما النيرة يا سادة !

لكن اسحق هارون لعنة الله عليه يمتلك ثمانية عشر محلا من المحلات الكبرى فى أرقى أحياء لندن تعتبر محلات حرف «ب» ، بالمقارنة اليها ، كالجراء الضالة الصغيرة بجوار كلاب نيوفاوندلاند العملاقة .

ظل ماكهيث مترددا بعد تلك المفاجأة . فكر فى الانصراف غاضبا . لكن نظرة واحدة الى الاخوين أوبر كانت كافية لاقتناعه بأنهما لن يدخلوا فى أية مفاوضات بدون هارون . راوده احساس مزعج .. جعلته الاحداث التى وقعت بعد ذلك يتذكره كثيرا - مؤداه أن هؤلاء الناس قد ضحكوا عليه مرة أخرى . لكن موقفه لم يكن يسمح بأى تراجع . كان فى حاجة الى المال .

أعاد ماكهيث رواية قصته فعلق عليها هارون بصوته البجوح قائلا نعم هذا هو ما يتوقع من رجل مثل كرستون . وقال ان رأيه فى ذلك الغر المفتون يعرفه الجميع ، لكنه - على أية حال - أفاض فى شرح ذلك الراى بقدر كبير من التطرف وخفة الدم ، مؤكدا لسامعيه أن كرستون هذا ، وهو شاب أرعن فى مقتبل العمر ، لا يتورع عن شئ ، وأن همه الاول والاخير فى الحياة تكديس المال ، وانه بالرغم من صغر سنه - وربما بسبب ذلك - يعتبر نموذجا حيا لذلك الصنف « الدقة القديمة » من رجال الاعمال الذين يفعلون كل ما فى طاقتهم للاحتيال على الجمهور . هو شخصا ، اسحق هارون ، ليس من دعاة التمسك بالاخلاق أو أى شئ من هذا القبيل ، بل ان قلة الحياء تمتعه كثيرا ويجد فيها مسلاة عظيمة ، لكنه فى مجال الاعمال لا يسمح بأى شئ من ذلك على الاطلاق ، لا لشيء الا لأن الامر لا يستحق المخاطرة .

ثم أضاف بعطف أبوى حنون وهو يربت على ركية ماكهيث الذى

ود لو دق، عنقه :

- ان فكرتك عن توحيد الاسعار لا بأس بها بالمرّة . لكن مخازنك هي التي تثير اهتمامي حقا .
وهنا استندار الى لورد بلومزبري - الذي يمثل شركة م.م.م . -
وقال له معاتبا :

- كيف حدث أن ذهبتم الى ماكهيث اولا ؟ كان يجب أن تأتوا الى رأسا . لكنني أدرك الان ان الطريق اليكم يجب ان يكون من خلال صاحبنا ماكهيث ها ها ها . يعني اخوتنا الصفار دكاكين حرف «ب» يجب أن يسمح لها باقتحام الملعب ها ها ها .
أصفي ماكهيث بكآبة جنائزية غير واجد في كل ذلك ما يدعو للقهقهة . فوق ان فكاهات ذلك اليهودي الشحيم كانت ثقيلة الظل .
ثم انه لم يحس أدنى رغبة في اقتسام مخازنه مع هارون . والحقيقة انه لو لم يستخدم كل ما لديه من قدرة على ضبط النفس لما تمكن من الاستمرار في أداء دور رجل الاعمال الصغير المسكين الذي لحقته اهانة بالفة على يدى ابن الحرام كرستون .

وعلى العكس منه تماما ، بدأ هارون البدين مستمتعا بالامر كله غاية الإستمتاع . ولو ان ماكهيث لاحظ ان الرجل ، رغم جدله ، يحتقن وجهه كلما جاء ذكر كرستون . بدأ واضحا أن هناك حسابا عسيرا بينه وبين كرستون يجب أن يسوى .

حقيقة الامر ان كرستون كان قد بدأ يصعد سلم النجاح قفزا ، وانه قفز مؤخرا أكثر مما ينبغي . ومن جانب آخر بدأ أن بنك الائتمان الاهلى كان يمثل - بالنسبة للبنك التجارى - نفس الشيء البغيض الذي كان كرستون يمثله بالنسبة لهارون . فالقرن ونصف قرن مجالهما من قديم الارض والعقارات . ما الذى أدخلهما في تجارة التجزئة أيضا ؟ وبنكهما على أية حال دكانة صغيرة خائبة تضم بضع خزائن عتيقة يكسوها العفن . البنك التجارى بطبيعة الحال أكبر من أن يحس بالفيرة من بنك قمى كهذا أو يعتبره منافسا له . لكن البنك التجارى يعتز كثيرا بما له من نفوذ في مجال تجارة التجزئة ، ولا يروقه البتة أن يزج بنك صغير كهذا أنفه في ذلك المجال . هذا واضح طبعا . فالبنك التجارى يعتبر نفسه الحجة الثقة في كل ما يخص ذلك الفرع من فروع التجارة . وهو بنك لا رغبة لديه في التورط في أية صفقات تتسم بالعجلة أو الانحراف قيد أنملة عن قواعد الاخلاق . فرسالته الحققة في الحياة هي رعاية الاخلاق والحفاظ عليها في تجارة التجزئة .

كان من الواضح للبنك طبعاً أن أمثال ماكهيث لا يمكن للمرء أن يعاملهم إلا وهو يمسكهم بملقاط ، ومع ذلك بدا أن الرجل - رغم أخلاقياته غير المستساغة - قد عومل معاملة غير عادلة . والحقيقة أن الرجل المسكين يبدو محطم الأعصاب . فقد أجاد ماكهيث القيام بدور الرجل الذي هدته نواذب الدهر ، وأجهز عليه غدر الناس وختلهم .

ولم يكن ماك غرا أو ساذجا . كان يعرف جيداً ما هو بسبيله . ويعرف أيضاً كراهية هارون لكرستون وكراهية البنك التجارى لبنك الائتمان الاهلى . فأظهر ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه ممتلىء نقمة على كل من كركستون وبنك الائتمان ، وأنه لن يتورع عن شيء فى سبيل الانتقام منهما ، حتى ولو ضحى فى سبيل ذلك بمصالحه الشخصية . فلما وجد استجابة لذلك الدور آمن فيه ، متظاهراً بأنه قد أطلق العنان لعواطفه وأن نقمته قد غلبت على حسن تقديره للأمور ، فعرض مخازنه على اسحق هارون بثمن بخس لا يعقل ، لكى يمكن هارون « من سحق كركستون » ، قائلاً أنه لا يطلب شيئاً إلا أن يسمح للدكاكين حرف «ب» التى يلتزم بتعهدات معينة تجاهها ، بالدخول فى الصفقة ، خاصة وأن أصحابها جميعاً من صفار التجار الذين أولوه ثقتهم .

نجح ماك فى مخططة نجاحاً مبدئياً بذلك الدور الذى اداه باتقان . فقد قرر البنك التجارى والسيد اسحق هارون أن يدرسا المشروع دراسة جدية وقد بدا لهما من أداء ماكهيث أن هناك فرصة سانحة لاستغلال هوس الانتقام الذى تسلط عليه - رغم أن ذلك الهوس بدا للسيد أوبر وللسيد هارون أيضاً ضعفاً مؤسفاً يعزز ما تردد دائماً من شائعات عن ماضى ماكهيث العكر .

وهكذا تلقى ماك (أو نابوليون دكاكين حرف «ب» كما أسماه فيما بينهم) دعوة من مستر جاك أوبر ، رئيس مجلس ادارة البنك التجارى ، لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى قلعة واربورن .

ولم تكن تلك بالدعوة الهينة . فقلعة واربورن ، بالنسبة لتجارة التجزئة ، كانت تمثل ما يمثله شارع داوونج فى عالم السياسة ، وول ستريت فى عالم المال . كانت قبلة تتجمع فيها كل الخيوط ، وتحرك بعض الاصابع فيها كل تلك الخيوط ، فتتحكم فى مقدرات تلك التجارة وثروات أهلها .

لهذا عاد ماكهيث الى مكاتب شركة م . م . م . وهو من الاثارة فى حال . فلم تكذ فانى تسمع بالنبا الخطير حتى أرسلت من يستدعى

الفتى بلومزبرى على الفور ، لأن ماك صارحها في غير موارد أنه لا يعرف كيف ينبغى للمرء أن يأكل السمك - مثلا - في مأدبة تقام في مكان كقلعة واربورن ، وأنه - رغم حداثة عهد الاخوين أوبر بتلك القلعة - لا يريد أن يبدو أمامهما جلفا .

وقد حلت فاني الاشكال على الفور ، بطريقتها التي لا التواء فيها ، مع جاك أوبر . ذهبت لمقابلته في البنك التجارى متأبطة محفظة أوراق مكتظة بالتفاصيل والبيانات، وفي تلك المقابلة توصلت الى أن تزيل من ذهن أوبر أية أوهام تكون في رأسه عن سلوك رئيسها . قالت له أن الناس الذين ألفوا أن يفترقوا المال بيديهم ، يأكلون طعامهم بنفس الطريقة ، فيفمسون بأصابعهم ، وقد يلغقونها متى راق لهم ما يأكلون ، وانه اذا دعى بلومزبرى ، فقد يستطيع ان يوازن ، الى حد ما ، مواهب ماكهيت في ذلك المجال . وهكذا دعا جاك أوبر لورد بلومزبرى أيضا .

لكن تلك المناورة لم تكن بارعة بالقدر الذي تصورته فاني . لان ذلك الشاب النبيل لم يكن يقيم للأخوين أوبر كل ذلك الوزن الذي أقامه لهما ماك وفاني ، أولا لانه لم يكن يفهم شيئا على الإطلاق عن قيمة النقود ، خلا انها شيء يقترض ولايرد وينفق بمجرد اقتراضه ، وثانيا لان الاخوين أوبر كانا في تقديره من محدثي النعمة . ولذلك فانه تمسك بأن يصحب معه صديقه جيني ، (نجمة ذلك البيت من بيوت المتعة الذي قابله فيه ماك) ، باعتبار أنها أخته ، لكي تقدم في قلعة واربورن عرضا لاحد رقصاتها العارية ، مؤكدا ان ذلك جرى بأن يحدث نتائج مذهلة .

وقد أقنعت فاني بالعدول عن تلك الفكرة المهلكة بعد أن كادت تزهب روحها . ثم انصرفت بعد ذلك الى الاشراف بكل دقة على اختيار ثياب ماكهيت ، ووجدت صعوبة بالغة في اقناعه بالتخلي عن عصاته المسلحة . قالت له وهي تأخذها منه :

- لم تعد في حاجة اليها الان .

لكنه في اللحظة الاخيرة اشترى لنفسه قفازا صارخ اللون من وراء ظهرها ، مما سبب للورد بلومزبرى متعة لا توصف .

وفي أثناء الرحلة الى قلعة واربورن ، توصل لورد بلومزبرى الى اقناع ماك - بنفس الروح الشريرة التي جعلته يستمتع بمنظر ذلك القفاز الفاقع - أن أفضل تاكتيك يتبعه هو الا يغير من سلوكه الفج المألوف شيئا والا فان الاخوين أوبر لن يجدا متعة تشجعهما على

التعامل معه ، لان السبب الوحيد لقبولهما فكرة التعامل مع ماكهيث
— في تقدير اللورد الشاب — كان احساسهما بالتعالى عليه .
والحقيقة ان تلك الموعظة الصغيرة الضارة كانت كل ما أسهم به
بلومزبرى فى غزوة ماكهيث لقلعة واربورن .

غير ان الوقت الذى قضاه ماك في ضيافة أولئك الناس كان أمتع
كثيرا مما توقع . والحقيقة أنه احس ان وجود بلومزبرى معه لم يكن هناك
ما يدعو اليه البتة ، خاصة وان مشكلة السمك لم تعرض له اصلا .

أما ما أثار دهشة ماكهيث حقا ، الطريقة التى تعالج بها الاعمال
فى تلك القلعة . فلم يكن أحد يذكر النقود بكلمة . وقد اكتشف ماك
ان السبب فى عدم توجيه الدعوة الى السيد اسحق هارون ان ذلك
اليهودى اليبدين لم يكن يكف لحظة عن ذكر النقود ، مما يثير اعصاب
السيد جاك أوبر . لان جاك أوبر لم يكن يطيق أن يذكر أحد النقود
أمامه . وموقفه من ذلك كله ان هذه أمور يجب أن تدبر بشكل
أو بآخر ، حتى تأخذ الحياة مجراها ، لكنها يجب أن تظل فى
خلفية الصورة حتى يتسنى للمرء أن يطبق حياته . ومع ذلك فقد
سرق ماك .



فقد تم خلال الاسبوع التالى لتلك الزيارة توقيع العقود
« اللازمة » بين محلات اسحق هارون ، والبنك التجارى من جانب
وشركة م . م . م . من جانب آخر . وبموجب تلك العقود
أصبح لمحلات هارون الحق فى شراء البضائع من شركة م . م . م .
بنفس الاسعار التى تشتري بها محلات حرف «ب» .
والحقيقة ان العقود التى اضطر بلومزبرى الى توقيعها عن شركة
م . م . م . كانت مخيفة ، الى الحد الذى جعل ماكهيث
لا يجرؤ على النظر اليه مواجهة .

فلما خرجا الى عرض الطريق أصيب ماك بنوبة هستيرية ، مما
سبب لبلومزبرى قدرا كبيرا من الدهشة وبعض الحرج ، واضطره
الى أن يسحب صاحبه الى أول مشرب شاي فى طريقهما . وهناك
طلبيا خيزا بالزبد . لكن ماك لم يستطع أن يأكل من فوره ، لانه
استغرق وقتا طويلا قبل أن يستعيد سيطرته على أعصابه . واذ ذاك
لم يجد فى نفسه شهية للأكل . قال لبلومزبرى وهما يبرحان المشرب:
— هذه مصيبة . بهذه الاسعار التى اتفقنا على البيع بها لابن
الحرام هارون لن نجدنا حتى أن نسرق البضائع التى نبيعها له .

سيكون من المستحيل أن نصمد طويلا . أقصى ما نستطيعه أن ننظم أسبوعا للأوكازيون كما فعل كرستون ، وهذا هو ما يريده اللعينان أوبر . يريدان ان نفلس بأسرع ما يمكن حتى تقصر مدة تعاملهما معنا الى الحد الأدنى . يشعران بأننا أحقر من أن نتعامل معهما . وذلك هو الواقع فعلا . أنظر الى مبنى ذلك البنك ! رخام وبرونز، يا بلومزبرى ! رخام وبرونز ! لم أستطع طيلة حياتي أن أفهم السبب الذي يجعل الناس يذهبون بأموالهم الى بنوك تتخذ أبنية باذخة كهذه مقراً لها . يبدو أن الناس يتصورون أن الشركات التي تستطيع أن تتحمل تكلفة مبان من الرخام والبرونز لا تكون في حاجة الى أموال أحد ، وأن أموالهم ، لذلك ، تكون بأمن لديها !

والحقيقة انه لم تزايله حسرة على بنك الائتمان الاهلى بمبناه الحقير وأثاثه القمىء. فقد بدا له ذلك المبنى بما فيه من «كراكيب» زرية بمثابة اعلان مطمئن فحواه « اننا لا نسرق الكثير من عملائنا» لكن بنك الائتمان اللعين لعب عليه ملعوبا قدرا . ومع ذلك فانه أحس أن مصلحته الحقيقية كانت مع ذلك البنك . اليس هو البنك الذي تضم خزائنه النخرة بائنة زوجته ؟ فاض قلبه بالثرارة عندما فكر فى ذلك . فقد أصبح واضحا أمام عينيه أنه يخوض معركة ضد تلك البائنة التي فيها خلاصه . فهل هناك ما هو انعس من ذلك المصير ؟ وهل من العدل أن تفرض عليه الاقدار أن يبذل كل جهد فى طاقته للقضاء على تلك البائنة لكي يشق طريقه الى النجاح ؟ لقد أراد معارك نابوليونية . وها هى معركة لا رحمة فيها تفرض عليه ، ولا يستطيع أن يكسبها الا بالقضاء قضاء مبرما على العدو . وما العدو هنا الا البنك الذى فيه بائنة بولى . رأى ماك أمامه أياما عصيبة خافلة بالمتاعب والعمل الشاق .

تكبد ماك الشىء الكثير فى اعداد شركة م . م . م . لتكون طعما للبنك التجارى . ولقد كان بوسعه أن يحتمل ذلك الشىء الكثير لو توصل فقط الى تحسين حالة دكاكينه كما كان يشتهي . لكنه ، بدلا من ذلك ، تعرض لاسوأ نكسة يمكن أن تحدث لاحد ، فأرغم على ادخال اليهودى هارون ، منافسه - منافسه الاعظم - فى الخبطة كلها ، لكي يسرقها منه . فكانه أنفق ، وأسس ، ووسع ، لكي تسرق أفكاره ، وبضائعه ، ومخازنه ، وأمواله منه ! ها هو يجد نفسه مرة أخرى وقد ضحك هؤلاء الناس عليه ، فلم يتقدم خطوة ،

وظل حيث كان ، معرضا للخراب الشامل ان لم يخف الحظ لنجدته .
فهو ثابت في مكانه كأنسان حافي القدمين واقف فوق جمر ، كل ما
يسعه من حركة أن يقفز في الهواء ، لكن القفز لا يجديه شيئا ، لانه لا
يتوصل الا الى استبدال جمرة بأخرى ، قد تكون اسوأ وأشد توهجا
ولذلك فان أسعد لحظاته هي تلك اللحظات القصيرة التي يكون فيها
معلقا في الهواء .



عقد ماك اجتماعا لاصحاب دكاكين حرف « ب » ، ألقى فيه
خطبة من نار . أعلن بادىء ذى بدء أنه قرر ، من الآن فصاعدا ،
أن يولى دكاكينه كل اهتمامه ورعايته . وانه ، لكي يتفرغ لذلك
الجانب من نشاطه تفرغا كاملا ، قد تخلى ، بطريقة تكاد تكون تامة ،
عن نشاط الشراء ، الذي تكلفت به شركة كبرى تعرف باسم « مجلس
المشتريات المركزي » . وتلك الشركة تقدم بضائع ممتازة ، لكنها
لا تكون رخيصة الا اذا اشتريت بكميات كبيرة ، وقد بذلت جهود
— لم تكمل بالنجاح لسوء الحظ — لمنع شركة م . م . م . م من
تقديم نفس التسهيلات الى محلات أخرى ، لكن دكاكين حرف
«ب» لن تكون قادرة في الحقيقة على استيعاب كل ما تعرضه شركة
م . م . م . م من كميات . ثم استطرد قائلا :

— ولعلكم قد سمعتم ان دكاكين حرف « ب » قد دخلت في
شركة تجارية ، بالامس ، مع محلات هارون . ولهذا سوف تقوم
شركة م . م . م . بتزويد محلات هارون ايضا بالبضائع . فما
الذي تعنيه هذه الحركة المثيرة من جانب كومبينة هارون القوية ؟
ايها السادة ، انها تعنى انتصارا ، انتصارا ساحقا لدكاكين حرف
«ب» ، والاهم من ذلك ، للمثل الاعلى الذي قامت عليه فكرة دكاكين
حرف «ب» . فما هو ذلك المثل الاعلى ؟ ايها السادة ، انه المثل
الاعلى الذي يجعل ثمار التقدم الصناعى الحديث في متناول أفقر
طبقات المجتمع ، في متناول رجل الشارع ، ذلك الفرد الذي يمثل
الجماهير الكادحة . والجماهير الكادحة هي التي يجب أن تعيننا
ايها السادة ، لان رجل الاعمال الذي يزدرى البنس يرتكب خطأ
فاحشا . لان البنس لا يقل أهمية عن غيره . ذلك هو شعار دكاكين
حرف «ب» . ألا تزدرى البنس الذي يكسبه العامل « بطلوع
الروح » . وذلك هو مثلكم الاعلى الذي حقق نصرا حاسما على
سلسلة محلات هارون الكبرى بفروعها العديدة . فمنذ الان

فصاعدا ستفتح محلات هارون هي الاخرى ابوابها لفقراء الناس ،
وتدخل بذلك في خدمة السمر الرخيص وانتقدم الاجتماعى . ولست
اشك لحظة في أن البعض منكم لا يؤمن بشيء من هذا ، لأنه لن يخلو
بكان من الضعفاء والمتدمرين . بل وأستطيع أن أسمعهم وهم يبرطمون
لانفسهم قائلين : ولاى شيء تريد كومبينة هارون الضخمة أن تعمل
معنا نحن اصحاب الدكاكين الصغار ؟ وذلك سؤال ينبغي أن نعرف
في اجابتنا عنه : ليس طبعا من اجل سواد عيون دكاكين حرف «ب»
فحيثما نظرنا في الطبيعة ، لن نجد شيئا يحدث الا لمنفعة مادية .
فكلما قال انسان الآخر دعنى أساعدك ، دعنا نبدأ معا ، الى
آخر ذلك الكلام ، فان ذلك يعنى : افتح عينيك جيدا ، لان الناس
بشر وليسوا ملائكة ، وهم يفكرون في انفسهم أولا ، فلا يوجد من
يفعل شيئا من أجل آخر على سبيل الرحمة فقط ! القوى في هذه
الحياة يغلب الضعيف . وهكذا فاننا فى عملنا مع هارون ينبغي
لنا أن نسأل انفسنا هذا السؤال (بغير عداء طبعا) : «من الاقوى؟»
هي معركة اذن ؟ نعم يا سادة ، انها معركة ! لكنها معركة سلمية !
معركة فى سبيل مثل أعلى ! ورجل الاعمال الذى يفكر تفكيرا صحيا
لا يخشى خوض المعارك . الضعيف فقط هو الذى يخاف . ومثل
ذلك الضعيف هو من تمر فوقه عجلة القدر لتمحقه محقا وتدمره
تدميرا ! محلات هارون قد انضمت الينا اذن لا لان سواد عيوننا قد
سحرها ، ولكن لأنها قد أرغمت ارغاما على احتسرام قوة دكاكين
حرف «ب» المتمثلة فى صمودها وتضحيتها بالذات فى سبيل مثل
أعلى . وهذه صفات يجب أن تقويها ونميتها . فقوتنا نابعة من
تفانينا فى العمل ورضانا بالقليل . والكل يعرف ان كل واحد منا
يقوم بما عليه أن يقوم به . ولهذا فانى ، أنا أيضا ، قررت أن اكرس
كل جهدى وطاقاتى مستقبلا لدكاكين حرف «ب» . وليس دافعى
الى ذلك الكسب المادى ، بل لانى أو من بالمثل الأعلى الذى تجسده
دكاكين حرف «ب» ، ولانى أعلم أن تجارة التجزئة المستقلة هي عصب
الحياة فى تجارة الوطن كلها ، وانها أيضا ، كنز ذهب لا ينضب !
وقد استمع لهذه الخطبة التى احدثت تأثيرا قويا ، عدد من الناس
لا يقل عن خمسين رجلا وامرأة ، وبعض الصحفيين . ورغم ان
ذلك الحشد الصغير لم يخل ، بطبيعة الحال ، من عدد من الضعفاء
او - على الاقل - ممن يبدو عليهم الضعف ، الا انها قوبلت
بالتصفيق ، لان التغنى بعظمة المنافسة والمجهود الفردى ، يجد من

الناس دائما اذنا صاغية .
ولقد كان ماكهيث حريا بأن يهنىء نفسه على ما احرزه من نجاح
في ذلك الاجتماع ، لولا انه انصرف في اثره بصحبة فاني كرايزلر ،
وبلغ ذلك مسامع بولى بطريقة ما .



فوجيء بها ذات ليلة ، وقد تأخر الوقت بعض الشيء . . في انتظاره
أمام منزله بنانهيد . كانت قد حصلت على عنوانه من أحد دكاكين
حرف «ب» . وعندما وصل كانت قد قضت بضع ساعات جالسة
على عتبة بابه . وجدها في حالة نفسية سيئة . ولم تكذ تراه حتى
بادرته قائلة أنها لم تعد تستطيع العيش بدونه .

عندما دخلا قال لها ان موقف ابياها غير المفهوم منه قد عقد
الامور كثيرا . اعترف لها صراحة بأنه كان يعتمد على بائنتها ، أو ،
بالاقل ، على معاونة ابياها له في الحصول على ائتمان كاف من البنك .
بكت بولى قليلا ثم قالت أنها لم تعد تطيق مطاردة مستر كوكس
لها ليل نهار وهي عزلاء أمامه . ثم اخبرته أنها حامل ، وان ماكهيث
صغير ينمو الان على مهل في داخلها . فتلقى ماك النبا بطريقة اثلجت
صدرها . تغيرت لهجته معها عن ذي قبل ، وبات يعاملها بقدر من
التحرج المتسم بالخشونة سرها كثيرا .

اعترفت له والسعادة تملأ جوانحها أنها انتظرت طيلة ذلك الوقت
أن يأتي لزيارتها خلصة ، خاصة وهي تعلم أنه لن يجد صعوبة في
التسلق الى شرفتها . فدهش لذلك وأبدى استهجانا لمثل ذلك
الخاطر . قال كيف تتوقع منه أن يأتي اليها خلصة في الليل لينام
معها كما لو كانت عشيقته ؟ قال ان ذلك يكون أمرا لا يتصور .
فوافقته الرأي .

رقد بجوارها مستيقظا ، مسندا رأسه الى يديه ، محدقا في
السقف ، وأخذ يحلم :

- سوف أدعوه ديك . وسأعلمه كل شيء . أخبره بكل ما أعرف .

وأنا أعرف الكثير . وسوف أوفر عليه مشقة تعلم الكثير مما
اضطرت الى أن اكتشفه لنفسى بنفسي ، فأعلمه حقائق الحياة
رأسا ، سأخذ بيده الصغيرة وأعلمه كيف يدير عملا ، وكيف يستغل
غيره ، ويجعلهم يعملون من أجله ، كيف يستخلص النفع من أخوته
بنى الانسان رغم تقلبهم ، وعدم امكان الاعتماد عليهم ، واستحقاقهم
لكل احتقار . سوف أقول له اذا حاول احد ان يسرق لقمة من طبقك

اضربه على رأسه بملعقتك ، بأى شيء فى متناول يدك ، سوف أقول له ذلك ، وأظل أقوله له حتى يسلم به ويدخله فى رأسه ، فبييت بمأمن من غيره من الناس . سأقول له كلما رأيت بابا مواربا ، أولج قدمك ، ثم ادفع بكتفك ، واقتحم البيت . افعل أى شىء إلا أن تقف كالإبله منتظرا ان تسقط النعم فى حجرك من السماء . سوف أعلمه بصبر وأناة . لكنى سأكون حازما للغاية معه . لن أدلله أو أفسده . سأقول له ان أباك لم يكن رجلا متعلما ، لكن أعظم أساتذة التاريخ لم يكن يقدر أن يعلمه جديدا فى كيفية خداع الناس والضحك على ذقونهم ! نعم تستطيع أنت أن تذهب الى الجامعة وتتعلم ، لكن اياك أن تنسى من الذى جعل ذلك فى مكنتك . أبوك اضطر ان يستخلص المال اللازم لتعليمك من بين فكى الاسد بنسأ وراء بنس ، من جيوب خصوم متوحشين . خذ رأس المال هذا وضاعفه . وسع معارفك يابنى . ولكن فى الوقت ذاته رسخ دعاماتك أكثر !

استغرق فى النوم بعبسة عميقة فى جبينه ، لكنه كان فرحا للغاية ببولى ، وبالابن الذى ستلده له .

فى صباح اليوم التالى ذهبت فأحضرت اللبن من دكان اللبان ، وتعلمت كيف تطبخ له طبقا من الكبد كما يجب أن يأكله . ولم تذكر فانى كرايزلر بكلمة . لا فى تلك الليلة ولا فى أى ليلة أخرى . كانت علاقات ماكهيث قد أصبحت وثيقة بفانى فى الفترة الاخيرة . بالحقيقة أصبحت حميمة للغاية . وقد خشى أن تتركب المرأة رأسها وتثير له المتاعب . لكنها - لعظيم ارتياحه - لم تبد أى تغير فى موقفها منه ، رغم أنه كف عن قضاء الليل معها ، وبات يقضيه فى بيته . والحقيقة أنه كان حريا بأن يأسف كثيرا لو وقعت جفوة بينهما ، لأنها كانت دعامة كبرى من دعامات شركة م.م.م. رغم أنه عندما أدخلها تلك الشركة فعل ذلك لانه تصور أنها متعلقة به لاسباب جسدية بحته

ولقد كانت حاجته اليها فى تلك الايام أعظم من أى وقت مضى . فقد اعلن عن أوكازيون محلات كرستون بضجة دعائية كبرى . وفى الاجتماع الذى عقد أثر ذلك فى قاعة فاخرة بمبنى البنك التجارى تقرر أن الوقت قد حان لكى تشتبك محلات هارون ودكاكين حرف «ب» فى معركة حاسمة مع كرستون ، وأن تتخذ تلك المعركة شكل أسبوع من الاوكازيونات بتوضيحات مخيفة فى الاسعار ، اتفق على أن يبدأ بعد ثلاثة اسابيع من تاريخ الاجتماع .

(٩)

« ولان الانسان يعيش برأسه ،
يحتاج الانسان لرأس أكبر ،
ومن لم يصدق فليجرب بنفسه :
وسوف يجد أن رأسه لا يكفي طعاما لقملتين .
وسيجد ايضا أنه في هذا الوجود
لا يوجد انسان ذكى بما فيه الكفاية ،
فالحياة اقصر من ان يتعلم فيها كل ما يجب أن يتعلمه
فيعرف كل الالاعيب وكل الحيل !

« ضع خطتك الصغيرة اذن
واقنع نفسك أنك شديد البراعة اذن ،
ثم ضع خطة اخرى صغيرة اذن ..
فكل خطتك لن تجديك شيئا !
لان هذا الوجود يا صاح
ليس فيه انسان شرير بما فيه الكفاية
ليقدر على العيش فيه .
لكنه من الممتع حقا أن يرقب المرء كل هؤلاء الناس وهم
يتظاهرون بالصلابة !

« اجر اذن وامسك بحظك في الحياة ،
لكن لا تسرع في الجرى كثيرا ،
لان الكل يجرون وراء الحظ جريا
والحظ يجرى وراءهم !
وليس في هذا الوجود يا صاح
انسان وديع وطيب بما فيه الكفاية .
وكل جهده العظيم ، سواء كان طيبا أو لم يكن
ليس الا خدعة كبيرة مضحكة ! »

(نشيد عدم جدوى الجهد الانساني)

قتال على كل الجبهات

كان مستر بيتشام هو الآخر مشتبكا فى معركة مستيئسة .
كان يقاتل ليل نهار ليرفع عن كاهله رزية شركة الملاحة ويحطها
على كاهل احد غيره ، مناظلا بكل ما اوتى من قوة ليخرج عنقه من
تلك الخية ، ويعود الى مهنته التى يجيدها ، مهنة الشحاذة بالجملة .
ولقد أصبح حبه لتلك مضاعفا . فخوفه من أن يعود الى
الحضيض ، وشعوره بأنه قد وقع ضحية لنصاب يفوقه مكرًا ،
وقسوة ، وبراعة ، أثارا فيه حماسا الى الشحاذة بضراوة اكثر ،
الى توسيع مجال نشاطه الذى يزدهر هو الآخر على الخديعة ،
والنصب ، واضطهاد الآخرين . كان من دأبه أن يقلب الخسارة الى
مكسب ، والهزيمة الى نصر ، لانه يعلم جيدا أنه لا يوجد مكان
للخاسرين او المنهزمين .

كان يقف أحيانا على مقربة من حظائر الكلاب فى فناء بيته ويتحدث
الى العسكرى فيوكومبى كما لو كان صديقا حميما . وقد دهش
العسكرى الاعرج لذلك كثيرا ، لكنه ما لبث أن أدرك أن مستر بيتشام
لم يكن يتظر اليه اطلاقا ، فخطر له أن ذلك الحديث ربما كان موجها
الى الكلاب .

قال مستر بيتشام فى يوم من تلك الايام :
- قرأت فى احدى الصحف مؤخرا أن الشحاذة كثرت فى هذه
الايام . هراء ! لان المرء اذا اتخذ عدد الشحاذين مقياسا سيتصور
أنه لم يعد وجود للفقر . ولطالما سألت نفسى أين هم أولئك الفقراء ؟
والجواب : فى كل مكان . انهم يختبئون وراء كثرتهم . يلوذون
ببعضهم بعضا . ويتجنبون الشوارع النظيفة والاماكن التى يكثر فيها
سواهم من الناس . لكن مخبأهم الاعظم هو العمل . فهم يعملون
طيلة الوقت . فان لم يجدوا من يعطيهم عملا خلقوه لانفسهم خلقا .
لكن ذلك لا يجديهم شيئا . فوق أن احدا لا يلاحظ انهم فقراء وانهم
غير قادرين على أن يشتروا شيئا لانهم لا يدخلون دكانا ليشتروا أى
شئ . ومع ذلك فأنا أعرف أين أجدهم . وأعرف أيضا كيف يمكن
للمرء أن يكسب ثروة هائلة من ورائهم ، باستغلال عطف الآخرين
عليهم واحساسهم بالذنب تجاههم . لكن ذلك مستحيل التنفيذ عمليا .
كيف يستطيع المرء مثلا أن يستخدم منظر أم تحتضن طفلها الجائع المريض
وهى تحمق فى جدران غرفتها التى تنشع بالماء ؟ ينظم جولات

سياحية لمشاهدتها هي وآلاف مثلها ؟ أو منظر الرجل الذى يدرك فجأة أن الحياة قد أسقطته من حسابها وأنه قد استهلك ونبذ ولم يعد يريد أحد ؟ منظر كهذا يقطع نياط القلوب ، لكنه بغير عرض تجارى سليم ودعاية منظمة لا يساوى قلامة ظفر . هذان مثالان اثنان فقط من آلاف الامثلة .

وفي مرة أخرى قال :

- لا تظن أنى أجيح كلابى هذه على سبيل القسوة . لكن تلك ضرورة من ضرورات العمل . فدخلنا يتناقص كلما سمت هذه الكلاب ، لأنها اذ ذاك لا تستدر عطف احد .

وفي مرة أخرى أثار دعر فيوكومبى بقوله :

- انك تبدو سعيدا أكثر مما ينبغى يا صاح . أنا لا اكف عن محاولة افهامكم هذه الحقيقة : يجب أن تبدوا كلكم تعساء تثيرون نفور من يراكم . فالناس يدفعون اذذاك عن طيب خاطر ليجعلوكم تغفرون عن وجوههم .

والحقيقة أن مستر بيتشام كان حريا بأن يصاب بصدمة حقيقية لو أدرك أن مثل هذه المصارحات أمام مستخدميه تعتبر عرضا من أعراض اصطخاب نفسى خطير . فهو يعلم جيدا أن المرضى والضعفاء لا مكان لهم .

لكنه - فى واقع الامر - كان يمر بمرحلة نفسية عصبية ، حتى وان لم يدرك ذلك . فتدبير المال اللازم لشراء تلك السفن الجديدة من ساوثمبتون لم يكن أمرا سهلا على الاطلاق .

ولقد اضطر ان يلجأ الى ميلر ، فى بنك الائتمان الاهلى . لكن ميلر استفظع فكرة القرض الذى المح اليه بيتشام ، فى حدود ... هـ جـك . رفع ميلر يديه الى السماء علامة الرفض البات والاستفظاع الكامل . لكنه لم يشأ أن يقضب ذلك العميل القديم ، فأشار من فوره الى مسئوليته تجاه البنت الصغيرة المسكينة التى عمرها سبع سنوات والتى تملك البنك . ثم اضاف أنه ، فى تلك الآونة ، غارق حتى اذنيه فى عدد من الصفقات الضخمة ، ولا يجد حرجا فى مصارحة عميل موثوق به كمستر بيتشام أن تلك الصفقات تخص أساسا مؤسسة كرستون ، وقال أيضا أنه قد أحزنه وصدمه كثيرا أن يكتشف افتقار عميل ملىء كمستر بيتشام الى السيولة بهذه الدرجة الخطيرة . وفى ذلك القول الاخير لم يكن ميلر منافقا كدابه ، لانه احس فعلا بالانزعاج ، بدرجة تفوق ما أظهره لبيتشام .

كانت لبيتشام وديعة ثابتة في بنك الائتمان الاهلي قيعتها
١٠٠٠٠ جك . لكنه لم يخطر له ببال أن يمس تلك الوديعة ، صحت
أى ظرف من الظروف . فوق أنها لم تكن تكفى .

لكن الامور في شركة النقل البحري كانت تتدهور بصورة تدعو
الى القلق . ففينى العجوز أعلن في حسم أن الاوان قد آن أخيرا
لاجراء عملياته ، وهدد بدخول المستشفى في اليوم التالي . لم يظل
من الشركاء واقفا على قدميه غير ايستمان الذى استمر بعناد كعناد
البولدوج ، لكن جهوده لم تجده أو تجد أحدا شيئا .

ثم بلغتهم أنباء مفادها أن مستر هيل ، صديق كوكس الذى فى
الاميرالية مهدد بفضيحة مدوية .

جاء كوكس بنفسه الى بيتشام وانتظر فى المكتب الصغير وراء
الباب المبطن بالجديد حتى أقبل ايستمان الذى استدعى على عجل .
وإذ ذاك أفضى اليهما بما عنده من أنباء سيئة .

قال ان هيل تلقى منذ بضعة أيام خطاب تهديد بقصد ابتزاز بعض
المال منه جاء فيه أن زوجته كانت قد القى القبض عليها منذ عامين ،
أثناء غارة قام بها البوليس ، فى فندق مشبوه ، برفقة صديق من
أصدقاء زوجها . قال مرسل الخطاب فى خطابه أنه قد توصل الى
الحصول على يوميات ذلك الصديق ، وأن تلك اليوميات تثبت ان
هيل كان على علم بالامر كله . . وانه لم يفعل حيااله شيئا ، بل والادى
من ذلك أنه متورط الان فى عمليات مريبة مع ذلك الصديق الذى
ضبط مع زوجته فى وضع شائن . .

روى السمسار هذه القصة وعيناه لا تحيدان عن وجه ايستمان ،
الذى كان الحديث موجهها اليه أساسا . فلما قال كوكس ما عنده ،
التفت ايستمان بوجه ناطق بالعذاب الى بيتشام الذى ظهرت عليه
أعراض المرض من جديد .

سأل بجهد متجنباً النظر الى كوكس :

— كم ستتكلف تلك اليوميات ؟

قال كوكس كأن الامر لا يعنيه :

— ألفا من الجنيهات .

فقال ايستمان :

— لم لا يدفعها هيل اذن ؟ لقد دفعت له شركة النقل البحري

٩٠٠٠ جك حتى الان .

قال كوكس ، متذرعا بالصبر :

- انه لا يحتكم فى مليم واحد من ذلك المبلغ . فزوجته يجب أن تشتري ثيابا وما الى ذلك ، والا عجزت عن الخروج مع احد ، او حتى عن الذهاب الى فندق مع احد . ثم ان بقية النقود التى اخذها من شركة النقل البحرى يجب ان تستخدم فى تكتم القضيحة التى اثارها معاملات شركتكم المتتوية مع الحكومة ، ومنع اجراء تحقيق باى ثمن . الحقيقة ان موقف ذلك الرجل يقطع نياط القلوب .

سأل بيتشام متنظما :

- وما الذى سيحدث اذا لم يدفع ؟

فقال كوكس :

- أبدا . سيحدث فقط انه سيضطر الى الاستقالة . من افطع الامور أن يكون الناس الذين يتعامل معهم المرء متورطين فى أشياء كهذه . يجب أن نساعد هيل . لانه اذا غرق غرقنا معه .

تردد كوكس لحظة وهو ينصرف ثم سأل بيتشام وهو يبرم شاربه بحركة جريئة وقحة :

- هل عادت مس بولى من شامونيكس بعد ؟

فقال بيتشام بصوت مبحوح :

- كلا .

كان قد قال لكوكس أن بولى فى سويسرا ، لتستكمل دراستها . وقد خطر له ان يرسل عددا من بطاقات البريد المزيفة باعتبار انها من شامونيكس ، تعريزا لتلك الاكثوبة . لكنه عدل عن تلك الفكرة ، مدركا ان القصة المخجلة بأكملها يجب ان تروى لكوكس صراحة ، ان آجلا وان عاجلا ، ولو ان ذلك لا يجب ان يحدث الا بعد ان يكون قد تم ترتيب كل شىء بطريقة مرضية .

لم ينس كوكس مرة ان يسأل عن بولى .

تقرر ان يقابل بيتشام كلا من كوكس وهيل فى الحمامات يوم الاثنين التالى . كان كوكس يصرف كل أعمال شركة النقل البحرى الان فى حمامات « أبى ريشة » ، وفى يوم الاثنين ، بصرف النظر عن أية طوارئ تدعو الى تغيير ذلك اليوم . فى يوم الاثنين التالى لمجىء كوكس الى الدكان ، بكر ذلك الاخير فى الذهاب مع هيل الى الحمامات . خلع الاثنان ثيابهما بسرعة ، بغير مساعدة من الفتيات ، ثم أخذ هيل ، وهو رجل سمين قد تخطى الاربعين من عمره ، يتكلم قال لكوكس بنبرة عتاب :

- لقد كنت دائما ، منذ البداية ، ضد علاقتك بايفيلين

يا ويليم ، وأنت تعلم ذلك جيدا . فأنت لم تسبب شيئا غير المتاعب
 بينها وبين رانش . أستطيع أن أقص عليك حكايات لا نهاية لها عن
 مشاحنات وقعت بينها وبين رانش كلها بسببك أنت . وهي
 حساسة للغاية . أدنى قلق نفسى يجعل مزاجها منحرفا لبضعة أيام .
 وأنا لأحس بالسعادة أبدا عندما يكون هناك ما يضايقها . فأنا مغرم
 بها . ثم حكاية الفندق هذه ! لا بد أنك كنت غائبا عن وعيك . فلا أحد
 يذهب الى فندق كهذا مع سيده كهنه الا اذا كان مجنوننا . وانى لاعتجب
 كيف لم تصبها حكة ! فى فندق كهذا يغيرون ملاءات أسرته كل ساعتين
 لا بد أن تكون الملاءات رطبة ، وغير نظيفة ! وحتى بغير هذا . كيف
 سمح لك قلبك أن تحقرها بالنوم معها فى مكان موبوء كهذا ؟ أنا أعرف
 زوجتى جيدا ، وأعلم أنها أشد نساء العالم حساسية . لا بد أن حقارة
 المكان سحرتها . فهى لم تألف مثل تلك الامكنة الموبوءة . وتلك
 الملاءات ! لن أغفر لك ذلك أبدا . وصدقنى عندما أقول لك أنها
 ليست هى العواقب التى تزعجنى . ولو انى بسبب حماقتك مع
 ايفيلين أجدنى الان مضطرا الى اذلال نفسى فى سبيل ألف جنيه
 أشحذها من هؤلاء السوقة . وبصرف النظر عن كونهم كذلك ، أى
 ذنب لهم فى مشكلاتى الخاصة التى جاءتنى من تحت رأسك ؟ سيكونون
 محقين اذا قالوا : نحن نتعامل معك ، لكننا لسنا ملزمين بأن ندفع
 من حر مالنا فى سبيل تنظيف غسيلك القذر . والحقيقة أنى أفضل
 أن أنصرف الان قبل أن يسوء الامر أكثر . فأنا ، بعد كل شيء ،
 موظف حكومى .

نظر اليه كوكس وقال :

— تماما . أنت ، بعد كل شيء ، موظف حكومى .
 فقال هيل مزمجرا وهو يضع جوربه على ظهر مقعد :
 — الذى أود أن أعرفه هو كيف توصل هذا البلطجى الى سرقة
 يومياتك اللعينة التى كان يجب أن تكتبها بكل هذه الدقة !
 غطس كل منهما بعد ذلك فى برميله الخشبي .

كان هيل قد طلب أن يأخذ حماما من الطين ، بينما اختار كوكس
 حماما أضيفت الى مائه بعض الاعشاب الطبية المقوية . استطرد
 هيل قائلا بحزن بالغ :

— أنت لا تتصور كم يجب علينا نحن كبار المسئولين أن نلتزم
 بمقتضيات الامانة . لا يجوز لنا أن ندخل فى أية صفقات جانبية أو
 أشياء كهذه . لن أتحدث عن أحداث وقعت أخيرا فى الاميرالية .

افضل أن ادع بريطانيا العظمى خارج الموضوع . أنا لا أعلم شيئاً عن هذه المسائل ، وأفضل - كانجيزى - إلا أعلم عنها شيئاً . ولكن انظر ما فعله الهرقون ببسمارك في ألمانيا ! انه رجل عظيم . لقد اقتنى حتى الآن ضياعاً شاسعاً ، وأفادت بلاده من ذلك فائدة عظيمة . لكن الناس لا يحكمون على رجال الدولة احكاماً صائبة أو عادلة . لانهم لا يرون الصورة كاملة . يرون فقط هذا التصرف أو ذاك فيطلقون السنتهم ويثرون وينتقدون . لكن ما الذى يفهمونههم في هذه المسائل ؟ تسمعهم يقولون هذا التصرف الدبلوماسى أو ذاك تصرف خاطيء . وما ذلك إلا لانهم يأخذون بالنتائج الخارجية . وهو موقف بالغ السخف . فهل يعلم أى منهم الغرض الحقيقى من ذلك التصرف الذى ينتقده ؟ أبداً . عندما أبرق قيصر ألمانيا الى الرئيس كروجر ، هل تعرف اية أسهم ارتفعت وأية أسهم انخفضت؟ كلا ! الشيوعيون وحدهم هم الذين يزجون بأنوفهم في مسائل كهذه ويسألون . ولو أننا يجب أن نعتزف بيننا وبين أنفسنا أن الشيوعيين ليسوا وحدهم الذين يريدون أن يعرفوا ، فالديبلوماسيون يريدون أن يعرفوا هم أيضاً . ولا يجب أن نخجل من الحقيقة . فالسياسة ليست إلا نشاط أعمال هي الأخرى ، ولو أن وسائلها تختلف عن وسائل رجل الأعمال . ولهذا السبب يجب أن نحرض على شرفنا ، فلا ندعه تشوبه شائبة . هذه الحكاية عن مغامرتكما الحمقاء في الفندق يجب أن تظل طى الكتمان بأى ثمن ، لأنها ان عرفت ، ساطرد من الاميرالية شر طردة . سأخرج مجللاً بالعار ، مشيعاً باللعنات . لانه لا يوجد سجل خدمة ، مهما طال وعظم ، يستطيع أن يجب فضيحة كهذه . ولا تنس ان ايفيلين زوجتى ، وأن الناس يحبون أن يلقوا في مثل هذه الامور الحميمية . لكنى ، رغم ذلك كله ، أمين في دخيلة نفسى ، وأحس أنى لا يجب أن تكون لى أدنى علاقة بهؤلاء الناس البائعين الذين تتعامل معهم .

وهنا اضطر هيل أن يكف عن الكلام ، لان بيتشام دخل عليهما . انتقل الثلاثة بعد ذلك الى حيث اخذوا حماماً تركياً معاً .

فيما بعد ، وقد تمدد كل منهم على أريكة ، مسنداً رأسه الى منشفته المبللة ، بدأ بيتشام يتكلم . وقد فعل ذلك بصوت خافت ، كما لو كان مريضاً . وهو ما لم يجانب الحقيقة كثيراً . قال :

- يؤسفنى أن أقول لك يا سيد هيل أن معاملاتنا معك ، رغم ما تكبدناه من أموال جسيمة فيها ، لم تكمل بالنجاح أبداً . فعلى

العكس تماما من كل توقعاتنا ، وما قيل لنا اكتشفنا مؤخرا أنك
لست في مركز يسمح لك بشراء سفننا نيابة عن الحكومة بغير عقبات ،
وهو ما سبب لنا ، بطبيعة الحال ، خسائر فادحة .
دمدم هيل شيئا ، لم يتبينه بيتشام ، وهو ممدد على أريكته
المخلخلة يربت على صدره الاسفنجي بيدين صفرتين شحيمتين .
استطرد بيتشام قائلا ، وما زال يتكلم بنفس الصوت الخافت
المجهد :

- يجب أن تدرك ياسيد هيل أننا ، كلنا ، رجال أعمال صغار ،
امكانياتنا محدودة ، وأموالنا كسبناها بخلع الضرس . ولذلك آمل
أن تكون قد جربت كل الطرق الممكنة للخروج من ورطتك هذه دون
أن تحملنا عبثا ؟

مال بيتشام برأسه ونظر الى الموظف الكبير . كان هذا الاخير قد
خرس الان . ولم يعد يبدو مهيبا على الاطلاق . مجرد كتلة من اللحم على
قطعة خشب . أدرك كوكس وهو ينظر اليه انه أخطأ اذ قدمه بغير
ثياب . رآه كمجرد رجل آخر سمين ، في منتصف العمر ، لا يتميز
بأي ذكاء خارق ، ولا يبدو اطلاقا كما ينبغي أن يكون موظف الحكومة
الخطيرة : شخصا خطيرا ، ملء ثيابه . التمعت عينا كبير الشحاذين
وهو يتفحصه وكأنه قد اكتشف فيه شيئا اثار اهتماما خاصا في
نفسه . وعلى الفور طرا على صوت بيتشام تغير . حقيقة انه كان
تغيرا لا يكاد يلحظ ، لكن لهجة الرجل تغيرت عن ذي قبل . قال :

- سمعنا من مستر كوكس أنك تعاني من متاعب خاصة تسبب
لك مضايقات في عملك . ذلك أمر يؤسف له . فهل نستطيع أن
نساعدك بأن نزيل من طريقك السبب في تلك المتاعب ؟
دمدم هيل شيئا آخر غير مفهوم . ود لو استطاع أن ينظر الى
كوكس . فلم يكن اللقاء سائرا في الاتجاه الذي توقعاه .
استطرد بيتشام قائلا :

- لعلك تعرف أننا لم يحالفنا الحظ في العثور على سفن لنقل
الجنود . فالسفن التي اشتريناها تبين فيما بعد أنها ليست مرضية
بالدرجة التي جعلنا البعض نتوهمها . وقد سمعنا أيضا أنك تتوقع
أنت الاخر متاعب غير مستحبة بخصوص هذه السفن . ونحن نقدر طبعا
أن المتاعب الخاصة التي تعاني منها تجعل من الصعب عليك أن تتفرغ
كلية لمواجهة هذه المتاعب الخاصة بالعمل . وأجدني مضطرا في هذه
المرحلة أن افضي اليك بسر يتعلق بشؤوني الخاصة وشؤون أسرتي .

أنا أنظر الى مستر كوكس باعتباره زوج ابنتى المقبل .
استدار كوكس بتكاسل ، فنظر الى بيتشام بدهشة طفيفة .
ثم تذكر فجأة مقابلة له مع بيتشام فى دكانه ، سأله هذا الاخير فيها
عن المبلغ الذى ينوى أن يعفيه من تحميله فى مذبحه سفن النقل هذه .
تذكر أن ذلك السؤال أعطاه انطبعا معينا عن بيتشام ما لبث أن
نسيه .

وفى اثناء ذلك كان بيتشام مستطردا فى كلامه ، بهدوء :
- وأحب أن تعرفا أننا لم نتخل بعد عن فكرة استخدام السفن
القديمة .

لزم السيدان الاخران الصمت . لكن بيتشام لم يتأثر لصمتها
كثيرا . فقد اكتشف شيئا لم يدركه يوم ذهب الى ساوثمبتون : أن
هذين الافاقين كانا قد عقدا العزم منذ البداية على تسليم السفن
القديمة الى الحكومة ، ولا شىء سواها !
ضحك كوكس ضحكة خشنة ، كمحاولة اخيرة للارهاب ، وقال :
- كذا ! انتم اذن ، فى سبيل بضعة آلاف قيمة من الجنيهات ،
قد عقدتم العزم على غش الحكومة البريطانية وتسليمها سفنكم
النخرة ؟

الآن جاء دور بيتشام ليلزم الصمت .
سأل كوكس بفضافة مفاجئة :
- هل هذا هو قرار شركة النقل البحرى ؟
فنظر اليه بيتشام ببطء ، وقال ، هادئا :
- كلا . انه قرارى أنا .

بعد بضع دقائق تحولت دفة الحديث . بدأ هيل يبرطم شيئا او
آخر عن الضباب . فوافق بيتشام الراى فى كل ما قال . ثم خرجوا
ثلاثتهم من الحمامات ، بعد أن اتفقوا على لقاء آخر . وخلال تلك
الدقائق الاخيرة التى اعقبت رد بيتشام الهادىء ، لم ينطق كوكس
بكلمة .

اخيرا ، بعد تخطيط دام شهورا طويلة تعسة ، بدأ جوناثان لوميا
بيتشام يرى طريقه بوضوح .
عندما بدأ حديثه مع رجل الاميرالية الخطير لم يكن يتوقع ان تفتح
أمامه بفتة ، من خلال صمت هيل البدين ، تلك الثغرة التى اطل
منها على الحقيقة ، واكتشف هول الخديعة .

لكنه اطلن واكتشف ورأى لا لشيء الا ليتعذب .
 لم تكن سفن ساوثمبتون الجديدة ، تلك التي دفعته الى حافة
 الخراب ، هي التي ستسلم للحكومة ، بل السفن القديمة النخرة
 التي لا تصلح لركوب البحر كما قال عنها الجميع . ومعنى هذا ؟
 هذا له معنى واحد : أن الافاق كوكس والتعس هيل سادران في
 عملية نصب زهيبية يحلبان خلالها شركة النقل البحري الهزيلة ،
 المريضة ، المسكينة ، فيستنزفان منها آخر بنس في دمائها . وقد
 يشتريان بعد ذلك السفن الجديدة أو لا يشتريانها ، فذلك شيء
 لا علاقة له بالحكومة ، لكن كيفما كانت الحال فشركة النقل البحري
 التي هتك عرضها هي التي ستدفع الثمن . وكل ذلك قد رسمت
 الخطط له وأعدت منذ البداية بهدوء أعصاب وبرود دم !
 ولا يعنى ذلك أن مستر بيتشام احس غصة أخلاقية لان أحدا
 نصب على أحد واستنزف ماله . فذلك أمر مسلم به ، ولا عيب
 فيه ، وهو سنة الحياة . لكن المصيبة أن المنصوب عليه هو بيتشام
 ولا أحد سواه ، والادهى والامر سييلا أن كوكس لم يدخله في اللعبة
 من مبدأ الامر ، وتركه في غفلة من أمره ، رغم أن كوكس قد عامله
 دائما ، فيما خلا ذلك ، باعتبار أنه حموه المستقبل .
 لكن بيتشام لم يعد لديه الآن ما يخشاه أكثر من أن كوكس قد
 يتعجل الزواج من بولى قبل أن يتمكن هو ، بيتشام ، من فض
 مشكلتها المشينة مع ماكهيث . لكن كوكس لم يبد أية علامة من
 علامات نفاذ الصبر . وهكذا فانه عندما ذهب ليعطيه المبلغ المتفق
 عليه لحساب هيل ، أدار دفة الحديث - وقد بدأ الفأر يلعب في عبه
 كما يقال - الى موضوع ابنته . فلزم كوكس الصمت في أول الامر ،
 ثم قال انه ليس ميالا الى تعجل بولى ، وأنه يريد لها أن تحبسه
 لشخصه . وقال أيضا انه ليس هناك ما يدعو بيتشام الى انقلق
 أيضا ، لانه ، بصرف النظر عما تحسه الأنسة بولى تجاهه ، فان
 بيتشام سيظل أباه في عينيه ، وسيعامله على ذلك الاساس . ثم
 أضاف ، خافضا عينيه ، أنه يحس نشوة حقيقية ، لانه ، لأول مرة
 في حياته ، وهي حياة كانت لها جوانبها القبيحة التي لا تحصى ،
 بات بوسعه أن يقدم على تضحية حقيقية في سبيل قضية أكثر عمقا
 ونقاء من أية قضية عرفها في حياته .
 الحقيقة أن مستر كوكس كان - ببساطة - واحدا من أفراد تلك
 القبيلة واسعة الانتشار التي تعرف باسم أولاد الحرام .

انصت اليه بيتشام بوجه لا يعبر عن شيء ، وقرر فيما بينه وبين نفسه - للمرة الالف - أن يعجل بتك الزيجه بين كوكس وابنته . بدا له حديث كوكس هلاميا أكثر مما يجب . وبدت له دوافع الرجل أجمل وأنبل من أن تكون حقيقية ، فدعر . خاصه وأن كوكس سبق أن قال ، بعبارة لا التواء فيها ، بمحضر من كافة الشركاء في شركة النقل البحري المنكوبة ، أنه لن يتورع عن أخذ نقود بيتشام ، ضمن نقود من سيأخذ نقودهم .

لهذا اعقبت ذلك اللقاء المزعج مناقشات ومشادات مستفيضة في شارع أولد أوك ، تقرر على أثرها القيام بمحاولة أخرى مستيئسه لتحرير بولي . من يدري ؟ ربما كان بالوسع ترتيب بعض المصائب المالية التي تحل بماك فتربكه .

وبالفعل ، جاء من يقول لماك ، في عنفوان حملة البيع الكبرى ، أن حشودا عظيمة من الشحاذين قد تجمعت فجأة داخل دكاكينه وخارجها ، وأن أولئك الشحاذين يقلبون البضائع ، ولا يشترون شيئا ، لكنهم لا يكفون عن انتقاد كل سلعة وتعداد عيوبها . وأنهم يحدثون ضجيجا لا مزيد عليه ، ويقلبون كل شيء رأسا على عقب . وقال له من جاءه بتلك الانباء السيئة أيضا أن الشحاذين يقفون أزواجا وثلاثات أمام الدكاكين يتحدثون فيما بينهم بأصوات عالية عن الخردة التي تباع بالداخل ، وعن سرقة نقود المشترين . ولما كان المشترين يضطرون ، لكي يدخلوا الدكاكين ، الى شق طريق بين أولئك الشحاذين الذين كانوا على درجة غير مألوفة من القذارة والعدوانية ، فان أعدادا متزايدة منهم اضطرت الى العدول عن الشراء والانصراف من تلك الاماكن الموبوءة . قام ماك بجولة سريعة بين دكاكينه ، فتعرف على كثيرين من مستخدمى حميه . فكر بادىء ذى بدء فى اللجوء الى البوليس . لكنه مالبت أن وقع على طريقة أفضل . ففى يوم الجمعة التالى ، والزحام على أشده ، جعل أصحاب الدكاكين يضعون فى واجهات دكاكينهم لافتات مكتوبة بخط اليد تقول :

« حتى الشحاذين بوسعهم أن يشتروا بضائع من أجود الاصناف هنا »

ثم وصل النبا الى الصحف ، فاكسبت دكاكين حرف «ب» شعبية أكثر .
مرة أخرى ذاق مستر بيتشام طعم الهزيمة .

لكن ذلك لم يقلل بحال من المصاعب التي كانت تنتظر ماكهيث .
فمقابلة مستر بيتشام باهظة الثمن بأحد كبار موظفي الاميرالية في
حمامات أبي ريشة كان مقدرها لها أن تكون بعيدة الاثر في مخططات
ماكهيث ومشروعاته . فمن ذلك الحين وصاعدا ظلت هناك صورة
واحدة تتراءى لعيني بيتشام . صورة ثلاث سفن نخرة متأكلة ،
محملة بالآف الجنود ، تمخر عباب البحر . حكاية فظيعة !

نقدت البضائع

قسم ماكهيث وقته بين أوهارا وفاني كرايزلر بالعدل والقسطاس .
كان يلتقى بالاول عادة في دكان حلاق مع اثنين من رجال العصابة
احدهما جروتش ، والاخر يدعى « الأب » ، والاثنان من كبار
اللصوص . أما سرقاتهم الكبيرة فكانت توضع خططها في حانة
قريبة . أما اجتماعاته بفاني في مكاتب م.م.م. ، فكانت تمنحه غذاء
روحيا عظيما . كان رأس ماكهيث ما زال يفرخ الافكار الجيدة ،
ولم يكن هناك من يضارعه في مجال التنظيم . ولقد راقته فكرة
فاني عن شراء ستوكات البضائع من الشركات المفلسة ، وأثبتت
التجربة العملية أنها أربح بكثير من عمليات السطو . ولو خير ماك
بين هذه وتلك لاختار الاولى بغير تردد ، فصلا وجال فيها ابداعا ،
وتحسينا ، وتنظيما . لكن ذلك العقد الذي وقعه مع اليهودي
هارون كان كالغل في عنقه .

ولقد مر ماك بعدة أيام عصيبة ، واجتاحه خوف من أنه سيضطر
الى الاعتراف للسادة أوبر وهارون بأن المعركة الحاسمة الوشيكة
مع كرسنتون لا يمكن أن تتم . لكنه ، فجأة ، خطرت في ذهنه فكرة
عظيمة ، ولو أنها محفوفة بالمخاطر المهلكة .

ظل يقرب فكرته نيلة بعد ليلة يقضيها مؤرقا في فراشه . متديرا
في الوقت ذاته الموقف الخطير الذي بات فيه . كان ذهنه يصفو
ويمسى قادرا على التفكير بجلاء وهو يسمع أنفاس بولي الهادئة التي
تنم عن سبات لا يكدر صفوه شيء . في تلك اللحظات كان يتخذ
اجرا قراراته .

ثم عقد عزمه ذات صباح ، وذهب الى اليهودي هارون ، دون
أن يخبر فاني بشيء ، فحدثه هكذا :

المشتريات ، « فتنوعت وكثر عددها ، حتى الاقية الصغيرة الملحقة بدكاكين حرف « ب » الهزيلة تكدست فيها البضائع حتى اسقفها . وهكذا فان الجمهور عندما جاء ليشتري . . . كان يشتري سلعة فتجذب به أخرى تبدو له ضرورية لا غنى عنها ، فيخرج الجمهور حاملا كل ما استطاع حمله وقد سحرته الاسعار المنخفضة حتى أصبح كالمنوم مغناطيسيا ، خاصة وأن لافتات كبيرة بالطباشير الملون على ورق اللف البنّي أعلنته أن تلك كانت فرصته الوحيدة والاخيرة التي لن تتكرر أبدا لشراء أشياء لا حاجة به اليها . ومن رخص الاسعار كان المشترون يخرجون متسولين بمشترياتهم كاللصوص وكأنهم يخشون أن يفيق البائع فجأة فيدرك أنه قد باعهم كل تلك الأشياء بثمن بخس .

كان من الطبيعي أن يجد ماك نفسه في دوامة نشاط محموم . اخذ يمر بدكاكينه ، دكانا وراء آخر ، فيساعد أصحابها باسداء النصح تارة ، وبكتابة بطاقات الاسعار تارة أخرى . لكن انشغاله الاساسي ، بطبيعة الحال ، كان تأمين تدفق سيل لا ينقطع من تلك البضائع التي لا تصدق ائمانها على دكاكينه ، من مصادر متباينة متباعية ، كالدمرك ، وهولندا ، وفرنسا . كان مجلس مشترياته المركزي لا يكف عن العمل ليل نهار تحت اشراف أوهارا الذي لا يكل . في ذلك الزحام كان لا بد للحوادث المؤسفة أن تقع . وقد وقعت حادثة مؤسفة بالفعل عندما تعرف بعضهم على بضائع مسروقة معروضة في أحد دكاكين حرف « ب » . فقدمت شكوى ضد ذلك الدكان المملوك لامرأة تلعى ماري سوير والذي يقع في شارع ملبرى . أما اكتشاف الواقعة والابلاغ عنها فيعود الفضل فيهما الى نفر من الشحاذين .

لكن ذلك لم يفت في عضد ماكهيث . فقد سحب البضائع موضوع الشكوى من الدكان ، وسلمها الى البوليس معلنا أنها وصلت الى ذلك الدكان على سبيل الخطأ من دكاكين أخرى . وأعقب ذلك القبض على نفر من صغار الشحاذين . ولو أن ذلك لم يمنع ماك من أن يظل نهب القلق أياما بأكملها . فقد راوده شك قوي في أن بيتشام لم يقل كلمته الاخيرة بعد ، وأن الرجل لم يكف أذاه عنه حتى ذلك الوقت الا لأن الفرصة أعوزته .

قال ماك لبولى :

- ان كراهية ابيك لى غير طبيعية اطلاقا . يبدو ان اعتماده على ذلك الرجل كوكس قد ازداد ثانية . فهو لا يكف عن مطاردتى واضطهادى . وكلما فكرت فيه تسلطت على أسنود الافكار . ولقد ظلت آمل طيلة الوقت انه لابد سيثوب الى رشده فينظر الى الامور نظرة واقعية ، طال الزمن أو قصر . ويدعنا فى حالتنا ، انا بعد كل شىء لا أكسب الا ما يكفى لمعاشنا ، أنت وأنا بالكاد .
لكنه ما لبث ان نسى تلك الهموم الصغيرة ، فى غمرة الاحداث العاصفة التى تعرضت لها أعماله بعد ذلك .



اعلنت محلات هارون الكبرى ، ومحلات حرف « ب » المتحدة ، فى كافة الصحف الكبرى عن تخفيضات هائلة و اضافية فى الاسعار لكل اقارب الجنود العاملين فى خدمة القوات المسلحة . كما تضمن الاعلان ان الطلبات التى تقدم من ارامل الجنود لافتتاح دكاكين حرف « ب » تحظى بأسببية خاصة . وقد قوبل ذلك كله أحسن استقبال من الجمهور والصحافة . والمهم فى الامر كله ان الاسعار ظلت تخفض بكل وسيلة ممكنة .

سرعان ما بدأت محلات كرستون تحس وطأة تلك المنافسة القاطعة للرقاب ، واضطرت هى الأخرى الى تخفيض أسعارها . وقد أحس بتلك الوطأة أيضا بنك الائتمان الاهلى الذى بذل مديروه فى عنفوان الازمة جهودا تدعو الى الدهشة . ليلة بعد ليلة سهر القرن ونصف القرن مع كرستون يفحصون الدفاتر معا ، ويراجعون الحسابات . لكن المعمة كانت تبتلع مبالغ هائلة من النقود . ساءت الامور الى حد ان القرن ونصف القرن أشاح كل منهما بوجهه ، فلم يعد قادرا على مواجهة الآخر . كان احساسهما بالمسئولية مضنيا . وفى تلك اللحظة التاكتيكية الحاسمة ، قام ماك بخبطة أخرى . اتصل بنك الائتمان الاهلى عن طريق وسيط بغية ايهام القرن ونصف القرن ان البنك التجارى ، ومحلات هارون ، ومحلات حرف «ب» قد باتت كلها مهددة بالخراب العاجل نتيجة لتلك المعركة التى خاضتها ضد كرستون وبنك الائتمان الاهلى ، وأن الاخوين أوبر يحاولان خلسة النجاة من السفينة الغارقة ، والانضمام الى ركب كرستون الظافر .

وقع بنك الائتمان فى الفخ ، وترك ماك يوهمه بما أراد ايهام به ، فأقنع كرستون بتخفيض أسعاره أكثر ، باعتبار ان المعركة

وشبكة الانتهاء ، وان النصر قريب .
ونتيجة لذلك ، اضطر هارون وماكهيث أيضا الى تخفيض
أسعارهما من جديد ، ولم يكن أسبوع الاوكازيون الخاص
بمحلاتهما قد بدأ بعد !

كان الجمهور قد أدرك من زمن طويل أن تلك معركة حياة أو
موت بين هارون وكريستون ، وأدرك أيضا أن تلك فرصته التي
لا تعوض للشراء بأبخس الاثمان . بدأت أعداد صغيرة من ربات
البيوت فى الشراء كما لم يشتريين قبلا . لكن الغالبية العظمى
فضلت التريث حتى تخفض الاسعار الى حدها الأدنى . ولم يمنعهن
ذلك بطبيعة الحال من قضاء سحابة كل يوم هائلمات على وجوههن
من محل الى آخر ، والجشع يسوتهن ، يحملقن ، يقلبن ، ويقارن
الاسعار .

بدأ هارون استعداداته الاولى لتنفيذ خطة ماكهيث الخاصة
بالاسعار المتدرجة ، وكلما سار فى تلك الخطة قدما أدرك قيمة
شريكة الجديد . كان كلما رأى ماكهيث برأسه الذى يشبه رأس
فجلة ، انتابه شك فى أن الرجل يستطيع أن يكتب خطابا من بضعة
أسطر بغير أخطاء املائية ، لكنه لم يعد يراوده أدنى شك فى نبوغ
الرجل فى المسائل المالية . وسرعان ما اكتشف أن قدرات ماك لم
تكن محدودة بتلك الحدود .

كانت شركة م.م.م. تجرى استعداداتها لاسبوع المبيعات الكبير
الذى ازمع هارون وماك أن يجعله أحدوثة تاريخية لم يسبق لها
مثيل . ففرت محلات هارون فكيها فابتلعت شحنات هائلة من
البضائع من مخازن شركة م.م.م. ، وطلبت المزيد . ولم تكن أرباح
الشركة الاخيرة تستحق الذكر ، لان الاسعار كانت منخفضة عن الحد
الاقتصادى بكثير . لكن العملية كلها كانت فى الواقع مناورة حربية
للقضاء على المنافسة . ولم تكن لهارون مصادر أخرى فى تلك
المعركة سوى شركة ال م.م.م. فاعتمد عليها اعتمادا كليا ، وقد
بدأ أنها ، تلك الشركة ، قادرة على كل شيء .

لكنها ، لسوء الحظ ، لم تكن كذلك .
عندما بدأت كميات البضائع المكدسة فى المخازن تتناقص ،
أصيب ماكهيث بانهيار عصبى فى دكان فانى كرايزلر . صرخ ماك ،
وبكى . وأعلن أنهم يلحقون به الخراب ، وأنه واقع وسط عصابة
من قطاع الطرق . وقال انه يفعل كل ما فى وسعه ، لكنهم يريدون

أن يسلخوه حيا ، وانه لم يعد يطبق الاستمرار في هذه الحياة التي يعيشها على فوحة بركان ، وأنهم لا يجب أن يتوقعوا منه ما يفوق طاقة البشر .

أخذت فاني تطيب ماك المسكين بالكمدات الباردة وتدعك جسده بعروخ مستخلص من نبات دخان الفوج (1) ، وتدرعت بالصبر معه وهو يقضى نصف الليل في الصراخ والسباب ، متهما اياها ، هي الاخرى ، بأنها ليست أفضل من الاخرين في شيء ، وأنها تستغله ، وتتصور أنه فحل طلوقة وأنه ملزم بأن يضيع صحته في سبيل أرضائها . حقيقة الامر أن ماك ، كسائر العظماء من الرجال ، كان يتخذ القرارات العظيمة الطموح ، ثم عندما يحين وقت تنفيذها ، ينكص أمام ضخامتها . حتى نابوليون سقط مغشيا عليه في اللحظة التي أصبحت فيها امبراطوريته ، التي خطط لها طويلا ، حقيقة واقعة . لكن ماك ، كسائر العظماء أيضا ، كان سريع القلب ، لا يثبت على مزاج بعينه . أحيانا كان يصفو مزاجه ، فيصحب فاني الى مطعم أو آخر من مطاعم سوهو ، فيقضيان أوقاتا مرحة ، ويضحكان كثيرا وهو يصور لها كيف ستصبح وجوه هارون والاخوين أوبر عندما تنجح خطته الكبرى . ورغم أن فاني كانت تشاركه ضحكه ، إلا أنها لم تكن تعرف شيئا عن تلك الخطة الكبرى . فلم يكن قد صارح أحدا بنواياه ، حتى هي . لكن لحظات البهجة هذه كانت نادرة . وكما هي العادة عندما يكتب الزعيم بدأ الاتباع يرفعون رءوسهم . انتهر رجال أوهارا الفرصة وبدأوا يثقلون على ماك بمطالبهم . وذات يوم من أيام سبتمبر استدعى ماك على عجل الى مقر العصابة . فاغتاظ لذلك لأنه لم يكن يتردد على ذلك المكان الا راغما ، ولم يكن هناك من يعرفه معرفة شخصية مباشرة من أفراد العصابة ، باعتباره مستر بيكيت سابقا ، سوى أوهارا ، والأب ، وجروتش . ومع ذلك ذهب صاغرا ، موقنا من أن شيئا غير مألوف لابد قد وقع ، فقايل أوهارا في دكان الحلاق . لكنهما لم يتحدثا هناك ، بل ذهبا الى حانة مجاورة . وهناك اعتذر أوهارا قائلا انه اضطر الى استدعائه ليتحدث اليه على انفراد حتى لا تعرف مسز كرايزلر من ذلك الحديث شيئا ، لان أشياء عديدة غريبة قد تابعت مؤخرا ، في صفوف العصابة ، وقد لعبت فاني دورا مربيا للغاية في كل تلك الاحداث المزعجة .

قال أوهارا أن رجال العصابة غير راضين عن الترتيبات الجديدة،

(1) «Arnica» دخان جيلي يستخدم في استخراج مستخلص طبي

وان الاجور، الثابتة التي حددت لهم منخفضة للغاية في نظرهم ، وأنه هو شخصيا ، عندما بدأ ذلك التدمير اتخذ الاجراءات اللازمة فورا ضد المتدمرين ، لكن فاني وقفت في وجهه قدر استطاعتها ، وأفسدت كل تدبير له . ثم قال انه من المحتمل جدا أن تكون فاني متواطئة مع جروتش الذي يساعدها ، بلا أدنى شك ، في اثارة الخواطر ، وتحريض الرجال على التمرد . وقال أيضا أن جروتش قد عاد ليعيش معها في بيتها بلامبث .

أزعجت تلك التطورات ماكهيث كثيرا . فقد اعتبر فاني دائما أشد أفراد العصابة ولاء له . لكن ها هي الآن ، حسبما يقوله أوهارا ، تعوض الرجال عن الاستقطاعات التي استنزلت من أجورهم منذ أن بدأت المعركة مع كرسستون ، بنسب مئوية تدفعها لهم من أموال شركة م.م.م. دون أن يكفي ذلك لتهدئة ثأرتهم . فقد تباطأوا في العمل عمدا خلال الأسبوع الماضي ، بل ووقعت بغض حوادث التخريب ، وتخلف البعض عن العمل . سأله أوهارا عما اذا كان أصحاب دكاكين حرف « ب » قد تضرروا من تناقص الكميات المسلمة لهم . لكن ماك لم يكن قد سمع أية شكوى بذلك الخصوص . بل على العكس تماما ، بدأ أصحاب الدكاكين ، على غير عادة ، متفائلين . وهنا صاح أوهارا مهتاجا :

— اذن فهي تشتري البضائع من مصادر أخرى . وهي تفعل ذلك من وراء ظهرك . ألم تخبرك بأى شيء عما يجري هنا ؟
أخذ ماك يعيث بأطراف أصابعه في قطرات من الجعة على سطح المنضدة ، ورمق أوهارا بنظرة جانبية من عينيه الدامعتين . طلب من النادل علبة من السيجار ، وأرسل أوهارا الى حارة رايد حيث كانت العصابة ، حسب قوله ، مجتمعة .

لم يكن أوهارا يعلم شيئا عن مشتريات شركة م.م.م. من الشركات المفلسة — ذلك المصدر الاضافي الذي تفتق عنه ذهن فاني — ولذلك أراد أن يدس لها بتلك الفرية عند ماك غير دار أن ماك لاغنى له عن ذلك المصدر الذي لا يأخذ عليه ، والذي تحصل الشركة بفضلها على بضائع غير مسروقة ، لها فواتير وايصالات ، تغطي بها مايزودها به هو من بضائع مسروقة .

عندما عاد أوهارا ، قال أن الرجال لا يريدون أن يتزحزحوا عن موقفهم ، وانهم قالوا له أن مسز كرايزلر تعرف كل مطالبهم ، وقال الم أقل لك أنها ضالعة معهم . لم اشتكى للمرة المائة من أن ماكهيث

جرده من كل سلطة له يكبح بها جماح الرجال ، عندما أخذ برأى فانى فى الكف عن تسليم المشاغبيين منهم الى البوليس .
اصطحب ماك الفتى الايرلندى معه الى جسر ووترلو ، لكن دكان فانى كان مغلوقا ، فذهبا الى بيتها فى لامبث ، ووجدوا جروتش معها .
نشب شجار محتدم لزم ماكهيت خلاله الصمت . كل ما فى الامر أنه رمق جروتش ببرود ، وتوصل بنظراته الى احراج فانى بعض الشيء . لكن المناقشة ، عندما اتجهت من المسائل الشخصية الى مشكلات العمل ، بينت ان فانى فى صف الرجال فعلا ، وانها تعتبر مطالبهم معقولة . قالت ان تخفيض اجورهم ضيع الغرض من فكرتها الاولى ، وانهم يريدون العودة الى النظام القديم ، فيعملون بالقطعة ويقبضون ثمن كل مايوردونه ، أولا بأول . ثم هزت كتفيها وقالت ان ذلك ذنب ماك ، لانه خفض الاجور كثيرا .
فقال ماك :

– ولكن ذلك اجراء وقتى للغاية . فالبضائع يجب ان تباع بثمن بخس للغاية الى ان يتم القضاء على كرسون نهائيا . ومتى تم لنا ذلك ، سترفع الاسعار والاجور ثانية .

قال اوهارا محتدا وهو يخبط المنضدة بقبضة يده :

– انهم ينتهزون الفرصة للضغط علينا . وهذا ما لن اقبله .
فقالت فانى ، متمسكة بموقفها :

– ليس بالوسع شرح الموقف بيننا وبين كرسون لهم . فوق ان ذلك لايعنيهم فى شىء . فهم لايعرفون الغرض الذى يعملون من اجله ، ولا يعلمون متى ستنتهى هذه العملية .
قال ماك بلهجة من تستفرقه افكاره :

– ذلك كله لايليق منهم . فى البداية تدمروا وقالوا انهم يريدون اجورا ثابتة كالموظفين ، فأعطيناهم اجورا ثابتة وجعلناهم موظفين .
والآن يريدون ان يستقلوا ثانية ، ليصبحوا من ذوى الدخول الخاصة . هل هذه طريقة يظهرون بها عمق الرابطة المشتركة بين الزعيم واتباعه ؟ انهم مذذبون لايتقرون على حال . بالامس اجور ثابتة ، واليوم مشاركة فى الارباح . ما هذا ؟ هذه الفوضى لن تؤدى الى خير . ليس هذا ما يجب ان نتحلى به من تماسك فى السراء والضراء .
قالت فانى مفضبة :

– وفر عليك حديثك عن السراء والضراء ياماك . فأغلب الظن ان سراءك هى ضراؤهم .

فقال ماك :

- لكننا ، فيما يحتمل ، سنواجه أوقاتا عصيبة عما قريب ، فمن الذى سيتحمل مسئوليتها عندما تأتى ؟ !
- أنت تعرف جيدا أنهم هم الذين يتحملون المسؤولية دائما .
دعك من العواطف النبيلة .
قال ماك بحسم مفاجيء :
- طيب . ليكن ما يريدون . سادفع لهم بالقطعة . ويمكنك ان تقولى لهم ان الفضل فى ذلك لك يا فانى .
وهم واقفا . قال وهو يتناول قبعتى أوهارا وجروتش من فوق المشجب فيعطيها لهما بشرود فكر :
- لكن الطلبيات ستصدر عنى أنا .
وقف جروتش مترددا وقد بدت على وجهه دهشة طفيفة ، فقال
ماك لفانى :

- هناك أشياء أريد ان أناقشها معك على انفراد .
فخرج الرجلان بيرطمان . وعندما عادت فانى ، بعد ان صحبتها الى الباب الخارجى ، وجدته واقفا الى النافذة . قال :
- قد يعود جروتش ليرى ان كانت الانوار مازالت مضاءة .
يحسن ان نذهب الى غرفة النوم .
سبقها الى المخدع . كانت غرفة نومها مجاورة لغرفة الجلوس ، وتطل هى ايضا على الشارع . انتظر ماك الى ان لحقت به ثم ذهب فأطفأ ضوء غرفة الجلوس . قال لها :
- ضوء واحد يكفى . سيتعين عليك ان تقتصدى من الان فصاعدا . فالنسب المئوية التى دفعت للعصابة ، بناء على رأيك ، ستخصم من مرتبك .

جلس على الفراش وأشار لها ان تجلس . جلست فانى مظهرة الدهشة والالم لخشونته معها . سألتها بفتة :
- هل تحسبن بالفيرة ؟

نظرت اليه دهشة ثم ضحكت . قالت :
- كنت سأسألك نفس السؤال . ماك . أنت غريب الاطوار حقا !
دمدم مفضبا :

- اذن خبرينى بكل ماتعرفينه عن الخطة . كل شيء !
انتابتها دهشة ، لانها لم تكن تعرف عن خطته شيئا . كل همها انحصر فى تحقيق السلام بين صفوف العصابة عن طريق معاملة

الرجال معاملة عادلة . لم تكن ترمى الى احداث متاعب لاحد .
فموقفها كان موقف عش ودع غيرك يعيش . ولعلها اتخذت ذلك
الموقف لان خليلها الحقيقي جروتش كان من رجال العصابة .
عندما بدأ ماك يشرح خطته لها ظهرت دهشتها واضحة ، فتأكد
من صدق قولها عندما أكدت له أنها لاتعرف عن خطته شيئاً . لكنه
انتابه الحماس فاندفع شارحاً لها الخطة تفصيلاً . فأصفت اليه
بانتهاب كامل . ولطالما قال عنها انها أفضل من يعرف قدرة على
الاصغاء لما يقال لها .

قال أن هناك ثغرات لاتحصى في مركز كركستون وبنك الائتمان
الاهلى ، وأنه يرى في تلك الثغرات فرصاً هائلة لتحقيق مآربه .
فأحد العملاء الرئيسيين لبنك الائتمان الاهلى مثلاً هو مستر
بيتشام ، ومستر بيتشام هذا مازال والد زوجته ، شاء أم لم
يشأ . لكنه يريد أولاً ، وقبل كل شيء ، « أن يخرج الى العراق » مع
حليفه : هارون اليهودى ، والبنك التجارى . قال لها :

— لا أستطيع أن أقاتل جنباً الى جنب معك ، بكل قلبى ، وبكل
امكانياتى ، كما أود أن أفعل ، وأنا أحس أنه قد غشنى ودلس على .
ذلك الاحساس يقف حائلاً بينى وبينه . لكنى بمجرد أن ألقنه
درساً ، سيصبح من الاسهل أن أتوصل الى اتفاق سليم معك .
كان ينوى أن يوقف فى القريب العاجل سيل البضائع المتدفق ،
سواء بالنسبة لمحلات هارون ، أو لمحلاته هو حرف « ب » .
والاجراء الاخير ، فيما يخص دكاكينه ، وقائى ، ليتذرع به أمام هارون
والبنك ، مدلاً على براءته . أما القصد من المناورة كلها فوضع
هارون والبنك التجارى فى موقف يائس ، بحيث يجدان انهما ، فى
اللحظة التى اوشكا فيها أن يجهزا على خصمهما العتيد كركستون ،
قد أصبحا بلا حول ، اذ توقف سيل البضائع المتدفق على هارون ،
وبهذه الطريقة يدركان مدى تورطهما معك ، والى أى حد أصبحا
فى قبضته . واذا ذلك تستطيع شركة م.م.م. أن توقع معهما عقوداً
جديدة ، وتملى شروطها التى سيقبلها هارون وأنفه الكبير فى الرغام .
لانه لا يستطيع أن يظل خاوى الوفاض من البضائع وسسط
المعركة ، عشية أسبوع المبيعات الحاسم . فاذا وافق هارون على
دفع الاسعار الجديدة المعقولة ، سيصبح فى الوسع التخلّى عن الوسائل
الآخري غير المشروعة فى الحصول على البضائع . ولهذا فان ذلك
الاتفاق الجديد مع رجال أوهارا جاء فى وقته ، لانه خلصه من عبء

الاجور المنتظمة ، وجعل في مكنته ان يوقف طلبياته في اى وقت ، ويستغنى بذلك عن خدماتهم . قال لفانى :
- لقد آن الاوان لتكوين أسرة . فقد بلغت من العمر حدا ينبغي للمرء فيه ان يكون صاحب حساب في البنك .
أظهرت فانى حماسا فائقا لخطته ، حتى وجد صعوبة بالغة في الافلات من ذراعيها في تلك الليلة ، والعودة الى بيته . ولم يذكر جروتش الا وهو في الطريق الى ناهيد . فقرر انه يجب ان يعامل فانى في المستقبل ببرود اكثر . فوق انها قد اظهرت من استقلال الرأى مؤخرا مالم يعجبه كثيرا .

مؤتمر تاريخى

بعد بضعة ايام عقد اجتماع لشركة م.م.م. بحضور ماكهيت . بدأ ماكهيت الاجراءات بدعوة الحاضرين الى تدخين السيجار ، ثم اشار الى منضدة محملة بالويسكى والصودا والكئوس ، لان الاجتماع قد يطول ، وهو على أية حال ، اجتماع مرهق . ثم عرض عليهم الترتيبات التى وضعها بالاشتراك مع هارون لاسبوع المبيعات المقبل ، وكانت شاملة لكل ما يخطر ببال أحد من تفاصيل . قال لهم وهو يلوك سيجارا جديدا بين أسنانه :
- لقد عملنا أنا وهارون أربعة ايام متواصلة لوضع هذه الترتيبات . ثم عرضتها يوم الاحد الماضى على الاخوين اوبر في قلعة واربورن . وقد قال جاك اوبر أنهم سيقومون بالمناسبة مهرجانا رياضيا تذكره لندن كلها لسنوات عديدة مقبلة .
كان ماكهيت يتكلم ببطء ووضوح ، ثم التفت الى فانى متسائلا عما اذا كانت شركة م.م.م. قادرة على تقديم كميات البضائع المطلوبة منها في موعدها . فلما سألته عن تلك الكميات المطلوبة أذهل الحاضرين بأرقام لا يصدقها عقل .
ابتسمت فانى والتفتت الى بلومزبرى الذى كان جالسا بينهم لا يعرف له رأسا من قدمين، غير فاهم مما يدور حوله شيئا، مبتسما للمحامين عضوى المجلس ابتسامة حرج بلهاء ، ثم قالت :
- مستحيل طبعا . فقد وصلنا الى أقصى طاقة لنا . وسنكون مجدودى الحظ ان استطعنا الوفاء بثلاث هذه الكميات الخرافية التى

تطلبها . لقد تعجلتم الامور كثيرا ، وكان يجب أن تبدأوا هذه الحملة بعد أن نستعد لها جميعا الاستعداد الكافي .

فقال ماك وهو ينظر الى السقف :

— هذه أنباء مزعجة .

قالت فاني برباطة جأش :

— ما زلنا قادرين على تزويدكم بثلاث الكميات المطلوبة .

— آسف . ليس هذا اقتراحا تسهم به شركتكم فى خطة جبارة

كهذه يقول عنها جاك أوبر ذاته انه لا يوجد لها مثيل منذ المباريات الاوليمبية فى عهد اليونان . ثلث الكميات حقا ! اسمعى ياسيدتى .

اما ان يفى المرء بتعهداته كاملة واما لا . وأعنى بذلك التعهدات بمعناها القانونى ، لا مجرد الالتزام الاخلاقى القائم بين الاصدقاء وزملاء العمل .

قالت فاني باقتضاب :

— والله قد فعلنا كل ما فى وسعنا .

— خسارة .

وهنا عيل صبر احد المحامين ، واسمه ريجز ، فقال ضائقا بمهزلة

ماكهيث المكشوفة :

— اسمع . لم لا تقول ماتريد قوله بغير لف ولا دوران ؟ أنت تريدنا

أن نترك هارون ليوحل فى منتصف الطريق ، أليس كذلك ؟ قل ذلك وانه .

— ما الذى تعنيه بقولك انى أريد ؟ قل انى يجب أن أفعل ذلك .

انى مرغم على أن أفعل ذلك . فالتوقف عن التوريد الان سيؤثر على محلاتى أنا أيضا . سيصيبها بضربة قاصمة . ولا أستطيع أن استثنىها

من ذلك . سيفوز كرسنون بأسبوع مبيعاته ويخلفنا وراءه . تلك مصيبة ، لهارون المسكين ولنا . ولكن ما حيلتنا ؟ ليس هناك

ما يمكننا عمله .

فقد وصلنا الى النقطة الحرجة ، وسنكون مجدودى الحظ حقا ان

خرجت شركة م.م.م. من هذه المعمة سالمة . فلنكن واقعيين . من الافضل لنا طبعا ألا نخبر هارون بشىء صراحة . يجب أن يتناقص

التوريد تدريجيا حتى يتوقف تماما . هذا أمر يمكن تدبيره . فان لم نكن قادرين على تنظيم عمليات التوريد بكفاءة فلا أقل من أن نظهر

شيئا من الكفاية فى ايقافها . وشىء آخر ايها السادة . لاتنسوا أبدا أن الرجل المريض يموت أما الرجل القوى فيقاتل . هذه هى

الحياة .

فقطعه ريجز بفلظة . لم يكن لديه مايقوله ، لكنه لم يكن مرتاحا للأمر :

— دعنا من الفصاحة ياما كهيث . لتكلم في العمل .
لكن ماك لم يكن قد انتهى بعد . استطرد قائلا ببطء، وهو يمسك سيجارة بيده اليسرى، حتى يتمكن من الامساك بقلم في يده اليمنى .
— ستكون محنة قاسية بالنسبة لاصدقائنا أصحاب ذكاكين حرف «ب» المساكين ، وهو ما يجب أن نحزن له جميعا . كل هؤلاء الاطفال الذين يعيشون في الحجرات الخلفية . لكننا ، للأسف الشديد ، لا نستطيع لهم شيئا . كثيرون منهم متأخرون في سداد ايجاراتهم والمبالغ الاخرى المستحقة عليهم ، ونحن الان في مرحلة حرجة نحتاج فيها الى كل بنس مستحق لنا . لذلك يجب عليهم أن يدفعوا . لقد ساعدناهم عندما سلمناهم البضائع بالاجل ، والان يجب عليهم أن يهبوا لمساعدتنا بأن يدفعوا لنا . هذا عدل وصواب . فنحن في حاجة الى احتياطي يساعدنا على عبور الاوقات العصيبة المقبلة سالمين . ويجب عليكم ان تذكروا أنهم سيحل بهم الخراب جميعا اذا ما اقلسنا نحن . خيم على القاعة صمت مطبق . حتى فاني استفظعت الموقف . لم تتصور في وقت من الاوقات ان تصبح هذه المذبحة ضرورية . لاي شيء يريد ماك تلك الاحتياطات التي يتحدث عنها ؟ وما الذي يمكن ان يكسبه ان افلست الدكاكين ومات من يديرونها جوعا هم واطفالهم ؟ سيترنح هارون من اثر الضربة التي سيكيلها له ماك لكنه سيعيش ، اما كرستون ، العدو الحقيقي ، فسيحقق انتصارا باهرا ، حتى وان كان مؤقتا كما يأمل ماك . لكن الدكاكين الصغيرة ستساقط كالذباب . لكن ماك لم يكن لديه وقت لشيء من ذلك . كان غارقا في العمل الى اذنيه ، آخذا في الكتابة بسرعة على كل قصاصة ورق في متناول يده ، واوهارا يتألق بجانبه ، مظهرا نشاطا يحسد عليه . وضعوا خمستهم الترتيبات اللازمة لتناقص البضائع الموردة ثم انقطعوا عن محلات هارون ومحلات ماكهيث معا . فقد أصر ماك على أن يتم تجويع محلات حرف « ب » بنفس القدر الذي يتم به تجويع محلات هارون فلم يكن بوسعه أن يعطى هارون ، والبنك التجارى معه ، أدنى فرصة للشكوى . وهكذا بدأ تنفيذ الخطة الكبرى . في منتصف حملة المبيعات ، تخاذل التوريد فجأة ، كان هارون ، وقد أذهلته قدرة شركة م.م.م. على التوريد في مبدأ الامر ، قد أولى تلك الشركة - كما أراد ماك تماما - ثقة عمياء مطلقة ، فلم يعن بتحرير عقود مفصلة معها تنص على عقوبات

وغرامات في حالة العجز عن الوفاء بالتعهدات . ولذلك فان هارون ،
 وبنكه معه ، وقعا في حيص بيص ، ولم يخطر لهما ببال أن يفعل شيئا
 الا ما توقعه ماك واستعد له : انصب همهما على الوقوف - من مضارهما
 الخاصة - على حالة دكاكين حرف «ب» ، وهل زاد التوريد اليها او
 نقص . وسرعان ما تأكدا من أن تلك المحلات تعاني من نفس المجاعة .
 والواقع أن أصحاب محلات حرف «ب» الذين أصابهم الذعر كانوا
 يجتاحون مكاتب شركة م.م.م . يوما بعد يوم ، صارخين محتجين ،
 فتقابلهم مسز كرايزلر بابتسامة عذبة ، وتطيب خاطرهم .
 لكنهم يعودون الى بيوتهم فيجدون في انتظارهم اذارات من مستر
 ماكهيث تطالبهم - بأدب جم - بالوفاء بالتزاماتهم المتأخرة .
 وعندما استدعى ماك الى البنك التجارى ، عبر لصاحبيه عن دهشته
 الفائقة وألمه البالغ . وقد اتقن دوره بصفاقة نادرة ، ونجاح ، وتصميم .
 حتى أن أصدقاءه المساكين أصحاب دكاكين حرف «ب» لم يتجنبهم . على
 العكس تماما . ظل يزورهم كسابق عهده ، فيشرح لهم بوجه طافح
 بالالم لماذا هو مضطر الى جمع نقوده ، ويجلس فى الحجرات الخلفية
 فيضع أطفالهم الجياع على ركبته ، ليرقصهم ، ويداعبهم بحنان ،
 محاولا أن يملأ الصدور التى ينهشها الخوف واليأس ببعض من تفاؤله
 وبقته بالمستقبل ، محدثا النساء عن متاعبهن اليومية ، قائلا ان هناك
 دائما طرقا جديدة لاتحصى للاقتصاد فى النفقات . أما الرجال فيتحدث
 معهم على انفراد . يقول للواحد منهم تريد الحقيقة ؟ هذه المصيبة
 أصابتنى فى الصميم . لكنى لا أظهر مما أحسه شيئا . وانت أيضا :
 يجب أن تتماسك أمام أسرتك وتكون عوننا لها على هذه الاوقات الاليمة .
 وهكذا أثبت ماك مرة أخرى انه ولد ليكون قائدا وزعيما ، وأثبت
 أيضا ان المرء يستطيع ان يقول أى شىء مادام قد عقد العزم على ما يريد
 فعله . كان يعرف أولئك الناس جيدا . ويعرف أنهم كالحراف تستطيع
 أن تقودهم الى الذبح بيدك . ولذلك فان النظرات السوداء التى كانوا
 يقابلونه بها فى مبدأ الامر لم تكن تخيفه : ماعليه الا ان يقول لهم ان
 عليهم أن يصمدوا للنوائب وأن يكونوا أقوياء ، ثم يذكرهم ان البقاء
 للاقوى ، ويقابل نظراتهم المزعزعة المذعورة بنظرة ثابتة ثابتة لاتحيد .
 ولقد دأب ماك ، فى تلك الايام ، على ترديد نفس النغمة على مسامع
 بونى : يجب أن تقتصد غاية الاقتصاد فى النفقات . لانه لا يلبق به الا
 أن يجوع كما يجوع رجاله . له عين . وأخذ يشتري سيجارا من
 صنف ارخص ، وألقى اشتراكه فى إحدى الصحف الصباحية التى

كان مشتركه فيها وكلما تدمرت قال لها :
- لا تفقدى ايمانك . أنا أعرف رجالى . وأتوقع منهم الكثير . أتوقع
كل شيء . وكما قالت تلك الام الاسبارطية التى يذكرها التاريخ لابنها
الذاهب الى الحرب : عد كاسيا درعك أو محمولا على درعك ! أقول أنا
ايضا لاصدقائنا أصحاب دكاكين حرف «ب» : عودوا رافعين لافتات
دكاكينكم أو محمولين عليها ! لكنى أنا أيضا يجب أن أشاركهم محنتهم
ثم حاول أن يشرح موقفه لجاك أوبر . لكن جاك أوبر كان نافذ الصبر
معه . فال له بجفاء أنه لا يفرق بين أولئك الذين يخونهم الحظ وبين
من لاذكاء لهم ، وأن الشفقة على المغلوب علامة ضعف مردولة . فضاق
ماكهيث به ، وكره فلسفة اليونان هذه ، لانه وجدها لا انسانية .

من أجل راحة الجنود

كان ماكهيث لا يزال يحتفظ فى مخازنه بكميات ضخمة من الاقمشة
القطنية والصوفية لم يعد يعرف ما يمكنه أن يفعله بها . فقبل أن
تتخذ شركة م.م.م. قرارها التاريخى بقليل ، كانت تلك المخازن
قد تسلمت عدة شحنات من الاقمشة ، نتيجة للسطو على مصنع من
مصانع النسيج فى لانكشير .
كانت الصحف قد عادت فى تلك الاونة الى الكتابة بأسهاب عن
الحرب فى جنوب افريقيا . فلم تكن المعارك الضارية ناشبة فى لندن
وخذها ، بل فى جنوب افريقيا أيضا . ولم تكن الطبقات الفقيرة ذائقة
الامرین بسبب صدام المصالح فى ساحة المال فحسب - ولندكر مارى
سوير وغيرها من أصحاب الدكاكين - بل بسبب صدام المصالح فى
جنوب افريقيا أيضا .

والحقيقة أن تلك خصلة رديئة لدى الفقراء . كلما نشب صدام ،
توصلوا الى أن يكونوا بين المتصادمين . لكن تلك حال لا يمكن السكوت
عليها ، ويجب أن يكون هناك من يفعل لاولئك الفقراء شيئا .
لهذا تشكلت لجان للرحمة ولجان للاحسان . هبت سيدات الطبقات
العليا - كدأبهن - الى نجدة المعوزين ، وغوث الملهوفين ، فتنافسن
فى ذلك تنافسا شديدا ، فى كل بيت من البيوتات الكبيرة ، وكل
مدرسة خاصة ، أخذت الايدى الرخصنة الناعمة تمزق خرقا
عديدة من قماش لتصنع منها ضمادات للجرحى . والقمصان أيضا
حيكت للجنود البواسل ، والجوارب وما اليها . وهكذا اكتسبت كلمة

التضحيه معنى جديدا . فأرسل ماكهيث زوجته بولى الى لجنة من تلك اللجان، ادا رأى سوقا طيبة لا قمشته الصوفية والفطنية. وهكذا أخذت بولى تقضى بعد ظهر كل يوم فى عنابر حياكه افيمت على عجل انكبت فيها سيدات من خيرة الاسر على حياكة القمصان وهن يشربن الشاي ، وقد اكتست وجوههن جميعا ، بدون استثناء ، مسحه ورع وخطورة ، وبنات أحاديثهن مفعمه بموضوع التضحيه ، وبفرحة الجود الابطال بهذه القمصان الجميلة ، وبعظمة انجلترا ، وندالة الاعداء . فى ذلك المجال الاخير كانت الكلمة العليا للمتدمات فى السن ، وهن أشد الجميع تعطشا للدماء . قالت عجوز ارستقراطية :

- تردن رأيبى ؟ نحن نعامل أولئك الوحوش الذين يلبدون لجنودنا الابطال فى كمائنهم الكريهة بكثير من الرحمة وضبط النفس . يجب علينا أن نهاجمهم ونقتلهم جميعا حتى يدركوا مصرير من يتشاجر مع انجلترا . والذي لا أفهمه ، فيم تعفنا عن القضاء عليهم وهم ليسوا بشرا ؟ انهم وحوش مفترسه . هل سمعتن كيف يسممون الابار ؟ رجالنا هم الذين يقاتلون قتالا عادلا .

فتنهنت عجوز أخرى أشد ايغالا فى الكبر ترتدى عوينات ذهبية :
- سمعت أن رجالنا يتقدمون تحت النار ببسالة منقطعة النظر ، وأنهم يسيرون تحت وابل الرصاص كما لو كانوا يقومون باستعراض فى ميدان الطرف الاغر ، لايعنيهم فى شىء أن يقتلوا أو لا يقتلوا . وقد قام احد المراسلين الحربيين باستفتاء بينهم فى ذلك الشأن ، فأجمعوا كلهم على أنهم لا يقيمون وزنا لشىء مادامت انجلترا ستزهو بهم .
قالت العجوز الاولى بصرامة :

- انهم لا يفعلون الا ماهو واجب عليهم . فهل نقوم نحن بواجبنا ؟ فازددن سرعة فى حياكتهن . وانبرت فتاة فى العشرين قائلة :
- عندما تروى الصحف انباء تلك الاشياء التى تجرى هناك ، لاتملك الواحدة منا الا أن تفكر فى كل أولئك الشبان الاصحاء ، بوسامتهم الاخاذة ، وبزاتهم العسكرية ، وتحس بالحزن حقا .
ثم عقببت فتاة أخرى فى مقتبل العمر قائلة :

- أتعرفن ؟ كلما رأيت رجالنا البواسل فى ثيابهم الرثة الملطخة بالعرق ، وتذكرت المخاطر الفظيعة التى تعرضوا لها ، والمصاعب التى مروا بها ، أحسست أنى أستطيع أن أقبل كل واحد منهم ، أن أعانقه وهو قدر هكذا ، وغارق فى عرقه ، ومغطى بالدم .
رمقتها بولى بنظرة سريعة ولم تقل شيئا . لكنها قالت لنفسها :

— ألم يكن أبى دائما على حق ؟ بعد أى انتصار من الانتصارات يجب أن يرسل المرء جنودا مشوهين ، تكسوهم القذارة ، وتبدو عليهم التفاسة والبؤس ليشحدوا . أما بعد الهزائم فيجب أن يكونوا غاية فى النظافة ، والاناقة ، والحفظة . هذا كل ما فى الأمر .

تحول الحديث بعد ذلك الى الترفيه عن الجنود . قالت كل واحدة من السيدات أنها ترسل لهم الشيكولاتة ، والسجائر ، والتبغ ، وخطابات الاعزاز والتشجيع فى علب ذات اربطة وردية . ثم قالت احدى الفتيات : — يقولون أن التبغ يباع الان برخص التراب فى محلات هارون بشارع ميللر . قد لا يكون من صنف جيد ، لكنهم ، على ما سمعت ، يفضلون الكم على الكيف .

بعد ذلك تبادلن بعض الخطابات التى أرسلها جنود من الجبهة يشكرون فيها المحسنات اليهم . وفجأة استدارت العجوز ذات العوينات الذهبية الى بولى ، قائلة بضراوة :

— كلما فكرت فى أن هذا القماش الانجليزى النظيف سوف يخضبه سريعا دم جندى انجليزى ، وددت لو أطبق بيدي هاتين على اعناق أولئك القتلة حتى أزهدق أرواحهم .

حملت بولى فى العجوز بفرع حقيقى ، ويدها المعروقة ، بابرتهما المشهرة ، متقبضة فى الهواء ، وفمها عديم الاسنان فاغر كأنها تلمظ الى دم احد . أحست بولى بالفثيان فخرجت مسرعة ، وعندما عادت قالت لها امرأة لها عينان كعيون الابقار :

— ان شاء الله يكون المحروس ولدا . فانجلترا فى حاجة الى الرجال . بعد ذلك اتجه الحديث وجهة أخرى . قالت امرأة سمينة فى ثوب حريرى بورود كبيرة ، وهى زوجة أميرال :

— الحقيقة أن سلوك الطبقات الدنيا كان رائعا منذ بداية هذه الحرب . فأناعضو فى لجنة أخرى مختصة بالضمادات . منذ أيام مثلت أمام اللجنة امرأة كان من الواضح أنها من الطبقات العاملة ، فقدمت الينا قميصا نظيفا فيه أكثر من رتق . وقالت أن زوجها لديه قميصان آخران غيره ، وأنها تبرع به لنصنع منه ضمادات للجنود . هل رأى أحد مثل هذه الوطنية أبدا ؟ كم من دوقه يوسعها أن تتعلم من هذه المرأة ! فقالت العجوز الارستقراطية بحداقة :

— كل فى مكانه يا عزيزتى ، وكل حسب امكانياته . عندما عادت بولى الى البيت ، استطاعت أن تفرح قلب زوجها بعدد الدعوات التى تلقتها لزيارة بيوت الصفوة ، فسر لذلك كثيرا ، خاصة

وأنه صرف مالدیه من كميات الاقمشة ، وأوصاها بأن تشار باجتهاد عظیم فیماهی قائمة به من أعمال البر خدمة لجنود الامبراطورية البواسل .

مستر اكس

داب ماكهيت في تلك الاونة ، كلما اجتمع بالسادة هارون وأوبر ، على الشكوى من غدر صديقه القديم لورد بلومزبرى . لكنه - مع ذلك - أحس في دخيلة نفسه بأنه يحسن به أن يقنع أولئك السادة ، بما لا يدع مجالاً لشك في نفوسهم ، بأن مصدره الوحيد الذي يحصل منه على بضائعه هو شركة م.م.م.م. ولا مصدر سواها . لان شكوكك البنك التجارى كانت قوية ، ومن الصعب التغلب عليها . فمناورة إيقاف التوريد التي قام بها ماك ، وضعت البنك تحت رحمة الشركة بصورة كاملة ، بعد ان كان ماك ، ودكاينه ، وشركة م.م.م.م. تحت رحمة البنك . ذلك انقلاب خطير فى الاوضاع . ويحسن ، بل يجب ألا يكتشف البنك ، تحت أى ظرف من الظروف ، ان تلك الرحمة التي هو واقع تحتها ، هى رحمة مستر ماكهيت . لهذا عقد ماك اجتماعاً ثانياً ، وسرياً للغاية ، لمجلس ادارة شركة م.م.م.م. ولم يشر اليه فى محضر الاجتماع الا باسم « مستر اكس » .

قام مستر اكس هذا بتحرير خطاب اختيرت كل كلمة من كلماته بعناية ، لئلا تترك فيه ثغرة قانونية واحدة ، وجهه الى مستر ماكهيت ، المقيم بنانهيد ، وأخطره فيه بحزم لا يقبل التأويل ، وان اتصف بالادب الشديد ، أن العقد الابتدائى القائم بينه وبين الشركة ينص على أسعار قصد بها ان تكون مؤقتة ، ولفترة محدودة للغاية ، من حيث انها أسعار تضحية ، على سبيل الاعلان . وأخطره أيضا ان المصادر التي تحصل منها شركة م.م.م.م. قد أصيبت مؤخراً بشيء من الجفاف ، مما جعل التوريد يتوقف . ولو أن الشركة ستكون قريباً فى مركز يسمح باستئناف التوريد ، ولكن بأسعار جديدة طبعاً .

سار كل شيء فى الاجتماع على ما يرام . وعندما أوشك على الانفضاض ، قرابة التاسعة مساءً ، هم بلومزبرى واقفاً ، لدهشة الحاضرين جميعاً ، فأخذ يتهته متسائلاً عما اذا كانت هذه الاجراءات لن تسمى الى أصحاب محلات حرف «ب» .
كان الوقت مساءً ، وكلهم جلوس فى هدوء حول المنضدة الثقيلة ، والنوافذ مفتوحة لان الجو ما زال دافئاً .

انتزع ماكهيث سيجاره من بين أسنانه ، وألقى على الفور خطبة قصيرة ، وجهها أساسا الى صديقه لورد بلومزبرى ، أكد فيها أن إجراءاته التى أثارت انزعاج اللورد تعنى بطبيعة الحال ان أصحاب دكاكين حرف «ب» سيمرون بفترة قصيرة من التضحية بالذات ، لكن اللورد يعلم أن نشاط الاعمال كله ، بل وكل نجاح فى هذا العالم القانى ، يعتمد أساسا على القدرة على تحمل التضحيات فى الوقت المناسب . فالرجل المريض يموت ، أما الرجل القوى فيقاتل . كان الامر كذلك دائما وسيظل كذلك أبدا . وما على أصحاب دكاكين حرف « ب » فى هذه الآونة العصبية الا أن يظهروا طيب معدنهم . وهو لذلك يكلف السيدة فانى كرايزلر ، عضو المجلس الموقر ، بمتابعة سلوك أولئك الناس ، لترى من الذى سينهار منهم ، ومن الذى سيقاوم ويبقى . ثم أضاف أن السيد أوهارا هو الآخر سيضطر الى مواجهة هذا السؤال الحيوى . وقال ماك أنه هو شخصيا سيتحمل المسئولية كاملة . فكل صاحب دكان حرف «ب» سوف تلقى به فانى فى عرض الطريق ، سيكون قد ألقى فى عرض الطريق بيده هو . لانه لايسمح لاحد بأن يعمل معه الا اذا كان يؤمن به ايمانا كاملا ، ويسير على هديه . لكن فانى همت واقفة ، فأفاضت فى شرح بعض الوقائع المتعلقة بالحالة المؤسفة التى وصل اليها أصحاب دكاكين حرف «ب» ، متجنبه النظر الى ماك . قالت أن هذا الذى يحدث لأولئك الناس لا اسم له الا القتل العمد مع سبق الإصرار ، وان السواد الاعظم منهم لن يصمد شهرا آخر . . .

وانهت كلمتها قائلة :

— ما لم نقدر من الان مساعدة هؤلاء الناس ، سيتعرضون لكارثة محققة ، فان الكارثة لن يمكن تجنبها .
رد عليها ماك ببرود واضح ودهشة لم يحاول اخفاءها ، فقال :
أولا ، فى أسوأ الاحوال لن تكون دكاكين حرف « ب » هى التى ستفلس ، بل « أصحاب » الدكاكين . وهذا يختلف عن ذاك اختلافا بينا . وثانيا ، ان الشركة ليست فى مركز يسمح لها بأن تبدأ فى رعاية الأرامل واليتامى . وفوق هذا وذاك فان مبداه هو أن من يسقط يجب أن يترك ليسقط ، بل وأكثر من ذلك ، يجب أن نعجل بسقوطه بضربة فى ظهره . وانفض الاجتماع .

ترك أوهارا مقر الشركة غاضبا . لكنه — رغم غضبه — نفذ كل ماتم الاتفاق عليه فى الاجتماع ، وتصدى لرجاله ، فقال لهم أن عليهم

الآن ان يأخذوا اجازة ، قد تطول بضعة أسابيع ، وستكون على حسابهم هذه المرة . وبذلك نضب معين التوريدات تماما ، وتوقف . فوق ان خطاب شركة م.م.م. الموجه الى ماكهيث ، عندما قدمه هذا الاخير الى البنك التجارى ، أحدث تأثيرا بالغ القوة .

خلال بضعة أيام من تلك القرارات التاريخية ، بدأ أصحاب دكاكين حرف «ب» ، خاصة الفقراء فقرا مدقعا منهم ، يحسون بوطأتها . كانوا غارقين فى الدين الى قمة رءوسهم . وقد أحسوا جميعا أنهم راحوا ضحية للخيانة ، وان ماك باعهم للمحلات الكبيرة . ساءت أحوالهم الى حد أن شحاذى مستر بيتشام بدأوا يعشرون ، بصورة متزايدة ، على كثيرين منهم ، يحاولون أن يشحنوا فى الطرقات هم وأولادهم .

الحقيقة أنهم عندما طردوا من بيوتهم ودكاكينهم بمعرفة وكلاء مستر ماكهيث ، أصبحوا أكثر استقلالاً من أى وقت مضى . تضخم استقلالهم حتى أصبح عظيماً لا يطاق ، لأنهم لم يعد يحركتهم سقف فوق رءوسهم ، فوق أنهم توصلوا ، فى المتوسط ، بجهودهم الخاصة ، الى انقاص وزنهم كثيراً . لكن بيتشام لم يحاول استخدام أى منهم ليس بعد على أية حال ، لأنهم فى حاجة الى شهرين آخرين على الأقل قبل أن يفقدوا كرامتهم أيضاً .

www.library4arab.com

واجه السادة هارون وأوبر مشكلة خطيرة بدورهم . كان موقفهم فى بداية الازمة عنيفا للغاية تجاه بلومزبرى المسكين ، لكن ذلك الموقف تغير عشية أسبوع المبيعات المرتقب ، فبات غاية فى العذوبة والرقه . فقد أدمنت محلات هارون بضائع شركة م.م.م. الرخيصة ادمان الكوكايين .

لم يكن ماكهيث موجودا بمبنى البنك التجارى عندما قام بلومزبرى بزيارة للسيدىن أوبر . فقد أعلن ماك أنه قطع كل ما بينه وبين اللورد بعد ما ظهر من غدر شركته ، وأن قدمه لم تعد تظا مكاتب تلك الشركة احتفى هارون والاخوان أوبر (اللذان بدا واضحا انهما لم يعودا يكتنان نفس الود القديم لعميلهما اليهودى) احتفاء عظيماً باللورد الذى جلس واضعا سيجارا ضخما بين أسنانه ، متظاهرا بالحظورة ، مفكرا فى حقيقة الامر فى غانيته جينى ، متظاهرا بالانصات اليهم ، واعداد فى النهاية بأن يبذل كل مافى وسعه « لتسوية الخلافات » بينهم . فاستقر الرأى على عدم تأجيل أسبوع المبيعات العظيم ،

خاصة بعد أن لوح لهم بلومزبرى بأمل محدودفى استئناف التوريد .
وانفض الاجتماع وديا للفاية ، فصافح الجميع بعضهم بعضا بحرارة،
ثم افترقوا وكل جانب يحس بأنه أسهم أسهاما ايجابيا نحو تحقيق
تقارب متبادل . فوق أن الحديث تناول أيضا احتمال الاتفاق على
أسعار مرتفعة . وبالإضافة الى كل ذلك وجه جاك أوبر الدعوة الى
ماكهيث لقضاء عطلة نهاية الاسبوع مرة أخرى فى قلعة واربورن .
اصطحب ماك زوجته بولى هذه المرة . وقد استخدمت فانى كل
مواهبها وقدراتها على الاقناع فى سبيل الحد من ميل بولى الى
البهرجة فيما أخذته معها من ثياب . لكن المشكلة لم تكن مشكلة
بولى . فقد تسلط على ماكهيث وسواس بأنه يجب أن يجعل زوجته
تبدو كدوقة . لكن فانى توصلت فى النهاية الى اقناعه بأن ذلك يكون
أسوأ بكثير ، من عزم بلومزبرى فى الزيارة السابقة ، على اصطحاب
جينى معه . وهكذا ذهبت جينى بثياب معقولة ، واستقبلتها مسر
أوبر استقبالا لطيفا للفاية . وتحفظت بولى فى حديثها ، فلم تقل ولم
تكثر ، لكنها دهشت كثيرا للأصوات المنفرة التى يحدثها آل أوبر
على المائدة وهم يلوكون طعامهم .

عندما اصطحب جاك ضيفه ماكهيث للقيام بجولة فى حدائق القلعة،
أشار رجل البنوك الى أشجار البلوط العتيقة المتباعدة عن بعضها
البعض وكل شجرة متفردة بعظمتها الخاصة بها ، وقال له :
- أنظر الى هذه الأشجار ياعزيزى ماكهيث . انها مجدودة الحظ .
تقف كل منها بمعزل عن الأخرى ، بمبعدة منها ، لا تزاحمها .
سار ماكهيث بجانبه صامتا ، وقد قرر فيما بينه وبين نفسه أن
يكون مجدود الحظ هو الآخر ، لايزاحمه أحد .

لكن ذلك الصفاء المجدود لم يدم طويلا دون أن يكدره مكرر . ففى
قلب تلك السكينة ارتفع صوت مزعج ، نشاز ، من العالم الخارجى .
تلقى ماكهيث رسالة عاجلة من صديقه المفتش براون يقول فيها انه
يأسف لانه لا يستطيع أن يسوف أكثر من ذلك فى تنفيذ الامر الصادر
بالقبض عليه . فلما استفهم ماك عن السبب فى ذلك ، تلقى الرد
التالى : للاشتباه فى أنك قتلت المرأة مارى سوير ، احدى صاحبات
دكاكين حرف « ب » ياماك .

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

www.library4arab.com
M. Miguel Maciel Cury,
B. 85 de Vaz, 054
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopstrove Road
London S.E. 26
ENGLAND.

انجلترا :

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)



هذه الرواية

يعرف الكثيرون في الوطن العربي بريخت الكاتب المسرحي والشاعر والسياسي والمناضل، ولكن فئة قليلة من قرائنا هي التي تعرف بريخت الكاتب الروائي الكبير .

و «رواية البنسات الثلاثة» التي يسعد روايات الهلال أن نقدمها اليوم الى القارئ العربي لأول مرة هي الرواية الوحيدة التي كتبها بريخت في حياته الأدبية والنية القصبة .

في رواية «رواية البنسات الثلاثة» التي كتبها بريخت في حياته الأدبية والنية القصبة . وظلت المكتبة العربية محرومة منها حتى اليوم وهذه الرواية هي نموذج حي ونادر للرواية الملحمة ، وهي رواية تختلف اختلافا واضحا عن كل ما تعودنا قراءته من روايات ، وقد كتبها بريخت بعد أن كتب « أوبرا البنسات الثلاثة » ليقدم نفس المادة - مع التوسيع والتميق - في قالب رواياتي . بعد أن قدمها على المسرح فلات نجاحا متقطع النظير في شتى العواصم العالمية .

وبريخت - ١٨٩٨ - ١٩٥٦ - كاتب الماني عظيم وهو أحد أئمة المسرح المعاصر سواء بما أبدعه قلما وخياله وفكره الانساني الضخيم او بما وضعه من كتابات نظرية عن المسرح . وقد كان في كل كتاباته عظيم الاهتمام بالانسان : لا يكف أبدا عن الدفاع عن حقوقه الاساسية ولا يكف عن الدعوة الى مجتمع انساني حر وعادل . . . مجتمع جديد يغلو من الخوف والقهر والفقير .

١٢ قرش

برتولد بريخت
ترجمة: شفيق ممتاز
رواية

البنسات الثلاثة

الجزء
الثاني

www.library4arab.com

روايات الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٦٨ - أبريل ١٩٧١ - صفر ١٣٩١

No. 268 — April 1971

رئيس مجلس الإدارة: أحمد بهاء الدين

مدير التحرير: رجاء الننتاش

www.library4arab.com

بيانات ادارية

ثمن العدد: في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم - عن الكميات للرسلة بالطائرة - في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الاردن والعراق ١٣٠ فلسا قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والاfricanى ١٠٠ قرش صاغ - فى سنسائر أنحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٤ شلنات بالقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحواله برقية - فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج.ع.م » - والاشتمار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ٦٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون : ٤٠٦١ عشرة خطوط



www.library4arab.com

روايات الهدى

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

www.library4arab.com

مكتبة
الفنان فية عنایت

رواية

البنسك

الغزالي

www.library4arab.com

الجزء الثاني

بقلم

برتولد بريخت

ترجمة

شفيق ممتاز

دار الهدى لائل

www.library4arab.com

ملخص ما نشر

تخوض انجلترا حربا من حروبها الاستعمارية فى جنوب القارة الافريقية ، عام ١٩٠٠ ، وتشحن أبناءها بالألوف ليموتوا هناك ، دفاعا عن الامبراطورية .

جورج فيوكومبى أحد أولئك الأبطال • يذهب فيقاتل ويضحي بساقه على مذبح الامبراطورية • ويعود الى لندن ، فيتصدقون عليه ببضعة جنيهات ، ثمنا لساقه ، ما يلبث أخوته فى الشقاء أن يسرقوها منه ، فنحن ندخل الغابة معه وهو يقتحمها « بصدرة » ، وساقه الخشبية ، ونزامله فى تدهوره التدريجى من جندى باسل ، الى مشوه

www.library4arab.com

حرب ، الى صاحب حلبة فاشل ، الى شاذى ، الى جاحل بيتشام ، الى الشحاذاين فى لندن ، ويصادق زوجة جندى آخر ، لم يعد زوجها من الحرب بعد ، اسمها مارى سوير .

عندما يأخذنا برخت داخل « جحر الارانب » الذى يتألف من ثلاثة بيوت متشابكة متداخلة كالمناهة ، يدير منها مستر بيتشام « شركته » ، فإنه يدخلنا ، من باب المحاكاة التهكمية ، الى دنيا المال والأعمال فى لندن ، التى كانت آنئذ ، فى مطلع القرن العشرين « أعظم مدينة فى العالم » .

يعين فيوكومبى حارسا لكلاب الشحاذاة التى يربيه بيتشام ، ويتعرف على الانسة بولى ، ابنة مخدومه ، « نواره الخوخ » كما يدلونها لفرط حسننها ، وجمال بشرتها البيضاء كالحليب ، المشربة بحمزة لا علاقة لها بالخجل • فالبنيت ، كما يقول أبوها ، شعلة من الشهوانية والشيطنة ، كأمها • ولو أن امها تنحصر شهواتها فى الخمر التى تغطس فى البدروم فتشربها سرا •

ومن خلال بولى وشهواتها ، نتعرف على مستر بيكيت تاجر الاخشاب ، الذى ما نلبث أن نعرف انه يدعى ، فى العالم السفلى « بالسكين » ، كناية عن براعته فى استخدام ذلك السلاح للاجهاز على ضحاياه • تريد مسز بيتشام ان تزوج ابنتها الحلوة من مستر

بيكيت لان الرجل « راکز ، وغنى ، وملء ثيابه » • لكن البنت الطائشة تجرى وراء ولد مفلس اسمه سمايلز ما يلبث ان يلعب بعقلها ، فتحمل منه ، وتريد أن تذهب الى طبيب او قابلة تجهضها ، فتأخذ فيوكومبي معها •

اما مستر بيتشام فلا يعلم عن خطط زوجته أو مغامرات ابنته شيئا • وهو يريد ان يزوجها من السمسار مستر كوكس • فمستر كوكس هذا رجل ملعون ، جر مستر بيتشام وآخرين معه الى صفقة مريبة ، وكون منهم شركة للنصب على الحكومة بثلاث سفن قديمة خربة تم التعاقد على توزيعها للاميرالية كناقلات جنود ، واخذ بعد ذلك يلعب بالشركاء ، كما يلعب المرء بالكرة ، ويسرق أموالهم ، ويورطهم كل يوم أكثر • ويصاب مستر بيتشام من جراء ذلك بهلع • فذلك شيء جديد عليه ، لانه ظل طوال حياته ينصب على الناس ويستغلهم ، ولم يألّف أن ينصب عليه أو يستغله أحد • ثم يكتشف أن السمسار كوكس رجل شهواني وأنه مفتون بابنته ، فيتعلق الابن بذلك كقشة أخيرة تنقذه من الغرق •

لكن الابنة ، وقد اكتشفت خديعة سمايلز لها ، وتخليه عنها ، تقرر الزواج من بيكيت حتى يصبح أبا لابنها ، ولا حاجة أن يعرف من الاب الحقيقي ، فكل همها أن تنجو من مخالب الطبيب الذي

www.library4arab.com

سبب مرضها • كما يقرر مستر بيتشام ذاته ، ان بولى عندما اختارت بيكيت زوجا لها ، لم يجانبها التوفيق • فالرجل خطير وعظيم بحق • عظيم بمعايير المجتمع الذي يسخر منه برخت ولسوف نرى - في لحظة انتصاره الأخيرة - التي تقابلها لحظة موت فيوكومبي الخائب وشنقه - نابوليونا حقيقيا في ساحة المال والاعمال •

بدأ مستر بيكيت حياته العملية كلص منازل من الدرجة الثالثة • لكن مستر بيكيت ليس من أولئك الذين ينجحون عن طريق العمل الذي يؤدونه بأنفسهم ، بل على حساب العمل الذي يقوم به غيرهم لحسابهم • مثل بيتشام تماما • ومثل كثيرين غيرهما من الشخصيات « الناجحة » في القصة • ولذلك فانه سرعان ما ينظم عصابة ينصب نفسه رعيما لها ، ومنظما ، ومديرا • ولما كانت السمعة العطرة أهم شيء في عالم الجريمة ، فانه يلقق لنفسه سمعة من ذلك النوع ، فيدعى أنه « السكين » ، القاتل ذائع الصيت ، معتمدا في ذلك على

عبادة هذا النوع من « البطولة » في مجتمعه • ولو ان « السكين » هذا شخص آخر غيره تماما قبض عليه ، وشنق ، ودفن ، في سجن دارتمور الرهيب ، فاستعار بيكيت شهرته بعد موته وأغتصب اسمه وأمجاده فصار اسمه « ماك السكين » •

لكن ماك ، بعد عدد من السرقات الجريئة ، وحوادث السطو والنصب والاحتيال ، يجد أن كل تلك الاشياء أصبحت « موضة قديمة » ، وفي الحقيقة غير مجزية بما فيه الكفاية • ومما يزيد اقتناعا أن صديقه براون ، ضابط أليوليس العظيم ، يوافقه الرأي في ذلك تماما ، بل ويقرضه بعض المال الذي يبتزّه من صاحبات الحانات وبيوت الدعارة ليبدأ به « حياة شريفة » •

وهكذا يتحول ماك من مجرد لص ونصاب الى تاجر ورجل أعمال ناجح لانه لص ونصاب • وتزدهر بطبيعة الحال أعماله • فيفتح عددا من المحلات يقوم « بتمليكها » لعدد من الناس الطيبين المجددين الذين يحلمون بالنجاح « والوقوف على أقدامهم » ، ويبيع في تلك المحلات مسروقاته • ورويدا رويدا تتسع أعماله فتتكاثر محلاته حرف «ب» التي تبيع برخص التراب ، ويكثر بالتالي رقيقه من الناس المجددين الراغبين في النجاح الذين يعملون ليل نهار ويموتون تعباً في تصريف « بضائعه » ودفع ايجارات محلاته •

وباطراد نجاحه تفتح شهية ماك الى مزيد من السطوة والنجاح فيضع عينه على سلسلة « محلات هارون » وهي مجموعة من محلات التجزئة ، وينشئ شركة « للتريد » أي للسرقة ونزول المحلات • ونتيجة لخطط ماك هيئت والأعيبه تستمر في ميدان تجارة التجزئة في لندن حرب صغيرة لا تقل ضراوة عن الحرب الكبيرة الدائرة رحاها في الترانسفال • وككل حرب • سنجد أن هذه الحرب ايضا لها ضحاياها ، وأن أولئك الضحايا معظمهم من الناس الصغار ، الذين يتوهون بين أقدام العمالقة ، فتطوهم الاقدام •

بينما مستر ماك هيث غارق الى أذنيه في مشروعاته ، وخططه ، والأعيبه ، وعينه على بائنة زوجته التي يحتفظ بها أبوها في بنك الائتمان الاهلي ، يزداد ذلك الاب تورطاً في الأعيب السمسار النصاب كوكس حتى يوشك أن تصيبه لوثة وهو يرى الرجل يدفعه دفعا حثيثا نحو الخراب • وفي تلك اللحظة غير المواتية تصيب مستر بيتشام صدمة مخيفة : يكتشف زواج ابنته من ملاك هيث ، وأنها حامل منه •

خيجن جنونه ، ويأمر ابنته بأن تجهض نفسها ، وأن تحصل على
الطلاق من زوجها .»

ولسوء حظ ماكهيث تنتحر ماري سوير ، إحدى صاحبات دكاكين
حرف «ب» بعد ان حلت كارثة بأصحاب تلك الدكاكين كنتيجة لاحدى
مناورات الحرب الصغيرة التي يديرها ماك . ويجد بيتشام فرصته
سانحة للانتقام من ذلك المجرم الذي تزوج ابنته بغير علم منه ليسرق
بائنتها ، والتخلص منه نهائيا كزوج لتلك الابنة ، حتى يستطيع
ان يزوجها من السمسار ، فيجعله واحدا من اهل بيته ويكتفى بذلك
شهره .

وينتهي الجزء الاول بالقبض على ماك بتهمة قتل صاحبة الدكان
ماري سوير .

(١٠)

يا سادتي الأماثل ، اليوم قد أغسل الاكواب أمامكم
وارتب الاسرة كل صباح
وأشكركم على بنساتكم ، فتظنوننى فرحة بكم ، وبملايمكم ،
لانكم لاترؤن منى غير ثوبى الرث هذا ، وفندقى القدر القديم
وليس هناك من يحذرکم ويفتح عيونكم
لكن ذات ليلة جميلة سيكون فى الميناء صباح عظيم
وسوف يتساءل الكل قائلين : منذا الذى يحدث كل هذا الصباح ؟
•• وسوف يرانى الكل ابتسم لنفسى وأنا أخذة فى غسل أكوابى
فيقولون لانفسهم ، لاي شىء تبسم لنفسها هكذا ؟
وأمام رصيف الميناء ستكون قد رست
سفينة ذات شراع ثمانية
وخمسين مدفعا كبيرا .

اذذاك سيقول أحدهم : هيا يا صبية ، اذهبي فحفضى أكوابك .
ثم ينفحنى بنسا كما ينفحنى الجميع .
ولسوف يؤخذ البنس منه ،
ويرتب الفراش كصباح كل يوم ،
نكن احدا لن ينام فيه تلك الليلة
ولن يكون أحد منهم قد خمن بعد من أكون أنا حقا .
وفى تلك الامسية ستكون فى الميناء ضجة كبرى ،
وسوف يتساءل الكل قائلين : منذا الذى يحدث كل هذه الضجة ؟
وسوف يرانى الكل واقفة الى النافذة ، أنظر خارجا وأترقب
فيقولون لانفسهم : أى شىء يرسم هذه الابتسامة الشامخة على شفثيها ؟
واذذاك ستكون السفينة ذات الشراع الثمانية
والمدافع الخمسين الكبيرة
قد فتحت مدافعها على المدينة .

ياساداتي النجب ، سوف تمحو تلك المدافع الابتسامة من وجوهكم السمينة.
لأن الحيطان ستفتح أفواهاها فاغرة حولكم
والمدينة سوف تسقط فتسوى بالارض فوق رؤوسكم
لكن فندقا واحدا قدرا قديما سيظل قائما لا يطاوله ضرر
ولسوف يتساءل الكل قائلين : منذا الذي يقيم بداخله ؟
وينقضى الليل وهم يحومون حول فندقى متصايحين
يسألون أنفسهم ، لم لم تمسه المدافع ، هذا الفندق ، بسوء ؟
وسوف يرونى اخطو خارجة من بابه فى الصباح
فيقولون جميعا : ماذا ! هل هذه هى التى كانت تقيم هنا ؟
واذ ذاك سترفع السفينة ذات الشراع الثمانية
والمدافع الخمسين الكبيرة
أعلامها على صواربها .

وعند الظهر سينزل من السفينة الى البر مائة رجل
فيبدأ الطراد والصيد فى الاركان المظلمة
فيدخلون كل بيت ، ويأخذون كل من تقع عليه عيونهم
ويكبلون الجميع بالاغلال ، ويأتون بهم الى .
ويسألون : أى من هؤلاء يجب أن نجهز عليه ؟
فى تلك الظهرة سيخمد فى الميناء كل صوت
وهم يسألوننى من الذى يجب أن يموت
واذ ذاك سيسمع الكل جوابى : كلهم يموتون !
وعندما تتساقط الرعوس سوف أرفع أثوابى وأصرخ !
وبعد قليل سوف تبجر السفينة ذات الشراع الثمانية
والمدافع الخمسين الكبيرة ،
فتختفى ، آخذا اباى معها .

(من احلام خدام)

مرة أخرى ، العشرون من سبتمبر

كان دكان مارى سوير فى شارع ملبرى ، بالقرب من جسر ووترلو .
كلما ذهب العسكرى فيوكومبى لزيارتها ، وجدها ، كمعظم اصحاب
دكاكين حرف « ب » ، مع طفلها ، فى العرقة الخلفية الصغيرة الملحقة
بالدكان . أما الدكان ذاته فأكبر قليلا من معظم الدكاكين الاخرى .

وقد أقامت صاحبته في منتصفه ستارا يقسمه قسمين ، في القسم الامامي منهما ، المواجه للمشارع يقع الدكان ذاته ، أما القسم الخلفي ، فيه المشغل حيث تقبع بنتان مهزومتان ، تشتغلان بالحياكة على ضوء الغاز . وفي غرفة المعيشة ، نافذة صغيرة تطل على الفناء الخلفي ، تزود ذلك الحجر الصغير بالضوء والهواء .

لم تكن أحوال ماري سوير على ما يرام . فزوجها الذي يقاتل دفاعا عن الامبراطورية في ميפקينج ، لم يكن يرسل لها شيئا يذكر . كان قد تزوج مرة قبلها ، ولذلك فإنها لم تكن تقبض الا نصف راتبه . لذلك كان الدكان غارقا في الديون . ولم يجدها المال الذي أبتزته من ماك كثيرا ، لان النقود تسرعان ما تبخرت . فوق أن ماري كانت كسولا بطبعها ، ولا تعرف شيئا يذكر عن ادارة العمل . لم تكن تدفع للبنتين اللتين تشتغلان بالحياكة لديها ما يمكن أن يسمى أجرا . وحتى هذا لم تكن تدفعه الا فيما ندر . لكن أرباحها من عملها لم تكن كبيرة هي الاخرى . ولم يكن عزوفها عن الدفع ناجما عن بخل أو تقتير . بل عن حاجة عمياء . لان ماري كانت تحب أن تسعد كل من حولها ، وأن تشتهر بينهم بالكرم . فكانت من فرط حرصها على تلك السمعة تقرض نقودا . وهاتان البنتان اللتان تعملان لديها ، لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تعطيهما شيئا تأكلانه . كلما أخرجن شريحتي الخبز بالمرجرين (1) أعطتهما شيئا تأكلانه ، فلا تكفان عن المضغ ساعات بطولها وهما تعملان .

على زجاج الدكان كانت قطعة من الورق ملصقة وقد كتب عليها : « هذا الدكان تديره زوجة جندي » . ولم تكن ماري تدع فرصة تمر دون أن تخبر زبائنها عن زوجها الذي في ميפקينج وهي تطلعهم على رسوم توضيحية استراتيجية مقصودة من « التايمز » توضح موقع المدينة المحاصرة . كانت ماري جميلة بحق ، وقد كان أي رجل حريا بأن يفتن بها وهي واقفة وراء الحاجز الخشبي تبعه شيئا . لسكن المؤسف أن معظم زبائن محلها ، منذ أن افتتحت فرعا لبيع الثياب الداخلية ، أصبحن من النساء . ولو لم يكن ذلك كذلك ، لكان من المحتمل أن تحقق ماري نجاحا أكبر في تجارتها . لكنها في الوقت ذاته لم يكن ينبغي لها أن تعطى لهذه العميلة أو تلك زوجين من الكومبينات بدلا من زوج واحد على سبيل السهو أو عدم الاكتراث ، لان مثل

(1) (Margarine) : زبد نباتي رخيص

هذه الاشياء تزرع ثقة الصلاء في المحل .

كان فيوكومبى كثير التردد على مارى فى المساء ، بعد ان تطلق
دكانها . فهو يحب ان يجلس ويرقبها وهى ترتب المنزل بعد ان ينظف
الطفلان حتى يحس ، ولو لمدى لحظة ، كما لو كان له بيت . قالت له
ان تلك الالفة التى فى واجهة المحل ، عن زوجة الجندى ، سببت لها
متاعب كثيرة ، لان اصحاب الحوانيت المجاورة اعتبروها منافسة غير
مشروعة وقالوا ان كون زوجها جنديا لا دخل له فى انخفاض اسعار
بضائعها بطريقة مشينة ، وان تلك الالفة غير لائقة ايضا لاسباب وطنية
بحته ، لانه من غير المستساغ الاعتراف علنا ان زوجات جنود الامبراطورية
يضطرون الى استدرار عطف الجمهور . وقد وافق فيوكومبى على
تلك النقطة الاخيرة .

أما ماك فلم تكن تتحدث عنه الا فيما ندر ، وفترا اهتمامها بالبنات
بولى ، فلم تعد تتسقط أخبارها من فيوكومبى . لم يكن ماكهيت فى
حقيقة الامر ، يعنىها فى شىء . فقد انقضت سنوات طويلة منذ غوايته
الاولى لها ، لم تكن تراه خلالها ، فوق ان أحوالها كانت قد بدأت تتحسن
بعض الشىء ، خاصة بعد أن استخدمت الفتاتين القائمتين بأعمال الحياكة .
لكن البضائع ما لبثت أن توقفت . ولم يباغتها ذلك التوقف . فقد
حضرت الاجتماع الذى أعلن فيه ماكهيت اتحاد محلاته مع محلات
هارون ، وخرجت من ذلك الاجتماع متوقعة أن تسوء الامور أكثر ، فيما
يخصها وحدها ، لانها لم تشغل بالها فى أى وقت بمشكلات زبائنها
المعوزين .

بدأت كل المحلات فى تخفيض أسعارها . حتى محلات كرسون
بدأت تبيع بأقل من سعر التكلفة . وفى منتصف الخريف بينما اقبال
الناس كله على الخيوط الصوفية ، نفذ المخزون لديها من الصوف ،
ثم تلقت انذارا مطبوعا بأنها يجب ان تقتصد فيما تبيعه للجمهور لانها
لن تتلقى أية شحنات أخرى فى المستقبل القريب . فطاش صوابها .
منذ البداية ، فى الحقيقة ، طاش صوابها .

لم تعد قادرة على المقاومة . المتاعب المتلاحقة ، والقلق ، وظروف
حياتها غير الصحية هدت حيلها جميعا ، وجردها من عنادها القديم .
فوق أنها كانت قد اضطرت الى أن تكسب لقمته بجسدها فى سن
مبكرة ، فأجهضت عدة مرات ، على أيدي قابلات لا خبرة لهن ، فألحق
ذلك بجسدها أضرارا ما لبثت أن أحسنت بوطاتها . فى الظروف العادية
يستطيع المرء فى الثلاثين أن يتوقع عمرا طويلا مشرقا . لكن ذلك لا

يحدث لمن كان من اصحاب دكاكين حرف «ب» ، ومن قضى كل عمره في الاحياء الفقيرة .

حاولت ماري سوير في مبدأ الامر ان تتصل بمالك . لكنها ، بطبيعة الحال ، لم تستطع ان تعثر له على أثر . قابلت فاني مرة او مرتين فطابت هذه الاخيرة خاطرها بكلمة او كلمتين . فاضطرت في آخر الامر الى التهديد بحكاية « العاكس » من جديد اذا لم تستطع الاتصال بمالك .

لكنه رفض ان يتحدث اليها ، فأخذت فيوكومبي معها ذات مساء وذهبت الى مكاتب تلك المجلة .

تلففوا معها في « العاكس » كثيرا . قالوا لها أنهم سيعطونها نقودا مقابل أية معلومات جديدة عن نابوليون دكاكين حرف «ب» . سألوها ان كانت تعرف شيئا عن المصادر التي يحصل منها على بضائعه . لكنها لم تكن تعلم عن ذلك شيئا . كل ما تعرفه ان البضائع تأتيها من شركة م.م.م . وقبل ذلك من مخازن شركة أخرى . فلما لم تجد ما تقوله لهم قالت ان ما كهيث هو القاتل المعروف باسم « السكين » . فنظروا اليها بأفواه مفتوحة وانفجروا ضاحكين . فلما تولاهم الارتباك وقالت مستيئة أنه قتل المدعو ادى بلاك ، ضحكوا أكثر ، وربتوا على ظهرها ، ودعوها الى تناول العشاء على حسابهم . فانصرفت واليأس يطحنها . كانت تلك رميمتها الاخيرة . وقد طاشت .

عندما عاد فيوكومبي الى وكر بيتشام ، أخبره بكل ما حدث . كانت تلك أول أخبار حقيقية يستطيع ان يزود مخدومه بها .

وقف بيتشام منصتا اليه ، في مكتبه المعتم الضيق ، وقبعته على مؤخرة رأسه ، محدجا اياه بنظرة متفكرة . لم يكن فيما جاءه به أي جديد . فقد قيل له قبل ذلك ان ما كهيث هو السكين . لكنه لم يكن من الغباء بحيث يذهب الى البوليس بحكاية مضحكة كهذه . كانوا سيضحكون عليه ما في ذلك ريب . لكنه أمر فيوكومبي ، على أية حال ، بالاستمرار في التردد على ماري سوير ، على أمل أن يتوصل الى استخلاص بعض المعلومات المفيدة منها .

فكثرت تردد العسكري عليها في تلك الايام . ولم تضق هي بصحبته ، ففضى أكثر من أمسية معها يتحدثان . كانت متشائمة للغاية ، فلم تكف عن القول بأن الخراب وشيك .

كان ماك قد أغراها باستثمار مدخراتها الهزيلة ، التي جمعتها من الاتجار بجسدها طوال سنين ، في دكانته هذه ، وها هو الآن

يرفض أن يمد لها يد العون . لا أقل من أن يساعدها على دفع الأيجار .
قالت للعسكري :

— هذا الرجل يجب أن يحملنى كالوزر على ضميره . ليس هناك من
يستطيع شيئاً حيال القدر . وقدرى أنا اسمه ماكهيت ، ويعيش فى
ناهيد . أحياناً أود لو استطعت أن أضربه على وجهه بكلتا يدي . حتى
فى الحلم . كم يكون ذلك جميلاً . أود لو حلمت مرة واحدة بأنى أفعل
ذلك . لكنى لا أحلم بالليل شيئاً . عندما أنام أنام كالاموات . من فرط
التعب . طول النهار « أحسبن » . أعد كل بنس وأعمل له حساباً .
الناس يقولون أنى اتساهل مع الزبائن وأبيع بالاجل أكثر مما ينبغى .
يقولون أنى طيبة القلب . لكن هذا ليس صحيحاً . فأنا لا أستطيع
أن أبيع أى شىء بالاجل . كل ما هنالك أن الزبائن لا يأتون ولا يشتررون .
يذهبون الى الدكاكين الكبيرة حيث توجد تشكيلات من البضائع أكثر .
وأسوأ ما فى الامر أنه قد فتح دكاناً جديداً فى شارع كلايد . ذلك
الدكان الجديد كان الضربة الأخيرة . لم أعد أحتمل .

كلام من هذا القبيل ، تدور تدور وتعود الى ذلك الدكان الجديد . كان
لا يفارق مخيلتها ، ليل نهار . أصبحت تتحدث كثيراً عن القاء نفسها
فى النهر . فيجلس العسكري ويصغى اليها صامتا وهى تعيد صناديق
البضائع الى الارفف . كانت تضطر الى أن تشب على قدميها لتطول
الرف الأعلى . وعندما تنتهى من شكاتها ، يقول لها وهو يدخن غليونه
الرخيص الذى جاء به معه من المكان الذى ترك فيه ساقه :

— مشكلتك يامارى يابنيتى أنك عديمة الموهبة . ليست لديك
موهبة ، وليس لديك ما تبيعه . كل من فى هذه الدنيا يجب أن يكون
لديه شىء يبيعه ، ويعرف كيف يبيعه ، فيعيش من بيعه . أنت كان
عندك شىء كهذا . ثدياك وبشرتك الناعمة . فماذا فعلت بتلك النعمة ؟
بعثها ببخس الثمن . أو لعلها لم تكن تستحق الا ذلك الثمن . فكل
شىء لم يعد له ثمن فى هذه الايام . أنظرى الى ساقى . لكنى عديم
الموهبة مثلك أنا الاخر . لكن هناك من يأتون الى الحياة مثقلين
بالمواهب ، وبالأشياء الجيدة التى يستطيعون بيعها . أما أمثالنا فليس
لديهم ما يبيعونه الا الماء ، فى حارة السقاين . يجب أن يجعل المرء
نفسه نافعا . مطلوباً . لا غنى عنه . أنا أحاول أن أفعل ذلك .
عندما وصل الى هذا الحد بدا عليه الارتباك وأخذ يسألها متلعثماً
عن ماكهيت . قال لها أنه يجب أن يعرف عنه شيئاً يبلغه لمخدومه حتى
يبقى عليه . لكنه لم يفلح الا فى إثارة شكوكها ، فجعلها تلزم الصمت .

فوق أنها كانت تتحدث دائما ، حتى عندما تقول شيئا ، بطريقة مبهمة وعامة للغاية لا يقف المرء منها على شيء .

في يوم الجمعة التالي لزيارتها الفاشلة لمجلة العاكس ذهبت الى فاني كرايزلر في دكان العاديات ، تأثرت فاني كثيرا لمراها ، وأبقتها في الدكان معها طيلة الصباح على أمل أن يأتي ماكيث فتقابله . لكن ماك لم يأت . فذهبتنا الى بيته في نانهيد رغم أن فاني كانت على يقين من أنه لن يروق له ذلك . استقبلتهما بولي بلطف ، فأدخلتهما غرفة الجلوس ، وذهبت الى المطبخ لتعد الشاي . وضعت مئزرا حول وسطها ، وأخذت تروح وتجيء كأنها تعد وليمة كاملة ، مظهرة ذلك النشاط الزائد الذي تظهره العرائس في بداية الامر ، عندما يكون حتى اعداد قدح من الشاي ذا مغزى جنسى لديهن .

كانت فاني قد حذرت ماري من أن تفتح فمها بكلمة عن العمل ، قائلة أنه يكون من الأفضل أن تنتظر ماك دون أن تدخل بولي في الامر . لكن الخوخة لم تكذب تدخل بمعدات الشاي ، حتى انفجرت ماري باكية ، وقد فقدت سيطرتها على نفسها . أفرغت كل ما لديها ، وقالت أشياء لا يجب أن يقال ، متصورة أن كل ذلك الكلام دليل دامغ ، لا يستطيع أن يتحلل منه أحد ، على التزامات ماك قبلها .

أصفت اليها بولي باستغراب ، وقد وقفت ممسكة بصينية الشاي . كان الموقف واضحا للغاية . فماك قد ضحك على هذه المرأة أولا ، ثم استدرجها فوضعت كل ما لديها من مال في دكانها ، والان قد تركها لمصيرها . كان من الارحم أن يجهز عليها ببلطة يجر بها عنقها . اهتزت الصينية وبولي تهم بأن تضعها على المنضدة وهي تقول ما معناه : أما عن ظروف العمل ، فهي ليست ملمة بها ولا تفهم فيها شيئا . لكنه من الواضح طبعا أن اتهام زوجها بأنه « استدرج » ماري الى افتتاح دكان حرف « ب » ، ليس مما يسهل تصديقه . الاكثر احتمالا أنه تصدق عليها بذلك الدكان . أما أنه سيتركها لمصيرها فذلك اتهام سخيف ، وهي - بوصفها حرم ماك - ترفضه رفضا باتا . فليست ماري الوحيدة التي تملك دكانا حرف « ب » ، ولا يمكن القول طبعا أن ماك « يترك كل هؤلاء الناس لمصيرهم » . ذلك بعيد جدا عن الاحتمال . وأما عن ذلك الاتهام الآخر ، البذيء ، فانها يجب أن تقول ، كامرأة الى امرأة ، أنها لا شأن لها بما فعله ماك أو لم يفعله قبل الزواج . لكنها يجب أن تضيف أيضا ، كامرأة ، أنه عندما تتورط امرأة مع رجل فانها لا تفعل ذلك بغير علم منها ، أو وهي تجهل

العواقب ، ولا تستطيع أن تتوقع من الرجل أن يظل يعولها طيلة عمرها . لأنه ان كان الامر كذلك فان كل رجل في الدنيا ستكون له عشرات الاسر قبل أن يبلغ الثلاثين بالنظر الى ما هو معروف من تساهل النساء في هذه المسائل . ولا يليق بامرأة ناضجة أن تحمل غيرها وزر تساهلها . فلما قالت كل ذلك وضعت الصينية بالفعل على المنضدة بخبطة قوية وحاسمة ، فساد صمت . كانت ماري قد توقفت عن النحيب وأخذت تحديق في الفتاة الجالسة أمامها بنظرة جوفاء على وجهها . حتى فاني تولتها الدهشة . فلم تكذب بولي تنتهي من كلامها حتى همت واقفة . وحدثت ماري حدوها ، فقامت متباطئة ، ومدت يدا مرتجفة تأخذ بها حقيبتها ، بينما بولي تصب الشاي بهدوء . وعندما خرجتا كان ابريق الشاي ما زال في يدها .

حاولت فاني ان تستبقي ماري معها ، لكن هذه الاخيرة هزت رأسها ، وضعدت الى مركبة ترام كانت تمر أمامهما . كانت تبدو شاردة الذهن . لاحظت فاني أن الترام لم يكن ذاهبا في اتجاه شارع منبري . والحقيقة أن ذهن ماري لم يكن صافيا الصفاء الواجب . ولا غرو . لم يكن قد بقي أمامها في الحياة الا وقت قصير : سبع وعشرون (٢٧) ساعة فقط .

قضت فاني بقية اليوم في البحث عن ماكهيت . لكنها لم تره قبل صباح اليوم التالي ، عندما دخل دكانها وهي يرغى ويزبد بعد ماقلته له زوجته عن زيارة اليوم السابق . طلب من فاني محتدا أن تخبره بكل ما حدث ، فأخبرته بكل ما عندها ، بوجه جامد لا تعبير فيه . ثم قالت له أن تصرف بولي أثار تقززها بدرجة لا تستطيع التعبير عنها . فقد جعلتها تحس وهي في ضيافتها أنها مجرد مستخدمة لديهم . وها هو ماك الان يفعل نفس الشيء . فيتصرف بنفس الطريقة المقرزة . ثم تحدثت بعد ذلك عن دكان شارع كلايد ، وقالت له أن ماري سوير قد بلغت قرارة اليأس ، وأنها لا تكف عن الحديث عن عزمها على الانتحار . فلم يزد ماك عن النظر اليها وهو يغلى غضبا عندما قالت له أن ماري تنتظره في شارع منبري ، ثم خرج كالأعصار . كان اليوم موعد اجتماع اللجنة الاستشارية لشركة م.م.م. ، وما زال أمامه عمل كثير .

بعد بضع ساعات بعث بمن يحمل رسالة الى ماري سوير يقول لها فيها أن تنتظره في الساعة السابعة في حانة بالقرب من الميناء . ولعله تبادر الى ذهنه ان المرأة تعرف اكثر مما ينبغي من أسرار عمله .

عندما ذهبت فاني الى شارع ملبرى في الساعة الخامسة ، احست بالارتياح اذ وجدت الدكان مفتوحا . كانت ماري جالسة وراء الحاجز الخشبي ، وبالدكان رجل له ساق خشبية . اومأت ماري الفاني برأسها على سبيل الترحيب .

في تمام السادسة اقفلت ماري دكانها ، وصرفت الفتاتين ، فخرجت تاركة طفلها في الفراش . ثم ذهبت الى الميناء بصحبة فيوكومبي . وهكذا فانها في ساعاتها الاخيرة لم تكن وحدها تماما .

حاول العسكري أن يجعلها تتكلم وهما في طريقهما الى الميناء ، لكنها لرمت صمتا لم تقطعه الا بلا ونعم . وعندما وصلا الى الحانة صرفته . فابتاط . لانه صحبها دون جدوى . ولانه لم يكن يكلفها شيئا فيما تصور - أن تزوده ببعض المعلومات التي تجعل مستر بيتشام يرضى عنه ، وتدعم مركزه لديه .

كانت الحانة خالية أو تكاد في ذلك الوقت المبكر من المساء ، فانتظرت ماري وحدها ساعتين ، كما تبين في التحقيق من شهادة صاحب الحانة . لكن ما كهيث لم يأت ، فانصرفت ، ذاهبة في اتجاه الميناء . قال صاحب الحانة في شهادته انها قالت له قبل أن تخرج أنها ستسير في اتجاه الميناء على أمل أن تقابل السيد الذي كانت تنتظره في الحانة ولم يأت . لكنها لم تلق احدا . وبعد ساعتين اخرج أحد رجال البوليس جثتها من الماء بمساعدة اثنين من عمال الميناء .

مستر بيتشام يجد منفذا

اضطر فيوكومبي أن يقضى الليلة في بيت ماري سوير ، في انتظار عودتها . لانها كانت قد أعطته المفتاح عندما صرفته أمام الحانة ، وطلبت منه أن يظل على الطفلين في طريق عودته . فلما دخل أدرك أنه يجب أن ينتظرها ليفتح الباب لها .

وفي الصباح احضروا جثتها الى البيت . وللغور تجمع حشد غفير من الناس في الدكان ، بحيث لم يفطن أحد الى العسكري في هذا الزحام ، فاستطاع أن ينسل هاربا .

وضعوا الجثة على الحاجز الخشبي ، لان الفراش كان مزدحما بعدد من علب الكرتون .

علم مستر بيتشام بموت ماري سوير ، في وقت مبكر ، من
مستخدمه ، العسكري فيوكومبي ، فأتاح له ذلك أن يبادر بالحركة ،
ويتخذ عددا من الاجراءات العاجلة . فكان اول ما فعل أن بدأ يجمع
المعلومات ليتيقن مما لديه من وقائع . جرد حملة كاملة من شحاذيه ،
ضمت ما لا يقل عن ثلاثين منهم ، على حى الميناء ، وشارع ملبرى ،
ودكان فاني كرايزلر ، ونانهيد . وقد توصل رجاله - باستخدام قدر
من النطاعة - أن يحضروا التحقيق المبدئى الذى أجراه البوليس فى
شارع ملبرى .

بدأت المعلومات تتجمع لدى بيتشام . علم أن بعض عمال الشحن
كانوا يتلكأون على أرصفة الميناء ليلة أمس فشاهدوا امرأة وحيدة
تسير مسرعة فى اتجاه الماء . ذهب فيوكومبي الى شارع ملبرى بعد الظهر
ليأخذ الطفلين الى بيت فاني كرايزلر ، فأحضر معه رسالة ماك الى
مارى ، وقد وجدها فى يد أحد الطفلين والولد يحاول أن يأكلها . وفى
المساء كان قد بات واضحا لبيتشام ان المرأة ماتت منتحرة .

وعملا على التأكد من ذلك ، قضى اليومين التاليين فى تتبع خطوات
ماكهيث فى يوم الحادث . لم يجد سبيلا الى اكتشاف الاماكن التى
تردد عليها فى ذلك اليوم ، لكنه خرج من استقصائه بيقين قاطع أن
ماكهيث لم ير ماري سوير فى ذلك اليوم . واذ ذاك اطمأن الى أن
لديه كل ما يحتاجه من أسباب لكى يوجه اتهامه .

ولقد يبدو ذلك غريبا ، لكن التأكد بشكل قاطع من أن ماكهيث لم
تكن له يد فى موت ماري كان مطلبا جوهريا ، لانه ، لو كان الامر على
العكس من ذلك ، لاستعد ماك بألف دليل ودليل على براءته ، وعدم
وجوده فى مكان الجريمة ، وما الى ذلك . ولقد تكون لديه مثل تلك
الادلة ، لكن تلك مخاطرة يجب تقبلها ، فهو على الأقل لن يكون لديه
دليل معد باحكام . ومن المعروف أن الادلة الصادقة غير المصنوعة تكون
أقل قابلية للتصديق من الادلة المفبركة .

وهكذا فان بيتشام كلف محاميا مرموقا بتحريك الامر لدى
السلطات ، بوصفه ممثلا للطفلين اليتيمين ، وقام بنفسه ، شخصيا ،
بتسليم المدعى العام ما تحت يده من أدلة ، بوصفه من ضباط
الابراشية المسئولين عن رعاية مصالح الفقراء ، فذلك واجب عام
يؤديه بوازع من ضميره ، رغم أن الرجل زوج ابنته .

ولقد وافقه المحامى ، مستر والى ، الراى تماما فيما يتعلق بما قد
يكون لدى ما كهيث من أدلة تثبت براءته ، فقال :

— اذا ما أخذنا في الاعتبار كل ما لدينا من معلومات ، فاني اميل الى الاعتقاد مثلك ان زوج ابنتك لا يد له في موت هذه المرأة ، ماري سوير ، ولهذا فانه من غير المحتمل ان يكون لديه اى دليل على براءته . سيحاول طبعاً ان يخلق اى شيء بسرعة ، فيدعى انه كان في هذا المطعم او ذلك ، او انه كان في احد المسارح ، او حتى مع امرأة لا يستطيع ان ييوح باسمها حتى لا يسيء الى سمعتها . وليته يفعل ذلك . فهذا الدليل الاخير يلائمك كثيراً بالنظر الى سوء الموقف بينكما ، اه ؟ ها ها ها . لكن كل ذلك لن يتقد عنقه . لان دليل البراءة لكى يكون فعالاً يجب ان يكون معداً من قبل . ومثل ذلك لا يحدث الا عندما تكون هناك جريمة ، ويكون قد سبق تنفيذها تدير واعداد . هذا جزء لا يتجزأ من عدة المحامى فى المرافعات الجنائية . وهو فى ذلك مثل السياسة تماماً . عندما يثير احدهم حرياً يكون هناك اكثر من دليل يبرى ساحتة . فالضحية دائماً هى المذنبه . أما المعتدى فلديه دائماً دليل براءته .

تألفت أدلة الادانة من الرسالة المكتوبة بخط اليد التى ارسلها ماكهيث الى المراه الميتة ، وشهادة العسكري البطل فيوكومبي ، وشهادة اثنين من الشحاذين كانا على استعداد لاداء اليمين والقول بأنهما شاهدا ماكهيث بصحبة ماري سوير فى الساعة التاسعة من مساء يوم السبت ، على مقربة من رصيف الميناء .

مستر ماكهيث لا يرغب فى مبارحة لندن

لم يقبض على ماك الا فى يوم الخميس التالى . عندما بلفته تلك الانباء السيئة من براون وهو فى ضيافة آل أوبر ، أرسل زوجته الى فندق فى الايست اند . جاء أوهارا ليصطحبها، فتناولوا العشاء معا . قال أوهارا انه بذل كل ما فى وسعه لتدارك الموقف . لكنه علم بالامر متأخراً . وقال أنه من العجيب أن فاني كرايزلر لم تقل شيئاً رغم أنها سمعت ، بغير شك ، بموت ماري سوير . قال أوهارا انه ذهب فقابل المفتش براون ، وأن براون هو الاخر لم يدرك أن الشبهات اتجهت نحو ماك الا مؤخراً ، لان الذى قام بالتحقيق الاولى رجل من سكوتلاند يارد اسمه بيتشر ، يشبهه زملاؤه بكلاب الصيد ، لانه عندما يلتقط أنفه رائحة الطريدة لا يستطيع ان يرده على اعقابه احد . كان

رأى بيتشر هذا في اول الامر ان المرأة ماتت منتحرة ، خاصة وان التحريات ، وبعض المقالات التي نشرتها مجلة « العاكس » ، أكدت سوء حالة دكاكين حرف « ب » وتدهور أعمال ماكهيث بوجه عام ، مما يجعل نظرية الانتحار مقبولة ومقنعة . لكن بيتشر عدل عن رأيه بعد اتهام بيتشام الدماغ ، خاصة وأنه عثر في ثياب الميتة على خطاب لم تتمه ، موجه الى « عزيزها ماك » ، تعترف فيه بما ارتكبته من أخطاء في حقه ، وتطلب مغفرته وترجوه أن يكون أكثر رفقاً بها .

كان أوهارا على علم أيضا بالوقت الذي ماتت فيه ماري سوير : حوالي التاسعة مساء . رمقه ماكهيث بنظرة حادة عندما قال ذلك . فالساعة التاسعة وقت غير ملائم اطلاقا . لان ماك كان يرأس اجتماعا لشركة م.م.م. في تلك الساعة . ولم يكن من المستحسن اطلاقا أن يعرف شيء ، لا عن الاجتماع ، ولا عما دار فيه ، ولا عن وجود ماكهيث في شركة م.م.م. أصلا ، لان ذلك لن يؤدي الا الى تخريب كافة الخطط التي ذاق ماكهيث الامرين في وضعها وتسييرها . فلورد بلومزبرى قد يكون غرا مأفونا ، لكنه لن يكذب اذا ما سئل في محكمة ، ولن يلصق طبعا أن السادة المجتمعين ، وماكهيث على رأسهم ، كانوا قد عقدوا اجتماعهم ليلعبوا البريدج معا .

ولهذا بات من المتعين أن يغادر ماكهيث البلاد في صمت ، ويأبى ثمن ، فيظل بالخارج الى أن يتمكن براون من ايقاف التحقيق ، أو ، على الأقل ، الى أن تكون عملية البنك التجاري قد كللت بالنجاح . وقد جذب أوهارا بقوة سفر ماكهيث الى السويد ، بصحبة فاني وجروتش ، عملا على تنظيم أعمال الشركة هناك . ثم طالب بأن يسلمه ماك ، أثناء سفره ، السلطة كاملة ، لكن ماك قال أنه سيعطي كل سلطاته لبولى . فنشب شجار ثم انصرف أوهارا غاضبا .

استمعت بولى لكل ما دار بينهم بفتور ، دون أن تقول شيئا . أدركت أن الامر كله لا يعدو كونه مؤامرة من جانب أبيها ضد ماكهيث . كانت موقنة من أن ماري سوير ألقت بنفسها في الماء على سبيل الانتقام منه . لكنها صممت على ألا تدع ماك يذهب الى السويد برفقة فاني كرايزلر .

بعد العشاء ذهبت الى البيت معه دون أن تفتح فمها بكلمة . لكنها ، وهي تخلع ثيابها ، انفجرت فيه غاضبة بشأن رحلته التي يزمع القيام بها مع فاني . فضحك ماك ووعدها وعدا قاطعا بأن يترك فاني في لندن معها . قال انه لا علاقة له بفاني سوى العمل ، وأنها عشيقه

جروتش • لكن بولى لم تتخل عن شكوكها • كانت تصدق كل مايقوله لها ماك ، الا فيما يخص النساء •

استيقظ في تلك الليلة فسمعها تنسج • أخذ يهدىء من روعها ، فخف نحيبها قليلا ، ثم اعترفت له - بعد ان استخلفته الا يقضب - بأنها حلمت حلما سخيلا في الاسبوع الماضى • حلمت بأنها نامت مع اوهارا • انفجرت باكية من جديد وهى تسأله بين شهقاتها ان كانت قد ارتكبت ذنبا كبيرا في حقه بذلك الحلم ، بينما رقد هو بجانبها ، وقد تخشب جسده ، ولزم الصمت •

لكنهما تصالحا في النهاية ، وسر ماكهيث وهى تعود فتلح مفضبة على ان يعدها بالأى يسافر مع فانى ، ثم اقنعها قبل ان ينام بأن من الافضل ان تذهب لتقيم في بيت اهلها اثناء سفره ، لانها بذلك ستستطيع مساعدته ، فتكتب اليه أولا بأول عن الخطط التى يدبرها أبوها ضده • وعندما ناما كانا قد عادا سمننا على غسل ، بعد تلك الزوينة الصغيرة التى اثارتها بولى •

في الصباح ودعها وانصرف ، آخذا عصاه الفليظة معه ، مرتديا قفازه العتيد الذى لا يخلعه أبدا • كان موعد قطاره فى الساعة مساء ، لكن أمامه عملا كثيرا يؤديه قبل ان يغادر لندن • فرجال اوهارا كانوا من التذمر فى حال • وعليه أيضا ان يقوم بزيارة اليهودى هارون ، واحد الاخوين اوبر •

لكنه ذهب أولا الى جاون الذى أعطاه تلك المستندات ضد كوكس ، زميل بيتشام • لم يكن جاون قد نشر شيئا عن الفضيحة بعد • لم يجده ماك فى منزله ، فلما سأل عن المكان الذى يحتمل ان يجده فيه قيل له ان يبحث عنه فى جريدة اسمها « المراسل » • وهناك وجد ماك عددا من الصحفيين قد التفتوا حول جاون محاولين ان يستخلصوا منه بعض المعلومات عن الجياد الرابعة فى سباق اليوم • لم يكده ماكهيث يدخل حتى ساد صمت غريب • ثم صاح صحفى شاب :

- يالله ! هذا صاحبنا ماكهيث ! أظنك تريد ان تنشر احتجاجا ضد الامر الصادر بالقبض عليك ؟ هل سيقبضون عليك هنا ؟ هذا لطف منك !

أدرك جاون ان ماك لم يكن قد قرأ صحف الصباح بعد ، فأراه احداها • كان بيتشر قد أدلى بحديث صحفى تكلم فيه كثيرا عن الخطاب الناقص الذى وجد فى ثياب المرأة الفريقة • أخذ جاون ماكهيث فانصرف معه ، وذهبا الى حانة قريبة • قال جاون انه لم ينشر شيئا

عن موضوع كوكس حتى الان لان المستندات التي اعطاها له ماك تتعلق بموظف كبير في الاميرالية اسمه هيل . او ، بالاحرى ، بزوجته . لكنه سينشر بعض ما لديه خلال ايام قليلة ، ثم يبدأ حملته . ولم يقل جاون ملك ، بطبيعة الحال ، انه استخدم المستندات التي عهد بها اليه في عملية ابتزاز من هيل ، ولم يعلم ماك ، نتيجة لذلك ، ان الامر كلف بيتشام مبلغا لا يستهان به من المال ، وان بائنة بولى ، التي تهمة كثيرا ، لم تزد نتيجة لقيامه بتلك الحركة ضد كوكس .

قال ماكهيث للصحفي انه لا يهمة احداث فضيحة لاحد بقدر ما يهمة ان يلقى بعض الخوف في قلب كوكس وشركائه . فوعده جاون بان يفعل ما يوسعه ، ثم طلب ان يجرى حديثا صحفيا معه . جلسا قطبشا الحديث معا . وقرأه الناس في طبعة المساء ، فعلموا ان التاجر الكبير مستر ماكهيث دهش للغاية من اتهامات البوليس له ، قال ماك في حديثه الصحفي : « أنا رجل تاجر ، ولست مجرما ، لكنى ، ككل رجل ناجح ، لى أعداء . فنجاح محلات حرف « ب » الذى لم يسبق له مثيل دفع حسادى واعدائى الى تدبير هذه المؤامرة ضدى . لكن الناس جميعا يعرفون ان سبلى كلها مستقيمة ، وانى عندما انافس احدا ، فانى لا احاول ان انتصر عليه بالمكائد وتلفيق الاتهامات ، بل بالعمل الجاد المخلص الشريف فى خدمة عملائى الكرام . ويقينى الذى لا يتزعزع ان كل هذه الشبهات التى اثرت حولى سترتد الى صدور مروجيها . وانى آمل الا يكون اى شك من ناحيتى قد تسرب الى نفس اى من السادة الزملاء المتعاملين معى فى تجارة التجزئة بسبب هذه الفرية الباطلة والمكيدة الدنيئة . مسز سوير هذه لم اكن اعرفها الا معرفة سطحية للغاية . وكل ما اذكره عنها انها كانت تمتلك دكانا من دكاكين حرف « ب » فى شارع ملبرى على ما اظن . ولا علاقة لى البتة بتلك السيدة الا علاقة العمل التى تربطنى بعشرات غيرها من اصحاب الدكاكين . وانا كرجل أعمال ، أقدر تماما ظروف سيدة وحيدة كهذه عندما تفجأها تقلبات السوق . انها مأساة اليمة ما فى ذلك من شك . ويبدو ان المرحومة كانت تعانى ضائقة مالية شديدة فى اخريات ايامها ، فلم تستطع ان تصمد لها ، ربما عن قلة ايمان بمتانة اقتصادنا القومى . »

بعد ذلك الحديث ، ذهب ماكهيث الى البنك التجارى ، فقابل مستر هنرى اوبر . دهش الاخ اوبر كثيرا لرؤيته طليقا . فقد نشرت صحف الصباح اسمه ونبا القبض عليه بمانشستات باللغة الضخامة ،

و حروف حمراء . لكنه اصفى لزاره بكل انتباه ، فلما سمع ما عنده قال له :

— لا يجب ان تسلم نفسك . سواء كنت مذنباً او لم تكن لا تدعهم يلقون بك في السجن . سافر الى الخارج ! وبوسعك ان تدير اعمالك من هناك . نحن نعلم ان لديك اصدقاء في شركة م.م.م. ، ونحن ايضا نستطيع ان نسهر على مصالحك ، اذا اردت ، كان هارون هنا منذ قليل . وهو يكاد يفقد صوابه بسبب حكايتك هذه .
عندما انصرف ماك كانت الافكار تتسابق في رأسه . لماذا يريد اوبر ان يسافر بأى ثمن ؟

تأبط ماك عصاه الفليضة وسار ينشاط حتى خرج من حى المال والاعمال ، فذهب راكبا الى ميدان لوور بلاكسميث . ومن شارع الى حارة سار على قدميه حتى وصل الى بغيته . فى زقاق ضيق بين افنية واسعة تملؤه حظائر ومخازن عديدة ، دخل شادرا كبيرا ، عبر فناءه ودخل مكتبا مضاء فى الطابق الارضى . وجد جروتش والاب جالسين على منضدة من الموجانو وبجوارهما عدد من زجاجات الجعة ، وجروتش يملى خطابا على فتاة انيقة الثياب . فى الفرفة المجاورة كان بعض العمال منهمكين فى تقفيل عدد من الصناديق الكبيرة بضوضاء لا حد لها .

عندما دخل ماك هم جروتش واقفا ، لكن الاب ظل جالسا حيث هو . قال لرئيسه بنبرة استياء :

— من حسن حظك أنك ما زلت تذكرنا فتأتى لترانا بين الحين والحين . لم يعد هناك عمال هنا . لا شىء الا المتاعب والتدمر من كل جانب .

لم يجانب الاب الحقيقة فيما قال . فالبطالة الاجبارية التى فرضتها ضرورات العمل احدثت آثارا بالغة السوء . كانت المخازن ما زالت بها كميات من البضائع ، لكنها لا تقاس بما تكس فيها قبلا . أما الرجال فقد صرح اوهارا لهم بالعمل لحسابهم الى أن تعود الامور الى ما كانت عليه . لكنه لم يعطهم معدات العمل . كانت هذه ملكا للشركة وحدها . ولهذا لم يستطع أى منهم أن يقوم بأى عمل كبير يذكر . لانهم بعد أن القوا العمل بالمعدات الحديثة التى زودتهم بها الشركة ، لم يعد بوسعهم أن يعودوا الى العمل بعددهم البدائية الاولى . فوق أن وسائل النقل والتنظيم اعوزتهم ، فاضطروا الى قضاء معظم

وقتهم بلا عمل . وأخذوا يتشاجرون فيما بينهم .
ضحك ماكهيث قائلا :

— كنت أظنهم أصلب عودا من ذلك ! لقد ضاقوا بنظام الاجور المنتظمة والاستقرار الذي هياها لهم ، فقلت عال . انهم يقدرسون استقلالهم وحريتهم الفردية . لكن اكتشفت الان انهم يتدمرون لمجرد التدمير واحداث المتاعب . وانهم عندما يحصلون على ما أحدثوا المتاعب بسببه لا يتحملون نتيجة تصرفهم . أما أنا فأتحمل دائما نتيجة قراراتي .

قال الاب بخشونة :

— وهم أيضا يتحملون نتيجة قراراتك . لو لم تقرر أن تحرمهم من معدات العمل لما أصبحت هذه حالهم !

قال ماك بغير اكتراث :

— لو !

فعاد الاب الى الهجوم :

— لقد تلقينا عرضا من كوايت لشراء ماثايبينا الجديدة . يقول أن لديه ما يكفي لشرائها، وأنه لا يوجد من يعرف طريقة استعمالها غيره . فصاح ماكهيث مفضيا :

— لن أبيع معداتي . هل فهمت ذلك ؟ ومناضدي هذه لم أضعها هنا لتجلس عليها .

ثم أمسك بقوائم المخزون، وصرف الفتاة من الغرفة بإيماءة مقتضية من رأسه . قال للرجلين :

— لماذا تركتم المخازن ممتلئة ؟ لقد أمرت بأن تسحب كل البضائع من المخازن حتى المخزن رقم ٢٣ .

فنظر جروتش الى الاب الذي نزل من فوق المنضدة ووقف يبرطم . قال ونظرته مثبتة على الاب :

— لم يخبرنا أوهارا بشيء عن هذه الاوامر .

أخفى ماكهيث دهشته ، وأخذ يقلب في أحد الكتالوجات ليكسب بعض الوقت ، ثم استطرد بهدوء :

— والمخزن رقم ٢٩ أيضا يجب أن يتم إخلاؤه ، لان أوهارا قد يضطر في القريب العاجل الى أن يثبت لبعضهم أن المخازن خالية تماما .

— ولكن أين تريدنا أن نخزن كل هذه البضائع ؟ معظمها طباق وأدوات حلاقة . هذه الاصناف لن تصرف بسرعة لانها مازالت جديدة في أيدينا

ويجب أن نخزنها بعض الوقت الى أن تهدأ الضجة الخاصة بها . وتلك

البضائع التي وصلتنا من برمنجهام هنا أيضا . مازالت الصحف تقيم الدنيا وتقعدها بسبب سرقتها . ثم هناك الجلد والصوف . دكاكين حرف «ب» يمكنها أن تستوعب ما لدينا من هذين الصنفين .

– لماذا لا تسمعون الكلام ؟ لن نصرف شيئا من كل هذا . يجب أن نتخلص من كل ما لدينا . ولن يباع شيء . يحسن بكم أن تحرقوا كل هذه البضائع . فالمخازن مؤمن عليها .

نظر اليه جروتش باستفظاع .

– لم لا نعطيها للرجال اذن ؟ ستقع متاعب اذا ما اضطررناهم الى حرقها ، بعد أن حصلوا عليها .

بدا الضجر واضحا على وجه ماكهيث . قال لجروتش :
– اية متاعب هذه ؟ ألم يحصلوا على أجورهم ؟ وسوف أذفع لهم أجورا أخرى ، بالساعة ، للتخلص من هذه الأشياء . انا الذي أقرر ولا أريد أن يباع من هذه البضائع شيء . فاذا كان الرجال يريدون تبعا فما عليهم الا أن يشتروه ، من محلات حرف «ب» ان أرادوا . وهناك شيء آخر . من الآن فصاعدا ستتلقون الاوامر من زوجتي ، لامن أوهارا وستوقع كل الاوراق الخاصة بالعمل منها . مفهوم ؟
هم واقفا وأخذ يرتدى قفازه ، لكن جروتش لم يدعه ينصرف . قال له :

– هاني ميكر مازال يأتي هنا . يقول انه مستعد للقيام بأي عمل تكلفه به ، فقد فشل مشروعه .

– لماذا ؟ الا تقولون انه أفضل خبير في الاقفال ؟ لم يستطع ان يصمم ذلك القفل جيدا ؟

– بالعكس . لكن الشركة التي باعها الاختراع خدعته ، وسرقته منه . وهو الان يريد أن يعود للعمل معنا .

ضحك ماكهيث . كان هاني ميكر هذا في زمانه احد اساطين مهنته : سرقة الخزائن ، لكنه تقدم في السن وفقد لياقته البدنية (فلم تكن العصابات قد بدأت في تلك الايام تفرض الرياضة الاجبارية على أعضائها) فقرر أن يتفرغ للاختراع ، وأن يستقيم ، فاخترع قفلا ضد السطو ، ووضع كل خبرته وفنه في ذلك الاختراع ، وجاء اختراعه تحفة ، حصينة عمر بأكمله من الدراسة والخبرة والمران . لكنه عندما تقدم الى احدى الشركات الكبرى لبييعها اختراعه ، وجد في تلك الشركة ندا له وأكثر ، فسرق اختراعه منه .

قال ماكهيث وهو ينصرف ، على سبيل التريفة :

— لم لا يفتح دكانا حرف «ب» ويواصل الاستقامة ؟
لكنه ، رغم ضحكاته ، كان أبعد ما يكون عن السعادة . أزعجه أن
أوامره لم تعد تنفذ . ماذا يحدث لو خطر لذلك اليهودى هارون الآن
أن يطلب من أوهارا معاينة المخازن ليتأكد بنفسه من أنه لا توجد بضائع
حقا ؟ لن تجد فانى طبعاً ، وهى تجهل حقيقة الموقف فى المخازن ، سبباً
يدعوها لرفض طلبه ، فيذهب بأنفه الكبير ليشاهد بنفسه ، ويجد
مخازن الشركة مكدسة بالبضائع .

عندما خرج من متاهة الأزقة والحوارى المتشابكة المتداخلة ، وقف
مترددا برهة بين الذهاب الى فانى فى دكانها ، وبين زيارة مسز ليكسر
فى تانبريدج . فقد كان اليوم يوم خميس . لكنه مالبت أن تذكر أنه
سيرى فانى على رصيف المحطة مساء عندما تأتى لتودعه ، وأنه قد يقابل
براون فى تانبريدج . فقد كان كبير المفتشين من زبائن مسز ليكسر
المزمين مثله . وكان مواعده الاسبوعى كل خميس . وكثيراً ما جلس
الرجلان يلعبان دوراً من الضامة معا .

فى قرارة نفسه كان ماكهيث يحس بشيء من الذنب لعلاقته بفتيات
مسز ليكسر ، رغم أن مقتضيات العمل كانت مبرراً كافياً لعلاقة كهذه .
فهو فى ذلك البيت يستطيع ، بأفضل مما يمكنه فى أى مكان آخر ،
أن يجمع كل ما يحتاجه من معلومات عن الشئون الخاصة لرجال
عصابته . وهكذا فإن علاقات العزوبة التى كان يسمح بها لنفسه مع
مراعاة الاعتدال ، استمرت بعد الزواج لاسباب عملية بحتة . فوق أنه
كثيراً ما قال لنفسه أنه يعتز بهذه الزيارات المنتظمة لتانبريدج لأنها باتت
عادة لديه ، والعادة شيء عظيم ومقدس ، فمن المعروف أن تربية العادات
وتفديتها والانقياد لها من أهم الاسس التى تقوم عليها الحياة
البورجوازية . فبعد شطحات الشباب الاولى ، درج ماك على اشباع
حاجاته الجنسية بطرق تتيح له أن يجمع بين اشباعها وبين العمل أو
الترف : أى مع نساء لا يفعلن ذلك لمجرد أن يجدن لقمة العيش ، أو
مع نساء تربطه بهن علاقات العمل ، مثل فانى .

ولم يكن ماك سعيداً كل السعادة بزواجه . مامن شك فى أن أضرار
تلك الزيجة اكبر من نفعها . أقربها تهمة مارى سوير هذه التى لفقت له
من تحت رأس بولى . هناك كثيرون يحملون له الان ضغينة أكثر من أى
وقت مضى ، لانه ، أثناء تعامله معهم ، ترك نفسه تقع له فضيحة كهذه .
وهناك من رجاله من بات ينقم عليه أيضاً . أنه يستطيع أن يتخيلهم
جالسين يقولون لانفسهم : آه ! هاهو ماك قد ائثرى وأصبح واحداً من

السادة . يظن نفسه قد وصل الى القمة ، وكبر علينا !
والمشكلة في ذلك كله ان رجلا في مثل مركزه لايسعه ان يدع الناس
يهتمون بسيرته أكثر مما يجب . كل مايجب أن يروه منه صورته العامة
التي ترسم لهم . وقد ظل كذلك حتى الان . لم يكن هناك من يستطيع
أن يجزم بشيء من حياته الماضية . لكن من الذي يضمن له الا تنطلق
اليوم اشاعة تقول ان ماكهيث هذا مجرد رجل كفيره من الناس ؟ لو
وقعت كارثة كهذه لتطلب الامر مذبحه تكلفة كثيرا من المال والمخاطر لكي
يعيد الى صورته ذلك الجو الغائم الذي لا يستطيع المرء أن يسمن ويشرى
الا في تلافيفه . لهذا ذهب الى تانبريدج بحثا عن المعلومات لكي يطمئن
بأله ، وبحثا عن صديقه براون لكي يحدد معه موقفه ، ويجد لنفسه
مخرجا من ذلك الركن الذي وضعه فيه بيتشام .

لكن براون لم يكن قد جاء بعد ، فجلس في المطبخ ينتظره . لم يجد
في نفسه رغبة الى صحبة أي من الفتيات . كانت الافكار تتزاحم على
رأسه . ولم يكن سعيدا . أحس بالأرض الصلبة التي طالما وقف وقاتل
عليها تميد تحت قدميه . هؤلاء الحمقى الذين « يشترون » له بضائعه
لا يريدون أن يدعنوا لشيء من القيادة الحكيمة . بدأ عدد من النقاط
الصغيرة التي لم يلق اليها بالا في زحمة الاسابيع الماضية يتوافد على
ذهنه . هناك أوامر واضحة لاتقبل التأويل ، كلفته فكرا ووقتا ، أهملت
ولم تنفذ . وليت الامر توقف عند ذلك الحد . لان الاهمال أعقبته
الخديعة ، فأخفى الامر عنه بمعرفة مستخدميه من رعوس العصابة .
ومنذ أن توقف التوريد لم يكف جروتش عن ترديد نعمة واحدة متزايدة
في سمعه : الرجال متدمرون ، الرجال متدمرون . هؤلاء الحمقى ،
بذكائهم المحدود ، وأفقهم الضيق ، لا يرون الى أبعد من أنوفهم القبيحة ،
ولا يقدرن قيمة العمليات الضخمة التي تتطلب قرارات لا يفهمونها .
وهاهو يكتشف أن أوهارا قد أهمل تنفيذ أمر من أهم أوامره ! والحقيقة
أن سلوك أوهارا في الآونة الاخيرة لم يكن باعثا على الرضا بحال . وقد
بلغت به الصفاقة حد المطالبة بزعامة العصابة في غيبته . لكنه عندما
قيل له أن بولي هي التي ستحل محل زوجها ، لم يتشبث بمطالبه .
لماذا ؟ هه ؟ لماذا ؟ اجتاحت ماكهيث بفتة موجة من الشك . بولي !
مالذي بينها وبين أوهارا على وجه التحديد ؟ انها الان صاحبة الكلمة
العليا في العصابة . فما الذي ستفعله بكل هذه السلطة ؟ تذكر ماك
فجأة ذلك التصرف الذي ظل يقلقه منذ أن أقدمت عليه أثناء العودة من
تلك الرحلة الخلوية وهو جالس بينها وبين أمها ، وادرك لماذا ظل ذلك

التصرف يلح على خاطره وينقص عيشه . قال لنفسه :
- طبعا . امرأة تفعل شيئا كهذا مع رجل تخرج معه لأول مرة في
حياتها ، ولا تعرفه الا معرفة سطحية للغاية ، لا يمكن أن تكون زوجة
صالحة . انها شهوانية أكثر مما ينبغى . وجريئة . والمصيبة أن الامر
ليس مسألة حسية فحسب ، بل يبدو أنها تستخدمه أيضا لتحقيق
مآربها الأخرى . فما الذى ستفعله بكل هذه السلطة التى أعطيتها لها ؟
فى موقف كهذا تساوى الزوجة الفاضلة وزنها ذهابا !

حز فى نفسه أن يذكر السرعة التى وافق الاثنان بها على سفره .
كأنهما كانا يترقبان هذه الفرصة ! لم تقل له حتى « ستوحشنى ! » .
بدت عاقلة أكثر مما يجب . ياسلام على هذا العقل كله !

هم ماكهيث واقفا من فرط مرارة . أخذ يتجول فى البيت والقلق
ينهشه على غير عادة . دخل الجزء المخصص لاستخدامه مكاتب بمعرفة
عملاء مسز ليكسر . عدد من الغرف الكبيرة مؤثثة بأثاث المكاتب ، فى
بعضها ، بجانب ذلك الاثاث ، أرائك مريحة ، والبعض الآخر ليس فيه
الا منضدة ومقاعد وآلة كاتبة . كانت مسز ليكسر تهيىء لعملائها كل
سبل الراحة ، والمتعة ، والعمل أيضا . فأى عميل منهم - وجلهم رجال
أعمال ومال وبنوك - يستطيع أن يقرن المتعة بالعمل ، فيملئ خطباته ،
ويستريح بعد ذلك على الأريكة قليلا ، خاصة وأن فتيات مسز ليكسر
كلهن سكرتيرات مدربات ، ممن يجدن الاختزال والكتابة على الآلة
وأعمال المراسلات .

خطر لماك أنه يستطيع أن يشغل فترة انتظاره لبراون باملاء بضعة
خطابات . لكن الوحيدة من بين فتيات مسز ليكسر التى يأتونها على
أسرار عمله هى جينى ، صديقة بلومزبرى . فوق أنها أصبحت ملمة
بكل أساليبه ، بحيث تستطيع ، من بضع كلمات قليلة يقولها لها عن
موضوع الخطاب ، أن تعد له مكاتب تجارية من الطراز الاول وهى
جالسة على ركبتيه . ولم تكن جينى موجودة بالبيت ، فقد صاحبها
بلومزبرى لقضاء عطلة على الساحل . ولم يبد أن هناك من الفتيات
من ينقم عليها ذلك الحظ الذى واتاها فى الحياة مؤخرا بصداقة اللورد ،
كما ينقم الجميع عليه زواجه الفاشل من بولى .

عاد ماكهيث الى المطبخ مكتئبا ، يرقب المومس العجوز التى كانت
منهمكة فى كى ثياب الفتيات ، والفتاة صفراء الوجه التى ترفو كومة
من جواربهن .

انقضى نصف ساعة آخر ولم يأت براون . لكنه لا يستطيع أن يذهب

دون أن يقابله . فحديثه معه هو الذى سيقدر ان كان سيهرب من لندن
أم لا . كان كل شيء معدا لهربه . ولعل جروتش ينتظره بالمحطة الان ،
ربما مع فاني . لكنه لا يستطيع ان يهرب قبل ان يسوى أموره . يجب
أولا أن يستعيد سيطرته كاملة على المنظمة ، وعلى شركة م . م . م .
ويتم تلك العملية مع هارون والبنك التجارى ، ويسوى أموره مع
البعض . أى حياة هذه ؟ رجل يطارده البوليس ولا يستطيع ان يهرب
بسلام ؟ لكن كيف الهرب وأعوانه الذين يحيطون به كلهم حمقى وبلهاء ؟
انه يستطيع ادارة أعماله من وراء قضبان السجن ، لكنه لن يستطيع
ذلك وهو خارج البلاد . وهو يستحق كل ما حدث له . لانه لم يلتزم
سواء السبيل . نعم ، سواء السبيل . اجتاحته فجأة شهوة عارمة
الى حياة محترمة فاضلة . لا غنى لمن يشتغل بالأعمال عن قدر من
الامانة ، ومثانة الخلق ، يجعله اهلا للثقة . لانه كيف يكون رجل أعمال
ولا يكون اهلا للثقة ؟ والا فقيم هذه الضجة حول ضرورة الامانة
والاستقامة وما الى ذلك ؟ لابد أنها ضرورية فعلا ، لانه لو كان من السهل
الاستغناء عنها لما اقيمت حولها كل هذه الضجة . ولا يجب ان يفيب
عن الذهن ان كل البنيان الاجتماعى مؤسس عليها . وما على المرء ،
بدلا من السرقة والأعمال المريبة ، الا ان يحسن استفلال مستخدميه ،
والانصراف بعد ذلك الى المعاملات المهذبة المحترمة . ولكن ان كان المرء
لا يستطيع ان يأتى من يحيطون به ، فكيف يمكن ان يتفرغ لانجاح أعماله ؟
أخيرا ، فى تمام السابعة ، جاء براون . كان بيت مسز ليكسر دائما
أفضل مكان للقائهما . لان احدا لم يكن يخطر له ببال ان يتجسس على
كبير المفتشين براون فى بيت كهذا . فأى رجل من رجال سكوتلانديارد ،
مهما بلغ تفانيه فى العمل ، كان حريا ان يعتبر تشتم خطوات رئيسه فى
وكر المتعة هذا أمرا مجردا من الذوق واللياقة . لان حياة المرء الخاصة
بعد كل شيء ، تخصه وحده .

بدأ براون يقرعه من فوره . بدأ فى الحقيقة يجار مفضبا وهو يذرع
الغرفة جيئة وذهابا كنمر حبيس :

— ما الذى ييقك هنا ؟ قلت لك ان تختفى من لندن . هذا المأفون
بيتشر هو الذى يياشر التحقيق ، وهو آخر من يمكن الاعتماد عليه من
رجالى . لاشيء يكبح جماحه بمجرد ان يلتقط أنفه اللعين رائحة الطريدة .
وليس لديه أدنى احساس بمسئوليته تجاه رؤسائه . لو فعلت أمه
شيئا لقبض عليها بلا أدنى تردد . أمه ، هل سمعت ؟ بعد ذلك الحديث
الصحفى الذى أدلى به ، تغير تكييف الواقعة الى القتل العمد .

والشبهات متجهة اليك . وأسوأ مافى الامر ذلك الخطاب الذى وجدوه على جسد المرأة الغريفة والذى تهددك فيه بأفشاء أسرار تتعلق « بالسكين » . مالىذى كانت تعرفه عن هذه الحكاية أيضا ؟

قال ماكهيث وهو يجلس على الأريكة وصحف المساء على حجره :
- لا شىء . كانت لديها شكوك مبهمه فقط .

- وهذا المدعو فيوكومبى ؟

- أحد شحاذى حماى . عسكري سابق . يبدو أنه كان يتقرب من

مارى سويز مؤخرا .

كتب براون شيئا على كم قميصه ثم قال :

- يقول أوهارا أن لديك دليل براءة كامل لكنك لا تستطيع أن

تستخدمه . هل هذا صحيح ؟

- نعم . محضر اجتماع شركة لم يكن ينبغى أن يتم ، أو أن أكون

أنا فيه .

- النقطة الوحيدة التى فى صالحك أن عاملى الشحن اللذين شاهدا

مسز سويز متجهة الى الميناء قررا أنها كانت وحدها ، ولم يكن أحد

معها . لكن رسالتك اليها التى تطلب فيها أن تقابلك فى تلك الليلة

دليل ادانة مخيف . وقد ضمت الى ملف القضية .

وهنا أنتاب براون الهياج ثانية ، فبدأ يجأر من جديد . يجب أن يهرب

ماكهيث فوراً . الآن . لكن ماك لم يتحرك من مكانه . جلس حيث هو

ناظرا الى صديقه معاتبا . قال بنبرة عاطفية :

- كنت أتوقع منك معاملة غير هذه . كنت آمل اذا ماتورطت فى

مسألة كهذه أبداً ، فتخلى عنى الجميع ، وغدروا بى ، وطاردونى ، أن

أستطيع اللجوء اليك يافردي . كنت أظنك ستقول لى من أجل صداقتنا

هاك يا صاحبى . هنا ملاذ لك . اختبىء هنا . حتى ان كنت قد فقدت

سمعتك وشرقتك ، سأتيح لك الفرصة لكى تنقذ نفودك على الاقل .

رمقه براون بارتياب قائلاً :

- ماهذا الهراء ؟ ماذا تعنى ؟

- أعنى انى لا أستطيع أن أدير أعمالى من الخارج . كيف يمكنك أن

تظن ذلك ؟ يقول أوبر انى سأفقد سمعتى اذا ماذهبت الى السجن .

لكنى سمعت أنهم يعدون العدة للقضاء على ماليا اذا ماغادرت البلاد .

يجب أن أظل صامدا هنا . يجب أن أذهب الى السجن وأواصل عملى

من هناك . أنا كالخصان الذى يموت ولا يتخلى عن عربته يافردي !

دمدم براون قائلاً : « مستحيل ! » ، لكن ماك أدرك أنه قد بدا يلين

فذكره قائلا بصوت خافت :

— يجب أن تذكر أن الامر لا يخصنى وحدى يافردى . هناك كثيرون قد ائتمنوني على مستقبلهم ، وانت منهم . ستضيع نقودك انت ايضا اذا تركتني لهؤلاء الناس الذين يريدون خرابى ، اذا جعلتني احقق لهم رغبتهم واهرب من لندن . أنت طبعا تستطيع أن تحتمل خسارة كهذه لكن كثيرين غيرك لا يستطيعون أن يتحملوها .
دمدم براون ثانية ، فاستطرد ماك قائلا :

— أس البلاء كله ذلك الرجل بيتشام ، أبو زوجتى ! انه لا يستطيع أن يطيقنى . ولقد اخطأت أنا من مبدأ الامر ، فلم أهتم بعداوتة الاهتمام الكافى . استخففت به . كانت عداوته لى ماثلة طيلة الوقت ، كوجع الاسنان الذى يحسه المرء ويتجاهله لان لديه ماهو أهم من خلع السن التى تؤلمه ، متصورا أن الالم قد يكف من تلقاء نفسه ، رافضا أن يفكر فيه أو يشغل نفسه به . لكنه يستيقظ ذات صباح فاذا وجهه كله متورم كالبالون .

جلسا بعد ذلك معا ، فروى له براون محسورا ، على مدى ساعة أو أكثر ، كل ما يعرفه عن ذلك الرجل بيتشام ، أس البلاء كله . قال ان جوناثان ارميا بيتشام ليس مجهولا لدى دوائر الشرطة . وان دكان الآلات الموسيقية المستعملة الذى يديره ظل ، منذ اثنى عشر عاما ، مثار أحاديث ومناقشات متكررة . وأن البوليس حاول أن يوقف نشاط الرجل لكنه لم يستطع . قال براون آسفا :

— أحسن الرجل ، بطريقة أو بأخرى ، أنا ننوى ان نتخذ اجراء ما ضده . فجاء الى سكوتلانديارد بكل صفاقة ، والقى علينا خطبة وقحة مؤداها ان للفقراء كل الحق فى أن يزكموا برائحهم أنوف المتسببين فى فقرهم وما الى ذلك ، فألقينا به خارجا ، واستمرت الاجراءات ضده . وسرعان ملاحظنا انه يدبر شيئا . وتصادف فى تلك الآونة أن كانت الاستعدادات تجرى لازاحة الستار عن تمثال تذكارى لاحد المحسنين اقيم فى اشد اجياء وايتشابيل فقرا وتخلفا . كان ذلك المحسن الكبير قد بدأ حملة بلهاء ضد شرب الخمر وانحراف الفتيات وأشياء من هذا القبيل . واعتقد انه كان يقوم بتوزيع اكواب من الليمونادة على الفقراء بواسطة عدد من الفتيات كان قد « أنقذهن » من الانحراف . ويبدو أن أحدهم أصيب بلوثة فى عقله ، فتقرر أن تحضر الملكة حفل ازاحة الستار . قمنا بتنظيف الحي ، بطبيعة الحال ، قدر استطاعتنا ، لانه لم يكن يليق أن ترى الملكة حيا بتلك القذارة التى لم يجد سكانه

مهريا منها الا في ادمان الكحول . لكن بضعة جالونات من
الجير يمكن ان تفعل الاعاجيب . وهكذا استطعنا ، خلال بضعة
ايام ، ان نحول ذلك الحي الجهنمي الى جنة مصفرة . مقابل
القيامه تحولت بقدرة قادر الى ملاعب للاطفال ، فيها اراجيح
ملونة . والبيوت الالية الى السقوط التي تقيم في كل حجرة من
حجراتها المظلمة أسرة او اسرتان ، انقلبت الى ابنية مبهجة للعين
مزدانة كأنها استعداد لمهرجان دائم . اما الاماكن السنيئة بحق
التي لم نستطع حيالها شيئا فقد غطيناها بأكوام من باقات الزهور.
والجحور التي يعيش في كل خن منها اثنا عشر أو خمسة عشر
شخصا غرست فيها أعمدة خشبية ضخمة علفت عليها اعلام
الامبراطورية . اذكر ان الكثيرين منهم اخذوا يسبون ويلعنون
قائلين انهم لا يحبون ان تزاحمهم تلك الاعلام اللعينة في بيوتهم ايضا.
هؤلاء الناس لا يستحون من تسمية هذه الجحور بيوتا ! ثم طردنا
الفتيات من بيت للدعارة يطل على الشارع الذي سيمر به موكب
الملكة ، ووضعنا عليه لافتة مكتوب عليها : « ملجأ للنات
الساقطات » ، وهو ما لم يبعد كثيرا عن الحقيقة . باختصار
بدلنا كل ما في وسعنا لتحويل مقلب الزبالة ذاك الى شيء مبهج
لنفس ، مريح للعين ، حتى لا نزعج صاحبة الجلالة دون جدوى .
ولم نكن ندرى ما ينتظرنا من متاعب . بدأت تلك المتاعب اثناء
التفتيش المبدئي الذي قام به رئيس الوزراء تمهيدا لمجيء الملكة .
من نوافذ البيوت التي تحف بها الزهور والرايات والاعلام اطلت
وجوه بشعة . وجوه شحاذى مستر بيتشام القذرة التي تثير
الغثيان . مئات فوق مئات من تلك الوجوه . وبينما رئيس الوزراء
يمر في الشارع ، اخذوا يعوون فوق رأسه منشدين النشيد القومي !
ولم تكن ، في محاولات التجميل التي قمنا بها ، قد مددنا يدا الى
اطفال ذلك الحي . لان أي قدر من الثياب النظيفة لا يمكن ان يخفي
تلك الاطراف الكسنيحة والبطون المنتفخة . أي عملية تمويه في
ذلك المجال كان ميثوس منها . وقد اقترح البعض ان نخفي كل
اولئك الاطفال في مكان ما ، ونضع بدلا منهم اطفالا من أبناء رجال
البوليس يلوحون للموكب برايات صغيرة في أيديهم . لكن البعض
الأخر قال : آه . وما العمل اذا تسلل احد أولئك الشياطين عائدا
الى الحي فاندس وسط اطفالنا ، وماذا يكون موقفنا اذا ما توقف
امامه رئيس الوزراء بوجهه المورد السمين وسأله عن عمره ، فلم

يقبل خمس سنين كما يبدو من حجمه ومظهره بل ستة عشر عاما ؟ وهكذا فان رئيس الوزراء عندما وصل الى موقع النصب التذكارى ، وجده محاطا بمئات من المخلوقات الصغيرة البشعة الشكل التى يزيد من بشاعتها تنكرها فى هيئة الاطفال . كانت تلك المخلوقات ما زالت تتوافد فى جماعات ، وبأيديها البالونات والمصاصات التى وزعت عليها ، فتنضم الى الحشد الملتف حول النصب محذقا فى وجه رئيس الوزراء الذى تولاه الذعر بنظرة تطل منها كل هموم الدنيا وشروورها . انتهت الزيارة بفوضى لا مثيل لها ، وهرب رئيس الوزراء عائدا بموكبه . وصرقنا نحن نظرا عن أية اجراءات كنا نزمع القيام بها ضد بيتشام . فقد اكتشفنا اننا لسنا ندا له . هذا هو الرجل الذى ذهبت فتزوجت ابنته رغم انفه ! انها نكتة فظيعة والله !

كان براون - وصفته الاولى الولاء - قلقا على مصر صديقه . لكنه اقتنع فى النهاية بوجهة نظره بشأن تسليم نفسه والذهاب الى السجن بدلا من الهرب الى الخارج ، فافترقا على ذلك . كان المفروض أن يذهب ماك فيسلم نفسه فى سكوتلانديارد . لكنه وهو يركب عربة الاوتوبيس ، غلبته مخاوفه بشأن بولى ، فذهب الى نانهيد بدلا من أن يتجه الى سكوتلانديارد . وصل الى البيت قرب الثامنة . دهش اذ وجد النور مضاء فى غرفة بولى فى الطابق الاول . كان ينبغي أن تكون فى بيت أبيها من وقت طويل . رأى اثنين من رجال البوليس يسيران أمام حديقة البيت جيئة وذهابا فى غير خفاء . ثم رأى نافذة أخرى تضاء فى البيت . لابد أنها قررت قضاء الليلة فى البيت . لعلها الآن تعد شيئا من الطعام فى المطبخ .

سار ماك الى باب الحديقة بغير تردد . وعندما وضع احد الرجلين يده على كتفه اوما له برأسه علامة التسليم . وافق الرجلان على أن يدعاه يصعد الى بيته ليتحدث الى زوجته قبل الذهاب معهما .

وجد بولى واقفة بالفعل أمام الفرن . أدركت لفورها أن الرجلين اللذين مع زوجها من رجال البوليس . دهشت لانه لم يهرب من لندن كما كان ينوى .

قال لها بخشونة وهو واقف فى اطار الباب ، لا يستطيع أن يخفى ضيقه من مراوغتها :

- لماذا لم تذهبي الى بيت اهلك كما قلت لك ؟

قالت له بهدوء :

– لم اذهب . كنت مع فاني كرايزلر .
فسألها مفيظا :

– وبعد ؟

– قالت انها ذاهبة الى السويد .

فقال لها بلهجة لا تنبئ بخير :

– لكنى لست ذاهبا . اعدى لى حقيبة بها بعض الثياب .
وهكذا ذهب الى السجن والقلق ينهش قلبه . القلق بشأن بولى .
فى صباح اليوم التالى زاره ميمتر والى ، المحامى ، فى سجنه ،
تنفيذا لتعليمات مستر بيتشام ، فحدثه فى موضوع الطلاق ،
ولمحه انه ، فى حالة موافقته على ذلك ، قد تصل الى ايدى السلطات
أدلة قوية فى صالحه ، تبرئ ساحته .
قال له المحامى مستحشا :

– لا أظنك تريد أن تطول هذه القضية . ان أعمالك الآن فى رواج ،
وهى فى حاجة الى كل دقيقة من وقتك . طلق بولى وسوف يسقط
الادعاء التهمة قبلك . فالادلة الحاسمة فى ايدينا . ومستر بيتشام
لا خصومة بينه وبينك . كل ما يريد هو أن يستعيد ابنته . هذا
كل ما فى الامر .
لكن ما كهيث رده بفظاظة ، مؤكدا له أن زواجه قائم على الحب .

(١١)

« والله هم أناس طيبون ،
إذا ما بعدت عنهم
وهم يقاتلون ليستعيدوا
ما لم يكن في يوم ملكا لهم » .
(أغنية رئيس البوليس)

أوراق الشجر يصفر لونها

ذات صباح باكر عادت بولى بيتشام ، وقد أصيبت مسز
ماكهيث ، الى بيت أبيها . كانت قد تمكنت من العثور على عربة ،
رغم الساعة المبكرة . لاحظت والعربة تدرج بها ، مارة بالحديقة
العامة ، أن أوراق شجر البلوط بدأت تتساقط ويصفر لونها .
دهشت عندما دخلت الدكان ففوجئت بالكل يهرول راثحا آتيا
في نشاط وعجلة ظاهرة ، وأما واقفة وسط بنات مشغل الحياكة
تتعارك مع بيرى . من فرط عجلتهم لم يكدا أحد يلقي لعودة الخوخة
بالا . حملت حقائبها الى أعلى ، وبعد قليل ، جىء اليها بطعام
الافطار ، لكن أحدا لم يكن عنده وقت ليقول لها أين كنت ؟ أو
شرفت دارك يا بنية .

كانوا ينتظرون « كبسة » يقوم بها البوليس . وقد ظلوا طيلة
الساعات السبع الماضية يخلون المكان من كل ما يمكن اخلاؤه
منه . من بين الاشياء التى نقلت على عجل عكازات لا يمكن أن يستخدمها
انسان أعرج بحق ، وطاولات على عجلات فيها أدراج سحرية يخفى
فيها مقعدو بيتشام أرجلهم ليبداوا مقعدين ، وفوق وقبل كل شىء ،
كميات كبيرة من بزات الجنود العسكرية . وبطاقات الفهارس التى
يمسك بيتشام بواسطتها أرشيفه الذى ينظم مملكة الشحادة فى
لندن ، وقد اخفيت بدورها فى أعرق سراديب البيت وأبعدها .

ومنذ منتصف الليل كان الرسل قد أخذوا يجوبون أنحاء لندن محذرين شحاذا بيتشام من الاقتراب من « مركز قيادتهم » لحين يصلهم اخطار آخر .

وهكذا فانه عندما دهم البوليس المكان عند الظهر كان دكان الحلاق ذاته (الذى تجرى فيه عمليات الماكياج للشحاذاين) قد نقل برمته الى بيت مجاور .

كانت الغارة محاولة « بنصف قلب » من جانب البوليس للامساك بدليل ما ضد بيتشام ، لكنها انصبت أساسا على البحث عن العسكري فيوكومبى الذى تخلف عن التقدم الى البوليس للدلاء بشهادته بعد أن أخطر بذلك . لكن أحدا لم يعثر له على أثر . فقد طرد من خدمة السيد بيتشام فى الليلة البارحة لسوء أدبه وطول لسانه . هكذا قال مستر بيتشام .

قال المفتش بيتشر فى تقريره عن الغارة أن البيت ، أو ، بالاحرى البيوت الثلاثة ، أشبه بمناهة من سراديب الارانب ، وأنها تضم ورشة للنجارة ، ومشفلا لتفصيل وحياسة الملابس ، وأن نشاط المنشأة كله يتركز فى عملية الشحاذاة ، على نطاق مدهل .

كان فيوكومبى قد انتقل فعلا ، بناء على أمر من مستر بيتشام ، الى فندق رخيص من فنادق حى الميناء ، لقضاء بضعة أيام هناك . وقد حرم عليه أن يفادر غرفته أو يظهر فى الطرقات لآى سبب . لكنه لم يضق بذلك كثيرا لان كتابه كان معه . فظل يقرأ ويزداد علما من دائرة المعارف البريطانية .

حلت الخوخة محله فى الاشراف على كلابه ، وقد أسعدها أن تجد شيئا تفعله . لم تر أباه الا فى صباح اليوم التالى لعودتها ، وقد تصرف كما لو كانت لم تترك البيت أبدا .

لكن مستر كوكس جاء بعد الفداء ليتحدث الى مستر بيتشام ، وبينما هو يخطو خارجا من المكتب فوجيء ببولى تعبر الردهة ، فأسرع اليها يحييها بانحناء عميقة قائلا :

— أى نعم ! استوت الخوخة وطابت ! لابد أن ذلك من تأثير الجنوب !

قال ذلك وهو ممسك بكلتا يديها ، ثم طلب منها أن تكومه بمقطوعة تعزفها له على البيانو . كان بيتشام واقفا وراءه ، وقد رأت بولى نظرة الضراعة التى فى عينيه ، فاستدارت دون أن تفوه بكلمة ، وصعدت مع السمسار الى أعلى حيث عزفت له مقطوعة « آنى لورى » .

عندما انصرف السمسار ونزلت بولى لتخرج ، رأت أباهما جالسا في غرفة الجلوس بالدور الارضى ، يحدق في النافذة . كان كوكس قد أذره بأن عملية شركة النقل البحري يجب أن تتم خلال أسبوعين لا أكثر .

وقد تنازل السمسار ، لأول مرة ، فشرح له كيف ينوى أن يتم الصفقة : يجب على بيتشام أولا أن يعد كل المال اللازم ، وبعد ذلك سيقرر عقد الزواج المزمع نوع التسوية الجانبية التي ستجرى بين بيتشام وكوكس . وبهذه الطريقة يعوض كوكس خسائره ، ويستعيز كوكس بالارباح عن البائنة التي لن يطالب بها .

ولكن ، كل المال اللازم أولا ! هذا مخيف !
عندما عادت مسز بيتشام اضطرت أن تسأعد زوجها على الصعود الى فراشه . وجدته فاقد القدرة على النطق ، لا يستطيع أن يصعد الدرج بغير مساعدة . وفي الليل خيل اليها أنه يحتضر . فاضطرت أن تدلك صدره في منطقة القلب بنصف زجاجة من زيت الفوج ، بل واقترح هو أن تستدعى له طبيبا !

لكنه استيقظ في الصباح ولم يمت ، فأخذ يتجول في أفنية بيوته الثلاثة بتعاسة متأملا كل حجر فيها . كل حجر من هذه الاحجار دفع ثمنه من دمه وعرقه . وها هو الآن مضطر الى أن يضحى بكل هذا في سبيل ثلاث سفن نخرة يجرى اصلاحها في الميناء على نفقته . لعبة رائعة ، لهؤلاء الذين دبروها !

وقف على بعد خطوات ، يدها في جيبي سرواله ، وقبعته على مؤخرة رأسه ، يرقب بشرود ذهن ابنته وهي تعنى بكلابه وقد ركعت بين شجرتين بدأت أوراقهما تصفر وتسقط .

الا يزال بوسعه ، عن طريقها ، أن يقلب الامر كله الى نجاح ، ويتجنب بذلك وقوع الكارثة الكبرى ؟ لو استطاع فقط أن يطلقها من ذلك اللعين ماك لتتزوج كوكس ! لا شيء أقل من أوثق صلات القربى يمكن أن يجعل ذلك السمسار المنحط ، الذي لا يتورع عن شيء ولا يشبع أبدا ، يدخله في جنة أعماله . لا شيء الا شهوانيته البهيمية القدرة . ربما !

وهذا الماكهيث يفضل أن يذهب الى السجن ، ويواجه تهمة فظيعة كهذه ، على التخلي عن زوجته . اتعب بيتشام رأسه المتعب بما فيه الكفاية ، في البحث عن طريقة يتوصل بها الى اقناع الرجل بقبول الطلاق . تفرض أنه ذهب اليه في السجن فقال له يا شيخ .

اتق الله . الا تدرك أنك أخذت اللقمة من فم انسان فقير ؟ لعلك تقول في نفسك ، فقير ، هه ؟ احسن ! ما دام فقيرا أستطيع ان افعل به ما شئت . لكنك مخطيء يا صاح ! لا تستهن بقوة الفقراء ! لعلك نسيت أنهم في بلادنا يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها الاغنياء ؟ يجب على المجتمع أن يحمي الضعفاء والا اختل ميزان العدل !

أخذ يهذى فيما بينه وبين نفسه ، بخطب كهذه يؤلفها ويلقيها داخل رأسه ، طيلة ساعات بأكملها . لكنه لا يكاد يتمها حتى ينبذها لأنه لا يجد فيها مقنعا . لأنه أدرك أنه لا يوجد شيء يمكن أن يقنع أحدا في كامل وعيه بالتخلي عما بين يديه ، اللهم الا القوة . ظل بيتشام طيلة ذلك الصباح في شجار مع نفسه ، لكنه رغم شجاره الداخلي ، كان مدفوعا ، بغير رحمة ، الى اتخاذ القرار الذي أراد ان يتجنبه طيلة الوقت . دفعه بأسه الى أن يقرر شراء ابنته من زوجها بالمال . ان يعطى ذلك الافاق مالا ! عرض اقترح مستر بيتشام على مستر ماكهيث في سجنه رجل قميء «مزيت» من محامى الدرجة العاشرة . وقد أخطأ بيتشام باختياره لذلك الرجل على سبيل الوفرة في النفقات ، لأنه لم يكد يستهل حديثه حتى قال لماكهيث بفظاظة : اسمع ، سنعطيك مالا اذا ما طلقت المرأة . فابتسم ماكهيث غير مصدق ، وقال كم ، فغمغم المحامى شيئا عن بضع مئات من الجنيهات . وقال ماكهيث طبعاً وهو يحمق في المحامى كما لو كان يشاهد صنفا نادرا من الزواحف ، اسمع : سأقول أنا شيئا . قل لبيتشام انى أكن من الاحترام للسيد والد زوجتى ما يجعلنى أرفض تصديق مثل هذا العرض المهين أو أخذه مأخذا جديا . لا أستطيع أن أصدق أنه يصدق أن ابنته يمكن أن تعطى قلبها لرجل يرضى ان يبيعها بخمسمائة جنيه . عيب ! فانحنى المحامى بارتباك وقد محقه ماك باحتقاره وهرول ذاهبا الى من أرسله . لكن ماكهيث ندم على رعونته . فلم تكذ تنقضى أيام حتى وجد نفسه فى موقف جعله على استعداد للتفكير فى العرض الذى عرضه بيتشام - شرط أن يضاعف - تفكيراً جديا . لكن المحامى المزيت القميء لم يعد . فمثل تلك الفرص لا تعرض ، عادة ، فى العمر مرتين .

أفكار المرء تظل حرة

كان ماكهيت يشغل زنزانة في عنبر من عنابر السجن ليس فيه أحد غيره. كانت تلك الزنزانة قد استخدمت في وقت ما كمستشفى، فلم تكن ضيقة معتمة، بل على العكس، واسعة، مريحة، مرتفعة السقف، ومضيئة، لان بها نافذتين عاديتين لاثقين في الحائط فيهما قضبان.

كان براون قد اتفق مع مأمور السجن على أن يزود الغرفة أيضا بسجادة حمراء سميقة، وبصورة لجلالة الملكة فيكتوريا تعلق على الحائط. كان من المسموح أيضا للسجين ماكهيت بشراء الصحف، لكنه عزف عن قراءتها في الآونة الأخيرة، لانها كانت حافلة بأشياء تقطع نياط القلوب عن المرحومة ماري سوير التي تبين فجأة أنها كانت امرأة رائعة الجمال. لكن الأسوأ من جمالها ما أخذت الصحف تنشره عن حالة دكانتها، وعن الفقر والشقاء اللذين قضت فيهما السنوات الست الأخيرة من حياتها، كأنما تلك كلها أشياء جديدة على أحد.

نعم لم يرد له ذكر الا في مقالات بعض الصحف التي تميل الى الأتارة، وعملا من الجميع على التزام ما يقضى به القانون، لم يوجه اليه أحد اتهاما مباشرا على صفحات الجرائد، لكن الامر لم يخل طبعاً من تلميحات مؤذية للغاية.

كان من المسموح به لماكهيت أيضا احضار ما يشاء من الكتب، عدا الكتب القبيحة، التي تحكى حكايات جنسية مكشوفة. فتلك لم يكن مسموحاً بها خشية أن تقع في يد قسيس السجن الذي كان يباغت السجناء بالزيارة بين الحين والحين. لكن الكتاب المقدس كان مسموحاً به بطبيعة الحال.

أما الزوار فلم يكونوا كثيرين، لان لوائح السجن وقفت في طريقهم، بل لان معظم أصدقاء-ماك ومعارفه كانوا يعانون من حساسية مفرطة فيما يخص ذلك المكان. مستر أوهارا مثلا كان يعاني من كراهية مرضية لكل ما له علاقة بذلك المكان، ولا يحب أن تطأه قدماه، أو يراه أحد فيه، خاصة أنه قد يقابل فيه أحداً من معارفه القدامى الذين أرسلهم الى هناك. لكنه كان مكتوباً عليه أن يقضى بضع ساعات، فيما بعد، في مكان كهذا. وفانى كرايزلر، هي الأخرى، كانت لا تأتي الا لماماً.

وهكذا فان كل ما يتعلق بأنشطة العصابة ، والمسائل الخاصة
بدكاكين حرف «ب» ، كان يأتيه عن طريق بولى . كانت تعمل
بالتعاون مع أوهارا ، فتجتمع به في غرفة المكتب بيت ماك بنانهيد ،
بعد ظهر كل يوم تقريبا . كانت الامور اذن تسير بطريقة لا بأس بها .
لكن القبض على ماك كان ، مع ذلك ، ورطة سيئة . وأسوأ ما فيها
أن هارون لزم الصمت ، فلم يسمع منه شيء . فالرجل بعد كل
شيء شريكه . حاول ماك ، وقد جرح احسناسه ، أن يفكر فيما يمكن
أن يكون السبب في غيظ هارون العظيم منه . لايمكن أن يكون
السبب مجرد القبض عليه . فدنيا الأعمال تحدث فيها للناس
اشياء أفظع من ذلك بكثير .

رويدا رويدا بدأ يقتنع أنه ملاق من ذلك الآن فصاعدا متاعب
عظيمة في معاملاته مع السادة أوبر وهارون . فالالتهام الذي وجهه
اليه حموه اللعين قد يعنى نهاية علاقته بهم . لأنه ان أرقم على
تقديم دليل براءته القاطع (اجتماع مجلس ادارة شركة م.م.م .)
سينكشف أمره ، ويجرد من قناعه ومن ثيابه ، فيقف عاريا أمام
شركائه بوصفه المدير لكل الاعيب شركة م.م.م. المفروض انها
محايدة !

طيلة لياليه التي يخيم عليها الصمت في زنزانتة ، يقلب في رأسه
فكرة وراء فكرة ، حتى تعب رأسه . لكن أفكاره اتجهت من تلقاء
نفسها ، وبطريقة متزايدة ، ناحية كرستون . الا يستطيع أن يضع
كرستون تحت رحمته ؟ أو - على الاقل - يعقد تحالفا معه ؟
جنباً الى جنب مع كرستون تراءت له بولى ، كشيح يلازم ركن
زنزانتة . فأخذ يتأمل . اليس بوسعه ، رغم كل شيء ، أن يتوصل ،
من خلالها ، لتحويل الهزيمة الى نصر ؟ لم لا ؟
رويدا ، على مهل ، بدأ ذهنه يتفتق عن فكرة جديدة .

كانت بولى تصحبه دائما في رحلاته من السجن الى المحكمة . في
رحلة من تلك الرحلات والعربة المملوكة تدرج بهما في الشوارع التي
يتكاثف فيها الضباب ، ورجلان من رجال البوليس يجلسان
أمامهما ، كشف لها عما يجول في صدره . قال بمرارة :

- وأسوأ ما في الامر أن أوهارا بدأ يضرب عرض الحائط
بأوامري . رغم الحاحي المتواصل لم يقم باخلاء المخازن بعد . هل
تعرفين ما الذي يجول في ذهنه ؟

قالت ، وهى ترمقه بشيء من الخوف ، أنها لا تعرف . فقال وهو
يمعن النظر فى وجهها :

— الا تستطيعين أن تعرفى ؟

فجأة وهو ينظر إليها عاودته ذكرى يوم عاد معها من الرحلة
الخلوية ، وما فاجأته به من جراءة وأمها جالسة لصقهما . أمضته
الذكرى لانه تصورها وهى تفعل نفس الشيء مع أوهارا . وزاد من
انزعاجه انها لزممت الصمت فلم تجب عن سؤاله . كانت الشكوى
تتزايد فى صدره تجاهها . فى اخلاصها له . قال لنفسه هذه المرأة
عاهرة ؟ انها تعلم جيدا انى حرى بأن أقتلها . فهل يعقل أن تفعل
ذلك ؟ ثم قال لنفسه أيضا : يا رجل تعقل . انها لا تستطيع أن
تخونك لاسباب بيولوجية . لا تستطيع أن تدع رجلا آخر يقربها .
الاسباب البيولوجية هى أحسن الاسباب طرا . ثم انها بدأت تتلطف
معه كثيرا ، وتعامله برقة فائقة . كفت عن اذلاله بحكاية فانى كرايزلر
وتلك الرحلة الى السويد . لكنه كلف الاب بمراقبتها . ولو أن
ذلك لم يسبب له أدنى راحة . لانه لم يكن يثق فى الاب ، ولان الاب
قد يكون ضالعا مع أوهارا ، ولانهم كلهم قد يكونون متفقين عليه .
لكنه لا يستطيع أن يستغنى عن بولى وأوهارا الآن والمعركة الكبرى
توشك أن تبدأ وهو مضطر ان يدير العمليات ويوجه ضربة معلم
وراء ضربة معلم الى خصومه ، من وراء القضبان .

ما من شك فى انه فى موقف صعب . ومن الواضح انه مضطر الى
أن يزيع كافة الاعتبارات الشخصية جانبا حتى تتم أعماله على خير
وجه . انه مضطر مثلا الى استخدام بولى كأداة للتفرقة بين كرسون
وبنك الائتمان الاهلى . قبيل دخوله السجن شرح لها الخطوط
العريضة لما يجب عليها أن تفعله .

كان عليها أن تذهب الى ميللر فى بنك الائتمان الاهلى ، فتقدم
اليه تحيات أبيها ، ثم تتردد بارتباك كأنها لا تستطيع أن ترغم نفسها
على قول ما يجب ان تقوله ، ثم تجهش باكية ، وتسال العجوز أن
يأخذ بيدها ، فيخرجها من حيرتها ، ويخبرها بما يجب أن تفعله :
ففى المستقبل القريب سيقوم زوجها بسحب وديعة أبيها (وهى ،
كما يعرف مستر ميللر ، قيمة بائنتها) من بنك الائتمان الاهلى ،
ويستثمر المبلغ كله فى دكاينه حرف «ب» ، وأبوها سيزور البنك
خلال يوم أو يومين ليقدم تحياته بنفسه الى مستر ميللر ، ويعزز
له ذلك . وسيطلب منها ميللر اذ ذاك ، كما يغلب على الظن ، أن

تطلب من أبيها ألا يسمح لماKeith بسحب وديعته من البنك وعليها ،
إذا ما طلب العجوز إليها ذلك ، أن تقول له وهي تنتحب أن أباهما
المسكين واقع تحت رحمة زوجها الذي لا يرحم ، وخاضع لتأثيره ،
ثم تنصرف معولة .

وقد أبدت بولي استعدادا للقيام بما طلبه منها مس شغاف قلبه
فجعله يصارحها بالفرض من هذه الالاعيب . قال لها أنه يتوقع أن
يتصل به البنك اثر زيارتها الباكية لميلر . واذ ذلك يطلب منهم أن
يقطعوا كل علاقة لهم بكرستون وبهذه الطريقة يجد كرسون نفسه
في العراء ، عشية أسبوع المبيعات العظيم ، فيأتي اليه زاحفا على
بطنه ، أو سائرا على أربع . والحقيقة ان الطريقة الملهمة التي تحدث
بها ماك عن أعماله أثرت في نفس بولي تأثيرا عميقا . أدركت أنه عاقد
عزمه على أن ينجح في الحياة من أجلهما معا ، وقالت لنفسها :
« أنا زوجة غير سالحة . ها هو يعمل من أجلى وأنا لا أفعل شيئا .
ثم انى أنام مع كل رجل يقبل يدي ويجرنى الى الفراش . وحتى
إذا كان ذلك النوم سطحيا للغاية ولا دخل له بمشاعري العميقة ،
وباخلاصى ومحبتى ، وكان بين الحين والحين وليس كل يوم ، وبغير
مقابل لانى لا آخذ نقودا مقابله ، لانه يروق لى كثيرا ، خاصة مع
أوهارا ، وكأنه أمر لا يخص أحدا غيرى ولا يسىء الى أحد لأن
الرجال الذين أنام معهم لا ينتقصون من جسدى شيئا ، فانه أمر
لا يليق أن أفعله ، ولن ينقضى وقت طويل قبل أن يدرك الناس انى
امراة من هذا النوع لان وجهى سيمتلئ خطوطا ، وتصبح عندى
جيوب تحت عيني » .

قالت بولي كل ذلك لنفسها وذهبت محزونة ، وقد عقدت العزم
على أن تقطع صلتها بأوهارا الذى لم تكن تحس تجاهه فى حقيقة
الامر الا بانجذاب جسدى ، وهو انفصال تزايد احساسها بأنها
يجب أن تقدم عليه لان أوهارا بدأ يقول أشياء سيئة عن ماك ،
ويلمح بأنه يعد العدة للاستقلال عنه .

وقد أخبرته بكل ذلك فى نفس الليلة ، فى المطعم الذى كانا يلتقيان
فيه عادة ، فضحك واقترح عليها أن يتما أعمال اليوم فى البيت ،
لان هناك عدة طلبات تنتظر توقيعها ، ثم قال :

— عال . سنكف عن ذلك . أنت حرة تماما ، تقررين ما يتراءى
لك . ولا أحد يستطيع أن يرغمك على أن تفعلى شيئا لا ترغبين فى
القيام به . وأنا آخر رجل فى الوجود يرغم امراة على حبه بالقوة .

وعقيدتى أن حكاية الحب هذه يجب أن يدعها المرء تنتهى فورا عندما تشوبها أدنى شائبة تعكر صفوها . لكنك تستطيعين طبعاً أن تأتى كزمية في العمل لتقومى بما يجب عليك القيام به . لا تخافى . هل من المعقول إلا يستطيع شخصان ناضجان مثلنا أن يختليا في غرفة دون أن يسقط كل منهما فوق الآخر ؟ هناك عوامل نفسية وأخلاقية عديدة تجعل من الضرورى أن تكف عن الاتصال الجنسى . حسن . سنكف عن الاتصال الجنسى اذن . هذه مسألة بسيطة للغاية . وما دمننا سنفعل ذلك ، فأى شىء يجعلنا نلقى بالا الى الحمقى الذين يحيطون بنا وبشكوكهم البليدة وريبهم القذرة ؟ نحن حران تماما .

كان أوهارا بارعا في الكلام ، فوق أنه حصل على قسط من التعليم في المدارس الحكومية ، فذهبت معه وأتما ما كان لديهما من عمل ، ثم ناما معا ، لانه وان كانت هناك عوامل نفسية وأخلاقية ضد ذلك ، فان هناك أسبابا جنسية في جانبه . وعلى أية حال ، فان تلك المرة كانت الاخيرة التى ذاقت فيها ملذات الحب لامد طويل .

في صباح اليوم التالى ذهبت الخوخة لزيارة ميللر العجوز في بنك الائتمان الاهلى . بدت كالوردة النضرة المتفتحة ، وفى أحسن حالاتها . لم تكن تعاني من تأنيب الضمير بعد السقوط أبدا ، فذلك التأنيب كان يحدث لها قبل المتعة ، لا بعدها .

استقبلها ميللر في مكتبه الخاص ، فقدمت اليه تحيات أبيها ، وترددت بارتباك كأنها لا تستطيع أن ترغم نفسها على قول ما يجب قوله ، ثم أجهشت باكية ، وقالت كل ما طلب منها ماك أن تقوله . قالت وهى تنسج :

— ماك . انه طموح للغاية . يريد دائما أن يتفوق على الآخرين . ولهذا فانه يحتاج الى النقود ومزيد من النقود . فهو يمول العديد من الناس . تلك المرأة ماري سوير كان هو الذى يمولها . رافة بها . الدناءة وحدها هى التى جعلتها تشيع عنه تلك الاقاويل التى حاولت أن تلوثة بها . وليس بوسعى أن أمنعه من الحصول على الوديسة ان كان يريد بائنتى . فهو كريم للغاية .

كانت الصدمة التى تلقاها ميللر اقوى مما توقعت بونى . اصبح وجه العجوز رماديا عندما سمع ان حساب بيتشام يوشك ان يقفل . تلغثم متمتما بشىء ما عن هوثورن ثم هرع اليه فى الغرفة المجاورة .

انتظرته بولي ربع ساعة ، فلما لم يعد انصرفت .
في عصر ذلك اليوم ذاته ، كان القرن ونصف قرن جالسين في
زنزانة ماكهيث . استقبلهما في بذلة عادية ، وأمر باحضار مقاعد
لهما ، كما قدم لهما السيجار . لم تكن الزنزانة مقبضة أو أى شيء .
ولو أن السجادة الحمراء كانت قد رفعت منها ، لان صحفيا طويل
اللسان نشر مقالا عن صنوف الترف التي ينعم بها كبار التجار
عندما يذهبون الى السجن . جاء اثنان من رجال البوليس ، ولفا
السجادة معتدريين ، ثم حملها وذهبا . لكن صورة جلالة الملكة
ظلت مكانها على الحائط . فقد ظل براون كريما كعهده . في حدود
استطاعته . لم يتخلف ماكهيث يوما عن تسليمه حصته المثوية في
أرباح المنظمة ، وكان الرجل بطبعه ممن لا يجحدون الجميل . فوق
انه لم يكن سياسيا ، وكان من دأبه ان يحافظ على وعوده .

لهذا بات بوسع ماكهيث ان يقول لهوثورن العجوز وهو ينظر حوله
راضيا :

— بوسع المرء ان يظل حرا حتى بين جدران زنزانتة . الحرية
شيء روحى . كل من حازه مرة لا يمكن ان يفقده . هناك اناس لا
يعرفون طعم الحرية أبدا حتى خارج أسوار السجن . لكن المرء
قد يكبل جسده بالاعلال ولا تطاول الاعلال روحه . فأفكار المرء
تظل حرة .

رغم بلاغياته ، كان ماكهيث أول من تطرق الى موضوع العمل ،
فقال لزنزانيه وهو يذرع زنزانتة بخطا واثقة :

— الحقيقة ياسادتى أنى مندهش ، ومحرج بعض الشيء لزيارتكما
فتقلبات الدهر ، وأمواج الحياة ، فى صعودها وهبوطها ، قد فرقت
ما بيننا منذ أمد ليس ببعيد . فافتقرنا كزملاء يقولون : « لقد
قطعنا كل هذا الطريق معا . لكن سبلنا تفرق هنا . فلا تحزنوا
لذلك ، وليقل كل للاخر أورفوار ! » أما أنتما ، فذهبتما ،
فيما سمعت ، الى كرستون . واستدرت انا الى هارون . تصرف
كل منا تبعا لما تمليه مصالح العمل ، وقد وضع كل منا نصب عينيه
غاية واحدة لا غاية غيرها . خدمة الجمهور بأعلى قدر من الكفاية
هل أنا مصيب ؟

تنحنح ميلر ، والتقط هوثورن خيط الحديث صاغرا ، فقال
بصوت خافت :

— مستر ماكهيث . ان المامك بحقيقة ما حدث لما يشرفك .

كان كثيرون غيرك أحرىء بأن يسيثوا فهم دوافعنا ، عندما اتخذنا قرارنا بتمويل كرستون ، بعد تفكير طويل . فبنك الائتمان الاهلى ملك لطفلة مسكينة . ونحن مجرد ممثلين لها ، ولا نملك - كغيرنا ممن يملكون حرية الحركة - أن نتبع ما تمليه علينا ميولنا الشخصية . ولقد سمعنا مؤخرا أنك ترغب فى سحب مبالغ معينة عهد بها حموك الفاضل الى منشأتنا البنكية ؟

قال ماكهيث بنشاط :

- تماما . فأنا فى حاجة الى ذلك المال لاقوم ببعض عمليات تجارية فرضتها المنافسة على محلاتى فرضا .
تبادل هوثورن وميللر نظرة سريعة ، ثم قال هوثورن ، بصوت يكاد يكون همسا :

- أهى محلات كرستون التى ترغبك على القيام بهذه العمليات ؟
- ربما ..

- أوه . نحن آسفان لذلك أشد الاسف .
أوما ميللر برأسه تأمينا على ذلك الاسف .
فقال ماكهيث :

- أنا أصدقكما .

بوغت هوثورن قليلا ، ثم قال :

- أنت تدرك طبعا يامستر ماكهيث أنه من الطبيعى جدا فى عالم المال أن يبتلع القوى زميله الضعيف . فالامر كذلك فى عالم الطبيعة .
لا حاجة بى لأن أقول لك ذلك .
قال ماكهيث :

- كلا ، طبعا .

فاستطرد العجوز الكذوب قائلا :

- وأحب أن أقول لك أنك عندما استأنفت مفاوضاتك معنا منذ زمن قريب ، كنا على يقين من أن اللحظة التى يجب علينا فيها أن نقدم اليك مساعدتنا قد حلت أخيرا .
تهلل ماكهيث ، داخليا . قال لهما :

- أعرف . ومن فرط ايمانكما بذلك ضاعفتما جهودكما .
وضعتما فى مشروع كرستون ، بمنتهى السرعة ، كل ما كان لديكما من مال . بل وكل ما لم يكن لديكما أيضا .

سكت ماك . كان قد قال الكلمات الاخيرة عفو الخاطر ، بغير تفكير . وقد توقع الآن أن يحتج الرجلان . لكنه تبين بغتة ، لعظيم

دهشته أنه لا احتجاج هناك . ألقى نظرة واحدة على القرن ونصف قرن ، فعرف كل شيء . لقد أقدم الرجلان على السحب من حسابات المودعين ليمولا كرستون ! لم يتردد لحظة . استمر قائلاً بمرح :
- فكأنكما قامتما بقميصكما الآخر ، ان صح التعبير ، ولم تكتفيا بذلك ، لسوء الحظ ، فقامتما بقميص الآخرين أيضا ! هل أخطأت التعبير ؟

نكس هوثورن رأسه ، بينما أخذ ميلر يحدق في النافذة كالاعمى .
قال هوثورن متلعثما ، بصوت مبجوح :
- ماذا تريد ؟

قال ماكهيث بسعادة غامرة :
- كل شيء . أو كل شيء تقريبا . وهو - لذلك - ليس بالكثير .
ولكن مهلا ! سنرى ماذا يمكن عمله .

اختار على مهل ، وبناية فائقة ، سيجارا سمينا من الصندوق ، فقمض طرفه بأسنانه وبصقه ، ثم أخذ يلوك السيجار بين شفطيه الغليظتين ، وأشعله بعد ذلك . كانت تلك من أشد لحظات حياته نشوة . أخرج من فمه سحابة زرقاء كثيفة من الدخان ، ثم قال :
- عال ! لقد اختلستما أموال بيتشام المسكين اذن ! بكل سنواتكم المائة والخمسين وقعتما في هاوية الاختلاس ! وبأموال والد زوجتي تمكن كرستون من الصمود رغم أنه يبيع بضائعه بثمن أقل بكثير من الحد الاقتصادي . وكان المفروض أن يتمخض ذلك كله عن خراب عاجل يحل بهارون وبمحلات حرف « ب » . الامر اذن لا يخرج عن كونه سرقة ثم قتلا مع سبق الاصرار والترصد ! والناس يتأفون مما يرتكب في الشوارع من جرائم ! كل ما هنالك أن الامر في الشوارع يتم بالعكس : القتل أولا ثم سرقة الضحية بعد ذلك ! ثم ، اذا كان الخراب قد لحق بنا فعلا ، كنتم ستبتلعوننا ! اخص ! هذا مقرف ! تريد الحقيقة يا هوثورن ؟ حتى لو كانت الطبيعة كذلك ، فان هذا مقرف !

كرر هوثورن قوله ، وهو يحدج خصمه بعينين زرقاوين استردتا ثباتهما وصفاقتهما :
- ماذا تريد ؟

قال ماكهيث لنفسه هذان أول من اقابلهم من الناس الامناء . وربما كانا الوحيدين اللذين ظلا كذلك في العالم كله ! لانهما يقولان الحق على الاقل . قال لهما ببطء :

- اسمعا . كان بوسعي أن أخذ منكما الكثير ، لكنني بدلا من ذلك ،

قررت ان اعطيكما كل شيء . هكذا أنا . لا اريد ان اقضى عليكما بل ان اساعدكما . وتحقيقا لهذه الغاية يحسن بكما ان تعيناني في البنك ، مديرا للاستثمارات مثلا ! لكننا ، قبل أى شيء ، سنقوم بهذه الترتيبات : ستسحبان مساندتكما لكرستون ، لأنه الأضعف . هذا التبذير الجنونى البذير للبضائع يجب ان يتوقف . سوف نطالبه برد أموالنا حتى يحس بضعفه كما يجب . وقد يدرك اذذاك مدى حاجته الى يد قوية توجهه . هل هذا اقتراح معقول ؟

كان ميللر قد هم وأقفا ، بينما ظل هو ثورن جالسا ينظر اليه .لقى عليه ميللر نظرة قصيرة دهشة ، لكنه ظل جالسا . فتفصرت نتيجة لذلك أشياء كثيرة بالنسبة الى ميللر . بدأ يشيخ فجأة . نفوس ظهره وتساقطت أسنانه ، وابيض شعره ، وازداد حكمة . قال مغمظما :

- سيكون من صالح الشركة ان استقيل .

فقال ماك بسرعة :

- ليكن .

انصرف القرن ونصف قرن غارقين في الحزن ، بعد ان وعدا باعداد الأوراق اللازمة لادخال ماكهيث في بنك الائتمان الاهلى ، كما وعدا بايقاف التعامل مع كرسون .

توقع ماك بعد ذلك ان يأتيه كرسون زاحفا ، فانتظره يوما بعد يوم . لم يكن بوسع الرجل ان يقوم بعبء اسبوع المبيعات بغير عون من البنك ، فما من شك في ان المخزون لديه من بضائع قد نفذ أو كاد بعد المنافسة العنيفة التى استعر أوارها طيلة الاسابيع الماضية .

لكن كرسون لم يأت . فوق ان شركة م.م.م جاءت منها اخبار غير مطمئنة عن أحداث غامضة لا تسر . كانت الأنباء التى تصله عن أعماله وعصابته شحيحة للغاية ، وغير دقيقة في معظم الاحيان . ولم يكن أوهارا قد ظهر بعد . وقد ظل الجميع يتجاهلون أوامر ماكهيث فيما يبدو .

حتى بولى لم تستطع ان تخبره بشيء محدد . ظلت تتردد على المخازن ، لكنها ، حسبما قالته له لم تكتشف شيئا يذكر . قال لها أوهارا أنه يقوم بجرد البضائع المخزونة . وقد بدا أن ذلك الجرد لانهاى ، وأنه سيستمر الى الأبد ، لأنها كلما سألته ، تعلل به .

عندما ذهبت بولى مرة أخرى ، وقد لعب الفأر في عباها ، رأت بعينى رأسها صناديق ممتلئة بمختلف أنواع البضائع تحمل على

عربات . وقد كادت الجياد التي تجر العربات تدهمها في المر الضيق المظلم المفضى الى الافنية . لم يكن أوهارا موجودا ، وتلغثم جرونتش عندما رآها ، وبدا عليه الحرج البالغ . لم يستطع أن يقول لها من أين أنت تلك الصناديق ، والى أين كانت ذاهبة . عادت بولى الى البيت وقد تملكها غضب عارم . كانت قد قطعت صلتها بأوهارا من زمن قريب ، لأنها لم تعد تطبق مؤامراته ضد زوجها . في صباح اليوم التالي ذهبت الى ماك في سجنه وأخذت تسب أوهارا وتلعنه وهي تبكى قائلة أنه خائن وغير أمين وأنه يسرق البضائع ليبينها لحسابه سرا ، وأنه حاول أن يحصل منها على مفاتيح الخزائن التي يحتفظ فيها ماك بمعدات السطو لأنه ، فيما يبدو ، يريد أن يدير العصابة لحسابه ، ويقضى ماك عن رئاستها . فهدأ ماك من روعها ، وقال لها أن تذهب الى ميللر .

أحست بالفخر لأنه يآتمنها على عمله بهذه الطريقة ، ويكل اليها خطواته الهامة . ذهبت الى البنك وكأنها تمر صدفة ، وبينما ميللر يروى لها ما لديه من أخبار ، أخذت تتجول في الغرفة ، ممسكة بحقيبة يدها وراء ظهرها ، متفرجة على الصور المعلقة على الجدران .

علمت أن كرستون أصيب بهلع عندما أخبره البنك بإيقاف حسابيه لديهم ، لكنه أخذ يقول الآن أنه سيواصل المعركة بمفرده ، بغير حاجة الى عون من البنك ، ويبدو أنه تسلم مؤخرا عدة شحنات من بضائع زهيدة الثمن بصورة تثير الدهشة ، وأنه يأمل أن يحقق نجاحا كبيرا بفضلها في أسبوع المبيعات المقبل .

أزعجت تلك الأنباء ماكهيث كثيرا .

قامت بولى بزيارة ثانية للبنك ، فطلبت باسمه ، أن يقوم ميللر بمعاينة تلك البضائع الجديدة الزهيدة الثمن بنفسه في مخازن كرستون قبل أن يقدم على أية خطوة أخرى .

صحب ميللر في تلك المعاينة فاني كرايزلر التي قرر ماكهيث أن يفيد من خدماتها ثانية . وقد تعرفت فاني من فورها على مصدر تلك البضائع الجديدة المنخفضة الثمن التي كان كرستون يعزز بها موقفه . أدركت أن كل تلك البضائع جاءت من مخازن ماكهيث !

عندما جلست قبالة ماكهيث في الزنزانة ، لم تجرؤ على مصارحته بالحقيقة . ظلت تتهرب من الموضوع وتحدث في أي شيء آخر بأسهاب الى أن ضاق بها ماك فصاح في وجهها مفضبا . وقبل أن تنتهي من جملتها الاولى ، كان قد فهم كل شيء . أدرك أن أوهارا

وقع على طريقة مجزية للتخلص من البضائع ، واخلاء المخازن منها :
أخذ يزود الخصم بها .

جن جنون ماك . ولعله قطع عشرات الاميال رائحا آتيا بين جدران
زنزانتة كالوحش الحبيس . لكن اليوم التالي لتلك الثورة العارمة
لم يشهد أى اجراء حاسم أو غير حاسم ضد أوهارا .
قالت فاني لجروتش معلقة على ذلك :

— لقد عاد الى تردده القديم . مما يؤسف له أنه متقلب المزاج
بهذا الشكل . عندما يخيب أمله في أحد أو في شيء تطيش اللطمة
صوابه ، فيظل أسابيع بأكملها متخيطا ، لا يستطيع أن يرى بوضوح ،
مستسلما بكليته لاحساسه بالمرارة وخيبة الامل . لكنه بعد ذلك
يثوب الى رشده تدريجيا ويعود الى رسم خطته .
فقال جروتش متشككا :

— تظنين حقا أن لديه خطة ؟ خطة حقيقية ، لا مجرد مشروعات
هوائية ؟ أحيانا أخشى أن تخذله أفكاره فى لحظة حرجة ، فيضيع
تماما ، ويضيعنا معه .
قالت فاني بهدوء :
— يجب أن تؤمن به .

لكن تسليم البضائع الى العدو خلسة من مخازن العصابة استمر
دون أن يعترض طريق أوهارا أحد . ولم يفعل ماكهيث شيئا ليوقفه
وبدلا من أن يتصدى لحيات أوهارا ، اجتمع بالمحاميين الشريكين فى
شركة م.م.م ، وفانى فأصدر اليهم أوامره بالتنفيذ العاجل للقرار
الذى اتخذ يوم ٢٠ سبتمبر بتحصيل الديون المستحقة على دكاكين
حرف «ب» . بدا واضحا أن الذهن اللماح قد تفتق عن فكرة جديدة
فعلا .

كان يحاول أن يجمع كل ما يمكن جمعه من مال سائل . وقد
ساعدته فاني على تحقيق ذلك بالعمل المتواصل فى مكاتب شركة
م.م.م ، إذ أدركت — رغم ميولها الخيرية ونفورها من الحاق الخراب
بأصحاب الدكاكين — أن المسألة باتت الآن مسألة بقاء أو فناء .
فساعدت ماك بكل قواها (بصرف النظر عن مبادئها) على اقتصار
كل درهم أمكن احتلابه من أصحاب الدكاكين . ولم تتبين ما فعله ماك
بتلك النقود الا فيما بعد .

قررت ذات مساء (رغم ما كانت تحسه من تعب فى الايام الاخيرة ،
بسبب العمل المتواصل) أن تزور دكان العاديات فى طريق عودتها

الى البيت . وجدت الدكان مضاء ، مفتوحة أبوابه ، رغم أن موعد الإغلاق كان قد مضى منذ وقت طويل . دخلت مسرعة فوجدت في الدكان عددا من الرجال ، بينهم ريجر ، أحد المحامين الشريكين في شركة م.م.م ، وكاتب الحسابات الذي يعمل في خدمتها يطلعه على الدفاتر .

قال لها ريجر ياقتضاب أن مستر ماكهيث قرر أن يبيع الدكان ، وأبدى دهشته لجهلها الأمر . فأصيبت فاني بنوبة هستيرية ، حقيقية لا افتعال فيها .

والحقيقة أن ماك نسي فعلا أن يخبرها ، فلم يخف الأمر عنهما عمدا . كانت ثقته بها مطلقة ، الى حد أنه كان حريا بأن يخبرها - دون تردد - أنه في حاجة الى النقود المستثمرة في دكانها الذي كان أتمن ما لديه من احتياطي . لكنه - لسوء الحظ - كان قد قضى كل بعد الظهر معها في زنزانته ، ولم يقل لها كلمة واحدة عن تلك الخطوة التي أساءت اليها كثيرا .

ذهبت فاني الى البيت وهي تتميز غيظا . وعندما مرت أيام بطولها دون أن تزوره رغم الترتيبات السابقة المتفق عليها بينهما ، كتب اليها ماكهيث خطابا جافا أمر اللهجة . وقد خمن سبب استيائها منه ، لكنه لم يفكر في الاعتذار لها . كانت لديه هموم أخرى أكبر من مشكلة فاني ، وقد يجديها أن تذكر بعد كل شيء أنها ما زالت مستخدمة عنده .

كان ماكهيث غارقا في تلك الأيام ، حتى أذنيه ، في نشاط محموم ، رغم أن قيودا جديدة كانت قد فرضت على حريته مؤخرا . فقد تقاطر على السجن أناس عديدون يطلبون مقابلته ، فلما قابلهم لم يستطع أن يتبين سببا لزيارة أى منهم . لكنه أدرك السبب عندما نشرت مجلة العاكس مقالا من نار تضمن احصائية دقيقة عن عدد زائريه في السجن ، مما اضطر براون الى تحديد عدد من يسمح لهم بمقابلته . وقد أثبتت تلك الحركة الاخيرة لماكهيث أن مستر بيتشام ما زال يسعى في أعقابه ، وأنه ما زال ، بين الحين والحين ، يلعب بذيله . لكن أعمال ماك في تلك الآونة لم تكن تحتل التعطيل أو الحد من حريته في مقابلة من يشاء . ولذلك فانه أصيب بالآلام الاسنان فجأة ، وسمح له براون بالتردد على طبيب أسنان . كان للعيادة بابان ، يراقب البوليس أحدهما ، كما يجلس بعض مخبريه في غرفة الانتظار . لكن الباب الخلفي لم يكن يراقبه أحد ، وهكذا تمكن ماكهيث من

مقابلة عدد كبير من الناس كان من الحيوى بالنسبة اليه أن يقابلهم .
جلس ماك في مقعد طبيب الاسنان ، تحوطه معدات ومثاقيب
عديدة ، واضعا المنشفة الصغيرة على صدره ، (خشية أن يطل أحد
برأسه داخل الفرفة) ، وأخذ يجري مفاوضاته مع نساء وبنات
كثيرات كن يتسمن ابتسامات واسعة .

حضرت بولى كل تلك المقابلات ، فجلست الى منضدة في غرفة
الكشف بينما انهمك الطبيب فى تناول افطاره ، واخذت تسجل فى
دفتر صغير معها اسماء النساء والفتيات ، والمبالغ التى يحصلن عليها ،
ثم تصرفها لهن من حقيبة جلدية كانت قد اتت بها معها . كانت تلك
الحقيبة ممتلئة بالنقود التى جمعها جيش من المحضرين من أصحاب
دكاكين حرف «ب» المعسرين .

وقعت كل امرأة وفتاة ايصالا بالمبلغ الذى حصلت عليه قبل ان
تنصرف ، وقد انصرفن كلهن مغرقات فى الضحك ، تبدو عليهن
علامات الحبور . وضحكت بولى أيضا . فقد كان الامر مضحكا
للغاية .

ظهرت مجلة العاكس فى اليوم التالى وفى صدر صفحتها الاولى
مانشيت ضخمة يقول « حيوانات القرش فى حى المال والاعمال تعالج
أنيابها » . لكن كل ما يجب أن يفعل كان قد تم فعله . وأحس ماك
بالرضا الكامل .

بعث بعد ذلك فى طلب جروتش ، فجلسا معا يدخان السيجار ،
وسأله - بحضور طبيب الاسنان أيضا - عن عدد من بدعوا يضيقون
من رجال العصابة ، فى رأيه ، بحالة العمل ، قائلا أنه يفكر فى أن
يهيئ لهم تغييرا قد يروق لهم . قال انه فى حاجة الى عدد كبير من
الناس - يحسن أن يكون بينهم عدد من النساء والفتيات ان أمكن -
ليقوموا بالشراء لحسابه ، على نطاق واسع ، من مكان معين ، فى
يوم معين ، وأن كافة التفاصيل ستوضح فيما بعد ، وأن كل من
يتطوع للقيام بذلك العمل الذى لا يكلف شيئا ، يستطيع أن يعتمد
على ماك فى الحصول على دكانة حرف « ب » فيما بعد ، بشروط
مجزية للغاية . وقال أيضا أن شركة م.م.م ستتعامل من الان فصاعدا
فى عدد محدود من الطلبيات ، ولذلك سترفض أن تدخل مخازنها
اية بضائع مشكوك فى مصدرها ، وأن الدكاكين ، فى عهدنا الجديد ،
ينتظرها مستقبل باهر ، وتعتبر وسيلة ممتازة لبدء حياة جديدة ،
محترمة ونافعة ، وأنه سيكون من دواعى سعادته أن يساعد عددا

من الناس الأكفاء (لانه لا يهمه من ليسوا كذلك) على امتهان مهنة شريفة ومفيدة للمجتمع كهذه . ثم ألقى بعد ذلك خطبة مطولة ادهشت جروتش كثيرا . قال :

- جروتش . أنت لص قديم . مهنتك السطو والسرقه . ولن يخطر لى ببال أن ادعى أن مهنتك هذه قد عفى عليها الزمان ، لان ذلك سيكون تطرفا ليس له ما يبرره . كل ما هنالك يا جروتش يا صاح أن هذه المهنة العريقة قد بدأت تتخلف عن العصر . فأنت صانع ، مجرد « فواعلى » ، لا أكثر . وتلك فئة من الناس تتدهور مكانتها من يوم الى يوم ، ولا يستطيع أحد أن يكابر في ذلك . فأيهما أحسن : « طفاشة » لفتح الاقفال أم سهم في احدى الشركات ؟ وهل يقاس السطو على بنك ما بافتتاح بنك ؟ وأى وزن لقتل انسان ما يا عزيزى جروتش اذا قيس باستخدام ذلك الانسان ؟ خذ مثلا على ذلك : منذ بضع سنين سرقنا شارعا بأكمله كان مرصوفا بكتل خشبية ، فاقتلعنا تلك الكتل الخشبية من الارض ، وحملناها على عربات ، ثم ذهبنا بها . وتصورنا في ذلك الوقت أننا قمنا بعملية رائعة لا مثيل لها ، بينما كنا ، في حقيقة الامر ، قد تكبدنا مشاق لا داعى لها ، وتعرضنا لأخطار لم يكن هناك ما يبررها . فبعد تلك الخبطة بوقت قصير سمعت أنه ما على المرء الا أن يعمل في المجلس البلدى لكى يوزع العقود بنفسه على من شاء ، وقت شاء . وبذلك يحصل المرء على العقد الخاص بهذا الشارع أو ذاك ، أو حتى بهذا الحى أو ذاك بأكمله، ويضمن بذلك أرباحا مجزية لعدة سنوات مقبلة دون أن يتحمل أية مخاطرة . وفي مرة أخرى بعث بيتا لم اكن أملكه . وضعت على بابه لافتة مكتوب عليها للبيع ، اتصل بعنوان كذا وكذا . أعمال صبيانية ! كان ذلك عملا غير أخلاقى بالمره ، تعرف لم ؟ لانه قام - بغير داع - على اجراءات غير قانونية ، بينما يستطيع المرء - فى ظل القانون ، وهو متمتع بكامل احترامه وراحة باله - أن يقيم عددا من البيوت الآيلة للسقوط ، بمواد مفشوشة لا تكلفه شيئا ، ويبيعه بالتقسيط ، ثم ينتظر الى أن يعجز مشتروها عن سداد بقية الاقساط ، فيستردها ، ويبيعه من جديد ، مستطيعا - متى أحسن اختيار المشترين - أن يعيد بيعها مرة بعد مرة ، دون أن يكون للبوليس أدنى حق فى أن يزج فى الامر بأنفه ! خذ نشاطنا الحالى مثلا ! نحن نسطو على محلات ومخازن تجارية لنسرق ما بها من بضائع ونبيعه فى دكاكيننا . لماذا ؟ أى شيء يضطرنا الى ذلك ؟

ما علينا الا ان نتقدم فنشترى تلك البضائع ببخس الثمن كلما افلس محل من تلك المحلات ، فنحصل على ما نحتاجه من بضائع بطريقة قانونية لا تشوبها شائبة ، وبتكلفة اقل كثيرا من تكاليف السطو ! فاذا كنت مصرا - فيما بينك وبين نفسك ، لاسباب عاطفية بحتة - على متعة السرقة ، يمكنك ان تقر عينا وتستمتع الاستمتاع كله ، لانك - بهذه الطريقة - تكون كأنك سرقت تلك البضائع سرقة ! فتلك

البضائع التي تحصل عليها من الدكاكين المفلسة تكون قد انتزعت من أصحابها الذين قتلوا انفسهم جدا واجتهادا في سبيلها لانهم صدقوا ما قيل لهم : اعملوا لتعيشوا ! في هذه الايام المجيدة يجب على المرء العاقل ان يعمل داخل حدود القانون . وذلك - في اعتقادي - مصدر متعة اعظم . السرقة القديمة أصبحت عبث أطفال متى قيست بالسرقة الحديثة . هل هناك مجال للمقارنة بين وسائلنا العتيقة ووسائل شركة م.م.م العصرية ؟ في هذا العصر يستخدم المرء وسائل سليمة مهذبة . لأن القوة الفاشمة لم تعد سمة العصر . ما حاجتنا الى استخدام القتل ما دمنا نستطيع استخدام المحضرين ؟ يجب ان نبني يا جروتش ، لا ان نهدم ، يجب ان نبني في سبيل الربح والرخاء . جلس مسبل الجفنين يرقب جروتش من تحت جفنيه . كان يأمل في استرضاء فاني من خلال عشيقها ، بعقد صلح معه . استترد قائلا .

- لهذا خطر لي انه قد يكون من الأوفق ان اوقف نشاط المشتريات القديم في المنظمة وأستغنى عن خدمات القائمين به ، بما فيهم أنت . لكنه قد يكون من الممكن تجنب ذلك الاجراء الاخير . كم من المستخدمين في تقديرك يستطيعون ان يدبروا المال الكافي لشراء بعض دكاكين حرف « ب » التي ستخلو قريبا ؟ يمكنك ان تعد لي قائمة بهم . وبهذه الطريقة لا أقطع صلتى بهؤلاء الأولاد الطيبين . لا حاجة بي الى القائمين في عرض الطريق . يمكنك ان تسأل فاني عن يمكن الاعتماد عليه من بينهم . فهي دائمة الاهتمام بما فيه خيرهم . لكنك يجب ان تدرك يا جروتش اني أقلب صفحة جديدة في حياتي . ولقد وضعت عيني عليك لانك رجل كفاء . لان هناك أناسا غيرك لا يريدون ان يفهموا روح العصر ، ولذلك فان عجلة التقدم سوف تسحقهم عما قريب . أصفى جروتش لكل ذلك بصبر وأناة ، محاولا ان يفهم روح العصر لئلا تسحقه عجلة التقدم . ثم غمغم شيئا بخصوص أوهارا ، فقال ماك أسفا :

— أوهارا؟ انه لا يفكر الا في النساء . واني على يقين من أن الفواتير الخاصة ببنائه ليست معدة كما ينبغي . واحساسى أن البوليس سيبدأ في الاهتمام به ، وتضييق الخناق عليه . ترى ما الذى سيستطيع أن يفعله ؟

. وهكذا توصل الى تفاهم كامل مع جروتش . فتكفل جروتش خلال السنوات القليلة التالية بشراء البضائع اللازمة لمحلات جنوب لندن ، بقدر عظيم من الامانة والكفاءة .

أسبوع مبيعات كرستون

افتتح كرستون أسبوع مبيعاته العظيم ، ذات يوم مشمس من أيام الخريف ، على أساس الاسعار الموحدة . منذ الساعة صباحا ، قبل موعد الافتتاح بساعتين ، تجمعت حشود ضخمة من الناس أمام الابواب المغلقة . ولم يكن فى ذلك ما يلفت النظر ، اللهم الا الزيادة الملحوظة فى عدد الرجال بين المتجهرين .

كان السيدان هوثورن وميلر قد تنازلا بحضور الافتتاح الكبير ، ممثلين لبنك الائتمان الاهلى ، فوقفا وراء نوافذ المكتب الرئيسى المؤثت بأفخر الاثاث ، يرقبان الجمهور ، بصحبة مستر كرستون بقامته الطويلة ، النحيلة ، التى تنم عن صلابة غير عادية . كان العجوزان من القلق والتوجس فى حال . أما مستر كرستون فكان فى هدوء الماء البارد . كان قد أتم كل استعداداته بنجاح ، وبعناية فائقة ، فقضى مستخدموه معظم الليل يغيرون أسعار المعروضات الى الوحدات الأربع التى سيتم البيع بها . تبعا لفكرة ماكهيث التى سرقها القرن ونصف قرن منه . وفى تمام التاسعة فتحت الابواب ، وتدفق الجمهور داخلا .

منذ اللحظة الاولى وقعت فى محلات كرستون أشياء غريبة للغاية، ومزعجة . تصرف الجمهور بطريقة لم يسبق لها مثيل . فلم تكسد الجحافل المنتظرة بالخارج تفتح الابواب لها حتى انطلقت معريدة فى الشراء كأنما بها مس . لم يعن أحد بأن ينتقى ، أو يقلب ، أو يختار . بدأ الشراء طوفانا فى الاقسام المواجهة للابواب حتى أتى على كل ما بها من سلع معروضة فانتشر فيما وراءها . كان المشترون يجرفون البضائع جرفا ، فيأخذون أكواما من سلع متماثلة ، يحشون بها

حقائب بل واجولة كانوا يحملونها ، ويدفعون ثمن ما اشتروه بنقود معدنية من فئات كبيرة نسييا ثم ينصرفون بسرعة ، ليعودوا بعد دقائق بحقائب وأجولة فارغة ، ويبدءون فى الشراء من جديد .

وقف كرستون يشهد كل ذلك ويحاول أن يفهم ما يجرى فى منشأته . أدرك طبعاً أن هؤلاء الناس ليسوا مشترين عاديين . فلم يكن أى واحد منهم يسلك سلوك المشتري المتشكك الذى يقرب ويختار ويتردد طيلة ساعات بأكملها قبل أن يقرر قراره على شىء يشتره ، اذا اشترى أصلاً . هؤلاء الناس كانوا يستخدمون مرافقهم واكتافهم ، ويتزاحمون ، ويزيحون من عداهم بوحشية بعيداً عن البضائع المعروضة ، ويخلقون عموماً جواً من الارهاب .

أسقط فى يد البائعين ، الذين كانوا يشاركون لأول مرة فى الأرباح، قوقوفاً يتصببون عرقاً وهم يواجهون ذلك الجيش العرمرم من المشترين الذين بدوا كما لو كانوا قد أصابهم سعار . انتزعت البضائع من أيديهم عنوة فألقيت فى الحقائب والركائب ، وانصبت اللعنات والشتائم على رؤوسهم . لم يظهر المشترى أى قدر من التمهل وضبط النفس الا أمام الخزائن حيث أخذوا يسددون قيمة ما اشتروه . أصر كل واحد منهم على أن يحصل على إيصال رسمى مختوم يفيد سداد الثمن ويبين أنواع السلع وعددها .

استدعى كرستون رجال البوليس . فجاءوا ورأوا بأنفسهم مدى اقبال الجمهور على الشراء ، وتأكدوا من ازدياد الطلب . وتعرفوا أيضاً بين السادة المشترين على عدد من المجرمين الخطيرين والعناصر غير المرغوب فيها . لكن الموقف لم يسمح لهم بالتدخل . فأى منطق يجيز أن يستخدموا هراواتهم فى منع الجمهور المتعطش الى الشراء

من مزاوله حقه فى الشراء نقداً ؟

اذذاك لم يجد كرستون ، الذى قام بجولة فى بقية محلاته وتأكد من أن الموقف فيها يزداد سوءاً ، بدا من اصدار أمره باغلاق الابواب فى وجه ذلك القطيع الجشع . ظلت الابواب مغلقة بضع ساعات ، وحشود جديدة تتجمع مدممة . فلما بدأ بعض الصحفيين يتوافدون سائلين عن السبب فى ذلك الموقف الغريب ، اضطر كرستون أن يأمر بفتح الابواب ثانية وهو صاغر .

جلست بولى برفقة جروتش فى حانة صغيرة طوال ذلك اليوم ، من مطلع النهار حتى وقت متأخر فى المساء ، وأخذوا يتسلمان الايصالات المختومة التى اشترت البضائع بموجبها . تكذبت أمامهما

كميات رهيبة منها .
ولفرط غيظه قرأ كركستون في صحف المساء أنباء النجاح الساحق
الذي حققه أسبوع مبيعاته في يومه الاول ، وكيف أن الجمهور اشترى
كل المخزون في محلاته من بضائع في يوم واحد لا أكثر .
بدأت تلك المحلات في نهاية ذلك اليوم كما لو كانت قد اجتاحتها
اعصار . سحابة هائلة من الجراد بالغ الشراهة مرت من هنا وأتت
على كل شيء . لم يستطع مستر كركستون أن يفهم تلك الظاهرة .
قرب المساء ، بينما سيل لا ينقطع من عربات اليد وعربات النقل
يأخذ طريقه ، محملا بتلال من البضائع ، الى مخازن معينة في ميدان
لوور بلاكسميث ، كان مستر ماكهيث يستقبل مستر أوهارا في
مخزانه ويقول له :

— أهلا بك . أنا مسرور منك يا أوهارا يا صاحبي ، لأنى أقدر روح
التفرد والمبادأة . كانت فكرة رائعة من جانبك أن تعرض تلك البضائع
التي لم تكن نجد لها مشتريا على كركستون . لم تكن لنقدر على بيعها
بغير فواتير . والان حصلنا على تلك الفواتير بفضل براعتك ، لأنى
كما تعلم اشتريت كل ما بعته أنت من وراء ظهرى لكركستون . أين
النقود التي بعته البضائع بها ؟

الجم أوهارا وأسقط في يده . لم يجد نفعا في أية مراوغة . كان
قد تسلم كمبيالات من كركستون بقيمة البضائع ، سلمها لماكهيث
بلا ادنى تردد . ولم يكن كركستون قد طلب أية فواتير تغطي ما اشتراه .
لم يحاول أوهارا أن يقدم تفسيرات لموقفه . كل ما استطاع
قوله أنه لا غنى له عن ماكهيث كما أن ماكهيث لا غنى له عنه ، وأنه من
قبيل الصدفة وحدها أن سبقه ماك الى ذكر تلك البضائع التي بيعت
لكركستون ، لأنه كان ينوى أن يخبره من تلقاء نفسه . وليس هناك
من يستطيع أن يشكك في ولائه . لأنه يكون من الفظاعة بمكان أن يشك
فيه أحد ، أو يحاول التشكيك في اخلاصه . يكون فظيحا بحق .
عندما انصرف أوهارا بعد أن تركه ماك جالسا في صمت مطبق ،
أرسل هذا الاخير في طلب كبير المفتشين براون ، فلما جاء براون
جلسا يدخنان ويشربان الخمر معا . جلس ماك على الاريقة ، يعبت
بقدمه في السجادة التي أعيدت الى غرفته ، وكأنه يجد صعوبة في قول
ما عنده ، لكنه ما لبث أن قال :

— براون . هل تذكر ماقلت لى في العام الماضى عندما كنا نتحدث
عن خبطة ليفربول ؟ قلت أنك سترشدنى الى الطريق المستقيم .

ولقد أدركت الان ما كنت تعنيه بقولك . وأدركت أنك كنت على حق . يجب أن اقطع كل صلة لى بماضى المشين . ذلك أمر بدأ يتضح لى بصورة متزايدة . عندما ينتابنى أرق فى الليل اظل اتقلب فى فراشى وأفكر فى كلماتك ، وأقاوم ضعفى وردائلى العديدة .
توقف عن الكلام متظاهرا بأن عواطفه قد غلبته . فنظر اليه براون بانزعاج ، متوقعا الأسوأ وقال له :
- مهلا . مهلا . لا تنس أنى ساعدتك ماليا بما فيه الكفاية . ولم ترد الى ما أقرضتك اياه بعد .

فقال ماك متألما :

- والله افضل لو استبعدنا الكلام عن النقود فى لحظة كهذه .
فوق ان مالك فى امان . أقسم لك بشرقى !

قال براون مفضبا :

- اسمع ياماك ! يجب أن تكف عن الهذر فى مسائل كهذه .
فاستطرد ماكهيث قائلا ، دون أن تطرف له عين :
- ما زلت أذكر الكلمات التى استخدمتها بوضوح ، كما لو كنت قد قلتها لى بالأمس فقط . قلت لى : ياماك يا صديقى ، يجب عليك أن تتخلص من ذلك الثعبان اوهارا . يجب عليك أن تجد لنفسك بيئة جديدة نظيفة ، ورفاقا نظافا جددا . وقلت أنك ستمنحنى مهلة كافية لكى أنفذ ما نصحتنى به . وقد آن اليوم الأوان لكى أفعّل ما أمرتنى به .

نظر الى براون قائلا :

- فى الآونة الاخيرة حدثت اشياء لا يمكن السكوت عليها فى جهاز المشتريات التابع لى ، وكل الشبهات تتجه الى رجل يعمل فى خدمتى اسمه اوهارا . هل تعرفه ؟

- هل غدر بك أحدهم ؟

- كلا ، كلا . على الأقل ، ليس بطريقة مباشرة . لكن هناك شيئا مريبيا للغاية فيما يتعلق بالبضائع التى كان سيجرى تسليمها الى محلاتى ومحلات هارون . يبدو أن كل الفواتير الخاصة بها ليست متوفرة . يجب على أن أجرى تحقيقا دقيقا فى الأمر ، والا طلب هارون اجراء مثل ذلك التحقيق ، واذاك يتناولنى التحقيق انا . هل اتضح لك الصورة الان ؟

- نعم ، تماما . ولكن اوهارا هذا ليس سهلا . أنت لا تتوقع طبعا ان يدعك فى حالك بعد القبض عليه ؟ سيفتح فمه الكبير بطبيعة

الحال ، ويشترئ .
- ربما . وربما تركنى فى حالى . كل ما فى مخازنى من بضائع
مغطى بالقواتير تغطية كاملة .
فقمم براون قائلا :
- آه ، كذا ؟
قال ماكهيت ، متنفسا الصعداء :
- كذا !
فسأله براون :
- وما الذى يجب على ان افعله .
- أبدا . قد تستطيع ان تنبش فى ماضى أوهارا قليلا . وقد تعثر
اذاك على شىء يهم البوليس عنه ، شىء يمكن ان يثار ، أو أن يصرف
النظر عنه ، رهنا بمدى تعقله .
قال براون متفكرا :
- نعم . أظن ذلك ممكنا . أنا أيضا لا أحب الخونة كما تعلم .
فأضاف ماك :
- لا ، وأخلاقه ! أخلاقه الشخصية تثير الاشمئزاز . دائما يجرى
وراء النساء . لقد أبقيت عليه حتى الان لانه كان ناقعا فى بعض
النواحى ، لكنى الان قد فرغ صبرى .
جلسا بعد ذلك يدخان معا ويفكران . ثم نهض براون فاستأذن
وانصرف . أما ماك فأوى الى فراشه على مهل ، مستغرقا فى التفكير .
لم يكن مستريحا بعد .

(١٢)

« لا دخان بغير نار »

(حكمة قديمة)

هل يحمل مستر ماكهيث وزر المرحومة ماري سوير ؟

كل تلك الضجة حول موت ماري سوير بدأت تثير أعصاب مستر ماكهيث بطريقة متزايدة .

قام الرجل والى ، محامى بيتشام ، بدعوة كل أصحاب محلات حرف « ب » الى اجتماع عقد فى غرفة خلفية بمطعم من مطاعم الدرجة الرابعة ، فأخذ الجميع خلاله يدبرون مختلف الخطط الدنيئة معا ليلحقوا ما استطاعوا من أذى بماك المسكين .

كانت القضية قد ألفت أضواء دعائية كثيرة على حالة دكاكين حرف « ب » . وقد دعا المحامى السمين الى تكوين نقابة تضم تجار التجزئة ممن لحقتهم أضرار على أيدي الكبار . وعلى سبيل التهيج ،

قال للمجتمعين ان القاتل ماكهيث الذى شردهم وجوع أطفالهم يستمتع بضيافة الحكومة فى غرفة كغرف الامراء تغطى أرضها السجاجيد العجمية .

وهنا احتد رجل نحيل صانع أحذية معروق ومسلول وقال انه مستعد للشهادة بما كان يربط القاتل من علاقة غير عادية بالمرأة القتيل ، وطالب ، بانفعال شديد أن بجرى تحقيق دقيق يكشف عن المخازى القائمة على قدم وساق بين أرباب الاعمال جميعا ومستخدماتهم الحسنאות ، مؤكدا ان مثل ذلك التحقيق حرى بأن يكشف عن اساءة فاحشة فى استخدام السلطة ! لكن بعض المستنيرين من السادة الحضور نصحوا بالاعتدال خشية ما قد يتمخض عنه التطرف من عواقب وخيمة . كما اقترحت سيدة عجوز تأجيل كافة التسويات مع ماكهيث الى أن يصدر حكم فى قضيته - فقد يشنق - وقد يجعلوه

يتحمل ايجارات شهر اكتوبر . لكن تلك السيدة لم تجد مؤيدا
لاقتراحها سوى سيد عجوز آخر قال والله فكرة ، وبهذه الطريقة
نجعل مستر ماكهيث يحس أننا فقدنا كل ثقتنا به !
لكن ممثلي الجانب الاكثر استنارة كسبوا ، في النهاية ، المعركة ،
رغم التشتت المعهود للآراء في مثل تلك المشاورات . وبذا اتخذ قرار
بتنحية الاعتبارات الاقتصادية في الموضوع جانبا ، واستبعادها من
المناقشة ، لأنها لا دخل لها في الامر ، ولان مناقشتها ستسيء الى
المنطلق الاخلاقي البحت الذي يصدر عنه السادة الحضور . وقد
اتخذ ذلك القرار باجماع الآراء ، حتى رأى تلك السيدة العجوز التي
نصحت بالتريث الى أن يشنق ماك .

وهكذا فان الاعتبارات الاقتصادية لم يرد لها ذكر - كما هي
العادة - لان الفقراء يحبون دائما أن ينظروا الى مسببات فناءهم
نظرة بالغة السمو فلا ينزلون الى مستوى اقتصادى وطىء . وبناء
عليه فانه تقرر أن يحتج المجتمعون احتجاجا شديدا على الموقف
الاعزل الذي يجد فيه تاجر التجزئة الصغير نفسه وأن يطالبوا ،
بالحاح ، بادانة المجرم وتوقيع أقصى العقاب عليه « بصرف النظر
عن طبقتة ومكانته الاجتماعية » .

ورغم كل شيء ، كانت نتائج ذلك الاجتماع الساذج سيئة بالنسبة
لمستر ماكهيث ، لان شعور العداة تجاهه تزايد . فوق أن صور
الاطفال الذين يعيشون على الكفاف في الحجرات الخلفية للدكاكين
حرف « ب » بدأت تظهر في الصحف - بغير رتوش . كما أقدمت
صحيفة على نشر صورة للافتة التي كانت ماري سوير تضعها في
واجهة دكانها ، معلنة أن هذه الدكانة تديرها زوجة جندي .

ولقد تفوق بيتشام في الحقيقة على نفسه عندما أقام شحاذا تعس
الشكل بشكل لا يصدق أمام كل دكان من دكاكين حرف « ب » وقد
وضع على صدره لافتة تقول : « أنت اذا اشتريت هنا ، فانما تشتري
من دكاني » . ولم يفعل أصحاب الدكاكين حيل تلك الالعوبة شيئا ،
فوق أن الصحف التقطت صوراً لها .

اهتمت الصحف - في واقع الامر - اهتماما غير مألوف بميتة امرأة
كماري سوير . لم يكذب يخلو مانشيت واحد من المانشيتات اليومية
الضخمة من هذا السؤال ، بألف صيغة وصيغة : « هل ماكهيث
مسئول عن موت ماري سوير ؟ »
وبالإضافة الى كل هذه الدعاية المعاكسة ، وروح العداة المتزايدة،

كان ماكهيت مفلول اليدين : فعليه أن ينقذ عنقه من حبل المشنقة ، ويهزم مستر بيتشام الذى يدفعه نحو تلك المشنقة دفعا حثيثا : دون أن يكشف عن دليل براءته الحاسم والحقيقى . ولذلك فإن الامر كله توقف على مدى قابلية القول بأن مارى سوير انتحرت للتصديق . على الجبهات الاخرى حقق انتصارات مرموقة . جعل القرن ونصف قرن يركعان امامه ، و احيانا يسيرون على أربع ، ووضع يده على ادلة دامغة تلقى بمستر كرستون فى غيابات السجون ، فتريح الدنيا من شره . لكن اجراءات تعيينه مديرا فى بنك الائتمان الاهلى تعثرت بعض الشيء ، ولم يكن بوسعها أن يستخدم تلك الادلة الدامغة ضد كرستون الا بعد أن يصبح عضوا فى مجلس ادارة البنك . جبهة حرف « ب » وحدها هى التى ظلت أرضها حافلة بالالغام . فالسبيل الوحيد لاثبات براءته هو اثبات انتحار مارى سوير ، لكن انتحار مارى سوير ما معناه ؟ معناه أن حالة أصحاب دكاكين حرف « ب » لا خلاص منها الا بالانتحار .

فى الليلة السابقة لجلسة قاضى الاحالة جاءه براون محزونا فى زنرانتة وأخبره أن الرجلين اللذين شاهدا مارى سوير متجهة الى حافة الماء وحدها قد اختفيا فجأة ، كأنما انشقت الارض وابتلعتهما . قال لاشك فى أن أحدا أخفاهما ، وأن ذلك المحامى البدين والى قال له مازحا لعلهما كذبا على البوليس فى أول الامر فلما جد الجد آثرا الاختفاء حتى لا يضطرا الى أداء الشهادة تحت اليمين . أضاف براون بكآبة أنه من السهل أن يتصور المرء من الذى أخفى الرجلين ، ولعلهما يقيمان الآن فى نفس الفندق الذى أخفى فيه العسكرى فيوكومبى .

أصغى ماك لكل هذا بهدوء ثم قال :

— اسمع يا براون . من كانوا مثلنا لا حاجة بهم — عندما يريدون تجنب المتاعب — الى ثنى ذراع القانون . كل ما عليهم أن يسخروه لخدمة مصالحهم بذلك . ومصيبتنا يا فردى ، أنت وأنا ، أنك رغم اخلاصك الذى لا أشك فيه ، لست بارعا فى تلك اللعبة كل البراعة ! تقدم بهما الليل وهما يتذاكران أحداث الماضى ، ولم يجرؤ براون ، الا قبيل انصرافه بلحظات ، أن يخبر ماك بأسوأ ما لديه . قال له أن مستخدمته فانى كرايزلر ذاتها ستؤدى الشهادة ضده . فقد اعترفت أثناء التحقيق المبدئى بالحديث الذى جرى فى دكانها بين ماك والمرأة مارى سوير .

عقدت جلسة قاضي الاحالة في قاعة مبهجة للنفس تصدرها قاض صغير الحجم ، أزرق العينين انسجمت هيئته تماما مع القاعة المشمسة المضيئة ، يستأثرها البيضاء وحيطانها المطلية بالجير .

لم تستغرق شهادة الطبيب الشرعى ورجال البوليس وقتنا طويلا ، فقد تركز الاهتمام كله حول ماكهيت الذى أحاطت به شبهات قوية فيما يتعلق بمقتل صاحبة الدكان المرأة ماري سوير . كان المحامى والى ، الذى وكله بيتشام ، يمثل المدعين بالحق المدنى ، اليتيمين اللذين تركتهما المرحومة ماري سوير . بينما تولى الدفاع عن ماكهيت المحاميان ريجر ووايد ، عضوا مجلس ادارة شركة م . م . م . وعندما سئل ماك عن مهنته قال انه « تاجر جملة » . ثم ارتكب ماك خطأ صغيرا عندما سئل عن أية احكام سابقة تكون قد صدرت ضده ، لانه كان يحس بأنه لم يوقع عليه عقاب من قبل ، فقال « لا شيء ! » فانقض عليه والى من فوره :

— كيف لا شيء ؟ ألم يحكم عليك منذ ثلاث سنوات وتفرم جنيتها ؟! فقال ماك وقد بوغت مباغته أزعجته :

— لا أذكر .

— آه ، لا تذكر ! لا تذكر أنك وقعت عليك مخالفة لخروجك على قانون الرخص ؟ لقد خالفت تلك القوانين ، لكنك لا تذكر ذلك . دعنى أذكرك اذن : على العكس مما قلته للمحكمة الان ، سبق أن صدر ضدك حكم بالادانة .

فضحك ريجر متهكما ، وقال موجهها حديثه الى ماكهيت :

— أدنت بمخالفة قوانين الرخص ! عار عليك يا ماكهيت ! فقال والى مغيظا :

— ليس المهم نوع المخالفة . المهم أن المتهم حاول أن يضلل المحكمة ويخفى عنها سجله الاجرامى السابق وتفاهة الامر كله ، التى يود أن يبرزها الدفاع ، هى ما نود نحن ابرازه . لانها دليل على أن اخفاء أى شيء قد يسبب له دعاية سيئة أصبح بمثابة طبيعة ثانية لدى ماكهيت . وسوف تظهر أثناء المحاكمة أشياء عديدة من هذا القبيل .

كان ريجر على وشك أن يهب محتجا على هذا الهجوم على موكله، عندما جذبته زميله وايد من ذيل سترته فأجلسه . كان وايد رجلا سمينا ، قديما فى المهنة ، لديه أفكاره الخاصة عن الطريقة المثلى التى يجب أن يلتزمها الدفاع . لكنه لم يتوصل الى أى اتفاق فى

وجهات النظر مع ريجر حول هذا الموضوع . كما لم يتوصلا الى
أى اتفاق حول خطة الدفاع . فقد أراد أن يقيم دفاعه على مقولة
الانتحار ، بينما فضل ريجر فكرة القتل على يد مجهول أو مجهولين .
الشيء الوحيد الذي اتفق عليه هو اخفاء دليل البراءة الحقيقي ،
لانه لا سبيل الى اظهاره .

ولسوء الحظ أن المحامي والى كان قد تلقى تعليمات من موكله
- فيما بدأ - بأن يعالج القضية بمنتهى العدوانية ، وهو ما اتضح من
أول كلمة قالها في الجلسة .

كان الشاهدان اللذان رأيا امرأة تتجه الى حافلة الماء
وحدها قرابة التاسعة مساء قد اختفيا ، بطبيعة الحال ، بينما لم
يختلف الشحاذان اللذان رأيا المتهم يسير بصحبة المرحومة . وقد
أدلى أحدهما ، وهو عجوز يدعى ستون ، بالشهادة التالية :

- ما رلت أذكر بوضوح الرجل الذي كان بصحبة الفتاة . انه
بعينه هذا الرجل الجالس هناك . فمن دأبنا أن نمعن النظر في وجوه
الناس ، لنعرف من منهم المحسن ومن منهم البخيل . وهذا الرجل
من الصنف الذي يقلب جيوبه ثلاث مرات قبل أن يتصدق على أحد
بنس واحد . وهذا الصنف من الناس لا يفعل ذلك عادة الا عندما
يكون بصحبة امرأة يريد أن يتظاهر بالكرم أمامها . وقد فعل هذا
الرجل نفس الشيء ليلتها ، حتى قلت له بعد أن ضقت بتقليبه في
جيوبه بحثا عن أصفر عملة معه : « لعلك تريد أن تذهب الى البيت
أولا لتبحث عن نصف بنس مزيف يكون قد سقط من جيبك وراء
الكتبة فتصدق به ! أى نعم . ما زلت أذكر ذلك كما لو كان قد
حدث بالامس . أخذت أرقبه وهو يفرغ جيوبه . بدا لى أنه لا يحمل
الا جنيهات ذهبية . لكنه عشر على بنس أخيرا ، فأعطاه لى . أو
هكذا خيل الى ، لاني عندما نظرت في يدي وجدته قد تصدق على
يزرار بنطلون !

قوبلت « هذه الشهادة بعاصفة من الضحك لخفة دم الرجل . فأخرج
ريجرج من حقيبته صحيفة مطوية أعطاها للمحلفين وبها صورة لواجهة
دكان من دكاكين حرف «ب» فيها لافتة تعلن عن تخفيضات كبيرة
لعائلات الجنود . قال ريجر منفعلا :

« هذه الصورة يا حضرات المحلفين ، نشرها الخصوم ، ولم
ننشرها نحن . وأنا أريد أن أسأل ضمائركم : كيف يتأتى لرجل
فاقد لكل احساس بالمسؤولية الاجتماعية ، كما يحاولون أن

يصوروا مستر ماكهيث لنا ، أن يشغل نفسه في مجال العمل بتخفيضات هائلة كهذه لعائلات الجنود ؟

فلم يزد الاستاذ والى عن قوله أن أضواء كثيرة ستلقى في حينها على ما يسميه الدفاع . باحساس ماكهيث بالمسؤولية الاجتماعية . ثم قال : لنعد الآن الى موضوعنا . أثبتنا بما لا يدع مجالاً للشك أن مستر ستون المسكين هذا رأى المتهم بصحبة الضحية في مكان قريب للغاية من مكان الجريمة ، قبيل الوقت الذى حدده الطبيب الشرعى للجريمة بقليل وأن المتهم تصدق عليه بزوار بنطلون . ومن حق مستر ماكهيث طبعاً ، بصفته مليونيراً ، أن يتصدق على الناس بأزوار البنطلونات . لكن ذلك يجرنا الى موضوع آخر وهو من أين يحصل مستر ماكهيث على أزراره هذه .

كانت تلك هى الضربة الاولى التى وجهت فى المحاكمة الى الاساليب التى يتبعها ماكهيث فى أعماله ، فظهر أثرها على هذا الاخير فوراً ، متمثلاً فيما لحظه الجميع من قلق مفاجئ وتوتر . قال بحدة : طبعاً . أستطيع أن أقول لك من أين أحصل عليها . أحصل عليها من المصانع حيث تصنع .

فقال والى وهو يكفه عن الاسترسال بإشارة من يده ، نعرف ، نعرف ، لكن السؤال هو هل يحصل أصحاب تلك المصانع على ثمن ما تحصل عليه من مصانعهم ؟

وهنا قفز ريجر مهتاجاً وقال : ما هذا ، ما هذا ، هل هذه المحكمة مستعدة للسماح بمثل هذه الدعايات الشيوعية ؟ فهذا القاضى من نائبة الاستاذين وقال : ان جوهر الشهادة - الذى يهم المحكمة - هو أن السيد الشاهد تعرف على المتهم بوصفه الشخص الذى كان مع المرأة الميتة فى ليلة الجريمة .

فقال ريجر بأنه سيعود الى هذا الشاهد فيما بعد ووجه عناية المحكمة الى أن شهادته تناقض شهادة عاملى الشحن اللذين شهدا بأنهما رآيا المرأة وحدها ، ثم طلب سماع شهادة رجل البوليس الذى سمع شهادة الشاهدين الفائبين ، فقد قال ، بغير شك ، انهما رآيا امرأة وحيدة .

فسأل الاستاذ والى بزراية :

- نعم ، نعم ، ولكن أى امرأة ؟

ثم اعترف رجل الشرطة أن البوليس لم يعرض صورة المرأة على الرجلين عندما سمع شهادتهما .

وهنا رفع الاستاذ والى ذراعيه فوق رأسه وهتف بانتصار :
- يا لهما من شاهدين ! لقد رأيا امرأة أو أخرى تتسكع على
أرصفة الميناء . ولكن أى امرأة ؟ كأنما امرأة واحدة هى التى كانت
هناك فى تلك الساعة !

ثم أوما برأسه فخرجت من غرفة الشهود امرأة كان من الواضح
أنها من أحط الانواع . وقد قالت المرأة بالفعل ، عندما سئلت عن
مهنتها ، أنها بفى ، وأن منطقتها أرصفة الميناء ، وأنها فى مساء ذلك
السبت ذاته كانت تسير على تلك الارصفة بحثا عن زبون . لكنها
لم تجد احدا . كل من مروا بها من الرجال كانوا بصحبة نساء .
فوق أن المنطقة فقيرة للغاية ، وهى لا تعمل شيئا الا لان الاضاءة
بها ضعيفة لا تظهر الطفح الجلدى الذى يشوه بشرتها .

سألها ريجر : وهل منطقة شبه مهجورة كهذه تعتبر آمنة بالنسبة
لامرأة تسير بمفردها ، أليس من المعروف أن تلك الاحياء تعج
بالمجرمين وذوى السمعة السيئة . ألا يشكل هؤلاء الناس خطرا ؟
فقالت المرأة :

- على من ؟ .. علينا نحن ؟ ..

وقال الاستاذ والى :

- النساء هناك لا يحملن نقودا تكفى لاغراء احد بمهاجمتهن .

فقال ريجر ، متمسكا بما يريد اثباته : نعم ، لكن هناك جرائم
قتل تقع فى تلك الاماكن أيضا ، لاغراض أخرى غير السرقة . فقالت
الشاهدة : آه ، لكن ذلك خطر نتعرض له فى كل مكان . سألها
ريجر ، مستميتا : ما هو الموقف حاليا فيما يتعلق بالمنافسة بين
المومسات ؟ الا يوجد بينهن قدر كبير من الحسد المهنى والتنافس
على العملاء ؟ وسألها أيضا : أليس صحيحا أن الفتيات فى تلك
الاحياء لا يدققن كثيرا فى اختيار زبائنهن بسبب الفقر ، حتى لو
كن يعرفن أنهم قتلة ؟ فقالت الشاهدة :

- لكل منا منطقتها .

- ولكل منكن ، فيما أظن ، من يهين لها الحماية ؟

- ربما الاخريات . اما أنا فليس لى احد .

- ولم لا ؟

- لانى لا أكسب شيئا يذكر .

- أوه ، دعك من هذا . كلنا نعرف أنه حتى الحمامة يمكن أن

تحلب . لا تحاولي أن تكذبي علينا هنا . وهؤلاء البلطجية لا يحبون

أن تعتدى واحدة منكن على منطقة الاخرى ، أليس كذلك ؟
- ربما ..

فقال ريجر بجعجة :

- هذه المرأة ماري سوير قتلت في عراق حول مناطق النفوذ
اذن . كما قالت هذه الشاهدة . ضاقت بها السبل فذهبت الي حي
الميناء تبيع جسدها ، لكنها اعتدت على منطقة ليس من حقها أن
تتجر بجسدها فيها . فقتلت .
لكن وايد لكزه في ظهره هامسا :

- يا اخى اسكت . دعك من هذا الهراء . كلنا نعرف كيف قتلت
المرأة .

ولم يكسب الدفاع شيئا . فقد توصل الاستاذ والى ، محامى
بيتشام ، الى أن يبذر بذور الشك في نفوس الجميع . لم لا تكون
هذه البغى ذات الطفح الجلدى هي المرأة الوحيدة التى رآها
الشاهدان المختفيان متجهة الى حافة الماء ؟ وما دام ذلك كذلك فما
الذى يمنع من أن تكون ماري سوير قد شوهدت في مكان آخر
بصحبة ماكهيث ، كما شهد مستر ستون الشحاذ وأيده في ذلك
زميله ؟

حدثت حركة اثاره بين صفوف الصحافة عندما نودى على
العسكرى الاعرج فيوكومبى ، الذى ظل مختفيا حتى ذلك الوقت .
وقد بادره الاستاذ ريجر بخشونة سائلا اياه أين كان طيلة الوقت ؟
فتولى الاستاذ والى الاجابة نيابة عنه .

- كان موضوعا تحت حماية خاصة يا استاذ . خشية أن يحدث
له ما حدث للمرحومة ماري سوير .

روى فيوكومبى للمحكمة بصوت هادىء تجربته مع المرأة الميتة .
قال : ان ماكهيث كان قد ضرب لها موعدا ، وأنها كانت تنتظر
مجيئه عندما تركها فيوكومبى أمام الحانة التى في حي الميناء ، ولعلها
كانت تريد أن تقنعه بأن يساعدها ماليا ، وأنه لا يستبعد أنها كانت
تنوى تهديده ، لأنها كانت تعرف أشياء معينة عنه .
هم ريجر واقفا وبدأ يستجوب الشاهد :

- هل كانت ماري سوير تخاف من المتهم ؟

- ماذا تعنى بذلك ؟

- أعنى هل كانت تخشى أن يلحق بها اذى - أن يلقي بها في
الماء مثلا ؟

- لاأظن ذلك ، والا لما كانت قد ذهبت لمقابلته .
- تماما ، يامستر فيوكومبى ، تماما . والا لما قابلته . اذن فهى
لم تقل شيئا يشتم منه انها كانت خائفة .
- كلا .. البتة .

وهنا وقف وايد البدين ، فسأل الشاهد بصوته « المرسع »
عما اذا كان للمحكمة أن تفهم من شهادته أن المرأة مارى سوير لم
يكن لديها ما تخشاه البتة من مستر ماكهيث ؟ وعما اذا كانت
المرأة لم تخش ، مثلا ، أن يتخذ اجراءات مالية قبلها ؟ فتردد
العسكرى السابق لحظة ، ثم أجاب بهدوء :

- كانت تخشى ألا يبدي استعدادا لمساعدتها فى عملها . هذا
مدى خوفها فيما يخصه .
فقال مستر وايد وهو يجلس بسرور واضح من نفسه :
- تماما ..

لكن الاستاذ والى ، الذى انصت لكل ذلك بابتسامة عريضة ،
ما لبث أن قال :

- هناك احتمال ثالث . ألا يحتمل أن تكون رغبتها فى الحصول
على عون مادى ، أو لنقل حاجتها اليائسة . قد تغلبت على خوفها ،
فجعلتها تجازف بالذهاب ؟ لقد سمعنا لتونا من الشاهدة الاخيرة
كيف لا تلقى مثيلاتها بالا الى ما يتهددهن من أخطار . أيها السادة :
أنا أقف هنا ممثلا لتيمنين بأئسين . وبوسعنا أن نستنتج ، بغير
جهد ، من شهادة هذا العسكرى فيوكومبى ، أن أمهما لم تظهر
أى خوف على حياتها اليائسة لأنها كانت تقا تل ذودا عن صغيرها
الجانعين .

اعترف ماكهيث عقب ذلك بأن الخطاب الذى ضرب فيه ذلك
الموعد لمارى سوير صدر عنه ، وقال : انه لم يعرف خط مارى
سوير عندما وصله خطاب التهديد بحكاية السكين .

رفعت الجلسة اثر ذلك لتناول الغداء . ذهبت بولى الى زوجها
حيث اختلى ، فى احدى حجرات المحكمة ، بمخاميه . لكنهما تركاه
واختليا ببعضهما فى أحد الأركان ليتابعا شجارهما حول الخط الذى
يتبعه الدفاع : الانتحار أم القتل على يد مجهول أو مجهولين .

تناولت بولى مع ماك غداء من السندويتشات . كانت بعض
الاشياء التى قيلت فى الجلسة قد أزعجته كثيرا . سأل محاميه :
ما الذى قصده ذلك المأفون والى بسؤاله السخيف عما اذا كان

أصحاب البضائع قد حصلوا على ثمنها كاملا ؟ قال لهما :
- أليست هذه وقاحة منه ؟ ابن الحرام يريد أن يقول أن بضائعي مسروقة . لنسلم بأني اشتريها من محلات مفلسة . ما دخله هو ؟ حقيقة أن ذلك لا يختلف كثيرا عن سرقتها ، لاني لا أدفع فيها الا جزءا ضئيلا من ثمنها . ولكن أى قيمة لذلك . فتلك الدكاكين المفلسة التي اشتري منها ليست هي المصانع المنتجة . وأصحاب المصانع أيضا لا يحصلون الا على جزء من الثمن . ولكن هذه هي طبيعة الاشياء . والا لما حقق احد ربحا من أى شيء . تريدان الحق ؟ لا أستطيع أن أرى فرقا يذكر بين سرقة تلك البضائع وشرائها . وهذا الملعون يحاول أن يثير تلك المسألة ضدي . يريد أن يؤلب الحكمة على ! وافقته بولى الراى فى كل ذلك . كانت قد أصبحت رائعة الجمال فى الاسابيع الاخيرة . فطيلة الصيف وهى تستحم فى البحر وتستمتع بحمامات الشمس فى أماكن غير مطروقة بطبيعة الحال ، بسبب الحمل . لكنها اكتسبت سمرة أخاذة ، وباتت شهية بحق ، سريعة التأثير فى كل من يراها . ولم يكن ذلك خافيا عليها .
عندما استؤنفت الجلسة ، استدعى الاستاذ والى فاني كرايزلر للشهادة .

حول عينيها كانت حالات سوداء . وقد بدا اضطراب أعصابها واضحا . كان ضياع دكان العاديات منها صدمة أصابتها فى الصميم قالت فى شهادتها أن المرأة الميتة طلبت قرضا من مستر ماكهيث اكراما لما كان بينهما فيما سبق .
- لكنها هددته فى تلك المقابلة ، بمحضر منك ، بإفشاء أشياء معينة تعرفها عنه ؟

قالت الشاهدة بسرعة :

- لعلها كانت تعنى ظروف زواجها . فقد كانت لمستر ماكهيث يد فى ذلك ، ولعله لم يكن يجب أن يذكره أحد بمسئوليته عنها .
باغتها والى بالسؤال فجأة :
- ما الذى تعرفينه عن « السكين » ؟

فامتعت بطريقة واضحة تحت نقابها ، لكنها قالت بحزم :

- لا شيء . اللهم الا ما قرأته فى الصحف .
- لكن مارى سوير هددت المتهم ببضائع معينة ، وذكرت فى الوقت ذاته حكاية « السكين » .
لكن فاني كانت قد استعادت تحكمها فى نفسها ، فقالت بغير اكرات:

— لا أستطيع أن أذكر الآن . قالت يومها أشياء فارغة كثيرة ، لأنها كانت منفعلة للغاية ومقتنعة بأنها ضحية ظلم كبير . وانى واثقة بأن سلوكها لم يضايق مستر ماكهيث الا لانها حاولت ان تستغل علاقتها السابقة به .

هم وايد واقفا فجأة وسأل الشاهدة أن تنور المحكمة فيما يتعلق بظروف ماري سوير المالية .

— لم تكن ناجحة تماما في ادارة دكانها . لكنها لم تكن ، بكل تأكيد ، أسوأ من غيرها من أصحاب الدكاكين . فالكساد سائد في هذه الايام .

سألها الأستاذ وايد بلهجة جافة :

— هل أنت من مستخدمات المتهم ؟

— نعم . . .

وهنا تدخل الاستاذ والى فى المناقشة ساخرا ، فقال :

— هل يود الدفاع ان يقدم شهودا لا يعرفون عن المتهم شيئا لانهم لا يعملون فى خدمته ؟

لم يجد الاستاذ وايد ملاذا الا الجمجمة ، فقال مجمعا :
— يبدو أن زميلي العلامة يعتقد أنه لم يعد فى انجلترا انسان شريف واحد يقول الحق بصرف النظر عن الاعتبارات المادية . وأود أن أعبر عن مزيد حزنى لذلك .

فسأله الاستاذ والى ، وفى صوته فبرة تشف :

— حزنك لاي شيء ؟ لانه لم يعد هناك أناس شرفاء ، أم لانى لا أعتقد فى وجودهم ؟

لكن القاضى تدخل فى تلك اللحظة فاستبعد السؤال .
استدعى والى للشهادة بعد ذلك رئيس تحرير مجلة «العاكس» .
وعندما روى الشاهد للمحكمة تفاصيل الزيارة التى قامت بها المرحومة لمجلته واتهمت مستر ماكهيث خلالها بأنه القاتل المدعو « بالسكين » ، هب ريجر واقفا ، وقد بدا له أنه مستطيع أن يستغل تلك الفرصة الى أقصى حد . قال بلهجة يقين :

— هذه الشهادة كافية لان تثبت لاي انسان على درجة كافية من الذكاء ، أى لاي انسان لا يقرأ الصحف ، الطبيعة الواهية للأسس التى قام عليها الادعاء فى هذه القضية . اذن فمستر ماكهيث هو « السكين » ! اذن فعلينا أن نصدق أن رجال أعمالنا العظام يدبون فى الليل وينهبون فيسرقون الخزائن ! أيها السادة : كلنا نعرف الى

أى حد يمكن أن يدفع الحسد أهله إلى الظلم والافتراء . لكن يجب أن يكون لكل شيء حدود ! فالادعاء في هذه القضية يقوم على القول بأن مستر ماكهيث ، أحد المرموقين القلائل من رجال الأعمال العظام في هذا البلد ، ليس رجل أعمال بالمرّة ، وأنه مجرم ، وقاتل ، وقاطع طريق ! بغير هذا الافتراء لا تقوم للادعاء قائمة لأن المستر ماكهيث لا يكون لديه ما يخشاه من فضائح تتهدده بها امرأة لن نقول شيئاً عن سيرتها لأنها ماتت ، يرحمها الله . هل هناك سخف ضيائى يفوق هذه الافتراءات سخفاً ؟

قال ذلك وجلس بانتصار . فالتفت الأستاذ وإلى إلى المتهم ، وسأله :

— يا سيد ماكهيث : على ضوء ما قاله الدفاع ، كيف تفسر لنا التهديدات التى وجهتها مارى سوير اليك ؟
قام ماكهيث من مقعده متباطئاً وقد بدا عليه الحرج ، فقال :

— أعترف انه من الصعب على أن أتحدث فى هذا الموضوع . والحقيقة أنى لن أستطيع أن أفعل ذلك الا على سبيل المصارحة لرجال مثلى يفهمون هذه الامور . وما دمتا نلتزم الصراحة الواجبة بين الرجال ، فانى أسلم بأنى لا يمكن أن اعفى نفسى من اللوم تماماً . ولعله يوجد بين حضراتكم من يستطيع أن يفيط نفسه لكونه قد التزم الاصول دائماً فى معاملته للنساء ، فلم يتملص مرة من مسئولية قبلهن ، أو يسبب لهن ألماً ، ولو عن غير قصد . لكنى أنا — بكل أمانة — لا أستطيع أن أقول ذلك عن نفسى . وأحب أن أوكد لحضراتكم انى لم تكن بينى وبين تلك المخلوقة سيئة الحظ التى عرفت باسم مارى سوير أية « علاقات » بالمعنى الذى يرمى اليه الناس حين يستخدمون هذه الكلمة . وأقول سيئة الحظ لانها ماتت قبل الاوان ، اما على يد مجرم آثم ، أو بيدها هي ، كما يميل محامى الأستاذ وايد إلى الاعتقاد . ولكن المسألة ليست هذه . المسألة هل كانت تلك المسكينة منشغلة بى ؟ كنت منها بمثابة رب العمل ، ولعلى قابلتها مرة أو مرتين ، وقد أكون بغير وعى منى ، وبدون قصد ، قد أيقظت فى صدرها آمالاً من تلك التى تتعلل بها النساء . أى واحد من حضراتكم ، لو كان مكانى ، يمكن أن يعفى نفسه من وزر خطيئة غير مقصودة كهذه اذا كان نشاطه اليومى

يضعه في مثل هذا الموقف ؟ كلكم تعرفون بغير شك كم يصعب على رب العمل أن يحافظ على المسافة الكافية بينه وبين العاملين في خدمته دون أن يتعدى حدود اللياقة معهم فيسوء الى أحاسيسهم فيشعرهم بأنه يتعالى ، لا سمح الله عليهم ؟ ومنذا الذي يطاوعه قلبه على لوم أولئك الفتيات العاملات وهن يقضين معظم ساعات النهار في عمل مضمن في سبيل لقمة العيش ، بغير ترفيه أو متعة تذكر ، اذا ما تصورن أنهن واقعات في حب رئيسهن الذي ينتمى الى الطبقات العليا ، ويتمتع بما لا يتمتع به من يخالطنهم من الرجال عادة من ثقافة وتهذيب ؟ ومن هذه النقطة الحساسة التي لا يد لاخذ فيها ، الى الآمال الحمقاء الصغيرة التي تستكن داخل النفس ، الى خيبة الامل المرة التي لا يد لاخذ فيها أيضا ، مسافة قصيرة للغاية . سأكتفى ، ان سمحتم لي حضراتكم ، بهذا القدر ، فلا أزيد عليه شيئا .

أبرزت معظم صحف المساء هذه الخطبة بالبنت الاسود . واجمع الكل على تقرير هذا الموقف « الانساني » المهدب من جانب صاحب محلات حرف «ب» . صحيفة واحدة فقط هي التي شذت عن هذا الاجماع فأقذعت السباب لنابوليون دكاكين حرف «ب» . لكن تلك كانت صحيفة بروليتارية لا يأخذها أحد مأخذ الجد ، خاصة وانها لم تظهر أي روح « رياضية » ، فأنكرت على خصمها الطبقى ، مستر ماكهيث ، أي صفة حميدة ، فوق أنها كرست معظم صفحاتها بتلك المناسبة للمطالبة - في حماس ملتهب - بالقضاء قضاء مبرما ، باستخدام القوة ، على النظام الاجتماعي الذي ينجب أمثال مستر ماكهيث المسكين .

لكن خطبة مستر ماكهيث ، رغم نجاحها المدوي في مجال العلاقات العامة ، لم تكن القول الفصل في القضية . فقد تركه الاستاذ والى السمين يقول كل ما عنده ، ثم قال له وهو ينظر الى القاضي نظرة ذات مغزى :

- آه ، لكن مسز كرايزلر قالت في شهادتها أنك كنت تأخذ تلك العلاقات مأخذا جديا الى حد أنك أعطيت مسز سوير تقودا .

كان القاضي رجلا صغير الحجم ، من ذلك الصنف الناشف من الناس الذي يحب - تعويضا لضآلة حجمه - أن يتظاهر بالصلابة ، ويأنه لا بدع شيئا أو خطبة بليغة تؤثر فيه . نظر ذلك القاضي الى ماكهيث بعد سؤال السيد والى وكأنه يتوقع أن يتلعثم المتهم ويرتبك

لكن ماكهيث اجاب دون تردد :
- بوسعى ان اقول ان المرء قد يعطى مالا ، في ظروف بعينها ،
دون ان يكون ذلك تحت تأثير التهديد ، او حتى رغم تعرضه
للتهديد ، اذا كان طالب المال في ضائقة حقيقية . لكنى لا اقول
ذلك . كل ما اقله هو انى بذلت كل ما فى وسعى لمنع اشياء
كزيارة تلك المرأة سيئة الحظ لمجلة « العاكس » ، ولو انى فشلت
فى ذلك . فانا - كرجل أعمال - يجب ان أحترس من أدنى شبهة
قد تسيء الى سمعتى . أما مدى اهتمامى بتلك التهديدات فيمكن
استنتاجه من كونى تركت المرأة بغير مراقبة ولم اذهب لمقابلتها فى
تلك الحانة .

- لكنك ضربت لمارى سوير موعداً هناك ؟
- نعم ، نعم . . . بدافع الشفقة . وبدافع الشفقة أيضاً كنت
سأذهب للقائها لولا ان منعى من ذلك اجتماع طارىء يتعلق بأعمالى
ومع ذلك فانى لو كنت اعتبرت الامر على أى قدر من الجدية
لكنت ذهبت اليها بصرف النظر عن ذلك الاجتماع ، رغم أهميته .
تحفز الأستاذ والى فجأة . واجه ماك قائلاً :
- ما هى طبيعة ذلك الاجتماع ؟ ان كنت قد حضرت اجتماعاً
فان لديك دليلاً مادياً لا يدحض يثبت بعدك عن مكان الجريمة .
نظر ماكهيث الى محاميه ، ثم قال :
- أفضل عدم الخوض فى هذا الموضوع ان لم يكن ذلك ضرورياً .
وهنا تدخل القاضى قائلاً بجفاء :
- قد يكون ذلك ضرورياً للغاية .

لكن ريجر ووايد هذا رأسيهما وطلبا المناداة على احد شهود
النفى : صاحب الحانة التى ضرب ماك موعداً فيها لمارى سوير .
قال الرجل : ان المرحومة جلست فى البار ، وانتظرت بعض الوقت ،
وقلقها يتزايد من لحظة الى أخرى ، وعندما انصرفت أخيراً ، لم
ترتد قبعتها بل حملتها فى يدها ، وأضاف ان أحداً لم يسأل عنها
فى حانته ، سواء فى تلك الليلة أو فيما بعد .

سأل الأستاذ والى الشاهد ان كان بوسع أحد أن يرى من بداخل
الحانة من الشارع ؟ فكان الجواب بالإيجاب . وهنا سأل الأستاذ
والى ، بدهاء : هل يستطيع من يخرج من الحانة أن يسير فى طريق
آخر غير المفضى الى رصيف الميناء ليقابل أحداً كان ينتظره وتأخر
عن مواعده . فكان الجواب بالنفى . لكن ذلك لم يفت فى عضد

الاستاذ ، لانه ما لبث أن استنتج ان المتهم لابد قد قابل المرحومة أثناء عودتها الى المنزل ، بعيدا عن الحانة ، فارتكب فعلته الشنعاء . وفي تلك اللحظة أضيئت مصابيح القاعة ، لان الوقت كان خريفا ، والمساء يحل مبكرا . انتظر والى حتى انتهى الحجاب من اضاءة تلك المصابيح الكروية الضخمة ، ثم استطرد قائلا :

— هناك من حاول أن يتساءل في هذه القاعة ، بخفة دم حقيقية ، كيف تأتي لصاحبة دكان مغمورة أن تهدد تاجرا عظيما خطير الشأن كمستر ماكهيث . ويسرنى أن استدعى الآن شاهدا قد يكون بوسعه أن يوضح لنا كيف تأتي ذلك .

تقدم الى مكان الشهود سيد حسن الملابس له ذراعان طويلتان مدليتان الى جانبيه ، تبين من سؤاله أنه صانع احذية يقطن المنزل المقابل لدكانة ماري سوير . قال : ان المرأة المسكينة قالت له ذات مرة أنها تعرف المصدر الذي تأتي منه بضائعها التي تباع برخص التراب ، وقال أيضا : أنها قالت ذلك بلهجة لم تدع مجالا للشك في أنها تعرف أن تلك البضائع تأتي من مصدر خاص ومريب .

وهنا هب ماكهيث واقفا ، يريد أن يرد من فوره ، لكن ريجر شده من كفه ، ووشوشه في أذنه ، فجلس ثانية ، وطلب ريجر رفع الجلسة قائلا : انه يريد أن يقنع موكله الذي أتعبه كل ذلك الكلام الكثير أن يصارح المحكمة بدليل براءته ، فيريح ويستريح . فوافق القاضي .

لكن ماك لم يكذ يفادر قاعة المحكمة حتى قال لمحامييه بلهجة قاطعة أنه ليس في موقف يسمح له بالكشف عن دليل براءته . فقالا له : ان سلوكه حري بأن يبدو مريبا للغاية وأنه قد يواجه ، فيما يحتمل ، اتهاما بالقتل العمد . كان وايد لا يزال متمسكا بفكرة اقناع المحكمة بأن المرأة ماري سوير انتحرت ، ولم يجد ريجر في نفسه الشجاعة — بعد عناد ماك — على الاستمرار في معارضته .

فتحت الجلسة من جديد بعد ربع ساعة ، فأخبر محاميا ماكهيث المحكمة آسفين ان موكلهما ، لسوء الحظ ، ليس في موقف يسمح له بالكشف عن مكان وجوده ساعة ان ماتت ماري سوير ، وأن صمته راجع الى أسباب متعلقة بأعماله ، فاستمع القاضي الى تلك الاعذار بصمت لا يبشر بخير ، فلما قال وايد ، بأسلوبه المفخم ، أنه — فيما يخصه — لا يراوده شك في أن المرحومة لم تمت مقتولة بالمرّة بل انتحرت ، وأنه سيحاول اقناع المحكمة بذلك ، أكفهر وجه القاضي .

نودى على شهود وايد ، وتم استجوابهم . كانوا كلهم من اصحاب
دكاكين حرف «ب» . وقد طلب منهم وايد أن يوضحوا للمحكمة
حالة أعمالهم ، فكانما واثتهم فرصة كانوا يتحينونها ، اذ قالوا كلهم
في نفس واحد : انها حالة كالقطران . وقال واحد منهم أنه لن
يعجب ابدا اذا سمع أن كل اصحاب الدكاكين بدعوا يشنقون
انفسهم ، خاصة بعد أن توقف ورود البضائع ، لأن أحدا منهم لم
يعد يعرف له رأسا من قدمين . وهنا شكره الاستاذ والى ، الذى
أغتنم الفرصة وحشر نفسه فى الامر بسوء نية ، وطلب سماع شهادة
بعض جيران مارى سوير ، فلما صرحت له المحكمة وجه اليهم هذا
السؤال :

— هل تعرفون أى شىء عن أعمال المرحومة مسز سوير ؟
قالوا : نعم ، بالقدر الذى يمكن أن يعرفه أحد عن أحوال جاره
قال : وهل كانت صاحبة دكان مخنكة ؟
قالوا : كانت شفالة .
حريصة على النقود ؟
ليس بوجه خاص ، فكلما أعسر أحد كانت تدعه يأخذ ما يريد
من دكانها دون أن يدفع .

آه . لم تكن على درجة كبيرة من الكفاءة ، بالمعنى المألوف للكلمة ؟
يعنى ! كانت حرية بأن تعطى المرء زوجا من الجوارب متى أراها
جوربه ممزقا . شرط أن يقصدها عندما يكون الجو ممطرا .
كذا ، كذا . اذن فهى لم تكن ما يمكن أن يسميه المرء سيدة
أعمال حريصة ؟
وهنا سكت الشاهد .

فقال الاستاذ وايد بتؤدة .
— ان كانت ميتة هذه السيدة سيئة الطالع ، كما نعتقد ، ميتة
اختيارية ، فان شهادة هؤلاء الشهود لا يكون لها وزن فى القضية
خلا تعزيز الحكمة التى يمكن أن نتعلمها من مأساتها وهى الى حد يمكن
أن يفضى الكرم وطيبة القلب بصاحبهما الى التهلكة .
فابتسم القاضى ولم يقل شيئا .

وهنا ظهرت فى مقعد الشهود سيدة عجوز استحشا الاستاذ وايد
قائلا :

— خبيرنا بالله ياسيدتى بما قالت له لك المرحومة عن كيفية تملكها
لدكانها .

تمخضت السيدة العجوز بقوة لافتة للانظار في منديلها ، ولعل دافعها الى ذلك كان الرغبة في لفت الانظار الى منديلها الاحمر ، ثم قالت :

- يمكنك أن تقول انها حصلت على دكانها هدية ، بغير مقابل !
- كنت أعتقد انها اشترته . دفعت فيه بعض المال على الاقل .
- قليلا من المال . ولعلها لم تدفع قليلا ولا كثيرا . فزوجها من جنودنا البواسل كما تعلم .
- لكنها كانت تحتكم في قدر ضئيل من المال . وقد دفعت ذلك .
- هكذا قالت !

- خيريني . . كم كان معها ؟
- ثمانية عشر أو تسعة عشر جنيها فيما أظن . ام يكن معها أكثر من ذلك بكل تأكيد .
- لكنها كانت تحتكم في ذلك القدر من المال ، وقد استثمرته في الدكان . أليس كذلك ؟

- استثمرته في تجميل غرفة الجلوس . كانت تريد أن تكون الفرفة جميلة من أجل الاطفال . تريد الحق ؟ كانت حمقاء . أى امرأة عاقلة تنفق مثل ذلك المبلغ على المظاهر وهى فى مثل تلك الضائقة التى كانت فيها ؟

- وهكذا فإننا نستطيع أن نستنتج أن مسز سوير وجدت نفسها مهددة بضياح المبالغ التى أنفقتها على ديكورات غرفتها اذا ما اضطرت الى ترك الدكان بسبب الايجار المتأخر أو البضائع التى لم تدفع ثمنها ؟

- طبعا . يمكنك أن تستنتج ذلك بنفسك ، بغير عون من أحد .
- عظيم . وما الذى كان بوسعها أن تفعله ؟
- لا شئ طبعا .

ظلت المرأة ممسكة بمنديلها الاحمر طيلة الوقت كأنما تتأهب لاستقبال عطسة قد تأتى فى أى لحظة ، لكنها طبقت المنديل أخيرا ، ولم تعطس .

استمرت اجراءات المحاكمة ، بطيئة ، باعثة على الملل . تم استجلاء تفاصيل عديدة ، لكن ذلك لم يؤد الى ظهور أى جديد . عندما سئلوا عما يعتقدون أنه السبب فى حالة الكساد التى حلت بدكاكين حرف « ب » ، اتفق رأى عدد كبير من أصحاب الدكاكين على أن السبب فى ذلك هو انخفاض الاسعار . وبدا واضحا أن الآراء مجمعة على أنه

من المستحيل اعطاء أسباب لذلك الانخفاض . فهو شيء أشبه بالمطر ينزل في هذا العام ولا يسقط في ذاك ، وأى إنسان عاقل يخطر له ببال أن يبحث عن السبب في هذا ؟ من المؤسف طبعا أن تدفق البضائع توقف ، لكن لعل السبب في ذلك أنه لم تكن قد عادت هناك بضائع رخيصة السعر يمكن الحصول عليها . وقد حاول مستر ماكهيث جاهدا أن يحصل على كميات جديدة من البضائع ، احساسا منه بمسئوليته تجاههم ، لأنه هو الذى استحتمهم على استخدام مساعدين بمحلاتهم ، والإعلان عن بضائعهم حتى تباع بطريقة أسرع ، لكنه - لسوء الحظ - لم يوفق في ذلك ، لأن المنظمة المختصة بالمشتريات في شركته لم تقم بواجبها تجاهه ، فخذلته وخذلتهم .

قام الأستاذ وايد أخيرا - وقد لزم زميله الأستاذ ريجر صمتا حميدا فجأة - فأخذ يلقي مرافعته الختامية ، مجملا فيها كل أسانيده على نظرية الانتحار . قال الأستاذ :

- مارى سوير لم تكن بحاجة الى من يقتلها . كانت مقتولة جاهزة . كل من يعرف ظروف الحياة التى كانت مرغمة على أن تحياها ، لا يجد فى موتها لغزا غامضا يصعب حله . وكل من جرب ذلك النوع من الحياة ، حياة صاحبة الدكان المعسرة ، الكادحة ، يعلم أنه لا مهرب من أن تحل لحظة تقول فيها من ترغمها الظروف على مثل هذه الحياة كفى ! خلصونا ! ويعلم أن الأمر لا يحتاج لكبير عزيمة كيما تضع مثل تلك المرأة حدا لحياة هذا شأنها . ولنتصور الأسابيع الأخيرة فى حياة مارى سوير ، والديون قد استحكمت حول عنقها ، وأرغمتها على أن تواجه حالتها الميؤوس منها . مثل تلك الحياة ، كحياة كثيرين غيرها ، لم يكن فيها ما يغريها بالاستمرار فى العيش . ويكفى أن يلقي المرء نظرة على الحجر الذى كانت تقطنه تلك المرأة (وأنا أتجنب استخدام كلمة « منزل » عمدا ، ولا أعتقد أن هناك بين حضراتكم من يستطيع - بأى قدر من التجاوز - أن يستخدم تلك اللفظة فى وصف مكان كذلك) أو لينظر المرء الى أطفالها ! كلا . لا حاجة به الى ذلك ، يكفيه أن يزنهم ! ولنتصور المرء ، مجرد تصور ، أن تقضى عليه الظروف أن يعيش حياة كهذه . ولا يتصورن أحد أنها كانت قادرة على أن تأخذ اجازة ، ولو ليوم واحد ، من تلك المعيشة التعسة ! وحتى فى ذلك الحجر ، لم تترك فى سلام ! حتى على ذلك الباب تابعتها طرقات المحضر ! كلا أيها السادة . لا تكن مارى سوير بحاجة الى أن يقتلها مستر ماكهيث ، مارى .

أخذت حياتها بيدها . وحتى إذا وجد من يعترض على هذا الكلام فيقول أن ماري كانت دائما متعلقة بالحياة ، فإنه يظل بوسع من يتمسك بنظرية الانتحار مثلي أن يفهم مثل هذا المعترض بقوله أن ذلك قد يكون صحيحا ، لكن هموم الاعمال ، وربما خيبة الامل الشخصية التي انتابتها عندما تبينت أن مستر ماكهيث لن يتمكن من أن يمد لها يد العون ، قد تكون - مجتمعة - السبب في القضاء على تعلقها المزعوم بالحياة . ولا عجب ان كانت قد حاولت أن تحمل ماكهيث وزر ذلك كله ، ربما عن اقتناع بأنها محقة في نقيتها عليه . فالاصغر في دنيا الاعمال ليست لديهم أية معرفة دقيقة بالقوانين التي تحكم التجارة ومعاملات السوق . ولذلك فانهم يميلون في معظم الامر الى القاء تبعه مصاعبهم على عاتق الكبار كلما حلت بهم الازمات ، دون أن يخطر لهم ببال أن أولئك الكبار قد يكونون واقعيين ، بدورهم ، تحت رحمة عمليات أخرى ، أشد غموضا وقدرية ، ذات طبيعة اقتصادية . وكل ما يكون ظاهرا أن أزمة ما قد وقعت ، وان الاخوة الاصغر حجما ، والاضعف ، لم يصمدوا أمامها ، فتساقطوا .

تركة الاستاذ والى يسترسل حتى اختلط الامر عليه ، فبلغ نقطة لم يعد مستطيعا بعدها أن يفكر في شيء يمكن أن يقال . قال مستر والى ، عندما هم واقفا ، أنه يجد نفسه مضطرا الى تكرار سؤاله السابق الذى سألته منذ ساعة تقريبا ، والذي بدأ مستر ماكهيث ، في معرض رده عليه ، على شفا البوح بدليل براءته الغامض المثير ، ثم عدل عن ذلك في اللحظة الاخيرة . ثم أضاف أن هناك شائعات عديدة تتردد في حى المال والاعمال مؤذاها أن مصدر البضائع التي تورد الى محلات حرف « ب » ، مصدر مسربل بالغموض . ولقد قال مستر ماكهيث أن تلك البضائع - على حد علمه - تأتي من شركة معينة تعرف باسم م.م.م (مجلس المشتريات المركزي) ، فهل يتفضل مستر ماكهيث ياترى فينور المحكمة قليلا بشيء محدد يقوله عن تلك الشركة ؟

لكن مستر ريجر ما لبث أن هم واقفا ، بعد مداولة قصيرة مع موكله ، فقال كلا ، ان مستر ماكهيث لن ينور المحكمة . ثم أضاف ان شركة م.م.م ، على أية حال ، شركة محترمة ، مسجلة تسجيلا قانونيا ، يضم مجلس ادارتها عضوا من النبلاء واثنين من السادة المحامين . ومن الحقيقي أن الشركة ، خلال الاسابيع القليلة الاخيرة ،

لم تتمكن من الوفاء بالتزاماتها قبل السيد ماكهيث . لكن ذلك أمر يخصه والشركة وحدهما ولا دخل لأي أحد آخر فيه ، وبالأخص المحكمة الموقرة ، وانه لم يذكر الموضوع الا لكيلا يتبادر الى ذهن المحكمة أن مستر ماكهيث يبدأ في الظروف المؤسفة التي عانت منها السيدة ماري سوير مؤخرا . ولقد أفاض زميله العلامة الأستاذ وايد بما لا يدع مجالا للبس في شرح الحالة الاسيفة لدكاكين حرف «ب» هذه ، وهو ما يبين أن الدفاع عن مستر ماكهيث لا يحاول أن يخفى شيئا ، فهو يقول صراحة : نعم حالتها محزنة هذه الدكاكين . وهو يقول ذلك عن يقين لان مستر ماكهيث ذاته لا لوم أو تثریب عليه في شيء من ذلك إنما اللوم كله يجب أن يوضع على عاتق شركة م.م.م التي توقفت عن التوريد فجأة . وزاد مستر ريجر على ذلك استدعاء شهود أكدوا للمحكمة أن مستر ماكهيث في ابان الأزمة لم يتقاعس عن مد يد العون الى أصحاب الدكاكين ، وأنه ذهب اليهم في دكاكينهم ، فخلع سترته ، وشمر عن ساعده ، واشتغل معهم ! ولم يكن ذلك هو كل ما قيل في الموضوع ، لان مستر ماكهيث ذاته كان لديه شيء يضيفه . قال :

— لقد قيل هنا ان حياة المرحومة السيدة مسز سوير كانت حياة قاسية للغاية . وأن الانتحار ، تبعاً لذلك ، ليس بمستبعد . وأحب أن أضيف هنا اننا ، نحن أصحاب محلات حرف «ب» ، نعمل بكل طاقتنا ، ولا نرحم أنفسنا ، وأنا في محاولتنا التي لا تكمل لخدمة الجمهور نفرض على أنفسنا عبئا لا يطيقه الا أقوى الاقوياء ، أما الضعفاء فينهارون تحت وطأته . وما ذلك الا لاننا ، حرصا على مصالح الناس ، نبيع بأقل سعر ممكن . ولذلك فان أرباحنا من الضالة بحيث نضطر الى مواجهة الحرمان . ولعلنا يغلبنا الحماس ، أكثر مما ينبغى ، لمبدأنا الذي لا نحيد عنه وهو تزويد المشتري الفقير المسكين بكل احتياجاته ، وبأفضل السلع ، بأحسن الاسعار . ولا أجد حرجا من الاعتراف هنا أنني أنا شخصا ، عندما تأزمت الامور في الايام القليلة الاخيرة ، وبدا ان كل شيء قد بات ضدنا ، كثيرا ما ساءلت نفسي هل بات بوسعنا أن نصمد ؟ لعلنا سنضطر الى رفع الاسعار ثانية . وصدقوني حضراتكم أن موت هذه السيدة ، التي لم تستطع أن تصمد للمنافسة ، قد أجزنى كثيرا .

رمق القضاى مخبرى الصحف ، المنهمكين فى كتابة كل هذا ،
ببرود ، ثم - بنفس البرود - سأل مستر ماكهيت عما اذا كان قد
قرر ان يكشف عن دليل براءته الذى يقول بوجوده ، فتلقى جوابا
بالنقى ، ورفع الجلسة ، منسحبا من القاعة الى غرفته لينظر فيما
تضمنته القضية من أدلة . ولم يطل غيابه ، اذ عاد بعد عشر دقائق
لا أكثر ، فنطق بالحكم : احالة المتهم الى محكمة الجنايات ليحاكم
بتهمة قتل مارى سوير عمدا مع سبق الاصرار .

امتألت صحف المساء بأخبار « قضية ماكهيت » ، وشغلت صفحاتها
الاولى مانشتات حمراء : « بدأ الفموض ينجلي عن موت مارى سوير »
و « أين كان التاجر الثرى بينما عشيقته تقتل ؟ » .

والمصائب لا تأتى فرادى . فقد حمل الاسبوع التالى انباء مزعجة
الى مستر ماكهيت فيما يخص شريكه اليهودى هارون . جاءت فانى
كرايزلر لزيارته فى السجن بعد يومين من جلسة قاضى الاحالة وقالت
له ان كلا من هارون والبنك التجارى قد ابديا تحفظا غير عادى فى
تعاملهما مع شركة م.م.م. مؤخرا ، وأن هارون قد انقطع اتصاله
م تقريبا بعد زيارة خاطفة غمغم خلالها شيئا عن « علاقة ما فيما
يبدو بين مقتل تلك المرأة التى غرقت وتوقف التوريد » ، وأن
أشخاصا مريبين أخذوا يعسون فى الايام الاخيرة حول مخازن الشركة
فى حارة رايد ، المظنون أنهم مخبرون خصوصيون يتجسسون على
شركة م.م.م. ، وأن جاك أوبر استدعاها الى البنك بالأمس ، وطلب
منها فى غير موارد ان تطلعه على الفواتير الخاصة بالشحنة الاخيرة
من البضائع التى سلمت الى محلات هارون .

أصفى ماك لكل تلك الانباء المزعجة بسحنة جنائزية ، ثم فكر
قليلا ، وقال لها أنه يتعين عليها أن تحصل على فواتير جديدة ، وأن
تتوخى الحيطة فيما تعطيه من ائتمان لعمليات الشراء من بلجيكا .
قالت له فانى وهى تنصرف :

- قضيتك هذه اذا طالت أكثر من ذلك ستفضى بنا جميعا الى
الخراب . أرجو أن تكون مدركا ذلك .



ولم يرد ذكر فى تلك المقابلة لأية مسائل خاصة .
كان ذلك فى الاسبوع الاخير من اكتوبر ، وقد دخلت أعمال كل من
السيد بيتشام والسيد ماكهيت مرحلتها الاخيرة .
على رصيف الميناء كانت « انا الجميلة » و « الولد البحار » ،

و « المتفائل » ، وقد طلّيت ورممت بقدر ما سمحت أجسادها العتيقة
النخيرة ، تنتظر اليوم الذي تتركب فيه متن المحيط ، بتوجس له
ما يبرره ، خاصة فيما يتعلق « بالمتفائل » التي أحست أخشابها
العتيقة أن أسابيعها الأخيرة قد حانت . أما مستر بيتشام فكانت
رؤاه وردية ، تدور كلها حول ابنته التي تصورها دائما في تلك الأسابيع
الحاسمة (بعد صدور الحكم باحالة ماك الى محكمة الجنايات) في
طرحه زفاف ناصعة تحليها زهور البرتقال ، تتهادى الى مذبح
الكنيسة ، مستندة الى ذراع عريسها السيد كوكس . غير أن مستر
ماكهيث كان يتصورها في وضع آخر وظروف مغايرة تماما بغير ثياب
أو زهور يرتقال ، مع سيد آخر اسمه أوهارا . وبينما هؤلاء
يعلمون أحلامهم الخاصة الحميمة ، كانت دكاكين حرفة «ب» قد
فقدت الأمل تماما وزادتها التجارب حكمة . ولم يكن مستر
كوكس يدري أنه لم تعد أمامه صفحات عديدة من يومياته يسودها
برموزه الغريبة . وفي ذلك الوقت عينه لم يكن موظفو قلم الكتاب
بمحكمة الجنايات يدركون أن تعبهم في نسخ أوراق قضية ماكهيث
بوصفه قاتل المرحومة ماري سوير ، جهد لا طائل من ورائه ، وأن
ملف تلك القضية ليس مقدرا له أن يضم كثيرا من الصفحات الأخرى .
أما المسكرى فيوكومبي فلم يكن يدري أن كل ما بقي أمامه من العمر
هو خمسة وستون يوما لا تزيد .

الفصل الثالث

الحياة الحلوة تقوم على ال ال . اس . دى

أولئك الذين لا يضلهم شيء عن سواء السبيل
فيقيمون حياتهم على النوايا الطيبة .
تلك المشاعر النبيلة التي يتغنى بها كل شاعر -
أولئك الأفاضل يخطئون خطأ ما عليه من مزيد .
تجدهم يغمسون اللقمة في عرق الجبين
ويلوكونها فخورين لأنهم يعملون بالوصية .
حقيقة تحثهم سابعة الوصايا على أن ينسوا تماما
أن طعم اللحم الذ من كسرتهم عديمة المذاق ،
لكننا ، رغم تسليمنا بأن الفضيلة شيء جميل ،
نقول أن الحياة الحلوة تقوم على ال ال . اس . دى .

فلا ضر أبدأ في أن يفتح المرء عينيه
ويغتم من الدنيا ما يستطيع اختطافه ،
ثم يأخذ حماما سخنا ، ويلقى في جوفه ببعض كئوس خمر
يرسخ بعدها أمام مائدة حافلة بالأطياب .
أراك تشمخ بأنفك ؟ أراك تقول وهل هذه حياة ؟
أنت من أولئك الذين لا يعتبرون الإنسان انسانا حتى يكدح ؟
أنت من أولئك الذين ينكصون أمام حقائق الحياة ؟
أنت حر ، لكنى أنا - شكرا لله - لست من هذه الطينة النبيلة ،
والمشكلة بالنسبة الى تحل نفسها بسهولة :
فالحياة الحلوة ياصح تقوم على ال ال . اس . دى .

(أغنية الحياة الحلوة)

قرارات ذات وزن

لم يكن مستر بيتشام حريا بأن يسترعى انتباه أحد إذا ما تواجد في غرفة تضم خمسة أو ستة من رجال الأعمال . كان وجهه ، لاضطراره في تعامله مع غيره من البشر أن يستमित في الحساب الى أقرب مليم ، قد اكتسب تعبيرا صبت فيه ملامحه : تعبير رجل الأعمال صلب المراس المتشكك أبدا . ولكن أن يرمق المرء العالم كله من حوله بصرامة وازتياب ، ليس معناه أنه امرؤ ذو ثقة بنفسه . لم يكن مستر بيتشام ، بأية حال ، رجلا ذا شخصية . كان يطوى جوانحه على خوف قوى - ربما كان مبالغا فيه - منشأه سرعة تقلب الظروف الانسانية وافتقارها الى الثبات ، والقسوة التي لا تقيم وزنا لأحد في خصال المدينة التي يقيم بها ، بل وكل مدينة أخرى . وقد جعله ذلك الخوف سريع التقلب بدوره ، سريع التكيف لكل جديد تفرضه عليه مطالب بيئته . نعم وقر في أذهان من يعرفونه من أهل مدينته أنه صاحب شركة شحاذاة ، لكنه كان على أتم استعداد ، في أى وقت ، لالقاء شركته بشحاذيتها في أول بالوعة ، بغير تردد ، إذا ما تراءت لعينيه بادرة عمل آخر أكثر ربحا ، وأقل مخاطرة أو حتى أكثر وعدا بثبات واستقرار في مستقبله . كان رجلا - كما عرفناه - قميئا ، مجففا ، ذا هيئة زرية ، ووجه نكد . لكن هيئته هذه كانت قابلة للتغيير بدورها ، رهن ظروف السوق . فعندما وجد الرجل نفسه في موقف لا يبشر بخير أو بفرص نجاح لرجل قميء ، مخيف ، زرى الهيئة ، نكد الوجه مثله ، بات كل من يراه يجده غارقا في التفكير بحثا عن طريقة ناجعة تحوله الى رجل متوسط الحجم ، تبدو عليه النعمة ، سمح الوجه ما أمكن . فضالة حجمه ، وجفافه ، وتعاسته ، ونكده ، لم تكن كلها الا احياء من جانبه ، واجهة خارجية ترفع متى أن اوان رفعها ، تبعا لظروف العمل ، وتوضع غيرها

ولقد يجد المرء ما يثير الشفقة في كل ذلك ، لكن ذلك كله كان - في حقيقة الأمر - من أسباب نجاحه الذي لا يستهان به . فالرجل كان يمتن مهنة الاتجار في البؤس ، حتى يؤسه الخاص ، حتى تلك اللحظة ، فلا غرو أن نضحت مهنته على مظهره بؤسا . لكن الظروف تغيرت ، ولقمة العيش باتت لها مطالب ودهاليز أخرى ، وكما تغير الثعابين جلودها غير مستر بيتشام جلده تحت وطأة المخاطر التي بات يواجهها والتي تهددته في مورد رزقه ، وفي الوقت ذاته ، تحت أغراء الأرباح الضخمة التي تراءت لعينه وراء ذلك التغيير . وهكذا فانه تحول خلال بضعة أسابيع من تاجر شحاذة قمىء مخيف نكد الوجه الى نمر مفترس ، وانعكس ذلك التحول على هيئته ، فانقلبت سحنته خلال الاسابيع الاخيرة ، التي أشرف فيها على « تشطيب » أعمال شركة النقل البحري لحساب كوكس ، الى سحنة لحيمة ، فظة ، بالفة الشراسة .

عندما قصده هيل ليقترض منه مائة جنيه خسرها في القمار ، استقبله بفظاظة ، وطرده شر طردة ، ثم استدار الى بقية الشركاء ، الذين كانوا يتلوون شقاء ، فاستدعاهم الى اجتماع جديد من سلسلة الاجتماعات التي لا تنتهى ، فجاءوا كلهم كالنعاج التي تساق الى الذبح . لكن مون الذى كان أكثرهم صمتا واستسلاما هاج فى هذه المرة ، فأعلن العصيان ، قائلا ان روحه قد بلفت حلقومه من هذه الاجتماعات والحمام الذى تعقد فيه ، ثم وقف يستقبل الآخرين وهو يجار بأعلى عقيرته مستحشا اياهم على عدم دخول تلك الحمامات المشؤومة التي شهدت أسود أيام حياتهم . وهكذا فان اجتماع الشركة الاخير عقد فى مطعم مجاور .

بدا بيتشام الاجتماع بالتنديد بمحاولات هيل ابتزاز المال منه ، قائلا أنه قد عيل صبره منهم جميعا ، مطالبا باحتساب كافة المبالغ المستحقة على كل شريك تمهيدا لدفعها فورا مع تفويضه هو ، بيتشام ، فى انهاء العملية كلها بالطريقة التي يراها ، واعداد اياهم بنهاية موفقة اذا تركوه فى حاله ، ولم يتدخل أحد منهم فى أعماله . فقبل اقتراحه دون معارضه ، وقام هو بعد ذلك بتحصيل المبالغ المستحقة على كل منهم بلا أدنى رحمة . أخذ من البارون ما يكفى لدفنه الى الابد ، أو ، بالاقل ، لعدة شهور مقبلة ، فى فراش الوارثة الأمريكية ، غير عابىء بخط الدفاع الاخير الذى لجأ اليه الشاب منكود الحظ عندما أعلن مستيئسا أنه لا يحب النساء ، وانه - فى حقيقة

الامر - مصاب بالشذوذ الجنسي . أما ايستمان فدفع ما عليه دون ان يحدث الضجة التي أحدثها غيره . ولا غرو ، فقد كان بوسعه ان يفعل ذلك بعد ان رفع ايجار عقاراته التي يؤجرها في الشمال لمستأجرين كلهم من العمال لم يكن امامهم الا ان يدفعوا صاغرين والا وجدوا أنفسهم بلا سقف يظل رءوسهم . وقد دفع مون هو الاخر ، ولكن بعد ان تكفل به بيتشام بطريقته الخاصة . فقد حزن الرجل في اول الامر ، وادعى انه مفلس . لكن جيشا من الشحاذين ما لبث ان حاصر مكاتب المراهنات التي يديرها بلافتات مكتوب عليها اشياء كهذه : « من كان يراهن على الجياد لديه مال - ومن كان لديه مال يستطيع ان يحسن » و « انا ايضا كنت اراهن هنا . انظر ما آلت اليه حالي » . فدفع مون صاغرا : ثمانمائة من الجنيهات نقدا وعدا ، والباقي كمبيالات .

لكن كراول انهار في اللحظة الاخيرة .
جاء ذات صباح الى شارع اولد أوك وطلب مقابلة بيتشام ، فاستقبله هذا الاخير ، وأخذ يراجع موقفه المالي معه . وفي ختام الزيارة قال كراول :

- لم يعد امامي اذن الا ان أطلق الرصاص على رأسي فأخرج من هذه الورطة .

فلم يقل بيتشام شيئا . فقط اعطاه عنوان مكتب كوكس ، اذ بدا له انه من المستحسن ان يرى هذا الاخير بعض نتائج الاعيبه .
ذهب صاحب المطعم في عصر ذلك اليوم الى مكتب السمسار بحى المال والاعمال ، فلما استقبلته الفتاة منحوسنة الوجه قال لها ان لديه موعدا مع مخدموها ، وأنه سينتظره ، ثم جلس فانتظر ساعتين دون ان يأتى كوكس . والحقيقة أن الرجل لم يكن لديه علم بزيارة كراول ، كما تبين فيما بعد ، ولم يكن قد ضرب له موعدا . وعندما أخذت الفتاة تستعد للانصراف قائلة لئلاثر أنها مضطرة الى اقفال المكتب ، هم الرجل واقفا ، مغمما شيئا غير مفهوم ، ثم اولاهما ظهره وأخرج من جيبه مسدسا أطلق منه رصاصة داخل فمه . وعلى مكتبه في البيت وجدت زوجته ظرفا مغلقا مكتوب عليه : « ألى زوجتى . يفتح في تمام الثامنة ، اذا لم أعد . » وعندما فتحت الأرملة الخطاب لم تجد به الا هذه الكلمات : « آسف يا عزيزتى . لقد لحق بى الخراب على أيدي عصابة من المحتالين الذين لا ضمائر لهم . اغفري لهم . لقد فعلت كل ما فعلت فى سبيلكم . البرت كراول ، صاحب مطعم . . . »

لكن تلك الفاجعة لم تكن شيئاً بالقياس الى المتاعب التي احدثها العجوز فينى . فلم يكد الرجل يسمع بانتحار كراول حتى قرر ان يدخل المستشفى لاجراء عملياته الشهيرة بغير ابطاء . لكن بيتشام اكتشف ذلك قبل قوات الاوان ، فسارع الى بيت فينى ، غير ان هذا الاخير كان قد ذهب الى المستشفى فعلا ، وأوشك بيتشام أن يضطر الى استخدام قبضتيه قبل أن يتمكن من استخلاص العنوان من مدبرة المنزل ، فلاحق فينى قبل نصف ساعة من الموعد المحدد لاجراء العملية .

كان من الغضب في حال . لكن فينى هو الآخر اخضر وجهه غضباً، وصمم على أن يطرد مدبرة منزله . أخذ بيتشام يجأر بأعلى عقيرته حتى هرع الى الغرفة كل من بالمستشفى من ممرضات ، فقال للرئيسة :

— اسمعى . هذا الرجل لن يدفع لكم مليماً لانه مفلس . وهو لم يأت اليكم لاجراء هذه العملية الا لانه غارق في الديون الى اذنيه ويريد أن ينصب على دائنيه . وفي جيبي الآن جريدة بها خبر انتحار صاحب المطعم كراول الذى خرج من نفس الورطة بالطريقة عينها التي يريد هذا السيد الفاضل أن يضع بها حداً لمتاعبه ! وصدقيني أن الصحف سوف تثير تساؤلات خطيرة حول تورطكم في مثل هذه الصفقة . ومن يدري ؟ لعل بعضهم سيثير الشك في نفوس القراء باعتبار أن جراحيتكم يتربحون من وراء هذه العمليات الانتحارية !

فلم يجد فينى مناصاً من دفع تكاليف الإقامة وأجر العملية مقدماً، لكنه حصل على بفيته ، وأجريت له العملية التي طالما هدد باجرائها . وخلال أسبوع من تلك الاحداث كان بيتشام قد توصل الى تقدير دقيق الى حد ما للأسلاب التي سستمخض عنها عملية احتلاب شركة النقل البحري .

كانت ميتة كراول ناقوس انذار بالنسبة لماكهيث . لم يكن ماك غافلاً عن شئون حميه . والحقيقة أن فاني كانت قد بدأت ، منذ وقت ، في تشم أخبار بيتشام ، بناء على تعليمات منه . فقد تزايد اهتمامه بصفقة مراكب النقل القائمة بين حميه وبين السمسار كوكس ، خاصة بعد أن أخبرته بولى بما قاله لها أبوها من أن كوكس قد دفعه الى حافة الحراب . وقد ألقى انتحار كراول مزيداً من الضوء على خلفية العملية كلها . وعندما استجوب بولى ،

علم منها أن كوكس زار أباه ليلة الحادث ، بعد أن انتحر صاحب
المطعم في مكتبه ، وأنه ظل يجار في مكتب أبيها كالمجنون متهما ببيتشام
بأنه يلعب بذييله ، وأنه يريد أن يقضى عليه . بدا واضحا لماك أن كلا
من بيتشام وكوكس مشتبك مع الآخر في صراع حياة أو موت ، وان
لم يبد بنفس الوضوح هل ذلك الصراع دائر بينهما أو أنه قائم
بينهما معا وبين طرف آخر .

قرب الظهر عادت فاني ، بعد أن جاءت صباحا حاملة اليه
الصحف التي نشرت خبر الانتحار . كانت قد قامت بزيارة لبيت
المنتحر .

كانت زيارة مجزية ، خرجت منها فاني بوفرة من المعلومات . فقد
قابلت أرملة كراول ، وهي امرأة قبيحة ، مخضلة الوجه بالدموع ،
فقدت كل قدرة على التحكم في مشاعرها ، توصلت خلال خمس دقائق
لا أكثر الى تحميل العالم كله مسئولية انتحار المرحوم ووزر
متاعبها التي لا تحصى .

قصت فاني على ماك متقرزة كيف أن المرأة أخذت تصرخ بمحضر
من أبيها العجوز :

— ما الذي أفعله الآن بهذا العجوز المحطم الذي لا يريد أن يموت ؟

لقد انتهى تأمينه ولم تعد فيه جدوى لأحد .

هز ماك رأسه أسفا لهذه الجليظة ، لكن ذهنه كان مشغولا بما
هو أهم . فقد اكتشفت فاني أن شركة النقل البحري قد أصبحت ،
فيما يبدو ، خاضعة تماما لسلطان بيتشام ، وأن الشركة في موقف
حرج للغاية ، وأن كوكس يضع بيتشام تحت سيطرته الكاملة ، أو
على حد قول فاني « كما فعلت أنت بالنسبة الى هوثورن » ، وانهم
سيحتاجون في القريب الى مبالغ ضخمة من المال ، خلال أسابيع
قليلة على وجه التحديد ، لكن بيتشام قد توصل الى شيء ما رفع
عن كاهله ذلك العبء الذي لا يطاق ، فذلك هو التفسير الوحيد
لعدم محاولته سحب أمواله من بنك الائتمان الاهلي .

لم يغب عن ماك أن ذلك الشيء الذي قالت فاني أن بيتشام توصل
اليه هو تليفيق تهمة القتل له تمهيدا لتزويج بولي من السمسار
كوكس ، وأن بيتشام اذا فشل في ذلك لن يكون امامه الا الوفاء
بالتزاماته في شركة النقل البحري كالاخرين ، وأن زيارته لبنك
الائتمان الاهلي باتت — لذلك — متوقعة من ساعة الى أخرى .

لم يكن ماك قد عين في مجلس ادارة البنك بعد ، لكن الاجراءات
الخاصة بذلك كانت موشكة على الانتهاء . كل شيء بات متوقفا الان

على كسب الوقت ، وما عليه ، لكي تنجح خطته ، إلا أن يبقى على بائنة بولى في خزائن بنك الائتمان ويطلق بولى ذاتها - ولو مؤقتا . ولا يعنى ذلك أنه سيفقدها ، لأنها ما زالت حاملا منه ، وهو ما يكفل له أن تظل مخلصه . وعلى أية حال فانه ، مهما كان الثمن ، يجب أن يتم مهمته .

في مساء ذلك اليوم ذاته استدعى محامى بيتشام ، الاستاذ والى ، وأعلنه بموافقته على الطلاق . كان كوكس لا يزال يزور آل بيتشام ، بل وأخذ يصحب اخته معه في الآونة الاخيرة ، بحيث باتت العلاقة بين العائلتين حميمة للغاية . وقد انسحرت مس كوكس بكل من مسز بيتشام وابنتها ، فكانت السيدتان تجلسان مستفرقتين في لعب الورق ، بينما بولى تبرز لوحة تمثل انتصار لورد نلسون في موقعة الطرف الأغر ، وفي المساء يأتى السمسار ليصحب اخته الى البيت ، فيجلس مع السيدات بضع دقائق ، ولا معدى من أن يطلب الى الخوخة أن تسمعه قطعة على البيانو ، فتعزف له وتجيد العزف ، فوق أنها حسنة الصوت ، وكماها المصنوعان من التل ينحسران عن ذراعيها وهى تعزف ، فيستطيع المرء أن يشبع عينيه منهما حتى المرفق .

كلما نظر اليها كوكس وهى تعزف على البيانو ، استطاع أن يفهم الاسباب التى دفعته ذات يوم الى التفكير فى الزواج منها . فهى فتاة ذات صفات عظيمة .

كتب في يومياته ، مناقشا نفسه : « هل يجب أن تتأثر مشاعر المرء تجاه فتاة مجرد أنها استسلمت له مرة ؟ وما قيمة تلك المرة اليتيمة المؤسفة المنقوصة ؟ لم لا أفكر في ذلك النزوع الداخلى المسيطر الذى يجد اشباعه الاعظم فى اخضاع المرأة ، فى غزوها غزوا كاملا ؟ علام ذلك الفتور اذن بعد تملكها مرة ؟ وهو ما يحسه المرء حتى ولو لم تكن الفتاة عذراء ! ليست البكارة اذن هى المحك بل شئ آخر . هل ينبغى للاعتبارات الاقتصادية البحتة أن تلعب دورا فى حياة المرء الروحية ؟ هل ينبغى لى أن أتأثر داخليا ، روحيا ، اكون الخوخة لم يعد من المستطاع التفكير فى اتخاذها زوجة بعد أن خسر أبوها كل هذا المال ؟ أنا طبعا المسئول عن تلك الخسائر .. لكن لعل الغريزة لا تقيم وزنا للعلل والاسباب ، فتصرف دائما الى الوقائع .. وعلى أية حال ، فشعورى الان شعور غربة كاملة ، كأنها لا تعرفنى ولا أعرفها .. »

لو وقف مستر بيتشام على هذه المشاعر لانتابه ذعر . لذلك تعين
اخفاؤها عنه . وقد اخفاها السيد كوكس ، فتتابعت باقات القرنفل
التي دأب على اهدائها للأسرة وكبرت من يوم الى يوم .
وفي أواخر سبتمبر علم أن ابنة السيد بيتشام متزوجة ، مندسنة
أشهر من شخص يدعى ماكهيث ، فدهش كثيرا ، لكنه لم يقل
شيئا ، واختزن تلك المعلومة لكي يستخدمها مستقبلا .
ثم كانت حادثة انتحار كراول ، وبات لدى كوكس سبب جيد
مشروع لكي « يلوى بوزه » ، والحقيقة أن حادث الانتحار سبب له
مضايقات لا يستهان بها . فقد كان ، لأسباب تتعلق بالعمل ، عضوا
في ناد محترم للغاية ، فلما نشرت الصحف انباء تلك الحادثة غير
المستساغة التي وقعت في مكتبه ، وجد نفسه مضطرا الى الاستقالة .
والادهى من ذلك أن اسمه بات مهددا بأن يتردد علنا في فضيحة
السفن النخرة اذا ما أطلق انتحار ذلك المافون مثل تلك الفضيحة
من عقابها .

على أية حال ، هيا انتحار كراول لصاحبنا كوكس عذرا ظل
يتلمسه طويلا ليقطع ما بينه وبين بيتشام . لكنه استمر في زيارته
لسر بيتشام وابنتها ، وما على بيتشام الا أن يطمئن نفسه فيما
يتعلق بنوايا كوكس المستقبلية من استمرار تلك الزيارات الودية
لنساته . غير أن عمال ارضفة الميناء ما لبثوا أن ضربوا ، فجمعت
المصلحة المشتركة بين الرجلين من جديد .

كان بيتشام قد لجأ الى أكثر من حيلة لتخفيض اجور العمال ،
واستمرأ ذلك ، حتى فوجيء ذات صباح بخمسة فقط من العمال
الذين يبلغ عددهم مائتين يحضرون للعمل على السفن ، بينما وقف
الأخرون أمام أبواب الارصفة ليمنعوا غيرهم من عرض خدماتهم .

كانت تلك مفاجأة مزعجة ، بل خطيرة . نعم من الممكن تأجيل
موعد تسليم السفن بسبب الاضراب ، لكن كوكس ، الذي جعلته
تلك المصاعب المشتركة يجنح الى شيء من اللين ، صرح بيتشام
أن رغبة الحكومة في شراء سفن لنقل الجنود من شركة النقل
البحري ليست حارة ، وان الحكومة - في حقيقة الامر - لديها ما
يكفيها من السفن ويزيد - وكل ما في الامر أن هيل كان قد
اكتشف أن الدوائر العليا لا مانع لديها في الحصول على بعض
سفن اضافية ، فرتب أموره بحيث يطبخ هذه الصفقة ، وأنه ،
عندما تم توقيع العقد ، اتفق مع بعض أصدقائه في وزارة الحربية

— منعا لاية أسئلة محرجة عن الداعي الى التعاقد على تلك السفن —
على تخصيص شحنة من الجنود العائدين الى الوطن للسفن الجديدة
المشتراة من شركة النقل البحري ، وأن تلك الشحنة من الممكن
طبعاً أن تنقل بوسائل أخرى ، ومن رأى كوكس أن هيل هذا
شخص لا خلاق له ، وأنه قد يلجأ — في أية لحظة — الى الابتزاز
منهم .

لهذا سارع بيتشام ، فقام بحملة واسعة ، بذل خلالها كل ما
وسعه من جهد ، لاستئناف العمل على السفن الثلاث . وقد بدأ
تلك الحملة ، متستراً وراء بعض الهيئات العامة المنافحة عن الصالح
الوطني ، فندد « بأساليب الابتزاز البروليتارى التى لا تتورع عن
استغلال محنة الامة » . ولما كان الشئ بالشئ يذكر ، فان التداعى
المنطقى انتهى به الى التفكير فى العسكريين ، وللغور بدأت ورشته
تنتج الملابس العسكرية بالمئات ، وبأقصى سرعتها . فقد وضع
خطة مظاهرة يقوم بها مئات من « المحاربين القدماء » ، و « ضحايا
الحرب » من الأبطال ضد العمال الخونة المضربين ، أخذاً فى اعتباره
التأثير العميق الذى سيحدثه اشتراك جرحى الحرب من الجنود فى
مظاهرة كهذه دفاعاً عن صالح الوطن ، خاصة متى حصلت المظاهرة
على تغطية صحفية متخصصة

فى قلب هذه الدوامة من الخطط والانشطة ، انفجرت الانباء التى
حملها الاستاذ والى عن استعداد ماكهيث لقبول الطلاق ، بحيث
بدا كما لو كانت ورطة مستر بيتشام الرهيبة على وشك الانتهاء ،
بالتوصل الى التحالف الذى طالما سعى إليه مع مستر كوكس ،
ووضع حد لهذه النكبة التى ظلت تهدده طيلة الشهور الثلاثة الاخيرة

لكنه لم يهنأ طويلاً بانتصاره ، لانه عندما حمل تلك الانباء
المفرحة الى ابنته ، أجابته وهى تغلى غضباً :
— أى طلاق يا رجل يا مجنون ! أنا حامل !

فطاش صوابه . غير أنه ما لبث أن صاح فى وجهها :
— لكنك مع ذلك ستطلقين . ستطلقين وستذهبين الى طبيب
من فورك ! أتظنين أنى سأدع الخراب يحيق بى من أجلك ومن أجل
شهواتك الدنيئة ؟ أنا أيضاً لى مشاعر مثلك ، ولن ادع أحداً
يدوسنى بقدميه . فاذا ركبت رأسك سأذهب الى فراشى ، وأدير
وجهى الى الحائط ، فأدع كل شئ يذهب الى الشيطان ، وسرعان
ما تجدين نفسك أنت وأمك فى ملجأ المعوزين !

كان قد حزم امره ، فانطلق في طريقه لا يعوقه شيء ، غير ناظر
يمينه أو يسرة ، ذاهبا الى غايته ككلب صييد التقط أنفه رائحة
الفريسة .

لكنه كان مخطئا . لم يكن يعرف .

ولعله كان حريا بأن يغير مخططاته من أساسها لو علم أن السمسار
يعلم بأمر الزيجة التعسة التي انساقت اليها ابنته الحمقاء ، ولو
علم أيضا بأن تلك الابنة الفاسدة قد أطفأت شهوة الملعون كوكس
اليها ، فنامت معه في آخر زيارة قامت بها لمنزله . لكنه لم يكن
يعرف .

في تلك الامسية ذاتها زارت بولي زوجها في السجن .

هدأ ماك من روعها ، وقال لها أن الامر كله مناورة للخروج من
مأزقه ، وأن اجراءات الطلاق تستغرق وقتا ، فهو لا يتم بين يوم
وليلة ، فوق أنه لا توجد محكمة تحكم به اذا ما كانت الاسباب
واهية ، وبذلك يمكن تدبير الامر بحيث ترفض المحكمة طلب الطلاق
في اللحظة الاخيرة ، لكن لا معدى الآن من الموافقة على بدء
اجراءات الطلاق تنفيذا لرغبة أبيها الذي يضيق عليه الخناق بعنف
بعد ان تمكن منه وواقعه تحت رحمته تماما . قال لها مستفظعا

انه يستطيع أن يشنقني ! ولسوف يفعل ، بلا أدنى تردد .

انت تعرفينه !

وهنا قالت بولي أنها مضطرة للذهاب الى طبيب يجهضها ، فقد
اعترفت لابيها في غمرة اضطرابها ، عندما باغتها نبأ موافقته على
الطلاق ، بأنها حامل .

ذعر ماكهيث لهذا النبأ . لم يعمل حسابا لشيء كهذا . قال
بصوت مختنق ، دون أن ينظر الى زوجته ، ان ذلك شيء لا يمكن
التفكير فيه بطبيعة الحال ، فهو لا يستطيع أن يضحي بطفله ، اللهم
الا اذا كان ذلك لا مهرب منه .

والحقيقة أن الامر أزعجه كثيرا . ففضى نصف ليلته مؤرقا بعد
ذهاب بولي . لم يكن مجردا من غريزة الابوة ، وقد فرح قلبه كثيرا
عندما علم أنه سيرزق بابن . والآن يريدون أن يحرموه من ابنه .
هذا ظلم . قال ذلك لنفسه ، وأستسلم لتأملاته المحزونة حتى أحس
وهو موشك على الاستسلام للنوم أنه بكل ما فعله ويفعله ، يمثل
بطولة الجنس كله في الدفاع عن الاجيال القادمة التي يمثلها ابنه ،
فهو طبعا لم يقدم على هذه المغامرات كلها الا من أجل ذلك الابن .

قال لنفسه :

— أما والله ! ما جدوى هذا العناء والتعب كله طالما كان مقضيا علينا بأن يأخذنا الموت وينتهي أمرنا فلا يعود يذكرنا أحد ، ولا يعود هناك من يواصل ما بدأناه من عمل ؟ لماذا أجد نفسى سجينا فى هذه الزنزانة ، ان لم يكن ذلك من أجل ابنى ؟ أى شىء آخر يمكن أن يمنحنى القوة على الانتصار ؟ سوف آخذ يده الصغيرة فى يدي ، ونسير معا للتفتيش على الدكاكين التى ستصبح ذات يوم ملكا له ، وسوف أقول له : انظر يا ابنى . كل هذا تكلف كثيرا من التعب والشقاء ، لا تنس هذا أبدا ! لقد تصيب أبوك بدل العرق دما حتى يكون لك مثل هذا الميراث . لم يكن أبوك يعمل من أجل نفسه فقط . لكنه لا يطلب منك عرفانا ولا شكورا ، كلا ، كلا . انه لا يقول لك شيئا من كل هذا الا لكى يجعلك تدرك أننا ، أنت وأنا تربطنا معا روابط كثيرة . سوف يموت أبوك عندما يأتيه أجله ، واذ ذاك سوف تحمل أنت الامانة ، وتواصل الكفاح تخليدا لذكراه ، ومن أجل نفسك أيضا ، ومن أجل أبنائك . نعم . سأقول له كل هذا ، وسوف يفهم . سوف ادعوه ديك .

كان يعنى كل كلمة جالت بذهنه . لكنه فى صباح اليوم التالى قال لبولى انها يجب أن تنصاع لرغبة أيتها فتذهب الى الطبيب وتتخلص من ديك لان ذلك لا معدى عنه ، آملا : فيما بينه وبين نفسه ، أن تسوف هى فى الذهاب الى الطبيب يومين أو ثلاثة على الاقل ، يكون قد توصل خلالها الى تحقيق شىء يجعل العملية غير ضرورية ، لكنها يجب الآن أن تكون مستعدة لاجرائها حتى لا تعطى أباهما أى مبرر للارتياح فى نواياهما .

فلم يكن بوسعه أن يضيق — لاي اعتبار مهما كان — من الفسحة التى حصل عليها بموافقة على الطلاق ، لكى يتوفر له الوقت اللازم للقيام بالضربة المباغثة التى أعد لها فيما يتعلق ببنك الائتمان الاهلى .

كانت موافقة على الطلاق والاجهاض خطوة أولى . أما خطوته الثانية فتعلقت بالقرن ونصف قرن . استدعاها الى السجن ، وتركها ينتظرانه نصف ساعة بأكملها قضياها فى حرج عظيم بين أقارب المساجين من الحثالة والناس الطبيين من الجنسين ، فلما سمح لهما بدخول زنزانته ، استقبلهما أسوأ استقبال ، صائحا فى غلظة ، قائلا ان اجراءات ضمه الى مجلس ادارة البنك طالت كثيرا ، وأنه بدأ

يضيق بهما وبالاعيبهما ، وأنه لا يستطيع أن يفهم ترفعهما عن ادخاله
معهما في بنكهما الذى يسرى فيه الفساد من قمته الى قاعدته . ثم
أخذ يناقش معهما بعد ذلك أحوال كرستون .

كان كرستون قد توصل الى اتمام أسبوع مبيعاته دون أن يقترض
مزيدا من المال . ولم يكن قد أفاق من دهشته بعد لاقدام منافسه
على شراء مخزونه من البضائع . لكن الاسعار ، بطبيعة الحال ،
كانت دون المعدل بكثير . كما أزعجته كثيرا الحملة الاعلانية المركزة
عن أسبوع المبيعات المزمع لمحللات هارون ومحللات حرف «ب» ،
لان الجمهور كان يترقبه بلهفة . لكنه لم يكن يعرف شيئا بطبيعة
الحال عن دخول ماكهيث الوشيك عضوا في مجلس ادارة البنك
الذى يموله .

والآن عمل ماكهيث على ابلاغه أن كميات كبيرة من البضائع التى
باعتها محللاته خلال أسبوع المبيعات المشهور قد ثارت حولها ريب
قوية ، من حيث أن أوصافها وكمياتها تتفق مع أوصاف وكميات
بضائع مسروقة من مانشستر ، ولذلك فإنه يحسن بالسيد
كرستون أن يقدم الفواتير التى اشترى بها تلك البضائع .
فجاء كرستون مهرولا ، بشخصه ، بطبيعة الحال .

كان مستر كرستون سيدا مهيب الطلعة ، معروفا ، شاحب
اللون ، يكره أطباق اللحم ، والقساوسة ، واليهودى هارون . دخل
زنزانة ماكهيث وهو فى أقصى حالات الانزعاج ، فاستقبله ماك
بتحفظ شديد ، لا يبشر بخير ، وقال له بلهجة مشئومة :

يا سيد كرستون ، ان الاسباب التى تأتى بك الى هذا المكان
اسباب محزنة . وينبغى أن أصارحك القول بأنى عندما سمعت
بالامر لم أصدق أذنى ، وما زلت لا أصدق أن كميات هائلة من
البضائع التى بعتهما فى الاوكازيون مسروقة . أمل أن تكون لديك
فواتير تثبت عكس ذلك ؟

لكن مستر كرستون لم تكن لديه فواتير .
قال أنه اشترى تلك البضائع لان ائمانها كانت منخفضة للغاية
ولانه كان فى أشد الحاجة الى بضائع بعد أسابيع بأكملها من المنافسة
القاطعة للرقاب . بدا شاعرا بالذنب وهو يقول ذلك كما لو كان
قد ضبط وهو يلتهم طبقا من اللحم بالمناقضة لمبادئه النباتية .

لكن ماكهيث لم يظهر أى رحمة تجاهه . أخذ يتحدث ، بورع

بالغ ، عن المنافسة الشريفة ، وعن حكمة القانون عندما يثقل الوطأة على من يتسلم بضائع مسروقة أو يبيعها بنفس القدر الذي يثقل به على سارقها ، قائلا أنه سيبيع هذه البضائع عينها في أوكازيونه المقبل ، لكنه سيفعل ذلك وتحت يده فواتير تغطي كل سلعة منها ، هي الايصالات التي حصل عليها من محلات مستر كرستون ، لكن مستر كرستون ذاته لا يستند بظهره الى مثل هذه الفواتير ، ولذلك فان موقف مستر كرستون حرج للغاية ، في الواقع مخيف . فلما حطمه تماما ، باعته بخبطته الكبرى . قال له باقتضاب وغلظة أنه موشك على دخول مجلس ادارة بنك الائتمان الاهلي . فلما ترنج كرستون تحت وطأة هذه الضربة ، أجهز عليه بالشروط التي يمكن لكرستون ، أو بالاحرى لمحلاته ، أن تنضم في ظلها - اذا أرادت البقاء - الى مجموعة المحلات التي يديرها مستر ماكهيث ، وتمونها بالبضائع شركة م.م.م.

تقوس ظهر مستر كرستون ، وطاش صوابه . ها هو غريمه ومنافسه يصعد على جثته ويضع قدمه على عنقه ، فيدخل مجلس ادارة البنك الذي يملك حياته أو موته . لم يكن الرجل غرا . فاتضح له ابعاد الموقف كاملة من فوره .

نودي على السجنان وأمر باحضار ورق وقلم . وسرعان ما كان السيدان جالسين يسودان الورق بأرقام عديدة ويشيران اليها بطرفي سيجاريهما المتوهجين . كان مستر ماكهيث يحلى حائطا من حوائط زنزانتة بخريطة كبيرة زرقاء خضراء لمدينة لندن . وقف امامها يضع دوائر حمراء ثقيلة تحدد مناطق بعينها يتركز فيها استهلاك البضائع التي تتعامل فيها محلاته ومحلات كرستون ، ثم أخذ يضع خطوطا حمراء تحت أسماء أماكن بعينها ، ويرسم شبكة معقدة من خطوط شملت المدينة كلها وضواحيها قال انها شبكة التوزيع الخاصة بمحلات ب.ك « ب و كرستون » . ثم أوضح أن عددا كبيرا من محلات كرستون يجب أن تتم فيه تغييرات جوهرية ، وعددا آخر يجب أن يدمج أو يباع . وهكذا وقف كجنرال عتيذ يضع خطة غزو كبيرة ، يقضى بقلمه الاحمر في مصائر تلك الدكاكين بغير رحمة ، قائلا أن « بنكه » يجب أن يسترد كل ماله ، مضيفا بانفعال :

— ولا تنس أن البنك تملكه طفلة صغيرة مسكينة ، قد أسىء استخدام اموالها بطريقة مجردة من الشرف . وقد امتد ذلك الى

أموال أناس آخرين أيضا . يجب وضع حد لكل هذه التصرفات غير الاخلاقية . يجب أن اكون في وضع يسمح لي بتحمل المسؤولية كاملة تجاه الطفلة المسكينة صاحبة البنك . أنا لا أستسلم للعواطفية لكني لن أسمح أبدا بأن يقال عنى أنني أسرق الاطفال واليتامى . ان الاطفال هم مستقبل انجلترا . هم الاجيال القادمة . لا يجب أن ننسى ذلك ولو لمدي لحظة .

قال بعد ذلك أنه يجب طبعا أن ترفع الاسعار ببطء ، وأن «جودة الصنف» يجب أن تتسلل الى الاعلانات ويبدأ لتحل محل « رخص الثمن » .

وصف ماك تلك المقابلة لفانى فيما بعد فقال :

— كانت ، في واقع الامر ، أشبهه بحوار من جانب واحد . سألته : هل أنت على استعداد لتحمل مسؤولية أفعالك ؟ فأجاب كلا طبعا ، بلا أدنى تردد . فقلت له اذن فأنت لا ترغب في المحافظة على استقلالك بأى ثمن ؟ قال كلا ، ليس بأى ثمن . قلت أنت تفضل أن تسلم بالهزيمة اذن وتحنى عنقك لادوسه بقدمي ؟ قال بكل تأكيد ، فذلك فى النهاية أقل تكلفة . انه ليس من أولئك الذين يمكن أن يصفهم المرء بالعظمة . لديه القدر الكافى من رجاحة العقل . فالحقيقة أنه لم تعد هناك جدوى تذكر في حكاية العظمة هذه .

بعد كرستون جاء الدور على هوثورن وميللر ليذوقا الذل على يد ماكهيث . قال لهما انه آسف ، لكنه مضطر الى أن يحصل من مستر ميللر على اعتراف خطي فحواه أنه (أى ميللر) قد اختلس وديعة السيد بيتشام على مسؤوليته الخاصة ، وبغير علم من مستر هوثورن ، ليضارب بها ، وذلك حتى لا تسيء هذه المسألة المؤسفة الى اسم البنك ذاته .

انهار ميللر تماما . أسند رأسه الذى جلله الشيب الى ظهر مقعده وانخرط فى البكاء . لكنه ما لبث أن تماسك ، فهم واقفا وألقى الخطبة المؤثرة التالية :

— كلا يامستر ماكهيث ! لا أستطيع أن أفعل ذلك . لا أستطيع أن أوقع وثيقة كهذه التى تريدها أقر فيها بأنى استخدمت أموالا عهد الى البنك بها واأتمنتنى عليها . هل تدرك معنى ذلك : اأتمنتنى عليها ؟ افرض أنك جئت الى كمودع قوضعت بين يدي مالك الذى شقيت فى جمعه ؟ افرض أنك جئتنى فقلت لى : مستر ميللر ، هاك

ثروتى ، انى اضعها امانة بين يديك القديرتين ، خذها واستخدمها لمصلحتى بأفضل ما تسمح لك به خبرتك ومقدرتك ، فانا أثق بك ، وأتأكد عليك ، لانك رجل شريف . والآن تريد منى أن أقول لمثل ذلك المودع : لقد ضاع مالك . أنا ما زلت هنا لكن مالك ضاع منى ؟ أبدا ! أسمع يا مستر ماكهيث ؟ أبدا . لن أستطيع أن أفعل ذلك أبدا .

- لكنك ، فعلا يا مستر ميللر ، ما زلت هنا ، بينما أموال مودعك لم تعد هنا . ضاعت !

فقال مستر ميللر :

- نعم ..

وانحط جالسا وقد ارتسم على وجهه تعبير كذلك الذى يرتسم على وجه طفل انتابته الدهشة .

جلسوا ثلاثتهم خمس دقائق فى صمت تام ، قلم ينبس أحدهم ببنت شفة ، حتى هم ميللر واقفا وهو يتمتم لنفسه ، وانصرف وهو مازال يهز رأسه علامة الرفض . لكن هو ثورن عاد بعد ساعتين لا أكثر بالاقرار موقعا ، واسم ميللر مكتوب فى ذيله ، واضحا جليا ، مرسوما بعناية وكان كاتبه تلميذ حديث عهد بتعلم الكتابة .

توسل هو ثورن الى ماكهيث بصوت يرتعش من فرط الانفعال أن يدع ميللر ، ولو مؤقتا على الأقل ، فى مكتبه بالبنك - بغير مرتب ، بطبيعة الحال - لان الرجل لا يعرف ما الذى يمكن أن يقوله لزوجته وجيرانه .

فوافق ماكهيث على ذلك الطلب .

وفى نفس اليوم تمت الموافقة على دخول ماكهيث عضوا فى مجلس ادارة بنك الائتمان الاهلى .

وبذلك انزاح عن صدره عبء ثقله طن . يستطيع هارون والاخوان أوير أن يعرفوا الآن أن رئيس مجلس ادارة شركة م.م.م. اسمه ماكهيث ، لان مدير بنك الائتمان الاهلى بات يدعى الآن ماكهيث أيضا ، فوق أن الصديق الجديد الذى ظهر لمستر كرسون فى دنيا الاعمال اسمه ماكهيث أيضا .

بعد الغداء ذهبت بولى الى مسز كراول . مرسله من طرف أبيها ، الذى باتت تقوم مؤخرا ببعض واجباته فى رعاية فقراء الابراشية .

تأثرت الارملة كراول كثيرا لسلة الطعام الصغيرة وزجاجة

السايدر اللتين أحضرتهما بولى معها ، ثم أخذت تشكو مر الشكوى من عدم انسانية شركة النقل البحرى التى حجزت على كل اثاث البيت عدا الاثاث الضرورى للغاية « بالنسبة اليها » ، ثم أخذت تشكو من أبيها العجوز الذى جلس يستمع اليها محزوناً وهى تقول لزازراتها :

- ما الذى أستطيع أن أفعله به ؟ انه أسوأ من الاطفال ، لانهم على الاقل لا يوسخون البيت مثله . وقد أصبحنا الآن فقراء بعد أن ضيع المأفون زوجى كل ما لدينا فى مضارباته الحمقاء
فقالت بولى بعطف :

- لو كان بالوسع فقط تدير بعض المال، لامكننى - فيما يحتمل - أن أقنع زوجى بأن يسمح لك باستئجار أحد دكاكين حرف « ب » . لكن حتى هذه الدكاكين الصغيرة تحتاج الى قدر من رأس المال لتقف على قدميها .

كانت غاية فى اللطف مع مسز كراول ، حتى لقد بدت الغرفة العارية أكثر اشراقاً فى عيني الارملة وزائراتها الحسناء جالسة فيها واضعة السلة الفارغة على ركبتيها .

ترددت مسز كراول لحظة ونظرتها الخائبة تمر فوق الاثاث المزرى ، فتتخطى العجوز وكأنه لا وجود فى الغرفة له ، ثم قالت فجأة :

- قد يكون هناك احتمال واحد . هذا العجوز له أخت قد تكون على استعداد لمدا بعض المال - ليس لديها الكثير - لكن مثل هذا الاستثمار المضمون قد يفريها .
ثم استدارت الى العجوز قائلة :

- ما رأيك ؟

فلم يقل العجوز شيئاً ، وفى معظم الظن أنه لم يسمع من قولها شيئاً ، أو يفهمه ان كان قد سمعه . فلم يكن ، فيما بدا ، متمتعاً بكامل قواه العقلية .

أخذت المرأتان تناقشان الفكرة بعض الوقت ، وعندما قامت بولى لتنصرف وعدت الارملة بأن تطلب لها من زوجها مستر ماكهيث دكاناً من دكاكين حرف «ب» . وقد نسيت كل شىء عن الامر طبعاً بمجرد أن أغلق الباب وراءها . لكنها لم تقصد الاساءة الى أحد . كل ما فى الامر أنها كانت تتورط فى مثل هذه الوعود دائماً حتى تجعل الناس يحبونها .

فوق أنها عندما عادت الى بيت أبيها وجدت مفاجأة غير مستحبة

في انتظارها أنستها كل ما يتعلق بالارملة كراول ومصائبها .
استدعيت الى مكتب أبيها الذي أخبرها باقتضاب أن الافاق زوجها
قد وافق على عملية الاجهاض ، وأنه بعث بتلك الرسالة مع رجل
مريب يدعى جروتش أبلغه اياها شخصيا ، وأن هناك رسالة
شخصية لها تنتظرها في غرفتها .

قرأت بولى الرسالة فأحست أنها قد طعنت في الصميم . الى
هذا الحد لا يقيم ماك وزنا لابنه ؟ لان الوليد الذي في أحشائها ،
- فيما يعرفه هو - ابنه ، لانه لايعرف شيئا عن سمايلز . هذا
فظيح ! أغضبته موافقته الى حد أن قالت لامها أنها تريد أن
تذهب الى الطبيب فورا ، وأنها تعرف طبيبا يقوم بهذه العمليات
مقابل خمسة عشر جنيها .

غير أن مسز بيتشام رأت التريث في زيارة الطبيب الى أن تتم
تجربة أقراص الكينين أولا ، لكنها اكتشفت أن الحمل ليس في شهره
الاول ، فتألمت كثيرا وقالت لابد من الذهاب الى الطبيب اذن .

ذهبتا الى الطبيب بعد تناول الشاي مباشرة ، وقد بدا أن الرجل
لم يتذكر بولى ، لان مريضاته ، فيما يحتمل ، لا يحصى لهن عدد ،
فوق أنه فوجيء بموقف جديد نسبيا هذه المرة ، اذ جاءت الفتاة
مع امها ، وقد ألف أن يجرى ترتيباته مع المريضات رأسا بغير تدخل
من الاسرة التي يغلب الا تعلم عن الامر شيئا . لذلك جلس محوطا
بأسلحته اللامعة ، وأخذ يمسح بيده على لحيته الناعمة الجميلة ،
التي لا يوجد أى ضمان على خلوها من البكتريا تماما ، ثم قال لمسز
بيتشام وهو ينغم صوته بما يعطى لكلماته وزنا وخطورة :

- ياسيدتى العزيزة ، أحب أن أعرفك أن هذا الامر الذى
تطلبينه لا يتفق مع القانون ، ولا يتماشى مع مقتضياته ...
لكن مسز بيتشام قاطعته بغير احتفال :

- نعم ، نعم . . أعرف . ستكلفنى العملية خمسة عشر جنيها .
فقد علمتها الاعوام الثلاثون التى قضتها مع زوجها مستر بيتشام ،
والكميات الهائلة من الكحول التى كرعتها ، أشياء كثيرة عن طبائع
بنى الانسان . لكن الطبيب اغتاض من مقاطعتها له فقال :

- من قال لك ذلك ؟ خمسة عشر جنيها لا تكفى لاجراء عملية
كهذه ياسيدتى الفاضلة . والحقيقة انى لا اتصور أى شيء جعلك
تتخيلين أنه من الممكن أن أجرى عملية كهذه بمبلغ كهذا .
ثم أضاف بنبرة تأله :

- العملية تتكلف اكثر من ذلك بكثير ياسيدتى . انها مسألة ضمير .

فسألته مسز بيتشام مفيظة بدورها :

- تقول ان العملية تتكلف أكثر من ذلك ؟ اكثر بكم ؟

- لنقل خمسة وعشرين جنيها ياسيدتى العزيزة ؟ لكن عليك أولا ان تسألنى ضميرك : هل تريدن حقا القضاء على هذه الحياة التى توشك ان تخرج الى النور . أعنى هل ذلك ضرورى ضرورة مطلقة لا مهرب منها ، كما فى حالة المرضى الفقراء الذين لا يستطيعون ان يتحملوا نفقات تربية طفل آخر - فذلك اعتبار ، وان كان لا يبرر العملية ، الا أنه يجعلها مفهومة على الاقل من الناحية الانسانية . الا ترين ذلك ؟

نظرت اليه مسز بيتشام متفحصة ثم قالت :

- انها مسألة ضرورة ، يا دكتور .

قال الطبيب وهو يرى زائرته وابنتها تهمان واقفتين :

- آه . ما دمت تقولين ذلك ، فالامر يختلف اذن . بوسـعك ان تأتى بابنتك فى تمام الثالثة من بعد ظهر الغد . علما بأن أتعاب العملية تدفع مقدما حتى لا يكون هناك ما يدعو الى ارسال فاتورة الى منزلك أو أى شيء من هذا القبيل . مع السلامة .

عندما غادرتا عيادة الطبيب قررتا أن تتناولوا بعضا من الجيلاتى فى أحد المحلات ، ثم وجدتا أنوقت مبكرا ، فقررتا الذهاب الى السينما .

دخلتا دارا من دور الدرجة الثالثة التى تتبع نظام العرض المستمر . جلستا تنظران الى شاشة مفيضة يبدو الممثلون عليها وكأنهم مصابون بالتشنج . ولنكد حظهما كان عنوان الفيلم : « اماء ! طفلك تناديك ! » .

بدأت القصة بفتاة أرستقراطية تستكمل زينتها استعدادا للذهاب الى حفل راقص . ارتدت بمساعدة وصيفتها زوجا من الكورسيهات ، ووضعت فى أذنيها وحول عنقها عدة أرطال من الحلى والمجوهرات ، ثم وقفت تتأمل صورتها فى المرآة فرحة ، ودخلت بعد ذلك غرفة جانبية ترقد فيها ابنتها ، وعى طفلة فى الثالثة ، متهالكة فى فراشها ، وقد وقف بجوارها طبيب مهيب الطلعة ، ملتحي الوجه يقيس نبضها . تبادل الطبيب بضع كلمات ، بدا أنها خطيرة للغاية ، مع الام الشابة ، لم يسمعها المشاهدون بطبيعة الحال ، لان الفيلم صامت ، لكنهم سمعوا

صوت المذيع البدين ، الواقف لصق الشاشة ، وهو يعلق على سلوك الام الرعناء التي استخفت بما قاله الطبيب الحصيف ، فعانقت الطفلة المريضة المسكينة ، وخرجت غير عابثة . قال المذيع بصوت حافل بالادانة :

- الطيش ، والرعونة ، وانعدام الاحساس ، والتكالب على الملذات ، تحالفت كلها على الام الشابة ، فاستدرجتها بعيدا عن فراش ابنتها المريضة لتذهب فتغمس في الملذات الزائفة التي ينساق وراءها من لا خلاق لهم .

وهنا تغير المشهد على الشاشة الى صالون بالغ الاناقة فيه أناس كثيرون من عليه القوم يرقصون . دخلت الام الشابة ، فأعلن خادم في ثياب مزركشة مجيئها ، واذذاك قفز عدد من السادة واقفين وخفوا لاستقبالها ، ثم دارت اقداح الشمبانيا ، وجلست الام الشابة بين فارسين أنيقين على أريكة شديدة الانتفاخ من القטיפه ، ثم أخذت تقوم بين الحين والحين لترقص ، فتطير من حضن هذا الى حضن ذاك كفراشة تدير رأسها الاضواء ، والمذيع يعلق محزوننا : والساعات تطير دون أن يلحظها أحد .

تغير ذلك المشهد الراقص ، وعاد الى الشاشة مشهد الغرفة التي ترقد فيها الطفلة المسكينة . وهنا بدا واضحا أن حالة المريضة قد ساءت كثيرا . ثم همت جالسة في فراشها الصغير فجأة ومدت يديها فى ضراعة الى الام الغائبة ، وسقطت على ظهرها . قال المذيع :

- آه . انها تموت . انظروا . انها تحتضر . لقد ماتت !

مرة أخرى المرقص الباذخ ، والام الشابة مطوحة رأسها الى الوراء تفرغ فى جوفها كأسا من الشمبانيا . وفجأة يتحول حائط المرقص فيصبح شفافا ، وتظهر وراءه غرفة الطفلة التي تنهض من فراشها ، وقد باتت شفافة بدورها ، وتقف لحظة وقد نبت لها جناحان صغيران فى كتفيها . ثم تطير فتنفذ من حائط المرقص الشفاف متجهة الى المنضدة الرخامية التي تجلس اليها أمها عديمة القلب ، فتتهاوى أمامها ، وتتلاشى اذ يبتلعها العدم . يقول المذيع :

- كما ترون تبدى للأم الرعناء رؤيا ، فتدرك أن ابنتها قد ماتت ، وان الطفلة المسكينة جاءت على هيئة ملاك صغير لتودعها الى الابد .

وهنا تسقط الام الشابة أرضا فاقدة وعيها ، ثم تظهر فى غرفة الثياب وهى تتلفع بفرائها بسرعة وتغمغم لنفسها قائلة ، كما يخبر

المذيع مشاهديه : « أرجو ألا يكون الوقت قد فات » . ثم تظهر بعد ذلك فى غرفة الطفلة ، وتخر على ركبتيها أمام مهد ابنتها ، فتضم جسدها الصغير الى صدرها ، وتلوى يديها ، ويدخل الخدم مسرعين يحاولون مواساتها ، لكنها ، فيما يبدو ، لا تستطيع ان تتحكم فى نوبة الاحساس بالذنب التى تمكنت منها ، ويترنم المذيع بختام الفاجعة شعرا فى صوت مختنق :

« فات الاوان ، فات الاوان ، وماتت ابنتك .
ولم يعد يجديك حزن أو ألم فى التكفير عن فعلتك »

جلست المرأتان حتى النهاية فى حالة من الذهول والرعب . كانتا قد جاءتا معهما ببعض الشيكولاتة ، لكنهما - لحسن الحظ - التهمتا كل ما كان معهما منها قبل أن تبدأ الميلودراما ، ثم بعد ذلك تسلط عليهما الفيلم تماما .

وعندما ماتت الفتاة الصغيرة وحيدة ، مهجورة من أمها الرعناء ، أحست بولى طعنة من ألم نافذ فى صدرها ، فمدت يدها فى الظلمة تبحث كالعمياء عن يد أمها ، ثم اغرورقت عينا كل منهما بالدموع عندما دخلت الفتاة الميتة غرفة المرقص مرفرفة بجناحيها ، فاردة ذراعيها ، وغادرتا دار العرض بعد ذلك وقد أثرت فيهما هذه الرائعة تأثيرا بالغ العمق .

قالت مسز بيتشام بتصميم قاطع وهما تسيران فى الشارع :
- لن آخذك ألى ذلك الطبيب بعد ظهر غد !

فارتاح قلب بولى التى كانت فى تلك اللحظة تتساءل كيف طاوعها قلبها على مجرد التفكير فى الموافقة على التضحية بطفلها مؤكدة لنفسها أنها لن تكون فى تلك الحالة أقل اجراما وفضاعة من تلك الام القاتلة التى ذهبت لترقص وتركت ابنتها الصغيرة تموت وحدها .

لم تفق المرأتان من تأثير ذلك الفيلم الا بعد منتصف الليل بكثير ، واذذاك صعدت مسز بيتشام الى بولى فى غرفتها ، فجلست على حافة فراشها وقالت لها :

- لا يجب ان تأكلى أى شىء فى صباح الغد والا أصبت بالفثيان بعد العملية من تأثير المخدر .
ظلت ترسانة الاسلحة اللامعة التى تضمها غرفة الطبيب تتراءى لبولى طوال الليل .

كان مستر بيتشام غاية في الانشغال .

استقبل في ذلك المساء الاستاذ وايد ، محامى ماكهيث ، وبصحبه فاني كرايزلر . كان بيتشام قد أصر على أن يحدد ماكهيث فوراً اسم المرأة التي سيتم اتهامه بالخيانة الزوجية معها والتي ستعترف بالزنا معه أمام المحكمة حتى يتم الطلاق . فلم يكن بيتشام على استعداد لان يترك أى شىء فى ذلك الموضوع كله للمصادفات . وقد اقترح ماك أحدى فتيات مسز لكسر فى تانبريدج ، فأحضرها الاستاذ وايد البدين معه الى شارع أولد أوك . لكن مستر بيتشام لم يرض عن تلك الشاهدة التي فاجأته بقحتها المفرطة وحديثها المعن في الصراحة ، قائلاً أنه لا يقبل أن تلحق بابنته مهانة كهذه أمام العالم ، ولو أنه - فى حقيقة الامر - خشى ألا تكون شهادة مومس كهذه مقبولة أمام المحكمة فلا يتم طلاق .

وعندما علم ماكهيث برفض بيتشام جن جنونه ، فأخذ يرغبى ويزيد قائلاً :

- كم من النسوة يجب أن اعترف بأنى اقامت علاقات مريبة معهن حتى تروق واحدة منهن للسيد بيتشام فيتعطف ويقبلها .
ومع ذلك فانه وافق على أن تحل فاني كرايزلر محل الفتاة التي تعمل لدى مسز لكسر .

حقيقة انه كان قد أصبح من مديرى البنك ، لكن الوقت لم يكن مناسباً بعد لاجداث قطيعة نهائية بينه وبين بيتشام ، خاصة بعد أن أصبح يعتبر هذا الاخير من عملائه ، بحكم كونه من مودعى البنك ، ولا شك أنه من مصلحة البنك أن يصفى ذلك المودع خلافاته مع خصمه بطريقة لا تدفعه الى سحب وديعته .

فى تلك المرحلة جال بذهن ماكهيث أكثر من مرة احتمال وقوع طلاق حقيقى يخلصه من مشكلة بولى .

قال لجروتش الذي أخذ يناقش معه - بطريقته المعهودة الخالية من كل كياسة - مدى صلاحية فاني للقيام بدور العشيقة فى قضية الطلاق :

- قد تنشأ ظروف عديدة تجعل من الضرورى وقوع انفصال حقيقى بينى وبين زوجتى . فيما يخصنى أنا قد يكون الطلاق أفضل شىء فى صالحى . لكنى حتى اذا اعترفت بعلاقتى مع فاني لن يوجد أى سبب يدعونى الى قطع ما بينى وبين زوجتى . فهى ما زالت حاملاً منى ، ولذلك فانها لا تستطيع أن تستسلم لنوازعها وتهرب

منى متعلقة بأى عذر تافه . لأن امرأة في مثل حالتها لا تقدم على شيء كهذا إلا لأسباب قاهرة . هذه فائدة الحمل فيما يخص حكاية الزواج هذه : أنه يربطهن بالرجل . صدقنى ان الطبيعة بارعة يا جروتش وأنها تعرف ما هى فاعلة . وهى تحصل دائما على ما تريد . ولم ؟ لأنها بارعة .



تصرفت فانى بطريقة طبيعية للغاية ، وتوصلت - كالعادة - الى اعطاء انطباع بأنها سيدة مهذبة . قالت أنها لا مانع لديها ، وأنها على استعداد لأداء الخدمة التى يطلبها مستر ماكهيث ، رغم أنها لا تجد نفسها ملزمة بذلك . فقاطعتها بيتشام بغلظة :

- ما هذا ؟ هل أفهم مما قلت أنك على استعداد للشهادة زورا لمجرد أن تؤدى خدمة لمستر ماكهيث ؟ لن يكون فى ذلك أى جدوى بالنسبة الى .

نظرت فانى دهشة الى المحامى الذى أشاح بوجهه وأخذ ينظر محرجا الى أحد أركان الغرفة العارية . قالت وهى تشعل سيجارة :
- أتعنى أننى يجب أن أصارحك القول بما حدث فعلا ، فأخبرك ان كنت قد نمت فعلا مع زوج ابنتك أم لا ؟
قال بيتشام :

- بكل تأكيد .

فضحكت ثم التفتت الى وايد قائلة :

- لست على يقين يا وايد مما اذا كان مستر ماكهيث يريدنى أن أخوض فى موضوع كهذا .

وقد أسقطت لفظة يا « أستاذ » عمدا لتبين أنها ند لوكل وايد على المستوى الاجتماعى .
قال بيتشام مفضبا :

- سواء أراد ماكهيث ذلك أم لا يجب أن اعرف ، ويجب أن تعرف زوجتى أيضا ، اذا لم يكن لديك مانع من ذلك . هذا الموضوع ليس بالبساطة التى تتصورينها .

ثم فتح الباب المبطن بالمعدن وصاح مناديا زوجته التى بدا أنها لم تكن بمبعدة ، لأنها سرعان ما دلفت الى الغرفة ، فجلست عاقدة يديها على بطنها ، محمقة بفضول فى زائريها .
قال مستر بيتشام مقديما فانى :

- هذه مس كرايزلر . لقد جاءت مس كرايزلر لتعترف لى أنها

على علاقة حميمة بالسيد ماكهيث منذ زمن طويل ، وان تلك العلاقة ما زالت قائمة حتى الان ، أى بعد زواجه . أليس ذلك صحيحا يا مس كرايزلر ؟

- صحيح تماما .

ثم أضافت برفق ، على سبيل التخفيف عن مسز بيتشام :
- أنا أدير بعض أعمال مستر ماكهيث ، وتجمعنى ظروف العمل كثيرا به .

ثم همت واقفة ، فوضعت ميسم سيجارتها فى حقيبة يدها ، وأومات برأسها محيية فى اقتضاب ، وخرجت . فتح لها وايد الباب بابتسامة محرجة .

نام مستر بيتشام فى تلك الليلة نوما عميقا لأول مرة منذ شهر . وفى صباح اليوم التالى هم بأن يجرى حديثه الحاسم مع كوكس ، فيعترف له بزلة بولى ويعلنه ، فى الوقت ذاته ، بموافقة ماكهيث على الطلاق . واذاك لن تكون هناك حاجة الى شراء سفن ساوثمبتون ، رغم أن الأموال اللازمة لشرائها ، بما فيها حصة بيتشام ، قد جمعت واكتملت .

لكن تقدرتون فتضحك الاقدار ، كما يقال . فبينما هو يحلق ذقنه استعدادا لزيارة كوكس ، اقتحم هذا الاخير الغرفة هائجا ، وهو يلوح بخطاب فى يده ، ويجأر بأعلى عقيرته :

- أية ألعيب هذه التى تريد أن تلعبها على يا سيد بيتشام ؟ منذ شهر وأنت تحاول أن تغرينى بزواج ابنتك . منذ شهر وأنت تحاول أن تلقى بها بين ذراعى ، آملا ، فيما أظن ، أن تحصل من وراء هذه المتاجرة البذيئة بمفاتها على مركز متميز فى هذه العملية المريبة الخاصة بسفن النقل وأن تمنعنى من معاملتك على قدم المساواة مع أولئك النصابين الآخرين الذين تتعاون معهم . واليوم أفاجأ بأن ابنتك هذه متزوجة منذ شهر ، وأنها موشكة على الطلاق ، وأن زوجها مجرم مشهور يوجد الان ، فيما سمعت ، وراء قضبان السجن . أنت مجنون ؟

وقف بيتشام بلا حراك ، وجهه يغطيه الصابون ، ويده ما زالت قابضة على الموسيقى ، محملا فى المرأة الصغيرة التى علقها فى مقبض النافذة ، وحمالة بنطلونه مدلاة وراء ظهره ، تجرجر على الارض . تأوه بصوت أجوف وكان روحه توشك أن تطلع . فقال كوكس بصوت جليدى :

— هذا جوابك الوحيد ؟ هذا كل ما يمكنك أن تقوله لى ؟ هذا الخوار ؟ انى أحسدك على صفاقتك !

تهاوت يده بالموسى ، وحملق فى وجه محدثه الهائج . كان يتمتع بوجه فظ لا رقة فيه ، لكن الألم الذى نضح من ذلك الوجه أو شك ، لمذى لحظة ، أن يجعله وجها انسانيا يطيقه المرء . قال بصوت أجوف كأنه آت من وراء القبر :

— كوكس . كوكس . كيف يمكنك أن تقول هذا ؟

كان تعبير الألم الذى ارتسم على وجهه حقيقيا لدرجة أن تورع كوكس عن قول ما كاد يقول ، مكتفيا بهذه الكلمات الضرورية :

— خلال ساعتين يا بيتشام ، ساعتين اثنتين لا أكثر ، عليك أن

تسلمنى كل ما تحت يدك من أموال شركة النقل البحرى ، بفسير نقصان ، وعليك أن تسلمها الى فى مكتبى ، ثم عليك بعد ذلك أن تغرب عن وجهى فلا ترينى سحنتك الكريهة بعد اليوم . فاذا ما حاولت أن تلعب بذيلك ستجد نفسك فى السجن خلال خمس ساعات لا أكثر ، برفقة السيد زوج ابنتك الفاضلة .

فلما قال ذلك خرج من الغرفة ، رافع الرأس ، صلب العنق ، فاصطدم ببولى وأمها اللتين اجتذبهما جثيره من أعماق البيت ، فقال لبولى وهو يمر بها ، بلهجة مهينة :

— نهارك سعيد يامسز ماكهيث !

دخلت مسز بيتشام الى مكتب زوجها ، فلما رآته واقفا الى النافذة ، شاحب اللون كجثة لا حياة فيها ، عرفت لغورها كل ما حدث . فلما خرجت الى ابنتها لزمتم الصمت زهاء ربع ساعة ، ثم قالت :

— يحسن أن نؤجل الذهاب الى الطبيب مؤقتا .

تلقى بيتشام ضربة أذهلته . أفقدته الصواب تماما . كان قد اعتمد اعتمادا كاملا على سفالة السمسار وشهوانيته التى بدت له مكيئة وأكيدة لا تخيب أبدا ، لفرط ما رآها — بعقليته المتطهرة — قدرة . فقد علمته الحياة أن مثل هذه الأشياء هى التى تتغلب أبدا . لذلك كان على يقين لا يطاوله شك من أن كوكس لن يتردد فى التضحية بمصالحه المادية فى سبيل شهواته الجسدية الدنيئة ، فاحتقره لذلك لكنه اطمأن اليه . غير أنه أخطأ فى تقدير الرجل .

بعد تلك النكسة ، تطورت الامور بسرعة مربكة .

ذهب بيتشام الى البنك ، وعندما قال انه يريد أن يسحب أمواله

اضطر أن ينصت الى سلسلة طويلة من المراوغات ، فلعب الفأر في عيه ، وطلب مقابلة ميلر ، فلما تركوه ينتظر ، اقتحم مكتب العجوز ، وفي اللحظة عينها دخل هوثورن من الباب الاخر ، في عجلة شديدة .
لقى بيتشام نظرة واحدة على القرن ونصف قرن كانت كافية لتوقفه على كل ما هنالك ، أو كل ما هنالك على وجه التقريب . ثم دار بين الثلاثة حديث قصير اتضح بعده الموقف بجلاء كامل ليس بعده جلاء . عليه الآن أن يتعامل مع مستر ماكهيث رأسا اذا كان يرغب في سحب نقوده . فالسيد ماكهيث قد أصبح ، منذ البارحة ، عضوا منتدبا للبنك ، وبوسع مستر بيتشام أن يطلب تحديد موعد لمقابلته في السجن .

ترك بيتشام العجوزين وأسرع الى مكتب كوكس . كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة أنصت كوكس الى أنبائه في صمت ، ثم قال بجفاء :

- طيب . سأعطيك حتى ظهر الغد ، وعليك قبل انتهاء ذلك الموعد أن تكون قد حصلت اما على النقود واما على سند بقيمتها ، ولا أظنك واجدا صعوبة في ذلك ، فالسيد زوج ابنتك قد أصبح مديرا للبنك الذي تتعامل معه حسبما تقوله لي . وعليك الان أن تتكرم باحضار العقد القائم مع الحكومة على الفور ، والاقرارين الموقعين من كراول والبارون بمسئوليتهما ومسئولية الآخرين عن عمليات النصب والتدليس .

ذهب بيتشام فأحضر المستندات التي طلبها كوكس وسلمها اليه وهو صاغر . كان يتحرك كالسائر في غيبوبة . ثم عاد الى بيته فحبس نفسه في غرفة مكتبه ، رافضا أن يتناول أى طعام . وعندما قاربت الساعة الثانية انتهى من التفكير ، فأرسل في طلب العسكري فيوكومبي من الفندق الذي أخفاه فيه منذ أن بدأت عملية ماكهيث .

عندما جاء العسكري بدت عليه دلائل النعمة . اكتنز ، وامتلاء وجهه . لكن لونه كان ممتقعا . فقد ظل يأكل وينام طيلة ذلك الوقت ، لكنه لم يبرح الغرفة التي أمر بالبقاء فيها . من مزاياه أنه ، كأى عسكري جيد ، يفعل كل ما يؤمر به . وقد وقف الآن بلا حراك ، في اطار الباب ، وقبعته بين يديه ، منصتا في انتباه كامل الى كل كلمة قالها مستر بيتشام الذي أخذ يتحدث - كعادته - مشيحا عن محدثه بوجهه ، ناظرا الى النافذة التي في ركن الغرفة .

قال له مستر بيتشام شيئا يقرب من هذا : قال أن هذه الورشة

قد تعرضت في الآونة الاخيرة لعدة هجمات ، وأنه - تبعا لذلك - مضطر الى الحد من نشاطه بدرجة محسوسة وطرده عدد كبير من مستخدميه ، وأن فيوكومبى سيكون من بين أولئك المطرودين .

أخذ مستر بيتشام يتحدث بعد ذلك عن مشكلة البطالة المخيفة وأهوالها . قال :

- أنا أدرك تماما ما الذى يعنيه طرد هؤلاء الناس بهذه الطريقة . وأفظع ما فى الأمر الآثار المعنوية التى تترتب على تلك الخطوة . فالعامل العادى - للأسف - لا يتمكن من التثبيت بأهداب الاخلاق الحميدة طويلا ، ونادرا جدا ما يتمكن من مقاومة الآثار السيئة التى تترتب على الجوع والبرد ، فيفقد احترامه لنفسه تماما ، ويدرك أنه عبء على المجتمع وعالة على الآخرين ، وفى تلك الحالة الذهنية بالذات يكون صيدا سهلا للمهيجين الذين يتحينون فرصة كهذه ليجعلوا منه عدوا للمجتمع والنظام والقانون . أنا أدرك كل ذلك . لكن ما الذى يسعنى أن أفعله ؟

ومع ذلك فإن هناك احتمالا بالأى يضطر الى فصل بعض مستخدميه على الفور ، ومن بينهم فيوكومبى . فهناك رجل خطر طليق فى لندن اسمه مستر كوكس يحمل فى جيب سترته الداخلى ورقة لا حق له فى الاحتفاظ بها . كوكس هذا يجب ان يزال من الوجود - وقبل صباح الفد على أكثر تقدير . وأى رجل تكون لديه القدرة والمبادرة للتكفل بذلك ، عملا على حماية عدد كبير من المستخدمين من الفصل والجوع ، سيجد رعاية كاملة وتقديرا ، فوق أنه سيزود بدليل قوى يثبت بعده عن مكان الجريمة . وما على ذلك الشخص الا أن يذهب ، بعد أن يقوم بما يجب عليه أن يقوم به ، الى عنوان معين ، فيقضى الليلة فيه .

قال مستر بيتشام مفلسا الأمر :

- انها مسألة تتعلق بالاعمال . وسيلة من وسائل ادارة الاعمال تختلف قليلا عن غيرها . فكر فى الحرب . أنت عسكري ويجب أن تفكر فى الحرب . فعندما يجد رجال السياسة انفسهم فى حيص بيص وقد تأزمت أمورهم ، يجيء الدور على الجندى . هذا نظام الاشياء . نحن رجال الاعمال نسير أمورنا عادة بوسائل أخرى سلمية . لكن ذلك ليس أمرا محتوما . كل ما فى الأمر أنه قد أصبحت هناك فى هذه الايام وسائل أخرى تمكن المرء من الحصول على ما يريد دون ان يضطر الى استخدام السكين . لكن ما زالت هناك ، للأسف ،

حالات استثنائية ، كهذه الحالة ، يتعين فيها استخدام السكين .
كان العسكري يعرف مستر كوكس . فقد حمل اليه رسالة من
مستر بيتشام ذات مرة .

بعد ذلك الحديث رأت مسز بيتشام العسكري فيوكومبي في
الفناء ، وكانت تلك هي المرة الاخيرة التي تراه فيها . وقد تذكرت
- فيما بعد - انه لفت نظرها بفرابة سلوكه ، اذ وقف طويلا ،
بلا حراك ، بين قطع الفسيل التي كانت منشورة على جبال الفناء
لتجف ، محملا في الكلاب ، ولكن دون أن يحاول الاقتراب منها أو
اطعامها ، رغم أنها كانت تعوي في طلب الطعام . قالت مسز بيتشام
- فيما بعد - متنهدة ، وهي تتذكر ذلك :
- يعلم الله أى أفكار دموية كانت تدور في رأسه وهو واقف
هكذا .

ولو أن الرجل ، فيما يحتمل ، لم يكن قد دار في رأسه شيء ،
اللهم الا اذا كان قد وقف مستفرقا في موازنة بين ما هو مطلوب منه ،
وبين اللقمة التي يعطيه اياها مستر بيتشام والمأوى المغطى بسقف
من الكرتون الذي أتاحه له في ركن من فناء بيته .
كان الوقت الذي قضاه في حماهم قصيرا ، فلم تتح له الفرصة
حتى للانهاء من نصف مجلد دائرة المعارف .
وعندما غادر العسكري دكان الآلات الموسيقية العتيده في شارع
أولد أوك ، كان يحمل مديفة في جيبه . لكنه لم يكن قد قر قراره
بعد .



في نفس الوقت تقريبا ، كانت السيدة بولى ماكهيث تتحدث مع
السيد أوهارا . وقد جرى ذلك الحديث في بيت الأخير ، الذي لم
تكن السيدة ماكهيث غريبة عنه .

قصت مسز ماكهيث على أوهارا ، بلهجة لا يكاد يفهم منها السامع
شيئا ، كيف وجدت في غرفتها خطابا من زوجها يطمئنها فيه الى
انه لم يعد هناك ما يدعوها الى القلق ، وأنه لن يكون هناك طلاق
الآن أبدا ، (وتحت « أبدا » خط) ، وأنه سوف يتهم السمسار ،
في الوقت المناسب ، بالزنا معها ، وأن لديه أدلة دامغة ضد كوكس
تدينه باعتباره فاجرا عريدا من أخط الأنواع ، وأنه حتى اذا كان
كوكس بريئا في هذه المرة ، فإن التهمة ذاتها ستجعله ينصرف نهائيا
عن الضغط على بيتشام للحصول على الطلاق .

اطلعت أوهارا على الخطاب الذي كان مكتوبا بالقلم الرصاص ،
بعجلة ظاهرة .

قالت بولى ملتاعة :

– سيقف كوكس أمام المحكمة ليدلى بشهادته .

فقال أوهارا دون أن يعنى حتى بالقيام من رقدته المسترخية فوق
الأريكة :

– طيب ، وماذا فى ذلك ؟

كان الوقت بعد الغداء مباشرة ، والتايمز فى يده يقرأ فيها أخبار
الرياضة .

– ماذا فى ذلك ! أنا لا أريد ذلك أن يحدث .

– هل ارتكبت الزنا معه ؟

– كلا طبعا ، أنت مجنون ؟

– اذن لم لا تريدينه أن يدلى بشهادته ؟

– لأنى لا أريد . أليس ذلك كافيا ؟ لا أريد أن يحدث ذلك . ولذا

ينبغى التخلص منه قبل أن تبدأ الدعوى .

– هل أفهم من ذلك أنك تريد أن يتكفل أحدهم بإزالته من هذه

الحياة ؟

– كلا طبعا ، لا أريد ذلك .

ساد الصمت برهة ، فالتقط أوهارا صحيفته من جديد . قالت

بولى محتدة :

– ما رأيك فيما قلت ؟ ضع هذه الصحيفة جانبا . لماذا تعاملنى

بهذه الطريقة ؟ لقد سألتك سوّالا !

قال أوهارا متكاسلا :

– حقا ؟ طيب ، طيب . سنخلصك منه . ولكن ماذا يحدث اذا

رفض أن يدعنا نخلصك منه ؟

– سأضطر فى تلك الحالة الى الاستشهاد بشاهد آخر زنت مع

فعلا .

قالت بولى ذلك ببطء وهى تضغط على كلماتها .

– آه ! اذن سوف تستشهدين بشاهد . .

– لا حاجة بك الى أن تضحك هذه الضحكة المنفرة . أنت لا تفهم .

كبريائى لا تسمح لى أن أظهر فى المحكمة ، بتهمة الزنا ، مع شخص

مضحك مثل كوكس هذا . ان كان يجب أن أعلن على الملأ أنى زنت ،

فلا أقل من أن يكون ذلك مع شخص على درجة مقبولة من الوسامة .

هل رأيت كوكس هذا أبدا ؟ انه تيس عجز ، ويفوق كثيرين غيره في هذا المضمار . لكنه ليس الشخص الذى تعترف امرأة تحرص علي كرامتها أنها نامت معه ! أنت أيضا تافه مثله ، لكنك على الأقل يمكن اعتبارك مقبول الشكل فى المحكمة على أى حال .

أحس أوهارا ، رغم ثقته الفائقة بنفسه ، شيئا من القلق . فقد أدرك من خبرته التى لا يستهان بها مع النساء أن هناك سببا جادا - على الأقل بالنسبة اليها - وراء ما قررته بولى من انها ، اذا ما تأزمت الامور ، أى اذا ما استمر السمسار ماثلا على مسرح الأحداث ، ستورطه هو ، أوهارا ، بوصفه شريكها فى الزنا . ولم يخش أوهارا بطبيعة الحال على سمعته ، لكنه خشى مما قد يسببه ذلك من قطيعة قبل الأوان بينه وبين رئيسه ، مما يفسد خططه ويقلبها رأسا على عقب ، وربما سبب له ما هو اسوأ . فهو يعرف ماكهيث منذ أن كان يدعى بيكيت ، ويعلم أنه لم يكن دائما شخصا بدينا متساهلا .

- اقلنى فمك . لقد تكلمت بما فيه الكفاية . يمكنك ان تذهبي الآن .

أدرك أن عليه الآن أن يدفع ثمن ما فعل . أما بولى فانصرفت لثلا تستفزه أكثر مما فعلت . خرجت من بيت أوهارا فذهبت الى زوجها فى السجن .

تكلفت رقة بالغة مع ماكهيث . جلست على الأريكة بفندرة ، واضعة ساقا على ساق ، وأخذت تثقب ثقوبا وهمية فى الهواء بمظلتها الانيقة ، ثم أبدت اعجابها البالغ بفطنته لانه اختار كوكس حتى تفشل دعوى الطلاق ، قائلة أنها ستقف فى المحكمة فتشير على السمسار بمظلتها وتصيح ساخرة : « اذن فالمفروض أنى ذهبت الى الفراش مع هذا السيد ! » ثم تنفجر ضاحكة . ضحكت كثيرا وهى تتصور ذلك المنظر وتصفه لماك .

لكن ماك كان أبعد ما يكون عن الابتهاج . فقد زاره قبل مجيئها بقليل ، ميلر ، من بنك الائتمان الاهلى ، وأخبره ، مهتاجا ، بزيارة بيتشام للبنك . واتضح له من ذلك أن كوكس هذا يمثل خطرا حقيقيا على بيتشام وأمواله ، وأنه لا يريد أن يدع الرجل يضحك عليه ويزوجه بولى . لكن بيتشام اذا عجز عن التوصل الى اتفاق ما مع كوكس ، سيتسبب فى خراب البنك الذى عانى الأمرين وتكبد الكثير فى سبيل الانضمام الى مجلس ادارته . أدرك محزوننا أن

مصيره قد بات مرتبطا بمصير حميه واحس رغبة حـرى فى أن يتمكن من التحدث اليه كما يتحدث أزواج البنات الى آباء زوجاتهم كلما تعرضت مصالح العائلة للخطر .

منعه توتر أعصابه من التحدث الى بولى ، وسرعان ما صرفها . لكنها رفضت أن تخرج قبل أن يعانقها ، فانصاع لرغبتها ، ولم يكذ يتخلص منها حتى أمر بادخال مستر ردى ، أبرع رجاله فى استخدام الأجسام الصلبة للقتل من خلف ، فلما دخل مستر ردى ، انخرط معه ماك فى حديث جاد طويل .

وبينما زوجها غارق فى زنزانتة فى ذلك الحديث مع السيد ردى ، كانت بولى تسير على مهل فى شوارع لندن ، لا تحمل على قلبها هما ، تزين رأسها قبعة عريضة ، على الموضة ، فى حجم عجلة عربية ، يحليها ريش مصبوغ ، وعلى وجهها نقاب خفيف ، متأبطة مظلتها ، والمشد الذى ترتديه يؤدى الفرض منه جيدا ، فيبرز عجيزتها ويجعلها محط كل عين ، بينما تسير هى متهادية ، تنظر فى تكاسل الى واجهات الدكاكين ، فتستمتع بمراقبة من يسرون فى أذيالها من الرجال ، فى زجاج تلك الواجهاة .

الرجل المريض يموت

بينما ماك يتحدث الى مستخدمه فى زنزانتة ، وزوجته تقطر بعجيزتها طابورا من المعجيين فى شوارع لندن ، كان مستر كوكس فى طريقه الى حى الميناء . فقد أخبره بيتشام أن شحاذه سيتظاهرون هناك ضد اضراب العمال . كان قد ألبسهم ثياب الجنود ، ودرهم جيدا على مظاهرة الاحتجاج التى سيقومون بها ، منددين بجشع العمال الذين يمنعون باضرابهم نقل جنود الامبراطورية الى حومة الوغى .

كانت لافتات عديدة قد أعدت فى شارع اولد أوك وعليها عبارات كهذه : « أنتم تعوقون رفاقنا فى السلاح من أداء واجبهم المقدس باضرابكم القدر ! » و « انظروا بماذا ضحينا نحن ! »

قرر السمسار أن يشهد تلك المظاهرة ، رغم أن بيتشام قال له ان المظاهرة ذاتها لن تكون شيئا يذكر ، وأن المهم فى الأمر كله هو ما وعدت به بعض الصحف من تغطية اثارية لها .

التقى كوكس على رصيف الميناء ببيري ، مدير اعمال بيتشام ، الذى بدأ منفعلا للغاية وهو يخبره أن بيتشام ألقى المظاهرة فجأة فى الصباح ، ثم عاد بعد الغداء ، فألقى أمر الألغاء ، لكنه لم يتسن الاتصال بكل من كان مقررا أن يشتركوا فيها ، بحيث لن يزيد عدد المتظاهرين الآن عن حفنة تعد على أصابع اليد الواحدة ، مما يتوقع معه أن تكون المظاهرة هزيلة ومضحكة . قال مستر بيرى ذلك وأنصرف مسرعا ، وهو من القم فى حال ، مصمما على انقاذ ما يمكن انقاذه .

صفر كوكس بفمه ، مستغرقا فى التفكير . اذن فقد عدل مستر بيتشام عن خطته ، ثم عاد فقرر أن يمضى فيها . أنه ما زال يلعب بذيله اذن !

كلما اقترب من غايته ، رأى مزيدا من الناس . كان الكثيرون منهم يقفون على نواصى الشوارع ، لكن حشدا كبيرا كان يتجه ، مثله ، الى مكان الاضراب ، وقد بدا أن كل من فى الحشد يتوقع شيئا أو رأى شيئا فلما سأل واحدا منهم قال له الرجل أن الجنود من مشوهى الحرب يتظاهرون ضد العمال المضربين على رصيف الميناء .

ازداد الحشد كثافة .

كانت تلك ساعة تغير الورديات ، والعمال الذين لم ينضموا الى المضربين يغادرون أرصفة الميناء . كان قد تقرر ، نظرا لعدم اتصاف الاضراب بالعنف ، العدول عن نقل العمال الذين لم يشتركوا فيه من وإلى أماكن عملهم بالقوارب ، ولذلك فانهم اضطروا الان أن يشقوا طريقهم بين صفوف المضربين . والحقيقة أن الضجة الآتية من داخل الميناء كانت تصم الأذان . ثم ما لبث المتظاهرون أن تدفقوا فملأوا الشوارع الضيقة ، مجتاحين كل ما فى طريقهم وهم ينشدون الاناشيد الوطنية ، فى مظاهرة خرافية لم يسبق لها مثيل من المشوهين وذوى العاهات : هذا يحجل على عكازين لم يتعلم كيف يحسن استعمالهما بعد لأنه منذ وقت قصير كان بساقين كسائر الناس ، وهذا يسحبه زميل يعرج ، وذاك قد وضع ذراعا فى حمالة مفلولة الى عنقه ، وآخر يطير الهواء ضماداته القذرة المبقعة بالدم فى ضوء الفسق الكابى فتبدو كأعلام صغيرة مشئومة ، وعميان يقودهم أنصاف عميان يظنون أنفسهم مبصرين ، وقد أعطى هؤلاء وأولئك مكان صدارة فى المظاهرة وكان منظميها يباهون العالم بهم ، ومقعدون يدرجون على طاولات صغيرة ذات عجلات وقد قدموا أنصافهم السفلى قربانا على

مذبح الوطنية ، والناس الذين لم يصبهم ضرر قد اصطفوا على الجانبين يهللون لهم ، ويلوحون ، ويصفقون ، ويهتفون مشجعين ، وينكتون معهم على عاهاتهم فيتبادلون جميعا ضحكات شجاعة تنبئ عن أن الكل أبطال صناديد لا يقيمون لتلك العاهات وزنا ، وقد وقع الكل فى اسار فيض دافق من الحمية الوطنية ، كان يبلغ ذروته فيصل الى درجة السعار كلما كان المشوه الذى يمر بين صفى المشجعين حطاما لا يرجى منه باعتبار أن بطولة المرء تكون فى القمة كلما فقد من أعضائه أكثر ، مما أثار بين المشاهدين مناقشات حامية أوشكت أن تنقلب الى شجار أو مراهنات ، انصبت كلها على المفاضلة بين عاهة هذا وتشويه ذاك ، وهل مقطوع الذراع أفضل أم مقطوع الساقين أم الأعمى أم فاقد نصفه الأسفل .

سار ذلك القطيع الشائه ، بطيئا ، متلويا ، فى وحول شارع بوبلار وأوساخه ، ساحبا حواشيه من غير المشوهين معه ، والابطال يحاولون بما بقى فى أجسادهم من قوة أن يتموا مسيرتهم ، منشدين أناشيدهم ، باعثين فى الجو حولهم نتنا غطى على نتن ذلك الحى وكبح جماحه بخليط من رائحة الجروح والضمادات القذرة والمطهرات والانفاس التى ننتت من فرط جوع .

والعجيب أن ذلك الحشد من المتظاهرين ذوى البزات العسكرية ، لم يخل من مدنيين معظمهم كانوا شيانا ذوى ثياب أنيقة لم تطاوعهم قلوبهم على التخلف عن تلك المسيرة البطولية ، فشاركوا أصحابهم المشوهين الذين جمعتهم بهم تلك اللحظة التاريخية هتافهم واحتجاجهم ، مطالبين معهم بأن ينتهى العمل على السفن بأسرع ما يمكن ، حتى يتسنى شحنها بمزيد من اللحم الدايب الى المذبحة ، بمزيد من الرجال الأصحاء الذين ما زالت لهم أذرع وسيقان وأعين بها يبصرون ، وكأنما أولئك الجرحى ، المنبوذون ، الذين لم يعد فيهم نفع لأحد ، كانوا يتحرقون شوقا الى زيادة عددهم بوافدين جدد . فانشقاء الانسانى يتصف دائما بفريزة لا تقاوم تدفعه دفعا أعمى الى التكاثر .

وفجأة سرت موجة اثاره ، وانتشرت شائعة بأن المتظاهرين فى طريقهم الى دار البلدية ليطلبوا بتدخل البوليس ضد المضربين الخونة .

وهنا اكتفى مستر كوكس بما رآه ، ودار على عقبه قاصدا داره ، وقد حل الظلام فى تلك الأماكن ضعيفة الاضاءة . لكن الشوارع كانت

مكتظة بالناس . ففي كل ركن جماعة تناقش أحداث اليوم . ومعظم سكان الحي ، بطبيعة الحال ، كانوا في صف العمال . الحقيقة أن تكهناتهم عن المظاهرة ومنظمتها والفرص منها قاربت كثيرا كبد الحقيقة .

كل تلك الاشياء أزعجت مستر كوكس كثيرا ، فحث خطاه يريد أن يبلغ بيته فيوصد بابه ويطمئن وراءه . كان يمقت الاضطرابات من أى نوع كان ويحس لها قلقا وغيظا من أناس غير محددين تماما في ذهنه ينقم عليهم ويحملهم وزر ذلك القلق الذي يعانيه . ولقد غلبه في تلك اللحظة قلقه فلم يستطع أن يواصل السير قدما الى بيته ، وعرج على أول حانة قابلته ، فطلب كأسا من الويسكى لكن طعم الويسكى كان فظيحا ، فبصقه أرضا وهو يسب ويلعن ، وقال في نفسه هؤلاء الناس ناس أم حيوانات ؟

وعندما خرج من الحانة اصطدم به رجل غمغم شيئا غير مفهوم ثم أخذ يجرى ، فسمع كوكس لجريه صوتا معدنيا جعله موقنا من أن الرجل له ساق خشبية .

أحس كوكس بالخوف ، وخطر له أنه عرضة لاي هجوم من جانب هؤلاء الناس ، بسبب ثيابه الانيقة قال في نفسه :

- الواقع أنه من الغرابة بمكان أنهم لا يهاجمونا بمجرد أن تسقط أنظارهم علينا . فنحن أقل منهم بكثير . فوق أنهم لا يقيمون للحياة الانسانية وزنا ، لانهم يدركون أن حياتهم لا تساوى قلامة ظفر ، ويظنون أن كل الناس مثلهم ، لا تساوى حياتهم شيئا . والمصيبة انهم يكرهون من هو أعلى منهم ولا يدركون أنه أعلى منهم لانه يفوقهم عقلا .

لكنه لم يسترسل في خواطره ، لانه سمع وقع اقدام وراءه ، فاستدار بسرعة ، غير أنه لم يفعل ذلك بالسرعة الكافية ، لان الذى كان وراءه عاجله بضربة ماحقة على رأسه فسقط ارضا دون أن يصدر عنه صوت .

انهار مستر كوكس على الطوار ، فأخذ يزحف ، يريد أن يلوذ بحائط بيت على بعد خطوات منه ، لكنه تلقى ضربة أخرى أشد هولا من سابقتها ، فهمد في مكانه ، وظل ملقى على الارض حتى عثرت به إحدى داوريات البوليس ، فالتقطته وأخذته الى النقطة ، ومن هناك نقل الى المشرحة التى ظل فيها ثلاثة أيام الى أن تعرفت عليه اخته ، فأخذته ودفنته في جبانة باترسى ، ووضعت على رأس

قبره شاهدا ، على شكل عمود مكسور ، كتب عليه : « ويليم
كوكس ١٨٥٠ - ١٩٠٢ » .



كان العسكري فيوكومبي قد تعقب السمسار طيلة ذلك الاصيل ،
منذ أن خرج من داره بعد القيلولة ، تماما كما قال له مستر
بيتشام . ولم ينقض وقت طويل قبل أن يفطن العسكري ، الذي
لم يكن غرا ، الى أن عددا لا يستهان به من الناس كانوا يتعقبون
السمسار مثله .

لم تكن لدى العسكري أية نية محددة . فالمهمة التي كلفه بها
مخدومه لم ترق في عينيه على الاطلاق . لكنه كان قد بدأ ، ولذلك
فانه وجد نفسه مرغما على الاستمرار فيما بدأ فيه .

كانت الشهور القليلة التي ذاق فيها سلاما نسبيا وشيئا من
« الرخاء » في شارع أولد أوك قد أفسدته . وأفسدته أكثر أيام
الكسل والطعام الوفير في ذلك الفندق الذي أخفاه مخدومه فيه
عندما أعلن الحرب على زوج ابنته . ذاق طعم الحياة الرخية ذلك
العسكري ، فلم يعد من السهل عليه أن يعود الى ليالى البرد والجوع
في الشوارع ، خاصة والشتاء على الابواب .

ولا أدل على تردده من أنه سنحت له أكثر من فرصة ، إذ وجد
نفسه على مقربة من طريدته في الزحام ، لكنه لم يحس أدنى رغبة
في الحاق الأذى به .

وعندما دخل السمسار تلك الحانة ، فقد العسكري مديته . كان
مستندا الى سور خشبي والمديّة في يده ، فأخذ يطعن بها خشب
السور وإذا بها تسقط من يده في القناة . وقد هم بتسلق السور
والنزول الى الماء بحثا عنها ، لكنه لحظ أن السمسار لم يعد
واقفا الى البار ، فجرى يعبر الشارع ، وعندما اصطدم بالرجل
خارج الحان تملكه الخوف فجأة ، كأن الآخر هو الذي ينوى أن
يهاجمه ليقتله ، لا العكس .

ثم بدأت المطاردة من جديد .

بدا واضحا لفيوكومبي أن رجلين غيره على الاقل يتعقبان نفس
الطريدة ، يسيران متباعدين ويختفيان احيانا ، لكنهما ما يلبثان أن
يظهرا كلما خلا الشارع الذي يقطعه كوكس من السابلة .
والحقيقة أنه لم يكن قد عاد هناك ما يدعو الى السير في أعقاب
الرجل ، لانه لم يعد لديه ما يمكن أن يقتله به بعد أن فقد سكينه .

والحقيقة ايضا أنه لم يعد يفكر في قتله . لكن خوفه من بيتشام
وما يمكن لبيتشام أن يحرمه منه جعله يلصق في ذيل السمسار .
ازدادت ظلمة الليل حلكة .

وأحس العسكري الاعرج غضبا يجتاحه . لم يكن غضبه موجها
الى كوكس . أو الى بيتشام . كان غضبا مجردا أعمى ، غضبا
مما يمكن أن يحدث له . ومرة أخرى بدأ يفكر في طريقة تمكنه من
قتل السمسار ، ما دام يجب أن يقتله ليعيش . وفي اللحظة ذاتها
راى رجلا نحيلًا يسرع في أعقاب السمسار فيضربه على رأسه بكيس
من الرمل أو شيء من هذا القبيل . أحس فيوكومبي رعبًا يجتاحه
للمنظر الذي رآه بوضوح . لكن كوكس ما لبث أن تحرك وأخذ
يسير على أربع ، محاولًا بلوغ أقرب حائط إليه ، ليحتمى به ، أو
يستند إليه .

جمد العسكري مكانه لحظة ، محاولًا اختراق الظلام ببصره ، ثم
سار بسرعة فعبير الشارع ووقف بجوار الرجل الذي يحاول أن
يزحف الى الحائط .

أخذ يبحث بحركات بطيئة ثقيلة في جيب سترته ، ثم في جيب
سرواله الخلفي . لكنه لم يجد السكين التي كان يبحث عنها .
نظر الى يده الخاوية بدهشة . ثم استند الى الحائط وعيناه
لاصقتان بيروود بالجسد الزاحف الذي يقىء تحت قدميه . وأخذ
يحل أربطة ساقه الخشبية . وأخيرا انفصلت الساق عن جسده
وأصبحت هراوة ثقيلة في يده ، وبينما هو يضرب الرجل الملقى على
الأرض بهراوته ، على كتفيه ورأسه ، حتى يهشم رأسه ، أخذ يقفز
على ساقه الباقية وهو يردد كالمجنون - ربما تعبيرًا عن غيظه لكونها
عاكسته وهو يحل أربطتها - « ساقى اللعينة ! ساقى اللعينة ! »

الرجل القوي يقاتل

كانت بولى جالسة مع السيدة والدتها ، في غرفتها الوردية الصغيرة ، منهمكة في حياكة ثياب طفلها المنتظر ، عندما دخل مستر بيرى وقال ان والدها يريد أن يتحدث اليها بأسفل ، فنزلت الدرج عدوا وابرتها ما زالت بين أصابعها ، والخيط يجرجر وراءها . وجدت مستر بيتشام مرتديا بذلة يوم الأحد ، فلما رآها بادرها قائلاً باقتضاب أنها ذاهبة معه في زيارة لمحلات حرف «ب» .

سار الأب وابنته في شارع أولد أوك . كان اليوم مشمسا ، في أخريات الخريف ، والاوراق قد اصفرت على أشجارها ، وحببات كستناء تطفو سابحة على مياه القناة .

لزم بيتشام الصمت ، لأنه لم يكن لديه ما يقوله لابنته . لكنها اعتبرت هذه النزهة بادرة صلح بينهما . وعزز الجو تفاؤلا . بدت أشد الشوارع فقرا جميلة في ضوء الخريف الذهبي المترقق ، فأحست بولى سعادة لم تعرفها من زمن طويل .

لم تكن قد سمعت شيئا من أوهارا حتى تلك اللحظة . لكن مستر كوكس لم يكن قد ظهر في شارع أولد أوك ثانية . وأبوها هو الآخر ، بدا أكثر هدوءا من ذي قبل ، وكأنما التوتر الذي سود عيشهم طيلة الاسابيع الاخيرة قد تراخى فجأة .

في أحد الشوارع الخلفية الكثيبة ، دخلا أول دكان . استقبلتهما امرأة بدينة وحولها على الارفف أدوات مطبخ ، ومعدات نجارة . كانت المرأة تعرف بولى ، ولذلك لم ترفض الاجابة عن أسئلة بيتشام ، ولو أنها فعلت ذلك بشيء من جهامة لم تستطع أن تتخلص منها تماما .

قالت انها لا تتسلم حاليا الا كميات محدودة للغاية من البضائع، وأن من رحمة الله بهم ان زوجها يقوم بين الحين والحين بأعمال

صغيرة ، كاصلاح أدوات الحدائق والمصاييح وما أشبهه ، والا لكانوا قد ماتوا كلهم جوعاً ، لكنهم تلقوا تأكيدات مؤخراً بأن التوريدسينتنظم كسابق عهده . ثم قالت انهم يدفعون الايجار ، ولو أن هناك عدة شهور متأخرة ، فقد كانت هناك أسرة أخرى قبلهم ، وقد تركت لهم التركيبات والارفف مقابل أن يقوموا بسداد الايجار المتأخر .

قالت بولى تشرح الموقف لابيها وهما يسيران معا :
- كل هذه الدكاكين حديثة عهد بالوقوف على قدميها في السوق ، فعمرها لا يزيد على ستة أشهر ، وقد كان القبض على ماك ضربة أصابت اصحابها في الصميم . لكن الامور بدأت الآن تتحسن ، وأولئك الذين صمدوا سيعبرون المحنة بسلام .
فلم يعلق بيتشام على قولها بشيء . ساراً جنباً الى جنب في صمت .

كان الدكان الثانى الذى زاراه دكان صانع أحذية يعول نصف دستة من الاطفال ، الثلاثة الكبار منهم يعاونونه في العمل ، مع أنهم . قال الرجل وزوجته أن لديهما كفايتهما من الجلد - حتى في هذه

الظروف . وأنهما حتى في أسوأ فترة مرت بالدكاكين ، عندما لم يكن غيرهما يتسلم أى شيء على الاطلاق ، كان الجلد يصلهما بانتظام ، ولو أن الكميات نقصت . لكن معظم القطع التى يتسلمونها فيها عادم كثير بسبب تباين الالوان ، وأن ثمن ذلك العادم يخرج من جيبهما . فوق أن الزوج ، لسوء الحظ ، مريض ، والاضاءة في الورشة تكلفهما كثيراً ، لكنهما مضطران الى استخدامها طوال اليوم . قالت المرأة :

- ومع كل ذلك ، فالدكان ارحم من المصنع ، فالمرء لا تتاح له فرصة زيادة كسبه هناك .

أوماً بيتشام برأسه مؤمناً على ذلك ، ثم سألها ان كان ثمن الاحذية يحدد بمعرفة الشركة التى تورد الجلد ، فكان الجواب بالايجاب ، والمصيبة انها ائمان منخفضة للغاية .

عندما خرجا الى الشارع ثانية ، سأل بيتشام ابنته :

- هل يسددون ائمان ما يورد اليهم اذن ؟

فقالت بولى انها تعتقد ان اصحاب الدكاكين لا يحصلون على كميات جديدة الا اذا سددوا قيمة ما قبلها . اخذت تنظر الى ابيها خلسة وقد انتابها خوف أن تكون الدكاكين قد اثارت امتعاضه ، لانه لم يقل أى شيء يفصح عن رأيه فيها . وفي الدكان الثالث لم يكذ

صاحبه يبدأ الحديث معهما حتى انطلق في حديث طويل عن الشغب الذي وقع في الميناء . قال الرجل الطيب :

- انهم الشيوعيون أولاد الحرام ! هم السبب في كل شيء . يكسرون زجاج النوافذ وكأننا نحصل عليه مجانا من المصنع ! انهم يكرهوننا لان لدينا شيئا وهم ليس لديهم أى شيء . ولانهم لم يفلحوا في حياتهم ابدا لا يريدون ان يتركوا غيرهم يحاول وينجح . وكان المهارة لم يعد لها وزن ، والاذكياء لا يجب ان يكونوا في وضع أفضل من وضع الاغبياء . انهم أعداء المسيح بحق . هناك بعض منهم في هذا البيت ذاته . انهم لا يشربون الخمر ، لكنهم يفعلون ما هو أظفح ، آه ؟ لو سارت الامور على هواهم لجردوا المرء من كل ما لديه ، حتى الكرسي الذي يقعد عليه ، وكأننا ليس لدينا ما يكفيننا من المصائب ! لكن هناك شيئا واحدا لم يكن ينبغي لمستر ماكهيث ان يفعله ابدا . لم يكن يجدر به ان يصبح شريكا لذلك اليهودي الملعون هارون . سيسبب له ذلك مشاكل لا نهاية لها .

ترك بيتشام الرجل يسترسل في مونولوجه ، واخذ يدور في الدكان . كان هناك عدد من الساعات الرخيصة ، في صندوق عرض سطحه من زجاج ، معظمها منبهات ، وكميات من بضائع أخرى كالملابس الداخلية ، والطباقي .

ومع ذلك فالرجل وزوجته كانا مريضين . والظاهر ان سابقه لم يكونا أحسن منه حالا . فهو ثالث صاحب للدكان ، وثالث من حاول « الوقوف على قدميه » فيه . يبدو أن الامر لم يكن سهلا ، اذا ما أخذناه هو وزوجته معيارا . رغم ضخامة حجمه كان يبدو مقوس الظهر ، مشرفا على الهلاك ، والسيدة زوجته كانت كثيبة للغاية .

قالت بولي ، محزونة بعض الشيء ، عندما خرجت مع أبيها الى الشارع :

- عجيب امر هذه الدكاكين . انها هكذا دائما . هل تريد ان ترى المزيد منها ؟

لم يقل أبوها شيئا ، فقالت ، بعد صمت ، ومع ذلك فانهم يتمتعون باستقلال لا يتمتع به غيرهم ، ولا يخضعون لسلطان احد ، فلا يضربهم في سبيل ذلك أن يعملوا كل ليلة حتى الساعات الاولى من الصباح ، وأن يبدو عليهم شيء من السقم . قالت ذلك وأراحت ضميرها ، وان لم تستطع أن تتأكد من أنه سمع كلمة مما قالت .

لكن مستر بيتشام كان يصفى لكل كلمة ، بانتباه شديد .
في صباح اليوم التالي ذهب الى بنك الائتمان الاهلى حيث قضى
عدة ساعات ناقش الموقف من كل جوانبه ، خلالها ، مع مستر
ميلر . والحقيقة أن مستر بيتشام لم يكن في حاجة الى تلك
المناقشات لكي يصل الى النتيجة التي لم يكن مهرب من الوصول
اليها ، وهى أن زوج ابنته هو الوحيد الذى يستطيع انقاذ البنك
من الافلاس . وما من شك في أن الطريقة التي توصل بها الى اقتحام
ادارة ذلك البنك العتيد ، والاستيلاء على مركز السلطة فيه ، تكاد
تكون جديرة بالاعجاب .

ومن جانب آخر كان مستر بيتشام قد خرج بانطباع حسن من
زيارته لمحللات حرف «ب» . فتنظيمها لم يكن سيئا على الاطلاق .
لم يغب عن فطنة بيتشام طبعاً أن العملية مربحة بحق ، وان فكرة
ماكهيث التي قامت عليها هذه الدكاكين تجعل من أولئك الناس
المستقلين الذين يديرونها موردا لا ينضب لسيل لا بأس به من النقود
يصب في جيب ماكهيث .

وهكذا نتبين أن بولى لم تكن محقة في خوفها من أن تحدث
الفاقة الظاهرة لكل ذى عينين في تلك الدكاكين أثرا سيئا في نفس
أبيها . لان مستر بيتشام لم يكن ابن الامس ، بل رجلا عرك
الدنيا ، وأدرك أن الرخاء هو الوجه المقابل للاملاق ، والا فأين هو
الرجل الذى فتح الله عليه فأثرى دون أن يكون هناك مقابله رجل
حلت به نقمة الله فافتقر ؟ لم يكن مستر بيتشام ممن تخدعهم المظاهر ،
ولطالما قال أشياء كهذه :

- لو أراح الناس انفسهم وتركوا الفقراء فى حالهم ! ليس هناك
من هم أشد ضررا من المصلحين الاجتماعيين . أذكر ضجة قامت
مرة في الصحف حول حى من الأحياء الفقيرة قيل وقتها أنه لا يليق
بسكنى البشر . وأنه غير صحى ، ويقتل من يسكنونه . فكانت النتيجة
أن صدق بعضهم ذلك الهراء ، وهدم الحى بأكمله ، ونقل سكانه
الى مستعمرة سكنية أقيمت فيها بيوت جميلة ، صحية ، متينة ،
مشمسة . لكن بعضهم خطر له ، لحسن الحظ ، أن يمسك
احصائيات دقيقة استمرت خمس سنين . وبعدها تبين أن الحى
القدر غير الصحى القديم كان أرحم من الحى المشمس الجميل
الجديد ، لان نسبة الوفيات التي كانت فى الحى القديم ٢ ٪ ،
ارتفعت فى الحى الجديد الى ٢٦ ٪ فكانت دهشة المصلحين عظيمة .

ولم يفطنوا طبعاً الى أن البيوت الجميلة الصحية الجديدة استتبعت زيادة فى الايجار تراوحت بين أربعة وثمانية شلنات فى الاسبوع ، كان على السكان أن يوفروها من المبالغ التى ينفقونها على الطعام . ذلك شئ لم يكن مصلحونا الاجتماعيون قد فكروا فيه !

الاهم من ذلك أن مواهب زوج ابنته أحدثت أثراً بالفا فى نفسه . رفع عينيه عن الاوراق التى كان أخذها فى دراستها مع ميللر ، وأخذ يحدق فى وجه العجوز بشرود ذهن ، وقد بدأ يسائل نفسه :

ألا يحتمل أن يكون العداء بينه وبين ماكهيث مجرد عداء طبيعى بين جيلين مختلفين ؟ ما من شك فى أنه أخطأ فى حق زوج ابنته ولم يقدره حق قدره ، فعامله كما لو كان مجرماً بحق ، بينما هو ، فى واقع الأمر ، رجل أعمال موهوب ، متفان فى عمله ، وبعيد النظر بغير شك .

فى مساء ذلك اليوم ذاته ذهب بيتشام لزيارة محاميه ، الاستاذ والى ، فى بيته .

استقبله المحامى فى غرفة ضخمة باذخة تغطى أرضها سجاجيد فاخرة تمينة ، وتكسو حيطانها بطانة من خشب مموج جميل ، زفى ركن منها ، بالقرب من مكتب بالغ الضخامة ، نباتات ذات أوراق عريضة لامعة الخضرة ، فى أصص من القيشانى رمادى اللون . قال له مستر والى بشئ من البرود :

— جئت بخصوص حكاية الطلاق ؟ إذا كنت تريد الصراحة ، هذه الدعوى لاتروق لى . لقد أقيم الدليل على زنا مستر ماكهيث . وسوف يعترف هو به . لكنى سمعت مؤخراً أن شريكك مستر كوكس سيستدعى لاداء الشهادة فى الدعوى المضادة التى أقامها ماكهيث ضدنا لاثبات خيانة ابنتك له . أنا مدرك طبعاً أن هذه الدعوى المضادة ليست الا حركة بارعة من جانبه لاثارة الغبار والشوشرة علينا ، لكنها تعنى أن كمية لا يستهان بها من الغسيل القدر ستنتشر على الملا أثناء المحاكمة .

فسأله مستر بيتشام دهشاً :

— بالله ! من ابن الحرام الذى خطر له أن يزج بكوكس فى هذه القضية ؟

— مستر ماكهيث . منذ بضعة أيام .

قال مستر بيتشام وهو مستغرق فى التفكير :

- كذا ! على أية حال . مستر كوكس مختلف منذ يومين . لم يعد الى بيته منذ يوم اول أمس . والسيدة شقيقته ، التي يقيم معها ، تبدو قلقة عليه للغاية . مما يؤسف له أنه يميل الى مخالطة حثالة المجتمع بسبب بعض الرذائل التي أفضل عدم الخوض فيها . ولذلك فان غيابه هذا يجعل المرء ميالا الى القول أنه قد يكون حل به مكروه . او ، بعبارة أخرى ، أخشى أن يكون مستر كوكس قد انسحب من مسرح الاحداث بطريقة دائمة ، بحيث لن نضطر الى أن نشغل أنفسنا بأمره بعد اليوم .
فقال مستر والى : آه ! وأمعن النظر في وجه زائره ، مستغرقا في التفكير ، بينما استرسل بيتشام قائلا :

- وأنا ، على أى حال ، قد قطعت كل علاقة لى فى العمل بالسيد كوكس هذا ، فقد كنت معه فى رحلة عمل الى ساوثمبتون عندما أدركت أى صنف من الرجال هو . وارجو مخلصا الا أضطر الى وصف المناظر المفززة الباعثة على الاشمئزاز التي رأيتها رأى العين وأنا فى صحبته . منذ ذلك اليوم نفضت يدي منه .
ثم أقفل موضوع كوكس وقال ، بوجه لا تعبير فيه ، أن ابنته قد أخبرته مؤخرا أنها حامل من زوجها ، وان ذلك ، بطبيعة الحال ، بغير الموقف تماما . فلم يعد هناك ، فيما يخصه ، أى مجال للتفكير فى الطلاق .

بدا الارتياح واضحا على الميتر والى . واستمر بيتشام فى الكلام ، فسأل المحامى عن سير قضية القتل المتهم فيها زوج ابنته ، ونتيجتها المحتملة ، ولهجته تنبئ عن أنه يتوقع حكما فى صالح ماك .
جلس المحامى يعبث بفتاحة خطابات على شكل سكين ويصفى الى موكله ، ثم قال :

- تأكد يامستر بيتشام ان زوج ابنتك سيخرج من ذلك السجن وقد برئت ساحته ، دون أن يلحق به أى ظل من ريبة . يمكنك أن تعتمد على فى ذلك . ولا تنس أن لديه دليل براءة لم يستخدمه بعد .

فقال بيتشام : عال ، وهم بالانصراف ، لكن المحامى قال فجأة :

- نعم ، ولكن الامر ليس بهذه السهولة ، ولن ينتهى على ما نرجو الا اذا وجد قاتل يصدر الحكم عليه بدلا من مستر ماكهيث . فبغير ذلك قد يطول الوقت قبل أن يحكم بالبراءة ، لان الدليل الذى يستند اليه ماك يجب أن يتم التحقق منه أولا . كلا يامستر بيتشام

نحن الذين أوقعناه في هذا المأزق ، وعلينا الآن أن نساعد على الخروج منه .

قال ذلك ومال في مقعده الى الورا ، عاقدا يديه فوق كرشه العظيم ، ثم استطرد قائلاً :

– وعليك أنت يا عزيزى بيتشام عبء القاء الضوء على الظروف التى أفضت الى موت مارى سوير . اعتقد انه وايد الذى قدم نظرية فى دفاعه أمام قاضى الاحالة مؤداها ان المرأة مارى سوير ، بالنظر الى ظروفها الاقتصادية السيئة ، لم تكن فى حاجة الى قاتل يخلصها من حياتها . الحقيقة ان ظروفها كانت سيئة للغاية .

أدرك بيتشام ، منذ اول كلمة ، ان الاستاذ يرمى الى غاية بعينها ، وازداد يقينا وهو يستمع لذلك اللسان الذرب تتباطأ الكلمات عليه كما لو كان صاحبه يتلمس طريقة يقول بها ما يريد قوله ، وتحفظ عليه ، فى الوقت ذاته ، ماء وجهه . جلس بيتشام هادئاً ، واضعا يديه المعروقتين بين ركبتيه ، ناظرا الى محاميه الذى تجنب النظر اليه ، وهو يستطرد فى حديثه بجهد واضح ، قائلاً :

– لكن تلك النظرية ، لسوء الحظ ، لم تعد تقوم لها قائمة فى ضوء بعض الحقائق التى اتضحت مؤخراً .

هم الاستاذ والى واقفا ، واخذ يذرع السجادة السميقة التى اقتناها بفضل لسانه الذرب ، قائلاً لزائره :

– أنت تعلم طبعاً ان مارى سوير شوهدت كثيراً ، قبيل موتها ، فى صحبة رجل كان فى ظروف اسوأ بكثير من ظروفها . ذلك الرجل عسكرى سابق اسمه فيوكومبى ، وقد ظهر أثناء نظر الدعوى وأدى الشهادة أمام قاضى الاحالة ، واعترف بأنه كان مع مسز سوير ليلة موتها ، بل وأنه صحبها حتى رصيف الميناء .

سكت المحامى ، وتوقف فجأة أمام بيتشام ، فنظر اليه بحدة وهو يقول :

– كان ذلك العسكرى آخر من رأى مارى سوير على قيد الحياة . والعجيب ان أحدا ممن سمعوا شهادته فى تلك الجلسة لم يفتن الى ما تنطوى عليه هذه الحقيقة من احتمالات . لكن المرء لا يجب ان ينسى أن كل الشهود فى هذه الدعوى من الطبقات الدنيا ، ولذلك فان عيونهم – التى أعماها الحقد على المتهم بسبب ثرائه ومكانته الاجتماعية – لم تبصر الحل الواضح الجلى لمعيات الدعوى ! حتى مقالات مجلة العاكس أسهبت فى وصف تلك الرحلة الاخيرة التى

قامت بها الضحية المسكينة في صحبة ذلك العسكري الذي ما من شك في أنه كان يستغلها . هناك دليل ، يجب أن يكون هناك دليل - شهادة الجيران أو أى شيء من هذا القبيل - على التأثير الشيطاني الذي كان لذلك العسكري على المرأة المنكودة الحظ . لقد استغل وحدتها وضعفها ، فتسلل الى بيتها الآمن ، بينما زوجها ، العسكري هو الآخر ، يقاتل في الجبهة ، دون أن يقيم وزنا لحق الزمالة . فهو رجل وجد متعة شيطانية في اغواء زوجة زميله ولم يتورع عن مضاجعتها في غرفة صغيرة ، امام طفليها الصغيرين ! وعندما سمع ذلك الوحش الآدمي بالصدقة غير العادية والعطف الابوى اللذين يعامل بهما مستر ماكهيث أقل مستخدميه شأنًا ، أخذ يحرض تلك المرأة ليل نهار أن تستغل الفرصة السانحة وتبتز شيئًا من المال من ذلك الرجل الممتلىء صداقة وودا . ولعل المرأة المسكينة التي احتفظت رغم كل شيء باحترامها لنفسها ومثانة خلقها ، خجلت مما طلبه منها عشيقها ، فرفضت أن تعض اليد التي أحسنت اليها ، وتورعت عن ابتزاز شيء من مستر ماكهيث . وهكذا فانه من يدري ما الذي يمكن أن يكون قد حدث في تلك الليلة ؟ لعل شجارا نشب بينها وبين ذلك العسكري الاعرج القواد على رصيف الميناء . . من يدري ؟ على اية حال لدينا شهادة أحد عمال الميناء . تلك الشهادة تثبت انه بينما كان ذلك العامل يتنزه ، ليلة الجريمة ، رأى المدعو ليوكومبي عائدا وحده من رصيف الميناء . يا مستر بيتشام ! (وهنا جلجل صوت المحامي) ان نفس المنطق الذي يجعل من السخف ان يدعى أحد أن رجل الاعمال والبنوك الثرى الناجح مستر ماكهيث يمكن أن يقتل المدعوة ماري سوير ، ذلك المنطق عينه يقول أن القاتل لا بد أن يكون ذلك العسكري المفلس الذي جردته الحرب وجرده الفقر من كل انسانية وجعله وحشا في ثياب انسان . انها مسألة تعليم طبعا . فالحرب التي ترفع الرجل المتعلم الى مستوى رفيع من البطولة والتضحية بالذات في سبيل أنبل المثل ، لا يكون لها من اثر على السفلة إلا أن توقظ في نفوسهم المعتمة احط الفرائز وأشدّها ظمًا الى الدماء . والاسوأ من ذلك كله أنهم ينساقون الى هذه الوحشية بدافع الكسب المادى وحده . بدافع الكسب من أى نوع . بدافع الاغتصاب واللذة الحسية . بدافع من شهوة القتل ذاتها التي يلغون في الدماء ليشتبعوها . لان هؤلاء السفلة لا يعرفون روح التنافس النبيلة المقدمة التي تدفع غيرهم الى التضحية بكل

مرتخص وغال لبلوغ القمة ، ولا يطوون الجوانح على طموح لا يهدأ هو الذى يدفع سواهم الى التفوق على أنفسهم . وسواهم ، بطبيعة الحال ، أبناء الطبقات المثقفة . الناس أمثال فيوكومبى هذا ، الذين من حثالة المجتمع ، أى تعليم يحصلون عليه ؟ لا شيء تقريبا ! ذلك القدر الضئيل من التعليم لا يمكن أن يكون له أثر حاسم على تكوينهم النفسى . . . فوق أنهم لا يذهبون الى المدارس ليتعلموا، بل ليجدوا فى الفصول المدفأة شيئا من الدفء الذى يفتقدونه فى بيوتهم . . . ان لم يكن ليهربوا بعض الوقت من الصفعات والركلات التى تنهال على أقيمتهم وأعجازهم فى البيت . وعندما يخرج الواحد منهم الى معترك الحياة لا يكسب من المال شيئا يذكر . لماذا ؟ لانه غبى وجاهل . وذلك القدر الضئيل الذى يكسبه سرعان ما ينفقه بغير حساب . مثل هذا العسكرى الاعرج . ماذا فعل بالتعويض السخى الذى دفعته له حكومة صاحبة الجلالة ؟ ضيعه فيما لا ينفع . تسرب من بين أصابعه كالماء . اذ ذاك وجد نفسه مفلسا . وأنت سيد العارفين يا مستر بيتشام : لندن ليست روضة أطفال ، فلا مكان فيها للمفلسين . وهكذا يحاول صاحبنا أن يشحذ . لكنه يفشل حتى فى ذلك ، ربما لانه لايتوصل الى اقناع المحسنين بأنه جدير بالصدقة . وبذلك يصل الى حالة ذهنية تجرده فيها أقل بادرة كسب من كل تحكم فى نفسه ، فلا يتورع عن القتل ، بل هو يجب أن يقتل . يقتل أى انسان ، ما دام ذلك سيدر عليه بضع شلنات ! وذلك كله ليس ذنبنا . لكنه ذنب الطبيعة التى لا تتوخى المساواة فى توزيع عطاياها فتسبب بذلك فى جعل ذلك الرجل وحشا وقاتلا من خلال افتقاره الى التعليم ، وتحت تأثير ظروف البيئة . ذلك شيء لا نستطيع أن ننكره . لكن أى ذنب لنا فيه ؟ من ذا الذى يستطيع أن يغير من طباع الطبيعة ؟

توقف المحامى لحظة متأثرا غاية التأثر بفصاحته ، محدقا فى الثريا البللورية التى فوق رأسه ، لحظة ، مستطردا بعد ذلك بخفوت :

— أستطيع أن اسمعك الان معترضا على قولى بقولك ولكن مارى سوير هذه كانت امرأة معدمة لا تملك شروى نقيير ، ولا يعقل أن تحمل فى جيبها شيئا يفرى أحدا بقتلها . لكنك اذا اعترضت هذا الاعتراض تكون قد نسيت ما أوضحت لك لتوى من أن شجارا لابد قد وقع بين العسكرى ومسز سوير المسكينة ، وأن العيار

لابد قد افلت من الرجل الفظ ، الذى علمته الحرب أن يقتل ، وهو يحاول أن يرغم تلك السيدة الضعيفة على أن تفعل ما ظلت ترفض فعله حتى تلك اللحظة . حتى ولو لم يكن فى حوزة الضحية شىء يذكر ، ما الذى يمنع رجلا مثل هذا من أن يقتلها ليسرق منها بضعة بنسات ؟ يا سلام ! نستكثر على مثل هذا أن يقتل فى سبيل بضعة بنسات ؟ نستبعد أن تساوى حياة انسان بضعة بنسات ؟ هل هذا ممكن ؟ يا سادتى ! (وهنا جلجل صوت المحامى ، وقد جرفه عباب فصاحته ، ونسى انه فى بيته وليس فى المحكمة) نظرة واحدة تلقونها على مدينتنا العظيمة كافية للكشف عن فظائع لا تصدق ! عن أهوال ! نعم شىء كهذا يمكن أن يحدث ! ما قيمة بضعة بنسات بالنسبة اليكم أيها السادة ؟ بل ما قيمة بضعة جنيهات ؟ كم يجب أن يكون فى جيب الضحية حتى تقدموا أنتم على . . . ولكنى لن أذهب الى أبعد من هذا فى تقريب الصورة الى أذهانكم . فقط أسألكم : هل تعرفون عذاب البرد والجوع فى ليلة تقضى تحت البواكى ؟ دعونى أصف مثل تلك الليلة لكم !

أفاق الاستاذ الى نفسه وهو على بعد خطوتين من وجه مستر بيتشام الجهم ، فسحب يديه البسوطتين أمامه بسرعة ، اختتم مرافعته بشىء من شرود الذهن ، وكأنه يحاول أن يخترن فى حافظته النقاط الأساسية من ذلك الدفاع البارع المرتجل لرافعته الحقيقية المقبلة :

— وهكذا الخص مرافعتى : الظروف التى قد تكون السبب فى اقدام مارى سوير على الانتحار ، ظروف فقرها المدقع ، هى عينها الظروف التى قد تكون السبب فى اقدام جورج فيوكومبى ، وهو أشد منها فقرا ، على قتلها . لاننى كلما حاولت أن أكتشف المجرم الذى ارتكب جريمة ما ، ساءلت نفسى : من المستفيد من هذه الجريمة ؟ ان الشخص الذى لديه الدافع ، يا سيادة القاضى ويا حضرات المحلفين ، هو الشخص الذى ارتكب الجريمة ، ولا أحد سواه !

اختتم الاستاذ والى مرافعته ونظرة وروع واستشهاد على وجهه السمين ، بينما جلس الحجة الاول فى شئون الفقر والشقاء فى الجزر البريطانية منصتا اليه باستفراق كامل ، وعلى وجهه الجهم نظرة تنم عن موافقته التامة على كل كلمة قيلت .

معركة رصيف جزر الهند الغربية

الليل عاصف ، والبحر قد علا موجه
لكن السفينة الشجاعة يجب أن تقاوم .
لم يرتفع صوت الجرس بهذا الرنين المرتعش ؟
حذار ! هناك شعبة صخرية في طريق السفينة .
انظروا كيف يصمد كل صنديد في موقعه .
يقاتل البحر العاتي في سبيل الوطن .
والموت منه قاب قوسين ، قاب قوسين ،
رجال بواسل كلهم ، لا يهابون .
لكن صوت الجرس يعلو على صوت الريح بتذير مشئوم :
لا جدوى من نضالهم ، فالسفينة تنشع بالماء .
استعدوا يا أبطال لما يجب أن يكون !
وجهتنا الآن الأبدية !
ليكن الله في عوننا الآن !
فنحن في طريقنا الى نومتنا الأخيرة في قاع المحيط .
ليكن الله في عوننا الآن !

(اغنية « قسمة البحار »)

لم يعثر على جثة كوكس الا بعد ثلاثة أيام من مقتله ، عندما
اكتشفته أخته في مشرحة شارع بوبلار . وللغور اهتمت الصحافة
بالحادث ، فربطت ، بطريقة مباشرة ، بين مصرع رجل الاعمال
كوكس وبين اضراب عمال الميناء الذي كان قد بات محل اهتمام
متزايد من جانب الرأي العام . قالت الصحف :
« ليس هناك أدنى شك في أن ويليم كوكس قد سقط في ميدان
الشرف ، في سبيل وطنه . فكافة التحريات التي قام بها البوليس
تثبت أن المضربين لم يتورعوا في تطرفهم حتى عن ارتكاب جرائم
القتل ومن المعروف الآن أن مستر كوكس ، بالتعاون مع الحكومة

كان يقوم بتنظيم تسهيلات النقل البحري للقوات المسلحة . وعلى الحكومة أن تدرك جيدا أنها مالم توفر الحماية الكاملة الفعالة للمواطنين المحترمين الذين يعملون في خدمة وطنهم ، فانها سرعان ما سوف تجد نفسها وحيدة في الميدان بغير عون من رجال أعمال يشدون أزرها . ومن المصادفات المفجعة أن يفقد مسـبتر كوكس حياته في نفس الوقت الذي سارت فيه مظاهرات نبيلة من الجنود الجرحى دفاعا عن مصالح الوطن ضد عبث المخربين المستغلين . ففي يوم الثلاثاء الماضي تظاهر مئات من جرحى ومشوهى الحرب ضد اضراب عمال الميناء المتسم بالخسة والخيانة . فبسبب الاضراب الغادر بات مقضيا بالفناء على جنودنا الابطال الذين يقاتلون في ميـفكينج وقد طال انتظارهم للقوات التي ستحل محلهم بعد أن ارهقهم القتال طوال الشهور الماضية . وكلنا نعرف أن هؤلاء العمال يضربون ابتغاء الحصول على بضعة بنسات زيادة في أجورهم فكأنهم يحكمون بالموت والفناء على جنود الامبراطورية البواسـل في سبيل حفنة من النقود لا تكفى حتى لشراء زوج من الاحذية ! ان الظروف الحالية التي تمر بها البلاد لا يجب أن تستغل ، ولن نسمح بأن تستغل ، في مثل هذا النوع القمىء من الابتزاز الذي لا يفيد منه حتى أصحابه . ان أفضل العقول في بلادنا تعمل ليل نهار في سبيل خفض تكاليف المعيشة الى الحد الأدنى . وها نحن اليوم نسعد بتلقى أبناء من نوع آخر تدين بنبلها مثل هذا الابتزاز الرخيص من جانب المضربين ، تثبت لنا أن دنيا الاعمال تحاول جاهدة ، بلا هوادة ، حتى على حساب أرباحها ، أن تخفض أسعار السلع الى أدنى حد ممكن . فقد اتفقت كلمة مؤسستين من المؤسسات التجارية الكبرى ، هما محلات كرسـتون ، ومحلات هارون ، ومعهما عدد لا يستهان به من صغار أصحاب المحلات المستقلين ، على تكتيل الموارد ، والانضمام الى محلات حرف «ب» ذائعة الصيت ، وتخفيض الاسعار طبقا للنظام المعمول به في محلات حرف «ب» ، خدمة للمستهلك . ولكن كيف يمكن أن تؤتى مثل هذه الوطنية ثمارها ، وهناك قطاع من الشعب لاخلاق له يصر على اقتضاء رطله من اللحم حتى آخر درهم (١) ؟ ليس هناك من ينكر على العمال حقهم في الحصول على عائد يكافئ جهدهم ، شأنهم في ذلك شأن أية طبقة أخرى من طبقات المجتمع . لكن الوسائل

(١) ايماء الى رطل اللحم الذي اصـر اليهودى شايـلوك على اقتضائه من جسد مديـنه في « تاجر البندقية » .

التي استخدمت في هذه الحالة وسائل لا يمكن تبريرها بحال ، خاصة
في وقت تقاتل فيه الامبراطورية دفاعا عن بقائها، وهو وقت يجب أن
يكون كل مواطن على أتم استعداد فيه للتضحية بما يجب عليه أن
يضحي به . ولعلنا لا نكون مسرفين في التفاؤل إذا ما توقعنا أن تعدل
الحكومة عن تقاعسها ، وتتخذ ما كان ينبغي لها أن تتخذه من اجراءات
مشددة من مبدأ الامر . فما من شك في أن مصرع المرحوم ويليم
كوكس مثل صارخ على فظاعة الهوة التي تردت فيها انجلترا على أيدي
العناصر غير المسئولة » .

لكن الحكومة - في حقيقة الامر - لم تهب لاداء واجبها ، الا بعد
ان وقعت عدة أشياء أخرى ، منها سلسلة من الاحاديث الصحفية أدلى
بها مستر بيتشام بوصفه رئيسا لمجلس ادارة شركة النقل البحري .
عبر مستر بيتشام عن حزن شركته الذي لا يوصف لفقدائها مستشارا
اقتصاديا لا يعوض كالمرحوم مستر كوكس ، واسهب في تعداد مناقب
الفقيد والتغنى بأخلاقه الرفيعة ووطنيته الصادقة . ولم يكتف مستر
بيتشام بذلك التأبين وفاء منه لذكرى الصديق الراحل ، بل كرس
كل وقته الثمين ، في الفترة الواقعة بين اكتشاف الجثة ، وبين
الجنائزة ، للمسائل الخاصة بشركة النقل البحري ، فقام - بناء على
طلب السيدة أخت القليل - بفحص كافة أوراق الفقيد بعناية فائقة
وغربلتها جيدا . ولما تم له ذلك أعلن تلك السيدة أنه من المحتمل
جدا - اذا سارت الامور على ما يرام - أن تحصل على ١٢٢٥٠ جك
(اثنى عشر ألفا ومائتين وخمسين جنيها استرلينيا) هي حصه
المرحوم شقيقها في أعمال الشركة ، ثم أخذ معه وثيقة معينة خاصة
بشئون الشركة ، موقع عليها من اثنين من أعضائها ، وأوراقا تتعلق
بسفن معينة في ساوثمبتون ، كما أخرج من اضاير مستر كوكس
الاوراق الخاصة بشراء وبيع السفن القديمة الثلاث ، واخذها معه
قائلا انها مطلوبة لانهاء أعمال خاصة بالشركة . وبينما هو غارق في
أوراق المرحوم ، وقع على اكتشاف أذهله . فقد وجد عقداً اخر مع
الحكومة . كان ذلك العقد يخص سفن ساوثمبتون ، وقد تبين منه أن
المرحوم ، بعد أن تمكن من شراء تلك السفن لحسابه بأموال الشركاء
المغفلين في شركة النقل البحري ، لم يتردد في عرضها على الحكومة
لحسابه أيضا ، وأن أرباح هذه الصفقة الأخيرة وحدها بلغت ١٢٠٠٠٠
جك (مائة وعشرين ألفا من الجنيهات الاسترلينية) فأصيب مستر
بيتشام بدوار ، حتى خشى أن يصاب بفالج ، من عظم المفاجأة ،

كان باب مكتب المرحوم مواردبا ، وفي الغرفة المجاورة جلست بولي ومس كوكس تحيكان ثياب الحداد . هم بيتشام بأن يطلب منهما كوبا من الماء . لكنه خشى أن تلاحظ المرأة كوكس شيئا . كانت تلك أعظم لحظات حياته خطرا وأشدّها مأساوية . لكنه خرج منها منتصرا . أخذ يتنفس بعمق ، واحدى يديه تضغط صدره فوق قلبه الذى تسارعت دقاته ، حتى استعاد تحكمه فى نفسه ، وأعاد ملامح وجهه بجهد ، مستعينا بواجهه زجاجية لدولاب كتب ، الى جهامتها المعهودة ، ونظرة الحزن الكاذب التى كان قد أضانها الى تلك الجهامة فحشا جيوبه بأوراق المرحوم ، واستأذن من الانسة كوكس ، وأسرع من فوره الى مبنى الاميرالية .

وهناك وضع أنف مستر هيل فى الرغام ، وجعله ينقل كلا العقدين الى اسمه . ولم يكلفه ذلك الا التلويح بايصال الالف جنيه الذى استكتبه اياه كوكس ، مهددا بارساله الى الحكومة لاثبات تهمة الرشوة والتواطؤ على السيد هيل . ولم يقاوم هذا الاخير طويلا . فقد حطمته ميتة صديقه وأصابته بصدمة قال أنه لن يفيق منها أبدا .

بلغ ربح مستر بيتشام من العقد الاول زهاء ٢٩٠٠٠ جك (تسعة وعشرين ألفا من الجنيهات الاسترلينية) . فوق أن سفن ساوثمبتون الجديدة لن تكلف أكثر من ٣٠٠٠٠ (ثلاثين ألفا) . وهكذا فان مستر بيتشام - أثناء عودته الى البيت بعد أن حضر حرق جثمان كوكس - أسلم نفسه ، لأول مرة فى تلك الايام المحمومة ، لخواتره الخاصة . وكانت تلك الخواطر هكذا : قال بيتشام لنفسه عجيبة والله ! انظر كيف يمكن حل أشد مشكلات الاعمال تعقيدا بأبسط الوسائل العتيقة ! وما الذى نتعلمه من ذلك ؟ نتعلم أن حضارتنا التى نباهى بها كثيرا ليست بعيدة كل ذلك البعد الذى نتوهمه عن أيام انسان النياندرتال الذى كان يتخلص من عدوه ببساطة ، فيهشم له رأسه بهراوته . حكاية السفن هذه مثلا . بدأت يعقود ، واتفاقات ، ولجان معاينة وما أشبه ، وانتهت بجريمة قتل ! كم أكره القتل وسفك الدماء ! يا له من تراث ، تشمز منه النفس ، من أيام البربرية الاولى ! لكن دنيا الاعمال تجعله ضرورة لا مهرب منها . لا يمكننا أن نستقنى عنه . ان القاتل فى مجتمعنا يعاقب . لكن اللاقاتل أيضا يعاقب - عقابا أشد فظاعة . كراول مثلا عوقب بالموت ، بسبب موقفه القدرى من حكاية السفن هذه . وحياة الفاقة والتشرد التى تهددتنى بعض الوقت أنا وأسرتى ليست

أقل فظاعة من السجن والموت . أنها حكم بالسجن المؤبد والموت البطيء ! هناك أناس لا يكفون عن المناداة بنشر التعليم ، وإيقاظ الضمائر وما الى ذلك . عظيم . لاشك ان هذه أشياء ضرورية . ولا شك أيضا أن صورة كوكس هذا ستترأى لعيني كثيرا ، ولقاتله أيضا ، ذلك العسكرى ، أثناء النوم . لكن الضمير ، والخير ، والإنسانية ، هذه كلها أشياء ليست قوية بما فيه الكفاية ، ليست قوية بأية حال ، وليست كافية للقضاء على القتل لان المقام التي تعود من وراء ارتكابه عظيمة ، والخسائر التي تترتب على عدم ارتكابه أفظع من أن تحتمل ! الواقع أن كوكس هذا مات ، أو ، بالأحرى ، قتل ، بطريقة طبيعية للغاية . لان استمرار وجوده بينما كان مستحيلا ، لان الامور كانت ستتعدد بطريقة لا تطاق لو ظل على قيد الحياة . أما بعد ان غار عن وجوهنا ، فان كل شيء ، أو كل شيء تقريبا ، قد أصبح على ما يرام . نعم ، ان القتل ملاذ أخير ، آخر ما يجب ان يلوذ به المرء ، لكن ذلك لا ينفي أنه ما زال نافعا . والعجيب في الامر أن هذا كله نشأ عن اشتراكنا معا في عملية تجارية كهذه !

في صباح اليوم التالي ذهب الى الميناء ثانية. وجد الموقف سيئا ، فالعمل يكاد يكون متوقفا على السفن الثلاث ، فاغتاض ، وزاد غيظه عداء العمال المضربين ، وقد تجمهروا أمام أبواب الميناء ليمنعوا غيرهم من العمل . قال بمرارة لعدد من شحاذيه الذين كانوا يتجسسون على العمال :

— لا شيء غير القوة الفاشمة في كل مكان ! أنا أعرف أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يعملوا بالأجور التي أَدفعها . أنهم أحرار في ذلك . ولكن لم لا يدعون غيرهم يعمل ما داموا لا يريدون أن يعملوا؟ هناك من يحتاجون الى هذه الأجور ، مهما كانت ضئيلة لينقذوا عيالهم من الموت جوعا . فأى شيء يجعل هؤلاء الملاعين يستخدمون القوة ليمنعوا هذه المخلوقات المسكينة من العمل ؟ اليس لكل انسان الحق في أن يكون حرا فيما يفعله أو لا يفعله ؟

الحقيقة أن الدنيا ضاقت في وجهه .
ثم جاءته مفاجأة من ابنته وزوج ابنته .
كانت أنباء موت كوكس قد خلقت جوا غير عادي في بيت آل بيتشام .
تسلط على بولى قلق عميق ، وبدت مهمة اهتماما خاصا

بموااساة مس كوكس ومباعدتها فى ترتيبات الجنازة ، فلما سمحت لها أخت المرحوم بذلك ، قرت عينا وبدا أن قلقها هداً بعض الشيء . ومن جانب آخر فان الانباء المثيرة التى نشرتها الصحف عن اضراب عمال الميناء فتحت عينيها على المتاعب التى يعانى منها أبوها ، ففرق قلبها لذلك الاب الذى يقاسى الامرين فى سبيلها وسبيل أمها ، وبعثت اليه برسالة ، عن طريق أمها ، تسأله فيها ان كان يريد حماية للعمال الذين يتحدون الاضراب ويعملون على سفنه ، قائلة أن زوجها يسعده كثيرا أن يضع تحت تصرفه من يهيتون تلك الحماية لعماله .

قالت مسز بيتشام لزوجها :

— أتعرف ؟ لقد تغيرت البنت كثيرا . يبدو أن المتاعب التى تعرضت لها فى الاونة الاخيرة علمتها كيف تقدر متاعب الآخرين . لم تعد تفكر فى نفسها فقط . وهى الان تريد أن تعرف ان كان بوسعها مساعدتك .

فلما استمع مستر بيتشام الى زوجته وهى تعرض اقتراح ابنته ، برطم قائلا : ان زوجها ذاك الذى تعرض مساعدته أكبر نصاب فى الوجود ! لكنه طلب من مسز بيتشام أن تقول لبولى أن بوسعها مناقشة الأمر مع بيرى . وقد كان .

كان مستر ماكهيث قد قال ، عندما فاتحته بولى فى الأمر : — أن المرء لا يجب أن ينساق وراء حزازاته الشخصية عندما يكون الأمر متعلقا بالنقود . لاشك فى أننا ، أنا ووالدك ، نختلف اختلافاً بينا فى مزاجنا ووسائلنا . لكن الظروف تفرض علينا أن نتحد ونعمل معا .

بعث أوهارا بعدد من رجاله — نتيجة لهذه الاتصالات التى قامت بها بولى — الى أرففة الميناء . ولم يكن أولئك الناس من الهواة . فسرعان ما أحس الجميع بدخولهم ميدان المعركة ، بما فرضوه من وسائل فعالة وحاسمة . حتى البوليس استقطع الطريقة التى تعاملوا بها مع العمال المضربين . نعم كان البوليس منظماً فى محاولته تحطيم الاضراب . لكن رجال أوهارا تفوقوا عليه فى ناحية النظام هذه . كانوا يتصيدون العمال المضربين فيحطمون كل عظمة فى أجسادهم ، وينقضون بلا أدنى تردد على كل من ينم وجهه عن أنه جائع . وقد قرح المهندس المشرف على العمل كثيرا بتلك النجدة التى جاءت فى وقتها . قال لبيتشام ، بتأثر حقيقى ، ان الخير لم

يختلف من الوجود تماما ؛ فحتى هؤلاء الرجال الذين يتصفون بالخشونة ، فيهم بذرة من الخير ، والامر كله متوقف على الفرض الذى يستخدمون لاجله . كان المهندس متحمسا للغاية ، وقد أكد لبيتشام أن العمال الذين تحدوا الاضراب بدعوا يستمدون شجاعة جديدة ، ويزداد عددهم ، بعد هذه التطورات الاخيرة .

لكن أوهارا لم يكن متساهلا ، كذلك المهندس . فقد أخذ على رجاله البطء الذى سارت به الامور . ولذلك فانهم غيروا تكتيكهم . جمعوا عددا من المتسكعين واقتحموا مخزنا للاطعمة قرب الميناء . وسرعان ما تطور الامر الى معركة حامية الوطيس عرفت فيما بعد ، فى سجلات شركة م.م.م. (التى انفقت على العملية) باسم « معركة رصيف جزر الهند القربية » . وقد حسمت تلك المعركة مصير العمال المضربين .

عندما وجد البلطجى الذى كلفه أوهارا بقيادة رجاله ، حائطا صامدا من العمال الصامتين يعترض طريقه ، أطلق رعايه فحطموا كل نوافذ المخزن ، وعندما اقتحموه لم يحاول العمال أن يدخلوا فى أعقابهم ، رغم أنهم كانوا جياعا ، ورغم أن المخزن كان مكدسا بالطعام ، لكنهم كفوا أنفسهم بجهد ، حتى لا تكون لهم يد فى عملية اقتحام ونهب كهذه . فلما لم يفلح رجال شركة م.م.م. فى استدراج « أعدائهم » الى ذلك الكمين ، تسلحوا بما طالته أيديهم من افخاذ الخنزير المدخنة وقطع اللحم وهاجموا اولئك الجياع بها . سقط عامل كان نصف ميت على قدميه من الجوع ، من ضربة تلقاها على رأسه بفخذ من اللحم البقرى ، وأصيب غيره بأوعية من اللحم المخلل فى وجوههم المهضومة ، فلما أخذوا يتخبطون ، وقد أعماهم السائل الذى أصابهم فى أعينهم ، وقعوا فى أيدي رجال البوليس . حتى أرغفة الخبز استخدمت كهراتول فى تلك المعركة . أصيب عدد من الاطفال الذين تبدو عليهم علامات الكساح بتلك الارغفة . الحقيقة أن أرغفة الخبز انقلبت فجأة الى أسلحة رهيبة . امرأة عجوز كانت تحمل سلة فارغة كسرت ذراعها بضربة من رغيف زنة خمسة أرطال ، وقد اعتبرت ذراعها المكسورة دليل ادانة دامغا ، بعد ذلك فى المحكمة .

لم تكذ تعرف أبناء المعركة حتى أصيبت الصحف بسعار حقيقى، خاصة فيما يتعلق بالطريقة المعيبة التى استخدم بها « الشعب » المواد الغذائية . كتبت تلك الصحف تقول : « هذه عينة من بشاعات

الفوضى التي تبشر بها المبادئ الهدامة . هذه عينة من الغرائز البهيمية عندما تنطلق من عقالها . والحقيقة أن على أصدقائنا الاشتراكيين أن يعنوا بتجنب مثل هذه المشاهد المزرية إذا كانوا يريدون أن يصدق أحد هجماتهم المتسمة بالكذب والنفاق على النظام القائم ! »

والاهم من ذلك أن الحكومة - ابتداء من تلك المعركة - بدأت تتخذ اجراءات مشددة تجاه المضربين ، وتتخذ موقفا صارما من مطالبهم .

لم يكد ينقضى يومان حتى استدعى الجيش للتدخل . اقامت قوات من الجنود الشبان ، الذين ينتظرون نقلهم الى جنوب افريقيا كردونا حول الميناء ، وقدمت حماية مسلحة للعمال الذين تحدوا الاضراب . ولم تهدأ الحالة على الفور . فقد اضطرت القوات خلال الايام القليلة التالية الى اطلاق النار مرة أو مرتين ، لكن العمل كان قد استؤنف على السفن ، وبات الانتهاء من ترميمها أمرا مؤكدا .

كانت المعركة الأخيرة قصيرة ومريرة ، لكنها حاسمة . معظم الجنود الذين خاضوها لحساب مستر بيتشام وشركة النقل البحري كانوا من المجندين الذين يذهبون الى الميدان لأول مرة . نعم كانوا أقل جوعا من العمال ، ويرتدون ثيابا غير ممزقة . لكنهم لو خلعوا تلك الثياب وارتدوا ثياب العمال لما استطاع أحد أن يميز بين الفئتين المقتلتين ، لانهما من طبقة واحدة . والحقيقة أن أولئك الفتية لو تخلوا عن أسلحتهم وبرزاتهم الرسمية ، لبدوا ، وهم يقاتلون العمال ، كما لو كانوا يقتتلون فيما بينهم .

لكن المرء لا يجب أن ينسى أنهم كانوا يتكلمون نفس اللفظة ، وينطقونها بنفس اللهجة ، وأن الشتائم التي تقاذفوا بها كانت واحدة ، وأن البندقية كلما انتزعت من يد الجندي الذي كان يضرب العمال بها ، كانت تتلقفها يد عامل لا تقل مهارة في الضرب بها لطول مران على استخدام المطرقة . وانه حتى إذا كان العمال أقل دربة على ذلك النوع من القتال ، فانهم أناس وضعوا مع لبن امهاتهم ادراكا لكونهم وحدهم في الحياة ، بغير نصير ، وأنهم ، إذا لم يحسنوا الذود عن انفسهم ، عرضة ، في كل لحظة ، لان تطاهم الاقدام ، وان الجنود ايضا تعلموا ، من نفس المصدر ، أنهم لا يقبضون أجورهم ليتسكعوا وانهم ، بغير أجورهم ، يكونون عرضة ، هم أيضا ، في كل لحظة ،

لأن تطأهم الأقدام . ولذلك فانهم وقد اشتبكوا في ذلك العراك ، قاتل كل منهم الآخر بنفس الضراوة التي يقاتل الجوع بها ، وبنفس الكراهية التي يكنها للمرض ، والفاقة ، وكل البلايا التي تجود عليه مدنيته العظيمة وبيئته وطنه بها .

طلعت الصحف على قرائها بوصف مفصل للمعركة ، وقد اتفقت كلها ، مع اختلافات طفيفة ، في تصويرها للموقف تحت عناوين كهذه : « جنود الامبراطورية الشبان ، الذين يتوثبون الى شد أزر زملائهم المقاتلين في ميفكينج ، ينتزعون الناقلات التي ستأخذهم الى هناك ، من العمال المخربين ، بحد السلاح » .

لم يستغرق ترميم سفن مستر بيتشام وقتا طويلا بعد ذلك . والحقيقة انه بعد أن هبت الصحافة ، وعالم الجريمة ، والقوات المسلحة لنصرته ، لم يعد أمامه الا الانتهاء من مضايقات مجموعة الشكليات المعقدة التي وضعت لحماية الامة من أي خديعة أو تدليس ولم يستغرقه ذلك وقتا ، ففي صباح يوم من أيام الجمعة ، قامت لجنة حكومية موقرة بتسلم التوابيت العائمة الثلاثة ، في حفل مهيب ، وبعد أسبوع واحد لا أكثر كانت تمخر عباب البحر .

كان الضباب كثيفا . وبالرغم من أن هذه القافلة كانت من القوافل الصغيرة الهزيلة ، اذا ما قورنت بغيرها ، الا أن أرصفة الميناء اكتظت بالجنود ، وأقارب الجنود ، وأعضاء الحكومة ، ورجال الصحافة . كان من الصعب أن يرى المرء شيئا مما يجري ، لأن المرء لم يكن مستطيعا أن يميز يده ذاتها في الضباب . لكن السيد الوزير قال في خطبته :

— أيها الأصدقاء . ان مستقبل انجلترا أمانة في عنق شبابها . مستقبل انجلترا رهين بشجاعة أبنائها وقدرتهم على التضحية بالذات . ان انجلترا بأسرها تنهل في هذه اللحظة التي يبحر فيها ألفان من شبابها ، من زهرة شبابها ، على سفن صاحبة الجلالة ، ليضربوا للعالم كله مثلا عظيما في البسالة ، والشجاعة ، والوطنية ، والبذل والفداء ، ستظل أصداؤه تتردد على مر الدهور . انهم يبحرون وقلوبنا تحف بهم ، وقوة العناصر الغاشمة العمياء تخوطهم ، واعداء لئام لا يتورعون يتربصون بهم ، لكن وراء ظهورهم ينتصب سد منيع من عظمة بريطانيا ، ومجدها التليد ، وخلودها الذي لا يزول . فوق انهم من هذه اللحظة فصاعدا سيكونون أمانة بين يدي الله العلي القدير ، ونعم بالله حافظا ونصيرا .

وهكذا أبحرت السفن الثلاث ، شبه وحوش ضخمة غير واضحة
المعالم في الضباب ، فابتعدت عن أرصفة الميناء بين هتافات المودعين ،
وشهيق الامهات والزوجات ، والدوى النحاسى الصفيق لذلك المارش
العسكرى الذى علا صخبه على كل صخب .

وبعد احدى عشرة ساعة لا اكثر ، والقافلة ما زالت فى بحر
المانس ، غاصت « المتفائل » الى القاع فى الضباب ، آخذة معها
كل كائن حى رماه نكد طالعه على ظهرها .

كارثة قومية أليمة

بعد الاعصار وبعد الظلام .
تستقر السفينة وتهمد فى القاع العميق ،
بغير رفيق الا خنزير البحر والقرش الذى اكل حتى اكتظ .
يسبحان متكاسلين حول تلك الصخرة الكثيبة الجرداء .
ومن كل اولئك الفتية الذين كانوا يفيضون مرحا وبسالة .
لم يستطع أحد أن يفلت من قبضة الموت التى لا ترحم .
هناك على أرض المحيط الباردة ،
ينامون كلهم بشغاف غاضت دماؤها ولم تعد تنبس ،
البحر من حولهم يتنفس بخفوت مغمما نغمه العتيق
محذرا ، ولا من سميع :
أيها البحار خذ حذرک ، أيها البحار خذ حذرک !
والق سمعك الى أصوات الموج وأصوات الرياح .
نم هادئا ، نم هادئا ، أيها الملاح ،
فتحت شعبة مرجانية يوجد مكان هادىء
ينتظرک ذات يوم أنت أيضا .

(أغنية « قسمة البحار »)

صكت صيحات باعة الصحف الثاقبة سمع مستر بيتشام وهو
فى عربة امينيوس تعبر به شارع اكسفورد ، فترجل من فوره .
واشترى نسخة من الملحق الذى أصدرته الصحف ، فعلم أن
سفينته « المتفائل » قد غرقت بمن عليها ، وأن هناك شائعات
ملأت حى المال والاعمال عن مؤامرة تتعلق بتلك السفن التى يقال

الان أنها أبحرت وهي في حالة تجعلها غير صالحة لركوب البحر ، وان الجمهور يأمل أن يتمكن البوليس من اعتقال أولئك الاشخاص عديمي الاحساس بالمسئولية الذين كانت لهم يد في هذه الفاجعة ويقدمهم للمحاكمة بتهمة تعريض سلامة الامة للخطر . فلما قرأ مستر بيتشام هذا الكلام ، ذهب من فوره الى بيته .

كان باعة الصحف قد وصلوا بذلك الملحق الى شارع اولداوك ، فوجد بيرى منهمكا في قراءة نسخة منه عندما دخل ، وقد غاض لونه ، وانتابته رعشة ظاهرة . مر بيتشام بمدير أعماله فرمقه بنظرة جانبية مخيفة ، والرجل يحملق فيه ، فاغرا فاه ، وكأنه يرى شيئا عاد من القبر .

اما مسز بيتشام فاستقبلته ذلك الاستقبال الودود الذي تبديه كلما كانت قد عادت من القبو لتوها ، خاصة وانها لم تكن قد سمعت شيئا بعد .

ذهب بيتشام رأسا الى الغرفة التي يحتفظ فيها بسجلاته وملفاته ، فأغلقها على نفسه ، وسمعت زوجته يذرع أرضها ، وهو يبرطم ، ساعة بعد ساعة ، فلما أرادت أن تحضر له عشاءه قرعت الباب مترددة ، لكنها لم تتلق جوابا ، فأحضرت الطعام وتركته أمام الباب ، على أمل أن يخرج فيأخذه . لكن الطعام ظل مكانه لم يمس . كان مستر بيتشام في انتظار من يأتي ليقبض عليه .

وفي تمام الحادية عشرة مساء ، بعد أربع عشرة ساعة من صدور الملحق ، نزل الى مكتبه وطلب بيرى ، فلما جاء الرجل متصبيا عرقا ، بعث به ليحضر صحف المساء ، فلما عاد بها قرأ بيتشام ملهوفنا مانشيتاتها الضخمة : « كارثة قومية كبرى » و « الضباب مسؤل عن غرق المتفائل » وتحت ذلك وصف للكارثة من واقع المعلومات التي عرفت عن الامر ، ولا شيء خلاف ذلك . فقد خلت تلك الطبيعة من أية تكهنات عن أسباب الكارثة ، خاصة التكهنات التي تسرع البعض بنشرها في الطبقات السابقة . كل ما قيل في ذلك الشأن ، باقتضاب شديد ، أن الاميرالية تجرى تحقيقا في الامر .

قرأ بيتشام كل ذلك ، كلمة كلمة ، ثم انخرط في العمل بهمة ونشاط ، فوضع - بالاشتراك مع بيرى - خطة كاملة لاعادة تنظيم الورش بحيث تعمل بكل طاقاتها لتزويد اكثر من نصف شحاذيه بالثياب العسكرية والعايات المختلفة . لم يكن مستر بيتشام من

أولئك الذين يهملون أعمالهم في أوقات الأزمات . والعمل الأساسي لمستريتشم هو الشحاذة . ولذلك فإن كارثة قومية كهذه لم يكن من المقبول أخلاقيا أن تترك لتضيع هدرا . لان الكوارث التي من هذا النوع تعدل تماما - من وجهة نظر نشاط الاعمال القائم على الشحاذة - الانتصارات العسكرية الكبرى : هذه وتلك تنطوي على اعداد كبيرة من الضحايا ، وما من شك أن لندن بأسرها ، بعد التغطية الصحفية البارعة لانباء الكارثة ، والوصف المفجع الذي نشر عن غرق أولئك الاولاد ، ستكون على استعداد لان تعطى ، وتعطى بسخاء ، وأن كل شحاذ يرتدى بزة عسكرية من أى نوع ، ويتحلى بأبسط عاهة ، سيكون بطلا قوميا - بلا أدنى شك - طوال الايام القليلة المقبلة . فهل هذه فرصة يضيعها أحد ؟

استغرق بيتشم في العمل عدة ساعات ، ثم نام قليلا ، تاركا ورشه جميعا تعمل بكل طاقتها، فى انتاج الملابس العسكرية والعاهات وفى العاشرة صباحا قام بزيارة للاميرالية فقابل هيل بمقابلة قصيرة لم تزيد عن خمس دقائق ، ذهب بعدها الى سكوتلانديارد رأسا .

كانت مقابلة هيل مفاجأة سارة بالنسبة اليه . بدأ أن الحياة العسكرية علمت الرجل أن يتلقى ضربات القدر بهدوء ورباطة جأش . كان مكتبه يعج بالحركة والنشاط ، وأوامره تتتابع الى مرءوسيه ، سريعة ، حاسمة . فقد تقرر أن يقام حفل رسمى لتأبين الشهداء الابرار خلال يومين . جلس بيتشم يرقب كل ذلك بوجه لا يفصح عن شئ ، ثم انتهز لحظة هدوء فسأل هيل عن مصير العقد الثانى ، الخاص بسفن ساوثمبتون ، بعد التطورات الاخيرة ، فقال هيل انه لايرى مدعاة للانزعاج ، طالما لم تثر فضيحة بخصوص العقد الاول .

فلما ذهب بيتشم الى سكوتلانديارد وروحه المعنوية فى السماك بسبب ذلك التأكيد ، واستقبله الحكمدار المساعد براون بارتياح لم يحسن اخفائه ، لم يهتم كثيرا ، وقدم نفسه بوصفه رئيس مجلس ادارة شركة النقل البحرى ، وللتو تغيرت معاملة الضابط العظيم له ، وعندما أضاف بيتشم - عملا على ازالة أى لبس أو سوء فهم - انه جاء بخصوص قضية ماكهيث (التى كانت قد تحددت جلسة قريبة لنظرها أمام محكمة الجنايات) ، انقلب الوضع تماما واصبح بيتشم هو المتفضل بالزيارة ، والشكر له .

فلما وجد بيتشام الامور كذلك ، لم يجد ما يمنعه من الاستعانة بخبرة الحكمدار المساعد ومعلوماته ، فسأله عما ينبغي له أن يجيبه على أسئلة الصحفيين عن الاسباب التي يحتمل أنها أدت الى وقوع الكارثة . ولم يضمن عليه مستر براون بالنصيحة ، فقال له : أنه لم يتم بعد التيقن من أسباب الحادث المؤسف ، لكن المعلومات التي لدى السلطات تبين أن السفينة المسماة « بالولد البحار » قد أصيبت بعطب خطير هي الاخرى ، وأنه من المحتمل جدا أن تكون السفينتان قد اصطدمتا في الضباب .

انصرف بيتشام بعد ذلك على عجل فذهب الى ايستمان ، وقضى بقية ساعات الصباح معه ومع مون - اذ كان فينى لا يزال في المستشفى بعد أن أجريت له العملية - مستفرقين ثلاثتهم في اجراء الحسابات النهائية الخاصة بسفن الشركة الثلاث . لم يكن أى من السيدين فى حالة تسمح له بالخوض فى تفاصيل تلك العملية الرهيبة من جديد ، فلم يكن أى منهما قد رأى سفن ساوثمبتون ، التي ظلا يعتقدان أنها هي التي أبحرت تحت أسماء السفن الثلاث القديمة النخرة ، ومع ذلك كانا فى ذعر مميت مما قد يتمخض عنه التحقيق المنتظر .

لم يحاول بيتشام ان يسرع ، فى طريق عودته الى البيت . تلكا فى الشوارع عن عمد ، متسقطا الانباء ، منصتا لما يقوله الناس ، ولم يكن لاحد حديث الا الكارثة الاليمة .

امام احد دكاكين حرف «ب» كان صاحب الدكان واقفا يثرثر مع بعض المارة . سمعه بيتشام يقول :

- عندما يكون المرء تحت رحمة الريح والماء ، لا يمكنه أن يتكهن بما قد يقع له . ولا حيلة لأحد فى الضباب . هذه كلها أشياء من قوى الطبيعة ، من فعل العناصر المدمرة التي لا سلطان لاحد عليها . ليس هناك من تخلو حياته من المتاعب . لكن قضاء أخف من قضاء . تصوروا أن يغرق كل أولئك الاولاد المساكين فى هذا الضباب ، وفى هذا الجو أيضا ! انها كارثة مخيفة ! يقال أن صلاة ستقام على أرواحهم فى كنيسة القديس بولس يوم الجمعة القادم . مساكين . اراهن على أن الشيوخيين اولاد الحرام لهم يد فى هذا الملعوب .

قضى بيتشام طيلة بعد الظهر فى عمل متواصل مع بيرى . تم تزويد عنبر خطابات الشحاذاة بصيغ جديدة . بأيد راعشة كتبت أرامل الحرب ينعين أزواجهن الراقدين فى قبورهم المائبة ، ويستجددين

العون من كرام المحسنين ليبدأن أعمالاً صغيرة . . . وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر لداكاين حرف «ب» في خطابات الشعادة التي تنتجها ورش مستر بيتشام بالالوف .

لم تكن تلك الخطابات ترسل هكذا كيفما اتفق ، بل كانت عناوين المرسل اليهم تختار بعناية من سجلات كاملة دقيقة تضم أسماء وعناوين المحسنين ونقاط الضعف التي يمكن من خلالها النفاذ الى قلب كل منهم . والواقع أن مؤسسة مستر بيتشام اثبتت ، من كل النواحي ، كفاءة عالية وقدرة على مجابهة كارثة قومية كبرى بتلك الضخامة . لكن مستر بيتشام استدعى قرب المساء لمقابلة مساعد الحكمدار براون . وعندما هرع بيتشام اليه ، استقبله هذا الاخير بوجه مكفهر عابس لا يبشر بخير ، والاسوأ من ذلك أن ضابطين آخرين ، من كبار رجال سكوتلانديارد ، كانا معه في مكتبه .

كانت غرفة الضابط العظيم كبيرة ، وعلى المكتب الضخم تمثال برونزي للتيان اطلس حاملا على ظهره ساعة تسمع دقاتها في الغرفة بوضوح ، وفوق الحائط صورة كبيرة لدوق ويلنجتون . قال كبير المفتشين بلهجة رسمية :

- ياسيد بيتشام . يؤسفني أن اخبرك أن التقازير التي وصلتنا تفيد أن ناقلة الجنود المسماة « بالمتفائل » غرقت نتيجة لعطب داخلي بالغ الخطورة . وأجدني مضطرا أن ابلغك أن مستر هيل . قد أوقف عن عمله بالاميرالية ، وحددت اقامته في بيته لحين صدور تعليمات أخرى . فهل لديك ما تقوله بخصوص هذا الموضوع ؟
جلس مستر بيتشام محدقا في الحائط الذي أمامه بنظرة عمياء ، ثم قال :

- طبعا لدى ما أقوله بخصوص هذا الموضوع . فاعتقادي أن في الامر جريمة .

امعن كبير المفتشين النظر في وجه محدثه ، وعلى وجهه تعبير رسمي للغاية . لكن مستر بيتشام لم يعن كثيرا بالنظر اليه ، وهو يقول بصوت لا لون له ، بعد صمت قصير أحدث الاثر المطلوب في نفوس سامعيه :

- أيها السادة ، طبعا كان لا بد لهذه السفينة أن تغرق ، بغير عاصفة ، بغير اصطدام ، بغير خطأ من ماسك الدفة . كان لا بد أن تغرق في ذلك البحر الهاديء الذي لا يشوب جوه الا شيء من الضباب . لم يكن من الممكن أن يحدث شيء غير ذلك . ولا حاجة بأحد الى اجراء

تحقيق ، أو احداث فضائح • كل ما نحن بحاجة اليه شئ من التفكير والتأمل فى طبائع الاشياء ، وشئ من الدراية بحكومتنا ، وبكل حكومات البلدان المتحضرة ، وشئ من التدبير للطريقة التى نختار بها موظفينا الرسميين الذين يقع على عواتقهم عبء المحافظة على مصالح الدولة ، والطريقة التى ندرّبهم بها ، وكيف ولم يضعون أنفسهم فى خدمة الامة • ثم علينا بعد ذلك ، حتى نتبين لم يجب أن تفرق مثل هذه السفن ، أن نفكر قليلا فى الغرض الذى بنيت من أجله ، والطريقة التى بيعت بها ، والارباح التى ما من شك فى أنها قد أدخلتها فى جيوب كثيرين • متى تأملنا ، وتدبرنا ، وفكرنا جيدا فى كل ذلك ، بات متعينا علينا - شئنا أم لم نشأ - أن نصل الى يقين لا يطاوله أدنى شك كما قلت الآن لتوى ، أن فى الامر - بغير شك - جريمة •

تبادل الضباط الثلاثة العظام النظر دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة • كان بيتشام هو الوحيد الذى ظل جالسا فى الغرفة ، لان الثلاثة هموا واقفين •

سكت مستر بيتشام لحظة ثم عاد يقول :

- لكنى مستطيع ، من وجهة نظر أخرى ، مغايرة تماما ، أن أصل الى نتيجة مختلفة • وجهة النظر الأخرى هذه تقوم على الايمان ايماننا راسخا ليس من مصلحة أحد زعزعته أو التشكيك فيه : الايمان بعظمة حكومتنا ، وأمانة كبار موظفيها ، ومثانة خلق ووطنية رجال أعمال هذه الامة ونزاهة شركاتها ، وعدالة قضيتنا ، ونظافة حربنا ، وانعدام الاثرة فى نفوس شعبنا المعتدل فى طعامه ، المتحفظ فى لباسه ، المتمسك بأهداب الشرف والامانة والاخلاق فى شئون حياته • فى ظل ايمان راسخ كهذا بأن كل شئ كما يجب أن يكون ، ما الذى يجب أن يتصوره المرء بشأن ناقلة جنود تفرق بمن عليها فى بحر هادىء ؟ يجب على المرء ، بغير حاجة الى تحقيق ، وبرغم كل تحقيق ، أن يؤمن ايماننا لا يطاوله شك بأنه لا يمكن أن تكون فى الامر جريمة ، وان حادثا لاشك ، بل لابد ، قد وقع لتلك الناقلة • ولهذا فانى أقول لكم أنى لا أعتقد أن هناك جريمة ، ان فى الامر حادثا يؤسف له • حملق مستر بيتشام فى وجه كل واحد من الثلاثة ، طويلا ، بعين لا تطرف ، قبل أن يستطرد قائلا :

- فاذا سمحتم لى حضراتكم بالمفاضلة بين هذين النقيضين ، واختيار احدى النتيجةين ، لاخترت الثانية بلا أدنى تردد • لم ؟ لانها

الافضل بما لا يقاس • ولنفكر معا • سيقام ، اذا صح ما سمعته ،
 قداس على ارواح الشهداء خلال يومين ، تصلى فيه الامة كلها على ارواح
 جنود صاحبة الجلالة الذين غرقوا في تلك الكارثة القومية • فهل
 ترون حضراتكم أنه من العقل فى شىء أن نثير بلبلة لا تؤمن عقباها ،
 قد تدفع أولئك الجنود من جرحى الحرب - الذين تظاهروا ، تحت
 حماية البوليس ، منذ وقت غير طويل ، مطالبين بالاسراع فى ابحار
 تلك الناقلات - الى التظاهر الآن ضد الحكومة لكونها قد اشترت تلك
 الناقلات عينها ؟ لقد قيل لى بالفعل أن هناك نبأ نشرته بعض الصحف
 يشير الى أن أولئك الجنود ينوون القيام بمظاهرة كهذه فى حي
 الميناء •

لم يقل أحد شيئا • وعندما خرج مستر بيتشام من سكوتلانديارد
 لم يعترض طريقه أحد • فسار فى شوارع لندن يتنسم هواء الحرية
 ملء رئتيه ، متأملا الاعلام المنكسة على أبنية أعظم مدينة فى العالم
 حزنا على أبنائها الابطال •

تسوية الحسابات المعلقة

كان « الاب » رجلا ضخما الجثة عريض العظام ، وأحد ثلاثة
 ظلوا على قيد الحياة ممن كانوا يعرفون ماكهيت أيام أن كان يدعى
 بيكيت • كان الاب يعمل مع أوهارا فى حارة رايد ، ويعجب كثيرا
 بالفتى الايرلندي نارى المزاج ، ويكن له ودا حقيقيا • وعندما كلفه
 ماكهيت بمراقبة بولى وأوهارا ، ذهب فأخبر صديقه بذلك من
 فوره • أما البضائع التى أمر ماك باخلاء المخازن منها واعدامها ،
 فقد اشترك مع أوهارا فى بيعها لمنافسى ماك ، واقتسم الارباح مع
 صديقه • وقد عنى الاب خلال كل ذلك باقصاء جروتش عن الامر
 تماما • (كان جروتش ثالث الثلاثة) •

وبالإضافة الى ذلك كان الاب يعرف كل شىء تقريبا عن علاقة
 أوهارا بمسز ماكهيت ، لانه كان يؤمن بأنه من الافضل للمرء أن
 يكون فى الصورة باستمرار ، قدر استطاعته •

وكان أيضا قد سار فى ذيل الرجل الذى هاجم كوكس وضربه
 على رأسه • لكن صديقه أوهارا لم يكن يدري أنه يعرف شيئا عن
 تلك الحكاية أيضا •

وقد حدث ، ذات صباح ، أن هاجم ثلاثة من رجال البوليس

المنزل رقم ٢٨ بحارة رايد ، ثم شقوا طريقهم الى المخازن الواقعة ورائه ، فأيقظوا الاب من نومه ، وانتزعوه من فراشه الدافئ ، ثم طلبوا منه بأدب جم أن يقودهم الى مكان تخزين البضائع .
لم يكن قد عاد هناك شيء يذكر ، لكن بضعة أشياء كانت ما زالت على الارفف هنا وهناك فحملها رجال البوليس وأنصرفوا دون أن يكثروا في الكلام .

ارتدى الاب ثيابه ببطء ولما لم يكن ينتظر مجيء أوهارا قبل الحادية عشرة ، فانه ذهب لزيارة ماكهيث في السجن .
كان ماك يتناول أفطاره . لم يدع الاب يسترسل في وصفه الغاضب لهجوم البوليس الغادر . قال له :

- ليس هناك ما يدعو للانزعاج . فالمخزن رقم ٢٨ قد أخلى منذ زمن طويل بناء على تعليماتي ، ولم يعد فيه شيء . فليفضل البوليس ويفتش المكان .
قال الاب باكتئاب ، محاولا أن يجلس على المنضدة التي تحمل افطار ماك :

- من قال لك أن المخزن ليس فيه شيء ؟
فقال ماك وهو يغمس قطعة من التوست في القهوة بيد ، ويزيح الاب بعيدا عن المنضدة باليد الأخرى :
- من قال لي ! هل نسيت اني أنا الذي أقول في هذه الامور ؟
لقد أمرت باخلاء المخزن منذ وقت طويل .
- آه . لكنه لم يكن قد أخلى تماما . كنا ننوي أن ننقل بقية البضاعة غدا ، ولذلك فان هؤلاء الملاعين عندما داهمونا اليوم ، عثروا على بعض الأشياء .

استمر ماكهيث في تناول طعامه ، وهو يقول بهدوء :
- كذا ؟ وما الذي وجده البوليس اذن ؟ هلا تفضلت فأخبرتني ما الذي كنتم تفعلونه في مخازني اثناء غيابي ؟ أرجو ألا تكونوا قد تورطتم في شيء مخالف للقانون ، وان تكون في حوزتكم فواتير تغطي كل شيء .

لم يقل الاب شيئا ، لانه لم يكن هناك ما يقال . ثم ما لبث أن غمض ، بنبرة احتجاج :

- لقد جاءوا الى رقم ٢٨ رأسا .
قال ماكهيث وهو ينظر الى الاب بعينه الدامعتين أبدا :
- يا حول الله !

اغتاظ الاب تغير موقفه فجأة . جلس على حافة المنضدة بعد أن أفسح لنفسه مكانا ، فأزاح بيده الضخمة الاكواب والصحاف والفناجين ، ثم قال بصوت لا أثر لحنوعه السابق فيه :

— اسمع يا بيكيت يا صاحبي . أنت ترتكب خطأ جسيما اذا تصورت أننا سنذهب الى السجن ارضاء لخاطرك ! لن نقيم لخاطرك وزنا . وأحب أن أقول لك ان أوهارا صديقي ، واننا لن يتخلى أحدنا عن الآخر ، حتى وان كان هناك من يخون أصدقاءه القدامى بنذالة ويحاول ان يدخلهم السجن ليخلو له الجو . فهمت ؟
استمر ماك في تناول طعامه دون أن يبدو عليه أدنى تأثر بثورة الآخر ، ثم قال بهدوء :

— يمكنك أن تقول كل ما عندك أيها الاب ، لكن قم من فوق هذه المنضدة الان ، والا جعلتهم يلقون بك خارجا ، حتى وان كنت صديقا قديما .

هم الاب واقفا بخشونة ، فأوشك أن يقلب المنضدة بما عليها . كان ينتفض غضبا :

— اذن فهذا هو ما تريد أن تفعله ؟ تريد أن تزيحنا من طريقك ؟ منذ اللحظة الاولى وأنت تغشينا وتسرقنا بالاعبيك التي لا تنتهي . . . في مبدأ الامر تدفع أجورا ثابتة لانك تريد ان تملأ مخازنك . ثم وقد اكتفيت ، فلم تعد بحاجة الى مزيد من البضائع ، تدفع لنا أجورنا بالقطعة . يجب أن تكون الامور دائما على مرامك أنت وحيدك ، ووفقا لمصالحك . والان وقد انتهيت منا تريد أن تسلمنا الى البوليس ! لقد أصبحت مديرا لاحد البنوك الان ، هه ؟ ولم تعد تدري شيئا عما يجري حولك ، اليس كذلك ؟
كف ماك عن الاكل لحظة وأخذ يتأمل الاب بامعان ، ثم قال له بعدوبة :

— أنا لا أستشار بسهولة . يمكنك أن تقول كل ما في قلبك ، فلا تكتم عني شيئا . لكنك يجب أن تذكر انك تلقيت أمرا صريحا مني لم تنفذه . أنت صديق أوهارا كما تقول . لكن من أين كان لي أن اعرف ذلك ؟ انه خنزير قدر لا امان له . ولذلك لم يحظر لي ببال أنه قد يكون هناك مغفل يتخذ صديقا ، ويصبح على استعداد لان يذهب الى السجن من اجله !

قال الاب والغضب الذي يغلي في صدره يجعله يتهته :

— كذا . . . كذا . . . الافضل لك أذن ان تجد لك جاسوسا آخر

يبتلع زوجتك الفاجرة . وثق أنه سيفتح لك عينيك ، فيخبرك
بانكثير مما لا تعرفه ! لا يبدو أن كل اهل بيتك يشاركونك الرأي
في النفور من أوهارا . بوسعى ان اخبرك بذلك على الاقل !
جن جنونه غضبا . لكنه ظل يراقب غريمه بعين لا تغفل . فلم
يكن الاب من السداجة بحيث يستهين بأمر ماكهيث . غير أن ماك
قوت عليه غرضه . جلس حيث كان لا يحرك ساكنا ، ناظرا اليه
بوجه جامد لا يفصح عن شيء ، فلما تكلم لم يزد عن قوله :
- عال . معنى ذلك أنك مازلت يرجى منك ، وأنتك لسنت
بالسوء الذى تحاول أن تصور به نفسك ، فقد نفذت امرا واحدا
من أوامرى على الاقل ، وفتحت عينيك .

قال الاب وهو يخفض رأسه ناظرا الى الآخر بلؤم :
- نعم يابيكيت . فتحت عيني - قليلا . ولم أر زوجتك وهى
تنام مع أوهارا فحسب ، بل رأيت ايضا ما فعلته انت بذلك
السمسار كوكس . تلك الضربة التى تلقاها على رأسه من كيس
رمل لم تنزل من السماء !
وضع ماكهيث ملعقته فجأة ، وقد بدا عليه اهتمام حقيقى .
قال للآخر :

- أحسنت والله . والان يجب أن تخبرنى بما رايت . لانى
لا اعرف عن الامر شيئا . اذن فظنوني كانت فى محطها . لقد بدا
لى فعلا أن كوكس هذا مات بطريقة تثير الارتياب .
أحس الاب أنه تورط . كان يعرف ماكهيث حق المعرفة ، وقد
أدرك ان لهجته صادقة وانه لم يكن يعلم عن الامر شيئا . وإذا
لم تكن لماكهيث يد فى قتل السمسار ، فلا بد أن الجريمة من
تدبير صديقه أوهارا ، وفى تلك الحالة يكون قد ثرثر بأكثر مما
يجب . وسرعان ماتبين انه قد فعل ذلك حقا . ظل ماكهيث ينظر
اليه فى ترقب بعض الوقت ثم قال بصوت قد اصبح باردا فجأة :
- اسمع يا صاح . أنت لاتخدم نفسك بما تفعله الان . أنت وأنا
نعرف ان الشخص الوحيد الذى يستخدم كيس رمل فى الاجهاز
على ضحاياها هو جايلز . وأنا لا أعرفه شخصا - كما تعلم أنت -
لكنه من رجال صاحبك أوهارا ، أليس كذلك ؟ والان مادنا قد
وصلنا الى هذا الحد ، فالأفضل أن تريح ضميرك تماما وتقول كل
ماتعرف . ذلك أفضل لك . وسوف أعطيك نصيحة أرجو ان
تقدرها حق قدرها . يحسن بك أن تنجو بجلدك من حارة رايداليوم

وان تحصل لنفسك على جواز سفر وبعض المال لتقوم برحلة طويلة خارج البلاد ! أنا لست عديم الرحمة كما تظن ، رغم أنك مازلت مصرا على مناداتي ببيكيت ، بينما اسمى ماكهيث . ولسوف أغفر لك حتى جلوسك على مائدتي ، واعتبر ما قلته عن السيدة زوجتي زلة لسان دفعك إليها الغضب . والآن أمامك حتى الساعة الحادية عشرة لتحزم حقيبتك وتذهب الى صالون الحلاقة حيث سيعطونك مانت في حاجة اليه . لكنى أعدك ، اذا ما سولت لك نفسك أن تتصل بأوهارا ، ولو لتقول له « وداعا » ، أو حتى « الجو جميل اليوم » ، أن تجد نفسك في السجن قبل الحادية عشرة والنصف . يجب أن تفهم ذلك جيدا . فموقفك سيء بما فيه الكفاية .

كانت الصدمة أقسى من أن تسمح له بمزيد من الكلام ، وماكهيث هو الآخر كان لا يريد أن يسمع . وفوق كل شيء كان لا يريد أن يسمع عن بولي وأوهارا ، أو يفكر فيهما ، أو يقابل مخلوقا بعد اليوم يحدثه عنهما .

لم يكن الاب يعرف ذلك بطبيعة الحال ، فلم يدرك أن رغبة ماكهيث في ابعاد كل من يمكن أن يذكره بذلك الموضوع كانت سببا في انقاذه من مصير سيء بحق .

عاد الى حارة رايد بذهن مشوش ، وقد زابتته ثقته بنفسه ، وانتابه بدلا منها قلق وتوجس ، وهناك حزم حقيبة صغيرة وارتدى أفضل بذلة لديه . كانت الساعة قد بلغت العاشرة عندما عبر البوابة الاولى في طريقه الى الخروج من متاهة حارة رايد . وعندها رأى أوهارا مقبلا من الباب الخارجى ، وقد تدلت سيجارة بين شفثيه ، فوقف موزعا بين رغبة ألحت عليه في التحدث الى صديقه القديم ، وبين خوفه من تجاهل تحذير ماكهيث له . فأوهارا بعد كل شيء ، صديق قديم ، وقد كان يعرف أمه جيدا .

وقف مترددا وراء الباب ، ولم يكن أوهارا قد رآه بعد . ثم قر قراره على ما يجب أن يفعله .

خرج من مخبئه ومر بأوهارا مر الكرام ، فلم ينظر اليه أو بوجه اليه كلاما ، محدقا أمامه بنظرة لا تحيد ، مطبقا شفثيه وقد باتتا كشفرتين حادثين .

حملق أوهارا في أعقابه دهشنا . وعندما خرج الاب الى الشارع ، ولم يعد يحس بنظرة صديقه

على ظهره ، تنفس الصعداء . لم يكن لديه شك في أن أوهارا رأى الحقيبة التي في يديه ، والبذلة الرمادية الانيقة التي ارتداها على غير عادة .

لكن أوهارا كان في تلك اللحظة عينها مشرفا على خاتمة المطاف .
ففي الحادية عشرة والنصف ألقى القبض عليه في بيته .
لم ينزعج أوهارا كثيرا ، فدخل مبنى سكوتلانديارد هادىء الاعصاب ، غير مكترث لمن فيه . وعندما سمع أنه متهم بالسطو وتصريف المسروقات ضحك طويلا وقال انه اشترى تلك البضائع التي سلمها لشركة م.م.م . ، وأن الفواتير الدالة على الشراء تحت يد الشركة ، وما أسهل الرجوع اليها .
لكنه علم لفوره أن الاتهام القائم ضده موجه اليه من تلك الشركة ذاتها .

وهنا طلب أوهارا أن يواجه على الفور بمستر ماكهيث .
تمت المواجهة بعد الظهر في زنزانة مستر ماكهيث ، بحضور لورد بلومزبرى ومستر براون من سكوتلانديارد . وقبل أن تتاح انفرصة لأوهارا لكي يفوه بكلمة ، تقدم مستر ماكهيث منه قائلا :
- ومن أين جئت بهذه البضائع التي ظلت توردها لمحلاتي طيلة الشهور الستة الماضية ؟

لم يفق أوهارا من دهشته الا بعد أن أغلق عليه السجنان باب زنزانه الخاصة . ثم ما لبث الباب أن فتح وألقى الحراس داخلا بجايلز ، أخصائي القتل بكيس الرمل ، ليؤنس وحدته .



كان الاب على ظهر سفينة تمخز به اعالي البحار عندما تملمت في ذاكرة مستر ماكهيث جملة خلفها ذلك المجرم العجوز وراه لتنفص عيش زعيمه ، جملة تدور حول « زوجتك الفاجرة » !
كان المطر ينهمر خارجا . أخذ ماك يذرع أرض زنزانه ، واضعا يديه في جيبى سرواله ، منصتا لصوت المطر ، وهو يتوقف بفتة ، بين الحين والحين ، مطأطئا رأسه الشبيه برأس فجلة ، مصيخا السمع أكثر ، وافكار كهذه تجول بذهنه فتجعله يركل السجادة السميكة غيظا :

- ابن الحرام ! من رحمة الله انه في السجن الان ! أستطيع بهذه الطريقة ، على الاقل ، ان أطمئن الى انه ليس معها . كثيرون من رجالى يتهموننى باللين والبطء في اتخاذ القرارات . لكنى ، كلما

تأزمت الامور ، استطعت أن أحزم أمرى . فأنا خير من يدرك ان المرء يجب ان يكون حازما ، بين الحين والحين . يجب على المرء ان يكون على علم بكل ما يجرى حوله ، خاصة فى مجال عمله ، ويجب عليه أيضا أن يدع الامور تبلغ مداها « وتستوى » ، كالخراييج ، ثم فجأة ، كصاعقة تنقض من السماء الصافية ، يجب أن يضرب المرء ضربته ، ويثبت للجميع أنه الزعيم ، فيفقا الخراج ، يقطع العرق ويسيح الدم ، ويكشف كل ما كان يجرى فى الحفاء ، بلا رحمة . اذ ذاك يصاب الكل بالشلل من فرط الخوف . لقد صبر الزعيم عليهم ، صبيرا طويلا وانتظرا . لكنه أخيرا ضرب ضربته . فلم يرحم حتى أقدم اصدقائه ، عندما اكتشف انهم كانوا يلعبون بذيولهم . هذا دأبه . لا يستطيع احد أن يخدعه .

ثم يعاود السير ، ليتوقف فجأة ، ويركل السجادة من جديد ، مفكرا :

— لم يعد من السهل ابدا أن يقتنى المرء زوجة فى هذه الايام . قديما كان المرء مستطيعا أن يبكر فى العودة الى البيت فيفاجىء عشيق زوجته مختبئا تحت الفراش ، أو بجانب الفراش ، فتنتطبق السماء على الارض . بل كان يكفى أن يجد المرء زوجته واقفة مع رجل آخر فى الغرفة . أما الان فان ظروف التمدن ومقتضيات العمل تجعلها تكشف عن ساقها لكل رجل يقابلها ، وفى بعض المكاتب يمارسون الحب وراء الدواليب بنفس السهولة التى يغسلون بها أيديهم ، لا بدافع الحب ذاته ، بل لكى يضيعوا وقت العمل ويسرقوا أموالنا نحن أرباب الاعمال ! وفى مثل هذا الجو الذى أصبح فيه الزنا سهلا مثل غسل اليدين ، بات من المستحيل أن يكتشف أحد خيانة أحد .

هز مستر ماكهيث رأسه وكأن ذلك كله يذهله ويتجاوز حدود تصوره ، ثم عاد ينصت لصوت المطر ، ويذرع أرض غرفته . وبعد قليل جلس الى مكتبه وتناول المستندات الخاصة بقضيته . كان موعد الجلسة الاولى خلال الايام القليلة المقبلة .

أيام قلقة

« اعملوا ولا ينتابكم شك »
(كارليل)

كانت البورتنة الصغيرة في شارع أولد أوك تعمل ليل نهار .
على حائط المشغل حيث تعمل الفتيات في حياكة الثياب ، كانت
قصاصة من إحدى الصحف معلقة بدبوس رسم ، فيها وصف
للميئة البطولية التي ماتتها الخياطة ماري آن ووكللي :
« كانت ماري آن » وهي في ريعان شبابها ، في العشرين فقط ،
تعمل في اتلييه إحدى خياطات البلاط . وكانت في الآونة الأخيرة
تعمل في حياكة الثياب لسيدات الطبقة الراقية ليرتدينها في الحفل
الراقص الذي اقيم بمناسبة زيارة أحد أعضاء الاسرة المالكة . كان
ذلك في قمة الموسم ، وقد ظلت ماري تعمل ستا وعشرين ساعة ونصف
ساعة بغير انقطاع ، مع ستين فتاة أخرى غيرها ، كل ثلاثين منهن
في غرفة لاتكاد تحتوى الا على ثلث كمية الهواء اللازمة لتنفس مثل
ذلك العدد من الناس . وفي الليل ينمن ، كل اثنتين في فراش ، في
خن صغير ، بعد أن يتناولن شيئاً من النبيذ والقهوة ليجددن قواهن
التي لم تضن بها واحدة منهن ، رغم الأجر الضئيل ، والظروف
القاسية ، في خدمة جلالة الملكة . وقد مرضت مس ووكللي يوم
الجمعة ، لكنها رفضت أن تكف عن العمل ، فماتت يوم الأحد .
ودخلت بذلك في عداد الأبطال . فبطولتها لاتقل عن بطولة جنودنا
البواسل الذين يجودون بحياتهم عن طيب خاطر في ميפקينج .
لكن همستر بيرى لم يقتنع بمثل هذا الحافز ، واضعا كل ثقته
في وسائله الخاصة التي اثبتت فعاليتها دائما في زيادة سرعة العمل
ورفع الانتاج ، وهي وسائل بسيطة للغاية : الطرد الى الشارع ،
لكل ضعيف ، أو مريض أو متقاعدس . وله في ذلك قول مأثور :
— ليس اللذب ذئبك في هذا السل الذي تعانين منه يافتاتي .
لكنه ليس ذئبي أنا أيضا .

فلم يكن بد من أن يسير العمل بأقصى سرعة ، حتى لقد بدأ أن الامور في طريقها الى أن تعود الى مجراها العادي . لكن الصحف مالبثت ان ظهرت بما يبدد ذلك الوهم . فقد حفلت بتلميحات وأسئلة وفتحة عن التحقيق الذي قيل انه يجري حول اسباب الكارثة : الى أين وصل ، وهل هناك تحقيق فعلا أو ان الامر مجرد تخدير للاعصاب ، وأشياء من هذا القبيل . وقد دست هذه التلميحات والأسئلة المسمومة في سياق الحديث عن الصلاة التي تقرر أن تقام على أرواح ضحايا الكارثة يوم الخميس ، وهو نفس اليوم الذي ستنظر فيه قضية مدير البنك ماكهيث .

والاسوأ من تلميحات الصحف كان الصمت الذي لا يبشر بخير من جانب الحكمدار المساعد براون . فقد كان بيتشام على علم بما يقوم به البوليس من تحريات في الميناء ، وما تمخضت عنه تلك التحريات من القبض على عدة أشخاص . لكن معلوماته هذه لم تكن كافية ، ولذلك فانه أخذ يقرأ كل كلمة تنشرها الصحف بنهم محموم عله يقف منها على ما ينير طريقه . غير أن الصحف لم تنشر الا التفسير الرسمي لاسباب الكارثة .

وفوق هذا وذاك كله لاحظ بيتشام مؤخرا عددا من ضباط البوليس يحومون بصورة تكاد تكون مستمرة حول بيته في شارع أولد أوك .

الحقيقة أن مستر بيتشام قاسى الأمرين . فى تلك الايام . وكثيرا ما أخذ يقول لنفسه ، خاصة بالليل وهو يقطع الممرات المظلمة ذاهبا من ورشة الى أخرى ليتابع سير العمل ، فيتوقف وحده فى الظلمة مع همومه ومخاوفه :

— والله يبدو أن آخرتى قد قربت ، وأنى لا يجب أن اتوقع الا افطع المصائب . ولكن أليس ذلك هو الشيء الوحيد الذى يمكن للمرء أن يتوقعه فى هذه الحياة : افطع المصائب ؟ ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يهدم البوليس مرة فلا يزوج بأنفه فى الامر ! طب عرفنا أن تلك المركب قد غرق . أنا لا أنكر ذلك . ولكن هل يعنى هذا انى يجب ان أغرق انا أيضا ؟ مساكين الضحايا ومساكين أقارب الضحايا . يرحمهم الله هؤلاء وأولئك . ألم نقل شيئا . ولكن أى نعم لهم فى ان يرحمنى الله أنا أيضا ؟

ومع ذلك فانه ، كرجل أعمال لا يدع فرصة تفوته لتنمية أعماله ، كان مدينا للكارثة بفكرة تجارية جديدة نيرة وأتته . ولذا فانه

أخذ يعزى نفسه عن متاعبه الاخرى بهذه الخواطر :

— ان الكوارث التي ككارثة غرق « المتفائل » لا يمكن تجنبها .
الحروب ، والاعاصير ، والمشروعات التجارية ، والمجاعات ، كلها
أشياء لا يمكن تجنبها . كلها قضاء محتوم . وكل من يعرف شيئا
عن الطبيعة الانسانية يعرف أيضا أن كل جهد انساني مقضى عليه
بالفشل . حتى الكتاب المقدس يقول ذلك ، فيقرر أنه باطل
الباطيل الكل باطل وقبض الريح ، وهذا شيء يجب أن ننظر اليه
دائما بعين الاعتبار . والحقيقة أن تسعة من كل عشرة رجال يخافون
المستقبل . (ومن بين هؤلاء الخائفين لا يوجد غير واحد في الالف —
على أكثر تقدير — يكون غير محق في مخاوفه) . والمرء يجب أن
يدخل ذلك في حسابه ، وأن يقدره حق قدره . لماذا ؟ لأن المرء
مستطيع أن يربح الكثير من وراء هذه المخاوف المبررة مما يحمله
الغد دائما من نكبات وتكسات وكوارث . وما على المرء الا أن يقول
لاولئك الخائفين (المحققين في خوفهم لانهم لا يخافون عن جهل بل عن
معرفة بالحياة وباخوانهم بنى البشر) : حسن جدا يا سادة .
أنتم تخافون من هذا وذاك . من الفقر ، والمرض ، والموت ، ومن
أشياء كثيرة أخرى . ونحن سنؤمنكم ضد ذلك المستقبل المحتوم .
وما عليكم الا أن تدفعوا لنا بانتظام (حق لا تحسوا بعبء يثقل
عليكم) نسبة ضئيلة من دخولكم عندما تكون أحوالكم رائجة وعلى
ما يرام ، ثم ، عندما تعجل الكوارث التي لا مهرب منها ، سندفع
لكم نحن (أو لورثتكم في حالة موتكم لا سمح الله) . هل هذا
اقتراح طيب أم لا ؟ أنا واثق من أنه سيروق للكل . يجب على
المرء أن يمد يد العون والمساعدة الى اخوته بنى البشر . . . لكن هذه
المساعدة تكلف شيئا . المصائب نعم . لكن المهم ألا ندعها تضيع
هدرا . هذا مشروع سننظر فيه عندما تهدأ هذه الضجة .

عندما حل مساء الاربعاء ، فانقضت تسعة أيام على غرق « المتفائل » ،
ولم يصرح البوليس بشيء عن التحقيق ، لم يعد مستر بيتشام
يحتمل أكثر مما فعل .

انتابه ذعر وقرر أن يفعل كل ما في وسعه للضغط على البوليس ،
فأرسل بيري ورجلين آخرين معه الى سكوتلانديارد بلافتات مختلفة
مكتوب عليها : « قولوا لنا : لماذا غرقت المتفائل ؟ » — « قولوا لنا
عن الرشاوى التي قبضتها الاميرالية ! » — « لماذا شحنتم أولئك
الاولاد على المتفائل ؟ » — بل ولافتة مكتوب عليها : « من يكون

مستر بيتشام هذا ؟ » .

لم يتظاهر مستر بيرى وصاحبا بتلك اللافتات ، بل دخلوا بها سكوتلانديارد ، حيث قرر مستر بيرى أنه موفد من قبل مستر بيتشام ، رئيس مجلس ادارة شركة النقل البحرى ، وأن اللافتات قد وقعت فى ايديهم بطرق غير مباشرة ، حيث حملها اليهم عدد من الشحاذين الذين يستأجرون الآلات الموسيقية من محلات مستر بيتشام ، وأن المعلومات التى لديهم تشير الى أن هناك تخطيطا للقيام بمظاهرة بلافتات كهذه بعد ظهر الغد .

وبعد ساعة من تلك المقابلة ، وصل مستر بيتشام بشخصه الى سكوتلانديارد .

لكن براون تخلص منه بغير امهال ، ولم يحفل كثيرا بقوله أنه سيلحق به الحراب اذا ما قامت مظاهرة كهذه ، وأنه لن يجد عزاء اذذاك فيما سيلحق بعدد من كبار موظفى الدولة من فضائح . فانصرف مستر بيتشام مدحورا ، وقد تملكته الحيرة .

ثم خطر له خاطر ، فذهب الى مكاتب مجلة « العاكس » ، وهناك طلب مقابلة رئيس التحرير وتحدث اليه حديثا طويلا كانت نتيجته أن وعد رئيس التحرير بحجز مساحة نهريين حتى صباح الغد لتصريح مثير يدلى به رئيس مجلس ادارة النقل البحرى عن « الاسباب التى أدت الى غرق ناقلة الجنود المسماة « بالمتفائل » .

عاد بيتشام بعد ذلك الى بيته ، فوضع الترتيبات الخاصة بمظاهرة بعد ظهر الغد ، ثم أقفل عليه مكتبه ، وقضى الليل طوله مستغرقا فى الكتابة .

وفى الجانب الاخر ، لم يكن مستر براون - رغم الاستقبال البارد الذى استقبل به بيتشام - مرتاح البال فيما يخص هذه الحكاية الكريهة كلها . ولذلك فانه أمر فى تلك الليلة أيضا بالقيام بفارة جديدة (كانت السابعة) على حى الميناء . وبعد أن استجوب عشرين من العمال الذين قبض عليهم ، ذهب مهموما لزيارة ماكهيث فى سجنه ، فوجده بمفرده ، يقرأ كتابا .

صرف براون السجن ، وملا لنفسه كوبا من الجعة من زجاجة كانت على منضدة فى ركن الزنزانة .

لكنه قبل أن يتخفف من همومه فيحكىها لصديقه ، قال له هذا الاخير :

- ماذا تم فى حكاية اوهارا ؟ انا قلق للغاية بخصوصه . ألم

يوافق بعد ؟

فقال براون بكلال :

- كلا . .

- هل قلت له أننا نستطيع أن نثبت تهمة القتل عليه اذا لم يمسه لسانه ؟

- نعم ، نعم ، قلت له كل ذلك . فقال انه يفضل أن يشنق على أن يدعك تخرج من هذه الورطة سالما . واعتقادي أنه يتصرف في الأمر بدافع من كراهية شخصية قوية تجاهك .

أخذ ماك يذرع الزنزانة قلعا . في صباح الغد ستنظر قضيته أمام محكمة الجنايات . ودليله الوحيد الذي سينقذ عنقه سيكون اعترافه بأنه رئيس مجلس ادارة شركة م.م.م. وأنه كان ، ساعة وقوع حادث ماري سوير ، يرأس اجتماعا لمجلس ادارة تلك الشركة . لكن كيف يمكنه أن يفعل ذلك اذا كان هذا المأفون أوهارا يصر على توريطه معه في تهمة سرقة ؟

كف عن السير في الزنزانة أخيرا ، فجلس ، وقد استعاد بعضا من رباطة جأشه . قال وهو يأخذ سيجارا فيشعله :

- أوهارا ليس مجنونا . انه يحكم عقله ، ولا ينساق وراء غريزته العمياء ، ولسوف أعتمد على ذلك ! لاني ان لم أستطع أن أعتمد على رجاحة عقله فالأفضل لي أن أدع نفسي أشنق . ان المدينة التي نعيش فيها ، بل وهذه الحضارة كلها التي ننعيم بطيباتها العديدة ، لأقوى دليل على ما يمكن أن تحققه رجاحة العقل . وهذا الرجل أوهارا ، هو الآخر ، سوف يحكم رجاحة عقله ، ويكبح جماح شهوته الى الانتقام ، فيفضل الذهاب الى السجن على الموت شنقا ، خاصة وأنه لن يحكم عليه بأكثر من أربع سنوات ، بل يمكن أن نجعلها ثلاث سنوات فقط ، لاننا في ظروف كهذه يجب أن تتناسى حزازاتنا القديمة .

قال براون أنه أعطى أوهارا مهلة حتى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي ليقرر ما ينوي أن يفعله . فقال ماك :

- حسنا فعلت . لاني يجب أن أحصل على ذلك الاعتراف كتابة في الثانية من بعد ظهر الغد على أكثر تقدير . فلدى موعد مع كرستون في بنك الائتمان الاهلي ، بعد الجلسة مباشرة ، قد يحضره اليهودي هارون والاخوان اوبر ايضا . وأود أن أضع أمامهم اعترافا مكتوبا

يبين أن تاجر الجملة الذي كان يورد الى بضائعى انضح انه ارتكب عددا من السرقات .

فلما اطمأن ماك الى تلك الترتيبات ، بات بوسع براون اخيرا ان يتحدث عن متاعبه الخاصة . قال أن قضية تلك المركب الذي غرق لا يبدو أنها ستنتهى على خير . فليس هناك شك في أن السفينة ، والسفينتين الاخرين ، قد سلمت الى الحكومة في حالة غير مرضية بالمره . فوق أن الشركة التي باعت تلك السفن الثلاث الى الحكومة جاء ذكرها في « حادث » مريب وقع مؤخرا ، فالسمسار ويليم كوكس ، الذي وجد مقتولا في حى الميناء منذ أيام ، كان وثيق الصلة بالشركة . وقد عجز البوليس حتى الان عن كشف الغموض الذى يحيط بمصرعه ، حتى لقد اضطر الى القاء القبض على عدد من العمال العاطلين الذين فصلوا نتيجة للاضراب ، والذين تفوهوا بعبارات بلهاء يشتم منها التهديد . ولو أنه لم يتسن اثبات أى شىء قاطع على أى منهم . ولذا فان غرق تلك السفينة لن يمر على خير . ويبدو أنه ستكون له عواقب غير مستحبة ، بعيدة المدى . ثم قال أنه لا يميل الى أن يأخذ مأخذ الجد تهديدات بيتشام فيما يتعلق بالمظاهرة المنتظرة ، لان الصلاة التى ستقام على أرواح الشهداء ستجرى تحت حراسة قوات كافية من البوليس ، تستطيع أن تقمع على الفور أى محاولة للاخلال بالامن . قال كلا ، ليس فى ذلك كله ما يدعو الى الانزعاج . لكن هناك ما هو أشد خطورة وأكثر اثاره للقلق -

خفض كبير المفتشين صوته وهو يتحدث عن ذلك الامر الخطير الذى أثار قلقه فقال أن خطأ ما لابد وقع فى الاميراليه لانه لم يتم ارسال الامر الذى قيل أنه سيرسل على الفور باستدعاء السفينتين الاخرين من عرض البحر خشية غرقهما ، خاصة وان احدهما اصطدمت بالسفينة التى غرقت ، وما من شك فى أنها أصيبت بعطب جسيم نتيجة لذلك ، وأن البوليس لما تحرى الامر وجد أن الاميرالية ذاتها ليست لديها فكرة واضحة تماما عن الموضوع . ولذلك فانه لا يستطيع ان يقرر أى موقف يتخذ حيال المظاهرة غدا . لعله يكون من الافضل الا يسمح بابتداء المظاهرة أصلا ، فتقمع فى مهدها ؟ فالبوليس مسئول بعد كل شىء عن المحافظة على الامن والنظام . والمصيبة أن بيتشام ليس هو المشكلة الوحيدة ، فالبوليس قادر على اية حال ، على الحيلولة بينه وبين احداث الشغب . لكن

الشيوعيين أولاد الحرام ينوون هم أيضا تسيير مظاهرة ضد حفل
التأبين . وهذه مظاهرة لا يمكن منعها بسهولة .
أصفي ماك بانتباه لمتاعب صديقه ، ثم أشعل سيجارا وقال
مطمئنا :

- دعهم يتظاهرون . فلن يكون لديهم أى دليل بغير بيتشام .
قال براون متدبرا قول صاحبه الحصيف وقد بدأ شىء من
الطمأنينة يداخله :

- نعم ، أنت على حق . ليس لديهم أى دليل . انهم يجعلون
أنفسهم أضحوكة فى أعين الجمهور باستمرار بسبب شكوكهم المتكررة
التي يجاهرون بها بغير دليل يساندها .
هز ماك كتفيه باستهانة ، قائلا وهو ينفث دخان سيجاره :

- سيجارون بأعلى عقائهم عن الرشوة والفساد فى الامرالية ،
وقد يلمحون الى أن الوزير ذاته حصل لنفسه على بضعة ألوف من
الجنيهات من صفقة السفن هذه . ترهات من هذا القبيل !
فقال براون وهو يتناول سيجارا بدوره ، فيسترخى فى مقعده
ويشعله :

- تريد الحق ؟ ان مهاترات هؤلاء المتعصبين تجعلنى أوشك على
الانفجار غيظا . انهم لا يكفون عن مهاجمتنا لاننا لا ننفذ القانون
بالصرامة الكافية ! كأنما القانون وضع لمصلحتهم ! وأسخف ما فى
الامر تمسكهم الاخرق بأن كل شىء يجب أن يتم بطريقة قانونية
سليمة . فلو كان هناك قانون يعطى هيل الحق فى الحصول على
عمولة مقابل أن يفض بصره عما يجرى فى مثل هذه الصفقات لما
أخذوا عليه حصوله على الرشوة التي يزعمون أنه حصل عليها .
لانهم - اذ ذاك - لا يحسون بأن أحدا قد ضحك عليهم . انه أمر
خارق للعادة حقا ! أعنى سذاجتهم التي تجاوز كل حد . لان
الأمور فى دنيا السياسة والتجارة لا تسير بهذه الطريقة الحنبلية التي
يتصورونها ، ولا يمكن أن تسير كذلك . فهناك أشياء عديدة قد
تبدو لدافع الضرائب العادى - غير مفهومة . تلك الاشياء بالذات
هى التي تحقق الارباح الكبيرة ! ولا أعنى بذلك أرباح خانة الالوف!
لكن هؤلاء القوم لا يفقهون شيئا . كلما تمت صفقة من هذا النوع
انطلق « رسل الحرية » هؤلاء يعوون بتفاهات لا وزن لها ، متهمين
هذه الجهة أو تلك بالفساد ، قائلين ان البوليس لا يتحلى بالحيدة
الواجبة ، وما الى ذلك ، وكلها أشياء لا سبيل الى اثباتها ومعظمها

عار من الصحة على اية حال . ومع ان ذلك كله ليس جديدا على ، فاني ما زلت أجد هذا القلب للحقائق ، وجعل الابيض أسود والاسود أبيض على أيدي هؤلاء المهيجين الذين احترفوا تلويث سمعة الناس ، أمرا لا يصدقه عقل !
وهنا قال ماك ضاحكا :

— لا تنفعل هكذا . فلو وجد الان من يكتب كل كلمة قلتها لتوك لتبين أنك أنت أيضا تجعل الابيض أسود والاسود أبيض !
فابتسم براون ابتسامة كشفت عن أسنانه قائلا :
— والله ؟ هذا لا يصدق ، لا يصدق اطلاقا .
ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، فقد جرهما الحديث الى السياسة ، فاعترف ماك قائلا :

— الحقيقة أنه لا يوجد حزب يمثل مصالحى تمثيلا كاملا . لن اتطرف طبعا فأدعى أن البرلمان بورصة يضارب فيها تجار الكلام . فهم لا يكتفون بالكلام ، بل يذهبون الى حد الفعل . هناك أشياء عديدة تنجز هناك . ذلك ما يجب أن يعترف به المرء ما لم يكن متحيزا لايرجى منه . لكن المسألة هي ، هل البرلمان قادر على القيام بالعبء الذي تلقيه على كاهله مطالب التقدم ؟ في رأي ، وهو رأى رجل أعمال كادح ، أننا نفتقر الى النوع الصالح من الرجال على رأس الدولة . فقادتنا كلهم ينتمون الى هذا الحزب أو ذاك . والاحزاب بطبيعتها تتصف بالانانية والبحث عن المصلحة الحزبية . فهي لا تنظر الى المسائل الا من جانب واحد ، هو الجانب الذي يتفق ومصالح أعضائها . نحن في حاجة الى رجال يتسامون على الاحزاب جميعها ، رجال مثلنا نحن رجال الاعمال . نحن نبيع بضائعنا للفقير والغنى على السواء . بلا أدنى اعتبار لمكانته . فلا مانع لدينا من أن نبيع البطاطس لاي مخلوق ، ما دام يدفع الثمن ، أو أن نقوم بعمل التركيبات الكهربائية في منزله ، أو أن نطلي له جدران ذلك المنزل . ان حكم بلد من البلدان ينطوي على تكليف بمهمة أخلاقية . ويجب أن يتم تنظيم كل شيء بحيث يكون المنظم (1)

(1) Entrepreneur ، أي « المنظم » في الاقتصاد الرأسمالي وهو الذي يتحمل مخاطر المشروع ويوجه عوامل الإنتاج توجيها يحقق التناسق بينها ويحقق الوفورات الداخلية . ويحصل مقابل ذلك على الربح . وقد لا يكون المنظم شخصا طبيعيا بل كيانا معنويا . وبرخت بأحلام ماكهيت هذه يومئذ الى حلم رجل الاعمال بنظام أوليفاركي أي حكم القلة الثرية التي تستولى على أجهزة الدولة وتدير البلد لحسابها . ولعل أفضل من صور ذلك الكاتب الأميركي جاك لندن في كتابه « الكعب الحديدى » «The Iron Heel»

منظما كفتنا ، والعامل عاملا كفتنا ، أو ، باختصار ، بحيث يصبح الكل مواطنين صالحين أكفاء : أغنياء كانوا أم فقراء . أنا على يقين من أن ذلك الشكل من أشكال الحكم آت لا ريب فيه ، بمرور الوقت . وعندما يأتي سأكون من أول المؤيدين له .
تنهد براون قائلاً :

– مما يؤسف له أننا نفتقر في الوقت الحالي الى حزب كهذا .
فما الذي ترى أن أفعله ؟

– هل تحريت ما حدث لتلك السفن أثناء الاضراب ؟
– طبعاً ، منذ وقت طويل . كان ذلك أول شيء قمت به في هذه القضية . وقد ثبت لى أنه لم يحدث شيء .

– كيف ذلك ؟ لا بد أن أولئك العمال الذين قاموا بذلك الاضراب الناجح كان لديهم الدافع ، والفرصة الكاملة ليفعلوا شيئاً . لا بد أنهم انتقموا لانفسهم بشكل ما . لا أستطيع أن أتصور أبداً كيف يقبل الناس بخنوع أن يعملوا فى ظل هذه الظروف . لا بد أن يكونوا دون مستوى البشر حتى يستسلموا هكذا .

– أنهم يحبون عملهم . وعندما يعملون فانهم يتقنون ما يقومون به . ولا يمكن أن يخطر لهم ببال أن يخربوا سفينة يقومون هم باصلاحها . فوق أنهم نادرا ما يفكرون . كلا لا يمكن أن يكونوا قد فعلوا شيئاً كهذا الذى تفكر أنت فيه .

– ربما . ولكن لا تنس أن رجالي كانوا هناك . كانوا يعملون لحساب بيتشام .

– هل تعنى أنهم
– بكل تأكيد . أنا أعرف رجالي ، وأعرف انهم لا يتورعون عن شيء كهذا . سأستدعى أخينا الذى كان يقودهم فأسأله .
– حقاً ؟ ستفعل ذلك ؟

بدا الارتياح على وجه براون ، فقال ما كهيث :
– طبعاً . سأفعل ذلك من أجلك . لكن هناك ما أود أن أقوله لك ، دون أن أحاول التأثير ، بطبيعة الحال ، على اتجاهك فى هذا التحقيق . فبيتشام – رغم ما بيننا من خلافات – ما زال والد زوجتى . وبإثنية تلك الزوجة ما زالت ، بعد كل شيء فى خزائن بنك الائتمان الاهلى . وأنا – كما تعلم – أحد مديرى ذلك البنك . وقد تأثرت الودائع تأثراً مخيفاً بسبب تلك التخفيضات المشينة فى الاسعار التى حدثت مؤخراً . ونقود بيتشام بين الودائع التى ضاعت . ومن

حتى ، بوصفى أحد أفراد العائلة ، أن اعتبرها نقودى . فوق أن هناك عددا لا يحصى من صفار المستثمرين لاشك أنهم سيحدثون ضجة كبرى - خاصة بعد كارثة « المتفائل » - عندما يكتشفون ضياع مدخراتهم ، فيقضون على موجة الشعور بالوطنية السائد حاليا . أنت تعرف أنى لا أكن ودا لبيتشام ، لكنى أعتقد أنه من الأفضل أن تبعده عن هذا الموضوع تماما حرصا على الصالح العام .

انصرف براون مقتنعا بوجهة نظر ماكهيث نصف اقتناع ، فأعاد استجواب بعض العمال الذين كانوا قد ألقى القبض عليهم .

لكنه لم ينم جيدا في تلك الليلة ، ثم رأى حلما قرب الصباح . كان يعبر قنطرة فوق نهر التيمز ، وفجأة سمع شيئا - صوتا يفرغر ، فترجل من العربة ونظر في الماء فلم ير شيئا ، فعاد أدراجه ونظر من الجانب الاخر . وكما يحدث في الحلم ، وجد نفسه في مكان يرى منه الكوبرى وقد صار فوقه ، ويرى لسانا صغيرا من الارض يجيش حوله الماء الموحد . ثم رأى أعلاما على الكوبرى ، سوداء وحمراء وبيضاء وزرقاء . وعلى اللسان الصغير تحت الكوبرى رأى عددا من الرجال يتحركون ، أو كائنات تشبه الرجال كثيرا . وفجأة أخذت تلك الكائنات تتكاثر فيزداد عددها بسرعة رهيبية . دون أن يستطيع أن يتبين من أين تأتي ، ربما من النهر الذى بدا له بالغ العمق فى ذلك المكان . علىية حال سرعان ما اكتظ اللسان الضيق بجحافل من تلك الكائنات سريعة الحركة ، فلما ضاق بها ، أخذت تتحرك صعودا الى أعلى حتى غطت الكوبرى ذاته ، تحت الاعلام . لكن تلك البقعة الصغيرة من الارض باتت أشبه بميزاب قد فتح فأخذ يسكب جحافل وراء جحافل من تلك الكائنات بلا عدد ، فى سيل واحد متصل أحس براون أنه لن يتوقف أبدا ما دام قد بدأ . كانت هناك قوات من البوليس بطبيعة الحال ، وسوف تقيم كردونا حول الكوبرى فتقطع الطريق على تلك المخلوقات حتى لا تجتاح المدينة ، وقوات من الجيش ، سوف تفتح النار ، وقوات من البوليس السوارى ، سوف ... لكن كان هناك أيضا ذلك الطوفان من الشقاء ، تطفحه الارض فيصعد الى أعلى ، ويغلظ قوامه ، ويتماسك وتتلاحم صفوفه ، صفا وراء صف وراء صف بعرض الطريق ، مفرقة كل شىء فى طريقها كموجات عاتية من المد ، مناسبة داخل كل شىء كالماء ، بلا شكل ولا قوام . لم يتخل رجال البوليس طبعاً عن واجبهم المقدس ، فهاجموا ذلك الهول ، وأخذوا يضربون بهراواتهم .

ولكن أى جدوى فى هجومهم ؟ وأى نفع فى هراواتهم وضرباتهم
تخترق الكتلة المتدفقة التى لا يقف فى طريقها شيء ، وكأنهم يضربون
الهواء . وهكذا اجتاح الشقاء الزاحف بجحافل الرهبة صفوف
البوليس كموجة مد لا نهاية للهول الذى فيها ، مطبقا على المدينة
النائمة ، واجتاح صفوف الجيش ، واجتاح الاسلاك الشائكة ،
والمتاريس ، صامتا ، أبكم ، بلا صوت ، وسط صراخ رجال البوليس
وتأناة مدافع الماكينة . فلما بلغ الشوارع صب نفسه فى كل بيت
كطوفان موحل . جحافل الشقاء عديمة الصوت ، عديمة اللون ،
عديمة القوام ، عديمة الملامح ، مخترقة كل جدار ، وكل باب ،
منصبة فى الثكنات ، فى المطاعم ، فى معارض الفن ، فى ساحات
العدالة (١) .

قضى براون ليلة سوداء مؤرقة عذبه خلالها ذلك الحلم ، فلم يك
الصبح يطلع حتى سارع بالذهاب الى مكتبه ، مبكرا على غير عادة .
شعر بالمرارة وهو يجد نفسه مضطرا - ربما لأول مرة - الى أن
يقيم لما قد تكتبه الصحف اليسارية فى الغد وزنا . لكنه لم يستطع
أن يتخلص من خاطر الح على ذهنه فصور له القداس الذى سيقام
بعد الظهر على ارواح أولئك الفرقي وقد اجتاحتها عدة مئات من
الجنود الجرحى .

أمر المرأة التى تقوم بتنظيف المكاتب أن تتركه وحده ، ثم أوصد
الباب ، وأضاء مصباح المكتب ، وانكب على كتابة بيان للصحافة
بخط يده .

ولم يكن مستر براون هو الوحيد الذى انتابته حمى التأليف
والكتابة فى ذلك الصباح . فمستر بيتشام هو الآخر كان قد قضى
الليل طوله والريشة فى يده ، وقبعته على مؤخرة رأسه ، يذرع
الغرفة تارة ، ويقف أمام المكتب المرتفع تارة ، ويحملك أمامه بنظرة
فارغة تارة أخرى ، وبين هذا وذاك كله يأخذ فى الكتابة وهو واقف
بينما حرارة الموقد تزداد فى الغرفة المقفلة ، حتى توشك أن تسلقه .
كان يدبج مقالا من نار يكشف فيه الأعيب السمسار كوكس
ومؤامراته ، والدور المخجل الذى لعبه موظف كبير رفيع المقام فى
الاميرالية .

(١) تنداعى من هذه الرؤيا الكابوسية فى الدهن صورة قرينة لها من أكثر من وجه ،
نجدها فى « الكعب الحديدى » و « أهل الهاوية » لجاك لندن .

لم يكن لديه شك في أنه سيضطر الى مواجهة العواقب التي ستترتب على كشف الاساليب الملتوية التي انتهجتها شركة النقل البحري في صفقة السفن ، اذا ما أقدم فعلا على نشر ذلك المقال ، لكنه كان مطمئنا في الوقت ذاته الى أن التلميحات والهمهمات التي حفل بها المقال بشأن الفساد والرشوة في الاميرالية ستثير اهتمام الحكومة الى درجة تدعوها الى التدخل العاجل لتكتم الامر ، وتقليل تلك العواقب الى الحد الادنى ، تجنباً للفضائح . لكن ذلك لن يعفى الشركة ، أو بالاحرى مستر بيتشام بالذات ، من ضياع الصفقة الجديدة ، الصفقة الحقيقية التي سيحقق من خلالها أرباحه الحقيقية ، صفقة سفن ساوثمبتون ، لان الحكومة لن تفكر طبعاً - في تلك الحالة - في التعامل معه أو مع شركته . ولكن ما باليدخيلة .

اضطر مستر بيتشام أن ينصرف عن كتابة مقاله عدة مرات خلال تلك الليلة المشهودة ، ليذهب الى الورش فيطمئن على سير العمل فيها . كانت الورش آخذة في انتاج لافتات كتبت عليها ، بعناية فائقة ، وبخط مقروء من مسافات بعيدة ، أشياء كهذه : «هل ترسلوننا الى جنوب أفريقيا مجرد أن يثرى على حسابنا أصحاب شركات الملاحة؟» - « اذا كنتم مصممين على ارسالنا الى الجحيم فلا أقل من أن نشحن على سفن تكونون واثقين بأنها ستصل الى هناك ! » - « ضحايانا المتفائل لم يفرقوا قضاء وقدرنا ، بل قتلوا عمداً مع سبق الاصرار! » وفي الخامسة صباحاً هبط عليه الوحي ، فعاد الى الخطاطين الذين اكتظت بهم ممرات الورشة ، وقد ركعوا يعملون على ضوء مصابيح الكيروسين ، فأعطاهم لافتة جديدة تقول : « الاظع من العاصفة والضباب جشع رجل الاعمال الذي لا ضمير له ! » .

والآن ، في الثامنة صباحاً ، كان اعترافه قد كتب ووضع في ظرف مفلق على مكتب بيرى الذي نخره السوس ، وانصرف رجاله ، دافعين أمامهم عربات يد محملة باللافتات التي أعدت أثناء الليل ، ذاهبين بها الى أماكن مختلفة من المدينة تقرر أن تبدأ منها المظاهرة . لكنه قرأ في الصحف بعد ساعة واحدة أن الشيوعيين الذين قاموا بتخريب « المتفائل » قبل ابحارها قد ألقى القبض عليهم . فأسرع من فوره بارسال بيرى وآخرين غيره الى الاماكن المقرر أن تبدأ منها المظاهرة لاخطار الرجال بأن المظاهرة الفيت ، ثم جلس لأول مرة منذ ساعات ، فأخذ يحسو فنجانا من الشاي .

اذن فقد تاب أولئك الناس الذين في سكوتلانديارد الى رشدهم

أخيرا ! حسنا فعلوا . فالقول بأن حفنة من العمال الاشتراكيين هم الذين خربوا تلك المركب وتسببوا في غرقها بمن عليها ، أفضل بكثير ، بالنسبة للعاطفة الوطنية المشبوبة في هذه الآونة ، والتي تفيض بها مقالات الصحف ، من أية فضائح تتعلق بالفساد في الاميرالية .



ذهبت مسز بيتشام الى غرفة ابنتها والنهار لم يطلع بعد ، فجلست على حافة فراشها ، وفاجأت تلك الابنة بقولها : أنها قد نجحت في اقناع بيتشام أخيرا بأن يكف عن معارضة زواج بولى وماكهيث . وقد أفاضت الام في وصف مؤثر للطريقة التي توصلت بها الى تحقيق ذلك النصر غير المتوقع ، فقالت :

— ظلت أقول له : اياك أن تفرق بين هذين العاشقين . ألم تسمع أنه مكتوب في الانجيل أن من جمعهم الرب لا يفرقهم العبد ؟ عد بذاكرتك قليلا الى الوراء . لقد كنا ، أنا وأنت ، صغيرين نحن أيضا ذات يوم ، قليلى العقل ، وان كنا قد وضعنا لجنبنا حدودا معينة لم نتخطاها . والان هل تجرؤ على تحمل وزر ابنتك التي سيسقمها الحب ويذبلها الفراق ؟ دع عنك خطيئة القضاء على تلك الحياة البريئة الصغيرة التي في أحشائها ؟ انهما لا يرغبان في شيء الا أن يكون كل منهما للآخر . ولقد مرا بأوقات عصيبة مخيفة معا ، لكن جبهما انتصر ، وذلك أيضا شيء يجب أن يؤخذ في الاعتبار . فمثل هذا الحب القوى لايمكن أن تفصم عراه بسهولة . أعرف أنك كنت تريد المرحوم كوكس زوجا لابنتك . ولقد كنت محقا في ذلك . فقد كان رجلا وسيما ، جذابا على الدوام . ولو أنك أنت لم تكن تقدره الا لبراعته في دنيا الاعمال . لكنه مات ، ولا تستطيع أن تخرجه من قبره لتزوجه ابنتك . فما الذي يجعلك مصرا على معاداة ماكهيث؟ الكل يقولون أنه لا يقل كفاءة عن كوكس وأنه يربح الكثير . وهؤلاء الناس الذين يديرون له دكاكين حرف «ب» لا يجدون منفذا الى الضحك على ذقنه . فهو يسوقهم بيد من حديد . لانه لا موضع للكسالى في مثل ذلك العمل الذى يديره . ولسنوف يجعل ابنتك سعيدة . لقد تحدثت اليه ، وسوف يصبح زوجا مثاليا . وأمثاله يكونون دائما آباء مثاليين . لقد فعلت كل شيء دائما من أجل سعادة ابنتك . ما الذى يجعلك تشقى ليل نهار الا حرصك على سعادتها ؟ وأنت أول من يقول ذلك . ولا تنس أن ماكهيث قد أظهر حرصا بالفا

على روابط القربى عندما عرض عليك ، رغم العلاقات المتوترة بينكما ، مساعدة رجاله في هوجة الميناء الأخيرة . وهو عندما فعل ذلك أثبت لك انه يضع مصالح العائلة فوق أى اعتبار وأى خلاف شخصى . ان الاسرة الان دعامة كل حياة تتسم بالمحافظة على قواعد الاخلاق . وأساس العائلة هو الحب . فلو لم تكن هناك العائلة ، ولم يكن هناك الحب والاخلاق ، لاأكل الناس بعضهم بعضا ولانعدم كل سلوك معقول بين البشر . فلنبارك زواجهما . لان ابنتنا يا بيتشام لا تستطيع أن تكون سعيدة سعادة كاملة بغير رضا الوالدين !

ولقد بلغ من تأثير مسز بيتشام بما قالته انها وعدت بالذهاب الى المحكمة أثناء نظر القضية .

قالت وهى تخرج من باب الغرفة :

— ولا تقلقى بشأن الحكم . فقد تكفل أبوك بذلك يا بولى . سيفرج عن زوجك غدا .

فى تلك اللحظة ذاتها كان مستر بيتشام قد انتهى من تناول افطاره فقام وذهب الى النافذة .

وقف ينظر الى الضباب الكثيف ، فخطر له أنه لن يكون من السهل على بيرى والاخرين أن يبلفوا تعليماته الخاصة بالغاء المظاهرة الى شحاذه فى الوقت المناسب ، بسبب هذا الضباب اللعين ، فيمنعهم من السير فى شوارع لندن بلافتاتهم الرهيبة .

(١٥)

وهكذا تأتي النهاية السعيدة .
فتسوى الخلافات ، وتعوض الاضرار .
اذا كان رأسمالك كافيا :
فان كل شيء يصبح في النهاية على ما يرام .
يصيح زيد ، ان عبيدا قد اصطاد في الماء العكر .
ويرغى ويزبد ويهدد بالقانون ،
ولكن انظر اليهما في المساء ، يطعمان معا ،
كان شيئا لم يقع ، يمضغان بالتذاذ آخر كسرة سرقاها من زاد
الفقير .

لذلك نجد البعض يدبون في الظلام ،
والبعض يفعلون ما يفعلون في وضح النهار ،
وهؤلاء تستطيع أن تراهم ، لكن كل أولئك الاخرين ،
الذين في الظلام ، لا يراهم أحد .
(من فيلم البنسات الثلاثة)

دليل البراءة

عندما قاربت الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم ، كانت بولى
وأما في عربة تحملهما الى السجن لزيارة ماكهيت ، وضباب كثيف
يخيم على شوارع المدينة .
عندما دخلنا الزنزانة ، حيث كان ضوء الغاز ما زال مضاء ،
وجدتا أن ماك لم يكن قد تناول إفطاره بعد . لكن الغرفة كانت
مزدحمة برجال الاعمال . كرستون ، مثلا ، كان هناك ، ومستر
ميلر ، وجروتش ، اللص العجوز . جلسوا . وقد وضع كل منهم
سيجارا غليظا في ركن فمه ، يناقشون التفاصيل الاخيرة للمعركة
الحاسمة ضد البنك التجارى .

أجمعت الآراء على أن القضية آن لها أن تحسم ، حتى يطلق سراح ماك ، لانه كان قد تم الاعداد لاجتماع هام في بنك الائتمان الاهلى ، في الثانية بعد الظهر ، وقد وجه مستر هوثورن خطابا الى اليهودى هارون و جاك أوبر يدعوها فيه لحضور الاجتماع ، مبينا في خطابه أن السيد ماكهيث قد أصبح الآن عضوا في مجلس إدارة بنك الائتمان الاهلى ، قائلا : انه يرغب في أن يعرض على السيدين هارون ، وأوبر ، اقتراحات محددة بشأن وباء تخفيض الاسعار الذى استشرى مؤخرا في تجارة التجزئة .

ولذا تقرر أن يعلن ماكهيث في الجلسة دليل برأته الذى أخفاه حتى تلك اللحظة تحت ضغط دواعى العمل ، فيبين للمحكمة أنه كان يرأس اجتماعا لمجلس ادارة شركة م.م.م ساعة أن ماتت المرحومة ماري سوير ، وأنه - تبعا لذلك - لا يمكن أن يكون قد قتلها . وعليه فانه رتب أموره بحيث يعقد ذلك الاجتماع الحاسم مع الخصوم . فى بنك الائتمان الاهلى ، بعد الجلسة مباشرة ، مؤملا أن يتمكن من الوصول الى ذلك الاجتماع فى الثانية تماما ، قبل أن يكون هارون وأوبر قد سمعا بما دار فى الجلسة ، واكتشفا أنه رئيس مجلس ادارة شركة م.م.م .

وضع مجيء السيدتين حدا لمناقشات السادة ، فانفض الاجتماع ، وهم الجميع وقوا يستقبلون بحفاوة مسز ماكهيث والسيدة والداتها . كانت بولى مرتدية الثوب الاسود البسيط الذى حضرت به جنازة المرحوم مستر كوكس منذ أيام ، لانها ستذهب مع أمها ، بعد الجلسة مباشرة ، لحضور الصلاة التذكارية التى ستقام بعد الظهر على أرواح أولئك الجنود المساكين الذين استشهدوا فى كارثة « المتفائل » .

لم يخف ماك دهشته لزيارة حماته ، لكنه قدمها الى الاخرين ، وبدأ على الفور حديث آخر مهذب غير حديث المال والاعمال ، تركز حول الضباب فى مدينة لندن ، وما الى ذلك . وفى أثناء ذلك انتحى مستر ماكهيث بزوجه ركننا من الزنزانة ، حيث كان افطاره ينتظره ، فأخذ يأكل ويصغى اليها وهى تخبره بصوت خافت عن تغير موقف أبيها منه .

أوما ماك برأسه . لم يكن متأكدا بعد من الدور الذى لعبته بولى فى مقتل المرحوم مستر كوكس . كان قد سمع من ردى ، بعد الحادث ، أن جايلز هو الذى قتل السمسار . ولكن أى شأن لكوكس

بجائلز الذى لا يمكن أن يكون قد سعى فى أثر السمسار الا بناء على تعليمات من أوهارا ؟ ترى هل أرادت بولى أن تمنع كوكس من الظهور فى قضية الطلاق فطلبت من أوهارا أن يودى لها تلك الخدمة ؟ ولكن ما مدى ، أو بالاحرى ، ما منشأ سلطانها على أوهارا ؟

لكن تلك كانت مجرد خـواطر عابرة ، لان ماكهيث لم تكن لديه - فى حقيقة الامر - أدنى نية للتعلمق فى شئون بولى وتصرفاتها ودوافعها ، كما لم تكن لديه نية الاستفسار عما تم فى مسألة الاجهاض . لكن بولى هى التى فتحت الموضوع من تلقاء نفسها . قالت له ووجهها المتورد - الذى ابرز جماله وتورده ثوبها الاسود - يفيض بشرا وحنانا أنها ذهبت الى السينما صدفة مع أمها وأن الفيلم الذى شاهده بصحبة الام جعلهما تقرران الامتناع عن اجراء الاجهاض . قالت بتأثر بالغ أن قصة ذلك الفيلم - على بساطتها - هى التى منعتها من ارتكاب خطيئة ضد تلك الحياة التى توشك أن تخرج الى الوجود ، وأن منظر الطفلة المؤثر على شاشة السينما قد فعل فيها فعلة :

- فأحسست أنى لا أستطيع أن اذهب الى ذلك الطبيب بعد تلك التجربة . كنت حرة بأن أحس أنى مجرمة . . يجب أن تفهم ذلك يا ماك . لم استطع ان انفذ رغبتك واتخلص من الطفل .

كانت تحب مصارحته بكل شىء . وقد حز فى نفسها دائما أنها لا تستطيع أن تصدقه القول فى كل ما يخصها ، لان ذلك كان مستحيلا . فكانت تقول ، فيما بينها وبين نفسها ، بأسى :

- هناك مثلا تلك العلاقة الآثمة التى بينى وبين أوهارا . سيكون من المخيف أن يعلم بأمرها . فقد يتصور أننى خنته . ولن يصدق أبدا أنى لزمتم الصمت من أجله . الحقيقة أنه سيكون رأيا خاطئا عنى اذا ما اعترفت له بكل شىء . حكاية سمايلز مثلا ، أو تلك المرة مع كوكس . قد يظن أن زوجته امرأة سائبة ، لا يمكن الوثوق بها . وسيكون مخطئا كل الخطأ فى ظنه . لانى ، لو لم يكن كثير الشكوك هكذا ، كنت سأصارحه بكل شىء ، فلا يعود هناك أدنى خداع بيننا . فوق أنه يسىء الظن بالنساء عموما . مما يجعل الامر اشد صعوبة . وعدها ماك بأن يرى ذلك الفيلم المؤثر فى أول فرصة ، ثم انصرف الى تناول افطاره .

أخذت بولى ترقبه باعجاب . مسحورة به وهو يلتهم بيضة ، وقد

بدا عليه التركيز الكامل والاستغراق فيما هو فاعل الى الحد الذي جعل وجهه يكتسى مسحة مهمومة ، وكان حياته متوقفة على التهام تلك البيضة .

عجبت لهدوئه . لكنها ما لبثت ان تذكرت أن اجراءات المحاكمة التي ستجرى عما قليل ليست الا شكليات بحتة ليس هناك ما يدعو الى القلق بسببها . حتى أوهارا لم يعد هناك ما يدعو الى القلق بشأنه . فأوهارا - رغم تهوره - سيثوب الى رشده ، ويحكم عقله ، فيختار ان يذهب الى السجن بدلا من أن يحاكم بتهمة القتل العمد . لم يحس ماك بأى أسف فيما يخص مساعده القديم . فقد جلب كل ذلك الاعمال على نفسه، وقضى على المستقبل الباهر الذي كان ينتظره في دنيا الاعمال بما تورط فيه من مشكلات تتعلق بحياته الخاصة . وهنا وصل الاستاذ ريجر ، فانصرف السيدان كرستون وميلر ليقوما بالترتيبات الاخيرة للاجتماع الذي سيعقد بعد الظهر . قال لهما ماك وهما يخرجان أنه سيحضر في مواعده ، ولن يتأخر لحظة .

أخذ ريجر يثرثر ، وهم في الطريق الى المحكمة ، فروى كثيرا من النوادر والحكايات عن لافرز ، القاضى الذى سينظر القضية ، وقال أنه ليس مثل قاضى الاحالة بروذلى الذى يقضى أحد عشر شهرا من السنة سكران ، فلا يفيق الا فى الشهر الثانى عشر الذى يقضيه فى صيد السمك فى سكوتلاندا . فهو لا يقرب الخمر طيلة ذلك الشهر لانه يؤمن بأن السمك لا يقع فى الفخ بسهولة ، ولا يؤمن بالعدالة . أما لافرز هذا فلا يقرب الخمر أبدا ، وهو فوق كذلك فقيه فى القانون من الطراز الاول ، علاوة على ما يتمتع به من قدرة خارقة على التركيز ، ولذلك فانه لا يمنع احدا من أن يقول ما يشاء فى الجلسة لانه قادر على التظاهر بالانصات لكل ما يقال فى المحكمة دون ان يسمع شيئا على الاطلاق ، فهو عندما يدخل قاعة المحكمة لينظر قضية ما يكون قد استعد لها تمام الاستعداد ، واستوعب كافة جوانبها القانونية وخباياها ، ولذلك لا يدع احدا يشوش له ذهنه . قال الاستاذ ريجر مفسرا الامر .

- بالنسبة لرجل القانون تبدو القضايا فى ضوء يختلف تمام الاختلاف عما تبدو به لرجل الشارع . فهذا الاخير يقف فى المحكمة ببلاهة ويقول كثيرا من الكلام الفارغ ، مؤكدا براءته . وهو مشغول طيلة الوقت بأفكار كهذه : وقعة سوداء ! ستقضى هذا القضية على

مستقبلي ! او : عيالى المساكين ، سيتضورون جوعا باذن الله عندما يزج بى هؤلاء الناس فى السجن ! او : ليتنى أخذت معى شاهدا عندما ذهبت لزيارة عمى فى تلك المرة الاخيرة ! أما القاضى فيقضى فى القضية ، فلا يشغل باله شىء سواها ، ثم أنه ليس هو الذى سيذهب الى السجن أو يشنق من عنقه ، بل سيذهب بعد الجلسة ليتناول طعامه أو يشرب كأسا من الخمر . ولذلك فانه يكون فى وضع أفضل كثيرا من وضع رجل الشارع المتهم ، يتيح له ان يفكر تفكيرا سليما .

كانت قاعة المحكمة تضم عددا لا بأس به من الفضوليين ، والمهتمين اهتماما خاصا بقضية ماكهيت ، ورجال الصحافة . فقد احدثت حملات الصحافة المتواصلة عليه أثرها .

وفى آخر القاعة كان مستر هارون . رآه الاستاذ ريجر بمجرد ان دخل قاعة المحكمة ، جالسا فى مقعد على حافة الممر الاوسط ، وقد وضع قبعته أرضا بجواره ، أخذ فى تلميع نظارته بعصية ظاهرة ، وبرفته سكرتيره الخاص المدعو باور .

كان بين الحاضرين عدد لا يستهان به من اصحاب محلات حرف « ب » الذين تضاءلت شعبية ماكهيت كثيرا بينهم منذ أن وجهت اليه تهمة قتل واحدة منهم . وهكذا فان جروتش ، الذى اندس بينهم دون أن يعرفوا أنه من رجال ماك ، سمع أشياء كهذه :

— يا سلام على قلة عقولنا وتصديقنا لكل ما يقال لنا ! طالما سمعت أن ماكهيت هذا رجل يتوخى منتهى البساطة فى حياته ، وأنه لا يدخن الا قليلا ، ولا يقرب الخمر . بل وقد قيل لى فى وقت من الاوقات أنه ، من فرط تعففه ، نباتى ، وأنه يحيا حياة نظيفة متقشفة لا مأخذ عليها ، ولا يفعل شيئا الا بهدى من مثله العليا التى يتفانى فى سبيل تحقيقها ، ولو انه يضطر — بالضرورة — الى التعامى عن كثير مما يحدث فى دنيا الاعمال ، لانه مضطر أن يدع الامور تسير ، وأن المصائب التى تحدث للاخرين من تحت رأسه لا يد له فيها بل لبطانة السوء التى تحيط به . لكن المرء يدرك الان أنه قد تركهم يضحكون على عقله بهذه الترهات ، خاصة بعد هذه الاشياء الفظيعة التى كشفت عنها المحاكمة .

الحقيقة أن تلك المحاكمة سببت اثارة بالغة لاولئك الناس الطيبين ، خاصة وان اخبارا لا يعرف مصدرها تسربت ، مؤداها ان المحكمة

رفضت أن تنظر في دليل أراد الدفاع ان يقدمه خارج الجلسة .
وقد وضع الكل ثقتهم في الاستاذ والى البدين الذى أخذوا يشيرون
اليه لبعضهم بعضا ، قائلين أنه هو الذى سيجوز على ماكهيت .
ثم ظهر ماك فى بذلة سوداء .

كان هناك آخرون أيضا بدأ انهم ينوون حضور صلاة الغائب التى
ستقام بعد الجلسة مباشرة على ارواح الشهداء . وقد اعطت تلك
التياب انطبعا ، كان له ما يبرره ، بأن ذلك القطاع من الجمهور
قد جاء الى المحكمة عرضا وهو فى طريقه الى مكان آخر .
بدأت الجلسة متأخرة بعض الشيء ، فقد كان فخامة القاضى
لافرز مشغولا ذلك الصباح .

وبينما الجميع فى انتظار افتتاح الجلسة ، دخل احد محامى
الدفاع مهرولا ، فأعطى المتهم حزمة من الاوراق اخذها هذا الاخير
وبدا فى قراءتها بطريقة محمومة . وقد افترض الجمهور انها مستندات
خاصة بالقضية ، لكنها كانت اوراقا ارسلها مستر ميللر ، متضمنة
آخر الموضوعات المدرجة فى جدول أعمال الاجتماع الذى سيعقد
بعد الجلسة .

ثم حدث شيء آخر ، شد انتباه الحاضرين ، فقد قام الاستاذ
والى من مكانه ، وتقدم من زميله الاستاذين ريجر ووايد ، والعيون
كلها معلقة به ، فحياهما احسن تحية ، واعطاهما حقيبة اوراق
أخذها منه الاستاذ وايد شاكرا ، ففتحها ، وبدأ ينظر فيما وجدته
بداخلها من مستندات باهتمام متزايد ، ثم هم الاثنان واقفين ،
فذهبا الى ماكهيت ليطلعاه على تلك المستندات التى اعطاها لهما
الاستاذ والى ، غير أن مستر ماكهيت كان غارقا فى دراسة الاوراق
التى بين يديه ، فأشار لهما بيده ، بنفاد صبر ، أن يكفا عن مضايقته ،
لكنهما الحيا عليه أن يلقي اليهما بانتباهه لحظة ، فلم يرفع رأسه ،
وأخذ يؤشر فى الاوراق التى معه ويجرى بها تصليحات متفرقة ،
وهو ينصت بنصف أذن لمحاميه ، حتى اذا ما قال له كل ما عندهما ،
لم يزد عن هزة دهشة واستغراب من رأسه .

ثم أقبل القاضى لافرز اخيرا ، وقد اكتملت زينته ، فارتدى باروكة
الشعر التقليدية ، وروب القضاء الفاخر ، قرمزي اللون ، المحلى
بالفراء ، فساد لدخوله صمت عميق ، وجلس فى مقعده بمهابة .

لكنه كان من الواضح لكل ذى عينين أنه يأخذ الامر كله مأخذ
الاجراءات الشكلية التى لا طائل من ورائها ، حتى لقد بدأ أنه لم يجلس

في مقعده الا لانه يجد صعوبة في الوقوف طويلا بسبب عاهته .

هم الاستاذ والى واقفا من فوره فطلب استدعاء المتهم الى مقعد الشهود ، فلما جلس ماك في ذلك المقعد اجاب عن أسئلة الاستاذ اجابات مقتضبة ، بغير اكرات . ثم أعلن الدفاع أنه ليس لديه أية أسئلة .

فلما تودى على العسكري فيوكومبي ، بين غيره من الشهود ، تبين انه ليس حاضرا في المحكمة . فبدأ الضيق الشديد على الاستاذ والى ، لان ذلك العسكري كان الشاهد الوحيد الذي يهمه في القضية كلها ، وها قد تبين أنه لم يحضر .

ثم قام الاستاذ وايد وترافع بشيء من الاطالة . قال :

— سيدى القاضى . حضرات المحلفين . اقام الادعاء دعواه قبل المستر ماكهيث على أساس رفض هذا الأخير الافصاح عن مكان تواجده ساعة ان لاقت المرحومة مارى سوير ربها . والحقيقة ان تقديم ذلك الدليل — الذى وجد مستر ماكهيث نفسه مضطرا ، حتى الان ، الى اخفائه — كفيلا بأن يهدم دعوى الادعاء من اساسها وفي تلك الحالة يثبت ان مارى سوير هذه ، سواء كانت قد ماتت منتحرة أم مقتولة ، لا يمكن أن تكون ميتتها قد تمت على يد مستر ماكهيث . وعلى أية حال ، فقضية الادعاء ، فى ذاتها ، ليست مقنعة . فإى فائدة تعود على مستر ماكهيث ، التاجر ورجل البنوك الكبير، من موت احدى مستخدماته ؟ قيل اثناء نظر القضية امام قاضى الاحالة ان تلك المرأة هددته بأشياء معينة . وقد صدرت تلك التهديدات منها بالفعل ، فى مكاتب مجلة « العاكس » . فما الذى فعله محررو تلك المجلة ؟ ضحكوا منها ! فما الذى يجعل مستر ماكهيث يرفع اصبعاً ليسكت تهديدات حمقاء كهذه تجعل كل من يسمعها يضحك من قائلها ؟ لكنى لن أطيل فى هذه النقطة . فمستر ماكهيث لديه دليل ثابت لا يدحض ولا يقبل الشك يقطع بأنه كان بعيداً عن مكان الجريمة ، فى ليلة العشرين من سبتمبر ، فيدراً عنه كل شبهة ، وينفى أى صلة له بهذا الموضوع من أساسه . وهنا ألتمس من عدالة المحكمة أن تسمح لى بتقديم محضر اجتماع شركة المجلس المركزى للمشتريات المعروفة باسم م.م.م.م . الذى حضره مستر ماكهيث فى تلك الليلة ، بوصفه رئيساً لذلك المجلس .

قدم الاستاذ وايد المستندات الى القاضى ، ثم أضاف :

— كما التمس سماع شهادة السادة أعضاء مجلس ادارة شركة

م . م . م . الحاضرين في هذه الجلسة ، والموقفين على هذا المحضر ، وسوف يؤكدون جميعهم لعدالة المحكمة أن مستر ماكهيث هو الشخص المشار اليه في هذا المحضر - لضرورات تتعلق بصالح العمل - باسم « مستر اكس » .

حدثت في المحكمة هزة اثاره بينما القاضى يتصفح محضر الاجتماع ، ولورد بلومزبرى ، وفانى كرايزلر ، ووايد وريجر ينتقلون الى مقاعد الشهود . وفي نفس اللحظة شوهد سيدان يتركان مقعديهما في عجلة ظاهرة ، ويسرعان الى الخارج . وقد سمع احد السيدين يقول للآخرين :

- لا داعى للبقاء أكثر من هذا ، فقد عرفنا ما فيه الكفاية . ذلك بغير شك هو الاجتماع الذى كتب فيه الخطاب ، وبعد ذلك توقف توريد البضائع الينا . واللعين ماكهيث هو رئيس مجلس الادارة !

ولم يفت ماك خروج هذين السيدين والفيظ البادى على وجه اكبرهما وهو يبرطم بصوت مرتفع ، قبا عليه الانزعاج .

ثم غمغم القاضى وهو يتفحص المحضر بعناية :
- هنا اسم آخر . مكتوب بخط لا يكاد يقرأ . اسمه اوهارا ؟
هل اوهارا هذا موجود فى الجلسة ؟
هم ماك واقفا بعصبية ، وقال بسرعة :

- لقد قبض عليه بناء على بلاغ منى ، بوصفى رئيس مجلس ادارة شركة م . م . م . والتهمة الموجهة اليه تسليم وترويج بضائع مسروقة . وقد تمت اجراءات القبض عليه واستجوابه اثناء وجودى بالسجن .

ثم جلس ثانية ، ناظرا بقلق الى الباب الذى خرج منه هارون العظيم غاضبا يبرطم .

أدت فانى كرايزلر بعد ذاك اليمين ، كما أقسم لورد بلومزبرى والمحاميان ، وشهد الجميع بأن السيد المشار اليه باسم « مستر اكس » فى محضر الاجتماع هو مستر ماكهيث بلحمه وشحمه ، وأن مستر ماكهيث حضر ذلك الاجتماع من اوله الى آخره .

ثم هم الاستاذ وايد واقفا ، ويده حقيبة الاوراق التى اعطاه اياها الاستاذ والى فى بداية الجلسة ، فقال بلهجة من لا يعنيه الامر فى قليل او كثير لكنه يؤدى ما عليه والسلام :

- ان موكلى ليس مطالباً بعد ان اثبت براءته - ان يقدم القاتل

الحقيقي الى العدالة . ولكن مستر ماكهيث يرغب في التعاون مع العدالة بغية كشف غوامض السر المحيط بميته مستخدمته . ولذلك فاني ارجو ان اقدم الى عدالة المحكمة مستندات معينة بوسع العدالة ان تستنتج منها من يكون قاتل ماري سوير الحقيقي .

قال ذلك وألقى على المنضدة التي يجلس اليها كاتب الجلسة بحزمة من الاوراق ، ثم جلس وقد بدا عليه الارهاق ، شأن من قام بأمر جلل .

حدث هرج في المحكمة ، كما هي العادة في مثل تلك المواقف . لكن مستر ماكهيث لم يعر ذلك كله أدنى التفات . أخذ فقط ينظر الى ساعته كل بضع دقائق بعصبية ظاهرة .

ولم يكد المحلفون يخرجون من قاعة المحكمة ليقرروا ما اذا كان مذنباً أم لا ، حتى هم واقفاً ، فغادر القاعة بدوره ، في حراسة أحد ضباط البوليس . بدا واضحاً انه يريد ان يتحدث الى مخبري الصحف الذين تجمعوا في الردهة . تبادل بضع كلمات همساً مع بولي ثم سحب جماعة الصحفيين الى غرفة خالية ليجرى حديثه معهم .

ولم يلق رجل البوليس ادنى بال الى ذلك كله ، لانه كان يعرف مكانة مستر ماكهيث من جانب ، ومن جانب آخر لم يجد جديداً في تلك الاحاديث التي يجريها مخبرو الصحف مع كل متهم له وزن ، لكن الجديد هذه المرة كان ان ادخل مستر ماكهيث أصحابه الصحفيين تلك الغرفة ولم يدخل معهم ، بل أقفل الباب عليهم بالمفتاح وأسرع يقطع ما بقي من ممر المحكمة ، ذاهباً الى الباب الخارجي ، بينما وقف رجل البوليس مستنداً بظهره الى احد الاعمدة ناظراً امامه بضجر .

لم يلحظ احد خروج ماكهيث من مبنى المحكمة خلصة ، عارى الرأس ، وقد أخذ يجفف العرق الذي تصبب على جبينه وهو ينزل الدرج عدواً ، ليجد بولي في انتظاره عند الباب الخارجي . كان عليه ان يذهب أولاً الى سكوتلانديارد ثم يتجه بعد ذلك الى بنك الائتمان الاهلي .

عندما صعد الى المركبة مع بولي ، أقبل جروتش يعدو وراءهما ، فذهبوا ثلاثتهم في اتجاه سكوتلانديارد ، ولو انهم لم يتقدموا بالسرعة المرجوة ، لان الضباب كان كثيفاً في ذلك اليوم .

رجاحة العقل تنتصر

بينما مستر بيتشام يجلس في مكتبه ذلك الصباح يكتب مقالا آخر لمجلة « العاكس » يعبر فيه عما خالجه فجأة من شكوك وريب قوية بشأن العناصر الهدامة التي ما من شك في أنها مسؤولة مسئولية كاملة عن غرق « المتفائل » ، كان يحاول ، في نفس الوقت ، دون جدوى ، أن يتصل برجاله المنتشرين في أنحاء متفرقة من المدينة ، وبخاصة حي المال والأعمال ، ليحدثوا في ذلك الحي شقبا ، حتى يأمرهم - بعدما جد من تطورات - ألا يحدثوا ذلك الشغب . عاد بعض من أرسلهم في أعقاب أولئك الرجال قائلين أنهم لم يجدوا أحدا في أماكن التجمع المتفق عليها . أما بقية من أرسلهم فقد اختفوا مع الآخرين ، فكأنما انشقت الأرض فابتلعت هؤلاء وأولئك .

صمد مستر بيتشام للقلق الذي انتابه حتى الظهر ، ثم لم يعد يطيق صبرا ، وخائنه أعصابه ، فأسرع يستأجر عربة حملته إلى سكوتلانديارد ، وهناك وجد كبير المفتشين براون ، مرتديا الثياب التي سيحضر بها حفل التأيين والصلاة على أرواح الشهداء ، منهمكا في استجواب عدد من المقبوض عليهم في قضية التخريب .

الح مستر بيتشام على أحد مساعدي براون حتى أتيت له فرصة الاختلاء بهذا الأخير ، فلم يكد الباب يفلق عليهما حتى أخبره بذعر أن عدة مئات من الجنود الجرحى مزودين بلافتات رهيبة لا حدود لما يمكن أن تحدثه من أذى سيقومون بمظاهرة ، وأنه حاول أن يستدعيهم ، بعد التطورات الأخيرة ، لكنه لم يتمكن من الاتصال بهم ، وبذلك أفلت الزمام من يده ولم يعد بوسعه منع تلك المظاهرة التي يمكن أن تتطور إلى كارثة حقيقية ، خاصة وأن التجارب السابقة تشير إلى أن أعدادا كبيرة من الناس ستتنضم إلى تلك المظاهرة تلقائيا ، بحيث يمكن أن يتضاعف عدد المتظاهرين عدة مرات قبل أن يكونوا قد بلغوا كنيسة القديس بولس .

ثم انفجر بيتشام صائحا ، وقد انقلبت عياره تماما :

- يجب أن تطلقوا النار عليهم فتقتلوهم عن بكرة أبيهم . انهم مجرد حثالة من العاطلين ! أستطيع أن أعطيك قائمة بأسمائهم . هناك عدد كبير بينهم من القتلة واللصوص ورد السجون ! واللافتات التي يحملونها مكتوب عليها أشياء مخيفة ، فهي تطالب بتفسير لما حدث

لزملائهم الذين غرقوا في كارثة ذلك المركب ، وتتساءل عن جدوى هذه الحرب أصلا . يجب أن تطلقوا النار عليهم فتبيدوهم ! فليس هناك من يستطيع أن يجيب عن أسئلتهم . يجب أن تطلق النار . يجب .

غرق براون في عرق بارد . أخذ علما من بيتشام بكل أماكن التجمع التي ستبدأ منها المظاهرة وأسرع خارجا من الغرفة . أما بيتشام فذهب الى بنك الائتمان الاهلي والقلق ينهش صدره . وبعد خروجهما بلحظات دخل ماكهيث مكتب براون كالزوبعة ، فقيل له أن كبير المفتشين في اجتماع بالغ الخطورة ، لكنه صاح في وجه من أخبره بذلك أن يسارع فيحضره . وبينما هو ينتظر براون ، أخذ يتحدث الى أوهارا الذي وجده جالسا على عقيبته في أحد الممرات ، بين اثنين من رجال البوليس ، وقد أخفى القيود الحديدية الموضوعة حول رصغيه بقبعته . كان قد أحضر من السجن لاستجوابه بمعرفة كبير المفتشين قبيل وصول بيتشام بقليل بدا أوهارا متمالكا أعصابه ، غير عابئ للورطة التي هو فيها ، بل ومستبشرا . قال لماكهيث ببساطة وهو يضحك في مرح حقيقي : - سوف أتعرف بكل جرائمك ياماك . سأؤدى لك خدمة فأريح ضميرك . عندما أقول لهم كل شيء ستحس براحة كبرى وتتخلص من كل ذنوبك !

ابتعد رجلا البوليس ، اللذان يعرفان مكانة مستر ماكهيث حق المعرفة ، ليتيحوا للصديقين فرصة النقاش بحرية . قال ماك : - كذا ؟ كنت أظنك أعقل من ذلك يا أوهارا ! اسمع . لن أضيع الوقت في الكلام . لم يعد أمامنا الا بضع دقائق ننفذك خلالها من المشنقة ، وانت تريد أن تضيعها في هذا الهراء الذي تقوله . لقد طلبت من صديقي براون أن يطلق سراح قاتلك المأجور جايلز حتى لا يعترف عليك بأنك استأجرته ليقتل السمسار كوكس . فاهم ؟ - فاهم طبعا . أنت تريدني أن أحنى لك رأسي وأغور من وجهك فأذهب الى السجن .

- اننا نحاول الحصول على كل ما نستطيع العثور عليه من فواتير تغطي تلك البضائع التي ضبطت في حوزتك . أنا لا أحمل لك أية ضفينة ، ولا أريد بك شرا . على العكس تماما . كل ما في الامر أن أحدا يجب أن يتحمل وزر كل ما حدث . وأنا كما تعلم لا أغنى عنى الآن ، فبدونى سوف ينهار كل شيء . ولا تنس أنى دخلت السجن

انا ايضا ، وما زلت سجيننا حتى هذه اللحظة ، لنفس السبب .
- أنت مجنون يا ماك ؟ تريدنى ان اذهب الى السجن لا قضى وزاء
أسواره ست سنوات تضيع من عمرى من أجل اعمالك ؟ عندما ترى
حلمة أذنك ! ستششقوننى اذا لم أسلمكم عنقى وأذهب الى السجن ؟
فليكن . لكنى سأجركم كلكم معى أولا .

- لن تجد فرصة لجر أحد كما تتوهم . ليس هناك ما يمكن أن
تثبته على أحد . حتى ولا أنت . كل ما هنالك أن الاعمال ستتأثر
اذا ركبت رأسك ولم تعترف . وحتى هذا يمكن تداركه . فوق أنك
لن يحكم عليك بسنت سنوات كما تظن . لن يزيد الحكم على أربع
سنوات على أكثر تقدير . سوف نزودك بكل ما نستطيع تدييره لك
من فواتير . مكتبنا فى حى المال والاعمال سيتكفل بذلك ، ويمكن أن
تعترف فى المحكمة أسفا بأنك انحرفت فى الشهور القليلة الاخيرة
فقط ، وتعلن ندمك .

- الشهور القليلة الاخيرة التى تركتنا أنت فيها ودخلت السجن ،
هه ؟

- تماما . الشهور التى تركتكم فيها . ويمكنك ان تقول - لتؤثر
فى الرأى العام - أنك فعلت ما فعلت بدافع الشفقة . أنك رثيت لحال
أصحاب الدكاكين الذين ظلوا يستصرخونك فى طلب البضائع بعد
ان توقف التوريد ، وأنت لم تستطع ان تحتل منظر شقائهم
ويأسهم أكثر مما فعلت ، فقررت ان تفعل أى شىء من أجلهم ، لأنك
كنت ، ذات يوم ، واحدا منهم ، وقد أدركت ان الامر فيما يخصهم
مسألة حياة أو موت ، فمحلات حرف « ب » تبيع بأرخص الأسعار
فى لندن !

- تريدنى ان أقف فى المحكمة فأعترف ، وألقى فى الوقت ذاته هذه
المحاضرة الاعلانية ؟

- لن يضرك ذلك بشىء . يجب ان تتعقل وتنظر الى كل شىء على
ضوء مصلحة العمل . لكنك يجب ان تقرر ما تنوى ان تفعله الان ،
لانى يجب ان اذهب .

وهنا دخل براون ، فبدأت المناقشة من جديد ، وبدأ أوهارا يصيح
ثانية ، قال ان ماكهيث قد خرب - بتحوله من لص الى رجل أعمال -
أفضل عصابة فى لندن ، وشرذ أفرادها . أفضل عصابة فى العالم
أجمع . وألقى بنصف رجاله السابقين فى غيابات السجن . وأنه هو
- أوهارا - سينتقم للعصابة وللرجال جميعا ، فينزع قناع ماكهيث

عن وجهه القبيح ويريه للعالم على حقيقته .
لكنه بعد ذلك انفتحا غضبه واصبح اكثر ميلا للتفاهم ، فاتخذ
الحديث منحى واقعيا . لم يبد اوهارا استعدادا للاعتراف الا بسرقتين
او ثلاث سرقات على الاكثر ، بينما اراده براون وماك ان يعترف بأكثر
من ذلك . ثم توصلوا ثلاثتهم في النهاية الى حل وسط ، فتم الاتفاق
على ان يعترف بخمس سرقات ، ووعده ماك بأن يزوده بعواتير تغطي
بقية البضائع . فانهى الامر على خير . وشد كل منهم على يد الاخر .
قال ماكهيث :

— بصرف النظر عما قد تحس به يا اوهارا ، يجب ان تعتبر هذا
الاتفاق انتصارا لرجاحة العقل . لم يكن بوسعك ان تقرر غير ما
قررت . اما انا فان اتفاننا — رغم انه يحقق صالح العمل — يحزننى
كثيرا ، بصفة شخصية . وثق أنك الليلة ستنام مستريحا بينما أفضى
أنا الليلة مسهدا اتقلب فى فراشى .

بعد انصراف اوهارا ، ظل ماكهيث وحده مع براون ، فأعطاه ظرفا
صغيرا مغلقا ، قائلا له بحرارة :

— أنت ترى . أنى أسدد ديونى !

ثم أضاف باستبشار :

— واحتفاء بما حققناه اليوم ياعزيزى فريدى ، اسمح لى ان أقدم
لك هدية صغيرة اعترافا بأفضالك العديدة على .

فتح براون الظرف ، فلما عد ما فيه عائق صديقه القديم وزميله
فى السلاح بمنتهى التأثر . قال وهو ينظر الى ماكهيث بنظرته الصافية
التي تنطق بالامانة :

— انى أقبل الهدية يا صديقى ، وسوف أحتفظ بها عن طيب
خاطر لاننا صديقان ، وليس الأمر على العكس أبدا . أعنى أننا لسنا
صديقين لانك تعطينى مثل هذه الهدية بين الحين والحين ، ولكنى
أقبل منك هذه الهدايا بروح الصداقة الحقة . أرجو أن تكون مدركا
ذلك ياماك !

عندما خرج ماك الى الشارع ثانية بصحبة جروتش وبولى ،
لاحظ ان الضباب قد ازداد كثافة .

الضباب

فى قاعة الاجتماعات بينك الائتمان الاهلى ، جلس ثمانية من
السادة ينتظرون .

في ركن من أركان الغرفة وقفت جماعة صغيرة تضم السادة بيتشام ، وهوثورن ، وميلر ، وكريستون . وفي الركن المقابل . تحت تمثال نصفي لسمو الامير زوج الملكة وقف السيدان مديرا البنك التجارى ونجماه اللامعان ، ومعهما السيد اليهودى هارون وسكرتيره الخاص .

تجنبت كل جماعة النظر الى الاخرى ، واخذ افرادها يتحدثون فيما بينهم بنبرات خافتة لا يسمعونها الخصوم .

كان هارون يروى للاخوين اوبر ما جرى فى الجلسة . والحقيقة أن هارون ، بما جبل عليه ابناء جنسه من مكر وخديعة - لم يدهش لشيء مما حدث . فعندما جاءت الدعوة التى وجهها هوثورن واعلن فيها تعيين ماكهيث عضوا منتدبا لبنك الائتمان الاهلى ، كان هارون أقل الثلاثة دهشة لمخاتلة ماكهيث وغدره . والحقيقة أن الطريقة التى تقبل بها ماتكشفت عنه الاحداث بعد ذلك من أن صديقه مستر ماكهيث لم يكتف بالانضمام للمعسكر المنافس عضوا بمجلس ادارة بنك الائتمان وحليفا لكريستون ، بل كان أيضا رئيسا لمجلس ادارة شركة م.م.م. المعادية ، وأنه ظل لآمد طويل يتآمر على أصدقائه مع خصومهم ومنافسيهم - تلك الطريقة الهادئة المتسمة بالقدرية أثبتت بما لا يقبل الشك أنه ليس يهوديا مؤمنا بيهوديته فحسب ، بل ورجل اعمال من الطراز الاول . وقد صرح الاخوين اوبر بأن التصرف الواقعى السليم يقضى الان بكبح جماح كل المشاعر الشخصية ، وقبول الموقف الذى استجد كأمر واقع لا يقبل النقاش ، مما أدهش هذين الاخوين وأثار غيظهما لانهما لم يستطيعا مشاركته وجهه نظره الموضوعية هذه ، التى لم تمنعه - على أية حال - من الاعتراف لصاحبيه أنه ينتظر مجيء ماكهيث على أحر من الجمر ، لا لشيء إلا ليرى ان كان الرجل سيستطيع أن ينظر فى وجوههم بعد كل ما فعل !

وقد جاء ماك أخيرا ، فدخل قاعة الاجتماع مصطحبا رجله جروتش وقف الاثنان فى الباب فانحنيا لمن بالغرفة ، واجابهما السادة المجتمعين فى الركنين المتقابلين بانحناءات مماثلة . وبعد ذلك تقدم بيتشام من القادمين الجديدين فقال لهما :

- معذرة ، ولكن هل يمكننى أن أعرف من منكما السيد ماكهيث؟ فانحنى له ماك ، ورأى بيتشام زوج ابنته وخصمه السابق لأول مرة : رجلا قصير القامة ، ربة ، فى الحلقة الرابعة من عمره ، له

رأس يشبه رأس فجلة • انحنى كل منهما للاخر قائلا :
- أهلا بك • كيف حالك ؟

ثم عاد بيتشام فانضم الى جماعته الواقفة بجوار النافذة ، بينما ظل زوج ابنته وجروتش عند الباب • لم يبد ماك أية رغبة فى الدخول فى حديث مع هارون أو الاخوين أوبر اللذين وقفا يحدجانه بنظرة عداة لا خفاء فيها • ولذلك فانه وقف محتما برفقة ذلك اللص القديم جروتش • كانا ، كمعظم من بالغرفة ، يرتديان ثيابا سوداء ، استعدادا للذهاب الى حفل التأبين ، وقد أحسا ، فى تلك الغرفة المترفة النظيفة ، بضوئها الساطع ، اشبه بفرايين اسحمين قد حطا على فرع شجرة مزهر بالنوار • لكنهما كانا مخطئين ، فالغرفة لم تكن بكل تلك النظافة ، والجمع كله كان سرىا من الغربان • وقد فطن ماكهيت الى ذلك لفوره ، فقال فى نفسه بقرف انهم يتحينون الفرصة ليسرقوا من جيوب بعضهم بعضا ، ومن جيبي أنا أيضا • لكنهم يجب أن يفعلوا ذلك بطريقة مهذبة متحضرة • سيدى ، هل تسسخ لى بحز عنقك ؟ يجب أن يتم كل شىء على شكل عقود • كل هذا التظاهر والنقار يشير غثيانى • حتى أنا ألعب لغبتهم فأجلس وأساوم وأدخل فى « فصال » لا نهاية له حول العمولات ، لم لا أخرج مديتى ناعمة فى بطونهم اذا لم يعطونى ما أريد ؟ يالها من طريقة بلهاء لكسب المال طريقة الجنوس الى منضدة هذه ، والابتسام ، وتدخين السجائر ، وتوقيع الاتفاقيات ! اذن فعلى أن أدس فى العقود عبارات لولبية ، وألح بتلميحات ، وأبتسم ، وأناور ، وألف وأدور ! لم لا أقول للواحد منهم صراحة ، بغير لف ولا دوران : اعطني ما معك أو أذبحك ؟! علام كل هذه العقود ، والاتفاقيات ، والتعهدات ، بينما المرء قادر على أن يحصل منهم على كل ما يريد بخلع أظافرهم أو تهشيم أسنانهم ؟ هه لم ؟ وعلام كل هذا التستر الذى ينبىء عن جبن وراء القضاة والمحضرين ؟ كل هذه أشياء مهينة ، تحط من قيمة المرء • نعم لم يعد بوسع المرء اليوم أن يحقق أى شىء بتلك الوسيلة القديمة ، البسيطة ، الطبيعية ، المجربة : وسيلة السطو على الناس فى عرض الطريق • فقد باتت تلك طريقة عتيقة لا توائم روح العصر ، وهى بالنسبة للوسائل المتبعة فى دنيا الاعمال حاليا لتحقيق نفس الغرض ، تماما مثل السفن الشراعية بالنسبة لبواخر اليوم • لكن أيام زمان كانت خيرا وبركة ، وهذه أيام ذل وشقاء !

كانوا ينتظرون مجيء فخامة اللورد بلومزبرى ، عضو مجلس ادارة شركة م.م.م.

وقد وصل اللورد بعد ماكهيث بنصف ساعة ، نصف مخمور ، فشد على كلتا يدي ماكهيث وقال مهنئا بحرارة :

- لقد برئت . صدر الحكم ببراءتك منذ قليل . لكن القاضى حكم عليك بعقوبة بسيطة لانك هربت قبل النطق بالحكم ، بتهمة احتقار المحكمة .

كانت فاني كرايزلر قد جاءت معه ، لكنها انتظرت خارجا مع بولى ، ولم يشأ ماك ، حرصا على مشاعر جميعه ، أن يدعوها الى غرفة الاجتماع

جلس السادة المجتمعون الى مائدة الاجتماع المستديرة ، الكبيرة الحجم ، التي وضع عليها دورق ماء وستة أكواب ، وعلبة سيجار كبيرة . افتتح هوثورن الاجتماع بوصفه المضيف وسكرتير المجلس ، فرحب بالسادة الحاضرين ، وأفسح المكان من فوره لماكهيث الذى قدمه اليهم بهذه الكلمات :

- ان مستر ماكهيث أشهر من أن يعرف . ويكفيه فخرا أنه مؤسس محلات حرف «ب» الذائعة النصيب . وهو يود أن يعرض على حضراتكم بعض الاقتراحات .

لكن هارون رفع يدا لحيلة وقال معترضا :

- لحظة من فضلك ، قبل أن يعرض مستر ماكهيث أية اقتراحات هناك نقطة تبدو لنا بالغة الأهمية ولا تحتمل التأجيل يتعين أن يقدم لنا ايضا كما ملاما عنها قبل أن نصبح على استعداد للانصات الى أية اقتراحات من جانب مستر ماكهيث ، وأنا اعنى بذلك - كما لا يخفى على حضراتكم - الشائعات التى تواترت أخيرا حول سمعة مجلس المشتريات المركزى م.م.م .

فنهض ماكهيث بتؤدة وقال بغير أكثرات :

- اننا على علم تام بذلك . وقد انطلقت تلك الشائعات بسبب القبض على شخص يدعى أوهارا كان من بين موردي محلاتى . وأحب أن أطمئن السيد هارون الى أن القبض على ذلك الشخص تم بناء على بلاغ قدم منى شخصيا ضده ، عندما ثارت شكوكى حول مصدر بعض البضائع التى قام بتوريدها ، ولم أقتنع بما قدمه لى من بيانات بشأنها ، فقامت بتحريات خاصة أكدت لى أن تلك البضائع مسروقة . وقد اعترف أوهارا هذا بجريمته للبوليس ، وهو الآن ينتظر المحاكمة

بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة .

نظر هارون الى ماكهيث ولم يقل شيئا . لم يبد كبير دهشة ، بل أوما برأسه مؤمنا ، دون أن يستطيع إخفاء اعجابه ، فأخذ ماكهيث فى عرض مقترحاته ، موجزا قوله قدر الامكان . قال أن تجارة القطاعى تواجه أزمة ، وأن المنافسة القاطعة للرقاب التى نشبت مؤخرا قد أدت الى تخفيض الاسعار الى الحد الذى جعل من المستحيل تحقيق أى ربح معقول أو دون المعقول . حقيقة أن المبدأ الذى تهتدى بهديه المحلات التى تبيع بأسعار موحدة هو « خدمة العميل » . لكن تلك الدكاكين يتعين - لكى تنجح فى المدى الطويل - أن تكون متمتعة بكامل صحتها ، أى أن تكون فى وضع اقتصادى سليم ، فلا تضطر أن تعيش على لحم الحى كما يقال ، وتتمكن - بجانب ذلك - من تكوين احتياطات معقولة تميمها أولا بأول . فوق أن نظام المنافسة العمياء العشوائية الذى ساد حتى الآن قد ألقى بعبء مبهظ على عاتق البنوك . ولذلك فإنه يقترح تشكيل نقابة هـ . ك . ب . التى تضم محلات هارون ، وكرستون ، ودكاكين حرف « ب » فى منظمه واحدة قوية تستطيع أن تدرس احتياجات جمهور المسترئين ، وتنشئ نظاما اقليميا للدكاكين ، وتتوصل الى خطة موحدة للشراء والبيع ، وتتوصل بذلك الى مستوى منخفض من الاسعار بدرجة معقولة .

وهنا نظر هارون محرجا الى السيدين صاحبي البنك التجارى وقال بتؤدة والله كلام معقول . وقال أيضا أن مصلحة تجارة القطاعى ومصلحة الجمهور أيضا تقتضى احداث تغيير فى نظام المنافسة السائد حاليا .

ساد صمت عميق . ثم تنحج رئيس مجلس ادارة البنك التجارى وقال بلهجة تنبىء عن غيظه :

- أرجو أن يسمح لى بتوجيه سؤال يبدو لى ضروريا . ذلك السؤال هو : هل جرت قبل الان أية مناقشات فى الاتجاه الذى أشار اليه مستر ماكهيث لتوه ؟ فعلى حد علمى مازالت محلات حرف « ب » المملوكة لمستر ماكهيث من المشروعات التابعة لمصرفنا ، ومستر ماكهيث ملزم لذلك بأن يناقش معنا أولا أية قرارات تؤثر فى مصالحنا المشتركة . رد عليه ماك ببطء ، وهو يختار كل كلمة من كلماته بعناية شديدة . قال أنه ، بالنظر الى روابط عائلية معينة (وأشار بحركة من يده الى مستر بيتشام الذى لزم الصمت ولم تتحرك عضلة فى جسده) اضطر أن يدلى بدلوه فى اعمال بنك الائتمان الاهلى الذى كان يتعامل

مع محلات كرستون • وأن اتخاذ قرار بشأن مستقبل تلك المنشأة
فرض على الأسرة فرضاً ، وتبعاً لذلك فإنه أجرى مباحثات ذات طبيعة
غير رسمية مع مستر كرستون شخصياً •

وهنا سأله هارون ، دون أن ينظر إلى صاحبه ، الأخوين أوبر :

– وما الذى تمخضت عنه تلك المباحثات ؟

فاجاب كرستون ، نيابة عن ماكهيث :

– عن اتفاق كامل فى الآراء •

فضحك هارون •

وعاد رئيس مجلس ادارة البنك التجارى يسأل بيروود :

– وهل جاء ذكر ، فى تلك المحادثات غير الرسمية ، التى جرت على

حجر العائلة اذا صح التعبير ، للدور الذى سيقوم به المجلس المركزى

للمشتريات ؟

قال ذلك ونظر الى لورد بلومزبرى الذى جلس وهو « يفرك » فى

مقعده بتعاسة لم تخف على الآخرين ، غير فاهم شيئاً مما يجرى حوله •

اجاب ماكهيث ، بمنتهى الهسوء ، نيابة عنه :

– يمكنك أن توجه ذلك السؤال الى •

فقال جاك أوبر :

– أنا أوجهه الى شركة م.م.م •

– تماماً • وبذلك فأنت توجهه الى • لم يعد بوسعى أن أخفى علاقتى

الوثيقة بشركة م.م.م • التى تعود الى وقت طويل مضى

فسأله أصغر الأخوين أوبر بتهكم تلجى :

– علاقة عائلية هى الأخرى ؟

لم يبد على ماكهيث أنه لاحظ تهكم الآخر ، فقال بعذوبة :

– كلا ، كلا ، علاقة ودية • ودية للغاية • أنا وبلومزبرى صديقان

كما تعرفون !

فقال هنرى أوبر وهو ينظر الى هارون :

– شىء يثير الاهتمام حقاً •

ساد صمت محرج • ملاً هوثورن لنفسه كوباً من الماء ، وهو يبحث

السادة المجتمعين بأدب على تجنب الانفعال فى مناقشاتهم •

كان هارون أول من قطع الصمت ، فقال ، موجهاً كلامه الى ماكهيث ،

بلهجة لا تفتقر الى الود ، وبروح دعابة جنائزية ، كتلك التى قد

يتكلفها رجل يصعد درج المشقة :

– طيب ياسيد ماكهيث • لننظر الان فيما لدينا • لدينا ، فيما

أرى ، أنك ترأس مجلس ادارة شركة م.م.م وفى الوقت ذاته تدير
بنك الائتمان الاهلي . تمام ؟

أوما ماك برأسه مؤمنا على صحة هذا الكلام . فقال هارون موجهها
الكلام ، هذه المرة ، الى صاحبيه :

– اذن فهذا يغير الوضع تماما . اذا لم أكن مخطئا – وليس هناك
من سبب يجعلنى مخطئا – يستطيع كرستون ، وهو مطمئن ، أن
يتوقع شحنات جديدة من البضائع من شركة م.م.م . وليسمح لى مستر
هو ثورن أن أقول ، بغير انفعال ، أنه يبدو أن العلاقات العائلية ،
والعلاقات العملية ، والعلاقات الودية أيضا ، قد تضافرت فى هذه
الجمالة على خلق جو من الوثام البالغ فى المعسكر المقابل . وذلك
يدعونا الى أن نسأل أنفسنا : هل هناك ما يدعو حقا الى
وجود معسكرين متقابلين ؟ بوسعنا أن نتوصل الى اتفاق غدا ، لكننا
نستطيع أن نتفاهم اليوم أيضا . والان هو احسن الاوقات ايها السادة !
فما رأيكما ؟

قال ماكهيث مساندا :

– ان شركة م.م.م. منظمة قوية للغاية . ليس فى ذلك شك . وهى
تظل كذلك طالما كانت الاسعار التى تباع بها منخفضة ، لكنها فى مستوى
معقول من الانخفاض ، بعكس ما حدث ، لسوء الحظ ، مؤخرا . الذى
أريد أن أقوله صراحة هو أن الضغط الذى وقع بسبب تخفيض الاسعار
على المحلات التى لا تنتمى الى مجموعتنا قد احدث أثره . ذلك الاثر
كان وباء من حالات الافلاس . وهو وباء يؤسف له من الناحية الانسانية
البحثة ، أما من ناحية الاعمال فانه شئ أشبه بفصد الدم الفاسد ،
فهو علاج ناجع سيصبح لتجارة التجزئة ان تسترد عافيتها بسرعة ،
وتقف على قدميها من جديد ، فوق أنه سيهيب كميات لا يستهان بها
من البضائع يمكن شراؤها بأسعار غاية فى الانخفاض من المحلات المفلسة
وذلك هو ما ينبغى أن يكون : المرضى والضعفاء يموتون ، والاقوياء يقاتلون
ياسادتى !

جلس هارون منصتا الى كل كلمة وهو يفحص اظافر يديه كأنه
يكتشفها لأول مرة . ولم يبد أن أحدا من الحاضرين يريد أن يقول
شيئا ، فاستطرد ماكهيث قائلا :

– أنت مدرك طبيعا يا عزيزى هارون أنه ليس من المرغوب فيه أبدا ان
نعلن تراجعنا عن أسبوع مبيعاتنا الذى ظللنا نعلن عنه طيلة ذلك الوقت

وماعليك الا أن تذكر أن جمهور المشترين اللندنى برمته قد تتبع معركتنا في ساحة المنافسة كما لو كان يرقب مباراة رياضية كبرى . ولذلك فان الذى ينسحب الان دون ان يواصل اللعب لن يحظى الا باستهجان الجمهور . لكن الامر يختلف تماما اذا ماتفير الوضع ، فاندمجت الشركات الثلاث في كومبينة واحدة تستطيع آئذ ان تلقى ذلك الاوكازيون ، ان شاءت ، دون ان يلومها احد ، او ان تستمر فيه . قال هارون .

— تعنى أنك ستجهز علينا بالقيام بأسبوع المبيعات بمفردك اذا لم نتوصل الى اتفاق معك ؟ ولكن من أين لك البضائع ؟ ألم تصبح مخازن شركة م.م.م.م. خاوية ؟
قال ماكهيث ببساطة :

— كانت كذلك الى عهد قريب . لكنى اشتريت مؤخرا كميات كبيرة من البضائع — من كرستون ، كانت اغلى قليلا من تلك التى توردها شركة م.م.م.م. لكنها ليست بالاسعار المرتفعة التى تباع بها في السوق العادية .
فقال هارون :

— تلك الكومبينة التى تقترحها ، سيكون لك وضع غير عادى فيها ياماكيث بوصفك رئيسا لمجلس ادارة شركة م.م.م.م.

قال ماك دون أن يظرف له رمش :

— قل أنى سأتحمل مسئوليات غير عادية !

نظر اليه هارون لحظة ثم التفت الى صاحبي البنك التجارى قائلا :
— هه ، مارأيكما ؟

نظر هنرى أوبر الى أخيه ، ثم قال بحددة :

— تريد رأينا ؟ سأقول لك . فيما يخصنى أنا على الاقل ، ارى الا تكون لنا أية صلة على الاطلاق بالسيد ماكهيث . وأرجو أن تتفضل الان بالانصراف معنا ياسيد هارون اذا سمحت .
ثم وقف ، وحذا أخوه خذوه .

نظر اليهما هارون والتعاسة مرسومة على وجهه المفجع أصلا ، ثم قال بنبرة ناثحة ، دون أن يتحرك من مقعده :

— ولكن لم ؟ لم لاتستمعان اليه على الاقل ؟

جدجه هنرى أوبر بنظرة احتقار ثلجية ، ثم استدار دون أن ينيسن فاوما للحاضرين بتحية مقتضبة من رأسه ، وانصرف وأخوه كلاسيكى

الزرعة في اعقابه ، واضعا على شفثيه ابتسامة رواقية .

قال هارون وعيناه اليهوديتان تمنعان النظر في أوجه المجتمعين .
- صديقي مفتقر الى روح الدعابة . لاشك في ذلك . والا لكان قد
ظل معنا . أنا ، مثلا ، بقيت لانى أتمتع بروح الدعابة . فالامر فكه
للفتاة .

لكنه مالبث أن اضااف وهو يتميز غيظا :
- لا أستطيع أن انصرف وشركتى مهددة بالخراب

فلما لم يقل احد شيئا استطرد قائلا :
- لكننا لا يجب أن نتهور . فهناك مسألة يجب أن نتدبرها جيدا
قبل أن تتأزم الامور بسببها ، تلك المسألة هي : هل نستطيع أن نستغنى
عن تمويل البنك التجارى ؟

وهنا فتح مستر بيتشام شفثيه المطبقتين ، فاشترك - لأول مرة -
في المناقشة . قال لليهودى بجفاء ، وشيء من العجرفة :

- اظن أن زوج ابنتى يستطيع أن يطمئنك من هذه الناحية . فشركة
النقل البحرى ، التى أمثلها ، لم تتعرض ، لحسن الحظ ، لاية خسائر
مالية بسبب الكارثة المخيفة ، والمؤلة ، التى لحقت باحدى سفنها .
وهكذا فان الله قد وقانا شر الاضرار المالية التى كان من الممكن أن تلحق
بانجلترا فوق مالحق بها من ضرر تمثل فيما خسرتة من ارواح غالية .
نحمد الله على اى حال . وبوسعى أن اسر اليكم أن شركتنا تستطيع أن
تتوقع عقدا آخر مع الحكومة . ولهذا فانى ، مؤقتا - على الاقل - والى
ان أبدأ فى تحقيق خطط معينة أفكر فيها حاليا ، فى مركز يمكننى من
ان أقدم اللعم المادى الذى قد تحتاجه كومبينة واعدة بكل خير كتلك
التى يقترحها زوج ابنتى ويدعو السيدين كرسستون وهارون الى
الانضمام اليها .

أحنى هارون رأسه ، وتهدل جسمه فى مقعده ، وقد تبخر أمله
الاخير . ثم رفع رأسه ونظر الى ماكهيث وكأنه يحلم ، وقال بصوت
خافت لالون له :

- برفاؤ ماكهيث . لقد اجهزت علينا جميعا . اظننى مستطيعا أن
ارى خطتك البارعة بكل جلاء الان . فقد استخدمت بضائعك ذات
الأثمان التى لاتصدق لكى تستدرجنا أنا والبنك التجارى الى الدخول
فى منافسة قاتلة مع كرسستون ، ثم ما لبثت أن استدرت الى هذا الاخير ،
فجعلته يجثو على ركبتيه . وعندما أوشك على الانهيار وسحب كل

ما أمكنه سحبه من أموال بنك الائتمان الاهلى ، حتى يستطيع ان يستمر
فى البيع بنفس الاسعار التى كنا نبيع بها نحن ، جعلت بنك الائتمان
يتوقف عن تمويله . واذاك استبدت الينا ، فى اللحظة التى بلغ الصراع
فيها ذروته ، فأوقفت سيل البضائع الذى كان يتدفق علينا من مخازن
شركة م.م.م . وأوقفته فى نفس الوقت عن محلاتك حرف «ب» ، حتى
لا تثير شكوكنا . وهانت الان تعزلنا عن البنك التجارى كما عزلت
كروستون عن الاهلى . ضربة معلم ياصاح ، ضربة معلم ! رائع والله !
يجب ان نناقش خطتك مناقشة اكمل فى وقت آخر ، وربما دعوتك الى
زجاجة معتقة ، حتى تكتمل متعتنا ! ولكن كفانا الان حديثا فى العمل .
فالكل فيما ارى على احر من الجمر لحضور الصلاة التى ستقام على
أرواح الشهداء . وقد أزف الوقت . ولا اظننا مستطيعين - على اية
حال - ان نناقش اية تفاصيل اخرى اليوم .

هز الجميع رءوسهم مؤمنين ، وقد باتت الكومبينة التى تجمع اكبر
محلات تجارة التجزئة تحت ادارة مستر ماكهيث امرا واقعا لا يقبل
النقاش .

وفى غرفة مجاورة كانت فانى وبولى قد استمتعنا بوقتها للغاية ،
بينما ماك فى غرفة الاجتماع يجهز على كل أولئك السادة ، ويضع مستر
بيتشام تحت ابطه .

أخذت فانى تروى لبولى ، وهى مفرقة فى الضحك ، ما فعله أصحاب
محلات حرف «ب» الذين حضروا المحاكمة . فبعد صدور الحكم
بالبراءة ، اشترك أولئك الناس وزوجاتهم فى البحث عن ماك وعندما
انصرفوا ، سارت فانى وراءهم وهى تنصت لما يقولون . كانوا فرحين
بنجاة ماك الذى تحزبوا ضده كلهم منذ قليل . كانوا يتحرقون شوقا
لان يشدوا على يده مهنئين . وفى نفس الوقت أخذوا يشتمون الاستاذ
والى - الذى كانوا قد اتخذوه بطلا لهم منذ قليل - ويلعنون ارومة
أجداده ، ولو طالته أيديهم فى تلك اللحظة لأشبعوه ضربا ، لانه ، فى
بداية المحاكمة ، كان يعمل على شنق ماك . أخذوا يقولون لبعضهم بعضا
غاضبين :

- ابن الحرام والى ! كان يريد ان يتسبب فى شنق مستر ماكهيث!
لابد أنه كانت لديه أسباب قدرة تدفعه الى ذلك !

والاطرف من ذلك كله ، فيما قالت فانى لبولى وهى ممعنة فى الضحك
ان دليل البراءة الذى جعل أولئك الناس يفرحون بذلك الشكل ، ويهللون

لانه تسبب في انقاذ عنق ماكهيت من حيل المشنقة ، كان حضوره اجتمع
مجلس ادارة شركة م.م.م. الذي تقرر فيه ايقاف توريد البضائع
وتسبب بذلك في خراب بيوتهم .

فضحكت بولى ملء بطنها لعبط اولئك الناس . ثم اخذتا تناقشان
موضات الخريف المقبل . وعندما انفض الاجتماع ، كانت كل منهما قد
دعت الاخرى لزيارتها في بيتها . ولو ان بولى ، رغم مرحها البادى ،
كانت تحس بعضا من القلق والتوتر ، بسبب تلك المقابلة الاولى التي
تم بين ابوها وماكهيت .

لكنها ما لبثت ان رأت بيتشام يخرج من غرفة الاجتماع مع زوجها ،
فيسر كل منهما بجوار الاخر ، صامتا ، غارقا في التفكير

ذهبوا الى الكاتدرائية في اربع عربات ، انفردت بولى بزوجها في
واحدة منها ، فاخذت يده بين يديها ، لان حبهما العظيم قد انتصر على
كل العقبات .

كان الضباب قد تكاثف أكثر أثناء الاجتماع الذي عقد في بنك الائتمان
الاهلي ، فاضطرت العربات الى التباطؤ ، وحوذيوها يتوقفون في مفترقات
الطرق فيتناقشون في الاتجاه الذي يجب ان يسيروا فيه ، لان احدا
منهم لا يرى الى ابعد من انفه في الضباب .

في العربة الثانية كان بيتشام ، وبلومزبرى ، وفانى . اخذ بلومزبرى
يتحدث بحماس بالغ ، معددا مناقب صديقه ماكهيت والمزايا التي يتمتع
بها . قال بتبجيل :

— لم ار احدا مثله يتمتع بهذه القدرة على العمل . لا يراه المرء الا
غارقا في العمل الى اذنيه . وهو لا يفكر في نفسه ابدا . لا يفكر الا في
أعماله . ولا يكاد يخلد الى الراحة ابدا . يتوقف عن العمل ظهرا ليزدرد
بضع لقيمات سريعة لا يجد الوقت الكافي ليمضفها جيدا ، وأشك كثيرا
في انه يتذوق لها طعما . وحياته كلها هكذا ، عمل في عمل ، فلا يعطى
لنفسه اجازة الا عندما يدخل السجن !

جلس بيتشام منصتا الى ذلك المديح وقد بدت عليه الشيخوخة فجأة
وبات لون وجهه رماديا . كان خوف ثقيل يعصر احشائه . اخذ يحملق
في الضباب ، فتترأى له اشباح رجال يسرون زرافات رافعين لافتات
كتبت عليها شعارات بشعة كان ذهنه الملتوى هو الذي تفتق عنها .

استند بظهره الى المقعد وهو يعزى نفسه تارة ، ويصور لها اسود
الصور تارة اخرى :

— هذا الضباب رحمة من الله . لكنه قد ينقشع في اية لحظة . واذ
ذاك يمكن أن يحدث أى شيء . أى شيطان جعلنى أفكر فى هذه الخطة
الخرقاء ؟ العادة . لقد عشت حياتى كلها أكسب لقمتى بتهديد
الاخرين وابتزاز نفودهم . لكنى فى هذه المرة ذهبت فى ذلك الى أبعد
مما يجب . وقد تكلفنى هذه اللعبة عنقى . لقد أردت أن أهدد هؤلاء
الحمقى فأوقظهم . لكن من يدرى ماالذى يمكن أن يحدث الان . ان
أملى الوحيد معلق بالبوليس . ولكن من يضمن لى أن ينجح البوليس ؟
انهم سيضطرون هم أيضا الى السير فى الضباب ، فوق أنهم لايعرفون
ماالذى يتعين عليهم أن يواجهوه فى هذه المعركة . فلاشك ان احدا منهم
لم ير فى حياته لافتات كهذه التى سوف يصطدمون بها ، أو يخطر له
ببال أنه سيضطر ذات يوم الى مواجهة أناس يحملون لافتات مثلها .
رباه ! هذا فظيع بحق !

كان جروتش فى العربة التى أقلت كركستون وهارون ، وسكرتير هذا
الاخير الذى ظل معه بناء على طلبه .

بدا واضحا أن سائقى العربات ليسوا واثقين بأنهم يسرون فى
الطريق المفضى الى الكاتدرائية . فتوقفوا أكثر من مرة ، وأخذوا ينادون
على بعضهم بعضا مستفسرين عن الطريق ، بل وعادوا أدراجهم فى احدى
المرات . ثم أخذوا يستوقفون المارة ويسألونهم ، لكن هؤلاء لم يكونوا
أقل منهم جهلا بالاتجاه الذى ينبغى أن يسيروا فيه ، فظلوا يتخبطون
الى أن قيض لهم شرطى اعطاهم بعض الارشادات ، فأخذوا يسوطون
جيادهم ، مسرعين بعرباتهم ، وكانهم قد باتوا الان على يقين من الطريق
الذى يجب أن يسلكوه .

لكنهم لم يصلوا الى غايتهم ، وأخذ ماكهيث يصيح بهم مستحفا من
داخل عربته :

— الى كاتدرائية القديس بولس !

كانه جنرال يقود حملة .

ثم توقفت العربات من جديد ، وترجل هارون وجروتش ، فعبرا
الشارع ، وأخذا يحملقان فى الضباب ، وصاحا قائلين أنهما يريان
حقولا على جانب الطريق .

فعدد الحوذية اجتماعا ، وأخذوا يعدون الاماكن التى توجد بها حقول
على جانب الطريق . غير أنهم لم يتفقوا على رأى ، فواصلوا السير على
اى حال .

قال هوثورن بكآبة ليللر ، وقد استقل القرن ونصف قرن العربية
الآخيرة وحدهما :

- لم يعد احد يعرف له رأسا من قدمين الان !
بعد نصف ساعة أخرى من ذلك التخبط ، عيل صبر ماك فقال
لبولى :

- سنترجل عند الناصية التالية فندخل أقرب بيت نجده فى طريقنا
لأنستطيع أن نستمر هكذا الى مالانهاية .
وترجل بالفعل ، فحذا الجميع حذوه .

كان أول مبنى عثروا عليه فى الضباب ذا حائط مرتفع ، وقد بدا لهم
ضحما ، ولو أنه لم يكن بالوسع تمييز أى شىء بوضوح فى الضباب .
ساروا بحذاء الحائط وقتا طويلا دون أن يتمكنوا من العثور على الباب
فلما عثروا عليه تبينوا انهم جاءوا - كأنما قوة خفية تقودهم - الى
سجن اولديلى ، فوجموا كلهم لحظة ، ثم ضحك ماك ، فانفجروا كلهم
ضاحكين ، وداروا على أعقابهم ، وركبوا عرباتهم ، وقد بدا واضحا
أنهم ضلوا الطريق تماما .

سأقت اليهم الصدفة بعد ذلك شرطيا ارشدهم الى الطريق باهتمام ،
عندما علم أنهم يحملون دعوات خاصة لحضور الصلاة فى كاتدرائية
القديس بولس . لكنهم وصلوا متأخرين ساعة بأكملها .

لم يكن هناك حشد يذكر خارج الكاتدرائية . مجرد جمع من الجنود
يشحذون وقد أغرقهم المطر وبدت عليهم التعاسة .

أطل بيتشام من عربته وهو لا يصدق عينيه . عرف رجاله على الفور ،
فترجل ، وانتحى جانبا بواحد منهم وسأله عن حقيقة ما حدث ، فعلم
منه أن بيرى لم يتمكن من اللحاق بهم فى مكان التجمع ، لكن المظاهرة ،
مع ذلك ، لم تحدث . قال الرجل أن تمردا حقيقيا وقع بين صفوف
الشحاذين فى ذلك الصباح ، فالتقوا باللافتات فى النهر ، وأفضين أن
يضيعوا يوما كهذا - تروج فيه أحوال الشحاذة ، ويعطى الخيرون عن
طيب خاطر - فى حمل اللافتات .

قال شحاذ آخر لبيتشام :

- راينا انه من الأفضل الا نسترعى انتباه البوليس . فالجمهور
اليوم مستعد للبذل بسخاء ، حتى لا يشبط همة الجنود المساكين بيخله
المعهد ، ويشنيهم عن الجود بأذرعهم وسيقتانهم فى سبيل عظمة أنجلترا
ومجدها الخالد . وتلك فرصة لا يجود الدهر بمثلها للشحاذة : فأى

شحاذا عاقل يضحي بمثل تلك الفرصة ليمثل دور جندي يتظاهر ضد
اناس لا يعرفهم في الحكومة متهما اياهم بأنهم يخونون الجنود ويسرقون
الشعب وما الى ذلك ؟ وماذا عن اكل عيشنا ؟ ماالذي يعيننا نحن من
كل ذلك ؟ في القدر ان يتسامح البوليس مع امثالنا من الجنود الجرحى ،
لكن الكل يحتفون اليوم بهم ، ويجودون عليهم بسخاء . يامستر بيتشام
ان المرء لاقتاح له فرصة كهذه كل يوم تفرق فيه ناقلة جنود بكل من
عليها . الافضل ، ان كنت مصرا على ان نتظاهر ضد الفساد ، ان نفعل
ذلك في اوقات الكساد !

بفضل ذلك التفكير المنطقي ، تفرقت المظاهرة قبل ان تبدأ ، وانصرف
الشحاذون الى تنظيم صفوفهم ، فانتشروا في كل شارع من الشوارع
المحيطة بالكاتدرائية . لكن الضباب كان عائقا خطيرا اوقعهم في مشكلات
لا نهاية لها . فقد وجدوا انفسهم ، مرة بعد مرة ، يشحاذون من اناس
حكوميين ، بدلا من ان يشحاذوا من اقارب الضحايا .

وهكذا نجا مستر بيتشام من الورطة المخيفة التي اوشك ان يوقع
نفسه والآخرين فيها فيفتح عيون الناس وينبههم الى اشياء ليس هناك
ما يدعوا الى تنبيههم اليها ، فدخل الكاتدرائية متنفسا الصعداء ، مرتاح
الضمير . لكنه قرر ، فيما بينه وبين نفسه ، ان يلحق شحاذيه درسا
لا ينسونه - فيما بعد - يعلمهم الا يتمردوا ثانية ابدا او يعصوا اوامرهم ،
كمسألة نظام ، رغم ان عصيانهم - هذه المرة - قد انقذ عنقه .

لم يتخلف احد له وزن عن حضور الصلاة . حتى مستر هيل الذي
يعود اليه فضل تعاقد الاميرالية ، من خلال المرحوم كوكس ، مع شركة
النقل البحري . ولو ان الجميع تأخروا كثيرا .

فعندما دخل مستر بيتشام الكاتدرائية وجدها شبه خالية ، وقد
جلت عمدانها بالسواد ، وتراكمت تحت منبرها باقات الزهور .

لم تكن الصلاة قد بدأت بعد . ولم يكن حرس الشرف قد وصل .
فقد تاه افراد الفصيلة في الضباب ، وظلوا يتخبطون في شوارع وازقة
تشلسيا الى ان وصلوا الى شاطيء التيمز ، وأوشكوا ان يغرقوا بدورهم ،
فيلحقوا بزملائهم الذين غرقوا في بحر الشمال .

عادوا ادراجهم وهم يسبون ويلعنون ، وعندما وصلوا الكاتدرائية
اخيرا ، لم يكن رجال الدين الذين سيقومون بالصلاة قد وصلوا بعد .
فقد ضلوا الطريق بدورهم في الضباب ، وتاهوا في ازقة سميثفيلدماركت
واختلط الامر على الاسقف الذي كان يحمل الموعدة الجنائزية في جيبه

فأخذ يبحث عن أحد يرشده الى الطريق ، لكنه ما لبث ان وجد نفسه فجأة وسط قطيع من الماشية والنعاج كان يساق الى الذبح . فتشام من ذلك وتطير ، وركبه الذعر . وعندما اكتشفه بعض العمال صدفة ، كان جالسا يرتعش وحده في حظيرة أغنام خالية .
عندما وصل رجال الدين بدأت صلاة الغائب على أرواح ضحايا « المتفائل » .

جاء ممثلون للحكومة من كل وزارة ومصلحة . رأى ماكهيث صديقه براون جالسا بجوار موظف كبير ، كثيراً ما رأى صورته في المجلات الاسبوعية . أحس سعادة حقيقية وهو يرى صديقه في ذلك المكان الرفيع الذي لا تطاوله يد رجل الشارع ، وأحس بالفخر .

ورأى بيتشام صاحبه هيل بجوار براون . فنظر اليه هناك بأعلى وإطمأن الى أن عقد سفن ساوثمبتون لن يفلت من يده .

أما المقاعد التي خططت للجمهور فكانت نصف خالية ، لان كثيرين من اقارب الضحايا لم يتمكنوا من الوصول في الموعد على أقدامهم ، في ذلك الضباب ، فظلوا يتخطبون في الشوارع ، يسألون المارة ، بل ويقرمعون على ابواب البيوت ، ويدخلون الحوانيت ، راجين أن يدلهم أحد على المكان الذي تجرى فيه الصلاة على أرواح ابنائهم ، وآبائهم ، واخوتهم ، وأزواجهم .

بدأ الاحتفال بعزف مهيب على الارغن ، ثم بدأ الاسقف ، وهو مازال يرتعد بتأثير مغامرته في حى المذبح ، في القاء موعظته ، التي استهلها بهذه الكلمات من أنجيل لوقا : (١)

— انسان شريف الجنس ذهب الى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع ، فدعا عشرة عبيد له وأعطى كلا منهم جنيها ، وقال لهم تاجروا حتى أرجع .

روى الاسقف لسامعيه بعد ذلك كيف عاد ذلك النبيل فطلب عبيده الذين أعطاهم الفضة فاكتشف ان أولهم قد تاجر فكسب جنيهاً عشرة فقال له نعماً أيها العبد الصالح ، لانك كنت أميناً في القليل فليكن لك سلطان على عشر مدن . ثم جاء الثاني فقال ياسيد عبدك قد كسب خمسة ، فقال لهذا كن أنت على خمس مدن . ثم جاء الثالث وقال ياسيد هوذا مالك الذي أعطيت له لي ، كان عندي موضوعاً في مندبل ، لم يزد ولم ينقص . فأخذ السيد الجنيه وأعطاه للذي عنده عشرة . وقال

انى اقول لكم ان كل من لديه يعطى ويزيده الله من عنده ، ومن ليس عنده فالذى عنده يؤخذ منه .

على ذلك المثل بنى الاسقف موعظته . قال يا اصدقائى اسمعوا . الكارثة التى وقعت للمتفائل فى عرض البحر قد اشعلت فى القلوب حماسا ، وبعثت موجة عارمة من الوطنية اجتاحت بلادنا من ادناها الى اقصاها . وكأنما التجربة التى امتحننت بها بلادنا قد فتحت عيوننا على رسالة انجلترا ، وهى رسالة يبدو ان الامة كلها كانت قد نسيتها الى ان ايقظتها انباء الكارثة . ثم قال ما الذى اعنيه ايها الاصدقاء بقولى ان العيون قد فتحت ؟ سأقول لكم . ان كل حادث فى الحياة - وماحياة الانسان على هذه الارض الا هذه الاحداث التى تتعاقب - كل حادث له وجه وله ظهر . هناك مقدمة الصورة فى كل ما يحدث ، حتى فى كارثة ككارثة المتفائل ، وهناك الخلفية . وهناك من الناس من يرون ذلك الجزء الامامى ، ولا يرون الخلفية ، رغم ان الخلفية - فى الواقع - هى الاهم ، والذى يراها يرى الحياة .

أضف القس بعد ذلك بصوت يفيض طيبة : دعونى اسألكم الان ايها الاصدقاء ، ما هى خلفية الكارثة التى اصابتنا بهذه الصدمة العنيفة ؟

مال الاسقف الى الورا حتى وقف منتصب القامة ، فأخذ يجيل بصره فى المصلين الذين تراصوا تحته ، ممثلى الحكومة ، وموظفى الاميرالية يتقدمهم مستر هيل ، وزجال الاعمال وبينهم مستر بيتشام واقارب الضحايا ، واقارب الابطال الذين فى جنوب افريقيا يقاتلون فى سبيل الامبراطورية .

بعد تلك المعاينة - التى اتسمت بالبرود - لسامعيه ، واصل الاسقف عظته ، فقال يا اصدقائى ان هذا السيد الذى يحدثنا عنه الكتاب المقدس سيد صارم . سيد لا يتهاون فى حقه ، فيطالب بماله زائدا ربحه ، وربحه المركب . والعبد الذى يعيد اليه جنيته بغير ربح يلقي به فى الظلمة الخارجية حيث العويل وصرير الاسنان . نعم يا اصدقائى . ان الله العلى القدير ، الذى يرمز اليه بالسيد فى هذه الحكاية ، هو الله ربنا ، وهو رب صارم ، يطالب بحقه كاملا . لكنه ايضا يا اصدقائى رب عادل ورحيم . فهو لا يطلب نفس الربح من كل عبد من عبده ، بل يأخذ عشرة من هذا وخمسة من ذاك . الا الجنيه الذى يرده ذلك العبد الكافر الجاحد الكسول ، فيرفض . لان ذلك العبد يكون قد خذل ربه . وجزاء وفاقا له يؤخذ منه حتى ذلك الجنيه

القيمة الذي يكون معه ، رأس المال الاصلى الذي اعطى له ليستثمره .
 والمفزى العميق لهذه الحكاية يمكن أن نلخصه في هذه العبارة المدهشة:
 « لكل حسب موارده » . والموارد ليست المال فحسب ، بل المواهب
 والقدرات أيضا . ونحن حينما ذهبنا في هذا العالم وجدنا عدم
 المساواة . كل انسان يدخل العالم عاريا ، صفيرا ، بلا حول ، ولا يحس
 أدنى حجل لذلك ، لانه - اذ ذاك - لا يختلف عن اى رضيع آخر ،
 فتلك هى مرحلة المساواة الكاملة . لكن بعد ذلك تبدأ ضروب التباين
 في الظهور ، ويبدأ عدم المساواة ، فيظل هذا في درجة أدنى بينما
 يصعد ذاك درجة بعد درجة الى النجاح . فهو امهر من اخوته بنى
 البشر ، وهو اكثر جلدا وقدرة على العمل ، واكثر ميلا الى الاقتصاد
 والحرص على النقود ، واشد نشاطا . او - باختصار - متفوق على
 غيره في كل شىء . ولذلك فان الله يفتح عليه ، ويمن عليه ، ويعطيه ،
 ويجعله اقوى ، واغنى ، واكثر احتراما ، من كل من عداه . فيتضح
 انعدام المساواة اكثر فاكثر . ولكن كيف ينظر الله الى ذلك كله ؟ هل
 يميز بين عبيده تبعا لمستوياتهم المتباينة على الارض ؟ هل يحب الانسان
 الاكثر كفاءة وقدرة أكثر مما يحب الانسان الخائب الاقل قدرة وموهبة؟
 كلا يا اصدقائى . الله لا يفعل ذلك . كل ما هنالك انه يقسم الارزاق .
 او بالاحرى يقسم مكافآته لعبيده ، فيعطى هذا عشر مدن ، وذاك
 خمس مدن ، تبعا لما انجزه كل منهم . وفيما عدا ذلك لا يعترف الله
 باى فرق بين عبيده . فيما عدا ذلك يحب الله عباده بنفس القوة .
 وذلك يا اصدقائى هو معنى المساواة أمام الله !

توقف الاسقف لحظة ريثما يلتقط أنفاسه ، ثم انطلق في طريقه
 ثانية ، فقال يجب أن نأخذ لنا موعظة من هذا كله ، ونتعلم كيف يجب
 أن ننظر الى كارثة المركب التى فرقت . أن بلادنا قد أنعم الله عليها
 برجال عظام يحققون لها انجازات رائعة بحق ، فرجال الدولة عندنا
 يمسكون ليل نهار بدفة السفينة . وجنرالاتها تؤلمهم ظهورهم من طول
 انحناء على خرائطهم وهم يضعون الخطط ويعملون لما فيه مجد الوطن .
 ونحن هنا ، على المنبر ، تؤدى دورنا بوصفنا رجال الله المختارين ،
 فنقوى ايمان الشعب ، ونسوقه وراء قادته . كل يؤدى واجبه .
 والجنود واجبهم أن يركبوا السفن ، وأن يفرقوا معها ، اذا كانت تلك
 ارادة الله العلى القدير ، الحكيم ، العالم بكل شىء . الله اعطى والله
 اخذ . مالنا نحن ومال الرب اذ يسترد وديعته ؟ الله هو السيد الذى

اعطى كل واحد منا جنيها ، وعلى كل واحد منا أن يعيد الى الله جنيها
وفوقه فائدته . وأولئك الجنود أيضا . لكننا جميعا نساعد
بريطانيا على أن تزيد باستمرار الجنيه الذي أعطاه لها الرب ، بحيث
يكون في وسعنا ، عندما ننتقل من دار الفناء الى دار البقاء ونقف أمام
عرشه عز وجل ، أن نشير على وطننا ونقول : لقد أعطينا رجال دولة
وجنرالات ، وتجارا ، وجنودا ، فانظر يارباه مالذي فعلناه بهم !
ونحن يا اخوتي اذا نظرنا هذه النظرة الى كل ما يحدث ، فأخذنا ما هو
خير مع ما هو شر ، فاننا لن نرى مقدمة الصورة قيما يخص كارثة
قومية كغرق « المتفائل » بالطريقة التي يراها بها أولئك الناس الذين
لصقت نفوسهم بالتراب ، وأصبحوا حسيين في كل شيء ، لاننا
ستنقش العشاة التي فوق عيوننا ، ونستطيع أن نبصر خلفية
الصورة - واذ ذاك ندرك ان جنودنا وبحارتنا ، وان لم يصلوا الى
العدو ليقاتلوه ، لم يموتوا عبثا ، واذ ذاك نتبين ان تلك السفينة التي
غرقت في الضباب لم تحمل اسم « المتفائل » عبثا ، لان تغاؤلها ،
يا أصدقائي ، أن هو الا الأمل الأسمى الذي مامن شك في أنه كان ملء
قلوب من كانوا عليها وهم يهبطون الى قاع البحر ، الأمل في أن ترى
الامة مصرها ومصيرهم على حقيقته ، لا بوصفه كارثة قومية ، بل
بوصفه انجازا قوميا ، واذ ذاك تكون قد تسبنا شيئا حتى من تلك
السفينة التي غرقت : وتكون السفينة وكل رجالها معها قد دفعوا
الريح المستحق عليها وعليهم ، ورحا مركبا حلالا ، يارباه !

بعد القداس ذهب مستر بيتشام ، ومستر ومسز ما كهيث ، مع
السيدين مديري بنك الائتمان الاهلي والسادة هارون وكريستون
وخلافه ، الى مطعم مجاور ، لانه ساعة لقلبك وساعة لربك كما يقولون .
وقد أحس كل اولئك السادة والسيدات بأنهم قاموا بواجبهم
خير قيام ، وأصبح من حق انفسهم عليهم ان يمتنعوا انفسهم قليلا ،
 ويفرحوا بنعم الله عليهم . وقد كان السيد ما كهيث والسيدة
حرمة محط الإعجاب وسط ذلك الجمع ، فوقفا يتلقيان التهانى والمديح
والتبريك من كل جانب .

كان مستر هارون العظيم أول المتكلمين ، فقال سيداتي سادتي ان
اليوم علامة هامة من علامات الطريق في تاريخ تجارة القطاعي ببلادنا
العظيمة . فالיום استولى على مركز القيادة في إحدى مؤسسات
التجزئة الكبرى رجل لابد اننا كلنا قد عرفناه جيدا خلال الشهور

للقليلة الاخيرة ، وادركنا انه احد القادة الموهوبين بحق الذين ولدوا ليكونوا قادة في هذا المجال الحيوى . والحقيقة اننا يجب ان نسعد لان ذلك الرجل العظيم ، ابتداء من الفد ، سوف يولى مصالحننا المشتركة كل عنايته واهتمامه ، ويكرس لها قدراته الخارقة ، التى حبرناها كلنا جيدا - وبراعته الفذة فى تحريك الناس على رقعة الشطرنج التى نسميها دنيا المال والاعمال . وليس لدى أدنى شك فى ان الجمهور هو الاخر سوف يحس بهذه القوة الجديدة التى تحرك الاحداث من وراء الستار . فنحن التجار لن نضطر منذ اليوم الى تبديد جهودنا فى المنافسة وحز اعناق بعضنا البعض بغير طائل ، لاننا منذ الان سنكون يدا واحدة ، وجبهة متحدة فى وجه الجمهور، وسوف نخوض معركتنا المقدسة معا - من اجل الغاية المشتركة . لقد سمعنا كلنا منذ قليل الكلمات الرائعة التى قالها قداسة الاسقف عندما حدثنا عن ذلك الجنيه الذى يعطيه الله للناس . وبوسعنا ان نطمئن تمام الاطمئنان الى ان مجلس ادارتنا الجديد ، ومستر ماكهيث على رأسه ممسكا بدفة السفينة ، سوف يعتمر من الجنيه الذى تمثله مجموعتنا العالمية كل بنس تسمح الطاقة البشرية باعتصاره .

اما مستر بيتشام فتقدم باقتراح عجيب فى كلمته . قال لن ادعى انى كنت دائما متحمسا غاية الحماس لزواج ابنتى من مستر ماكهيث والحقيقة انى لم اقتنع بأن البنت قد احسنت الاختيار الا عندما اتبحت لى نظرة سريعة الى أنشطة الاعمال المختلفة التى يمارسها مستر ماكهيث ، فتبين لى أن من اهم مبادئه خدمة الطبقات الدنيا . وقد مس ذلك وترا حساسا فى نفسى ، ولقى استجابة فورية عندى . فمعظم الناس لا يفكرون الا قليلا فى الطبقات الدنيا . وذلك خطأ جسيما . فقد تكون تلك الطبقات اقل ثقافة وتحضرا منا ، وقد تكون فجأة فى سلوكها، وقد لا يكون لديها أدنى وعى بتلك الضرورة التى تقتضى ان يعيش الناس كلهم ، اعلاهم وأدناهم ، فى وفاق ووثاق والا غرق العالم كله ونزل الى مستوى الظروف الحيوانية التى يغلب ان يعيشوا هم فيها ، لكن شيئا من ذلك كله لا يغير الحقيقة الاساسية التى ينبغى لنا ان نعيها جيدا ، وهى ان اولئك الناس جديرون بأن نعترف بوجودهم وأن نأخذهم فى الحسبان . ولا اطيل عليكم ، لانى اود ان اتقدم الان باقتراح عملى . انتم ايها السادة ، وانتم ايضا يازوج ابنتى العزيز ، تبيعون سفرات الحلاقة ، وساعات الحائط ،

واوانى المطبخ واشياء اخرى كثيرة . لكن المرء لا يستطيع ان يعيش بهذه الاشياء وحدها . فهو لا يكتفى ويرضى لمجرد كونه حليق الذقن عارفا كم الساعة الان . يجب عبيكم ان تذهبوا الى ابعد من ذلك . يجب ان تبيعوا الفقىر الثقافة ايضا . نعم ، الثقافة - الكتب . يجب ان تببعوه كتباً رخيصة السعر ، روايات رخيصة ، لا تصور له الحياة فى لون رمادى قائم رتيب ، بل تصبغها له وتزوقها بألوان زاهية براءة : اشياء تفتح للانسان العادى المسكين آفاقاً جديدة على عالم افضل وامتع ، وتوقفه على العادات المهذبة التى يتبعها من هم أعلى منه فى سلم الحياة الاجتماعية ، وتجعله يذوق - ولو بالوكالة - طعم الحياة الرائعة التى تحياها الصفوة ، شرط ان يدرك انها صفوة وأن تلك الحياة حق لها . وأنا لأفكر فى الربح هنا - رغم أنه قد يكون عظيماً - بل أفكر فى الانسانية العمياء المسكينة ، التى نكون بذلك قد ادينا لها خدمة كبرى . خلاصة القول : لا تدعوهم يموتون ملاً . اعطوهم شيئاً من الاثارة ايها السادة .

بعد ان شكر مستر هارون السيد بيتشام - باسم الجميع - على اقتراحه البناء ، وقف هوثورن العجوز فروى للحاضرين ، مازحاً ، حادثاً طريفاً وقع خلال الشهور القليلة الاخيرة . قال لا يستطيع ان انكر ان الذى اقنعنا بان نفعل كل ما بوسعنا ، فى بنك الائتمان الاهلى ، لوضع حد لتلك المنافسة القائلة التى كانت مستعرة بين محلات التجزئة الكبرى ، كان حادثاً ذا صبغة شخصية بحتة . كان ذلك الحادث زيارة قامت بها السيدة ماكهيت ، الجالسة الان بيننا ، لبنى البنك . ولم تقل مسز ماكهيت اثناء تلك الزيارة ، كلمة واحدة تتعلق بالعمل . بل اقتصر حديثها على المسائل الخاصة . لكن كلماتها أثرت فى نفوسنا . فحتى امثالنا من الطاعنين فى السن لهم قلوب تحس وتشعر كسائر الناس - الى حد اننا قررنا ان نزور زوجها المفترى عليه ، الذى كان يتعذب وحده ، بريئاً ومظلوماً : فى زنازنته . وأحب أن أقول لكم أن كل المناقشات التى دارت حول موضوع الادمج قد دارت معه . ولذلك فإن الذى أود ان أوكدّه - رغم ان تأكيدّه قد يبدو عاطفياً أكثر مما ينبغى - ان الذى أخرجنا جميعاً من ذلك الموقف الصعب لم يكن العقل ، بل الحب .

عندما وقفت بولى ، بدت - أكثر من أى وقت مضى - أشبهه بالخوخة الحلوة الناضجة . القت هذه الكلمة القصيرة ، فقالت رغم

ان الرجال لا يروق لهم ان تلقى نحن السيدات خطبا مثلهم ، لانهم يجدون في ذلك اعتداء من جانبنا على حقوقهم ، فاني اود ان اقول كم انا سعيدة لكوني قد اتبعت مشاعري دائما ، فلم اتخل عن حبي لزوجي لحظة . ومن الواضح طبعنا اننا معشر النساء لانستطيع ان نفكر كما يفكر سادة الخليفة ، الرجال ، لكنكم تستطيعون ان تبيينوا من حالتي ان الحب الحقيقي يمكن ان يفى بالغرض هو الاخر ، ويحقق ما يحققه عقل الرجل واكثر ، بشرط ان يكون - ذلك الحب - قويا بما فيه الكفاية ، والا تلقى الواحدة منا بالا الى ما يقوله الناس . ان الخطط البارة التي يضعها الرجال قد تكون نافعة ومفيدة في معظم الاحيان ، لكننا نحن - بنات الجنس الضعيف - قد نكون اكثر نجاحا في بعض الاحيان - بفضل الحب ، رغم ما قد يجده البعض من سخف في هذا القول . مازلت اذكر تلك المرات التي اوشك ماك ، رجل الاعمال الذي يحسب كل شيء بالمكسب والخسارة ، ان يضحى فيها بكل شيء من اجلي مخاطرا بمستقبله كله في سبيلي ، متمسكا بي في وجه كل المخاطر والتهديدات ، انا التي اختارها قلبه . اليس كذلك يا ماك يا حبيبي ؟

أخيرا هم مستر ماكهيت واقفا ، فقال زوجتي العزيزة ، حماي العزيز ، اصدقائي الاعزاء ! انا بوجه عام راض عن الخاتمة التي انتهت اليها امورنا جميعا في هذا اليوم بعد العديد من ضروب الخلاف وسوء التفاهم . واحب ان اصارحكم بغير خفاء : انا رجل شعبي ، من الطبقات الدنيا . ولم تكن حياتي كلها منعمة او حتى مريحة . فلم تتح لي دائما فرصة الجلوس الى مائدة حافلة كهذه ، ونادرا ما جاد على الزمان بجلسة ممتعة مثل هذه الجلسة بين خيار القوم امثالكم . فقد بدأت نشاطي على مستوى محدود للغاية ، وفي مجال اخر غير هذا المجال . لكن مصالحي ، رغم تغير الظروف ، ظلت في معظم امرها واحدة . غالبا ما ينسب نجاح المرء اما الى طموحه او الى لعبة معقدة يكون قد لعبها بنجاح على غيره . واود ان اعترف لكم بمحض ارادتي وبصراحة تامة ، اني لم تكن لدي في اي وقت لعبة هامة اللعبها على احد . اقصى املى كان - وسيظل دائما - ان اقي نفسي غوائل الحاجة ، ان اتجنب ما استطعت العيش على نفقة المحسنين . ولقد كان شعاري دائما : الضعيف يموت والقوى يقاتل . ولا يجب ان تفتنى من الذين يصلون الى القمة هم دائما اناس على شاكلتي . واحب ان اقول

انه اذا كان هناك في القمة الان من تراوده نفسه على مناقضة تلك الحقيقة ، فانه لن يظل في القمة طويلا ، بل سيهوى الى الحضيض .
فانا متفق تمام الاتفاق مع صديقي هارون فيما قرره الان من ان دنيا الاعمال تحتاج دائما الى رجال من طرازي . فما اقل الذين يستطيعون ان يحققوا اى ربح من الجنيه الذى تنعم به العناية الالهيه عليهم .
ولن احاول الان ان اتنبأ بشيء ، لكنى موقن من ان المجموعة التى ستندمج فيها شركاتنا سوف تقوم بالواجب . هناك شيء واحد لا يحتاج الى الايضاح ، وهو ان الاسعار لا يمكن ان تظل منخفضة كما هي الان . واسمحوا لى فى ختام كلمتى أن أرفع الشعار التالى :
الى العلا ، الى الامام ، وليأخذ الشيطان من ينظر ورائه !

ارتسمت على الوجوه ، وماكهيث يقول عباراته الاخيرة ، نظرة تعبر عن جلال الموقف ، وقد أحس الجميع أن زعيمهم قد طرّق موضوعا جوهريا ، وحيويا للغاية : موضوع الاسعار .
فأفرغ كل منهم كأسه فى جوفه وهو مستغرق فى التفكير

خاتمة مؤلمة

جنيه الفقراء

ولكن أولئك الذين جيوبهم خاوية
بالله ماذا يفعلون ؟
يموتون ؟ يرقدون ويدعون أنفسهم يدفنون
بينما العالم يسير في طريقه ، وأمثالنا يمرحون ؟

كلا يا أخي ، لاتنا لن نملأ جيوبنا
إذا ما تركناهم يفعلون !
«هل نسيت أننا بغير كدهم وشقائهم
لن يسمن واحد منا ، ولن تمتلئ البطون ؟ »

حلم العسكري فيوكومبي

فيوكومبي ، العسكري الاعرج ، هو الآخر ، حضر القديس في
كاتدرائية القديس بولس . لم يكن أحد قد رأى وجهه في شارع
أولدأوك ، منذ أن اعتدى على مستر كوكس المسكين ، المرة واحدة ،
يبدو أن الجوع تغلب فيها على حسن تقديره للامور . لكن مستر
بيرى تصرف بحسم ، فألقاه خارجا بغير امهال .

وهو مايرينا أنه لم يذهب الى كاتدرائية انقديس بولس بدافع
من ورع جاوز حده ، بل بدافع من امل في اغتنام فرصة يتحدث
فيها الى مستر بيتشام . كان العسكري يعرف طبعاً أن مخدومه
مستر بيتشام له صلة ما بموضوع تلك السفينة التي غرقت . غير
أن ذهابه الى الكاتدرائية كان دون جدوى لانه لم يستطع طبعاً أن

يقترّب منه . ولذا فانه جلس في الكنيسة ، التماسا للدفع على الأقل ، واستمع فوق ذلك الى العظة التي القاها قداسة الاسقف عن تلك الجنيّات التي يعطيها الله للناس ، فتغذى بالروح . لكن الكنيسة ما لبثت أن أغلقت أبوابها ، فوجد العسكري نفسه في الشارع من جديد ، بغير بيت ، ولا أصدقاء ، مضطرا الى التلصص في الأزقة والأركان المظلمة ، خوفا من عيون البوليس اليقظة . كانت حاله تتدهور من يوم الى يوم . ولم يكن يعرف شيئا عن نتيجة المحاكمة التي برىء فيها مستر ماكهيت من دم مسز سوير ، لانه لم يكن يقرأ الجرائد أبدا .

ذات صباح ثلجي في شهر نوفمبر ، وقع حادث مثير بعض الشيء امام فرن أحد الخبازين في حي الميناء . فقد اختطف صبي صغير رغيف خبز من فوق طاولة موضوعة قرب الباب ، وأطلق لساقيه العنان . فأحدث الناس الذين في الفرن هرجا ، وأخذوا يتصايحون في أعقاب الولد حرامي الرغيف ، مما نبه المارة الى خطورة الامر ، فأخذوا يجرون وراءه . والحقيقة أن ذلك الولد أتعبهم بعض الشيء لانه اخذ يجري بسرعة شديدة ، قدر ما سمحت له ساقاه الصغيرتان لكنه لم يذهب طبعاً الى بعيد ، فقد وضع أحدهم قدمه في طريقه عند ناصية أحد الشوارع ، فأوقعه أرضاً على الطوار ، وتكاثر عليه الناس فأمسكوه ، وعادوا به الى الدكان ، ومن هناك أخذوه الى نقطة البوليس بغير امهال ، وعندئذ انصرف المشاهدون وهم يبرطمون . كان بين مطاردي الصبي رجل رث الثياب ، زرى الهيئة ، لا يبدو من السهل تحديد عمره ، ذهب مع الجمهرة التي صحبت الصبي الى نقطة البوليس ، وهناك دار على عقبيه عائداً الى حي الميناء ، وقد تذكر مكانا يمكنه أن يقضى الليلة فيه .

هذا الرجل كان - على وجه التحديد - السبب المباشر في وقوع الصبي في أيدي مطارديه ، لانه هو الذي وضع قدمه في طريقه فأوقعه أرضاً . ولو أنه لم يقصد بذلك أن يسبى الى الصبي ، فقد فعل ما فعل بطريقة ميكانيكية بحتة ، لا تفكير فيها .

عندما وصل الى الكوبري الذي سيقضي ليلته تحته ، أخرج من جيبه لفافة من ورق الصحف ، رخوة ، قوية الرائحة ، فأخذ يأكل ما فيها ، ثم فرش صحيفتين ، أخرجهما من جيبه ، على الأرض ، لينام فوقهما ، لكنه مالبث أن غلغل عن ذلك بسبب برودة الجو .

فجمع ركبتيه تحت ذقنه ، وغطاهما بإصبعيه ، ووضع يديه على ركبتيه ، ثم أسند رأسه الى يديه ، وتكور حول نفسه قدر ما استطاع ، استجلابا للدفع ، ونام . وعندما نام أخذ يحلم :

بعد سنوات من الشقاء جاء يوم النصر . هبت الجماهير التي ظلت نائمة طيلة ذلك الوقت ، فتخلصت من جلاذيتها ، وبنفس موجة المد العاتية تخلصت من المشفقين عليها ، والمحسنين اليها ، وواعدتها خيرا - وقد تبينت أنهم قد يكونون أظلم أعدائها - وازاحت عن عينيها غشاوة الامل ، فانتصرت . واذ ذاك تغير كل شيء . سقطت انحقارة من قمة مجدها ، وأصبح الناس تقاس قيمتهم بمدى نفعهم للآخرين ، وفقد الغباء مزاياه الموروثة ، ولم تعد الوحشية وأكل الناس أحياء هي الطريق الى النجاح ، وحل أخيرا يوم الحساب انذى تأخر مجيئه كثيرا . لم تكن الحقارة هي التي أخرجت مجيئه ، بقدر ما أخره الغباء والوحشية لكنه جاء .

والكل يعرف ما هو يوم الحساب . يوم الحساب هذا ظل الكل يتناقشون في أمره طيلة الوقت بغير انقطاع . من زمان سحيق تتخاذل أمامه الذاكرة والعالم كله يتحدث عنه . كل أمة من كل جنس تخيلته تفصيلا . وقد حاول بعض الناس أن يؤجلوه الى نهاية الزمان . لكن محاولة التسوية هذه باتت مشبوهة . أو مشيرة للفيظ على الأقل ، لان أمن الأرض لم تعد مستطبعة أن تنتظر كل ذلك الوقت . لكن مهما اختلفت الآراء في مواعده ، لم يختلف أحد حول حتمية يوم الحساب في نهاية الحياة لانه ، بعد كل شيء ، سيكون المقدمة الحقيقية لبزوغ الحياة . لانه قبل أن يحل ذلك اليوم ، ويتم ذلك الحساب الأكبر ، لن يكون بوسع أحد بطبيعة الحال أن يتحدث عن أية حياة حقيقية على الأرض .

والان ها هو قد حدث ، يوم الحساب هذا . وجد صاحب الحلم نفسه في مقعد القاضي ، وقد بات هو القاضي . ومن الواضح طبعا أنه لم يصل الى ذلك المنصب المرموق بسهولة ، بل بعد صراع مرير ، بالنظر الى الحشد الرهيب من المرشحين والطامعين في جلال المنصب ، الذين أخذوا يتقاتلون فيما بينهم ويصرخون كالمجانين ، ولكن الذي يحلم حلما لا يمكن أن يمنعه أحد من تحقيق ما يريد في حلمه ، ولذا فان صاحبنا أصبح قاضي المحكمة الوحيدة انجوهية حقا ، الشاملة والعادلة حقا في التاريخ كله .

المحكمة التي ستنتظر أعظم قضية من قضايا الزمان ، وقاضياها جالس لا ليحاكم الأحياء فحسب ، بل والاموات أيضا ، وكل من أساء من أى سبيل الى الفقراء والعزل ، بالقول أو بالفعل .
وهكذا فان مهمة انيسكرى فيوكومبى ، الذي أصبح فجأة القاضى الاعظم ، كانت مهمة مهولة . وقد قدر أن أمامه جلسات ستطول - على الاقل - بضع مئات من السنين ، لان كل من عاش على وجه الارض كان قد اعطى الحق في أن يجهر بشكواه .

أعمل القاضى فكره ، فاستغرقه ذلك بضعة شهور ، ثم قرر أن يبدأ برجل يقال انه ابتكر حكاية الجنيه هذه التي استخدمت على المنابر بنجاح عظيم طيلة ألفى عام ، طبقا لما قانه قداسة الاسقف على الاقل . فقد بدت هذه المسألة للقاضى الاعظم جريمة تستوجب المساءلة بصفة خاصة .

عقدت الجلسة في فناء . ومن العجيب أن ذلك الفناء ، بالرغم من جلال الموقف كان فيه غسيل معلق على الجبال ليحف ، كما حضر المحاكمة أربعة عشر كلبا حبست فى حظائرها أخذت تصفى بانتباه لكل ما يقال ، ولم تكن قد أطمعت بعد ، ولن يطعمها أحد الا بعد ان يصدر الحكم .

تقدم المتهم يقوده شحاذا .
بدا واضحا من ثيابه الرخيصة ، النظيفة مع ذلك والطوق الذى فى عنقه ، أنه تاجر أو حرفى .
وعلى منضدة القاضى وضعت سكين ، وخطاب مكتوب بالحبر ، مرفق به مستند مطبوع .

افتتحت الجلسة بسؤال من القاضى الى المتهم : قال له يا هذا ، أتعرف الآثار البعيدة المدى للكلام الذى قلته ، بل لاي كلام يقال ؟ فقال المتهم نعم ، وقال انه معروف فى كل مكان بأنه معلم دينى . وقد كتب رده هذا على الفور ، ككل كلمة قالها بعد ذلك ، بمعرفة شحاذا ضخيم انجثة اسمه مستر سميثى كان معروفا جيدا للقاضى الاعظم بقدرته الفائقة على التسجيل الدقيق . فقد كان ذات يوم يقوم بتسجيل النقود التى يكسبها انيسكرى يدعى فيوكومبى ، عندما امتهن فيوكومبى ذاك مهنة الشحاذة .

كان السؤال التالى الذى وجهه القاضى الاعظم للمتهم هو هل يعترف المتهم بأنه قام بتحريف الحقائق فى الحكاية التى ساقها على سبيل الكناية ، وأنه قام أيضا بترويج تلك الاكاذيب ؟

فإنفعل المتهم ، واعترض مهتاجا على تلك الاتهامات وقال ما هذا ، الكل يعرف أن المرء يستطيع بشيء من النشاط وحسن التدبير أن يجعل الجنيه الواحد خمسة أو حتى ستة .

وعندما سئل أى نوع من التدبير قال - معترفًا - أنه لا يهتم لهذه الأشياء العملية ، لكنه يعنى التدبير العادل ، التدبير المناسب . فلما ضيق عليه الخناق قال وهو يهز كتفيه والله لا أعرف ، التدبير - حسن التدبير والسلام ، فانا لا أتعب رأسي بهذه الجوانب المادية وافتفاصيل العملية ، ولهذا فان معرفتي بها محدودة للغاية .

فجدجّه القاضى الاعظم بنظرة فاحصة ليرى مدى صدقه ، ثم خبط على المنضدة بجمع يده حتى طارت السكين الصاعدة . والخطاب معها ، فى الهواء . لكنه لم يقل شيئًا ، بل استطرد فى استجوابه للمتهم قائلا :

- اسمع ، المفروض أنك قلت ان الناس جميعا بلا استثناء ، لا بعضهم فقط يتسلم الواحد منهم جنيته . وأحب أن أنبهك ان هذه هى النقطة الاساسية فى أساسيد الادعاء ضدك .

وهنا اعترف المتهم بأنه قال أشياء كهذه ، وقد بدت على وجهه الدهشة لكون تلك الكلمات مهمة الى الحد الذى يجعلها لب الموضوع فى اتهامه ، فاستطرد القاضى الاعظم بهدوء :

- اذن قل لنا من قال لك أن كل انسان على الارض يتسلم جنيته هذا ، ثم يستثمره فيجعل جنيته خمسة بل عشرة ؟ فقال المتهم ما هذه الضجة ؟ كل الناس يقولون ذلك . وقد قال هذا ببطء لانه ظل شاردا الفكر يعجب فيما بينه وبين نفسه كيف أصبحت هذه الكلمات لب الموضوع .

قال القاضى بصرامة :

- اذن سنستدعى الذين قالوا لك ذلك ، ونستجوبهم . ثم قزع جرسا مما يستخدم فى دعوة الناس الى المائدة ، فظهر من وراء الغسيل عدد من الناس يرتدون ثيابا كثياب المتهم وأطواقا من السيلواهيد فى أعناقهم مثله ، والحقيقة انهم كانوا كلهم من معارفه وأصدقاء شبابه ، وجيرانه ، ومعلميه ، وأسياده ، بل وأقاربه .

وقفوا امام القاضى فتم استجوابهم .

قالوا جميعهم انهم تسلموا جنياتهم . وان الجنيه كناية عن الفهم الذى انعم به الله عليهم ، واجادتهم لمهنة أو حرفة ما ، وجددهم واجتهادهم .

فسأل القاضى :

- وهل كان لديكم شىء آخر غير هذا ؟
وهنا اعترف أحدهم أنه كان صاحب ورشة نجارة . ثم تبين انه
والد المتهم .
وقال آخر انه ، بفضل نقود ابويه ، تمكن من أن يتعلم فى مدرسة .
كان ذلك الاخير مدرس المتهم .
وقال ثالث انه ورث دكان يقال ، وكان من جيران المتهم .

وبينما الشهود يقولون ذلك ، أخذ القاضى يهز رأسه هزة عارف
عليم ، وكأنه كان يتوقع كل ما قيل أمامه ، ولا شىء سواه ، ثم نظر
الى الكلاب التى كانت تحاول الخروج من وراء القضبان وضحك منها ،
دون ان يتول لها شىئا .
ثم قال للشهود :

- اذن فجنية المتهم ليس كل شىء . اذن فهناك الكثير غير هذا
الجنية ؟ والان هل احسنتم استخدام جنيتهم ؟ هل قمتم بتسميته ؟
فأكلوا جميعا بأصوات مرتفعة انهم فعلوا ذلك وأكثر ، أنهم تاجروا
واستخدموا جنيتهم بأقصى ما سمحت لهم قدراتهم ، وأنهم حافظوا
على ما أعطى لهم ، وضاعفوه ، بل وربوا أطفالا وأعطوا كلاً منهم
جنيتها .

ضحك القاضى فى اتجاه الكلاب ثانية ، ثم وجه قوله الى المتهم من
جديد فسأله هل قابل أناسا آخرين ، أناسا لم يتسلموا من أحد
الجنية الذى تسلمه هؤلاء الشهود .
فهز المتهم رأسه .

وهنا قرع القاضى الاعظم جرس الطعام ثانية ، ومن وراء الفسيل
المنشور ظهر أناس آخرون . كانوا أسوأ لباسا من سابقهم ، يسرون
بكلال يناقض نشاط الآخرين .
فسألهم القاضى :

- من أنتم ، ولم تخلفتم عن الظهور أمام المحكمة مع هؤلاء السادة
الشهود ؟

فتبين ان هؤلاء الناس كانوا خدما واتباعا لمن ظهروا امام المحكمة
قباهم . قالوا كيف ؟ هل تبلغ بنا القحة أن نقف جنبا الى جنب مع
اسيادنا ؟

فسألهم القاضى .

- تعرفون المتهم ؟

قالوا نعرفه . هذا الرجل كثيرا ما تحدث اليينا . كثيرا ما قال
لنا ، بين ما كان يقوله من أشياء عديدة ، ان كل انسان يتسلم من
العلي القدير جنيها ، وان ذلك الجنيه ليس عملة نقدية بالمعنى المفهوم ،
لكنه قوى روحية وجسدية يهبها الله لعبده لينميها العبد ويحسن
استخدامها . قالوا هذا كله سمعناه من فم هذا الرجل .

سألهم القاضى :

— اذن فهو يعرفكم انتم ايضا ؟

قالوا طبعا يعرفنا ، فاضطر المتهم ان يعترف بأنه يعرفهم .
قال لهم القاضى بصرامة :

— يا هؤلاء . هل ضاعفتم جنيهمكم ؟

فتراجعوا امامه رعبا وقالوا كلا يا سيد لم نضاعفه .

— وهل رأى هذا المعلم ان جنيهمكم لم يكن يتضاعف ؟

عندما سألهم القاضى هذا السؤال لم يدروا فى أول الامر بم
يجيبون ، لكن واحدا منهم تقدم بعد وقت . كان صبيا صغيرا ، الخالق
الناطق ذلك الصبي حرامى الرغيف الذى اوقعه العسكري فيوكومبى
امام دكان الخباز ، بأن وضع طريقه ساقا من خشب . واجه
القاضى بشجاعة وقال بصوت مرتفع :

— لا بد انه رأى ذلك ، طالما هو يرانا ، لاننا كنا نتجمد برذا ،

عندما يبرد الجو ، ونموت جوعا طيلة الوقت ، سواء اكلنا أو لم نأكل .

لم لا تنظر بعينى رأسك لترى أن كنا قد ضاعفنا الجنيه اللعين أم لم
نضاعفه ؟

وهنا وضع الولد اصبعين فى فمه وصفر ، فخرجت من وراء
الفسيل المنشور امرأة مبتلة أكثر من قطع الفسيل المنشورة لتجففها
الريح ، وكانت تلك المرأة تدعى ماري سوين ، او امرأة تشبهها تمام
الشبه .

شب القاضى فى مقعده ومال الى الامام ليرى القادمة بوضوح ، ثم

قال لها بصوت مرتفع :

— ماري . قولى لنا هل البرد شديد فى المكان الذى جئت منه

لتوك ؟ اظنه شديد البرودة .

ثم ادرك أنها متعبة لا تكاد تقوى على الوقوف بعد أن سارت ذلك

الشوط الطويل فقال لها :

— اجلسى يا ماري اجلسى . فقد مشيت طويلا .

فتلفتت ماري حولها باحثة عن مقعد تجلس عليه ، لكنها لم تجد مقعدا .

فقرع القاضي الاعظم جرسه من جديد ، وللغور تساقط البرد ، ولكن بغير غزارة : ما يكفي فقط ليصنع كومة من الثلج تجلس عليها المرأة الغريقة . انتظر القاضي حتى توقف سقوط الثلج وقال لها :

- ستجدينه مثلوجا بعض الشيء ، ثم عندما يدفأ سيذوب ، فلا يعود هناك ما تجلسين عليه ، واذ ذلك ستضطرين الى الوقوف ثانية . آسف . لكن لا تستطيع لك شيئا غير هذا .

ثم التفت الى شهوده الجدد ممزقي الثياب وقال لهم :

- طيب . تنورت المحكمة . عرفنا انكم القيمم خارجا ، حيث الظلمة

وصرير الاسنان .

فقال واحد منهم وقد استرد شجاعته :

- لم نلق خارجا . لاننا لم نسمح لنا بالدخول اصلا .

أخذ القاضي يتأملهم مفكرا ، ثم التفت الى المتهم . قال له :

- موقفك يبدو سيئا يا صاح . لا بد ان تستدعي لك شخصا يدافع

عنك . لكنه يجب ان يكون ملائما لك .

قرع الحرس ، فخرج من البيت رجل قمى ذو سحنة كريهة .
غمغم القاضي :

- انت الذى ستتولى الدفاع عنه ؟ اذن قف وراء المتهم .

عندما وقف الرجل القمى وراء المتهم امتقع لون ذلك الاخير . أدرك

القاضي ينوى به شرا ما دام قد أعطاه ذلك المحامى .

أخذ القاضي الاعظم يشرح الموقف بعد ذلك . قال ان المحكمة تقبل

ما قاله المتهم من ان الجنية موضوع المحاكمة يمكن ان يحسن

استخدامه ويمكن ان يضاعف ، وان اولئك الذين لا يستخدمونه يلقي

بهم خارجا حيث الظلمة والنواح وصرير الاسنان . اما ادعاؤه بان الكل

يحصلون على ذلك الجنيه بالعدل والقسطاس فتجده المحكمة ادعاء

كاذبا لم يقم عليه أى دليل .

ثم التفت الى المرأة الغريقة ثانية وقال لها

- يا ماري سوير يا بنيتى . لقد وقعت اتفاقا مع مستر ماكهيث .

هل فى ذلك الاتفاق نص يقضى بالافتتاح أية محلات جديدة كمحلك فى

الجيرة التى تزاولين تجارتك فيها ؟

فكرت المنتخرة لحظة ثم قالت :

- كلا .

- ولم لم تلاحظي ان العقد خلو من مثل ذلك النص ؟

- لا ادري يا فيو .

فقرع القاضي الاعظم جرسه ، وخرج من بين الغسيل رجل طويل نحيل يمسك بيده عصا كان ذلك الرجل المعلم الذي درست المنتحرة على يديه أيام كانت تذهب الى المدرسة .

قال له القاضي بنبرة اتهام :

- لم لم تعلم تلاميذك القراءة يا رجل ؟

فنظر الرجل الطويل النحيل الى المنتحرة بحدة وقال :

- انها تستطيع ان تقرأ .

فصاح القاضي وقد تملكه غضب شديد :

- لكنها لا تستطيع قراءة العقود . العقود يا غشاش !

قال المدرس متألماً وكأنه قد أودى في احساسه :

- هل يتصور سيادة القاضي ان تلاميذي الذين يأتون من جحور

وايتشابيل يحتاجون الى أن يتعلموا قراءة العقود ؟

نم دمدم قائلًا :

- أولاد الحرام ! يكفيهم ان يتعلموا كيف يكون العمل بجد ونشاط ،

فلا يكونون بحاجة الى قراءة أية عقود .

فباغته القاضي بهذا السؤال :

- ما معنى اتحادي ؟

قال المدرس مندهشًا :

- تحالفي . ولكن ما دخل ذلك في الامر ؟

فقال القاضي مسرورًا :

- تماما . تحالفي . وما معنى اتيكيا ؟

فلزم المدرس صمتا عنيدا .

بدت خيبة الامل على القاضي . لكنه التفت الى المتهم الذي وقف

بوداعة وقد تدلى رأسه على صدره ، فقال له :

- وأنت . هل تعلمت في مدرسة ؟

فلما هز الرجل ذو الطوق السيلولويد رأسه ايجابا ، قال له

القاضي :

- اذن ما معنى اتيكيا ؟

لكن الرجل لم يكن يعرف ، فحاول المدرس ان يخبره بمعنى الكلمة

خلسة ، اذ بدا له من غير المقبول ان يكون المتهم جاهلا .

فقال القاضي للمتهم :

- نعم . توقعت الا تعرف . معارفك محدودة للغاية .
لكن الرجل القمى الذى يقوم بالدفاع عن المتهم تدخل عندئذ
وصاح قائلاً :

- كان يعرف ما فيه الكفاية . كان يعرف ما فيه الكفاية بالنسبة
الينا .

فغمض القاضى بخنوع مفاجئ ، بدا أنه استجابة آلية لديه أحدثها
صراخ الرجل القمى ، ثم دق جرسه ، فخرج من بين القسائل
رجل نحيل معروق يرتدى مئزورنادل ، تقدم حتى مثل بين يدي
القاضى . كان الرجل الذى ضحك على العسكرى فيوكومبى ، وباعه
مشرب الجعة ، فسرق منه التعويض الذى منحته اياه حكومة صاحبة
الجلالة ثمنا لساقه .

قال القاضى :

- هل يستطيع هذا الرجل أن يقرأ ؟

كان السؤال موجها الى المعلم ، فنظر هذا الاخير الى الشاهد ،
وتعرف عليه كأحد تلاميذه السابقين ، وأوما برأسه الكبير . فقال
القاضى ، مغضبا ، الى الشاهد :

- لكنك ، فيما يخصنى ، نسيت أن تكتب فى عقد بيع ذلك المشرب
أنه لا يرتاده أحد الا اذا كان هناك عمال بناء يعملون فى المنطقة .
فأجاب الرجل قائلاً :

- أكتب ذلك ! وكيف أكتب ذلك ؟ لم يكن لدى مايكفى من المال
عندما اشتريت ذلك المشرب اللعين ، وقد ساق الى الحظ شخصا
عديم الخبرة يشتريه فيريحنى منه ، وأذ ذاك سددت ديونى وعدت
نادلا من جديد .

وهنا صاح القاضى وقد انتابه غضبه العارم مرة أخرى :

- اذن ظلم يكن بوسعه أن يكتب ذلك .

لكنه سرعان ماتحکم فى نفسه ، فلزم الصمت بضع لحظات .

وبينما الجميع وقوف ينتظرون سؤاله التالى ، هم القاضى واقفا ،
وذهب الى المعلم ، فسأله بلهجة ودية ، تكاد تكون خانعة ، ما معنى
أتىكا ؟ لم يكن قد وصل الى ذلك الحد فى تعليمه لان كتابه كان قد
أخذ منه . لكن المعلم نظر اليه ، ولم يقل شيئا .

فتنهذ القاضى الاعظم واستأنف المحاكمة : لكنه وقف حائرا ،
وقد بدا واضحا أنه لايدرى كيف يواصل نظر القضية . نظر الى
الشاهدة الرئيسية فوجدها قد عادت الى حياكتها التى لا تنتهى ،

وقد أخذت تعمل ابرتها بداب واصرار ، غرزة اثر غرزة ، رغم انها لم يكن بين يديها ماتحيكه ، لان توريد البضائع كان قد توقف ، ولهذا أخذت تحيك الهواء ، وليس في يدها قماش يتحول الى قميص بلبسه أحد .

قال القاضي متفكرا ، بصوت خافت :
- لو لم يتوقف توريد البضائع ، ولو لم يفتح ماكهيث ذلك الدكان الجديد . بجوار دكانك ، هل كان من المحتمل ان تنجصى في تجارتك ، وتضاعفى خنيهك ؟

قالت بكلال :
- ولم لا ؟ كنت استخدم فتاتين تقومان بالحياة .
فقال القاضي بسرعة :

- هذه نقطة بالغة الاهمية في القضية . لكننا لم نتقدم كثيرا في استجلائنا لهذه الفوامض . لم اكن اظن ان توضيح الامور صعب الى هذا الحد .

هم واقفا من جديد فذهب الى الكلاب ، التي أخذت تهز ذيولها وتحنيه فرحة ، وقد ظنت انها ستحصل اخيرا على طعامها . لكن المشكلة لم تكن قد حلت بعد .

نظر القاضي الاعظم الى الفناء الذى اصبح ساحة محكمة . هناك يقف شهود النفى ، اولئك الذين يقفون في جانب المتهم . اناس ممثلون ، تبدو عليهم النعمة ، يرتدون ثيابا جيدة ، المستقبل زاهر امامهم ، والنجاح يسير بين ايديهم . وفي الجانب المواجه لاولئك السادة يقف ذلك الحشد الزرى من الجياع ، المهلهلين ، الذين ادركتهم الشيخوخة قبل الاوان ، والمرأة الغريقة يسيل الماء لاينقطع من ثيابها ، جالسة على كومة الثلج ، تعمل ابرتها في الهواء ، تحيك بغير انقطاع ، والصبي وقد ضم الى صدره رغيف خبز ليس له وجود .

عندما عاد القاضي الى مقعده وهو يدب برجله الخشبية ، سر بجوار المتهم ، ففكر لحظة ثم قال له بصوت خفيض :

- الا تفهم الامر انت اذن ؟
لكن الرجل ذا الطوق السيلولويد هز كتفيه ولم يجد ما يقال .
فتشهد القاضي . قال :

- كل هذا الفرق . ولا سبب هناك ! ومع ذلك لايد ان هذا كله ذنب شيء ما . ولكن اى شيء ؟

وقف لحظة وقد تملكته الحيرة ، متسائلا عما اذا كان من المجدى
أن يجلس في مقعد القاضى من جديد . قال لنفسه :
- كل هذا بسبب جهلى . أنا اجهل من أن أقف على حقيقة أى
شئ بنفسى .

ثم تذكر فجأة السلطة التى اصبحت له ، فأسرع الى منصبه ،
وقرع الجرس بصوت أمر . وعلى الفور ظهرت من وراء الغسيل ،
صفا ، مجلدات دائرة المعارف البريطانية ، أربعة وعشرون لاتنقص
واحدا ، تسير بنظام ، وتؤدة ، مختالة ، سمينه ، ثم اصطفت أمام
القاضى كالجنود ، أربعة أربعة .

وجه اليها القاضى قوله بنبرة تنطق بالاحترام . قال :
- يا أصدقائى . هل تستطيعون أن تخبرونى بأى شئ ينورنى
فيما يخص السبب الذى يجعل البعض منا ، الاقلية منا تضاعف
خيراتها ، وتجعل جنيها خمسة بل وعشرة ، كما يعلمنا الانجيل أن
نعمل ، بينما الآخرون ، الغالبية العظمى ، لايزيدون فى خاتمة المطاف ،
بعد حياة طويلة من التعب والشقاء ، ولا يضاعفون بشقائهم شيئا ،
اللهم الا ذلك الشقاء وحده ؟ أى شئ هو يا أصدقائى جنيته محدودى
الحظ هذا الذى يحقق هذه الأرباح الهائلة كلها ، والذى تستمر
حولها ، فيما سمعت ، معركة ضارية لا تهدا ، مم جعل ذلك الجنيه ؟
كونت المجلدات الأربعة والعشرون حلقة فيما بينها ، وتشاورت ،
ثم تقدم واحد من بينها وقال بصوت مرتفع ، خشن ، ينطق بالاعتداد
بالنفس :

- قد أستطيع أن أنورك بعض الشئ بشأن رأس المال . المال
شئ يثمر مالا ، تماما كالبقرة الولود ، سواء كان موروثا أو مكتسبا ،
فكل من حازه أو تحكم فيه حصل من ورائه على ربح ، وفائدة .
هل تجد جوابا على سؤالك فى هذه المعلومة ؟
التفت القاضى الى ماري سوير ، فقال لها :

- وانت أيضا كان لديك مال ، اذا لم تخشى الذاكرة . أرجو أن
تفهمى . انا لا أسألك كيف حصلت عليه ذلك المال ، فذلك لايعنيننا
هنا . الذى يعنيننا أنك كنت تحتكمن فى قدر من المال . لم لم يثمر
ذلك المال ؟ لم لم يزد مثل مال غيرك ؟
قالت بغير اكترأث :

- نعم . كان لدى القليل منه . لكنه تبخر .
فقال القاضى بصرامة الى المجلد غالى الصوت :

- لم يكن كالبقرة الولود يا هذا ! هه ؟
فتقدم مجلد آخر وقال بصوت مرتفع :
- أنا أعرف شيئا عن قوة العمل . عندما يبذل أحد بعضا من تلك
القوة فى صنع شيء ، يصبح ذلك الشيء ذا قيمة . فالاحجار ليست
كبيرة القيمة ، لكن البيت المبني من الاحجار له قيمة كبيرة ، ان كنت
تفهم ما أعنى .

فقال القاضى بكلال وضجر :
- اوه ، هذا ، هذا ! هذا لا يمكن ان يكون السبب . فكلنا لديه تلك
القوة . وكلنا يعمل . لكن كل مايبذل تلك القوة فى عمله اما انه
لايصبح ملكا لنا ، فيكثر جنيتها الاخرين لاجنيهاتنا ، واما ان يظل
لنا فيقتل . أليس كذلك يا مارى ؟
وهنا تتابع المجلدات وكل مجلد يقول ما عنده ، عن الاختراعات ،
أو المقدره التنظيمية ، أو المخاطرة ، أو الحرص على المال . لكن أحدا
منها لم يستطع أن يوضح تماما مقومات الجنيه الذى يحوزه مجدودو
الحظ .

فطلب القاضى من مجلداته أن تنسحب ، وقد ازدادت حيرته ،
واشتد قلقه عن ذى قبل .
نظر الى الشاهدة الرئيسية ، مارى سوير ، الخياطة . ثم غمغم :

- لا بد أنها ولدت تحت برج منحوس .
رفع جرسه ، فتقدم البرج من وراء الفسيفساء وقد بدا عليه
الامتعاض . قال له القاضى :
- هل دخلت حديثا فى مجال برج الميزان أو أى شيء من هذا
القبيل ؟

ففكر البرج لحظة ثم قال لا . لم يحدث . فقال القاضى :
- طيب . اذا كنت قد دخلت فى مدار برج الميزان ، أو مدار أى
برج غيره ، هل يكون لذلك فى رأيك أى تأثير سيئ على اعمال مسز
سوير ، فيهدد دكانتها حرف « ب » بالافلاس ؟
فأنكر البرج ذلك محتدا ، وقد بدا أنه أهين بهذه التلميحات
الحمقاء اهانة لا تفتقر .

- اذن فأنت لست مسئولاً ؟ لادخل لك فى الامر ؟ اذن فالمسألة
ليست مسألة حظ ؟

فقال البرج مغضبا :
- ما هذا الهراء ؟ أى غيبى قال ذلك ؟

صرفه القاضي ، وقد ازدادت حيرته • جلس منكسا رأسه حتى لصقت ذقنه بصدرة ، محملا أمامه بنظرة شكسة •

ساد السكون برهة ، ثم تملل الشهود • قال شهود الاثبات :
- يجب أن ننصرف الآن • لن نكتشف أبدا الجواب عن سؤالك •
فالامر مرجعه عدم المساواة ، وكون الآخرين أبرع منا بكثير •
فالتقط محامي المتهم الكلمة من أفواههم ، وقال وهو يزيح قبعته الى الورا حتى تستقر على قفاه :

- عدم المساواة • عدم المساواة ياسيدي القاضي • انظر الى الفرق بين رجل له ساق خشبية ، ورجل اعمى بغير ساقين •
الفرق بينهما يكون عظيما • • وهو مايتضح أثره من الناحية المالية يا عزيزي فيوكومبي •
أصغى القاضي بانتباه شديد ، وقد بدا أن كل كلمة من كلمات المحامي تثير اهتمامه •

قال المحامي بازدراء •
- ناد على بيرى ، مدير أعمالى • انه ابن عامل من عمال مناجم

الفحم •
فكر القاضي فى الامر لحظة ، ثم قرع جرسه ، فظهر بيرى •

اعترف ، دون أن يسأله أحد ، أن لديه رصيذا فى البنك •

قال المحامي •
- انه يعرف السر • يعرف كيف يستغل الآخرين • هذا كل ما

فى الامر •

بدأ شهود الاثبات يزمجرون

فصاح فيهم القاضي موبخا :

- صمتا !

ثم وقعت عينه على الاشياء الموضوعه على المنضدة - السكنين والحطاب • فهم واقفا - ودار حول المنضدة ، ووقف موقف الشهادة • ثم قال :

- لقد تسلمت هذه السكنين • فكانت هى جنيهى •

ثم دار حول المنضدة بسرعة ، فوقف موقف القاضي قال :

- هذه نقطة اخرى بالغة الاهمية فى القضية • وأنت يا مارى

ماذا تسلمت ؟

فقال مارى وقد فهمته ، وبذلك ساعدته على التقدم خطوة :

- وأنا تسلمت هذا الحطاب ، فكان جنيهى •

- هذا الخطاب يقول أنك تعرفين أشياء عن مخدومك كفيلة بأن ترسله الى السجن . هذا ابتزاز ، أليس كذلك ؟
قالت :

- نعم .

فغمغم القاضي بشرود ذهن :
- نعم ، هذا جنيهك . هذا هو الجنيه الذي يعطى لنا . السكين؟
خطاب التهديد ؟ لكن ، ما هو جنيهم ؟
جلس في مكانه ، رأسه مسند بين كفيه ، وقد بدا غارقا في اليأس . تأوه قائلا :

- ومع ذلك كله مازال الامر مستغلقا ! دكاكين حرف « ب » ،
وتلك الناقلات التي تغرق . أرباح ! من أين يأتي كل ذلك حقا ؟
كل تلك الفرص الرائعة ، وتلك الحروب ، كل هذا الظلم ، وانعدام
المساواة . كيف يتوصلون الى كل هذا ؟

لكنه رأى بيري واقفا أمامه ، فخطر له خاطر ، واستدار الى كاتب
الجلسة ، مستر سميثي ، الذي كان مخدومه ذات يوم ، فقال له :
- قل لي ياسميثي . لو كنت قد استطعت الاحتفاظ بي كمستخدم
عندك ، هل كنت جريا بأن تنجح في الحياة ؟

فقال سميثي :

www.library4arab.com

وهنا قال القاضي وصوته يرتعد من فرط إثارة :

- اذن فقد اتضح كل شيء . الآن عرفنا ما هو جنيهمكم ياسادة .
قضى يا ماري . تقدمي . وأنت ياسميثي ، أذهب فانضم اليهم .
ثم استدار الى أقارب المتهم وقال لهم بنبرة انتصار :

- هذا جنيهمكم يا سادة ! نحن جنيهمكم . الانسان هو جنيه
الانسان . من لم يكن تحت يده انسان يستغله ، يستغل نفسه !
لقد انكشف السر ! كنتم تخفونه عني ! ها هو البيت . ولكن أين
البناء ؟ هل يدفع له أجره أبدا ؟ وهذه الورقة . شخص ما كان
يجب أن يصنعها ! هل دفع له أجر كاف عنها ؟ وهذه المنضدة !
أليس هناك دين مازال معلقا في عنق البعض للرجل الذي صنعها ؟
وهذا الغسيل المنشور على الجبل . والجبل ذاته . بل والشجرة
ذاتها ، التي لم تزرع نفسها . وهذه السكين ! هل يدفع ثمن كل
شيء لمن يصنعه ؟ هل يدفع كاملا ؟ كلا طبعاً ! يجب أن نرسل خطابا
دوريا : كل من لم يتسلم حقه كاملا يتفضل بإرسال اسمه وعنوانه

كتب التاريخ والسير والتراجم لا تكفى . أين قوائم الاجور ياسادة ؟

ثم استدار الى المتهم وجأر بأعلى عقيرته :
أنت مدان ! لا شيء الا الكذب والتزييف ! لقد نشرت الاكاذيب
ولهذا فاني أدينك ، وأحكم عليك ! كشريرك فى الجرم ! لانك اعطيت
الناس هذه الحكاية عن جنهك الشهير هذا ، وهى فى ذاتها جنه !
جنه يمكن أن يحقق لمن يحسن استخدامه ربها . وكل من يروجونها ،
كل من يجرعون على تداول أشياء كهذه ، أنا أدينهم أيضا ! وأحكم
عليهم بالموت . بل وسأذهب الى أبعد من ذلك . كل من يصغى لهذه
الاكاذيب ويمتنع عن اتخاذ اجراء عاجل ضد مروجيها ، أدينه أيضا
وحتى أنا . لانى استمعت الى هذه الاكاذيب طويلا ولم افعل حيالها
شيئا ، أدين نفسى . وأحكم على نفسى بالموت !

ثم جلس على مقعده ، غارقا فى عرقه .
بعد أيام قليلة ألقى القبض على فيوكومبى . وكم كانت دهشته
عظيمة عندما وجهت اليه تهمة قتل المرحومة ماري سوير . لكن
دهشته لم تجده شيئا . فقد حوكم ، وأدين ، وحكم عليه بالموت ،
وشنق من رقبته حتى مات . . . بين حشد عظيم من المتفرجين كلهم
من أصحاب الدكاكين ، والعاملات ، والجنود الجرحى ، والشحاذين .

www.library4arab.com

تمت

www.library4arab.com

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

M. Miguel Maccul Cury,
B. 23 de Março, 94
Caixa Postal 1111
Sao Paulo, BRASIL.

www.library4arab.com

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopstrophe Road
London S.E. 26
ENGLAND.

انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)



هذه الرواية

استمرت روايات الهلال في الشهر الماضي الجزء الأول من « رواية البنسات الثلاثة » وهذا هو الجزء الثاني من هذه الرواية الهامة ، وهي الرواية الوحيدة التي كتبها الأديب الألماني الكبير بريخت (١٨٩٨ - ١٩٥٦) وقد كتب بريخت هذه الرواية بعد أن كتب « أوبرا البنسات الثلاث » ليقدم نفس المادة - مع التوسع والتعمق - في مجالها ، وكان هذا الكتاب من أشهر أعماله العالمية . أما بريخت نفسه فهو كاتب معروف بملكته العالية الواسعة وتأثيره الوجداني والفكري الكبير على جماهير القراء ، وقد أصبحت مسرحياته من أكثر المسرحيات شهرة ونجاحا في شتى أنحاء الدنيا ، وذلك بما تحمله من فن جميل وفكر عميق واحساس غامر بوسالة الإنسان في هذا العالم ، وهي الرسالة التي تحصل منه في نظر بريخت مصدرا للخير والعدل والجمال في هذه الحياة . ولقد كان بريخت إلى جانب ما قدمه للفن الإنساني من روائع - أسانا مناصلا وقف ضد هتلر والنازية ، واضطر أن يعثر في المنفى . . في أمريكا حتى انتهت الحرب العالمية وانهارت النازية تحت ضربات المقاومة التي ثارت ضدها في كل مكان . وهذه الرواية التي نقدم اليوم جزءها الثاني والآخر تعكس أفكار بريخت وآراءه المختلفة في الحياة والإنسان والعدل والحرية .

إنها رواية إنسانية رائعة وممتعة يسعدنا أن نقدمها كاملة لأول مرة في المكتبة العربية.